



• سمو المعنى في سمو الذات
أو
أشعة من حياة الحسين عليه السلام

طبعة جديدة

١٩٨٦

عبد الله العلايلي



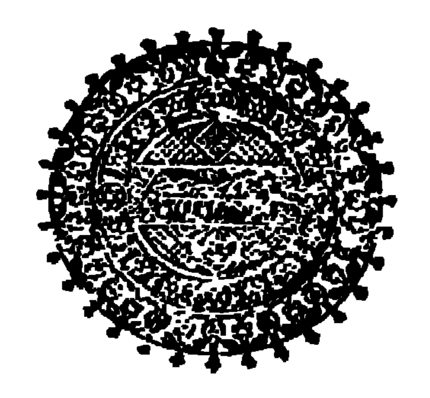
الإمام الحسين

الحلقة الاولى

دار مكتبة التربية
بيروت

فهرست

★ ★ ★



الامام الحسين (ع)

الحلقة الأولى

سُمُوُّ المعنى في سُمُوِّ الذات

أو

أشعة من حياة الحسين عليه السلام

مقدمة الطبعة الثانية

لم يكن عندي شك في أن هذه الآراء التي علقت بها على حكومة الخلفاء ، ستلاقي استنكاراً من قوم ومعتبة من قوم آخرين . بيد اني كنت مع ذلك مطمئناً الى أنها سوف لا تعدم طائفة تركن اليها وتسيغها وترتاح الى ما فيها من الشرح والتفسير .

وكان الذي حرضني على أن أخرج للناس ما انتهيت اليه رغم شعوري بأنه لون ناب في دراسة التاريخ عند فئة أو فئات أن المرحلة الاولى من مراحل التاريخ الاسلامي يجثم عليها الغموض من أقطارها فتثير لدينا فضولا أو تساؤلا في معنى الفضول ، وان من حق هذه المرحلة أن تحقق كثيراً وتدرس كثيراً . لأن نسبتها من التاريخ الاسلامي العام كالنواة ؛ وبذلك لا نطمع أبداً أن نفهم روح الاتجاهات المختلفة التي دفعت المجتمع الاسلامي الواسع وسيرته وهو كتلة ضخمة في عصور وأجيال . الا اذا توفرنا جيداً على درس هذه المرحلة . وحللنا حوادثها وشخصنا عوامل الاضطراب فيها .

ولقد حققت كلمة فكرة الإمام عبد الكريم الشهرستاني التي ضمنها كتاب (الملل والنحل) : من أن كل التبلبلات التي مرت بالتاريخ الاسلامي سواء في العقيدة أو السياسة ؛ يمكننا أن نجد لها مرتجعاً ومرداً في حوادث صدر التاريخ .

وهذه فكرة لا ريب في أنها نيرة للغاية وموفقة للغاية ، ومن ثم يظهر مقدار

قصور الدراسة التي بين أيدينا ، لأنها لم تحقق هذه الصلة المذكورة ، فهي تقوم على أساس غير صالح وتجعل سبباً ما ليس بسبب صحيح .

فيجب علينا اذن ، أن نعنى كثيراً ونبحث كثيراً في صدد تاريخ الخلفاء ، وان ندرس كل الاحتمالات التي تقوم على وجه قريب حتى يتسق لنا ادراك الاوضاع المناسبة لفرض تسلسل التاريخ الاسلامي العام . وهذا ما نهدنا اليه في كتابنا عن الحسين . والذي اوردنا منه في الحلقة الاولى بعض نظريات برسلة لم نعن بتحليلها الا على وجه سريع : (وكيفما كان فنحن لم نقصد الا بسط رأي جديد بين يدي موضوع لم يتوضح بعد . وما أحرى أن تثار من حوله طائفة من الابحاث ان لم تكشف عنه فلا أقل من أن تميط من غموضه . كما جاء في كتابنا «مقدمة لدرس لغة العرب» .

وها هنا بحث مهم يجب أن ننبه عليه . وهو أن التاريخ ليس [1] علماً فيجب أن يصطنع فيه الاسلوب اليقيني الذي نعهده في بحث الطبيعة والكيمياء. وما اليهما مما يجيء عادة في جريدة العلوم التي وضعها (اوغست كنت) . وانما ينظم في نسق الآداب التي هي نتاج القوة النظرية والبحث الاستنتاجي . لما يدخله من صور الجماعات . والانفعالات والمؤثرات النفسية والاقتصادية . نعم يقوم اليوم نفر من المؤرخين بجرّه الى الحقل العلمي ، غير انهم مع ذلك يتمهلون ريثما تثبت مسائل العلوم التي هي كالمقدمات بالنسبة له كالاجتماع والنفس وعلوم الحياة . فما لم يكشف عن السنن والقواعد التي تحقق علاقة للفرد بالمجموع الذي يتبعه وعلاقة ذلك المجموع بالكل الاجتماعي . ويفصحوا عن حقائق التطور الاجتماعي وضوابطه، والانفعالات وبواعثها . والمشاعر وتشعب مناحيها . فلن يصبح التاريخ علماً . وعلى هذا يقول (جوته) : ان التاريخ يجب أن يعاد تدوينه والنظر فيه من حين الى آخر . لا لأن حقائق كثيرة تكون قد عرفت على مر الايام . بل لان أوجهاً من النظر قد تظهر في أفق البحث العقلي ، ولأن المعاصرين الذين هم ذوو

---

(١) راجع هذا البحث بتفصيل في كتاب معضلات المدنية الحديثة للاستاذ مظهر ص ٨٢ إلى ١٢٣ .

ضلع كبير في تقدم عصورهم وارتقائها يساقون دائما الى غايات ينتهون بها الى حيث تصبح ذات صبغة يقتدر بها على تدبر الماضي والحكم عليه بصورة لم تكن معروفة من قبل)

ومثل التاريخ من الوجهة التحليلية ، مثل التحقيق القضائي في دعوى غامضة مر عليها الزمن ودخلت في حيز الماضي ، فلن تكون نتائجه الا استنتاجية خالصة .

وأنا وان كنت اميل الى الاخذ بالتاريخ مأخذ الوضع العلمي ، فلم أزل أعتقد بأن التاريخ رغم ما سيبذل فيه من الجهود لن تكون له الصفة العلمية الا في الاسلوب وطرائق البحث ، وأما من حيث الموضوع فسيظل فرعاً من الآداب . وبهذه المناسبة أذكر بأن بعض[1] الكبار من علماء التاريخ في العصر الحديث قدم بحثاً ضافياً الى المؤتمر التاريخي الذي انعقد في بروكسل ، يدور على الشك في وجود سقراط الحكيم اليوناني الذي اكتسب من كثرة ما ندرسه وجوداً محققاً كأنه يشاركنا الحياة أو يعاطينا أسباب الوجود .

ولست اريد أن أبلغ بما ذكرت الى استباحة هذه النزعة الخطرة في عرض التاريخ واعتبارها في تشخيص الحوادث والاسباب . وانما أريد أن أبين مدى انفصال وبعد التاريخ عن السنة العلمية والطريقة الوضعية . وعلى أي الاعتبارات في مجال هذا البحث الذي يأخذ العلماء به في تصنيف التاريخ فانه يحتفظ بحقيقة جوهرية ، وهي أنه ليس في مكنة أحد أن يقطع بأن التاريخ علم .

ولقد شاء بعض الباحثين أن يأخذ على هذا الكتاب بعضاً من نتائجه ، وكنت أود أن يدقق الموضوع قبل أن يرسل دراسة عليه ، وان كان في تدقيق الموضوع ما يوصله الى مجانبة كل ما هو معروف وكل ما هو محجب ، فان النزعة العلمية تفرض علينا أن نفتش عن الحقيقة وحدها دون التعلق بالملابسات . وأهم الموضوعات التي أثبت فيها مناقشته هي :

---

(١) راجع كتاب من بعيد للدكتور طه حسين ففيه حكاية ما دار في هذا المؤتمر اذ كان مندوباً عن مصر .

(١) استنكار النتيجة التي قررناها من أنه لا وجود للسلطة القضائية بالمعنى الحديث في حكم بني أمية . رغم أن كل صفحة من تاريخ الامويين تنطق بالسياسة الدموية النفية من السلطان القضائي . وقد أوضحت في فصل انقلاب من الحلقة الثانية ، السياسة النموذجية في دوري العهد الاموي . وهي سياسة زياد في العهد الاول : وسياسة الحجاج في العهد الثاني .

(٢) معارضة النتيجة المتفق عليها بين دارسي التاريخ من أن معاوية اقتبس النظام البيزنطي وتلون به . وأنا لا أعلم اثنين اختلفا في صحة هذه النتيجة حتى معاوية نفسه اعتذر عن بيزنطيّة مظاهره الى سيدنا عمر (ض) حينما ورد الشام بأن جواره لهم يقضي عليه بمجاراتهم .

ونحن اذا علمنا أن العرب دخلوا الشام صلحاً وورثوا شعب البيزنطيين ونظمهم في الادارة وطرائق حكمهم . لم يعد تأثر الامويين بنوع هذا النظام مما يحتاج الى البرهان . وعن هذا الطريق علل بعض مؤرخي الشرائع من المستشرقين تأثر الفقه الاسلامي بالفقه الروماني .

(٣) مناقشة رأيي في أن هناك علاقة بين الاختلاف على البيعة يوم السقيفة وبين حركة المرتدين : بأن مثل هذا الاختلاف يقع في أي بلد من البلدان الجمهورية اليوم ولا يؤدي الى خروج أو تمرد . ولكنه غفل عن وجه الفارق بين النظيرين : فان أحدهما يقع في محيط قبلي ليست بين أطرافه أربطة اجتماعية متينة . والآخر يقع في جو حضاري يفقه جيداً الفكرة الشعبية ويحافظ عليها وينزل بكل اختلاف دونها فلا تتأثر به .

(٤) استنكار توجيه الاتهام الى الامويين بأنهم أصحاب اليد في الانقلاب . وهنا أرسل تعميمات صحيحة قبل أن أقول كلمتي : وهي أن حكومة الخلفاء كانت اسلامية عامة أي انسانية صهرت فوارق الجنس ، ومن هذا يظهر أنها طلبت أن تضم الشعوب وتنتظم بني الانســان في نسق قبل أن تمر بالدور

القومي والقاري [1] . فكانت حكومتهم طفرة من الدور القبلي الى الدور الشعوبي الانساني الذي هو أسمى ما تبلغه المسحة الحكومية . لذلك كان طبيعياً أن تصاب بنوع من الجذر وأن تدخل في التفاف يعود بها الى النشوء الطبيعي : فقامت الدولة الاموية لتعبر عن القومية العربية . وقد أظهرت نوعاً من الكفاءة العربية في في الدولة . وكان كل ما يؤخذ عليها في قاعدة سياستها الداخلية — عدا ما ذكرنا من انتفاء السلطة القضائية — المبالغة في التعصب للقومية في حدود دين يتنادى ليجمع البشرية في حدوده .

من هنا نقع على انهم سعوا وفق برنامج خاص الى الانقلاب الاجتماعي والسياسي في أسلوب الحكم وقاعدة الدولة .

(٥) معارضة رأيي في الامويين وانهم الذين اغتالوا عمر (ض) أو سببوا اليه . وقد بُسطت الكلام عليه في الحلقة الثانية .

بقيت انتقادات تدخل في حد المآخذ اللغوية منها :

(١) استبدال تعبير (ثم ان هذه الجوانب) بتعبير (ثم هذه الجوانب). رغم انه خارج مخرج قوله تعالى (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون)

(٢) كلمة (انتشر) خطأ لغوي في المعنى المسوقة عليه . وأنا أراهامن أطرف التعابير وأصحها ، وذلك لأن اللازم اذا عدي بحرف من الادوات يكتسب معناه أيضاً . ويفيد معنى جديداً بطريق التضمين . ويحسن بدارسي العربية أن يعودو الى كتابنا (مقدمة لدرس لغة العرب) ففيه بحث نادر عن أسرار التعدية واللزوم وأصولهما .

---

(١) لي رأي خاص في التكتل الاجتماعي وتسلسله اذكر طرفاً منه هنا وهو :
أن الانسان بعد التجانس الفطري ، يدخل في دور تنافر اجتماعي يكون اولا قبلياً فاقطاعياً فقومياً فقارياً — نسبة إلى القارة من مثل ادعاء اليابان بالجامعة الاسيوية — فانسانياً حينما تتهذب الغرائز وترتقي الادبيات العامة .

(٣) كلمة (بعثرة) التي ورد فعلها في القرآن بنفس المعنى : فلا جناح أبدا عند اللغويين اذا ضمن المشتق معنى المشتق منه .

لذلك لم أجدني في حاجة الى تغيير شيء عن موضعه ومنزلته ، وأنا أخرجه اليوم كما أخرجته من قبل واثقاً بنتائجه مطمئناً اليها حتى يظهر خلافها . ثم لا أقول هنا الا ما قلت هناك في تصدير الحلقة الثانية :

(لا تمنعني غرابة رأي أظن انه صحيح أو اعتقد صحته من ابدائه ، لأن الشهرة لم تعد أبداً عنوان الحقيقة . وأيضاً لا يحول بيني وبين رأي انه قليل الانصار ، لأن الحق لم يعد ينال بالتصويت . فان الانتخاب من عمل الطبيعة وهي لا تغالط نفسها كما لا تعمد الى التزوير .)

١٥ شعبان سنة ١٣٥٩ — العلايلي

بسم الله الرحمن الرحيم

الفاتحة

أنتَ نَجمُ الهدَى لَمعْتَ في الدَّيْجُورْ ، فَقَبَساً مِنْ ضِياكْ
وتَركْتَ في الأفْلاكِ مِشْكاةَ النُّور ، فَشُعلَةً من سَنَاكْ
وَنَثَرْتَ في الآفاقِ نُوَّارَ الزُّهُور ، فَملابَساً[1] من شَذَاكْ
وَخلَفْتَ في السَّماءِ رَوْحاً وعلَى الأرْضِ الحُبور ، فلَمحةً من بَهاكْ

* * *

عرَضْتَ في الحياةِ كما يَعترِضُ نَجمٌ في الآفاق ، فيابهْجةَ مرآكْ
ومَرَرْتَ كَسهْمِ النّورِ في ائتلاقٍ ومَحاق ، فيالَهْفَ سَفَاكْ[2]
وتَناهيْتَ كنَغْمَةِ السّحَرِ العَبّاق ... ، فما أشْجَى صَدَاكْ
فأنتَ في الأرْضِ والعلاء برُعْمَةُ الطُّهْرِ اللّهاق ، تبارَكتْ ذِكْرَاكْ

* * *

(١) الملاب : المائع من العطر .
(٢) السفى : سرعة المغيب .

الحسينُ عليه السلام ، ليس غريباً أن يكون حيثُ نتحدَّث عنه ، فان في إنسانيته السامية ، تَلْتقِي شعلةُ النُبوَّة المقدَّسة بالفِطْرَة المثاليّة الفذّة ، وتزْدَحم المعاني والصور ، ورُموز العَالَم المجهول . فهو رُوحٌ[1] إلهي في طبيعةٍ بشرية . ومَعنًى غيبي في حروف من أشباح الوجُود . وكذلك تُعْطي يدُ الله الصَّناع بَعْضَ المعالم الحيّة سرّاً من أسرارها يكون لها به ما للأحجار الكريمة من خلَب وبَهْجة ورُواء . وتَمْسَحُه بميسمِ نورها ، فتبدو دُرّةً وَضِيئةً في حدود المادّة الطّامِسَة المظلمة .

وهذا بعضٌ من إعْجَاز الله في الخَلْق أوْ جانبٌ من دلائل القدرة الغَيْبيّة في الناس . وهذه المعالم الحيّةُ تُشتَقُّ من طينة الإنسان وطبيعة الإنسان، لِتَبْلُغَ بهم العِظَة وتَمَّ فيهم حُجّةُ الله .

وهؤلاء يكونون من النوع الانساني كمعنى الانسانية ، فيهم حقيقتُهُ وفيهم معناه السامي ، وهذا هو السرُّ في إكبار الجماعة لأولئك الرُّموز البشريين لأنَّ فيهم ما تَوَزَّع في الجماعة على مثل عدَسة البِلّوْر تجمع خيوطَ النور وتضمها في بُؤْرَةٍ لِتَعْكِسَ شكلاً متجانساً من أشكال مُتَفَاوِتَة .

فهذه الحُبْكَة والالْفَة التي تَبْدُو مصورةً في شخص العظيم ، هي التي تجمع عليه الاعجاب ، وتُقَدّم فيه النفوذَ والسيطرة والقوة .

وسر الشخصيةِ وإن لم يتّضح في ظاهرة أو ظاهرات مَحْدودة ، ولم يتحدَّد كما لو وُضِعَتْ عليه اليدُ . فلم يزَل يغْزو القلوب ؛ ويقتحم إلى النفس من مَنَاطِقها الخفيةِ ، ويُسَيْطِرُ على الفضاء النفسي سيطرة الإسْبات والإخْبات .

وكبرياء الشخصية تَرْجع الى ما تُبالغ به من وُجُودها بحيثُ تبدو وحدها فقط ، ويتلاشَى معها الوُجُود الشخصي للأفراد .

---

(١) المعنى في هذه الفقرة جاء به القرآن في قوله تعالى : « الله نور السموات والارض » أي كل شيء قائم بنور الله وحي به ، وانما يتفاوت الناس بمقدار ظهور شعاع الله فيهم .

وحياةُ الحسين (ع) عِظَةٌ من التاريخ ، ولكن تجمعُ التاريخ كله ؛ فليس مَعْناها في حُدوُد ما وقعت من الزمان والمكان ، بل حدودها حيث لا تتسعُ لها حدود .

وهي بعد ذلك حديثُ الشخصية الكاملة من أقطارها ، ففيها القُدْوَةالصالحةُ وفيها المَثَل الأسمى للانسان الكامل ، والصراط السّوِيّ للمسلم القرآني . وربما امتازتْ سيرة هذه الشخصية بشيء آخر عن الشّخْصِيّات التاريخية ، بأنها تقعُ في مُضاعَفَات كبيرة تجمع شتى الصُّوَر . بحيث تُعْطي في كل صُورة شخصية فَذّة وإنْسانيّةً رفيعة .

وإذا وُفّقَ العلمُ بَعْضَ التوفيق إلى تحليل الشخصية البسيطة التي تجيء في وضع واحد ولون واحد . فإنه لم يُوَفّق حتى الآن لتحليل هذا النوع من الشّخْصيّة المُتَضاعِفة أو المركبة التي تَسْتَنِدُ على أوضاع ، وتقوم في عِدّة صور سريّة ، لكل منها شَكْلٌ أخّاذ ونفوذٌ عميق الأثر بعيد الغَوْر . وإذا لم يكُن لنا أن نَقِفَ عنْد هذه الظاهرة ، وقْفَةَ العالم الذي يجمع أسْبابَه في الحقيقة ويَتَناصر بالأسلوب التجربي . فلا أقَلّ من أن نَقِفَ عِنْدَها وَقْفَةَ الشاعر أو الأديب الذي يَضَعُ الشيء على أشكاله الواضحة ، ويُقَوّمه على حدوده القريبة ، ليُخَطّطَ رُسُومَه وألْوانَه ...

مقـــدمة

الحق ان فهم أية شخصية تفصلك عنها مراحل شاسعة من التاريخ السحيق يبدو صعباً جداً ، وبالأخص إذا كان درساً يتناولها كأنها حي يعيش في مناسبة عادية .

وهذا الدرس يبدو أكثر صعوبة عند شخص كالحسين (ع) ، له ظروفه الغامضة . وقد تداركته انعكاسات شتى من تحتها التيار الصاخب الذي انتظم المحيط الإسلامي في ذلك العهد ، منذ تراوحت قضية الحكم بين العصبية والدين ، ثم تطورت على أشكال مختلفة ، وظهرت في كل يوم باهاب . بدأت كرغبة ومطمح ، ثم انثنت كانتصار وانتصاف ، ثم انتهت كعقيدة ودين . فلم نعد درس الحسين (ع) درساً لشخص له اشياؤه التي لا تنفصل عنه ولا ينفصل عنها ، يمكن أن تحكمه وتشخصه ، بل كان درساً لكل عناصر التاريخ الاسلامي التي ائتلف منهـــا .

ففيه ندرس الامامة وشروطها ، وفيه ندرس أثر العصبية في جري حوادث التاريخ ، وفيه ندرس أثر استخدام الدين للمطامع ، وفيه ندرس أثر فقد الروح العسكرية في بناء البيوتات . وهكذا من كل ما يمت الى الدوافع السياسية والاجتماعية والدينية في الانقلاب الذي عاش في فترته الحسين . فلا جرم أن

كان بحث كهذا البحث ، يتصعّب ويتسع حتّى يتجاوز حدود الدراسة الشخصية.

وكانت دراسته تستدعي تمهلاً وأناة ورويّةً بالغة ، وتستدعي شيئاً آخر ليس من هذا الذي نذكر ولا إليه ، وهو التجرد عن شتّى النوازع والسيطرات الوجدانية والاعتقادية . وإلا فأية روية إذا كانت محكومة بنازعة أو مغلوبة بنزعة . تكون مبالغة واغراقاً في تقرير الجانب الشخصي فقط . وهذا لا يفيدنا سوى إحياء الاختلافات التي كانت مصبوغة بصبغة اللاهوت ، لتأخذ صبغة جديدة من التاريخ التحليلي النقدي .

ثم هذه الجوانب التي نلمح اليها ليس من السهل استيعابها على وجه الدقة ، الا اذا انتشرنا على مسائل جوهرية تمت الى أساس البيئة العربية ، والتقاليد التي تحكمها . وشخّصنا تماماً أثر النبوة في العصبية، وتربص العصبية للنبوة على هيئة المستوفز . ودرسنا الحالة النفسية قبل القرآن ومقدار تكييف القرآن لها ، ثم درسنا أثر الفتوح المبكرة التي أثارها الخليفة الأول (ض) في الوضع الدولي والنفسية العربية ، ودرسنا النظام العام وعناصره التي تؤلفه ، بما يشمل النظام القضائي والمالي والعسكري ودرسنا الاحتكام بالتقليد البدوي ونظام العشيرة ، وتجاهل الخلفاء للقضاء على هذا النظام الذي اجتهد النبي (ص) بالقضاء عليه بصفة حاسمة .

هذه الجوانب من الدراسة وما اليها ، تعتبر واجبة لمن يريد فهم الأسباب الصحيحة التي أدت الى هذا المضطرب الخطير في المحيط الاسلامي الواسع . بحيث عجزت اليد الحاكمة عن ضبطه بالمعنى الصحيح ، حتّى اليد الأموية في أزمان سيطرتها واستقرارها. ولقد يخال الناظر أن استقرار الحكم لم يكن إلا في مناطق القصور ، ولم تكن هيبة السلطة الا مؤقتة . ثم وضع السلطة المطلقة في يد الأمراء ، نقلَ وضعية الحكومة الى استبدادية محضة تحتكم بالهوى وتسخر من القانون القائم .

وينبغي أن لا يفوتنا التنبيه ، على أن نظام الحكم في عهد الملوك الأمويين لم يكن الا ما نسميه في لغة العصر بنظام الأحكام العرفية ، هذا النظام الذي يهدر الدماء ويرفع التعارف على المنطق القانوني ، ويهدد كل امرىء في وجوده . وفي

هذا العصر اذا كان يتخذ في ظروف استثنائية ولحالات خاصة ، يراد بها الارهاب واقرار الأمن ، فقد كان في العهد الأموي هو النظام السائد .

وفي الحق انه لايمكننا أن نسمّ تلك السلطة بالسلطة القضائية أبداً بل ننكر بكل القوة أن يكون في العصر الأموي سلطة قضائية بالمعنى الصحيح، الا في فترات[1] لا تلبث حتى يكون التيار من ورائها طاغياً . وأكبر الشواهد على هذا أن الخليفة أو حكومته تأتي ما تهوى بدون أن تتخذ لمآتيها شكليات قانونية على الأقل ، مما يشعر باحترام السلطة للقانون .

على أن شيئاً من هذا البلوغ في الحكم بدأ يظهر في العهود العباسية؛ وما عليك لتعرف هذا ، الا أن تقرأ المرسوم [2] الملكي أو المذكرة الايضاحية الصادرة لبيان الأسباب التي بررت قتل أبي جعفر محمد بن علي الشلمغاني المعروف بابن أبي العزاقر .

وهذه وجهة نظر خطيرة ، من الجدير أن يُدرس على أساسها التاريخ الاموي برمته وأن تُقدّم في فهم غوامضه ، وأسباب النزاع المستمر التي صبغ العهد الاموي . وإن من المهم أن نتحقق من عدم السلطة القضائية في ذلك العهد ، وأن نزن الاجرآءات الحكومية جميعها بهذا الميزان الذي يعرّفنا أكثر ما نحن في حاجة الى معرفته بين يدي الدراسات الأموية .

وانما اجتهدنا في أن نبين هنا وضعاً احتكم في كل التاريخ الاموي وصبغه بصبغة وبيلة ، تتنافى مع المبادىء الدينية ، لـما أنه ترك آثاراً كأسوأ ما تكون ، في تهذيب الانفعالات ، وتكوين العواطف الوجدانية ، وتوجيه المشاعر . ومن ثمّ

---

(١) كفترة حكم عمر بن عبد العزيز الذي سماه بعض المؤرخين بجدارة (الخليفة الخامس من الراشدين) والذي نعته الامام جعفر الصادق (ع) بالرجل الصالح .

(٢) راجع معجم الادباء ج١ ص ٢٣٨ إلى ٢٥٣ وهي مذكرة نادرة المثال واعلام قضائي خطير من حيث تبرير عمل السلطة واجراءاتها بما يتضح معه مقدار احترام السلطة للقانون ومقدار نفوذه حتى على السلطان أو الخليفة .

ندرك تماماً لماذا كانت الحالة النفسية متبلبلة على وجه غير قليل ، حتى لم يكن لها وجه ثابت ، بل كانت تتلون بألوان شتى ، الامر الذي يشعر بعدم احتكام العناصر النفسية بتقليد .

وكذلك يبدو الدرس على هذا الوجه متصعباً غامضاً ، حتى نقف من تاريخ الحسين موقف الحيرة المطلقة لشدة خفاء الجانب التعليلي في كل مراحل حياته التي كانت أشبه بالبعثرات وما هي كذلك ، ولكن لما انعكس عليها من بلبلة المحيط الذي كان كالآذيّ في أشد التفافه واصطخابه ، حين يتحطم الموج على الموج لا لينتهي الى قرار ، ولكن ليعود الى حركة زوبعية جبارة ، فلا جرم أن تتفصل حياة الحسين منفعلة بصفة من المحيط ، ومصبوغة بلون من الوسط .

وأنا اذا أهملت هذا الجانب من الدرس ، فلأنه في أكثر ما يكون شخصيٌّ ، ولأن ما نجتهد اليه من العظة به والاعتبار بالتسامي النفسي عنده قد يضيع أو هو ضائع على وجه محقق . فكان من بينهما ما يخوّل لي أن أتجاوز هذا الدرس الآن ، وهذا التناول المستوعب الذي يجيء في أدق ما يكون ، محلاً للنظر والمدافعة ، بل ما يستوجب هذا التناول من درس شخصيات العهد الرسولي وما اليه من التاريخ الاسلامي ، فنحن لكي نلم الماماً صحيحاً يجب علينا أن نتفهم أثر يوم السقيفة وأثر الخليفة الأول والثاني والثالث ، ثم أثر عليّ عليه السلام على وجه الخصوص ، وأثر معاوية ومستشاره ، وأثر انعزال فئة من الصحابة عن نصرة أحد الخصمين الذي بلبل الفكرة الدينية في المجالدة التي استهدف لها المحيط ، ومهد في نظري الى نشوء نظرية الخوارج أو نظرية الخروج ، وأيضاً أثر النظام المحلي الذي انفعل به معاوية الى أبعد حد ، وبذلك يكون معاوية قد انتقل طفرة واحدة الى نظام يبعد كثيراً عن النظام النبوي من كل الأطراف .

فنحن لكي نفهم أحداث معاوية وتاريخه وسياسة بلاطه ، يلزمنا قبل كل شيء أن ندرس النظام البيزنطي وما ترك في الوسط الغساني ، وما أثر به في سياسة الفاتحين ومن بعدهم . هذه الدراسات كما نراها تتناول صدر التاريخ الاسلامي وأحداثه التي تركت مدة تثير على الدوام آلاماً وتنشر طفحاً خبيثاً سوّد صفحة

التاريخ الاسلامي الى حد نتمكن معه من القول بأنها حالت دون أزكى ثمار الاسلام ، وحالت دون حكومة القرآن ، وحرّفت تعاليم النبي (ص) وشوّهت تقاليد حكومة الخلفاء حتى عزّ المسلم القرآني على الوجه الكامل .

فلم يكن بدٌّ من أن أتجاوز كل هذا ولكن الى حين ، أتجاوزه حتى أقدم الجانب الروحي الحيّ في حياة الحسين عليه السلام ، هذا الجانب المفيد والجانب الذي ننشده في مرحلة حياتنا اليوم ، فنحن أحوج ما نكون الى زعيم كالحسين ومجاهد كالحسين وقدوة كالحسين ، نسايره ونوازن بما نجد عنده نزوات نفوسنا وطالعات شهواتنا ، فلعله يكون درساً مفيداً أو هو مفيد ولا ريب .

* * *

وبرغم ما أحاول من الابتعاد بالموضوع الآن عن التعرض لأبحاث من هذا اللون لا يسعني الا أن أضع صورة وإن كانت مصغرة ، وأثبت شكلاً وإن أتى مُنكمشاً ، وأعرض مشاهد وان جاءت عجلى ، حتى نتمكن من الرجوع القهقرى قروناً مما طوى التاريخ ، وخلف الفلك في مداراته الواسعة ، ونستجلي حقيقة الواقع أو الواقع في صورته البسيطة التي لا مداورة فيها ولا اصطناع .

والحق أنا لا نزال من فهم عصر الحسين ، والأحداث التي استطيرت واستشرت فيه على غموض وخفاء ، وذلك لأن الأقلام التي تناولته منذ أول عهد العرب بكتابة التاريخ لم تكن بريئة على اطلاق القول ، بل دارت على خدمة أغراض شتى بين النزعة المذهبية والزلفى من السلطة الغالبة . وجدير أن يتكيف تاريخ الحسين من بين هذه الاقلام بكيفية تجعل له لوناً مبهماً ، وتضفي عليه أستاراً صفيقة ، تتركنا في حيرة من أن لا نصدق شيئاً أو نصدق كل شيء ، ولكن هاتين صفتان من السلب والايجاب ، يمكن من بعدهما أن نقتصد ونتحرى في جنب أخبار التاريخ ، بحيث نخرج بصفة ثالثة تقوم على النفي والاثبات جميعاً ، وعلى الوضع والرفع معاً ، مما قد نفضي منه الى ما نطمئن إليه حقيقة ، ونشعر معه بشعور الصدق ، ونجد عنده برد اليقين .

ولهذا جمعنا العزم على تقديم صورة صادقة في جزء خاص عن مجتمع الحسين ، بما يزدحم فيه من المشاهد والالوان ، والنزعات والاطماع ، والرغبات والنزوات ، والخلجات والآمال ، وتمنيات الافراد وتطلع الجماعات ، الى غير ذلك من صور يجيء عرضها كما لو كانت تمر في الحياة الشاهدة ، حقائق ملء السمع والبصر ؛ لنتمكن في النهاية من الفراغ الى عقد مقارنات شخصية وعصرية واجتماعية ، والخروج بموازنات تجمع بين عناصر القوة والدقة ، وبذلك لا تختلف موازيننا الا بمقدار ما يجتمع في الموزون من زيادة حقيقية .

والآن في هذه الالمامة نتناول على وجه تقريري مجرد ، الاسباب الهامة التي عملت على بلبلة الروح الاسلامي ، ومهدت الى البعثرات المتلاحقة التي لم تهدأ الا باغتيالات كبيرة لأعظم الشخصيات ، وأيضاً لم تهدأ بالمعنى المقصود من هذا اللفظ . بل بقيت تظهر في انبعاثات وانتقاضات من حين لآخر .

ونحن لن نقف الا عند الحوادث البارزة التي تركت في نظرنا تأثيرات انتهت بالمصارع المتناوحة ، وكانت بمثابة مقاتلة عنيفة . وقد انتهت على اما انتهت به من بعد عن معناة الدين وروح الشريعة ، وانتقلت مع هذه الغلبة من أن تكون حكومة شوروية ليس الخليفة فيها أكثر من ممثل للسلطة ، الى أن يكون الخليفة أو الملك مولى الرعية ومالك الرقاب ، بحيث لا يبقى للامة شخصية معنوية مستقلة زائدة عن حدود شخصيته ، على طراز من حكومات القدماء الاتوقراطية .

بينما جاء القرآن بمبدأ الشورى ، وأحله احلالا عملياً ورفع بالشعب الى مستوى الملك؛ وهذا المبدأ اجتهد بتطبيقه الخلفاء ، وجعلوه طابع حكومتهم . ولهذا كان الصراع بين علي ومعاوية ليس شخصياً فقط ، بل صراع بين مبدأين في مواقف حاسمة ، صراع بين الخلافة التي معناها [1] النيابة عن الامة ، وهي

---

(١) الخلافة كلمة من كلمات الاسلام بالغة غاية اللباقة في تحديد مهمة الحكومة ومهمة الحاكم بحيث تضع حاجزاً بين عدوان الهيئتين : هيئة السلطة وهيئة الشعب وتحفظ حقوق الطرفين بدون مساس، وهي مبنية على وجهة نظر متطورة جداً .

تتضمن معنى الرعاية والحدَب والانتفاء من الاحتكام . وبين الملك الذي معناه [١] الغلبة والسيطرة وجمع الحريات باليد الواحدة وضغطها الى درجة الانحاء أو الاجهاز ...

* * *

حكومة الخلفاء

لم تبعد حكومة الخلفاء عما كانت عليه في زمن النبي (ص) الا بمقدار ما اتسع به الظرف . ولقد اتخذت ناموسها الاعظم في حكومة الرسول (ص) فلم تفرطْ باتباعه . على أن هذا الانتهاج كان الناس مسوقين اليه بدافع من الايمان الذي لم يفقد حدته ولم تخْمد سَوْرته ؛ ولم يفارقه أسره وسيطرته، فلم يكن بد من الأخذ في هذا السبيل والتَنَوُّر بهذا الوَضَح الباقي .

واذا كانت حكومة الخلفاء هي حكومة القرآن ، فمن الغلط الظن [٢] بأنها كانت حكومة (ثيوقراطية) هذه الحكومة التي تصدق في مفهومها الاصطلاحي على نظرية الخوارج في الحكم ، ويبعد هذا الوصف شيئاً فشيئاً عن حكومة الخلفاء ، وان كان بينهما شبه صوري أكيد . وهذا سر المغلطة التي وقع فيها من ظن أنها من هذا النوع ؛ والظن المذكور قد يجد قوته في مثل هذه الاضافات ، حكم الله ، مال الله ، جند الله . التي كانت سائدة على ألسن الناس في ذلك العهد . بيد أن الشواهد والنصوص ، والوقوف على معقول الصحابة بهذا الخصوص ، لا يجعل لهذه الاضافات معناها الظاهر الا على ملابسة .

---

(١) والملك لفظ يرادف تماماً كلمة (الحرية المخنوطة) وكم تبدو سمجة في ذوق المدنيين حين يكون من مفاهيمها اللازمة الرق والاستخذاء ، ولذا كانت كلمة مبغضة من صاحب الشريعة صلوات الله عليه ، وهذا ما يشعرنا بأن القصد الديني في الحكومة كان نبيلا إلى أبعد حد وشعبياً على اسمى غاية. ونأمل بدقة قوله (ص) (الخلافة بعدي ثلاثون ثم تكون ملكاً عضوضاً) .

(٢) هذا الظن رآه كثير من المستشرقين وجرى عليه الدكتور أحمد فريد الرفاعي في تمهيدات موضوعه (عصر المأمون) راجع ج ١ ص ٤

ومن المهم أن نعرف وجهة نظر الصحابة في الحكومة الزمنية وتصوراتهم عنها ، وربما كان أوضح شاهد يعرفنا ما نتصبَّ لعرفانه . الاحاديث التي دارت في سقيفة بني ساعدة . وقد كان من منطق أنصار أبي بكر (ض) . أن النبي (ص) وكل اليه أمر ديننا فهلاً نكل اليه أمر دنيانا .

هذه الفقرة الموجزة تشرح [1] لنا امرين :

(١) ان ممارسة الامور الدينية شيء آخر غير ممارسة الامور الزمنية فلهما مفهوم كما لمانعة الخلو التي تجوز الجمع ولا تلزمه .

(٢) ان السلطان الزمني . يثبت بقياس الأولى لمن تجتمع فيه مؤهلات السلطان الديني .

اذن فمعنى هذه الاضافات شيء آخر غير ما هو الواضح، وهي مبنية على تصور يبعد كثيراً عما يتبادر . والمعنى في هذه الاضافات عند نظري ، أن الحقيقة التي لا يتفاوت الناس فيها ، والتي يجتمعون عليها في استواء . هي الالوهية فتكون ظاهرة شعبية شائعة « اذا صح لنا هذا التعبير » وهي بعدُ أدنى الظاهرات الى هذا القصد . فكان ضرورياً إذا أرادوا التعبير عن الحق الذي يتوسل اليه كل شعبي بشعبيته فقط . أن يضيفوه هذه الاضافة .

فجند الله معناه جند الجميع لا جند الملك . ومال الله كذلك مال الجميع لا مال الملك . الى آخر هذه الاضافات التي يتسق عليها المعنى في تقرير غرض جديد ، وهدم غرض سابق .

هذا إيضاح تشهد له النصوص . وتناصره الاخبار . ولسنا منه الآن بسبب .

---

(١) لسنا نعني أن الاسلام فصل بين الامور الدينية والزمنية من حيث التنفيذ ولكن من حيث الموضوع بيد أن الدين يعطي أحكاما في الامور الزمنية كأحوال التعاقد وما اليه ، ومعناه أن ليس في الاسلام أمور زمنية بعيدة عن المعنى الديني ، وليتنبه إلى ان هذه مسئلة أخرى غير مسئلة الدين وأصول الحكم . . .

ولنلتمس في حكومة الخلفاء المناحي التي نظن أنها مهدت الى عمل الاضطراب واثارة الخواطر ، وقدمت مادة الانقلاب الكبير . وسنسوقها في سرد يتخلله بعض الشرح وهي تجيء في امور :

(١) الاختلاف [1] على البيعة يوم السقيفة . وامتناع فاطمة (ع) منها وآل هاشم عموماً . كان له صدى عكسي ولد عند البعيدين شيئاً من الشعور بالاستهانة . وجرأهم على الانتقاض والخروج والتمرد . وربما شهد له أن ارتداد العرب كان بعد يوم السقيفة بعشرة [2] أيام .

(٢) أخذ آل البيت بالشدة جعل لهم أنصاراً ، وفئة تتربص لهم وتفترص الفرص لصالحهم .

وهذه الشدة تصيب بلا ريب وتراً حساساً من عامة المسلمين قاطبة ، وبالأخص في حياة السيدة فاطمة (ع). وكأن ابا بكر (ض) أدرك هذا ولمسه بالفعل في آخر أيامه ، حتى قال في (رواية المسعودي) ثلاث فعلتها ووددت اني تركتها . وعدّ في جملتها تفتيش بيت فاطمة ، وذكر في ذلك كلاماً طويلاً (وفي رواية الطبري) أظهر أسفه على أنه لم يعطها فدكا .

(٣) ديمقراطية الحكومة الى حد نفى عنها صفة الحكم . وهي ظاهرة تقلل من احترام الحكم ورهبته ، وتسهل الخروج عليه والتآمر ضده . فلم تكن الحكومة ديمقراطية على وجه التحديد ، بل تزايد فيها اعتبار الديمقراطية ، الى درجة انتفت معها عناصر السلطة الا في الحدود المنصوص عليها في القرآن والسنة .

---

(١) راجع مروج الذهب المسعودي ج٢ ص ١٩٤ ، ١٩٦ ولا بأس من ايراد نتف من الخلاف ؛ لما بويع أبو بكر يوم السقيفة وجددت البيعة له يوم الثلاثاء على العامة خرج علي فقال افسدت علينا امورنا ولم تستشر ولم ترع لنا حقاً ، فقال ابو بكر بلى ولكن خشيت الفتنة وكان للمهاجرين والانصار خطب طويلة وخرج سعد بن عبادة ولم يبايع فصار إلى الشام وقال المنذر بن الحباب أما والله ان شئتم لنعيدنها جذعة ، وتخلى الاوس عن معاضدة سعد خوفاً ان يفوز بها الخزرج ولم يبايع احد من بني هاشم حتى ماتت فاطمة (ض)

(٢) راجع مروج الذهب ج ٢ ص ١٩٣

(٤) التهور مع التيار الرغيد ، والاشتطاط في بلهنية العيش ، والتظاهر بأسباب [1] الثراء والتزيد من الثروة . وهذا ما جعل العرب طبقة ارستقراطية بعض الشيء ، وقوى هذا المظهر كثرة الموالي في ذلك الحين .

وهنا يبدو شكلان مختلفان أشد اختلاف . مظهر الحكومة الذي هو ديمقراطي مبالغ ، ومظهر الشعب الذي هو ارستقراطي مغرق ، مما ندرك معه أن التواصل كان مفقوداً على وجه تام ، والتفاهم معدوما على وجه محقق .

(٥) قيام دعاة وسط هذا التيار . لتحويله الى وجهة الخير ، والرجوع بالناس الى المثل الصالح الاثري الرسولي ، أمثال أبي ذر ورافع بن خديج . وفي نظري أنه كان لهؤلاء الدعاة أكبر الاثر في تطوير الحياة الاجتماعية وتغيير النظر الى الاشياء ، وقد أحدثوا ولا ريب تيارات عكسية قوية في مد التيار الطاغي ، كما أحدث دعاة الحكمة في عهد (روما) القديمة حين كانوا يظهرون في أيام الزينة ومباهج الناس بملابس التقشف والزهادة ناصحين محذرين ، ليكبحوا من غلواء الطغيان ، ويضعوا حداً لاستشراء الفساد بين الجماعة . والذي ساعد دعاة الاصلاح في الابلاغ والتأثير ، أن الناس رغم تأثرهم جميعاً بفعل الحياة الجديدة ، لا يزالون يذكرون شكل الحياة في عهد الرسول (ص) وعهد صاحبيه رضي الله عنهما . وقد

---

(١) ذكر المسعودي في المروج ج٢ ص ٢٢٢ ان الصحابة في ايام عثمان (ض) اقتنوا الدور والضياع ، منهم الزبير بن العوام بنى داره بالبصرة وابتنى دوراً بمصر والكوفة والاسكندرية ، وبلغ ماله خمسين الف دينار وخلف الف فرس والف امة وخططاً . وطلحة بن عبيد الله (ض) ابتنى داره بالكوفة وكانت غلته من العراق كل يوم الف دينار وشيد داره بالمدينة وبناها بالآجر والجص والساج . وزيد بن ثابت حين مات خلف من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس غير ما خلف من الاموال والضياع بقيمة مائة الف دينار . وعبد الرحمن بن عوف ابتنى داره ووسعها وكان على مربطه مائة فرس وله الف بعير وعشرة الاف من الغنم وبلغ بعد وفاته ربع ثمن ماله اربعة وثمانين الفا . ومات يعلى بن امية وخلف الف دينار وديونا على الناس وعقارات وغير ذلك من التركة ما قيمته مائة الف دينار . قال المسعودي : ولم يكن مثل ذلك في عصر عمر (ض) بل كانت جادة واضحة وطريقة بينة . وحج عمر فأنفق في ذهابه ومجيئه إلى المدينة ستة عشر ديناراً وقال لولده عبد الله لقد اسرفنا في نفقتنا في سفرنا هذا ، إلى ان قال فأين عمر ممن ذكرنا واين هو ممن وصفنا .

كان لهذه الذكرى أثرها ، لأخذهم تلك الحياة بنظر جد ممتاز : ويدل لهذا أن المتقدين كانوا اذا أرادوا البلاغ في النكاية رجعوا بالناس الى تلك الذكرى ، وهذا شاهد تجده في زمن عبدالله بن الزبير ، عند شاعر أهاب به حتى يضع حداً لترف أخيه مصعب . قال :

بلغ أميــــر المؤمنين رســـــالة ‏ ‏ من ناصح لك لا يريد خداعا
بضع الفتاة بألف ألف كامل ‏ ‏ وتبيت سادات الجنود جيـــاعا
لو لابي حفص أقول مقـــالتي ‏ ‏ وأبث مـــا سأبثكم لارتـــاعا

(٦) لين عثمان (ض) ولا أقول ضعفه ، في مواجهة الطغيان الجديد حتى انجرف به . فلم تكن له فيه صفة الزعيم الذي يداوره ويخفف من حدته وامتداده بل وقف عنه حتى طغى عليه ، فكان انتقاد المصلحين لهذا الوضع بمثابة الانتقاد له لانخراطه الشديد فيما عليه الناس .

(٧) أخذ حكومة الخلفاء بظاهر عمل الرسول (ص) في توزيع الاموال . ووضع بيت المال رهينة الصرف الذي كان من آثاره تكدس الاموال عند الافراد وتعويدهم الفراغ . فقـــد كانوا لا يستثمرون ما في أيديهم . بل يتكلون على أنصبتهم في بيت المال .

فكان انصراف [1] الحكومة عن أن تستخدم هذه الاموال الكبيرة في مشاريع عمرانية وإصلاحية وإنشائية ، وتكدسُ الأموال عند الاشخاص ، والفراغ ، مدعاة للفساد في النشء ذوي الغضارة واللدانة . وقديماً قال ابو العتاهية :

ان الشباب والفـــراغ والجـــده ‏ ‏ مفسدة للمرء أي مفسده

---

(١) وشاهد هذا في جواب عمر (ض) للذي قال له (يا امير المؤمنين لو تركت في بيوت الاموال شيئاً يكون عدة لحادث اذا حدث) فزجره عمر وقال له (تلك كلمة القاها الشيطان على فيك وقاني الله شرها وهي فتنة لمن بعدي اني لا اعد للحادث الذي يحدث سوى طاعة الله ورسوله وهي عدتنا التي مابلغنا بها) يظهر سيدنا عمر في مقالته هذه تخوفه من طغيان الحاكم بما يجد بين يديه من الاموال ويعتمد على العقيدة وحدها في المغالبة والظفر . وهي نظرية عميقة بيد انه بهذا يكون احتاط لطغيان الحاكم ولم يحتط لطغيان الشعب اذا تزايدت الثروة بين يديه .

وهذا بلا ريب أدى الى غمرة من الفضول [1] والتدخل في كل شيء ، واستنبات الارستقراطية ، وامعان الأفراد بالتطلع والطموح ، وهو فساد مدني كبير . لا يُبقي على حكومة مهما كانت أسسها ومهما كانت درجة استقرارها .

وهناك فساد آخر . نشأ من عدم [2] وجود نظام عسكري بالمعنى الصحيح ، الا ما تحدر اليهم من نظم العربية القديمة . والعجيب أن لا نجد تطوراً في الجيش رغم الفتوح الكبيرة. والاحتكاك بأمم عسكرية شتى ، الا ما كان من نظام التعبئة فقد تطور كثيراً . وقد كان واجباً أن يستفيدوا من تجربات هذه الامم العريقة ونظمهم السائدة ، وقد يبالغ بالمرء العجب أن يجد نفس النظام [3] العربي القديم سائداً في فتوح افريقية وما وراءها .

---

(١) يشهد لهذا ما جاء في مروج الذهب (وقد صار الناس حلقاً في المسجد ليس لهم غير الاحاديث والخوض) .

(٢) المعنى في هذا نفي وجود نظام عسكري عام يؤخذ به كل فرد وينشأ عليه كما هو الشأن في التربية العسكرية القوية الصارمة . والا فقد كان بين هؤلاء الجنود البواسل شخصيات تنزل بين افضل رجال العسكرية في كل التاريخ من حيث فهم الواجب العسكري والتعلق بالرئيس والاطاعة التامة . وان من اعظمهم القائد سليط بن قيس هذا الرجل الفذ في تاريخ العسكرية الاسلامية وقد كان تحت امرة ابي عبيد (ض)في حملته على فارس وكان من رأي ابي عبيد ان يقطع الجسر على الفرات حتى لا يفكر المسلمون بالفرار والهزيمة فقال له سليط ان العرب لم تلق مثل جمع فارس قط ولا كان لهم بقتالهم فاجعل لهم ملجأ ومرجعاً من هزيمة ان كانت فقال والله لا فعلت جبنت يا سليط فقال سليط والله ما جبنت ولكن اشرت بالرأي ولولا اني أكره خلاف الطاعة لانحزت بالناس ولكني أسمع وأطيع وان كنت قد أخطأت واشركني عمر معك ، فقال أبو عبيد تقدم ايها الرجل فقال سليط افعل فتقدما فقتلا جميعاً عليهما الرحمه . هذا موقف لا نظير له أبداً في الاطاعة والموافقة ولومع الخطأ البين وهو مثال رائع من مثل معرفة الواجب العسكري والجندية العالية .

(٣) المراجع التي تفيد المؤرخ في هذه الناحية نزرة جدا ولكن من مجموعات النتف التي بين ايدينا لا يمكننا الا ان نعطي هذا الرأي فقد كانت القبلية تعمل عملها في نظام الجيش ونظام الاغارة والهجوم ولذلك كان الزعيم القبلي الخطير يستطيع الانصراف بالناس والخلاف على القائد العام ، وهذا ما وقع لعلي (ع) من الاشعث بن قيس في موقعة صفين . وهذا الرأي واضح لكل من يدرس النصوص الواصلة حتى ان القائد العراقي طه باشا الهاشمي في كتابه الحركات العسكرية في فتوح خالد بن الوليد لم يتسن له الا ان يثبت الثابت رغم ميله الشديد إلى اظهار ذلك النظام بنوع تفوق ، ولذلك عرض نظام الحركات في الجاهلية بشيء من الاعجاب .

وفائدة النظام العسكري أنه يعلم الائتمار . ويحسر النظر عن التطلع الا في حدود المهنة . ويبعد بنفس العسكري عن المناقشة للشؤون العامة . ويروضه على التمسك بالحاكم المدني القائم . ومن فضائل هذا النظام الواضحة : جبن الرجل العسكري مهما سما قدره عن وضع نفسه في مركز مدني صرف : وتحمل المسؤوليات والاعباء العامة .

فعدم وجود نظام اذاً من هذا النوع ، في محيط العرب ، جعل الرجالات العسكريين الذين اشتهروا بالبطولة، من مثل طلحة والزبير ، يفكرون بالدعوة لأنفسهم ، والانتقاض لاحتواش السلطة .

(٨) عدم عناية حكومة الخلفـــاء ببث الدعوة وغرس التربية الدينية التي كانت لازمة لذلك المجتمع لزوم التربية الوطنية في نظام القوميات الجديد على يد دعاة استوت عندهم العقيدة ، واختمرت بها نفوسهم وآتت أكُلا هنياً . حتى يتوافر في نفوس المسلمين عامة إملاء الدين فيكونون كما قال علي(ع) (عظم الخالق في أنفسهم ، فصغر ما دونه في أعينهم)

وكذلك فعل النبي (ص) ببعث المرشدين والمعلمين والمبشرين في أنحاء الجزيرة ، فلم يكن عليه الصلاة والسلام يقبل الاسلام من الأفراد على أنه أعمال وطقوس : بل على أنه عقيدة ومبدأ . وهذا لا يتم الا بأعمال تبشيرية واسعة ، وليس بين أيدينا ما يثبت أن حكومة الخلفاء عُنِيَت بهذه الناحية التبشيرية عناية مقصودة .

(٩) الاحتكام بالتقليد البدوي : فان مسحة الحكم الى عصر علي ، لم تزل خاضعة للنظم القَبَلية . فلم يكن ثَم نظام دَولي صحيح يجتمع الناس عليه ويستشيرونه ، بل ظلوا على تقليدهم البدوي الذي لا يشعر الا بالانتماء الى القبيلة ، ولا يحس الا بسيطرتها وهذا ما يستطير معه الخلاف . ويستشري به النزاع .

وان حكومة تقوم على نظم البداوة لا يرجى لها بقاء ، لأنه ليس بين عناصرها وحدة حقيقية أو غِراء خصيب ، ومَثَلها قريب في جملة عيدان يجمعها إطار فاذا تحلل قليلا أو وَهَن سقطت متفرقة متوزعة لعدم وجود تماسك حقيقي بينها .

لهذا أوجب النظاميون اليوم بث روح التربية الوطنية بين الأفراد والطبقات . حتى يكون بينهم وساطة اشتراك في غير الحكومة أو فوق الحكومة . وسنرى فيما بعد سر النظام في جند الشام والاختلاف في جند العراق الذي لم ينتبه الى تعليله أكثر المؤرخين حين عزوه الى طبيعة كلا الشعبين .

* * *

حكاية حكومة الخلفاء :

ومن المناسب أن نأتي بحكاية حكومة الخلفاء وكيف قامت ، وبيان الاسباب التي اجتمعت على فشل سياسة علي كرم الله وجهه ، ونجاح السياسة الأخرى المعادية .

لحق النبي (ص) بالرفيق الاعلى ، وقد ترك المسلمين تحت سيطرة الاعتقاد الديني الشديد . ولكن جاءت وفاته حادثاً فجائياً بعض الشيء ؛ ترك المسلمين تحت سُبات عنيف وإغلاق محكم . وأكثر من أصيب بهذا الأثر عمر (ض) بينما كان أبو بكر (ض) أكثر ما يكون رباطة جأش .

فكان موقفه الموفق في ازاحة هذه الشبهة معناه تقديم الزعيم في نفسه ، الذي يتطلبه الحين . فلا عجب أن وجد فيه عمر (ض) من تطمئن اليه نفسه ؛ ويسكن الى حنكته . وهو موقف جدير بأن يقدم رجل الوقت . ودائماً تكون المواقف الفذّة في الاحداث الكبيرة ، سبيلاً وحيداً لتقديم صاحبها واضفاء أصفق السُتر على الشخصيات الأخرى الكبيرة . وليس ضرورياً في هذا الزعيم [1] أن يكون أفضل

---

(١) معناه انه رجل الظرف الذي اشتق من طبيعته فهو يدري كيف يثيره ويديره ولست اعني ان ابا بكر (ض) كان رجل ظرف فقط بل كان رجل ظرف ورجل جدارة . ولكن اعني ان المناسبة والظرف اسلسا في يده القيادة ومهدا له السبيل الكشف عن زعامته الشخصية حتى لم تحتج إلى خصومة كبيرة او حجاج طويل وهذا معنى قولة عمر (ان بيعة ابي بكر كانت فلتة وقى الله المسلمين شرها) وقد أخطأ من فهم فيها ان عمر يعني انها غلطة وقد كان هو الممهد لها والمحرك الكبير فيها. وانما يعني ان بيعته تمت على وجه من السرعة كما تكون الفلتة والبادرة والعادة ان ما يتم سريعاً على هذا الوجه لا يخلو من التفريط ولكنها وقعت عند ابي بكر في محلها ولذا قال عمر (وقى الله المسلمين شرها) لانها وقعت على رجل كفء . والتعليل الصحيح الذي مهد لهذه السرعة هو الموقف المذكور الذي كشف عن انه رجل الساعة .

كل الأشخاص العصريين .

ومن طبيعة هؤلاء الذين تكشف عنهم الظروف، ويخلقهم الانقلاب، وتوجدهم المناسبات، أنهم يكونون أقدر الأشخاص في ادارة الظرف ذاته؛ فاذا تحول بهم الظرف الى مناسبة أخرى وقفوا منها واجمين ، وتنحوا حيث لا يمكنهم الثبات والبقاء .

وبالجملة فالظرف يقدم في هؤلاء الرجال مادة الحكم الانقلابي فقط ، فاذا انتهى العهد الى الاستقرار ، اضطروا أن يعودوا أشخاصاً آخرين . وهذا شيء لا ريب فيه ولسنا الآن بصدد تحليله والبرهان عليه .

الى هنا نكون قد انتهينا الى أن نجاح ابي بكر ، أمر ليس منه بُدّ ، لأنه جاء طبيعياً جداً . وانما ننتقل بالنظر الى الاختلاف يوم السقيفة ، هذا الاختلاف الذي كان نموذجاً من التنازع البلدي؛ أكثر مما هو شيء آخر، على امتلاك السلطة مشفوعاً بمقدمات دينية قامت على المعادلة ما بين أثر المهاجرين في الاسلام وأثر الانصار فيه .

وهذه المعادلة دخلها شيء من عدم نسيان الذات ، ويفسر هذا موقف سعد ابن عبادة هذا الموقف غير المهادن ، وللأنصار حق أكيد واضح وشبهة قوية في السلطة. على أنهم فهموا في آخر الأمر أنهم أنصار الدين وأنصار محمد وأنصار[1] بيته ، ولذا ظل ميلهم الى الداعي القائم من آل البيت .

---

(١) ذكر المستشرق الكبير فان فلوتن في كتاب (السيادة العربية)، بين الاحزاب العربية ، حزباً وسمه بحزب اهل المدينة وهم انصار آل النبي (ص) والمنتمون اليه يعتبرون ان وصول بني امية إلى الحكم انما هو انتصار لاعدائهم القدامى من مشركي مكة . وهذا الحزب وان انفرد بذكره (فلوتن) بناء على نظر اجتهادي وترجيح تقديري لكنه حقيقة لا ريب في صحتها فان ميول الانصار شاهد كبير على انه وان لم يكن بينهم حزب له هذه الصبغة وهو قائم على هذه المبادىء فقد كان هواهم كذلك على ما هو الظاهر القريب في منطق التعليل .

وهذا الميل فيهم هو الذي يفسر الشدة التي أخذهم بها يزيد في موقعة الحرة - والتي كانت حركة يراد بها افنائهم وابادتهم . وذلك لأنها كانت تضم نخبة عظيمة من الصحابة ذوي المكانة الدينية المحترمة كالبدريين بحيث كانوا في محل الاستشارية من كل الطبقات . وقد رأى الامويون مقدار تأثيرهم في حكومة عثمان (ض) . وهو من هو في مكانته من النبي (ص) فلا بدع أن يستقر رأيهم وقد هيمنوا على السلطة ، أن يخضدوا من شوكة المدينة ويقضوا على الطبقة الدينية المحترمة ليخاصوا من سيطرتها. وأظن وليس ببعيد أن الفكرة لم تكن وليدة دماغ يزيد، بل جالت في خاطر معاوية أيضاً . ويشهد لهذا الظن أن اثارة الحرب عليهم ابتدأت كلامية في عهده . فقد استخدموا لهذه الغاية الاخطل الشاعر النصراني ، ويظهر لك مقدار الحفيظة والضغينة والاستخفاف في اختيارهم رجلا غريبا عن الدين ، للوقوع بعرض أنصار الدين . ولكن هذا التحرش أثار (النعمان بن بشير) وهو العثماني الشديد على معاوية زعيم العثمانية . مما نشعر معه بأن معاوية حقيقة لم يجد ظرفاً مناسباً ولا سانحة مواتية، فان البيت الاموي سيظل في خطر ما دام الانصار ، وسيظل مهدداً بالبيت العلوي ما بقيت المدينة .

لذلك لم يأخذوهم حين وجدوا الفرصة بلباقة [1] أبداً ، تجمع إلى الغرض السياسي الاحترام الديني لمقامهم ؛ ومقامهم لا ينكر .

وبهذا يفسر تشجيع حياة المجون في المدينة بلد الرسول الاعظم صلوات الله عليه ، من جانب الامويين الى حد الاباحية ، فقد كان خاضعاً لسياسة مقصودة . وقد أثبت في موضوع لي عن (حياة عمر بن ابي ربيعة وشعره) ان الامويين استأجروا طوائف من الشعراء والمغنين والمخنثين من بينهم عمر ، لأجل أن يمسحوا عاصمتي الدين (مكة ، والمدينة) بمسحة لا تليق بهما ولا تجعلهما صالحتين للزعامة الدينية؛ وبذلك يكون لهما مركز ثانوي في محيط الحركة الاسلامية ، ولقد

---

(١) اخذوا الانصار بوحشية ليس لها نظير الا في اعمال نيرون الطاغية . وهي في اختصر عبارة تمثيل مأساة الحسين (ع) مرة اخرى في محيط اوسع وعدد اكبر وتحدي الشعور الاسلامي في بلد النبي (ص).

نجحوا كثيراً، عدا ما نتج عن هذا من تأثير عملي وتطوير حقيقي في نفسية الاشخاص التي غدت لا تأبه للحركات الاسلامية المستمرة ثم لا تألف الا الحياة الماجنة من كل الاطراف ، حتى قال الاصمعي (دخلت المدينة فما وجدت فيها الا المخنثين ورجلا يضع الاخبار والطرف) . ولقد يتمادى الظن بنا الى أبعد من هذا ، وبالأخص بعد حركة عبدالله بن الزبير ، هذه الحركة التي كانت غولاً ، وكادت تبتلع الدولة الاموية والعنصر الاموي الذي ثبت لمفكري المسلمين أنه أداة افساد، وفي طبيعته[1] بعث الحياة الجاهلية بكل أشيائها وألوانها . ومن ثم عمل ابن الزبير على طردهم من الجزيرة وابعادهم خارج البلاد العربية .

يتمادى بنا الظن الى أن المروانيين فكروا بصرف الناس عن المقدسات الاسلامية التي تنزل من الاسلام منزلة الشعيرة بانشاء المسجد الاموي بأبهته العظيمة في دمشق . ولقد ظن بعض المستشرقين بأن هذه نية [2] عبد الملك بن مروان بأناقته في تشييد المسجد الاقصى . ونحن وان كنا نظن ونوافق من يظن نرسل ما نقول في تحفظ مطلق حتى تتناصب عليه الشواهد والروايات . هذا استطراد ليس فيه ما يفصم من وحدة الموضوع . بل فيه ما يزيدنا فهماً لأسباب الانقلاب الكبير الذي انتهى بمصرع الحسين (ع).

* * *

يسلمنا الموضوع الان الى الحديث عن موقف آخر ، أظهر فيه أبو بكر حنكة ورجاحة ما عليهما من مزيد : وهو موقفه من تعيين الخليفة بعده بقطع النظر عن الشخص الذي كان الغرض فيه أن لا يتعرض المسلمون لخلاف من نوع الخلاف الذي تعرضوا له بعد وفاة النبي (ص) ؛ والظرف دقيق جداً لا يتسع لأي اختلاف وذلك لأنه مفعم بالفتوح الكبيرة الواسعة الاطراف ، والمسلمون

---

(١) قرر نحواً من هذا الاب لامنس اليسوعي وغيره .

(٢) يروى انه قال اردت ان اصرف الناس إلى بيت المقدس .

متوزعون في بقاع عديدة ، وجهات مختلفة ؛ فكأن أي اختلاف كافياً للقضاء على هذه القوى المتنائية .

هذا الملحظ يجعلنا نكبر من اجراء الخليفة الاول ، في اختيار الرجل الذي يلي الامر من بعده . وبذلك يوطد ويمكن من الوضع الثابت والاستقرار المستمر الذي لا يعدد وجهات النظر . وكان على عمر (ض) أن يتأسى بأبي بكر في هذا الشأن ، ويختار الشخص الذي ينبغي أن يسلم الناسُ اليه القوى ، وهو هو الرجل الذي أرضى الناس على اختلافهم بسيرته السديدة ونهجه الرشيد ، فلا يصادف منتخبه خلافاً عليه أو منازعة في هواه . ولكن ربما كانت له في هذا وجهة نظر ، وهي أن المسلمين دخلوا في دور استقرار بعد تجربات طويلة للحكم الصالح ، فترك للمسلمين الفرصة ليقوموا بممارسة حقهم الانتخابي .

وكأن عمر (ض) بصنيعه هذا ، يعلن أن من رأيه أن لا يكون للخليفة رأي فيمن يتولى شؤون الناس من بعده ، اذ بذلك يقيد الحريات ويحول بين الناس وحقوقهم ، وبعبارة أخرى الخليفة اذا نص على الشخص الذي يلي الامور من بعده ، كأنما قدم شخصه ليحكم الناس مرة ثانية ؛ وذلك لأن الشخص الذي يقدمه لا بد وأن يتقيد بمناهجه ويسير على قدمه ويتحاشى من أن يبتعد أو يتجاوز ، رغم تغير الاحوال أو اقتضاآت الظروف . وهذا بعض من معايب حكم البيوت ، وحكم التخليف الاصطناعي [1] . وهو يبين مقدار الخطأ الذي ارتكبه معاوية في تقديم ابنه بقطع النظر عن صفات يزيد الشخصية .

ومع ما كانت عليه حكومة زعيم الخلفاء أبي بكر (ض) من سداد ورشد وبعد عن الذاتية وتمسك بالسيرة النبوية الفضلى ، كانت بمثابة سابقة تبرر كل مزاحمة حتى لصاحب الحق بلا مدافع ، ولذلك لا نبعد في الظن اذا قلنا بأنها كانت سبباً في تجسيم الأطماع عند الرجالات كافة ، مهما تناهت درجات اعتبارهم .

وهذا ليس رأياً نراه وظناً نقدره ؛ بل حجة اتخذها معاوية لتبرير منازعته لعلي ،

(١) اي الخليفة الذي اصطنعه خليفة آخر قبله فيكون له صنيعة .

رغم اقراره بأنه صاحب الحق وولي الشأن . ولنترك الآن الحديث لمعاوية حتى نسمع كيف يبرر مغالبته ومنازعته لزعيم الحق .

قال في كتاب [1] بعثه الى محمد بن أبي بكر رداً على كتابه اليه ، ونثبته هنا بطوله لاهميته في درس الصراع على الخلافة .

(من معاوية بن صخر ، الى الزاري علي ابيه محمد بن أبي بكر ، أما بعد فقد أتاني كتابك تذكر ما الله اهله في عظمته وقدرته وسلطانه ، وما اصطفى به رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله ، مع كلام كثير لك فيه تضعيف ، ولأبيك فيه تعنيف ، ذكرت فيه فضل ابن ابي طالب ، وقديم سوابقه وقرابته الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومواساته اياه في كل هول وخوف فكان احتجاجك عليّ وعيبك لي بفضل غيرك لا بفضلك ، فاحمد رباً صرف هذا الفضل عنك وجعله لغيرك ، فقد كنا وأبوك فينا نعرف فضل ابن أبي طالب وحقه لازما لنا مبروراً علينا ، فلما اختار الله لنبيه عليه الصلاة والسلام ما عنده وأتم وعده وأظهر دعوته فأبلج حجته وقبضه اليه صلوات الله عليه ، كان أبوك والفاروق أول من ابتزه حقه وخالفه على أمره ، على ذلك اتفقا واتسقا ، ثم انهما دعواه الى بيعتهما فأبطأ عنهما وتلكأ عليهما فهما به الهموم وأرادا به العظيم ، ثم أنه بايع لهما ، وأسلم لهما ، وأقاما لا يشركانه في أمرهما ولا يطلعانه على سرهما ، حتى قبضهما الله ، ثم قام ثالثهما عثمان فهدي بهديهما وسار بسيرهما ، فعبته انت وصاحبك حتى طمع فيه الاقاصي من أهل المعاصي ، فطلبتما له الغوائل وأظهرتما عداوتكما حتى بلغتما منا كما . فان يك ما نحن عليه صواباً فأبوك استبد به ونحن شركاؤه ، ولولا ما فعل أبوك من قبل ما خالفنا ابن ابي طالب ولسلمنا اليه ، ولكنا رأينا أباك فعل ذلك به

---

(١) اثبته المسعودي في مروج الذهب ج٢ ص ٣١٥ و ٣١٦ وذكر كذلك جواب محمد بن ابي بكر وهو جواب مهم جداً يبدي ويظهر مقدار تحرر الشباب في ذلك العهد من تأثيرات الوراثة والبيئة ، على مقدار مواجهتهم للحقائق ومقدار خصب ضمائرهم ؛ ومحمد هذا من انبل شباب قريش الذين غذاهم الاسلام بتعاليمه منذ الفطرة الاولى ثم درج في حجر علي كرم الله وجهه حتى قال عنه المسعودي ج٢ ص ١٩٤ : وكان محمد بن ابي بكر يدعى عابد قريش لنسكه وزهده .

من قبلنا فأخذنا بمثله، فعب أباك بما بدا لك أو دع ذلك، والسلام على من أناب .)

هذا رد مهما قيل فيه ، ومهما فسر بأنه من حيل الدفاع واكتساب القضية ، ومن مداورة الخصوم لأخذ السبيل عليهم ، فانه يحتفظ بحقيقة جوهرية ، وهي أن خلافة أبي بكر (ض) كانت سابقة سهلت لكل أصحاب المطامع سبيل المزاحمة بل والمواثبة المعالنة .

وفي الكتاب ضعف مادي يسقط في يد معاوية ، وذلك حين أدان عثمان أيضاً ، هذه الادانة التي تبرر انتزاع الحق منه بأي الوسائل ، وعليه فلم يبق معنى لتوجيه الادانة الى علي ومحمد بقوله (فعبته أنت وصاحبك) ، لأنه لم تعد له صفة الادانة بل صفة الجزاء؛ وعجيب أن تتخلى عنه لباقته في هذه المرة التي كانت تقتضيه بذكر مصاب عثمان ، دون التعرض لعدوانه في الخلافة .

* * *

وسواء صح هذا التقدير أو لم يصح في شرح سياسة عمر (ض) فمما لا ريب فيه أن عدم النص على الخليفة، أو تعيين الانتخاب في عدد مخصوص، أوجد حزبية وبيلة ، وهيأ لها أن تعمل أسوأ أعمالها ، ولم تقف عند حدود النجاح في الانتخاب فحسب ، بل استقرت على وجه دائم لتقضي على الخصوم وعلى الاحزاب المناوئة . وهذا ما يفسر مقالة [1] ابي سفيان زعيم العصبة الأموية حين تولى عثمان (يا بني أمية تلقفوها تلقُّف الكرة ، فوالذي يحلف به ابو سفيان ما زلت أرجوها لكم ولتصيرن الى صبيانكم وراثة) .

وفي قوله (ما زلت أرجوها لكم) ما يشعرنا بأن الحزب الاموي كان موجوداًمن قبلُ ، وكان يعمل تحت ستر الخفاء ، ويحيك في الظلماء، والا فبأي سبب كان يرجوها لهم ، وليسوا بأهل سابقة في الاسلام ولا أيادي لهم معروفة سوى المظاهرة ضد الله ورسوله .

---

(١) راجع مروج الذهب ج ٢ ص ٢٣٠

واذا عرفنا أن المغيرة بن شعبة ، كان أشد ما يكون اخلاصاً لهذا البيت الاموي وتعلقاً به ونفاقاً على غيره . وعرفنا أن ابا لؤلؤة كان غلاماً للمغيرة بن شعبة ، وعرفنا أن هناك حزباً أموياً يعمل له المغيرة ، خرجت لدينا قضية مرّتبة الحلقات متوالية الوقائع على نسق طبيعي واضح .

الحزب الاموي كاد للنبي (ص) ولدعوته ، وعرفنا كيف أسلم زعيم الاموية ابو سفيان، وعرفنا كيف لم يبق للامويين أي مقام اعتباري في محيط الاسلام الذي كـان ظهوره فوزاً وغلبة للهاشميين ؛ فعملوا في ظـل الدين على التمهيد لأنفسهم والاستئثار بالسلطة ، وقد وجدوا في ولاية يزيد بن ابي سفيان وولاية معاوية من بعده على الشام ، خطوة أولى يستطيعون أن يثبتوا أقدامهم من بعدها ، ووجدوا فرصة سانحة للقيام بعمل خطير . ففكروا باغتيال عمر بن الخطاب الخليفة الصالح . وكذلك اغتالوه بيد فارسي يبرد حفيظته ويشفي غليله ، وما كانوا يجدون أبداً من يقوم بعمل إجرامي من هذا النوع موجهاً الى شخص الخليفة عمر (ض) سوى هذا الفارسي بطبيعة الحال .

ومن ثم يظهر أن اغتيال عمر لم يكن بفكرة فارسية أبداً ، وانما هو أقرب الظنون ، من حيث كانت الفتوح الكبيرة في فارس في عهد عمر ، ومن حيث تم هذا القتل بيد فارسي . بيد انه يعلل بعض أطراف القضية ويترك مواضع هامة فيها تحتاج الى تعليل وتحمل على التساؤل . من مثل : لماذا اجتهد المغيرة بادخال هذا الفارسي المدينة مع علمه بمنع عمر من ذلك ؟ وبماذا نفسر هذه المصادفة في أن يكون قاتل عمر غلام المغيرة الذي هو اموي الراي والهوى ؟ الى أشياء كثيرة لا يتسع الموضوع لها . وانما أقول في جملة ما أود اثباته ان قتل عمر (ض) لم يكن وليد فكرة فارسية مدبرة . وانما كان وليد فكرة موضعية خالصة وأموية بحتة . هذا رأيي وعسى أن أجد في منثور الروايات والاخبار ما يوضح الواقع .

اذن فقد كان هناك حزب اموي سري . ينضوي تحت لوائه عدد عديد . وهذا ما يفسر لين عثمان (ض) الشديد مع فئة بعينها وطائفة من الناس مخصوصة . ولا أظن شيئاً مما توهمه المؤرخون حقيقياً من أن هذا راجع الى طبيعة اللين عنده مع

أهله وذوي قرابته . وانما الحقيقة انه لم يكن يميل ليناً ولا ضعفاً ولكن حزبية فقط .

ولا أدل على هذا من قصة أثبتها [1] المسعودي قال : « كان السبب في صرف الوليد وولاية سعيد بن العاص ان الوليد بن عقبة كان يشرب مع ندمائه ومغنيه من أول الليل الى الصباح ، فلما آذنه المؤذنون بالصلاة خرج منفصلاً في غلائله ، فتقدم الى المحراب في صلاة الصبح ، فصلى بهم أربعاً . وقال : تريدون أن ازيدكم ؟

ولما ظهر فسقه هجم عليه جماعة من المسجد منهم ابو زيد بن عوف الازدي وأبو جندب بن زهير الازدي وغيرهما ، فوجدوه سكران مضطجعاً على سريره لا يعقل ، فأيقظوه من رقدته فلم يستيقظ ، ثم تقايأ عليهم ما شرب من الخمر . فانتزعوا خاتمه من يده ، وخرجوا من فورهم الى المدينة . فأتوا عثمان بن عفان فشهدوا عنده على الوليد انه يشرب الخمر ، فقال عثمان : وما يدريكما انه شرب خمراً ؟ فقالا : هي الخمر التي كنا نشربها ونعرفها ، وأخرجا خاتمه فدفعاه اليه ، فرزأهما ودفع في صدورهما وقال : تنحيا عني ، فخرجا وأتيا عليّ بن أبي طالب وأخبراه بالقصة ، فأتى عثمان وهو يقول : دفعت الشهود وأبطلت الحدود . فقال عثمان له : فما ترى ؟ قال : أرى أن تبعث الي صاحبك ان أقاما الشهادة عليه في وجهه ولم يُدْلِ بحجة أقمت عليه الحدّ . فلمّا حضر الوليد دعاهما عثمان فأقاما الشهادة عليه في وجهه ولم يُدْلِ بحجته ، فألقى عثمان السوط الى علي ، فقال لابنه الحسن، قم يا بني فأقم عليه ما أوجب الله عليه . فقال : يكفيه بعض ما ترى ، فلما نظر الى امتناع الجماعة عن اقامة الحد توقياً لغضب عثمان أخذ علي السوط ودنا منه . فلما أقبل نحوه سبه الوليد . وقال : يا صاحب مكس . فقال عقيل بن ابي طالب — وكان ممن حضر — إنك لتتكلم يا ابن أبي معيط كأنك لا تدري من أنت وأنت علج من أهل صفورية . فأقبل الوليد يزوغ من علي . فاجتذبه فضرب به الارض وعلاه بالسوط ؛ فقال عثمان ليس لك أن تفعل به هذا . قال : بلى ، وشر من هذا اذا فسق . ومنع حق الله تعالى أن يؤخذ منه »

(١) راجع مروج الذهب ج٢ ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

هذه القصة تضع بين أيدينا شيئاً جديداً غير العطاء الذي يرجع الى مكان العاطفة . تضع بين أيدينا صورة من الاغضاء عن مجاوزة السلطة للقانون ، والاغضاء في واقعة دينية بحت. يجب على الخليفة أن يكون أول من يغار عليها، والا هدّد مكانه وأفسح للناس عامة مجال التقول والتجريح . وبالأخص حين جاءت حكومته عقيب حكومة عمر التي عرفت بالشدة فيما يتعلق بالحدود الدينية . حتى لو كانت من أقرب ذوي القربى .

اذن فهذه المبالغة في الاغضاء والصفح والمجاوزة : لا ترجع الى مكان العاطفة وحدها إن كانت . بل الى الحزبية أيضاً حتى تتناصر مجتمعة .

وبالجملة فالذي يجب أن نفهمه جيداً . أن حصر الترشيح في عدد جعل لكل مرشح حزباً يناصره بضرورة حصر دائرة الانتخاب . وزاد في حرج الانتخاب أن ينص على الحكم الانتخابي « عبد الرحمن بن عوف » مما يسهل سبيل الظفر لحزب بعينه . اذا استطاع أن يستميل الحكم . ولقد كان كذلك بالفعل .

هنا قوي شأن الاحزاب : ونرى أن الذي أوجدها هو التعيين المذكور . وقد يهون أمرها لو لم يتجاوز أثرها الانتخاب وما اليه . ولكنّ الذي أضرم النار ان حزب عثمان صارت له دالة عليه حتى استغله استغلالاً . رغم انه يجب أن يكون في موضعه فوق كل الاحزاب . بيد انه ابدى حزبية وزاد في المغالاة بها وازداد المنتمون الى هذا الحزب اضطهاداً لخصومهم . مما أثار الحفائظ وجعل الآخرين ينشطون لدفع هذا العدوان والدعوة ضد عثمان باعتباره حامي الحزب والمنافح عنه والمدافع دون جماعته .

وكما ينبئنا التاريخ أن حزبه انشق عليه . فانفصل عنه عمرو بن العاص وجماعة . والاحزاب التي نستطيع أن نعينها في ذلك العهد . والتي كانت تعمل متنازعة هي :

(١) حزب عثمان (ض) : أو الحزب الاموي . وهو يضم جماعة الامويين

ومن عندهم هوى أموي . وهذا الحزب كان مبغوضاً [١] من أهل المدينة أشد البغض . لأن من رأيهم (كما يذكر المستشرق فان فلوتن) ان وصول بني امية الى الحكم معناه انتصار أعدائهم القدامى من مشركي مكة .

(٢) حزب طلحة والزبير : وهذا حزب يقوم على عصبية شخصية بسبب ما مُنيا به من فشل في الانتخاب . وكان ينضوي اليه بعض من الناقمين على سياسة عثمان «ض» . ومن أكبر شخصيات هذا الحزب عائشة رضي الله عنها .

(٣) حزب أبناء عمر بن الخطاب . هذا حزب لا يحدثنا التاريخ عنه كثيراً . ولا يسجل له ظهوراً أبدا ولكن نرجح أنه قد كان . فان موقف عمر «ض» من أهل بيته لم يكن مرضياً . ووجد في الناس من يدعو لآل الخطاب . ومن أكبر الشخصيات المنتسبة اليه « ابو موسى الاشعري » الذي رأينا من خروجه على صلاحية الحكم الى اسقاط الامام القائم ومعاوية ، وترشيح عبدالله بن عمر للخلافة التي لم يرها له ابوه «ض» . هذا الاقتراح الذي ارتآه [٢] ولم يكن في خاطرة أحد أبداً ولا

---

(١) وشاهد هذا قصة ذكرها المسعودي في المروج ج٢ ص ٢٣٠ و ٢٣١ قال : (لما تسامع المهاجرون والانصار بقول ابي سفيان السابق قام عمار بن ياسر في المسجد فقال يا معشر قريش إما إذ صرفتم هذا الامر عن اهل بيت نبيكم ههنا مرة وههنا مرة فما انا بآمن من ان ينزعه الله فيضعه في غيركم كما نزعتموه من اهله ووضعتموه في غير اهله . وقام المقداد فقال : ما رأيت مثل ما أوذي به اهل هذا البيت بعد نبيهم فقال عبد الرحمن بن عوف وما انت وذاك يا مقداد؟ فقال اني والله لاحبهم بحب رسول الله (ص) وان الحق معهم وفيهم ، يا عبد الرحمن اهل هذا البيت قد اجتمعوا على نزع سلطان رسول الله (ص) بعده من ايديهم ، اما وايم الله يا عبد الرحمن لو اجد على قريش انصاراً لقاتلتهم كقتالي اياهم مع رسول الله (ص) يوم بدر ، وجرى خطب طويل الخ) وليتأمل جيداً قوله اهل هذا البيت قد اجتمعوا الخ الذي يعني به البيت الاموي .

(٢) ذكر المسعودي في المروج ج٢ ص ٢٧٧ قال (قال عمرو فهل تعلم لعثمان ولياً اولى من معاوية ؟ قال ابو موسى : لا : قال عمرو : افليس لمعاوية ان يطلب قاتله حيثما كان حتى يقتله او يعجز قال ابو موسى : بلى . قال عمرو الكاتب اكتب ، وامره ابو موسى فكتب . قال عمرو : فانا نقيم البينة على ان علياً قتل عثمان . قال ابو موسى هذا امر قد حدث في الاسلام وانما اجتمعنا لله فهلم إلى امر يصلح الله به امة محمد . قال عمرو : وما هو ؟ قال ابو موسى : قد علمت ان اهل اهل العراق لايحبون معاوية ابداً وان اهل الشام لا يحبون علياً ابدا فهلم نخلعهما جميعاً ونستخلف عبدالله =

في خاطرة عمرو بن العاص حتى يقال انها خدعة منه يُعذر عليها أبو موسى لا يعلل الا بالتواطؤ ، وقد رأينا من شغبه على امير المؤمنين علي «ع» غير ما مرة .

(٤) الحزب الاموي المنشق : كان يعمل ضد الخليفة ، ويقوم بدور الجاسوسية عليه لحساب بعض الاحزاب المذكورة ، وسترى من قصة نوردها كيف استخدم طلحة بعض أشخاصه في شأن من هذه الشؤون .

«٥» حزب علي «ع» أو الحزب المحافظ وهو يضم كبار الصحابة وأرباب السابقات الجليلة في الاسلام، وربما امتد أثره فشمل المدينة وطغى على كل الأحزاب من حيث النفوذ . بيد أنه لم يكن مخاتلاً يعمل في الخفاء ، بل يجتهد بتقويم خطى الخليفة وتعديلها ويحاسبه حساباً على وجه النصح خوفاً من استعجال الحوادث عليه. وكان يضم أمثال ابي ذر وابي أيوب الانصاري الى كثيرين على شاكلتهما. ومن المهم أن نثبت ان هذا الحزب كان يجتمع عليه كل الاحزاب المذكورة ، فان هذه الملاحظة لها أثرها الخطير في فهم نكوص طلحة والزبير وعائشة وخروجهم عليه ...

كانت المدينة التي هي قصبة الخلافة ، تحتضن هذه الاحزاب جميعاً . وكانت مسممة الفكرة من ناحية الامويين ، فهي لذلك ساعدت على نشر معائب الحزب الاموي ورئيسه عثمان «ض» . وبما أن موسم الحج يجعل الافئدة تهوي الى

= بن عمر ، وكان عبدالله بن عمر على بيت ابي موسى. قال عمرو : ايفعل ذلك عبدالله بن عمر ؟ قال ابو موسى : نعم ، اذا حمله الناس على ذلك فعل . فعمد عمرو إلى كل ما مال اليه ابو موسى فصوبه وقال : هل لك في ابني عبدالله وهو اهل علم ودين. قال ابو موسى : لا ، فعدد له عمرو جماعة وابو موسى يأبى ذلك الا ابن عمر فاخذ عمرو الصحيفة وطواها الخ) .

وكما ترى في القصة المذكورة ان فكرة عزل ولي الحق علي (ع) ومعاوية لم تكن الا من افكار ابي موسى وعرفنا ان ابا موسى كان هواه خطابياً واذا علمنا ان عبدالله بن عمر كان على بيت ابي موسى لانه كان متزوجاً منه ورأينا ان ابا موسى لا يرشح سواه خرجت لنا قضية متواصلة الحلقات ؛ وهي تفسر تخلف عبدالله بن عمر عن المبايعة لعلي (ع) . ولو طرحنا كل ما هو ظاهر حق في هذا فمما لا ريب فيه ان ابا موسى كان يزيد الاحداث في المسلمين ليضعف من شأن علي(ع)، وما كان يعمل على تهدئتها .

المدينة من مختلف الاقطار ، انتقلت الفكرة الحزبية الى الحواضر والبوادي ، وابتدأت المغالبة تأخذ شكلاً رهيباً وقوياً شرساً .

وعليه فالذي مهد لمصرع عثمان هم العثمانيون أنفسهم وحزبه الخاص الاموي . وبعبارة أكثر لباقة وأكثر تأدية وافادة ، ان عثمان (ض) هو الذي صرع نفسه أو أدى الى مصرعه .

ولترى ضرباً من تنازع هذه الاحزاب ، نسوق ما أثبته المسعودي قال : (وولي الكوفة بعده سعيد بن العاص ، فلما دخل سعيد الكوفة والياً أبى أن يصعد المنبر حتى يغسل.وأمر بغسله،وقال ان الوليد كان نجساً رجساً. فلما اتصلت أيام سعيد بالكوفة ظهرت منه أمور منكرة واستبد بالاموال . وقال في بعض الايام وكتب به الى عثمان : إنما هذا السواد فطير لقريش ، فقال له الاشتر وهو مالك بن الحرث النخعي . اتجعل ما أفاء الله علينا، بظلال سيوفنا ومراكز رماحنا، بستاناً لك ولقومك ؟ ثم خرج الى عثمان في سبعين راكباً من أهل الكوفة . فذكروا سوء سيرة سعيد بن العاص وسألوا عزله عنهم ، فمكث الاشتر وأصحابه أياماً لايخرج لهم من عثمان في سعيد شيء ، وامتدت أيامهم بالمدينة ، وقدم على عثمان أمراؤه من الامصار منهم عبدالله بن سعد بن ابي سرح من مصر وسعيد بن العاص من الكوفة . فاستشارهم فقال عبدالله بن ابي سرح ليس بكثير عزل عامل للعامة وتولية غيره . وقال سعيد بن العاص إنك إن فعلت هذا كان أهل الكوفة هم الذين يولون ويعزلون فجهزهم في البعوث . حتى يكون هم أحدهم أن يموت على ظهر دابته . قال فسمع مقالته عمرو بن العاص . فخرج الى المسجد فاذا طلحة والزبير جالسان في ناحية منه . فقالا له الينا . فصار اليهما فقالا فما وراءك . قال الشر ما ترك من المنكر شيئاً الا فعله وأتى به . وجاء الاشترُ فقالا له ان عاملكم الذي قمتم فيه خطباء قد رد عليكم وأمر بتجهيزكم في البعوث وبكذا وبكذا ، فقال الاشتر والله قد كنا نشكو سوء سيرته وما قمنا به خطباء . فكيف وقد قمنا ؟. وايم الله على ذلك لولا اني انفدت النفقة وانضيت الظهر لسبقته الى الكوفة حتى أمنعه دخولها . فقالا له فعندنا حاجتك التي تقوتك في سفرك قال

فاسلفاني اذاً مائة ألف درهم . قال فاسلفه كل واحد منهما خمسين الف درهم فقسمها بين أصحابه وخرج الى الكوفة ، فسبق سعيداً وصعد المنبر وسيفه في عنقه ما وضعه بعد ثم قال: أما بعد فان عاملكم الذي أنكرتم تعديه وسوء سيرته قد رد عليكم وأمر بتجهيزكم في البعوث فبايعوني على أن لا يدخلها ، فبايعه عشرة آلاف من أهل الكوفة ، وخرج راكباً متخفياً يريد المدينة أو مكة فلقي سعيداً بواقصة . فأخبره بالخبر فانصرف الى المدينة وكتب الاشتر الى عثمان : انا والله ما منعنا عاملك الا ليفسد عليك عملك؛ولِّ من أحببت، فكتب اليهم انظروا من كان عاملكم أيام عمر بن الخطاب فولوه، فنظروا فاذا هو ابو موسى الاشعري فولوه).

هذه حكاية تعرفنا مبلغ خطر النزاع الحزبي في استعجال الحوادث ، فقد استحث طلحةُ والزبيرُ الاشتر ومداه بالمعونة المادية ، ليقوم بغرض من شأنه التهييج على اجراءات الخلافة ، ورأينا كيف كان عمرو بن العاص يقوم بمهمة التجسس ورأينا أيضا كيف تلقاه طلحة والزبير كأنما كانا موفديه بمهمة تسقط الاخبار واستراقها .

هذه الاحزاب كلها كانت تعمل ضد الخليفة بالذات ، بينما كان حزب علي يقوم بالنصح والارشاد والتوسط أحياناً لحل المشاكل الداهمة أو المفاجئة . فقد ذكر المسعودي قال : (لما جاءت جموع الامصار الى المدينة وأخبر بهم عثمان بعث الى علي بن ابي طالب فأحضره . وسأله أن يخرج اليهم ويضمن لهم عنه كل ما يريدون من العدل وحسن السيرة. فسار علي اليهم فكان بينهم خطب طويل، فأجابوه الى ما أراد وانصرفوا)

إذن فلم تكن مهمة حزب علي سوى المحافظة على ترسم النهج النبوي فقط ، دون التهجم على شخص الخليفة الذي يحترمونه باحترام الخلافة التي هي نيابة عن الرسول الأعظم (ص) . هذا هو علي حقاً الذي لا يعرف فؤاده الكبير معنى للختل والمخاتلة وتدنيس الضمير . ولو كان ناقماً حقيقة على شخص عثمان ، لاستغل مثل هذه الظروف التي كانت تضمن له كل شيء .. وفي نظري انه لولا

وجود علي في خلافة عثمان لانهارتْ من أول عاصفة . ولكن كان علي (ع) دعامتها وسندها المتين .

وبينما كان علي كرم الله وجهه واقعاً تحت ثورة من الحزن على زميله ورفيقه عثمان رحمه الله (وبدا [1] كأنه الواله الحزين فقال لابنيه كيف قتل امير المؤمنين وانتما على الباب ؟ ولطم حسناً وضرب حسيناً وشتّم محمد بن طلحة ولعن عبدالله بن الزبير) نجد طلحة يقول لعلي وهو في ثورته ، وفي مقاله مبلغ الشماتة والتشفي (لا تضرب يا ابا الحسن ولا تشتّم ولا تلعن ، لو دفع مروان ما قتل ونجد عائشة (ض) حين اشتد الامر على عثمان(ض) ودعاها مروان لتصليح شأنه مع الناس . قالت [2] (لعلك ترى اني في شك من صاحبك ، أما والله لوددت انه مقطع في غرارة من غرائري واني اطيق حمله فاطرحه في البحر)

* * *

علي (ع) في الخلافة :

علي بن ابي طالب مظهر فـــذ من مظاهر التكامل الانساني ، ونموذج بارع من نماذج التفوّق البشري ، ومثـــال لبلوغ الاستعداد الكامن في النسم . وقـــد اجتمعت اليه أسباب عديدة من الطبيعة أو الفطرة ، والوراثة والبيئة والتّربية ، حتى قدّمت فيه تلك الشخصية الكبيرة . والتقت عنده الطبيعة القابلة ، بالتّربية النبوية الفاضلة، والوراثةُ العريقة بالبيئة السامية . وكانت حقيقته من وراء ذلك تمده بما يتناهى به . حيث تقصّر الاخيلة وتنحسر التصورات :

وفي أخصر عبارة ، كان انساناً ذا أنحاء . تلتئم حلقتا بطانه على العالم والحكيم ، والعبقري المتحرر والمفكر الجريء ، والمتشرع والخطيب ، والمغامر والمجاهد . هذه أمة من الابطال ، تجيء في بطل من الامة ، فلا عجب أن عددناه

---

(١) عبارة المسعودي في المروج .

(٢) راجع تاريخ اليعقوبي .

عنوان الكفاءة والبطولة العربية في كل التاريخ . وان من شاء أن يعرف مبلغ ذهنيته الفذة كرم الله وجهه، فما عليه الا أن يقف عند عهده الى الاشتر النخعي . هذا العهد الذي يكشف عن تمام فكرته الاصلاحية ومراميه الانشائية ، في نواحي الدولة عموماً .

وكان يسعى عليه السلام أن يضع تشريعات مفصلة ، تتناول الجهات كافة في الحياة المدنية والدينية والعسكرية . والذي لا ينكر أن عقله الضخم كرم الله وجهه يميل الى الاتجاه العلمي أكثر من أي اتجاه آخر ، حتى يبدو عقلاً إنسايكلوبيدياً خالصاً .

ولذا كان المجتمع الاسلامي بعد توسعه الخطير ، أكثر ما يكون حاجة الى عقل كهذا العقل يعمل على النهوض به والارتفاق بمصالحه ، ويضع له قاعدة النظام التي منها يبدأ دور الاستقرار ، ويقوم عليها بناء الحكم النموذجي الثابت .

ولولا أن الاستطراد يخرج بالموضوع عن منهجه ، لوضعت هذا العهد [1]

---

(١) نقتطف منه بعض نظرياته التشريعية :

(نظريته في النظام الطبقي) قال (ع) : واعلم ان الرعية طبقات لا يصلح بعضها الا ببعض ولا غنى ببعضها عن بعض ، فمنها الجنود ومنها كتاب العامة والعامة ومنها قضاة العدل ومنها عمال الانصاف والرفق ومنها اهل الخراج . ثم يذهب في شرح كل طبقة ومميزاتها بحيث نراه يميل إلى مذهب التخصص على مراتب الكفاءآت . وهذا اول بارقة من النظام في المحيط الاسلامي الذي كان لا يبني التعيين والعزل على الكفاءة والتخصص .

(نظريته في الموظف الحكومي) قال (ع) : فول أنصحهم في نفسك لله ولرسوله ولامامك وانقاهم جيباً وافضلهم حلماً ممن يبطىء عن الغضب ، ثم الصق بذوي الاحساب واهل البيوتات الصالحة والسوابق الحسنة فانهم جماع من الكرم وشعب من العرف .

(نظريته في الموظف المالي) قال (ع) : استعملهم اختباراً ولا تولهم محاباة وأثرة ، فانهم جماع من شعب الجور والخيانة وتوخ منهم اهل التجربة والحياء من اهل البيوتات الصالحة والقدم في الاسلام فانهم اكرم اخلاقاً واصح اعراضاً واقل في المطامع اشرافاً وابلغ في عواقب الامور نظراً .

(نظريته في رواتب الموظفين) قال(ع) : واسبغ عليهم الارزاق فان ذلك قوة لهم على استصلاح انفسهم وغنى لهم عن تناول ما تحت ايديهم واستمالة الغير لهم وحجة عليهم ان خالفوا امرك او ثلموا امانتك. وهذه نظرية من اهم النظريات في التعيينات والتشكيلات، حتى اني كل رجال الادارة =

العظيم موضع التحليل . ودللت على مناحيه العامة فيما يختص بالتنظيم العام . ولكن لا يسعني وأنا أضع صورة عجلى من الانبعاثات في أسبابها المتلاحقة ، الا أن أتجاوز كل ما لا يمت اليها بسبب قريب أو منها في مكان الجزء .

ذكرت في الحديث عن الاحزاب التي وجدت في عهد عثمان (ض) انها كانت تجتمع على خصومة حزب علي (ع) . وقلت هناك إن هذه ملاحظة لها أهميتها في فهم نكوص طلحة والزبير وخروج عائشة .

وأما الاسباب التي جعلت هذه الاحزاب تميل ميلاً ضده، وتعمل مجتمعة على إبعاد هذا الامر عنه ، رغم ما هو منفرد به من مؤهلات دينية وعقلية ، ومجتمع له من سابقات نادرة النظير في حقل هذا الدين . فانها خفية الى درجة الغموض ، ولكن نستطيع أن نقول قولاً يعلل الموضوع في جملته . وهو ما لمسوه من هوى الناس وتعلقهم ببيت علي (ع) ، ومعنى هذا أن الخلافة إذا وصلت اليه لن تخرج عنه أبداً . وبذلك يكونون قد أخذوا الفرصة على أنفسهم .

= على رجاحة النظرية الانجليزية في تضخيم رواتب رجال العدل حرصاً على ان لا يؤخذوا بالرشوة .
(نظريته في وجوب التفتيش على اعمال الموظفين) قال (ع) : ثم تفقد أعمالهم وابعث العيون من اهل الصدق والوفاء عليهم فان تعاهدك في السر لأمورهم حدوة لهم على استعمال الامانة والرفق بالرعية فان احد منهم بسط يده إلى خيانة اجتمعت بها عليه عندك اخبار عيونك اكتفيت بذلك شاهداً فبسطت عليه العقوبة .

(نظريته في التجارة والتجار) قال (ع) : ثم استوص بالتجار واوص بهم خيراً المقيم منهم والمضطرب ، واعلم مع ذلك ان في كثير منهم ضيقاً فاحشاً وشحا قبيحاً ، واحتكارا للمنافع وتحكماً في البياعات ، وذلك باب مضرة للعامة وعيب على الولاة فامنع من الاحتكار وليكن البيع سمحا بموازين عدل واسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع فمن قارف حكرة بعد نهيك اياه فنكل به وعاقبه في غير إسراف . هذه نظرية في اصول التشريع التجاري خطيرة ؛ والحقوقيون على اختلاف في نفع وضرر تدخل الحكومة في (التحكم في البياعات) .

(نظريته في وجوب اعتماد الحكومة على الاصلاح والعمران في مقابل الضريبة) قال (ع) : وليكن نظرك في عمارة الارض ابلغ من نظرك في استجلاب الخراج لأن ذلك لا ينال الا بالعمارة ومن طلب الخراج بغير عمارة اخرب البلاد واهلك العباد ، وان العمران محتمل ما حملته وانما يؤتى خراب الارض من اعواز اهلها وانما يعوز اهلها اشراف انفس الولاة على الجمع وسوء ظنهم بالبقاء

هذا أقرب ما يمكن ظنه في هذا المجال الذي يجمع النقيضين على أنهما شيء واحد؛ فقد ظهر لنا مما مر أن طلحة والزبير كانت لهما سياسة مناوئة جداً لسياسة عثمان ، وما زالا يعملان حتّى انتهى الظرف بمصرع عثمان الشهيد ؛ وكانت كلمة طلحة التأبينية (لو دفع مروان ما قتل) التي معناها كما هو واضح أن القتل وقع موقعه ، وجاء في محله ، وما جاوز موضعه ، وما عدا أن يكون قانونياً . وسمعنا كيف يحدثنا اليعقوبي عن موقف عائشة حياله ، وما كان من قولها فيه ، وزاد بأنها كانت تهيج عليه فقد ذكر اليعقوبي (ان عثمان أغضب عائشة ام المؤمنين ، وانه نقص ما كان يعطيها عمر بن الخطاب فتربصت بعثمان ، حتّى رأته يخطب الناس فدلت قميص رسول الله (ص) ونادت يا معشر المسلمين هذا جلباب رسول الله لم يبل وقد أبلى عثمان سنته)

هذا موقف يقضي على هؤلاء جميعاً بأن يبتهجوا بما انتهت به الحوادث ، ويطمئنوا الى مجرى الامور التي تأخذ سيراً طبيعياً وفق ما مهدوا الى ذلك من أسباب ؛ وبالفعل لم يستاؤوا مبدئياً ، ولكن ما عمّ الامر حتّى انقلبوا أشخاصاً آخرين على النقيض مما عرفنا . هذا ما يجعلنا لا نتردد في انهم كانوا يحاربون السلطة في شخص علي (ع) مما يصدق معه ظننا السابق من رسوخ هذا الامر في أهل البيت بمجرد استحواذهم عليه .

هذا متجه في خروج طلحة والزبير ، وأما خروج عائشة فهو يعود في في أكبر ظني الى إغراء الزبير ، ولا ننس انه زوج اختها اسماء ، وأيضا لا ننس دالة عبدالله بن الزبير الذي كنيت به لفرط حبها له . وقد وافق عندها ميلاً خفياً وهوى كامناً ، عبرت عنه فيما بعد بقولها ، (ما كان بيني وبين ابن ابي طالب الا كما يكون بين المرأة وابن زوجها) ولهذا أيضا أسباب فيزيولوجية ونفسية عند السيدة عائشة (ض) ، فاننا اذا علمنا أن حديث الإفك جرى وهي في اخريات دور المراهقة ، وعلمنا ان هذا الدور خطير الاثر (كما يقرر الاطباء) أو له كل التأثير على البناء العضوي ، وهو أيضا شديد الحساسية ، بحيث يتكيف مستقبل الحياة بما يصادفه هذا الدور ، وعلمنا ان هذا الحديث كان بمثابة مفاجأة

ليست بقليلة ، وهي غضة الاهاب، لينة العود : لم يمنعنا من أن نحكم بأنها كانت عصبية المزاج . هذا السبب الفيزيولوجي ، والسبب الآخر النفسي ، هو أن السيدة (ض) لم تمر في الادوار الطبيعية تامة ، ولم تستوف مراحل النشأة كاملة . فلم تخل من طفرة في قطع هذه المراحل ، حيث لم تخرج عن دور الطفولة الى الشباب الذي هو دور الزوجية ، بل طفرت الى الزوجية وهي في دور الطفولة ، وكان زواجها من النبي (ص) الذي هو ، في ذلك الحين، الزعيم المطلق ذو الأعباء والتبعات . وهذا بلا ريب يترك آثاراً نفسية من جملتها الاعتداد بالرأي والاستهانة بما يجيء به الآخرون ، وعدم المبالاة ؛ وسيطرة الطفولة[1] في أبرز مناحي التفكير ، ضرورة عدم التحرر من أسرها تحرراً طبيعيا .

ولقد نلمس النضج التفكيري عند السيدة [2] أم سلمة (ض) حينما دافعتها عن أن تقوم بهذا الدور ، وحذرتها منه وبرهنت على نظريتها بتعليلات لا تدحض ؛ ولا يتسع المقام لايراد شيء من كتابها الحكيم .

والآن نعود بالنظر الى الحزب الأموي بعد الكارثة ، وكيف أخذ يعمل في معالجة الحال .

أولى البوادر أتى بها المغيرة ، حينما جاء الى علي (ع) يستكشفه رأيه ويستطلع طلع ضميره في الامويين ومعاوية على وجه الخصوص ، لما شعر العثمانيون بحرج مكانهم وضعفهم الشديد حتى اضطر اكثرهم للمبايعة (على ما اثبت المسعودي) . جاء المغيرة في ثوب الناصح الامين والمشير المشفق . ويحسن أن نثبت خبره كما جاءت به الروايات (جاء الى علي رضي الله عنه بعد مقتل عثمان بيومين ، فقال

---

(١) هذا من الوجهة النفسية صحيح جداً ومن اراد تزيد الشواهد على هذا فعليه بالرجوع إلى كتاب لسان الدين الخطيب الموسوم (بالاعلام بمن ولي الحكم قبل الاحتلام) فان هذه الظاهرة كانت كثيرة البروز في مناسبات احكامهم ؛ وهذا من اخطاء ممارسة الاحكام والشعور بعبئها قبل الاوان. وربما اوضح هذا متناقضات الحاكم بامره الفاطمي .

(٢) اثبتنا هذا الموقف الحكيم الرائع لأم المؤمنين (ض) في كتاب (ام سلمة) وعسى ان نخرجه عما قريب ، فانه يضع سيرة ام سلمة ويعرضها عرضاً واضحاً .

أخلني ! ففعل ؛ فقال المغيرة: ان النصح رخيص وأنت بقية الناس وأنا لك ناصح وأنا أشير عليك أن لا ترد عمال عثمان عامك هذا، فاكتب اليهم باثباتهم على أعمالهم ، فاذا بايعوا لك واطمأن أمرك ، عزلت من أحببت وأقررت من أحببت؛ فقال علي : والله لا اداهن في ديني ولا اعطي الرياء في أمري . قال فان كنت قد أبيت فانزع من شئت واترك معاوية ، فان له جراءة هو في أهل الشام مسموع منه ، ولك حجة في اثباته فقد كان عمر ولاه الشام كلها ، فقال له لا والله لا أستعمل معاوية يومين أبداً)

اعتقد أن المغيرة لم يبايع حتى الآن ، لأنه كان مع الجماعة العثمانية . لم يكن الا دسيسة (١) من قبل الامويين ، تستطلعه رأيه فيهم بطريقة لبقة ، وقد فهم كل ما يود أن يفهم ، وبالاخص فيما يتعلق بمعاوية . وربما شهد لهذا أن كلامه عن معاوية في شقه الاخير لا يشبه توجيه النظر بل الدفاع ، وتأمل هذه العبارة منه (ولك في اثباته حجة فقد كان عمر ولاه الشام كلها) وهل الخليفة في حاجة الى حجة من عمل غيره في تثبيت رجل أو عزله ، مما يعطي انه بالدفاع أشبه أو هو الدفاع بعينه .

ولما أيقن معاوية بأنه لا بد من عزله وان لا رجاء ولا حيلة على ما أنمى اليه المغيرة من الحديث . ابتدأ الصراع ففكر بالمطالبة بدم عثمان (ض) باشارة عمرو ابن العاص (على ما ذكره المسعودي) ولم تكن فكرة شخصية لمعاوية. ومن أجل هذه الغاية اجتهد بالاستيلاء على قميص عثمان مخضباً بدمائه للتهييج والاثارة ، وقد كان للسيدة أم حبيبة (ض) اخت معاوية وللنعمان بن بشير في الاستحواذ عليه وايصاله الى يد معاوية أثر كبير .

والذي يؤيد هذا التقدير ان فكرة الذهاب بالقميص الى معاوية جاءت

---

(١) راجع المسعودي في المروج ج٢ ص ٢٥٦ فقد اثبت ان معاوية بعث إلى المغيرة بن شعبة الثقفي بكتاب يقول فيه قد ظهر من رأي ابن ابي طالب ما كان يقدم في وعده لك في طلحة والزبير فما الذي بقي من رأيه فينا .

متأخرة جداً مما يجعلنا لا نشك بأنها نتيجة فكرة مختمرة بدأت تجمع الخيوط لتحرك الدمى على حسب الأدوار .

وقد ساعدت الامويين الظروف ، بأن هيأت في موقعة الجمل فرصة مكنتهم من أخذ الاهبة والاحتياط لأنفسهم والاستفادة من ضعف الجانب الذي سيستقبلونه بالكفاح . والحقيقة انهم استفادوا من وقعة الجمل كثيراً حتى خدعة رفع المصاحف التي أشار بها عمرو بن العاص في صفين . فقد ذكر المسعودي (ان علياً (ع) بعث رجلاً من أصحابه يقال له مسلم معه مصحف يدعو الى الله فرموه بسهم فقتلوه)

* * *

أسباب فشل سياسة علي (ع) ونجاح السياسة المعادية :

أرى أن السبب في نجاح سياسة الامويين ، لا يرجع الى الاستعداد الخارق والمقدرة الفائقة واللباقة الممتازة ، وفقر السياسة الاخرى التي تعمل ضدها من هذه المؤهلات ، بل الى أشياء أخرى سنجتهد بتمثيلها تحت نظر الدارس .

والحق انا اذا درسنا سياسة علي (ع) وسياسة معاوية ، على مناهج علوم النفس والسياسة والاجتماع والقانون ، نرى عمق سياسة علي ونفوذها و رجاحة خططه ونرى أيضاً كيف يبني ويهدم تبعاً لنظر دقيق وتفكير موفق ؛ وانما جاء فشلها من نواح :

(١) ان التربية الدينية لم تشمل العرب على وجه صحيح ، ولم يعن الخلفاء بنشرها على الطريقة الوجدانية التي اختمرت في نفس ابي ذر (ض) فقام بنشرها مجتهداً ؛ والحق أن العرب تناولوا الاسلام كطقوس يؤدونها ويحاكون في ادائها ، وهم لا يبعدون في ممارستها عن ممارسة تقاليدهم الجاهلية . وقد رأينا كيف كان العربي لا يرى هذه التقاليد شيئاً مذكوراً إذا وقفت في سبيل اغراضه . فقد سب امرؤ القيس الهه ، وأكل عمر صنم التمر الخ ؛ ولم يتناولوا الاسلام كاعتقاد له سيطراته الوجدانية العميقة وتحكماته الضميرية البالغة ؛ ولم يؤخذوا برياضة نفسية على تعاليم

الاسلام المقصودة بقوله عليه السلام (رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر) ليكونوا في النهاية مسلمين بالمعنى القرآني الذي عبر عنه أمير المؤمنين (ع) بقوله (عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم) وقد عرف بالدعوة اليها أفراد من مثل ابي ذر ومعاذ بن جبل ورافع بن خديج .

هذا سببٌ في ضعف التربية الدينية ؛ وسببٌ آخر هو قيام الاسلام على أن يأخذ شكلاً دولياً الى جانب كونه دين مبادىء وقوانين . وأعني بها أن الاسلام قام ديناً تبشيرياً ، وانتهى ديناً له طابع الدولة ؛ ولذا كان السابقون من المسلمين مؤمنين بالمعنى الصحيح ؛ مؤمنين على معنى وجود الروح الدينية القوية . وأما أولئك الناؤون في أطراف الجزيرة ، والذين ضمهم الاسلام بسلطانه ، فقد كانوا مسلمين على معنى الطاموس ، ولم يتضلعوا من الايمان . هذا التعبير النبوي البالغ حد الاعجاز ؛ ولذا جعل القرآن فرقاً بين الايمان والاسلام . قال تعالى : (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم) وان ما نقرر من تفاوت الصحابة في أطوار العقيدة ، هو ما قرره القرآن بالذات فلا يقع موقعاً عجباً ، واتل قوله تعالى : (الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليمٌ حكيمٌ . ومن الأعراب من يتخذُ ما ينفق مغرماً ويتربصْ بكم الدوائر عليهم دائرة السوء واللهُ سميعٌ عليمٌ . ومن الأعراب من يؤمنُ بالله واليوم الآخر ويتخذُ ما ينفقُ قرُبات عند الله وصلوات الرسول إلا أنها قربةٌ لهم سيدخلهم اللهُ في رحمته إن الله غفورٌ رحيم . والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار الذين اتبعوهم باحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الانهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم).

هذه الآيات واضحة فيما نقول . وأوضح ما تكون في أن الصحابة يتفاوتون تفاوتاً يشمل أساس الايمان . تأمل جيداً التعبير في جانب الاعراب (وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله) العلم التفهم والمعرفة . وتأمل جيداً التعبير في جانب الطائفة الاخرى من الاعراب (ومن الاعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر) أي يقف عند حدود الرسوم ؛ وقف طويلاً عند قوله في جانب الذين غذوا بروحانية

هذا الدين وهم المهاجرون والانصار (رضي الله عنهم ورضوا عنه) .

وتعليل هذا التفاوت أن الاسلام ، كما قلنا ، قام ديناً تبشيرياً نقي التعاليم واضح المبادىء ، وانتهى ديناً ودولة ؛ وبذلك وجد فيه العرب الناؤون أو الأعراب حكومة ترعى مصالحهم وديناً له أشكاله وطقوسه فاندغموا فيه في حدود شخصيتهم المكونة من عنعنات وعادات وتقاليد سابقة ، فلم ينصهروا في بوتقة الاسلام ؛ ويخرجوا سبيكة أخرى بل ظلوا على ما كانوا ، بيد انهم خرجوا من حال الى حال . وشاهد هذا حكايةٌ يرويها صاحب الاغاني في ترجمة (عمرو بن معد يكرب الزبيدي انه قال وهو في محلة زبيد مـــن الكوفة لصديق له في الجاهلية ، كان يغتبق معه: هل لك في غبوق؟ . فقال : كيف وقد نهى الله عنه ، فقال عمرو : والله لقد قرأت كتاب الله من الجانب الى الجانب فما وجدت فيه تحريماً غير قوله بعد أن ذكر أنها رجسٌ من عمل الشيطان . (فهل أنتم منتهون) فقلنا : لا . فسكت وسكتنا ! ..

هذه القصة تشعرنا بأشياء كثيرة ؛ كالاستخفاف والفكاهة الساخرة . وقد وصفهم النبي (ص) فأبلغ في صفتهم قال (يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية) وهذا هو السر في حض النبي (ص) الأعراب على الهجرة اليه .

ومن ثم اتسعت نفسية العرب للردة . واتسعت لأشياء أخرى من التحزب والانشقاق الملي .

ونجد سبباً ثالثاً كان له أثر في عدم الشعور بروح الاسلام وعدم الشعور بمعنى القومية والامة الواحدة . وهـــو التعجل بالفتوح الذي نقل العرب قبل اختمار المبادىء عندهم في أنحـــاء الأرض غازين ، ولكن بعقلياتهم الأولى التي تفهم القبيلة قبل الأمة ، وتعرف الفرد قبل الجماعة . وتفقه الاسلام على أنه أعمال فقط ؛ قبل أن تفقهه على أنه ضمير ووجدان وروح .

وبهذا نفسر الظاهرة الاجتماعية في كل محيط غلب عليه العنصر العربي .

كالعراق والمغرب والاندلس؛ هذه الظاهرة التي هي نتيجة للروح القبلية؛ وبعجلة الفتوح لم يترك للاسلام المهلة ليفعل فعله فيها .

فقد كان اذاً أخذ علي (ع) لهؤلاء بالسياسة الدينية الصارمة ، وهم على غير استعداد لها وحدها سبباً من أسباب الفشل .

(٢) سياسة علي (ع) القانونية ، فقد كان يلتمس لكل اجراآته وجوهاً من القانون أي دينية ،ويجتهد بايضاحها قبل أن يقوم بحركة ما . ولاشك في أن طبيعة القانون غير طبيعة الظروف والمفاجآت ؛ هذا سبب ثان للفشل . بينما كانت سياسة معاوية لا تتقيد بحدود ولا بأوضاع ، وانما تركب كل صعب وذلول في سبيل أغراضها . وكذلك سياسة مستشاره عمرو .

وخليق بهذه السياسة أن تظفر ، لأنها مشتقة من طبيعة الحوادث ومن طبيعة الأطماع ومن روح الاستمالة . وجدير بهذه الخطة أن تسمى سياسة (خبية) وهي ليست من ديدن المحافظ ؛ ولذا قال عمر بن الخطاب (لست بخب والخب لا يخدعني)

وشرح هذا بأن نذكر ما جاء في كتاب [١] «تاريخ التمدن الحديث»للدكتور «شارل سنيوبوس» لما تكلم عن القيصر بطرس الاكبر ، فقد علل أعماله العظيمة التي قام بها بنشأته الجاهلة العملية ، بسبب اهمال أخته له حينما كانت وصية عليه تمارس سلطته في الحكم . فلم يتهذب على ضوء التعاليم الخاصة التي يؤخذ بها عادة أولياء العهد ، ولم يؤخذ باحترام ما هو راسخ في البيئة الروسية ، ولم يسيطر وجدان عليه من العادات أو القانون . فكانت كل هذه لا قيمة لها في جانب ميولة وأفكاره ، ولا قداسة لها الا بمقدار ما تحلو له . فخرج بفكرة هدامة وقام بأعمال جريئة وفاجأ مجتمعه بمفاجآت مثيرة . .

وبالجملة فهذا الدور ، لا يستطيع أن يقوم به لو نشأ تلك النشأة الخاصة ،

---

(١) راجع ص ١٢ و١٣ و١٤ و١٥ .

التي كانت بدون ريب ستزوده بشعور خفي يعوقه كثيراً عن القيام ببرنامجه . وهذا معقول،فقد كان يقضي عليه أن يلتمس لاعماله شكليات تبرر عمله أمام نفسه قبل كل شيء . وفرق بين أن يكون مسوقاً بشعور نفسي ليبرر عمله على مقتضى تقاليد الوسط ، وبين أن يكون مبرر عمله أنه يريده فقط .

هذا ميزان نستطيع أن نزن به سياسة علي (ع) ومعاوية . فقد كان علي محافظاً دينياً لا يمكنه أن يسوس الناس الا على قانونه الخاص الذي يسيطر عليه . ولا يتحلل من أسره . ولذلك هو يلتمس لنفسه دائماً شواهد من القانون تبرر عمله ، فان لم يجدها أحجم إحجام المذعور . ومن ثم لا يعطي اذنه لأي ناصح مهما علم صدقه وصدق رأيه ، ما دام لا يتفق مع الدين أي القانون الذي يحترمه علي(ع) ويعمل به .

بينما كان معاوية متحللاً من هذا القيد، فلم تكن سياسته قانونية بل سياسة ظرفية . ومن ثم كانت قمينة بالنجاح وجديرة بأن لاتفشل .

(٣) روح العراق التي كانت قبلية في ذلك العهد على شكل وبيل فظيع . اذ كان يجمع أقواماً من قبائل شتى ،وجهات مختلفة تقوم في مجموعها على التقليد البدوي القديم الذي لم يؤثر فيــه الاسلام شيئاً لأنه لم يهاجمه في محل العقيدة ومكان الضمير ، وانما هاجمه في الاعمال الظاهرة والشكل الصوري فقط . ولا يخفى أن البدو يكونون دائما آفة على النظام ، ويوطنون أنفسهم دائماً على الخروج والتمرد والعصيان؛ وبذلك يكونون عامل ضعف لا قوة ، وسبباً كبيراً من أسباب الفشل في كل حركة .

هذه ملاحظة قيمة أثبتها لورانيس في كتابه (الثورة العربية) ؛ وبهــذا أعلل كل الاضطرابات التي ثارت في محيط العرب ، وأبرزهــا إكراه خليفــة كعلي (ع) على قبول التحكيم وتهديده بأن يفعل به كما فعل بعثمان (ض) . ولقد قال علي كرم الله وجهه في كلمة له (لا رأي لمن لا يطاع) وفي كلمة أخرى (لا طاعة لمن لا يأتمر)

بينما كانت روح الشام نظامية جداً، فقد فتحت صلحاً، وبقي فيها كل الشعب الذي خضع لحكم الغساسنة الذي هو بيزنطي محض ؛ فهم كانوا افقه لمعنى النظام وتعوّد الخضوع له ، بخلاف شعب العراق الذي كان مؤلفاً من قبائل جديدة انحدرت من الجزيرة حاملة لروحها الوبيلة ، ولم تتعود الخضوع للنظام أبداً .

(٤) من القضايا الثابتة أن البدوي يؤخذ بالاحتكام والخوف والسيطرة ، وبعث الرعب في نفسه والتظاهر عليه بالقوة ؛ والحضري يؤخذ بسياسة اللين . وجاءت هذه الحقيقة الثابتة في كل تقريرات قواد الحرب في جبهة الشام وصحراء العرب ؛ وأصحاب الرحلات في المناطق البدوية ؛ وهذا صحيح نظرياً أيضاً على ما يقرر النشوئيون وعلماء الاجتماع ؛ فان البدوي يرى في سياسة اللين سياسة ضعف وخور تطمعه وتستخفه بالحكم .

هذه أسباب اجتمعت على فشل [1] سياسة علي (ع) . ثم ما كان من تظاهر الأسباب التي قدمنا ذكرها في الكلام على فترة حكومة عثمان (ض) . وأيضاً لم تكن لمعاوية ظروف علي (ع) الصعبة ، فهو لم يبايع حتى يلزم ببيعته . ثم هو يطالب بباطل يشبه الحق . لأن إقامة الحدود من شأن السلطات لا الأفراد ولا الجماعات ، وإلا جرّ ذلك الى فوضى التقاضي ، كما أن الشريعة جاءت (على ما ذكر ابن نجيم في الاشباه) بأن الحكم يضاف الى المباشر لا المسبب (على فرض أن علياً كان مسبباً) .

فكان الذي يؤخذ ، من الناس، قتلة عثمان الذين باشروا القتل بالنفس وهم

---

(١) ان المقدرة السياسية لا تقاس بمقدار النجاح بل بمقدار ما تكون مقدماتها التعليلية صحيحة لان الفشل كثيراً ما يكون نتيجة مفاجأة لم تكن في الحسبان ، كما وقع لعلي (ع) بالفعل في حركة الخوارج ولولاها لكان نجاحه مضموناً او محتوماً، ودليل هذا ان السنيور (مازيني) صاحب الكلمة الخالدة (مفاتيح البحر الابيض سقطت في البحر الاحمر فالفوز لمن يظفر بها) وهو صاحب محاولة فتح الحبشة التي انتهت بحادثة (عدوة) الشهيرة اي انتهت بفشله وهو هو صاحب الدماغ السياسي الكبير .

ثلاثة فقط لا أن يؤخذ بدمه أهل المدينة والكوفة والبصرة ومصر ، وبعبارة أخرى الأمة بأسرها . ومن ثم تظهر مغالطة الذين نادوا بدم عثمان وطالبوا به ، وليست الشريعة جاهلية تقوم على الانتقام والثأر .

والحق أن الأشتر النخعي خلق أكبر مشكلة لعلي (ع) ببدئه بالمبايعة قبل أي شخص آخر ، وهو من الذين عرفوا بالثورة على عثمان ، وبذلك يكون قد حمل عليا (ع) الجرم كاملاً ؛ ولقد فهم هذا علي بدليل جوابه له (ليس ذلك اليك انما هو لأهل الشورى وأهل بدر فمن اختاروه فهو الخليفة ، فنجتمع وننظر في هذا الامر) .

وسوى هذا فان ما انتهى به التحكيم ، كان له أثر كبير في الخطة الحاسمة والمعركة الفاصلة ، فقد جمع أهل الشام حول أميرهم ، ومكن عندهم وجهة نظرهم ، على ما في طبيعتهم من احترام للسلطة .

وبالعكس من ذلك كله كان الأثر في أهل العراق ، فقد تفرقوا وتنازعوا واختلفوا وخرجت منهم حارجة وبيلة الشأن ، على ما عندهم من استعداد بالفطرة . وهنا ينكشف لنا شيء آخر في علي (ع) وهي الشخصية النافذة ، فقد وقف على الخوارج وهم في أشد تمردهم ، فما أن رأوه في (حروراء) حتى دخلوا الكوفة ، وهذا كما أرى لمحل الشخصية الفعالة .

ولقد أخطأ من ظن من المستشرقين وسواهم ، أن الذي أظفر معاوية بهذه الحكومة هو عمرو بدهائه وغفلة ابي موسى . والحقيقة أن الذي أظفر معاوية وأكسبه النجاح ، هو ابو موسى نفسه الذي لم يكن ما أتاه غفلة وافوناً ، بل سوء نية ومكر حيث اقترح إقالة علي (ع) وترشيح عبدالله بن عمر . فقد يحتمل أن يكون غفلة لو كان يعمل لحساب علي كرم الله وجهه ، ولكن اما وهو يسعى لترشيح عبدالله بن عمر باستغلال الظرف فمما لا يحتمل أبداً .

على أنه أسقط في يده ، لأن الناس لا يفكرون بترشيح شخص ثالث جديد وهم يسعون الى الصلح . وأرى أن عمراً لم يظهر في هذا الموقف أي أثر من الدهاء ،

فقد كان كل ما عنده انه ردد كلاماً ردده كل الناس ، ولم يستطع أن يجيء بعقدة سياسية أو يخلق مفاجأة . بل الذي أوجد مفاجأة حقيقية هو ابو موسى بالترشيح المباده الذي وقع عند عمرو موقع الدهشة ، والذي جعله يفكر بشيء آخر : يفكر بأن يعمل لحساب ولده عبدالله ، وابنه هذا له مكانته ودينه وعلمه ، والذي يظهرنا على مبلغ أخذه بهذه المفاجأة وانصراف رأيه تزيينه لابي موسى في ابنه وثناؤه عليه ؛ والحق أن عمراً افتتن بهذه الفكرة وداخله الطمع ، وأخذ بالفكرة الى مدى بعيد .

واعتقد لو أن أبا موسى كان حسن النية من جانب علي ، لما استطاع عمرو أن يكسب شيئاً ولا أن يحيك ، وهو يعتمد على كلام مهلهل مله الناس من كثرة ما مضغوه وسمعوه من عائشة وطلحة والزبير ومعاوية وسائر أنصار الاموية.وخصوصاً إذا علمنا أن حديث الخطب بين ابي موسى وعمرو لم يعتمده كثير من المؤرخين ، فأبو موسى ليس مغفلاً كما يقولون بل من ذوي الاغراض والأحابيل .

* * *

الخوارج ونظرية الخروج :

في عبارة مأثورة يقول أمير المؤمنين (ع) لا تقاتلوا الخوارج بعدي ، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه) .

هذه كلمة تعبر أحسن تعبير وأصدقه ، عن مقدار احترام علي (ع) لخصومه السياسيين ، اذا كانت خصومتهم قائمة على مبدأ حقيقي وعقيدة موفورة وكرامة ودين . ثم هو يزيد في تقويم هذه الخصومة وينظر اليها نظره إلى شيء نبيل جدير بكل تقدير . والعجيب أن يتسع صدره العظيم لخصومة أقضته وهيأت لخصمه سبيل الظفر ، لأنها تقوم على شعور صادق وتزود بحماسة مخلصة . ولكن ليس ذلك بعجيب عند ذوي المشاعر الصادقة التي تعمل للحق ، وتجاهد في سبيله ، وتضحي لاعلاء كلمته . ثم نراه في الكلمة نفسها يبـــدي امتعاضه وازوراره النفور ممن يركب متن المنازعة ويلح لغرض أو هوى . فهو لا يخدم مبدأ ولا يدافع عن

قضية ولا يحامي عن اجتهاد مخلص . وانما يتمادى جموحاً ، ويطاول طموحاً ويغالب شنآنا . وفي لحنها تدلنا على موضع النبل في نفسه وعلى فطرة التقويم للمصارعة في الحق . وهي خلة الزم مـــا تكون للزعيم المسيطر ، إذ بذلك يترك للآخرين حرية الرأي ولا يستضيق الا بمريب .

هذا بعض من عناصر علي (ع) الكريمة النادرة التي جعلت المصطفى (ص) يغرس في تربة نفسه العالية الزكية نواته السماوية ، ليعطي به ثمراً أي ثمر ، ويجيء الوحي والتنزيل مشروحاً على لسانه .

ما لنا وللحديث عن علي (ع) فيما يخرج عن حدود تشخيص الأسباب التي أدت الى الزلزلة فالبركان .

ونستقبل الآن درس نشوء نظريـــة الخوارج التي لا نشك في أنها منتزعة من صميم الفكرة العربية .وظلت كذلك وما اختلطت بأشكال غريبة عن المحيط . وقد انبنت في اكبر ظني على استشعارات نفسية ، كبر عليهم معها أن يرضخوا للتحكيم . بعد تقدمات وجهوها في مدافعة الباطل . وبذلوها رخيصة طيبة في سبيل الله الذي لم يخالجهم شك في انه كذلك؛ والتحكيم معناه أن للخصوم شبهة حق . وهو ما لا يسمحون لأنفسهم بأن يمر طيفاً في الخيال أو خيالا في النفس .

ولا أدل على هذا من أنهم يتولون علياً (ع) الى ما قبل التحكيم . ونحن اذا علمنا ان علياً لم يكن من رأيه بل أكره عليه . واذا علمنا أن نظرية الخوارج مبالغة في إنكار هذه الحكومة . خرج لنا أنها تطرّف واغراق في نظرية علي (ع). أخذت بعد ذلك صوغاً دينياً ، وقامت على شبهة من الحق . ويشهد لهذا الذي ندعيه ما جاء في كتب التاريخ (أنه لما كتب شروط الصلح عاد معاوية بجنده الى الشام . أما جند علي فان الاشعث بن قيس خرج بكتاب الصلح يقرأه على الناس ويعرضه عليهم يقرأونه حتى مرّ به على طائفة من بني تميم . فيهم عروة بن أدية وهو ابن ابي بلال . فقرأه عليهم فقال عروة أتحكمون في أمر الله الرجال ؟ لا حكم الا لله الخ) . واذا أوغلنا في درس شخصيات الخوارج ، وجدنا أكثرهم

من الرجال الذين عرفوا ببغض معاوية والاستخفاف به الى حد منكر ، قبل الفكرة ذات الطابع الخارجي الخاص ، أمثال شبث بن ربعي التميمي ، ، فمما لا نشك فيه أن فكرتهم كانت وليدة الحمية للرأي والانتصار للنفس .

وفي الحق أن الخوارج قبل الخروج، كانوا أكثر ما يعرف اخلاصاً لعلي (ع) ، وقد ظل له في أنفسهم فراغ كبير ، ولكن الفكرة الجديدة تركزت عندهم ، حتى طغت على كل مناطق النفس ومعالمها ، وراحوا منها تحت تخدير وإعصار .

وبذلك يتضح لنا أن التحكيم أوجد أحزاباً ثلاثة في جند علي (ع) (أ) حزب مشتط في قبوله، وعلى رأسه الاشعث بن قيس وأبو موسى الاشعري وهو يضم الخائنين لعلي(ع). (ب) حزب متطرف في رفضه، وعلى رأسه عبدالله بن وهب . (ج) حزب معتدل لا يرفض التحكيم اذا قام على اعتبارات صحيحة، وعلى رأسه علي (ع) .

وعندنا أن هناك أسباباً أخرى أعانت على نشوء هذه النظرية . ومن أهمها اعتزال طائفة من الصحابة وقعودهم عن المبايعة والدخول في جماعة المسلمين . فسهّل للناس سبيل الانفراد بالرأي . ولا يفوتنـــا أن نذكر الآن أن الخوارج الذين أخلصوا في أوليتهم لعلي (ع) عادوا فصرعوه .

ويهمنا أن نسجل احتياط هذا الامام الفذ للدين وأهله ، وقد رأى في مصرع عثمان (ض) سابقة عانى المسلمون من شرها كثيراً ، واستغلها أرباب الهوى أقبح استغلال ، وقد خاف أن يقوم حزب له هذه الشارة والطابع بالنسبة اليه فيطالب بدمه ، فقال وهو ينظر الى المستقبل المظلم نظرة الحاني والمسلم الواله من أن تمزق هذا الدين زوبعة الاعاصير . فقال (يا بني عبد المطلب ، لا الفينكم تخوضون دماء المسلمين، تقولون قتل امير المؤمنين، لا تقتلن بي الا قاتلي.انظر يا أبا محمد إذا أنا متّ من ضربته هذه فاضربه ضربة بضربة).وكذلك كانت خاتمة هذا الامام الكبير التي عبر عنها أحسن تعبير بقوله (ع) (ليعظكم هدوئي وخفوت اطرافي، إنه أوعظ لكم من نطق البليغ).

* * *

الانقلاب الأموي أو الثورة على حكومة الخلفاء :

ويبدو للمتأمل أن توتر الخواطر ، وشيوع الاستنكار في أواخر عهد عثمان (ض) ثم الثورة التي صرعت الخليفة أو الملك ، ما زالت تدور في التفافات ذات موار وميد ، حتى أتت على خليفة آخر وطغت على المدائن والامصار ، ولم تستقر استقراراً حقيقاً الا بقيام عبد الملك بن مروان على يد الحجاج رجل الحديد والدم . كان حادثاً انقلابياً كبيراً ؛ أفاد العرب حين أشعرهم بوجود الامة من وراء القبيلة ، وكان يشبه أكبر شبه الثورة الفرنسية الكبرى ؛ لا من حيث المقدمات والنتائج ؛ بل من حيث الضبط والنظام والمصارع وتولد النزعات وتألب الثورة على نفسها أحياناً ، حتى بدت كالحية المحرورة تعض نفسها وتعض كل شيء ، وضعف الرجالات القائمين وسط هذه الزعازع عن ضبط العاصفة وتسييرها على المقتضي اللازم .

ومن ثم يتضح خطأ كل الذين وسموا سلطة علي (ع) بالسلطة الضعيفة ، فان من طبيعة الثورات أن لا تستقاد الا في آخر مرحلة ، وقلما يوفق القائم وسطها مهما كانت الامة مهذبة ومنزلتها في سلم الارتقاء عالية . وبالأخص إذا كانت الثورة تتعاكس عنده تياراتها ، فلقد يسلم من غولها القائم في الجوانب أو على الضفاف ، وأما سلامة القائم وسطها في حالة الاعصار ، فمما لم يصح في التاريخ أبداً ولا يصح في التقدير أيضاً ، ومن هنا يظهر خطأ المقارنة بين علي (ع) ومعاوية الذي لم يكن يستجوب [1] في شيء وعلي يستجوب في كل شيء ، وفشل الاول المحقق لطبيعة الظروف ، ونجاح الثاني المحقق لطبيعة الظروف أيضاً .

ولقد قلت فيما سبق أن الثورة لا تقاد الا في المرحلة الاخيرة ، فلم يكن عجيباً أن تسلس قيادها في يد معاوية . وربما كان انبعاث الخوارج الذي كان على غير

---

(١) ومن ناحية اخرى لم تكن لمعاوية صفة الخصم بالذات بل كان له صفة المتظلم الذي يطلب النصفة من الخليفة ، وبذلك يكون عمل الخصومة بدون ان يثير من حوله شبهة من الانتقاد. وبدون تعليق فان من الظاهر ان الموقف حرج جداً ، ومن هذا يظهر خطأ المقارنة بين الرجلين .

انتظار ومفاجئاً يشبه من كل الوجوه انبعاث الحزب الجمهوري الذي نادى بسقوط الملك وكان غير منتظر ؛ فقد قال الدكتور «سنيوبوس» في كتاب [1] « تاريخ التمدن الحديث » في الكلام عن دستور سنة ١٧٩٣ .

« ان الدستور عام ١٧٩١ أبقى على الملك والوزراء؛ ومع انه صيرهم ضعفاء فقد حاولوا أن يعترضوا على مجلس التشريع بأنه أراد النهوض بكل السلطة . وبحث شؤون الكهنة والمهاجرين وعدهم أعداء، وسن القوانين ضدهم، فأبى الملك التصديق عليها ورفضها ، وقام خلال ذلك حزب جمهوري قليل الانصار الا أن له الكلمة النافذة في أهل ضاحية باريس فهاج يومئذ واستولى على التويلري وأكره المجلس على المناداة بخلع الملك واستدعى مجلساً جديداً وهو الكونفانسيون في ١٠ اغسطس ١٧٩٢ الخ ». وليس عندنا ريب في أن هذه الثورة الانقلابية الكبرى في محيط العرب كانت من عمل الامويين ولقد استطاعوا أن يثيروها واستطاعوا أن يوجهوها لصالحهم وفائدتهم ، وأعتقد بأن كل قارىء لا يخالفني في أنها لم تقم على مبادىء نبيلة كالثورة الفرنسية تبررها مهما جاءت قاسية ؛ بل كانت على عكس ذلك ، اذ فصمت اطراد الروح القرآني وذبذبت تسلسل الدين ووضعت حداً لحكومة القرآن ولا أكتم هنا موافقتي للاستاذ الأمركي (مير) في ملاحظة قيمة وهي (أن القرآن لم يكــن قانون الدولة الا في حكومة الخلفاء) وهذه حقيقة لا ريب فيها ، فان الحكومات الأخرى كانت تتستر بالقرآن ولكن من ورائه أهواء الملك وارادته ، فالقرآن هو القانون الصوري أو الشكلي ، والارادة الملكية هي المادة والموضوع أو هي كل شيء .

وقد يستبعد كثيرون نسبة هذه الثورة الانقلابية الى العصبة الاموية وانها كانت مقصودة منهم ، ولكن عندنا من النصوص والقواطع ما لا يحتمل معارضة أو مناصبة ، واني أنصح لكل الذين يشتغلون بتأ يخ هذا الظرف أو هذه الفترة أن يقدموا بين يدي درسهم كتاب (النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم)

---

(١) راجع صحيفة ٨٦ وما بعدها .

لتقي الدين المقريزي ، فقد كشف غوامض لا يتسق البحث على أكمل وجوهه أو أدنى وجوهه الا بتحقيقها ، والمقريزي بعد ذلك المؤرخ الناقد الذي لا تفوته فائتة ولا يدخل عليه ، أو هو الناقد التاريخي الفذ في كل ما عرف الأدب العربي من مؤرخين بعد استاذه ابن خلدون . ونحن ننقل عنه الآن طرفاً مما نستجلي معه صفحة التاريخ التي بين ايدينا والتي تهمنا بنوع خاص قال — لله در من قال — :

عبدُ شمس قد أضْرَمَت لبني ها   شِمٍ حرباً يشيب منها الوليدُ
فابنُ حَرْب للمصطفى وابنُ هند   لعليٍّ وللحسين يزيدُ

وقد كان من الأمويين عمال في زمن أبي بكر وعمر ولم يول أحد من بني هاشم . فهذا وشبهه هو الذي حدد أنياب بني أمية وفتح أبوابهم وأترع كأسهم وفتل امراسهم . حتى لقد وقف أبو سفيان بن حرب على قبر حمزة (ض) فقال (رحمك الله أبا عمارة قاتلتنا على أمر صار الينا) .

هل بعد قول ابي سفيان على قبر حمزة (ض) ما يترك شبهة في أن هناك حزباً أموياً يعمل ويستفرص الفرص بدون رادع ولا وازع ، وقد لاقى أنصاراً وأثر في سياسة الدولة تأثيراً كبيراً قبل أن تنتقل اليه مقدراتها . ونقدر أن الحزب قد أحكم الخطة للانقلاب ولكن لم يجد الفرصة الا في أواخر عهد عمر (ض) من حيث إن المسلمين متجهون للتوسع والفتح ، وعمر هو العقبة الوحيدة في سبيل تحقيق الانقلاب الذي يعمل له الامويون فاغتالوه . ولابعاد الشبهة استخدموا فارسياً ليسارع الظن الى أنه بمحض الانتقام ؛ وهذا الاختيار من إحكام الخطة .

وغاية هـــذا الحزب الرئيسية جمع مقدرات الحكم في أيدي الأمويين والاستيلاء على السلطة العليا بأية أسباب كانت ، منذ وفاة النبي (ص) . وكما سبق كان لهم تأثير كبير في سياسة الدولة من طريق غير مباشرة في الأكثر ، وأحياناً من طرق مباشرة . ويكفي أن نعلم ، كما يحدثنا المقريزي ، انه لم يول أحد من بني هاشم في زمن ابي بكر وعمر رضي الله عنهما . ولكن بما انهم كانوا مكروهين من الطبقات الدينية كافة لم يستطيعوا أن يأخذوا الا خطة العمل تدريجياً . وبما أن

المسلمين أسلسوا قيادهم لغير الهاشميين وتعودوا الخضوع لغير آل البيت النبوي ، تقوى أمل الامويين ؛ وكان هذا اكبر موطىء للانقلاب الذي يسعون إلى إحداثه . وفي نظري أن كل بلبلات وبليات المحيط الاسلامي في عهد الخلفاء يمكن تعليلها بالأصبع الأموية .

وهذه نتائج انتهى من قبلنا اليها المستشرق [1] الالماني (ماربين) في كتابه (السياسة الإسلامية) قال :

يلزمنا الالتفات قليلاً الى تاريخ العرب قبل الاسلام لنفهم الدور الذي لعبه الامويون فانا نرى قرابة قريبة بين بني هاشم وبني أمية وكان بينهم نفور شديد وحصلت بينهم مجالدات كبيرة وكان بين الطرفين ثارات ، بلغت نهايتها بظهور الاسلام ولكن تم للنبي (ص) الفوز الحاسم بفتح مكة ، فدخل الامويون في في طاعته ، وكانوا على استعداد للايقاع ببني هاشم حقداً عليهم ، فلما توفي النبي (ص) اتسع لهم المجال لذلك فسعوا :

أولاً أن لا يكون الخليفة [2] على أصول ولاية العهد ولم تدع شدة مخالفة بني أمية أن تكون أكثرية الآراء في الخلافة بجانب بني هاشم ، فكان هذا أول فوز ظفر به بنو أمية . وبسبب الخلافة تمكنوا من الحصول على مقام منيع ، فشقوا الطريق لمستقبلهم وعملوا على توطيد مكانهم عند الخلفاء [3] حتى أصبحوا ركنا من أركان السلطنة الاسلامية ، وكان هذا فوزاً آخر تم بوصول عثمان الى العرش الذي به أصبحوا متفوقين تفوقاً مطلقاً ، فاضطهدوا خصومهم القدامى باسم الدين مما حرك بني هاشم للعمل باعتبارهم الهدف الثابت وانتهى الأمر بالانقلاب والثورة ،

---

(١) راجع ترجمتها الفارسية في مجلة الحبل المتين السنة الثامنة عدد ٢٨ من سنة ١٩١١ .

(٢) رأينا كيف يحدثنا المسعودي عن الانصار بأنهم ما سكتوا عن حقهم في الخلافة الا لانهم انشقوا على انفسهم وخشي الاوس اذا هم عاضدوا سعداً ان يفوز بها الخزرج ويعودوا إلى إحنهم فنقلوها إلى يد اخرى راجع المسعودي ج٢ ص ١٩٦ .

(٣) يفسر هذا ما ذكره المقريزي من ان عمالا عديدين كانوا من بني امية في عهد الخلفاء ولم يول احد من بني هاشم . ومنع بني هاشم يحمل على التساؤل الشديد ؟

وسجلوا لأنفسهم الفوز النهائي بصلحْ الحسن . فكان معاوية من جهة يسعى لتقوية ملكه ومن جهة أخرى يسعى لخضد شوكة بني هاشم ولم يفتّر دقيقة واحدة عن محوهم . ومع أن الحسين (ع) كان تحت نفوذ أخيه الحسن (ع) لم يطع بني امية وأظهر مخالفته لهم ، وكان يقول علناً لا بد أن أقتل في سبيل الحق ولا أستسلم للباطل . وكان بنو امية في اضطراب منه ، وبقي هذا الاضطراب الى أن مضى الحسن ومعاوية،وجلس يزيد في مقام أبيه على أصول ولاية العهد وأبطلت المراسم الخاضعة لأكثرية الآراء ، وبما أن الحسين (ع) لا يطأ أرضاً الا تولد فيها النفور لبني امية وهو مقدمة الثورة ، أحرجه يزيد واقتنصه ولكن بعد أن ترك تربة حمراء ووشيجة دامية ، وكانت هذه أكبر الغلطات السياسية الأموية التي محوا بها اسمهم ورسمهم من صفحة العالم الخ ...

* * *

من يزيد ؟ .

لنفهم مصرع الحسين (ع) يلزمنا أن نعرف من يزيد ؟ .

وان أهم ما يلزمنا أن نعرف هنا من أمر يزيد ناحيتان : نشأته المسيحية أو بالاحرى التي كانت أقرب الى المسيحية ، وعقليته التي كانت في نظري غيبية جداً ، وتبعد كثيراً عن العقلية الواقعية العملية التي امتاز بها ابوه .

(١) يبدو مستغرباً، بادىء ذي بدء ، أن نعرف ان يزيد نشأ نشأة مسيحية تبعد كثيراً عن عُرْف الاسلام ، وتزيد بالقارىء الدهشة الى حد الانكار . ولكن لا يبقى في الامر ما يدعو الى الدهشة اذا علمنا أن يزيد يرجع بالامومة الى بني كلب ، هذه القبيلة التي كانت تدين بالمسيحية قبل الاسلام ، ومن بديهيات علم الاجتماع أن انسلاخ شعب كبير من عقائده يستغرق زمناً طويلاً ، بين معاودات نفسية ورجعات ضميرية وذكريات وجدانية ؛ وبالاخص اذا كانت عقيدة سيطرت على الأفكار والعادات والعرف العام .

والتاريخ يحدثنا أن يزيد نشأ فيها الى طور الشباب أو حتى جاوز طور الطفولة . ومعنى هذا أنه أمضى الدور الذي هو محط أنظار المربين وعنايتهم ، وبذلك ثبت على لون من التربية النابية تمازجها خشونة البادية وجفـاء الطبع . على أن طائفة من المؤرخين [1] ترجح ولا يبعد أن يكون صحيحاً ، أن من أساتذة يزيد بعض نساطرة الشام من مشارقة النصارى ، وربما شهد لهـذا التقدير ما جاء تاريخ الشام لابن عساكر (من أن يزيد كان يعرف طرفاً من الهندسة) هذا الفن الذي كان مجهولاً من العرب ، مما يضعنا أمام الأمر الواقع الذي يتسق تفسيره في على هذا الوجه . ولا يخفى ما يكون لهذه التربية من أثر سيء فيمن سيكون ولي أمر المسلمين .

وهذه التربية تصحح الرواية الادبية القائلة بأن يزيد أراد كعب بن جعيل على هجاء الانصار ، فاستأبى عليه تأثماً لمقامهم الديني ودله على الاخطل التغلبي الشاعر النصراني ، ومن ثم اطردت الصداقة بينهما . ونحن نشك في صحة هذه الرواية ونعزو الاتصال بينهما الى مكان التربية عند يزيد ، فقد كان يتزيد في تقريب المسيحيين ويستكثر منهم في بطانته الخاصة ، لما انه يقع بينهم على من يمتزج به وينسجم معه (على ما يقولون). ولقد اطمأن اليهم حتى عهد بتربية ابنه الى مسيحي على ما لا اختلاف فيه بين المؤرخين . ولا يمكن أن نعلل هذه الصلة الوثيقة والتعلق الشديد بالأخطل وغيره الا الى مكان التربية ذات الصبغة الخاصة واللون النابي.

اذا كان يقيناً أو يشبه اليقين ، أن تربية يزيد لم تكن اسلامية خالصة أو بعبارة أخرى كانت مسيحية خالصة ؛ فلم يبق ما يستغرب معه أن يكون متجاوزاً مستهتراً مستخفاً بما عليه الجماعة الاسلامية ، لا يحسب لتقاليدها واعتقاداتها أي حساب ولا يقيم لها وزناً ؛ بل الذي يستغرب أن يكون على غير ذلك .

لذلك أعتمد رواية اليعقوبي المحققة (من أن يزيد أمر ابن زياد بقتل الحسين (ع)) ، وأشك في غيرها ؛ وأميل الى أنها تنصل من يزيد لما رأى عظم ما جنت يداه ،

---

(١) منهم الاب لامنس في كتاب (معاوية) وكتاب يزيد

وانما اعتمدها [1] المؤرخون المعتدلون تخفيفاً لحمى المأساة . واعتمد ما رواه جماعة من المؤرخين أيضاً من أن يزيد أمر القوة العربية بمغادرة البلاد اليونانية كقبرص ، في مقابل مبالغ من المال . وفي هذا تآمر بالحكومة والامة والدين ، يفسر لنا السر في التألب على يزيد دائماً .

(٢) من الجدير أن نعرف أن يزيد يتجه في استعداده العقلي وجهة غيبية . ويبعد كثيراً عن العقلية الواقعية التي تقيس الحقائق بما يلابسها ، ولا تنتفي من علائق الواقع وحدود الراهن. والذي يدلنا على محل هذا الاستعداد عنده واقعة ذكرها المؤرخون ، وهي فيما اثبتوا .

ان معاوية قال يوماً لجلسائه : ما أعجب الأشياء ؟

فقال يزيد : أعجب الأشياء هذا السحاب الراكد بين السماء والارض لا يدعمه شيء من تحته ولا هو منوط بشيء من فوقه .

وقال آخر : حظ يناله جاهل ، وحرمان يناله عاقل .

وقال ثالث : أعجب الأشياء ما لم ير مثله .

وقال عمرو بن العاص : أعجب الأشياء أن يغلب المبطل المحق (يعرّض بعلي وغلبة معاوية) .

فقال معاوية : بل أعجب الاشياء أن يعطى الانسان ما لا يستحق اذا كان لا يخاف (يعرض بمصر التي أخذها عمرو دون ما عناء ولا تعب).

نرى في جوابه لوناً من الانصراف الى القضايا الفلسفية ، وتعلقاً بالتأمل التجريدي شأن العقلية الاسيوية التي تمتاز بهذه الظاهرة ولها بروز وتسيطر شديدان. ولا عجب اذا اتخذنا هذه الواقعة دليلاً على محل هذا الاستعداد عند يزيد، فانها بادرة وخاطرة ودائما تكون البادرات معبرة عن اتجاه التفكير وسير التعقل .

---

(١) راجع تاريخ الامم والملوك لابن جرير والكامل لابن الاثير فقد ذكر ان يزيد سر بقتل الحسين(ع) ، ووصل ابن زياد ، ثم لم يلبث الا يسيراً حتى بلغه بغض الناس له ولعنهم ؛ فندم .

وانما نرى هذه الظاهرة جديرة بالتحري ومهمة في نوع ما نأخذ به . من حيث انها تعلل لنا امرين :

(١) استهتار يزيد واسرافه في الاستهتار ، وامعانه في الفحشاء ، رغم صبغة الوسط الدينية التي كانت جديرة أن تضع له حداً لمباذله واستهتاره ؛ ولكن مما لا يحتاج الى اثبات أن من مستتبعات العقلية الغيبية الاغراق في أي اتجاه انصرفت اليه. وهذه ظاهرة في حياة العرب أو الاسيويين عموماً ، فهم اذا صلحوا أغرقوا ، واذا تبذلوا تناهوا .

(٢) الخطأ والتصلب له ، فان في حياة يزيد سلسلة من الأخطاء؛ وانما تعلل بمكان هذه العقلية . فان من صفاتها الاعتماد على الاستنتاج دون الاستقراء ، لذلك يكون صاحبها عرضة للخطأ المستمر والتعلق بالخواطر وامعاناً في امضائها .

فقد كان من الاخطاء الجسيمة اذاً أن يرشحه معاوية لولاية العهد من بعده ، وهو يعرف من تناقض حاله مع حالة الوسط ؛ ومهما حسنا النية بمحاولته هذه . فاننا لا نستطيع الا أن نأخذ بخطئه الذي أتاه عن عمد وقصد وهو يعلم نتائجه . ولعل هذه اكبر أخطاء معاوية .

ومن حق التاريخ علينا أن نسجل على معاوية خطأين كبيرين :

(١) امعانه بمغالبة علي (ع) حتى ارتكب ما لا يغتفره الاسلام من دفع الجزية الى ملك الروم ، ولو كان حقيقة يطلب دم عثمان ، وهي حادثة قضائية بحتة ، لما سخر نفسه رغم هذا ، لادامة الصراع .

(٢) عهده بالامر من بعده الى يزيد ، وهو ينكر منه أكثر مما يعرف .

ونحن في هذه العجالة لا نعنى بأن نعطي رأياً في معاوية . فقد كفانا وكفى كل دارس حفيده معاوية ، مؤونة الرأي وقطع الحكم .

* * *

حركة الحسين (ع) من الوجهة النقدية :

قبل أن أزايل موضوعي وأختتم المقدمة ، أحب أن أتعرض لوهم وقع فيه جماعة من المؤرخين ، وان كان بحث هذا الخطأ وتفنيده ، ليس بذي أهمية في نفسه ، حيث لا يتماسك مع بداهة النظر الفاحص .

تذهب طائفة من المؤرخين والمتشرعين الى تحميل الحسين (ع) نتائج خطوته ؛ فقد قال أبو بكر بن العربي (ان حسيناً قتل بسيف جده) ولقد أكثر من التعلق بهذا متأخرو المؤرخين وبالأخص المستشرقين ، وعندي أن حكماً، كهذا الحكم، نتيجة لعدم التثبت ودرس كل المستندات التاريخية ؛ فان من يأخذ (ذيل الأمالي لأبي علي القالي) يجد فيه كيف لعب معاوية دور المبايعة ليزيد ، ولا يعنيني شيء من هذه الرواية الآن سوى ما جاء فيها من أن الحسين (ع) وعبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير تشاوروا فيما بينهم لمن يكون الكلام والرد على معاوية ، وقد كان النظر الى الحسين ، بيد أنه ترك الكلام لابن الزبير .

حركة التنصل التي أتاها الحسين (ع) تدعو الى التساؤل، وبالأخص اذا علمنا أن هذا المجلس كان في مسجد مكة ، وكان علنياً وهو موقف له ما بعده . ومعنى التصدر للرد والمدافعة في موقف خطير كهذا عن المزاحمين في الترشيح على العرش ، تقديم الزعيم في صاحبه بلا ريب ؛ فتنصل الحسين (ع) اذن معناه زهده في الحكم ، ولكن رغم زهده ينكر أن يكون يزيد أمير المؤمنين أو ولي أمورهم .

الى هنا نكون انتهينا الى أن الحسين ان لم يكن زاهداً في الحكم بالمعنى المفهوم من هذا اللفظ ، فلا أقل من أنه لم يكن مبالغاً في الزحام .

ومن وجه آخر ، ثبت لمفكري المسلمين عامة في ذلك الحين أن يزيد بالنظر الى خلقه الخاص وتربيته ذات اللون المتميز ، سيكون أداة هدامة في بناء الحكومة والدين معاً ؛ وعدوا ولايته منكراً كبيراً، لا يصح للمسلم السكوت معه أبداً ، ومن واجبه الجهر بالانكار . اذن فحركة الحسين (ع) لم تكن في حقيقتها ترشيحاً لنفسه بل للانكار على ولاية يزيد أولاً وبالذات ، بدليل قول الحسين (ع) للوليد لما

طلبه للبيعة : ان يزيد فاسق مجاهر لله بالفسوق . وكما قلنا كان هذا الشعور والاستياء عاماً في المسلمين . حتى قال عبدالله بن همام السلولي :

فــان تــأتوا برملة أو بهند	نبـــايعها أميرة مؤمنينــا
اذا ما مات كسرى قام كسرى	نعد ثلاثة متنــاسقينـــا
فيــا لهفــاً لو أن لنا ألوفــا	ولكن لا نعود كمــا عنينا
اذاً لضربتمو حتى تعودوا	بمكة تلعقون بهــا السخينــا
حشينــا الغيظ حتى لو شربنا	دمــاء بني أمية ما رويتــا
لقد ضــاعت رعيتكم وأنتم	تصيدون الأرانب غــافلينا

والخطأ الكبير الذي يقع فيه كتبة التاريخ التحليلي ، انهم يقيسون النفسيات وشعور الجماعات التاريخية بقياس استنتاجي عام بدون اعتبار لقياس الفارق .

فان المسلمين ، وقد توحدت عندهم عملاً السلطة الدينية والزمنية ، كانوا لا يرضون بالامام الاعظم أن يكون في صفات يزيد أبداً . وهل يكفي في الخليفة أن تبايعه بطانته وحاشيته . فخروج الحسين (ع) كان رغبة المسلمين عامة ، ومن ثم ترك هذا الصدى والرجع البالغين ، حتى زلزلا عرش الامويين وساقاه الى الانهيار . ولنلتمس شاهداً عصرياً لهذا الذي نذكر ؛ فقد روى ابن سعد في ترجمة عبدالله بن حنظلة انه بايع [1] أهل المدينة ليالي الحرة على الموت وقال :

(يا قوم اتقوا الله وحده لا شريك له ؛ فوالله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن أن نرمى بالحجارة من السماء . ان رجلاً ينكح الامهات والبنات والاخوات ويشرب الخمر ويدع الصلاة ؛ والله لو لم يكن معي أحد من الناس لابليت لله فيه بلاء حسناً) . وبهذه المناسبة أذكر أن توحيد السلطتين . هو السبب في اثارة هذه القلاقل المستمرة . ولو كان معاوية أكثر تعقلاً ، وهو يعلم من خلائق يزيد ، لعمل على الفصل بين السلطتين ، بحيث تجمعان للكف فقط . وان كان يترتب

---

(١) راجع الطبقات الكبرى .

على نظام كهذا ، ايجاد سلطتين أو أكثر في الدولة. غير أنها تعمل متعاونة ، كما هو الحال في نظام السلطات الحديث القائم على نظرية (مونتيسكيو) .

على أن الخلفاء قد اضطروا أحياناً الى فصل السلطتين في الولايات . فقد كان يبعث الخليفة كعمر (ض) بالوالي الزمني وبالقاضي معاً . بحيث لا يكون للوالي سلطة على القاضي بل يعملان متعاونين . وهذا ممارسة لفصل السلطتين في مناطق محدودة . ويسرني أن أختم المقدمة بكلمة الاستاذ نيكلسون :

(كان الامويون في نظر الدين طغاة مستبدين لانتهاكهم قوانين الاسلام وشرائعه وامتهانهم لمثله العليا ووطئها بأقدامهم وان كانوا كذلك فلا يحل لهم أن يقتلوا المؤمنين الذين امتشقوا الحسام ضد الغاصبين لسلطانهم. وأما حكم التاريخ في هذا الموضوع اذا ما تصدينا لبحثه فلن يعدو أن يكون حكم الدين ضد الملوكية أو قضاء الحكومة الدينية ضد الامبراطورية وعلى هذا الأساس يحكم التاريخ بحق بادانة الأمويين (أي في مصرع الحسين) على أنه يجمل بنا أن نذكر أن انفصال الدين عن الحكومة لا وجود له في نظر المسلمين) .

هذه مقدمة ليس من وُكْدي فيها أن أتناول صحابياً . وكلهم بررة كرام ؛ وانما الغرض منها أن نعرض ونفهم أسباب الانقلاب وعناصر الثورة الخطيرة في ذلك المحيط .

ثم لا يسعنا الا أن نثني على جميعهم كما وقف عليهم أمير المؤمنين علي(ع) ، وأبنهم وأرسل في كل منهم كلمة مشكورة ، ودمعة حرّى ...

غـــذيُّ النُّبوة

نحن من الحسين (ع) في دَوْر نشأته ، أمام النبوة في دَوْر كمالها واستوائها ؛ فقد ولد والنبي صلى الله عليه وسلم تتسامى به منازله وتتعالى به أبْراجه . وبعبارة من صور المَنْظور ، كان النبي كالشعاع قبل الشمس يملأ جانباً من الفضاء ، ثمّ يَذُرّ قرنها حتى تتكوَّر في عقَابيل الأفق ، فتنتظمُ الأفلاكَ ، وتصلُ ما بين الآفاق بخيوط النور .

في هذا التسامي وهذا السُّطوُع تولى النبي (ص) حسيناً ، وكان في فطرته الغضَّة كالعدَسة اللاقطة ، تُحيل ما تقع عليه الى حقيقته الاخرى في وجوده الآخر .

وفي دخلته ارْتَسَم النبيّ في طبيعته ، والنبي في معناه ؛ حتى ملأت هذه الصورة شِعابَ نفسه ، فكانت له معنى ، وكانت له ذاتيّة ؛ وبذلك استحياه في وجدانه وضميره وسائرِ جوانب روحه . وانما يكون الايمان على مقدار ما يثبت في النفس من حياة القدوة ، فالقدوة لا يموت وانما يستحيل روحانيةً نديةً في ذات المؤمن الذي يكون مظهراً آخر من حياته .

ومن ثَم يكون القدوة قد عاش في وجودين ، مرةً في وجوده نفْسِه حينما دلّ

على الفلاح وهدى اليه ، ومرةً في وجود المؤمن الذي هو نَموذَج من الهداية ومثال من الرشاد . وبذلك تمّ للصحابة ما لم يتمّ لغيرهم حينما كانوا هيا كل تَوزّع فيهم ما كان في الذات النبوية مجموعاً . وكانوا في أقرب مثَل كالمصابيح الكهربائية تتناول مما وراء المنظور معناها المنظور . وكانت النبوةُ لهم كقوة الكهرباء تمدهم بالنور وتزوّدهم بالضياء . ما دامت خيوطُ نفوسِهم سليمةً لم تصب بانقطاع أو وَهَن . والى هذا الاشارةُ في قول النبي الاعظم صلى الله عليه وسلم : (اصحابي كالنجوم) ، وفي اضافتهم اليه (ص) سرّ قداستهم . ووجه الشبه في التشبيه .

والايمان ولادةٌ ثانية للانسان ، يبدأ منها انسانيته ، كما بدأ بالولادة الاولى حياته . فبين أن اندَرَج في عِداد النوع الى أن استعلى عليه زمن ، يكون في حساب الطبيعة ، مدةً من سيطرة المادة وغلبة البهيمية ؛ بيد أن الصفوة من الأبشار أو اللباب تزدوج لهم الولادتان كالحسين (ع) ، فكان انساناً حين كان حياً ، فلم تسيطر عليه الطبيعة بل سيطر عليها ، ولم ينقد لأسبابها بل انقادت لأسبابه ، فكان طبيعياً أن يشكل صنفاً آخر أسمى من مستوى النوع .

ولقد كان النبي (ص) يمده من وراءِ العاطفة كما يمده من وراء النبوة ، ويغمره بالحب ويسقيه من نبعة الشعور ؛ حتى يجيء حقاً قدسياً لمعنى قدسي ، يقدم فيه المثالية العظمى التي ينشدها الانسان بالجد ، فلا يخوّض منها الا في السراب والآل . وفي ما يقص ابو هريرة شكل من أشكال تخليق النبي (ص) للحسين تخليقاً مثالياً مدهشاً ، قال في حديث له [1] : (ابصرت عيناي هاتان وسمعت اذناي رسول الله

---

(١) ذكر هذا الحديث ابو عمر ابن عبد البر القرطبي في الاستيعاب. ، وقوله « ترق ترق عين بقة » كلمة كروح الطفولة طراوة وخفة وملاحة مرحة ، وهي كناية عن صغير الجثة كأنه عين البعوضة صغراً . وساق ابن الصباغ في الفصول المهمة ص ١٧٧ من طريق البراء بن عازب حديثاً بمعناه قال . رأيت رسول الله «ص» حامل الحسين بن علي على عاتقه وهو يقول : اللهم إني احبه فأحبه . وروى الترمذي في مناقبهما من سننه ، والبغوي في مناقب اهل البيت من مصابيح السنة كلاهما عن اسامة بن زيد قال : طرقت النبي «ص» ذات ليلة في بعض الحاجة فخرج النبي وهو مشتمل على شيء لا ادري ما هو ، فلما فرغت من حاجتي قلت ما هذا الذي انت مشتمل عليه ؟ فكشف فاذا حسن وحسين على وركيه فقال هذان ابناي وابنا ابنتي اللهم اني احبهما فأحبهما وأحب من يحبهما .

(ص) . وهو آخذ بكفي حسين . وقدماه على قدم رسول الله . وهو يقول ترق ترق عين بقة . فرقي الغلام حتى وضع قدميه على صدر رسول الله . ثم قال رسول الله افتح فاك ثم قبله . ثم قال اللهم أحبه فإني أحبه).

فالنبي (ص) ختم في نفس الغلام . على ما استودع من معاني نفسه الكبيرة بقبلة ناعمة . ثم حين قال يدعو اللهم أحبه فإني أحبه . كأنه قال للناس مشيراً إلى غلامه . أنا هنا .

والحب لا يكون حباً إلا إذا صاحبه الاصطفاء والاستخلاص . وأما إذا جاء دونهما فانما هو شيء من طفح العاطفة . فلا تبالي أنى وقعت . فالنبي (ص) يحب حسيناً حقيقة الحب لأنه مصطفاه . والله يحبه لأن النبوة تركت به شفقاً يعترض الأفق في مفترق الغروب . وبالتعبير بصيغة المضارع المؤكدة في معنى الحال . كأنما انفصل النبي (ص) بالحاضر ليقوم منه في برزخ بين الزمانين . ويقول كلمته (إني أحبه) منبهاً الماضي ومسمعاً المستقبل . أو كأنما توجه بوجه صوب الابدية في غير اعتبارات الزمن، ليبعث بها كلمة أثيرية أو موجة شعاعية تمر في كل جيل؛ حتى تستقر في أعماق اللانهاية ، ويسمعها من كل قبيل من له في شعوره المرهف جهاز لاقط كالروّان [1] الدقيق .

وحب النبي (ص) ليس شيئاً كالحب . بل هو شيء كالمغنطة تترك في الشخص الآخر أسمى معانيها وأبرز ظاهراتها . ثم هي لا تتم الا اذا انتقلت بالخاصة في الشيء ، وجعلت منها خاصة في شيئين . ومن ثم لا يكون شاهدُ الحب كلمة الحب ، بل وحدة المعنى في وحدة الظواهر في وحدة الوجود ،

---

(١) كلمة من وضعنا الجديد بمعنى « الراديو » وهي من مادة « رون » التي من معانيها الصوت وصيغة فعال بفتح الفاء تدل على ما يصير بنفسه وعليه فالمفهوم من هذا الوضع المصوت بنفسه وهو وضع موافق وان كان ليس ترجمة الملحظ في الاسم الاجنبي فان « راديو » ينظر في معناه إلى الموجة الشعاعية . وقد ترجمناه بكلمة تعطى هذا المعنى وهي « شعاع » بكسر الشين لأن صيغة فعال تفيد الالتقاط .

وعلى هذه الوحدات الثلاث استوى (حسين [١] مني وانا من حسين) . وفي هذا الحديث معنى لا أدري كيف أحدده ؛ ولكن يجمل بي أن أتـعَنّى في فهمه بما أمثّل معه لحن النبوة في حروفها . هو لون من البيان يقصد به في كلام العرب ، افادة الامتزاج والاتحاد ، وكأنما حي (ص) من الحسين في مظهرين : مظهر الرجل النبي ، ومظهر الرجل المسلم . وله في المظهر الأول شكل من جاء من السماء ، وفي المظهر الثاني شكل من عاد اليها .

ولقد أتى الحسين (ع) بمقتضى هذه النشأة المباركة انساناً أسمى ، وجاءَ في انسانيته على وضع أكمل ، ولا بدع فقد تعهّدته يد النبوة ورعته عين الله .

روى ابو هريرة [٢] : (ان الحسن والحسين كانا عند رسول الله وقد امسيا ، فقال لهما اذهبا الى امكما ، قال فهابا ان يذهبا فبرقت برقة فمشيا على ضوئها حتى اتيا أمهما) .

فالحسين (ع) ابن القوات الروحية ، فهي تمتد اليه بآثارها فتبدو في ملابسات المادة غريبة شاذة ، بيد أنها في المنطقة الأخرى : منطقة القوى ، لا تعدو أن تكون ظاهرة عادية على درجة كبرى .

* * *

---

(١) هذه فقرة من حديث أخرجه ابن ماجة في السنن وابن عساكر في التاريخ وأبو الحسن الاربلي في كشف الغمة . كلهم عن يعلي بن مرة العامري انه خرج مع رسول الله «ص» إلى طعام دعوا له فاذا حسين في السكة مع غلمان يلعب فتقدم رسول الله «ص» أمام القوم وبسط يديه فجعل الغلام يفر هاهنا وهاهنا وجعل رسول الله يضاحكه حتى أخذه فوضع احدى يديه تحت قفاه والأخرى تحت ذقنه وقبله وقال حسين مني وأنا من حسين أحب الله من أحب حسينا حسين سبط من الأسباط .

(٢) ذكر ابن عساكر في التاريخ ج ٤ ص ٣١٦ و ٣١٧ رواية هذا الحديث عن البخاري ورواه الدارقطني بلفظ ان الحسين كان عند النبي «ص» وكان يحبه حباً شديداً ؛ ورواه البغوي .

المسلم القرآني

توطئة في القرآن :

في مثل الطفرة ننتقل من حديث نشأة الحسين (ع) ، الى موضعه حيث هو من القرآن . والذي قصدنا بهذا العنوان أن نجعل من القرآن: كتابِ الله ، ميزاناً قسطاً للنَّسَم ، فلا يفضل الموزون الا بما يزيد به معناه القرآني : وكل زيادة ليست من طريق القرآن ولا اليه ، فهي نُفاية وسُقاط .

وكتاب الله بعد ذلك أعدل قسطاس يتراجح به الناس في معناهم الانساني ، حتى رأى بعض مفسري المعنى ان المقصود بالموازين في قوله تعالى : (ونضع الموازينَ القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) . القرآن وسائر الكتب السماوية المنزلة .

فالقرآن هو الميزان [1] في يد الناس في الدنيا . لإقامة دولة العدل الانساني ، وهو الميزان في يد الله في الآخرة لتكريم هذه الدولة . بما استوى فيها من الجزء السماوي الذي أعدها لهيكل الخلود .

---

(١) لا يذهب بك الانكار كل مذهب فان هذا المعنى يمكن ان نستوحيه من الرمز إلى العدالة في السلطة القضائية الذي يعطي شكل الميزان ، وقديماً تعارف الناس على الكناية بالميزان عن كتب القوانين والاحكام؛ وقد بسطت الكلام على هذا في كتاب « مقدمة التفسير » الذي اعنى باخراجه .

والقرآن قبس علوي ، سبقت به الارادة ليكون روحاً أخرى تتمم نقص الانسان . وهو بعدَ ذلك تجربة من الغيب لسياسة النوع ، وإعطاء صنف من الناس أكمل منهم ، أو هو تَرْبيبٌ [1] للملائك في هياكل البشر . ثم لا يزال يعمل عمله ، بما يبعث من تياراته المطوِّرة ، حتى يمر بها في مثل أطوار الشرانق من اليرَقة الى غازلة الحرير .

فالمسلم القرآني أو المسلم الكامل ، هو ذلك الانسان الذي عمل فيه القرآن عمله . فراح ينتج من وحي الاخلاص والهام المحبة العامة وفيض الوجدان ، شيئاً كتلك الخيوط الحريرية التي تنتجها فراشة الشرانق الكريمة . وكنهاية اليـرَقـَة التي صارت فراشة حرير تكون نهايـــة المسلم الذي يصير انساناً ملَكا (وكذلك الايمان حين تخالط بشاشته القلوب) . وبالعكس مـــن ذلك يكون الجاحد الطاغي الذي هو في أقرب التمثيل كاليرقة التي تنتهي بدودة القطن . وكما كانت نهايتها دودة ضارة ، تكون نهايته انساناً شيطاناً .

فهما يرَقتان تشابهت فيهما الطبيعة ، ولكن تخرج احداهما فراشة تنظر الى الى السماء في أغاني القربان ، وتخرج الثانية دودة تنظر الى الارض في ظلاميـة التراب ومعْناة الفناء .

فالقرآن اذا حل نفساً استوقد فيها مصباحه . ولكن لا يبدو نوره المشبوب الا بعد أن تحترق فيها أخلاط الوجود الظلامي ، لتحـلّها دفعات النور أرسالاً أرسالاً ، مثلَ ما نرى في شاشة النـوّار [2] التي لا تضيء إلا بعد أن تحترق ، وهي من النوار كالقلب من الانسان لا يجيء منه شيء حتى يستحيل بما لابسه موجوداً آخر بألوان أخرى . وبذلك لا يكون المسلم مشكاة فيها شمعة ، بل شمعة كبيرة في مشكاة الوجود . وهذا القرآن كأنه عصا الله السحرية ، لا تمتد الى شيء إلا جعلت فيه شيئاً

---

(١) الترْبيب بمعنى التربية .

(٢) كلمة من وضعنا الجديد ، ترجمة « كلوب » والملحظ في الوضع المضيء بنفسه ، وله عندنا وضع آخر وهو « نوير » والملحظ فيه المضيء بالحقن لان فعيل تدل على قريب منه .

منها . وما كانت عصا موسى (ص) الا بعضاً من الحقيقة القرآنية العظمى ، وهي حين جاءت بشكل العصا في يد موسى (وقع الحق وبطل ما كانوا يعملون فغُلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين) . فكيف وقد جُمعت الحقيقة بتهاويلها في يد محمد صلى الله عليه وسلم . كأنها شُعلة الحكمة المقدسة في الظلمة الحالكة . ولقد وقف بها النبي (ص) في أعلى سَمت يُعْلَوْلَى اليه . كما يقوم المنار عند الشاطىء وفوق الصخور . يقود ضوالّ السفن . ويهدي التائهين في مُخضَوْضد اليم . الى حيث السلامةُ عند الشاطىء الامين . على مثال المنار قام النبي (ص) يرسل صوته الهادي ويمسَح الظلام الحالك . بالقبس الوضّاء في يمينه . وقد وقف له الفلَك الدوّار يُصغي . ويردد صدى الصوت الالهي في فم الانسان . (ثم استدار [1] كهيئته يومَ خلقَ الله السموات والارض) . وكان معنى وقوف الفلك انه كُتب للزمن ابتداء جديد . وللحياة سُنة جديدة . وللتاريخ حقيقة أخرى ، ليقول إن الحياة بكل أوضاعها ولدت مرة ثانية . أولُها محمد والقرآن ، وآخرُها محمد والقرآن .

على مثال المنار وقف النبي (ص) ، فوق بَرزخ بين الشرق والغرب والشمال والجنوب . يلوّح بالشعلة في يديه ، ليجمع الضالين والتائهين في مذاهب الحياة الملتوية ، ويقول كلمة الله على فمه : (إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمتَ عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) .

فمرت القوافل بين يديه ، ومن أمامه ، الى حيث الطريقُ الوضّح : والغاية المنشودة أو الى أقرب طريق مُعبّد الى السماء .

فالقرآن وهو تلك الشعلة . هو الضياء الابدي الى الابدية . ولن يكون المسلم مسلماً حقيقياً ، الا اذا أحال القرآن في نفسه معنى انسانياً فصار منه كمعناه، وصار المرء منه كالعنوان أو الفهرس المفصل . والقرآن اذا استحال في نفس الانسان على شاكلة ما نقول رقي به دركات ونزل بطبيعته دركات . وأدناه من السماء أو

---

(١) هذا الحديث يراه شراح السنة معضلة ، وهم يخبطون في معناه ، والحقيقة انه ملحظ نبوي أبعد ما ما يكون عما فهموا وأدق كثيراً ، وقد اشرنا إلى معناه اشارة من بعيد .

أدنى السماء منه . وما يزال به حتى يكون كأنه المسجد الحي ، لا حساب للّبنات فيه . وبحقيقة كان المسلم القرآني مسجداً حياً لا يقوم في لبنات ، وانما يقوم في قدر من الحياة يتسع لتجلي الله الأعظم ولا يضيق (ما وسعني ارضي ولا سمائي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن).

ولقد جَهد النبي (ص) وجهد القرآن ، حتى ينقلا المعبد الى قلب الانسان ، لا أن ينقلا الانسان الى المعبد . والمعبد بعد ذلك ليس الا مقداراً من الارض في مقدار من الحجارة ، لا روحانية ولا فطرة ولا حياة ، وانما الانسان هو الجزء الحي فيه ، أو هو حياته الجياشة التي تستشعرنا بالرهبة والخشية ، وتُعاطينا بطمأنينة كأنها التهويم تنزل على النفس القلقة الجازعة ، كما ينزل التهويم على العصب المتعب المثقل، يترك فيه راحة وشعوراً باللذة في حُلم ، كما تترك الطمأنينة تَطْرِيةً نفسية عميقة هي السكينة ، وشعوراً بالحلم في لذة .

ومعجزة القرآن انه أهبط الملكوت الأعلى الى الارض ، أو رفع الارض الى الملكوت ، وكان صلة ما بين عالمي الغيب والشهادة ، أو زاد فرفع الحواجز بين العالمين ، فلم يعد الا عالم واحد هو عالم القرآن . فيا أيها المسلم انك تسكن من القرآن في ملكوت الله فوق اعتبارات الدنيا وشهواتها ، حتى لقد انفصلت بمعناك عن معناها وكانت آية القرآن أن جعلك للدنيا كما تكون الفضيلة والعمل البر ، وما جعل الدنيا لك كما تكون الفتنة والنزوة والطيش ؛ فأنت حكمة الدنيا في عقل الدنيا وسموّ الاحاسيس في طبيعتها . وهذا هو المعنى في قول النبي الاعظم (ص) : (تخلقوا بأخلاق الله ، وخُلق الله القرآن).

فالقرآن ليس تعليما فقط ، يأخذ شاكلته كأنه مذهب فلسفي أو تعليم نظري ، يسترشد بما وراء الطبع لحكم الطبع . بل هو شيء كالاستهواء لايكاد يُطيف بالاذن حتى يجعل فيها قلباً سميعاً مَهدياً ، ثم يتمدد القلب بما تمدد فيه من الفكر الجديد ، حتى يعود الانسان قلباً فقط ، أو خَلقاً ، أكبرُ ما فيه قلبه .

ولذلك ترك النبي (ص) الانسانَ وجوانب الخلق فيه ، واتجه الى القلب وحده

ووقف عنده يستلطفه بأزكى شعور : « لأن في الجسد مُضغَة اذا صلحت صلح الجسد كله ، واذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب ». ومعنى صلاح القلب وجودُه ، ومعنى فساد القلب عدمُه ، ومن وجد قلبه فقد وجد حقيقته ومعناه وكلَّ احساس حي شريف يجمع النبالة والفضيلة والعاطفة والطهر ، ومن فقدَ قلبه فقد وجد ما عدا ذلك . (إن في ذلك لآية لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد) .

وان من مدهشات البيان النبوي ، هذا التعبير بالمضغة عن القلب الملاحظ فيه كمال الاستعداد ، حتى كأنه القطعة من اللحم الممضوغة التي توافر فيها كمال الاستعداد للهضم . وليس أبلغ من هذه الكناية في افادة مقدار حساسية القلب بالخير والشر ، وسرعة تأثره في مثل خطف البرق واغتماض اللمح . ومن هنا كانت عناية القرآن به عظيمة وتوجهه اليه بالخطاب أبداً . وتأمل في ذوق البيان موقع (هو) من قول الله : « أو القى السمع وهو شهيد » الذي يُشعر بأن الانسان لا شيء وراء أقلبه .

واذا علمت بأن (هو) يُرمز بها الى الحقيقة ، خرجت بسر إعجاز البيان في سر اعجاز الانسان . فالقرآن من شأنه أن يصنع القلوب ، ويغمرها بندى إلهي ، ثم يدعها لا تصيب راحة الا به ، كالقبلة العاشقة المفعمة لا تكون آخر الري بل ولَ الظمأ ، ثم لا تكون خاتمة الغرام بل بُداءة فصل جديد . وكما لا تجد راحة الغرام الا في موالاة الغرام ، ولا تَطعم القبلة الا في متابعة القبلة ، ككل النزوات العاطفية ؛ لا تكون الراحة فيها الا بتكرارها ولا يتم معناها الا بمعاودتها . كذلك لا يجد المسلم القرآني هناءة الا بالقرآن ، ولا راحة الا به . وكما قلت ليس القرآن تعليماً نظرياً يحاول السيطرة على الطبيعة بالفكرة ، ويمهد لغلبة المادة بالروح ، ويقوم في نهايته على مناحرة بين المحسوس والمعقول ، ليفرض حياة عقلية لا قَبل لها ولا بعد .

وانما يحاول القرآن أن يجعل في الطبيعة فكرة ، وفي المادة روحاً ، وأن يقيم الايمانَ على توازن المحسوس والمعقول ، بحيث لا يعيش الانسان منه في حياة غيبية

خالصة ، أو في حياة مادية بحت ، بل في برزخ يستوي على تعادل القوى والطبائع ، وتوافر المعنى في المعنى .

وبذلك كان القرآن مثابةً للبشرية الظمأى والانسانية التي لم تجد ، في الشرائع الوضعية وانتجعها المصلحون ، ما يدخل في دائرة الشرائع الطبيعية أو يأتلف معها في قرَن واستواء .

فكان شريعة للحس وما وراء الحس ، وسياسة للنفس وما دون النفس . ثم فرض نظاماً أقام به بين الطبيعتين تجانساً عن تماثل ، وازدواجاً عن قابلية ، وانسجاماً عن تناظر ، واتحاداً عن تجرد . ومن ثم وجد فيه الناس ما كانت تصبو اليه نفوسهم ، وتعرم في جنب خياله صبوتهم . فكان كالقطرة في حلق الظمآن ، لا تصيب الحلق وحده وانما تجمع عليها الجسم كله ، بما فيه من الخلايا والتلافيف والاعضاء ، لتشيع فيه الحياة على مقدار ما تحمل اليه من حاجته .

وهو حين جاء على مقدار حاجة الناس ، بما انفطر عليه الناس ، لم يكن دين مجتمع أو شريعة عصر ، بل كان شريعة الانسان وشريعة الفطرة ، فما لم يزل الانسان مخلوقاً ذا فطرة ، فلا يَرِيم عن القرآن . وأنى يجد في غير القرآن نهجاً حكماً ، وناموساً أَمَماً (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون)

آية سامية من التنزيل ، والتنزيل كله سام في أوله وآخره ، وكل آية هي أفضل ما تكون في موضعها ومعناها . فاذا كان منا قول بأن هذه الآية أعجز وأبرع فان معنى ذلك انها في هذا الغرض وهذا الموضع أعجز وأبرع ، كما أن الاخرى في غرضها وموضعها تكون مثل ذلك . فليس في القرآن آية تفوت آية ، وانما هو بآيه يفوت كل البيان .

هذه الآية تقرر بأن الكمال العضوي استوى في الانسان ، فلا منقلب له أسمى من بنائه الشاهد وكيانه الحي الموجود ، وليس يؤتى الانسان من قِبَل النقص الخَلقي (لقد خلقنا الانسان في احسن تقويم) وانما يؤتى من قِبل الشرائع التي

تُفسد عليه فطرته فيقتضي لاستصلاحها أكبر الزمن . ويجتهد في اقتلاع ما ثبت فيها من طفيليات ضارة مبيدة . فما في الانسان من النقص . انما التبعة فيه على الشرائع الوضعية التي ابتعدت عن فطرة القانون الطبيعي . أو عن روح الناموس الفطري . فكان هدفُ القرآن أن يرجع بالناس الى فطرتهم الاولى . حتى ينصاع العرف وفق النواميس . وبذلك يكون قد أقام القواعد على القواعد والحدود على الحدود . وأزال الاشواك العالقة والأدران المتلبدة التي حجبت نقاء الفطرة وهي صنع الله . بالطبيعة ذات الرعونات وهي صنع الناس بما افتنّوا من شرائع حجرّتها الاجيال . وواصلتها الوراثةُ بالمعنى العُنصري . حتى تشوهت الفطرة الانسانية ولم يعد لها جلاؤها الاول . وأصبح ما ليس من طبيعتها جزءاً منها صَليبةً .

ولذلك أعيا هذا الانسان كل المصلحين على مُتطاوِل التاريخ . وهم على اختلاف نظرهم في وجهة الاصلاح يجمعهم الإياس . وفي العصر الحديث زاد بهم املاءُ اليأس ، حتى ركب (نيتشه) متناً شعرياً . ولم ينقل الانسان الى حقيقةالواقع ، بل نقله الى خيال الواقع ثم مهد له في حياة افتِحارِيّة [1] خالصة .

وكذلك (برناردشو) نفض يديه من الانسان الحالي . وقصدَ قصدَه في انسان المستقبل الذي قدّره غريباً في بنائه العضوي وخَلْقه الحيوي . وشَمِله بتغييرات إنشائية تأتي بها طبيعته قابلة للاصلاح والتصحيح .

ولكن جاء القرآن بالمعجزة والشريعة الوفاق . فلم يحمل الانسان على أن يطلب الخيال . ولم ينسج له سعادةً خيوطُها أحلامٌ وأوهام . ولم يأخذه باتّهام النقص

---

(١) كلمة من وضعنا الجديد ترجمة « يوطوبيان » اي خيالي مغرق . ولا يعرف الانجليز لها اصلاً سوى ان السير مور تخيل جزيرة أطلق عليها هذا الاسم وتخيل ما شاء فيها من نظم اجتماعية نبيلة وعادات وتقاليد فرضها على اسمى ما يحلم به . فجرت وصفاً لكل من يفكر بأفكار من هذا القبيل . ونحن نقدر ان تكون سامية ، فان كلمة (طوبى) جاءت بمعنى الجنة في العربية ودخلت الاجنبية عن طريق العبرية . والكلمة الجديدة من قول العرب افتحر القول والرأي أتى به غريباً جداً ولم يتابعه عليه احد . راجع كتاب مقدمة لدرس لغة العرب ص ١٣١ .

وانتظار التكامل ، وانما جاء كالواقع حين يقع لا تكون الحقيقة إلا في حدوده وأقطاره . وبهذا النداء الرائع أعلن القرآن عن حقيقة ما جاء به : (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرةَ الله التي فَطر الناس عليها) .

هذه الكلمة [١] أي (حنيفاً) لم تتحقّقْها اللغةُ أو لم يتحققها الرواة ، فهي غامضة كالغموض ؛ وما اغمض من الشيء الا نفسُه ، وما أوضح من الشيء إلا هو ، ولكن جاءت بها الاستعمالات على أشكال ، تأخذُها بمعنى غير ما تثبت منه اللغة وتترك ، ومن ثم ظن بعض مؤرخي اللغة بأنها اسلامية لا قَبْلَ لوجودها ؛ وعلى كل فالذي نرى فيها ، انها كلمة إشراقية تفيد أدق معاني التقديس ، وهي تجمع على معناها الإخلاص والاستشعار بالخشية وتعلق القلب الدائم بالتنزيه .

والمراد بالوجه[٢] ، في الآية ، القصد أو الذات والنفس ؛ وقد جاءت بكل ذلك اللغة في معاني الوجه (على ما ذكره السيد المرتضى في اماليه) . والذي نميل اليه من معانيه هنا القصدُ . وكأن القرآن بعد ذلك يقول : الاسلام فطرة تستدعي قصداً واخلاصاً في القصد ، فان القصد بدون اخلاص ساقطُ المعنى ليس منه شيء في حساب الشعور . وكذلك استَنْبَـه القرآنُ الحاسةَ في منطقة القلب بكلمة (أقم) ،

---

(١) اللغويون اكثر ما يكونون اختلافاً في هذه المادة وبالأخص منها المشتق (حنيف) والذي يدل على عدم استثباتهم منها اختلافهم في معنى المادة نفسها ، وبالجملة فالحنيف في جملة معانيه المخلص أو الذي أسلم لله فلم يلتو في شيء من الاسلام ؛ وهذان المعنيان اجتهاديان بلا ريب ، وعندي انها لفظة كهنوتية انتقلت إلى الاسلام لافادة نفس المعنى الديني فيها بدليل انها في هذه الصيغة فقط تبدو ابعد ما تكون عن معنى المادة . وقد احتفظت بصيغتها في كل ما استعملت فيه لافادة المعنى الديني . واذا اريد نقلها إلى اسم المعنى نسب اليها فقط ولم يعمد إلى الاشتقاق ؛ وهذه ظاهرة تحققنا من انها تكون في الكلمات التي تتبع مادة ولا ترجع اليها . ولنا على هذا شواهد لا يتسع بنا التعليق لانباتها . وتبسطنا بهذا البحث في كتاب مقدمة التفسير في بحث الالفاظ . وقد اوضحناها في الحلقة الثانية : «تاريخ الحسين : نقد وتحليل» .

(٢) وليس كما توهم الزمخشري وامثاله من ان المراد بالوجه الجارحة ، فانهم بذلك اضاعوا من لفظ القرآن معناه ومن معناه اعجازه .

بأنه لا يقبل إلا شعوراً صادقاً وقصداً ثابتاً ، اجتمعتْ فيه أهداف النفس من مناحيها الى نوازع القلب من جهاته ، فكان الشعور في حدود النفس وكانت النفس في حدوده، وبذلك يكون هذا الأمر (أقم وجهك) للمسلم كالسلاح الراصد لا تمر به طالعةٌ الا بحساب ، ولا تجيش به خالجة الا بتقدير ، فهو كالقلعة الحصينة تبدو قوية فيما ظهر منها ، لأنها آمنة فيما خَفِيَ منها . وفي هذا تنبيه على أن لُبَّ الاسلام هو الاحسان بمعنى الاتقان (أن تعبدَ الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) .

واذا كنت في كل أمرك بين حالتين، ليس أرهب من الأولى إلا الثانية، وليس أرهب من الثانية إلا الاولى ، فلا بد أن تكون كمن يحمل محكمته معه بقانونها وقضاتها ، لا يَفرطُ منه شيء لأنه لا مناص من أن يدين نفسه ويُسلّمها بالجرم المشهود ؛ وبهذا يكون الاسلام بما سيطر به على الضمير ، قد أقام على كل مسلم جُندياً يكون دائماً منه بمرأى ومسمع ، فلا الجندي يغفل عنه فيسبح مع هواه ، ولا هو يفكر بأن يغفل عن الجندي ، فينتهب اللذات المطلقة ، ولو في حساب نفسه انه قد غفل عنه .

ثم هذا الدين برسومه وطرائقه، ليس الا الفطرة في أوضاعها وطرائقها، فلم يكن ثِقلاً من الثقل أو إصراً من الإصر ، بل جاء من روح الفطرة لارشادها ، واشتق من الفطرة طبيعتها ليصيب فيها قابليةً فتنبت به وتنمو على نميره ، وكان في أعظم ما جاء به الاسلام كلماتٌ ثلاث : الايمان ، والاحسان ، والتقوى ..

فبالإيمان يُثَبِّت احساس القلب في القلب ، وبالاحسان يحطُّ في المرء خُطة الضمير والوجدان ، وبالتقوى يتمم فيه أعمال الفضيلة ، حتى يجيء انساناً مثالياً . فان التقوى ذاتُ متعلَّقين ، احدهما بين العبد وربه ، والآخر بين العبد وأخيه . فما لم يوضعا معاً يُرفعا معاً؛ ولذلك وصفه الله وأصدق به وصفاً بأنه (الدين القيم) وجاءت هذه الصفة في الآية كأنها مُعللة بـ (فطرة الله التي فطَرَ الناس عليها) ومن ثم نقف على سر جديد في الآية وهو أن القرآن يجعل مقياساً لتقويم الشرائع والقوانين والتعاليم ، موافقتَها للنواميس الطبيعية وحكايتَها لها . فاذا جانبَتها

أو نَبتْ عنها ولو من بعض الوجوه ، فليست بالدين القيم وليست بالشريعة التامة الموزونة . وهي حقيقة نبيلة جداً بالغ بالجهر بها في العصور الحديثة كل المتشرعين من مثل (بنتام) . وأول معلن لها المتشرع النظامي (مونتيسكيو) في كتابه: اصول النواميس والشرائع ، وكان النبي محمد (ص) قد سبقه اليها فيما ابتُعِثَ به من الكتاب .

وكان أتمَّ وصف لهذا الدين ، أنه القيِّم من كل وجوهه ، فهو قيم بحاجات الفرد وقيم بحاجات الجماعة ، وقيم بالصِّلات الروحية بين السماء والارض . فقد نظم العلاقات الوجدانية بين الناس ، ورتب العلاقات الروحية بين الانسان وربه في كل الحالات ؛ وأعجب ما في الآية وصف الدين بأنه قيم ، هذا اللفظ الذي من معناه انه يأخذ ما يأخذ بمقدار ، ويترك ما يترك بمقدار ، فلا تفريط فيما يَحْمُل ، ولا إفراط فيما يلزم .

فجاء بهذا كالقانون الذي في جملة مواده ما يجعل عليه قانوناً يحكمه بطبيعته القانونية . وبذلك يثبت ثبوت النظام في الطبيعة العامة القائم على الجذب والدفع ، فأيُّ شيء في الطبيعة انما يكون له نظامُه ويثبتُ عليه ، بين هذين العاملين المتعاكسين .

فالقانون لا يكون شريعة إلا إذا كان فيه ما يحكمه أو كان فيه قانونه ، وإلا فهو مطيَّة الجَوْر ووسيلة الأثرة والغلبة والاستمكان. فأظلم العالمين يعمل بقانون، ولكنه قانون من طبيعة نفسه الظالمة ، وكان ظالماً لأنه يحكمه بنفسه وهو يحكم به الناس ، فلم يكن مرجع القانون حكمة القانون ولكن فطرة الشر .

فالاسلام جمع للمسلم قلبه وعقله ليعملا معاً . فهما في واجبات لا يختلف اعتبارها ، يصدران عنها ليعودا اليها ، ولا يفترقان ؛ هذا في العاطفة، وهذا في الفكرة ، إلا ليتمم كلٌ منهما على الآخر ما لا يتم به وحده . فالمسلم الضَّعيفُهما أو الضعيفُ أحدهما ، كالمريض الذي لا يكون حياً كما تشاء الحياة ، ولا ميتاً كما يشاء الموت ، ففيه من الموت على مقدار المرض . وفيه من الحياة على مقدار المقاومة .

فالمريض ميدان لمعركة قوية بين الحياة والموت ، تمتد فيه أسبابهما حتى يتمدد فيه احدهما. وغاية الاسلام أن يجعل المسلم ينبوع نور لا جسماً نيـّراً فقط ؛ فاذا كنت مضيئاً ، ولم يكن لك ما تعكس به ضياء في الآخرين ، فأنت مسلم دون سمو الاسلام ودون غايته . ونسبتـُك اليه كالطفل فيه مقدار من الحياة في مقدار من النفع لا يجاوزه . فاذا استوت فيه الحياة دفعت بالنفع الى الخارج وهو على استعداد ليزيد ، ودفعت بالنفعية الى الداخل وهي على استعداد لتبيد . فيكون للجميع بعد أن كان لنفسه ، وينظر في ذاته فيرى معنى جميعاً مشتركاً ، كما ورد في بعض الآثار (إنا لله ، والله للجميع) .

وفي الآية بـُشرى ونـُبـُوءة ٌ بأن الاسلام سيكون الدينَ العامَ للبشرية ، على اختلافها في الجنس واللغة والانفطار والموضع . وذلك اليوم ، في نظر القرآن ، يوم يستوي العلم على أكمل وجوهه ، ويقوم على أسس من عـُنصرية الصـُّلـْب ووضوح الحق ، لا على أسس من طبيعة المبالغة والتفاف الباطل .

وبلوغ العلم هذا المنتهى السامي ، واستقراره على قاعدة ثابتة لم يعد بعيداً ، فان الغاية تكاد تـُتنوّر من بين سـُجوف المستقبل القريب . وفي اليوم الذي يمحص العلم ما أُضيف وحمل عليه ، وثبت ثبوت الحقائق بحكم أن الحقيقة قد تـَلتبس فتـَخفى ، يـُؤذن للعالم أن يسمع كلمة الله في الاسلام وأن يرى نور الله في القرآن .

وإن التسامي الصحيح لا يكون بالحقائق وحدها ، بل لا بد من تزاوجها . فان التزاوج يرتفع بها عن دائرة القيود والحدود ، ويـُدخل عليها معنى آخر هو سرّ سموها . وذلك اليوم برزخ تلتقي فيه الحقيقة العلمية بالحقيقة الدينية ، فيمترجان · متزاج عنصري الماء حتى يـُقدّما العذب الفرات . وتأمل هذه الاشارة في قول الله تعالى : (ولكن اكثر الناس لا يعلمون) .

وهذه الآية تقرر ، بالتلميح البياني ، أن الاسلام دينُ العلم ؛ فاذا جاء يومُ العلم ، فذلك يومُ الاسلام أيضاً . ومن طبيعة التكامل الانساني أن يأخذ في ارتقاء ، ولا يرتد في انحدار ، وإن عراه ما يبطئه أو يوقفه أحياناً ، فان ذلك من

معاني ارتقائه . وانما يجيء بطؤه من تعبيد الحوائل ، ووقوفُه من مقاومتها . وسنته أن يطّرد صعداً حتى يبلغ جوز الغاية أو (سِدرة المنتهى) التي هي في الاسلام عنوان ارتقاء الانسان ، وإن أول انسان بلغها هو آخر انسان يبلغها . وتكون فائدة بلوغ ذلك الانسان وحده ، انها خرجت من حيز ما يمتنع وثبتت في حيز الامكان . ثم يتسامى الناس دونها كأنها الرقم القياسي ، لا يستبقون عليه وانما يستبقون أمامه ومن بين يديه .

والعلم لا بد أنه بالغ هذه النهاية العظمى التي يجد أن الاسلام قد سبقه [1] اليها . والاسلام استطاع أن يسجل لنفسه رقماً فوق القياسي في سرعة الانتشار و (اكثر الناس لا يعلمون) ، فاذا جاء اليوم الذي فيه تسقط (لا) ، ويقوم الاثبات في مقام النفي ، (يأبى الله إلا أن يُتم نوره ولو كره الكافرون). والخلاصة في كلمات :

الاسلام دين الفطرة ، ولا تبديل لخلق الله .

ودينُ الطبيعة ، ولا انفصام في حدود الطبيعة .

ودين الحقيقة ، وليس وراء الحقيقة إلا الباطل .

* * *

المسلم القرآني هو القرآن في انسان ، كما قال امير المؤمنين علي (ع) (ذاك القرآن الصامت ، وأنا القرآن الناطق) ، أو هو الجانب الآخرُ العمليُّ منه . فكما يكون المثال على القاعدة كاشفاً للغرض في القاعدة أو من تمام معناها ، كذلك المسلم القرآني يكشف الغرضَ في القرآن أو من تمام معناه .

ولقد قدّم النبي (ص) في نفسه نموذجاً للمسلم الكامل على تاريخ الاسلام

---

(١) اول من اعطى هذا المعنى بصورة رمزية مثالية الشيخ الاكبر محيي الدين بن العربي في الاسراء والمعراج حين تخيل روحي فيلسوف وصوفي قاما برحلة ومطاف طويل تخلف الفيلسوف في أثنائه وطوى الصوفي اللا نهايات وحده بسر المعنى، ثم التقيا بعد لأي طويل .

(لقد كان لكم في رسول الله أسوةٌ حسنةٌ). ثم طبع أصحابه على غراره . فجاءوا كما لو مروا تحت الطابع[1] الواحد. لا يتفاوتون في أنهم معاني مجسمة له ، وفيهم الشاهد منه . واذا تفاوتوا فبأشياء أخرى تمتُّ الى الطبيعة والعنصر ، كالكتاب يجيء في أصناف من الورق وألوان من الحبر . ولكنه الكتاب نفسه لا اختلاف فيه ولا عليه . ولقد جاء في كلام النبوة (الناس معادن).

وبهذا أنبه النبي (ص) إلى أن الاسلام لا يبدّل في الطبيعة ولكن يوجهها . ولا يعمل فيها عمل التغيير وانما يَعْتَمِلُها اعتمال الاخراج والتحوير .

والآن نقدم صورة من المسلم الكامل في شخص الحسين (ع) الذي جاء راموزاً صحيحاً صادقاً عن النبي (ص) فيه من معناه وفيه من طبيعته . وبالثانية فوّز على النظراء وظل نسيج وحده . اذ تم له أن يكون من رسول الله . كما يكون رسول الله من نفسه . فكان يَنبعث من حدود الدين وحدود الطبيعةالتي تشعرُ بالدين ومعناه شعورياً ذاتياً كأنه شيء منها ؛ أو بعضٌ من عناصرها . ولقد اكتست هذه الطبيعة النيرة بهالة جعلت لصاحبها لوناً ينفرد ، وشكلاً لا يشبهه الا الا هو ، ولا يجيء إلا فيه ، كضوء الشمس لا يأتي الا من الشمس مهما تشكل به الضوء وتصنّع عليه .

وحيث كان الدين للحسين (ع) فطرةً امتدت بها اسبابُ الخلق . ثبت على قاعدته ثبات الصُلْب في الصلب لا الجدُر على القواعد ، فلا تميلُ عنه إلا إذا مال معها ؛ وميلُه معها استقامتُه واستقامتُها ، فان الميلَ نسبة على مقدار الانفصال والابتعاد . وبذلك اجتمعت فيه عوامل ثلاثةُ كلها تقتضيه أن يشعر بالمُثل العليا شعوراً واحداً لا يختلف عنده املاؤها . فهو فيما تعاطيه الجبلّة في مثل ما تُعاطيه البيئة في مثل ما يُعاطيه الدين . فكانت مشاعره تجتمع على شأن وتفترق عن شأن ؛ وهي ، في حال اجتماعها وافتراقها ، كحال افتراقها واجتماعها ، مشاعرُ متواصلةٌ متواردة ، ترتفع جميعاً وتقع جميعاً . ومن ثم كان شعورها بالمعاني السامية شعوراً من

(١) كلمة من وضعنا الجديد بمعنى الاكليشة .

ثلاث جهات ، يصل حين يصل مكبّراً وواضحاً ، كما لو يكون في سَمت العين في أقرب حدود الإبصار .

فهو يرى الاشياء على ما هي ، كأنها من جوهر نفسه في معرض للحقائق ، فلا تصل الى قلبه مُلبّسة أو مزوّرة ولا مدخولة أو متفاوتة . بل تَنثال اليه في أثوابها كما جاء بها الواقع واقتضاها الطبع . وكذلك هم أصحاب المشاعر المرهَفة الذين تستيقظ حواسهم لاهتزاز الحق والباطل : ذلك الاهتزاز الذي يعلن عن الحق أنه حق . وعن الباطل أنه كذلك . فان للحق وللباطل في قلوب المصطَفَين هزات تعلنها بمعناها . كما يكون للشحنة الكهربائية . فلا يَلتبس عليهم والناس من أمرهم في التباس . ولا يزلون والناس من حياتهم في زلل . بل يسددون أو يقاربون . كما رجا النبي (ص) للمؤمن أن يكون .

وقد رأينا الحسين (ع) في سنة لم يتَحَيّفْها شيء من زعازع الباطل أو مُغريات الدنيا في الجانب اللاهي الفاتن ؛ بل ظل هداه بين مأثره السنة وهَدْي القرآن ، لا يتنكّب في ظاهر منه أو باطن . وكان في تقيله وتحرزه كأنما جاء به القرآن شاهداً أو مثالاً يريكه على ما هو وفوق ما هو . من حيث يكون الشاخص أكثر أخذاً ، وأذهب في أسر النفوس كل مذهب .

ومن هنا كانت الشريعة السماوية في حاجة الى الرسول الانساني الذي هو نموذج لها ، وبذلك يتم الهدى والبيان بين كلمة الله وراموزها الصالح . فان الحس في حاجة الى الحس ، والطبيعة في حاجة الى الطبيعة ، والسيطرة على المثل إنما تكون بالمثل ؛ والتفاعل في حدود المادة لا يتم الا بعناصرها على مفارقة في الخاصية (ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً) .

والنموذج الإلهي لا يكون إلا واحداً فقط يجيء مع الشريعة . حتى اذا أعطى أثره وارثه ، ترك له نماذج كثيرة في كل وجه ومن كل طينة . يستوون على انهم نماذج رسولية لا يتم الأثر الديني الصحيح إلا بوجودهم ، فهم في حاجة كل عصر لأنهم من تمام صلاحه وهدايته . وعلى هذا التصور بنى أربابُ الاشارات الذين

استغلوا على الرسوم ملحظهم في الوارث المحمدي . والحاجة اليه في كل جيل .

وأبو عبدالله الحسين (ع) سيد الوارثين . ما في ذلك ريب . فكان في كل عمل من عمل الدنيا والآخرة مثالة بارعة حتى أجمع الحفاظ والرواة والاخباريون على أنه أعاد سنة المصطفى في كل مظاهره وأشكاله . وساعد به أنه كان أشبه بجده (ص) في لون الشاكلة ومسحة الخلق . وزادت الأسوة في إبراز الشبه وإظهار التماثل . فكان مجلسه مهوى الافئدة ومراوح الاملاك . يشعر الجالس بين يديه أنه ليس في حضرة انسان من عمل الدنيا وصنيعة الدنيا . تمتد أسبابها برهبه وجلاله وروعته بل في حضرةطفاح بالسكينة . كأن الملائكةتروح فيها وتغدو . وتطيل بها وتقصر حتى يشيع معناها في الجالسين . فيتصورون [1] كأن في حدودهم حظيرة قُدْسٍ عليا لبناتها أولئك الجالسون . وسرها الناطق ذلكم الانسان الكامل واسطة العقد .

وهذا المشهد يصنع صنعه في كل قلب . مهما نبا به ميله . وداخلته الدنيا ومرت في مثل تلافيفه واحتشت في تضاعيف مساربه . قال [2] معاوية لرجل من قريش : (اذا دخلت مسجد رسول الله (ص) فرأيت حلقة فيها قوم كأن على رؤوسهم الطير ، فتلك حلقة ابي عبدالله مؤتزراً الى أنصاف ساقيه).

كذلك يظهر المعنى الحي في محل القداسة على المؤمنين الذين ينشرون أشعة من سيمائهم تورث الناظر خشية في اطمئنان ، وسكوناً في دعة ، كأنما هم ينظرون الى الأبدية في حدودهم ، ويستشفون اللانهاية كأنما عندهم آفاقها . أو كأنما زوت الى قواعدهم . فما أنت بناظر جماعة في مواضع من المعبد في معالم من الارض ، بل يتداركك حين تنظر كأن الملأ الأعلى تجسم وانتشر في أشخاص استعلى بهم أو اعتلوا به فوق دنيا الناس (ما اجتمع قومٌ على ذكر الله إلا حفت بهم الملائكة

---

(١) اي يتشكلون بصورة ، وقد ورد بهذا المعنى عند الحطيئة :

رأى شبحاً وسط الظلام فراعه   فلما رأى ضيفاً تصور واهتما

(٢) راجع التاريخ الكبير لابن عساكر ج ٤ ص ٣٢٢.

وغشيهم الروح وذكرهم الله فيمن عنده) وفي رواية (في ملأ عنده).

قد تكون كلمة ساذجة طفح بشعورها قلب ساذج ، لو من غير معاوية الملك الذي كان يجمع أسباب السيطرة والرهبة والفنخرية على نفسه جميعاً ليظهر بكل ذلك غير تارك منها الا ما يزيده في مظهر الجبروت قوة .

وأما هي من معاوية نفسه فانها ذات وجه آخر بمعان أخرى . فقد نظر الى الحسين من جانبه الذي انزوت اليه الدنيا بعظائمها ، وتوافرت لديه أشياؤها حتى بدا كأنما انجمعت الدنيا في ناحية مكانه .

وهذا ما يجعل للكلمة قيمة أخرى . فان معاوية لم تحلْ به أبّهات الملك عن أن يرى المعنى الالهي في الحسين (ع) بما له من رَهبات ، تَزَع النفس الانسانية الجامحة وتردها رداً عنيفاً الى حدود عبوديتها ، حتى تبصر ما تَلَبّس به بطلاً من الباطل وآلاً من الآل . فتظل مشدوهة مأخوذة كالذي يكون مع خاطرة أو فكرة . ثم تنقلب قوتها التي اشتقت من طبيعة المبالغة ، ضعفاً فيه طبيعة المبالغة . فكان معاوية ينظر الى نفسه بما أحاطها به من أشياء الدنيا ، والى الحسين (ع) بما أحاطته به الحقيقة العظمى من أشيائها ، فيرى نسبةً كما بين العدم والوجود ، ثم ينظر فيرى في الوجهة المقابلة منبعث النور الذي يُعشي فيَبهَر . وفي الوجهة الأخرى متراكم الظلال ومختلط الأشباح والأوهام .

وهذه ساعة تستيقظ فيها النفس الى حقيقتها ، فترى كل شيء على حقيقته . ونِعمّا هي كلمة معاوية في جلوة سما بها على دنياه بما جمعت .

وكان الحسين (ع) اذا برز للناس يتحلّقون بين يديه صفاً بعد صف حتى يذهب فيهم البصر ، ويقعون عليه وقوع الطير في اليوم الحرور على ثمد يتبرد به ويتصابّه . وكأنهم بذلك يهربون ولو ساعة من اسر الشهوات وعبودية أنفسهم ، ليقولوا كلمة الايمان خالصة بها قلوبهم ، كما كان يعبر الصحابة حينما يعوجون الى النبي (ص) « هيا بنا نؤمن بربنا ساعة ». قال ابن كثير [1] ان الحسين خرج وابن

---

(١) راجع البداية والنهاية لابن كثير في ترجمه الحسين .

الزبير من المدينة الى مكة وأقاما بها . عكف الناس على الحسين يفدون اليه ويقدمون عليه ويجلسون حواليه ويستمعون كلامه وينتفعون بما يسمع منه ويضبطون ما يروون عنه) .

والذي ينبغي ان لا يفوتنا في هذا الخبر ، التعبير بكلمة (عكف) وهي تفيد في كل مشتقاتها معنى التعلق والانقطاع . فما كنت بواجد إلا الحسين (ع) رجلاً علّقه كل الناس عرَضاً ، كأنما هم من ناحية الدنيا يشهدون فيه حقيقة اخرى من عالم الابداع الالهي . فهو اذا نطق كأنما انطلق لسان الغيب يعبر عن رموزه ويكشف عن خفاياه ، وإذا صمت كأنما راح الغيب يعبر عن معناه بطريقة اخرى بلحن آخر . فإن من الحقائق ما لا يعبر عنه الا الصمت العميق . كالنقطة في ثنايا السطور فإنها تعطي معنى لا يقوم إلا بها ، ولا يتم الا اذا كانت ، وهي بعدُ اشارة سلبية ولكنها تدل على غرض ايجابي. أو كقرار النغمة الصامت فانه جزء من تمام اللحن الناطق .

وفي الخبر صورة كاملة لمقام الحسين . في زمن لم ينتف من طغيان السلطة وتحامل المتغلب ، ولكن أنّى للقوة أن تحول بين الانسان وقلبه ، أو بينه وبين ما هو من ضميره . فان القوة لا تعمل الا في حدودها ، ولا تجد مضاءها الا في ملابساتها ، وهي كيفما امتدت بأسبابها فانها لا تحيك في مواطن الشعور . والخبر بعد ذلك يعرفنا بأن الحسين (ع) كان مكثراً من الحديث والرواية ، ولم يكن كما تشاء بعض كتب الأخبار تصويره بأنه كان مقلاً نزر الآثار . ومن الجدير أن نثبت في حديثنا عن مجلسه طَرَفاً من مروياته . أخرج ابن ماجه وأبو يعلى عن الحسين(ع) : قال سمعت رسول الله (ص) يقول (ما من مسلم تصيبه مصيبة وإن قدم عهدها فيحدث لها استرجاعاً إلا أعطاه الله ثواب ذلك).

وروى الإمام أحمد في مسنده[1] عن ربيعة بن شيبان، قال : قلت للحسين بن

---

(1) ج ١ ص ٢٠١

علي(ض) ما تعقل عن رسول الله(ص)، قال: صعدت غرفة فأخذت تمرة فلكتها في فيَّ، فقال النبي (ص): ألقها فإنها لا تحل لنا الصدقة.

وعن فاطمة بنت الحسين عن ابيها قال: قال رسول الله (ص): للسائل حق وإن جاء على فرس.

وعن شعيب بن خالد عن حسين بن علي قال: قال [1] رسول الله (ص) إن من حسن اسلام المرء قلة الكلام فيما لا يعنيه. (وفي رواية) تركه ما لا يعنيه.

وعن سنان بن ابي سنان الدؤلي عن حسين (ع) عن النبي (ص) قال اختلفتم وأنا بين اظهركم فأنتم بعدي أشد اختلافاً.

ومن أهم أحاديثه المروية عنه حديثه [2] في صفة النبي (ص) قال الحسين بن علي سألت أبي عن سيرة رسول الله (ص) في جلسائه فقال كان رسول الله (ص) دائم البشر سهل الخُلُق. ليِّن الجانب ليس بفظّ ولا غليظ ولا صخّاب ولا فحّاش ولا عيّاب ولا مُشاحّ. يتغافل عما لا يشتهي ولا يُؤيِس منه ولا يُخَيِّب فيه. وقد ترك نفسه من ثلاث: المِراء والإكبار وما لا يعنيه، وترك الناس من ثلاث: كان لا يذم أحداً ولا يعيبه ولا يطلب عورته ولا يتكلم إلاّ فيما رجا ثوابه. وإذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير. فاذا سكت تكلموا. لا يتنازعون عنده الحديث ومن تكلم عنده انصتوا له حتى يفرغ، حديثهم عنده حديث أولهم، يضحك مما يضحكون منه، ويتعجب مما يتعجّبون، ويصبر على الغريب على الجفوة في منطقه ومسألته حتى أن أصحابه ليستجلبونهم، ويقول اذا رأيتم طالب حاجة يطلبها فارفدوه، ولا يقبل الثناء إلا من مكافيء، ولا يقطع على احد حديثه حتى يجور، فيقطعه بنهي أو قيام.

ونحن فيما اتسق لدينا من الاخبار عن الحسين (ع) وصفته، نرى كيف

---

(١) رواه الحافظ ابن عبد البر في الاستيعاب ج ١

(٢) رواه الترمذي في كتاب الشمائل النبوية.

كان يتحزم على نفسه بكل مظاهر القدوة الصالحة . بحيث لا يعدو أن يكون مثالاً نبوياً في حدوده ومن شتى أقطاره .

ولقدانصرف بكل نفسه عن الدنيا وما اليها . قال [1] زين العابدين (ع) لمن قال له : ما كان أقل ولد ابيك ! .. العجب كيف ولدت كان لا يفتر عن الصلاة في ليل أو نهار فمتى كان يتفرغ للنساء ؟ ...

فهذا المتحنث المتأله في تأمله وإطراقه، وتحركه وسكونه . هو الذي ستراه مجاهداً مكافحاً ومغامراً مستميتاً حتى كأنه الاسد لا تُنال تلابيبه . فلم يكن يشغله أمر عن أمر . ولا حاجة لله عن حاجة للناس فهو هو الاسد المهصور في فتح [2] إفريقية وفي غزوة طبرستان [3] وموقعة الجمل وصفين وفي فتح [4] القسطنطينية ...

* * *

دوامُ الوجود في هذا العالم ، ببعض حقائقَ مُتلاحقة ..

فإن النّواة حقيقة صغرى ، تجمع الحقيقة الكبرى بكل خصائصها .

فالمسلم القرآنيُّ هو الحقيقة الكبرى في الاسلام . فهل لنا أن لا تخيس النواة .

* * *

في الاسلام إنسانيةٌ عُلْيا وصوفية إشراقية ...

وفي الاسلام قوةٌ ماضية ، في حدود المبادىء العادلة ...

---

(١) راجع ابي الفدا ج١ ص ٢٠٢ والعقد الفريد ج٢

(٢) راجع تاريخ ابن خلدون ج٢ ص ١٢٨ و ١٢٩ والحلقة الثانية : « تاريخ الحسين : نقد وتحليل »

(٣) راجع تاريخ الطبري ج٥ ص ٥٧ و ٥٨ وتاريخ ابن خلدون ج٢ ص ١٣٤ و ١٣٥ .

(٤) راجع البداية والنهاية لابن كثير في حوادث سنة ٤٩ . والحلقة الثانية : «تاريخ الحسين : نقد وتحليل»

فيا ايها المسلم انك تحمل لبني الانسان ، باليد الواحدة كتاباً وباليد الاخرى مصباحاً ، فاعرف كيف تبلّغُ رسالتك ...

* * *

وصف النبي نفسه بأنه رحمةٌ مُهْداة ...

والمسلم الكامل مثالٌ نبيل من النبوة الكاملة ...

فأنت ايها المسلم رحمة مهداة من السماء الى كل جيل ...

العظمة الشخصية

في الشخصية العظيمة

أرأيتم إلى الرجل يقوم على اسم الله ويمضي على اسم الله ويموت على اسم الله، كيف تسمو به الغاية ويعلو به الهدف. هو هدف ولكن ليس من شهوات النفوس، وغاية ولكن ليست كمثلها الغايات، غاية تَحقّر كل ما في الحياة من أشيائها، ولا ترى سوى الملكوت الاعلى هدفاً ودُونَ السماء مستقراً ؛ لأنه مَهدُها فلا بدع أن حنّت اليه وطلبت اللحاقَ به، فللناس أوطانُهم، وللناس حنينهم، ولمثل هذه الشخصية وطنها ولها حنينها .

فهي تشق طريقها بين الجلامد والصخور، راضية مرضية وماضية مطمئنة، لأنها تناجي الأمْنيّة السامية وتنشُد المثل الاعلى . وهل وراء الله مطلب ؟. وهل الى غير الله مصير ؟. وهل بعد الله حقيقة ؟ .

هذه مبادىء الرجل المصطفى . والرجل المختار . فلا عجب أن راح يطلبها في كل شيء، ولو حال الموت دونها فهو يَسْتَعْذبه، لانه الطفرة التي تصل به إلى أعذب الاماني، وهل مع الأماني العِذاب، شعور بمريرات العَذاب .

وقديماً ارتفع صوت المسلم في إقدام ومضاء، بالكلمة الرهيبة عند الناس والأغْنيّة عنده :

ولَسْتُ أبالي حينَ أُقْتَلُ مُسْلِماً   عَلى أيِّ جَنْبٍ كان في الله مصرعي

الشخصية الكبيرة من الناس ، ولكن بما فيها من المعنى الآلهي والسر القدسي والقبس العلوي ، تنير السبيل للانسانية في حالكة الظُلَم وفي الليل الأليل الأدكن (اللهُ نورُ السمَوات والارْض مَثَلُ نوره كَمشْكَاة فيها مصباحٌ ، المِصْبَاحُ في زُجاجة ، الزّجَاجةُ كأنها كوْكب دُرّيٌ) . وكذلك تكون في حياتها دليلا أميناً ، وبعد مماتها أمثولة رائعة ، فيها من كل عناصر الخلود والسموّ . وتاريخ كل أمة إنما هو في الحقيقة تاريخ عظمائها ، فأمة لا عظيم فيها لا تاريخ لها ، أو ليست جديرةً بالتاريخ .

ونحن اذا قدمنا حسيناً بين العظماء ، فإنا لا نقدم فيه عظيماً فحسب ، وانما نقدم فيه عظيماً دونه كل عظيم ، وشخصية أسمى من كل شخصية ، ورجلاً فوق الرجال مجتمعين .

ولا بِدع فكل من عرفهم التاريخ وعرفناهم ، قضوا دون غاية من أمجاد الارض ، فكان من قضى دون مجد من أمجاد السماء أسمى .

والآن سأخوض في بيان نواحي العظمة التي امتاز بها الحسين (ع) في كل ميدان ، حتى يبدو امة بين العظماء . فقد عرفنا العظيم في ثوب الشجاع ، وعرفنا العظيم في ثوب البطل ، وعرفنا العظيم في ثوب الضحية الشهيد ، وعرفنا العظيم في ثوب الزاهد ، وعرفنا العظيم في ثوب العالم . وأما العظمة في كل ثوب ، والعظمة في كل مظهر ، حتى كأنها تآزَحت من أقطارها فكانت شخصاً ماثلاً للناس يقرأونه ويعتبرون به . فهذا ما نجده في الحسين (ع) وحده ، وهذا ما نلمسه فيه فقط ، حيث هو من نفسه وحيث هو من نسبه ، فلقد يكون ابوه مثلَه ، ولكن لا يجد له أباً كمثل نفسه .

فرحلٌ كيفما سموت به من أي جهاته انتهى بك الى عظيم ، فهو ملتقى عظمات ومجمع أفذاذ . فان من ينبثق من عظمة النبوة (مُحَمّد)، وعظمة الرجولة (علي) ، وعظمة الفضيلة (فاطمة) ، يكون امثولة عظمة الانسان ، وآية الآيات

البينات . فلم تكن ذكراه ذكرى رجل بل ذكرى الانسانية الخالدة ، ولم تكن أخباره أخبار بطل بل خبر البطولة الفذّة .

فالحسين (ع) رجل ولكن فيه آية الرجال ، وعظيم ولكن فيه حقيقة العظمة . فرَعْياً لذكراه . ورَعياً للعظة به .

ومن ثم كان جديراً بنا أن نستوحيَه على الدوام ، كمصدر إلهامي انبثق وهاجاً قوياً ، وامتد بأنواره أجيالاً واجيالاً ، ولا يزال يسطع كذلك حتى يَنتظِم اللانهايات وينفذ الى ما وراء الارض والسموات ، وهل لنور الله حد يقف عنده أو مَعْلَم ينتهي اليه (ويَأبَى اللهُ إلاّ أنْ يتمَّ نُورَهُ) .

وكذلك يجد من تدبر نهايته أعظم بها نهاية . وأعظم بها تضحية وأعظم بها مثلاً وذكرى نادرة . حتى كأنّ يد الله خطّت بها على الأبدية سطراً أحمر قانياً ، هذه كلماته (الاخلاصُ لفظ معناهُ في الموتِ الرهيب . فمن شاءَ أن يكون مخلصاً ، فليوطِّنْ نفسه على كل مكروهاتها) :

قَدْ خط سطراً على الأيــام نقرؤه	وكــان آيةَ أمجــــاد وإحماسا
يا حبّذا الموتُ دون المجد مُجْتَلداً	وأحقرنَّ بعيش الذل انكـــاســـا

على أن السبط الشهيد (ع) من وجه آخر ، تمت به روعة القداسة التي ابتدأت بجده المصطفى (ص) . فان للقداسة جلالها ولكنّ روعةَ القداسة لن تكون إلا بالدم على جوانبها .

نُحيّي الطهـــــارة في بيتهـــا	إطار الطهـــــارة قُدْسٌ ودم

فلتسمع الأجيال ولتستيقظ الانسانية . على الصوت الرَّجاف الذي ينبعث من أعماق الرِّجم ومن وراء القبور ، حيّاً جيّاشاً ينفذ الى الأعماق فتستعر له الضمائر ، وينْثَال الى مواطن الشعور فيحيا به الوجدان .

وعلى نبرات مثل هذا الصوت فقط يتأتّى للانسانية أن تغسل آثامها وتَتخَلّص من أدرانها وتتطهّر من أرجاسها . حتى تعود إنسانية كما أرادتها الشرائع واحتفلت

بها الاديان ، وحتّى تكون إنسانية عمادها المُثل العليا والفضائل الصالحة والخير المطلق وإحقاق الحق ، فان لهذه الخصال وحدها ضحّى الحسين (ع) . ولقد كبرت كلمة أن يقال انما ضحى من أجل الملك أو الغلبة أو السلطان ، وما كان هذا من هم نفسه الكبيرة ، وما كان هم نفسه من شهوات الناس . وانما أيقظه الجور ودفعه الاعتداء وأنشطه الظلم واستثاره أنين الضعفاء وعويل المثكولين ودموع المفؤودين . وإن من بين العدوان على الحق ، وتجاهل العدوان ، تنبعث الاحرار وتخرج الأبطال .

ولقد كشف الإمامُ الشهيد عن برنامجه وخطته التي دفعته الى الثورة والخروج . وكأنما أراد أن يسجل على الباطل بطلانه ، وأن يجعل للحق في بناء الباطل كُوَّة يرتفع منها صوته على الدوام ، وكذلك تم الامر على أن يتعالى من هذه الكوة الصوت . الذي زلزل دولة الظالم وحطم سلطان الباغي ومزق العادي كل ممزَّق وأدال بـــه إلى حيثُ المهوى السحيق .

ولنسمع الى برنامج الامام الشهيد (ع) الذي أثاره ووطّن نفسه على نهايته ـ من فمه الطاهر الهادي ، قال يخاطب الوليد بن عتبة ابن أبي سفيان : « أيها الامير إنا بيت النبوة ، ومعدن الرسالة ، ومختلف الملائكة ، بنا فتح الله وبنا ختم ؛ ويزيد رجل فاسق شاربٌ الخمر وقاتل النفسَ المحرمة ، معلنٌ بالفسق ؛ ومثلي لا يبايع مثله ». هذه الكلمات المعدودة تحوي برنامجاً خطيراً ودستوراً عملياً واسعاً ، ويمكننا أن نسميه «ناموس الثورة» . والحق أن فيه المبادىء العالية لاعلان الثورة ؛ وفيه المواد اللازمة لنقد الخليفة أو الملك .

ولست أرسل الكلام إرسالاً ، بل أقول ما أقول وملؤه التحقيق . ولذا كان جديراً بنا أن نتفهَّم ـ قبل الخوض في بيان نواحي العظمة عند الحسين (ع) ، هذه الكلمات التي يأتلف منها برنامج ثورة الامام الشهيد ؛ حتّى لا تعتلج في نفس أي كان ريبةٌ متهمة أو تهمةٌ مسترِيبة . على أنها تجلو غوامض من صفحة المجالدة التي أثارها الامويون وأذكوها مستعرةً حامية ، وقامت على هذا الأوار كل دولتهم .

وفي الحق أن أعظم ما يهم المؤرخ الناقد، هي هذه الصفحة المختصرة، لأنها توضح كثيراً من الخفايا في سير الدراسات التاريخية الاسلامية الاولى التي كانت حوادثها كنواة لكل ما ترتب ونشأ عنها من حوادث في تسلسل التاريخ الاسلامي. وفي غير إفاضة طويلة قد تفض من وحدة الموضوع، نأخذ في تَفَهُّم هذه الخطة الرائعة الرشيدة التي أوضح عنها للوليد؛ وهي على وجه الاجمال صورة من صور المحافظة على السلام والرغبة فيه، ما لم ينقلب السلام حرباً ويُتجنّى على الآمنين، فلا بِدْع أن يلجأ أشد الراغبين بالسلامة الى الحرب الذي يجد فيه حقيقة السلام ومعنـــاه.

وإذا لم يكنْ من الموت بُـــدٌّ فمنَ العار أنْ تموت جبـــانا

شاءوا أن يشهدوا رجل التقوى والعمل الصالح الذي ينبثق من معدن الرسالة ونِجار النبوة وبيت الاصطفاء الالهي، ثم يتمثل فيه الحق بأجلى معانيه ويظهر بأروع مظاهره. شاءوا أن يروا المثَل الكامل الحامي الوديقة في نصرة العدالة والحق، ينحني بصغار ويخضع بضعة ويستسلم بذلة، لرجل الباطل والفسوق والتجاوز والخروج والتحدي لله ولرسوله وللمؤمنين، والمجاهرة بدون مبالاة ولا ارعواء ولا احتشام؛ بكل ما تَفرَّق منه الشريعة وتَرتَعِدُ له الانسانية وترتجف به الفضيلة. شاءوا أن يروا بَيْعَةَ تم على هذا الوجه وتنتهي على هذا الطراز الساخر. فلا نعجب إذا رأينا هذا الامام ينظر الى عهد كهذا العهد وبيعة كهذه البيعة كأنّه نير من نار، أفضل منه حر السلاح في هجير الحر، فقضى كذلك مستبسلاً.

قضى عليه السلام دون العقيدة شريفاً مجاهداً.

قفْ دون رأيكَ في الحياةمُجاهداً إنَّ الحيـــــاة عقيدةٌ وجهادُ

ولنسمع بعد هذا كيف يعلننا الامام برأيه الصريح في فلسفة البيعة ومعنى الخلافة وصفة الخليفة. يقول: واجب الخليفة أن يستحيل القانون والشريعة في نفسه وجداناً وضميراً وعاطفة وصدى شعورياً عميقاً، وإلا كانت خيانتُه أقربَ اليه من نَفَسه، ودينُه وتقاليدُه وعَنْعَنات الأمة جميعها أهون عنده مـــن

عفطة عنز . فاذا فسق الخليفة عاد على رأس الأمة شريراً ، يقذف دائماً بالشر والشرر . ويرمي دائماً بالويل والثبور .

وهناك واجب آخر على الخليفة إذا تجاوزه وجب على الامة اسقاطه ووجبت على الناس الثورةُ عليه، وهو المبالغة باحترام القانون الذي يخضع له الناس عامة، وإلا فأي تظاهر بخلافه يكون تلاعباً وعبثاً ، ومن ثم وجب على رجل القانون أن يكون أكثر تظاهراً باحترام القانون من أي شخص آخر ، وأكبر مسئولية من هذه الناحية . فاذا فسق الملك ثم جاهر بفسقه وتحدى الله ورسوله والمؤمنين . لم يكن الخضوع له إلا خضوعاً للفسق وخضوعاً للفحشاء والمنكر ، ولم يكن الاطمئنان اليه إلا اطمئناناً للتلاعب والعبث والمعالنة الفاسقة . هذا هو المعنى التحليلي لقوله عليه السلام (ويزيدُ رجلٌ فاسق شاربٌ الخمر وقاتل النفس المحرمة ، معلن بالفسق .)

ثم ينتقل الإمام بنا إلى رُوح المبايعة ، ومعنى العُهْدَة وفلسفة الخلافة . وهنا يلزمنا كثيرٌ من الأناة والتفهم ، لأن الإمام يحمل كل معناها في كلمة واحدة وهي (ومثلي لا يبايع مثله) . يعني الامام الشهيد بهذا أن المبايعة بيع النفس للخليفة الذي هو رمز الشريعة والدين ووَحدة التقاليد والعقائد وحامي القرآن كتاب الله ، ووليُّ عهد المصطفى صلوات الله عليه . وإن المبايعة أيضاً التضحية والاستماتة في سبيل الخليفة الرَّمزي ، وهي أيضاً وقف كل مسلم نفسه على أن يلبي نداءه قال تعالى (أطيعُوا اللهَ والرَّسُول وأولي الأمْر منكُمْ) فجعل طاعة الخليفة الرمزي من طاعته ، لانه ينفذ أوامره جل شأنه .

إذن فالمبايعة استسلامٌ وخضوع حتى الموت . وبعبارة اخرى البيعة بيع النفس للخليفة ، فهي رق اجتماعي وسياسي وديني . ومن ثم كان لزاماً أن يتروى المرء كثيراً حين يَبيعُ نفسه. فيم يبيع؟ ولمن يَبيعُ؟ فاذا كان الخليفةُ فاسقاً فحاشاً رقيقَ الدين ظالماً عادياً عابثاً، كان معنى المبايعة له بيع النفس للفسوق، بيع النفس للفحشاء ، بيع النفس للظلم والعدوان ، بيع النفس لمجاهرة الله بالعصيان ، لأن الخليفة الفاجر صفةٌ من هذا الخصال مجتمعة . وهي تعني أيضاً خدمة أهوائه

الشريرة وميوله الفاسقة والموتَ في سبيلها . وأَحقِرْ بهذا مبدأ ، واحقر بهذه مبايعة ، واحقر بهذا الموت تضحية . فكان ضرورياً أن يأبى الامام مبايعة يزيد على شهواته واهوائه وفواحشه ، وأن ينكر وأن يثور وإن كانت الثورة تَهْلُكَة ، ما دام قد أراح ضَميرَه ، وأرضى ربه ومات دون مبدئه . ولذا رأينا نفسه الآبية كيف تَغْلي مثل المِرْجَل في أشد احتدامه ، فلم يصغ الى أمير ، ولم يسمع من مشفق ، ولم يتَرَاخ أمام سُلْطان أو قوة غاشمة . وابى أن يرضى للمؤمنين بالدَّنيَّة والخَسْف ، فأعلن الانكار ولم يعط أذُنه الى من نصحه بالبقاء دون الخروج ، لأن عدم خروجه وان تكن فيه سلامته ففيه حتف المسلمين قاطبة .

فسار كذلك معلِناً منكراً ، ثم ختم انكاره بأمرّ صورة وأفظعها منظراً ،وهو مطمئن الى أن قطرات دمه الزكي ستتسع وتتسع حتى تكون بحراً خِضَمّاً ، يبتلع اول ما يبتلع أولئك الذين أجروا هذه القطرات .

ولقد استطاع عليه السلام أن يقول بملء رئتيه وبسعة شدقيه وأن يرسلها صيحة داوية تصم من اذن الفجور والبُطْل ، وتبقى تدوّي ما بقيت . وهي بعدُ كلمة الحقيقة الخالصة . (ومثلي) في لُحمَة الحق ومظهر دين الله ، (لا يبايع مثله) في لحمة الشيطان ومظهر الباطل .

هذا معنى البيعة في منطق الحسين (ع) ، وهذه فلسفتها عنده ، وهي الحقيقة لمن تدبّرها . ومن ثم كان لها تبعات ثقيلة الإصر لا يتحملها الكبير بسهولة .

ونحن اذا فهمنا الخلافة عند الحسين ، سهل علينا أن نفهم كيف هو عظيم بكل المعنى وأمكننا أن نشخص عظمته من اقطارها ، وأن ندرك بجلاء الجهات التي امتاز بها الامام فكان نسيج وحده ، وكان آية النبالة والمثالَ الفذ . ونقف قليلاً عند حادث كربلاء لنظهر على نواحي عظمة الامام وهي :

عظمة المبدأ ، عظمة الصراحة ، عظمة المضاء ، عظمة الإباء ، عظمة البطولة ، عظمة الإستهانة .

هذه نواح من العظمة أو عظمات متفرقة ، إذا اتصف بأية واحدة منها رجل ،

جعلته في مصاف الخالدين ، ورفعته إلى مدارج الأبطال التاريخيين ، وحفظت له ذكراً عاطراً في العالمين ، فكيف وقد اجتمعت في واحد . وهي بعدُ جانب من خلائق عظمته الحقيقية، فإن عظمة الحسين (ع) الصحيحة في نفسه الكبيرة التي هي مَعين ٌ لا ينضب . ولنمض الآن في فهم هذه الجوانب في حادث كربلاء .

عظمة المبدأ

إن من يلتمس هذا الجانب من عظمة الحسين ، يجده في وصيته لأخيه محمد ابن الحنفية (إني لم أخرُج أشِراً ولا بِطراً ولا مُفسِداً ولا ظالماً وانما خرجت لطلب الاصلاح في امة جدي ، أُريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر ، فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق ، ومن ردَّ عليَّ هذا اصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحقّ وهو خير الحاكمين).

وفي تصريحه الخطير في بيت الامارة وفي حظيرة الحكم ورواق السلطة الذي أعلن فيه رأيه بدون مبالاة ولا وجل ولا خوف . ورد على الوليد وملء قوله جأش رابط وشجاعة نادرة واعتداد بالمبدأ واستحكام في العقيدة . ولقد جمع في رده هذا ، إلى الدهاء السياسي قوة العارضة ، وإلى سلامة المنطق فطنة التخلص ، وإلى ظاهرة التسليم الانكار الصارخ . وهنا نثبت ما جاءت به الروايات ...

(دعا الوليد وهو والي المدينة الحسين (ع) ونعى له معاوية فاسترجع ، وقرأ له كتاب يزيد في أخذ البيعة . فقال الحسين ، إني لا أراك تقنع ببيعتي ليزيد سراً حتى أبايعه جهراً فيعلم الناس ذلك . فقال الوليد أجل . فقال الحسين تصبح وترى رأيك في ذلك، فقال الوليد: انصرف على اسم الله تعالى حتى تأتينا مع جماعة الناس ؛ فقال مروان للوليد والله لئن فارقك الحسين الساعة ولم يبايع لا قدرت منه على مثلها أبداً ، ولكن احبس الرجل لا يخرج حتى يبايع أو تضرب عنقه . فقال الحسين لمروان ويلي عليك يا ابن الزرقاء أأنت تأمر بضرب عنقي أمهو ، كذبت والله ولؤمت ، ثم التفت الى الوليد ، وقال : يا أمير إنا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ، بنا فتح الله وبنا ختم ، ويزيد فاسق فاجر شارب الخمر قاتل النفس

المحرمة معلن بالفسق والفجور ، ومثلي لا يبايع مثله ولكن نصبح وتصبحون، وننظر وتنظرون أينا أحق بالبيعة والخلافة) . وإن قوة العارضة في الحق ، تفعلُ في النفوس فعل السحر وتَعْصِف بالجلامد والصخور ، فتُبدّل منها حتى تجعلها كالكثيب المهيل . وكلمةُ الحق الصارخة لا بد أن تجد لها في أذُن الباطل وقعاً ، وأن تترك فيه دَوِيّاً . إمّا أن يصمّها وإما أن يُصْلح منها . وكذلك فعلت كلمة الامام ذلك الدويَّ الذي كان رجعه صلاحاً وتأنيب ضمير في اذن الوليد . وصمماً وعتوّاً في اذن مروان . واسمع الى المراجعة التي دارت بينهما بعد خروج الحسين (ع) .

قال مروان للوليد : عصيتني !.. لا والله لا يُمَكِّنُك مثلها من نفسه أبداً . وكان أشار عليه بقتله إن امتنع .

فقال الوليد : ويحك . إنك اشرت عليَّ بذهاب ديني ودنياي . والله ما أحب أن أملك الدنيا بأسرها ، وإني قتلت حسيناً : سبحان الله أقتل حسيناً لما أن قال لا أبايع !.. والله ما أظن أحداً يلقى الله بدم الحسين إلا وهو خفيف الميزان لا ينظر الله اليه يوم القيامة ولا يزكيه وله عذاب أليم).

وكذلك تجد الشواهد الكثيرة، في هذه الفترة القليلة، على عظمة المبدأ عندهعليه السلام ؛ ولقد قضى دون مبدئه شهيداً وحامداً محموداً ، واستقبل الله بوجهة المُشْرق لا يحيد عن خطته ...

الله . رسُوله . القرآن

عظمة الصراحة :

هذا جانب آخر من العظمة نطلبه عند الحسين (ع) وليس يختلف كثيراً عن عن عظمة المبدأ كما يظهر . بيد أنهما مختلفان إذْ كان الاول اعتقادياً والثاني عملياً . فقد يكون المبدأ العظيم . ولكن يكون معه التلطف والتحيّل .

ولكنَّ الحسين العظيم كان دون مبدئه كما قيل (تكسّرت النصال على النصال) فلم يكن منه رَجْع ولا صَدى حين يسأل البيعة ليزيد ، إلاّ ذلك الصوت الكالح ذا النّبَرات النارية المشتعلة ، حتّى :

. . . . كأنّه [1] أسدٌ لـــه تامُورُ
غَرِثَـتْ حَليلتُهُ وأَخْطأَ صيده فَلَه على لَقَمِ الطريق زَئيرُ

ثم يتناهى ذلك الصوت بهذه الكلمات الثلاث ، التي جاهد لها الحسين ومات في سبيلها ...

الله . رسُوله . القرُآن

عظمة المضاء :

وهذا جانب أكثر عَمَليّةً من الصراحة إذ هو التصميم والعزم النافذ وتوطين النفس إلى النهاية على أية أشكالها . وهذا شيء يشعر به أرباب المشاعر المُرْهَفَة حتّى أنهم يحسون في دمائهم غلياناً ، كأن بركاناً انفجر وثار في شرايينهم،فهو يقذف بالحمم ويندفع كالسيل الناري حين ينصبُّ من علو بين الشرر المتصاعد والقوة المتدافعة ، وبين النَّفس اللافح والانهمار القوي . فلا براح من أن يمضي بدون تراخ تحت شعوره الجيّاش واحساسه الملتهب . واسمعوا اسمعوا إلى كلمات الحسين (ع) كيف تخرج مع هذا الشعور الخطير . قال : «الحمد لله ، وما شاءالله ولا قوة إلا بالله ، وصلى الله على رسوله ، خُط الموت على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة ، وما أولهني الى اسلافي اشتياقَ يعقوب الى يوسف ، وخير لي مصرع أنا لاقيه كأني بأوصالي تقطعها عُسْلان الفلوات بين النواويس وكربلا ، فيملأن مني أكراشاً جُوَّفاً وأجربة سغباً ، لا محيص عن يوم خط بالقلم رضى الله رضانا أهل البيت ، نَصْبر على بلائه ويوفينا أجور الصابرين ، لن تشذ عن رسول

---

(١) من قصيدة لبشار بن برد .

الله لحمته . بل هي مجموعة له في حظيرة القدس تَقرُّ بهم عينه وينجز بهم وعده، الا فمن كان باذلاً فينا مهجته وموطناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا، فانني راحل مصبحاً ان شاء الله تعالى .)

هذه الكلمات الثائرة كانت منطق الحسين (ع) لأولئك الذين أرادوا أن يحملوه على غير رأيه . ولهؤلاء عذرهم فانهم لا يحملون نفسه ولا يشعرون بشعوره . ولا يتوقّد في نفوسهم ما يتوقد في نفسه .

ولندركَ عظمة هذا الموقف الذي يقفه الامام . ويأبى إلا أن يمضي الى غايته ، نذكر الرجالات الذين نهوه عن الخروج . منهم أبو بكر عمر بن عبد الرحمن المخزومي . وعبدالله بن عباس . وعبدالله بن عمر . ومحمد ابن الحنفية ؛ وكلهم من خُلّص الرجال ، ولكنهم في مواجهة الرجولة الحقة . فقدوا جلد الرجولة وبدوا كدقاق الحصى في سفح الجبل الأشم حين تعصف العاصفة ، تُسْمِع أصواتاً مع انحدارها وربما كانت ضجة من الاصوات ، والجبل في موقفه ساخر في صموت ، وساكن في غير مبالاة . وربما كان جواباً خالداً في التصميم والعزيمة ، قول الحسين (ع) لابن عمر لما أشار عليه بصلح أهل الضلال ، وحذره من القتل والقتال فقال : (يا أبا عبد الرحمن أما علمت أن من هوان الدنيا على الله ، أن رأس يحيى بن زكريا ، أهدي الى بغي من بغايا بني اسرائيل).

هذة فقرة نبيلة من جواب الامام . تجعلنا نلمس مقدار قوة التصميم عنده . ومقدار مضاء العزيمة لديه . لتحقيق هدفه الذي لا يحيد عنه قيد أنملة .

وكذلك مضى وهو لا يرى إلا مبدأه الذي يأتلف من كلمات ثلاث ، ثم لا يسمع سوى صوت هذه الكلمات عميق الصدى سحرياً ...

الله . رَسُوله . القُرآن

عظمة الإباء :

وهذا جانب آخر من عظمة الامام الشهيد ، ولكنه أنبلها جميعاً وذلك ، إذا

رأينا كيف يَفْقِد المبدأ والصراحة والمضاء ما فيها من معاني النبل إذا أرضت صاحبها شهوة أو أقنعه مُنْفَس ، أو أجاب إلى دنيا . وليست تفقد معناها فحسب بل ينقلب النبل فيها عاباً ، والشرف حطة . فكان الإباء حجر الاساس وركن الزاوية . وكذلك أبى الامام (ع) إلا الإباء . ونطق بها كلمة تَفرق منها نفس العاتي وتضؤل معها كبرياء الظالم (لا والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل ، ولا أقر فرار العبيد ، يا عباد الله اني عذت بربي وربكم أن ترجمون ، أعوذ بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب) ..

ثم أناخ راحلته ، وركب فرسه ، وتهيأ للقتال ..

أعْظِمْ بــه بطلاً لم يعط متّضعاً	يد الصغـار وأعطى دونها الراسـا
كذلك الحر يستعدي الممـات على	عيش الدنيّة إذلالاً واركـاسـا
أكرم بها خلة كانت لنـا نهجـاً	ثم استمرت على الأيـام نبراسـا

وكذلك أبى بعز النبوة وعز الشخصية ، وأبى التاريخ من ورائه أن يقر لمثله أو يعرف مثله ، فلقد علم الرجال الرجولة ، وعلمهم نبل الاباء ، وأسمعوا بطل بني الزبير (مصعب) كيف يقول حينما تولّهت امرأته سكينة بنت الحسين

(لم يبق أبوك لابن حرة عذراً .

وان الألى بالطف من آل هـاشم	تـآسوا فسنوا للكرام التـآسيـا)

وهكذا أبى عليه السلام ، الدنيا ولذائذها وبَلَهْنِيَة الحياة ورخاء العيش ، لان اللذة الحقيقية استجمعت عنده في شيء وراء أباطيل الحياة وأهوائها الضالة . ومن كان له مبدؤه لا يدرك لذة إلا به ، ولا سعادة إلا بتحقيقه ، وكأنما كان مبدأ خط له عليه السلام من نور ، فهو لا يرى غير كلماته الثلاث ...

الله . رسوله . القرآن

عظمة البطولة :

هذا جانب من العظمة أَشد ما يكون وضوحاً عند الحسين (ع) . وربما لم يظهر عند غيره بالروعة الّتي تراها عنده ، ولعل أبرع مواقف بطولة الحسين (ع) : هذا الموقف الذي يقول فيه ...

(قوموا رحمكم الله إلى الموت الذي لا بد منه ، فإن هذه السهام رُسُلُ القوم اليكم ؛ فاقتتلوا ساعة من النهار حملةً وحملةً . حتّى قتل من أصحاب الحسين عليه السلام جماعة . فعنده ضرب الحسين (ع) يده إلى لحيته وجعل يقول . اشتد غضب الله على اليهود إذ جعلوا له ولداً ، واشتد غضبه على النصارى إذ جعلوه ثالث ثلاثة ، واشتد غضبه على المجوس إذ عبدوا الشمس والقمر دونه ، واشتد غضبه على قوم اتفقت كلمتهم على قتل ابن بنت نبيهم ، أما والله لا أجيبهم إلى شيء مما يريدون حتّى ألقى الله وأنا مخضب بدمي)..

محل الروعة البالغة أو بلاغة الروعة في قوله (قوموا الى الموت رحمكم الله) وفي قوله (اما والله لا أجيبهم الى شيء مما يريدون حتّى القى الله تعالى وأنا مخضب بدمي) ...

هاتان الفقرتان اللتان ترسمان بكل وضوح نفسية الحسين (ع) غير هياب ولا وجل ولا شكس ولا وكل . يدعو أصحابه إلى الموت كأنما هو يدعوهم الى مأدبة لذيذة ، ولقد كانت لذيذة عنده حقاً، لأنه وهو ينازل الباطل يرتسم له برهان ربه الذي هو مبدؤه ، ويسمع صوت الله الذي هو صوت ضميره ، ثم يشد على القوم ، وهو لا يرى بناظريه إلا هذه الكلمات الثلاث ...

اللهُ . رسُوله . القرْآن

عظمة الاستهانة :

هذا الجانب عظيم وغريب عند الإمام الشهيد ، فقد كان مستهيناً بالحياة ومستهيناً بالموت ، غير ناظر إلى شيء إلا برهان ربه،الذي امتزجت به نفسه؛ فهو

يفتديه بكل شيء هان أو عز ، ومن ثم كان جديراً عليه السلام بأن يسمى البنّاء الثاني في الاسلام بعد جده المصطفى صلوات الله عليه ، وبأنه المجدد لبناية التوحيد كما يقول الشاعر الهندي (معين الدين اجميري رحمه الله) .

وكذلك استهان عليه السلام بكل شيء ما عدا مبدأه . تصوروا رحمكم الله ، أنصاره يخطف الواحد منهم بعد الآخر بمرأى منه ومسمع ، وأبناؤه يطوّح بالواحد بعد الآخر على أمرٍّ منظر وأفظعه، وحرمه يتفجعن بين يديه وهو يتلوّى من شدة الظمأ وجحد الجاحدين . ومع ذلك لا نراه إلا الحسين (ع) الرجل الذي يقدس مبدأه ولا يلين ، ويستعذب كل هذا على خيانة الضمير وخيانة المبدأ المقدس ، وهو يشع بأنواره الساطعة بين ناظريه ، وكلماته السحرية تفعل في نفسه فعلها ...

الله . رسوله . القرآن

هذه لمحة من عظمة الحسين الامام الشهيد عليه السلام ، وإن يكن المصاب مريراً ، فقد ترك درساً شريفاً ، وتعليماً نبيلاً وإنسانية كبيرة ، وذكراً خالداً ، ودرجة رفيعة عند الله والناس .

ويكفي أنه كلما ذكر ذكرت به معاني الفضيلة والحق ، وإذا ذكر خصومه ذكر بهم معنى اللؤم البغيض والانسانية الشريرة . ولكن إذا كان شيء مراً في كل حادثة ، فإنما في أن يقتل بيد من كان يتحمل الامام كل هذا العناء بسبيل راحتهم وهنائهم .

هذه صفحة عجلى تضع بين أيدينا صورة من قيَم الحسين (ع) النفسية ، وما كان قد استوى في قلبه الكبير من عواطف سامية ومعان نبيلة وميول للحق وفي الحق ، ومضاء على كلمة الصدق .

وهي وإن تكن صورة عجلى إلا أنها تخطط أمام ناظرنا شكلاً من الرجولة الحقة لا تقع دونه وإنما تستوي فيه ، وهذا ما يجعلنا نُهيب بالناس إلى ترَسّم هذا البطل القدوة في كلمة الحق وصراحة الحر ومضاء العزوم .

وهي حادثة قد يمكننا أن نسميها صغيرة اذا نظرنا اليها في حدود المغالبة ، ولكن هذا الصغر فيها هو الذي جعل لها معنى كبيراً . فإننا إذا رأينا حفنة من الناس في ملء اليد ، تثبت لجموع في ملء الارض الفضاء ، انكشف لنا عنصر البطولة والرجولة الذي نكبره ونشيد به في حادث المصرع الرهيب .

هذا شيء دللنا عليه في غضون ما سبقنا به ؛ وإنما نريد أن نثبت الآن مقدار ما يفيدنا منه .

علّمنا الحسين (ع) كيف نحافظ على ذاتيتنا ، وكيف نتناهى في الدفاع عن كرامتنا . وكيف نعمل في سبيل القضية المقدسة ، وكيف يجب على الزعيم العامل أن يكون إرادة ماضية لا يلين ولا يستكين ...

يكون الاسد حبيساً ولكن لا يجعله الحبس عبداً . هذا ما يقوله ديوجين اليوناني في قديم الدهر ، وذلك لمكان الذاتية التي لا يرى معها في سمْت ناظرية إلا إياها ، ولا تجتمع مرامي بصره إلا عليها . فهي مصدر شجاعته واستماتته وسر إبائه وغيرته ، والقيمة الحقيقية لا تجيء الا من هذا الجانب .

على ان تماسك الوجود لا يتم إلا إذا اسندته الذاتية . وكانت له دعامة . والمرء الذي لا يشعر بذاتيته لا يشعر بوجوده ، وإن تاريخ الحرية هو تاريخ الذاتية على الحقيقة التي تأبى إلا أن تظهر بسلطانها .

ولقد ضرب الحسين (ع) أعظم مثل في الذاتية . وعلّمنا كيف نقدر ذاتيتنا حق قدرها . ولقد أرانا الحسين (ع) كيف لا يرى الوجود إلا في ناحيته ، تحتبك عنده أطرافه . وهذا الخُلُق لا يرجع بالانانية عند الشخص في فهم الوجود . بل يحدد لكل امرىء نسبته من الوجود العام . فمعنى انا موجود : أنا مستقل بكل أسباب الوجود ؛ فالذاتية أو الاستقلالية تتصلان بالانسان فطرته . فكان من لا يشعر باستقلاليته لا يشعر بشيء من وجوده . هذه الذاتية نراها عند الحسين (ع) بصورة ضافية بل ربما كانت عنده بأسمى مثل وأروع شاكلة .

والكرامة معنى لا ينفك أو ينفصل عن الذاتية . بيد أنها تتصل مع ذلك بمنطقة

لوجدان ، ومن ثم كانت عنواناً على التمتع بكامل الحريات للانسان المهذب .

والكرامة لا يشعر بها إلا من أثّر فيه مدُّ التاريخ حتى جعل له شخصية اخرى عدا شخصية الوجود ، وبهذا الشعور نطق العربي ...

وَمَا لِلْمَرْءِ خَيْرٌ في حَيَاة   إذا ما عُدَّ من سَقَط المَتاع

ولقد ضرب لنا الحسين (ع) أرفع مثل في المحافظة على الكرامة والذود عنها والاستبسال في سبيلها . فإنها أي الكرامة عند الرجل الحر نعمة أسمى من نعمة الوجود .

ومن أطرف ما وقفت عليه من مذاهب المفسرين . هذا المذهب الغريب في قوله تعالى (ولقد كرمنا بني آدم) أي جعلناه ذا كرامة يغار عليها ويتفانى في ذمارها ، وهذا محمل ووجه من التأويل . وإن يكن غريباً لكنه متسق مع الآية ، نازل منها منزلة قريبة . ولعله كان أقرب من كل معنى آخر ، وقربه يظهر في قوله تعالى في ختام الآية (وَفَضلْناهُمْ عَلى كثيرٍ مِمّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلا)فإن كان (كرّم) من التكريم كان معنى الجزء الاخير مستدركاً ، وانثنى فيه معنى آخره على أوله . فيتسق على انه (كرّم) من الكرامة .

واذا كان الانسان مخلوقاً ذا كرامة . فالتفريط فيها انتفاء من الانسانية وانتزاع منها ، فإذا أردت أن تكون انساناً ، فصن كرامتك وكن حراً .

ثم ضرب الحسين (ع) مثلاً في كيف نخدم قضايانا المقدسة . وهذا الجانب يدخل في أمس حاجاتنا ، فنحن في مرحلتنا الجهادية التي نشمر فيها عن ساق . حريون بأن نعرف اولاً كيف نُخْدَم القضايا العامة . وهذا الدرس لن نعرفه على وجهه الا عند الحسين (ع) . فان جميع من يعرفنا التاريخ بهم من شتى الرجالات في شتى الامم ، لا نجد بينهم من يجيء مع الحسين (ع) قريناً ، ولن نجد في التاريخ له مثلاً ولا نظيراً . وأنى نجد انساناً يندفع على الموت كما يندفع الطفل على الحياة بكل جوارحه واستعداداته . فهي تجتمع عند الطفل لكي تحيا ، وتجتمع

عند البطل لكي تموت ، وفي حيوانية الطفل سر الموت ، وفي موت البطل سر الحياة ..

فالحسين (ع) أعطانا في هذا المَشْرَع درساً هذه كلماته : الدفاع عن القضية المقدسة لا يكون إلا بعد أن تستحيل القضية روحاً يحيا بها المحامي والمدافع . وبذلك لا يحول به الموتُ والحياة ، ولا الرهبات والرغبات عما هو قيد ذراع . بل يثبت ثبات القَدَر حين يقع لا يحول به حائل من الجهود . وإذا كان هذا ميزان الاخلاص في الدفاع ، فإنا نرى كيف هو تكليف قاس ينوء تحته كل عاتق ، ليس للحسين وأنداده . وأعظم ما يفيدنا في سيرته ، وان كانت الفائدة تتصل بها من سائرها ، أنه أعطانا شكلاً للزعيم المكافح الذي إذا خاض معركة الحق والباطل فانه لا يعود الا بأن ينتصر به الحق أو بأن ينتظر . وانتصار الحق مما ليس منه بد ، وإن كان للباطل صولة ، وللمبطل دولة ، ولكنْ الى حين .

فيا بَطَلَ الكِفَاح مُدَّ إلينا يَداً ...
ويا بطلَ الجهادِ كيفَ لنا بمثلِ خَلائِقك في الجهاد ...
أنتَ مرةً ذهبْتَ تصنَعُ الموتَ انْتِصَاراً ...
وغيرُكَ ذهبَ يصنعُ الحياةَ اقْتِدَاراً ...
فماتَ القومُ وبقيتَ وحدَكَ رَمْزَ الخُلود ...

* * *

لكلِّ إنسانٍ يومُ حياةٍ ويومُ مماتٍ ...
وبينَهُما يقومُ مسرَحُ الأعمال الخَوَالد ...

وأمّا أنتَ أيُّها العظيمُ ، فقدْ كان لكَ يومُ حياةٍ فقط ، لأنك لم تمت كما يشاء الموتُ ، بل كما تَشَاء العَقيدةُ ، فلكَ في حياةِ كل إنسانٍ مكان ...

* * *

اللهُ واحدٌ ، والحقُّ واحدٌ ، ولئنْ تعدَّدَتْ موازينُ الباطلِ فلنْ يستوي في الحقّ مؤمنٌ وجاحدٌ ...

ولئنْ اعتُديَ على الحق في جُنْح الظلام فللحقّ في ضميرِ الكونِ شاهدٌ ...

ولئنْ تَقَوّى الظالم حتى ضاقتْ في وجْهِ فريسته المواردُ، فللحقِّ من نفسِ أسبابِ الظلمِ شباكٌ يحوكُها، بحيثُ تفْلِتُ الفريسةُ ويقعُ الصائدُ...

ذكرى الحسين (ع)

عرى الدين من أحلاس شر وفتنة
دواهي طغت وازور من وقعها الهدى
فهاج امام الحق من كل وجهة وهاج إمام الدين من كل منتحى
فما قر في وجه الظلوم وما التوى على مرة الظلام أو شدة الهوى

* * *

أرادوا به ذلاً فكان جوابه زئيراً كليث الغاب حفز للشرى
سرى جاهداً يستندب الروع بغية
كأن الردى في الذل والعيش في الردى
تهاوى على موت الكريم كما هوى على منية من كان يخلو إلى المنى
مر بوادي الموت والموت طلبة فيا عجباً هل ثم في الموت مقتنى

* * *

وأرادوا به ضيماً وذل ضراعة ولكن غذي المجد يستعذب الظما
وقالوا له نعلي سراد ق نعمة عليك إذا ما أنت أسلمتنا اليدا
تهادى كما لو كان في مثل طربة وقال مقال الأعظمي إذا انتخى

أُقَدِّمُ جِسْمِي دُونَ مَبْدَإِ شِرْعَتِي   وأَحمي حِمَى ديني وأَحبو إلى الهدَى[1]

أُقَدِّمُ وُلْدِي والأسِنَّةُ شُرَّعٌ   وأَسْتَعْذِبُ المَوْتَ الزؤامَ لهم رضى

أقدم مَن وُلْدِي شَبيهَ نبيكم   وشبهَ نَبي الهَدْي يَفْدي له الهدَى[2]

أقدِّمُه للمَوْت وهو كوَرْدةٍ   تَفَتّح . والدينُ الحنيفُ له ابْتَقا

أقدم صِنْوي للوَغَى وفتى أبي   وهل مِثْلُه حُرٌّ إذا اجتَمع الورى

ومن مثل عبّاس أبي الفضل باسلاً   ومن مثله نُبْلاً ومن مِثلُهُ تُقى

أقدم من قُرْباي قُرْبان فِدْيَة   حِفاظاً لدين الله أن يرمى بالدَّنى

أقدم منهُم كلَّ أحْمَسَ ماجدٍ   أخا شرف يحمي الحقيقة بالظُّبا

أقدم رأسي شاخباً بدمائه   على أن أمُدَّ الكَفَّ للذلِّ والخَنا

لقد رَضِيَتْ نَفْسي لأسْجرَها فِدى   وقد رَضِيَتْ نَفْسي لأنحرها حِمَى

ويُطْرِبُني هذا الأنينُ كأنّهُ   بقَيْسِ شُعُوري من لُحُونٍ على الصبا

ولو أنَّ أهْلي قُطّعوا إرَباً على   لَحاظيَ ، كَلاَّ ، لا أحُولُ عن الخُطى

كَذاكَ رِجالاتي الكِرامُ تَعاقَدوا   على فدْيِ دين الله إن كان يُفْتَدى

* * *

مَقالٌ لَعمري صيّر الدهرَ خاشعاً   ورجّعَهُ في كل جيل أخو مَضا

كأنّي بها ذاك الاثير مُجَوَّباً   يُطَوّي النّواحي والرّجا بعده الرجا

* * *

فيا كرْبلا . كهفَ الإباء مُجسَّماً   ويا كربلا . كهفَ البُطولة والعُلا

ويا كربلا . قد حُزْتِ نفساً نبيلةً   وصُيِّرْتِ بعد اليوم رمزاً إلى السما

ويا كربلا . قد صرت قِبْلة كل ذي   نفس تصاغرُ دون مبدئها الدُّنا

ويا كربلا . قد حُزْتِ مجْداً مؤثّلاً   وحزت فخاراً ينقضي دونه المَدى

---

(١) بمعنى الهداية .

(٢) بمعنى الدين

فخارٌ لعمري سطّرته ضحيّة فكان لمعنى المجدِ أعظم مُجتلى
فللمُسلم الأسمى شعــارٌ مقدّس هما قبلَتان للصّلاة وللإبــــا

* * *

فأكرِم ببيتٍ كـان للناس شِرْعَةً ومُنبَثَقاً من خُطّة النبل والفدى
فِداءٌ لَعمري ظَلّ تمثـال نُهيــة يُقَدّسهُ الرّواد من كل مُنْتَحى
يطوفون في أرجــــائه بقَداسة كأنّ لها وحياً إلى النفس والنهى
كذلك سرُّ الكبريـــاء إذا سمت وذلك سر العبقريّ اذا انتضى

دَمْعَةُ[1] سُنّيّ على الحسين (ع)

وقفتُ على زُمرة ثـــائِر ين يكاد الحفــاظ يُرامي الحمم
يقولون ثــأرٌ لنـا نـــأتم تريد انتقـــامــاً يروّي الضرَم
يروّي الضُلوع يعيد النخـــا يروي النفوس يُعيد الشّمــم
فقلت ، اليكُــم وابن التــرا تُ قـالوا جميعـاً طواها الرّمــم
فقلت ، اليكُم لمـــاذا الحِفا ظ هل في القُبور هوى ينتَقِم
هنـــاك الاله إليه القضـــا إليه العدالةُ في المُحتَكــم
فقـــالوا وألوَوْا إلى الرؤوس ريْت الامور بعَيْنٍ أمــم

* * *

نُحَيّي الكرامةَ في شخصِهـــا نحيّي البطولةَ في ذا العَلَم
نحيّي الحقيقة في نبلهـــا نُحَيّي الفِداء نحيّي الحُطــم
نحيّي ضميراً سمـــــا طُهْرُه نحيّي ضحيّة حقٍّ غُــرِم

---

(١) يقيم الشيعة ذكرى عاشوراء للعظة والادكار ، وهي ذكرى عظيمة بما اشتملت عليه من عظات ومن بطولة في الجهاد وإنما تربو الروح السامية بذكرى الابطال . وهذه الذكرى اليوم ألزم ما تكون لنا في مرحلتنا الانقلابية .

نُحَيِّي الطهـــارة في بيتهـــا   إطـــار الطهــــارة قدسٌ ودم
نحيي نبيــلاً أبــى نُبْلُـــه   قَراراً وتلك تطـل الحُــرَم
ونهتضـم الحقَّ لا تــرْعَــوي   إذا الحقُّ أنَّ بصوت الـدِّيَم
نحيي فؤاداً تــــأبّى العَفــا   تأبّى الفضيلة ان تَنْحطـم
تـــأبّى الهجوع وصوت الحقو   ق يدوي إليَّ إليَّ الحَكَـم
نحيي مِثــالاً أجـــاب الندا   فكان فِـداءً كرمـــز الحرم
أجــــاب ويــــاروعة للجوا   ب إذ قال مَرحى بسكْنى الرُجَم
وفيـــه افتداء حقوق غدت   تئِنُّ بليـــل إذا مـــا اعتَرَم
وفيـــه نـداءٌ يفُلُّ قـــوى   ظلوم غشوم اذا مـــا احتَكَم
وفيــه نداء أيــــا الظـالمين   رُوَيْـداً رويــداً فللحق يــوم
وفيـــه هَزيمٌ كصوت الــرعو   د ويــوم الحقيقة يــوم حُسم
ويُــذكي شعوراً يخيف الظلو   م ويَحمي الحقوق فلا تَنْهَضم
ويُذْكرنــا المجد كيف السبيل   وكيف ينـــال إذا مـــا اخترم
إلا إنمـــا بالدمـــا وحدهـــا   يــرد اعتداء عــدو خصيم
فما طُلَّ دَمٌ جــرى في الثرى   يصيح مــدى الدهر يا للهمـــم
يصيح بصوت رعــود رعــوب   يهز قـــرار النفوس الركـــم
ينبِّه في النشء أمجـــــاده   لرد تُراث ولـــو في الأُجُــم

* * *

فطَرَّبتُ لمـــا فهمت الرمو   ز وأرسلتُ دمعيَ فــوق الرمـــم
« أبـــازيتَ [1] » مجد أحييكم   ونِعم الخشوعُ بــذكرى العَلَم

---

(١) كلمة من وضعنا الجديد،وهي جمع ابزيت ومعناه الثائر لذكرى تاريخية . راجع مقدمة لدرس لغة العرب ص ٢٥٤ . وهذه القصيدة اجريناها على رأيي عروضي لنا ؛ راجع مقدمة لدرس لغة العرب ص ٤٦ إلى ٥٢

في الشخصيّة

الشخصية لفظ كأكثر ألفاظ الفلسفة والعلوم ، لا يعبر عن معناه تعبيراً حقيقياً ، ولا يقوم على مفهوم محدد ، وأيضاً لا يعتمد على اعتبار منطقي واحد . بل يُداخله اعتبارات شتى تجعل له معنى متفاوتاً ، وهو كغيره من مصطلحات العلوم يُستند اليه في تقريب الغرض العلمي فقط .

فمما لا ريب فيه إذن ، أن العلوم مغلوبة بأسلوب شعري أو أدبي [1]

---

(١) وضعنا كلمة ادبي هنا موضع كلمة فلسفي على ما انتهى اليه بحثنا في تحقيق كلمة أدب ،وأن العرب استعملتها بعد الاسلام لتدل على كل ما تتناوله الفلسفة ولغموض وضعها الاصلي الشخصي ، لا بأس من أن نقف عندها قليلا لندرسها على ضوء التعليم اللغوي الجديد الذي اثبتناه في كتاب (مقدمة لدرس لغة العرب) ص ١٤٧ إلى ١٥٢ ، ص ٢١٠ إلى ٢١٤ فان لها خطورتها من ناحية ولانها كانت محلا للاخذ والرد والتقدير المرسل من ناحية أخرى ولابدع فهي من الغوامض؛ وتحديد ظروفها في الاشتقاق والاصطلاح أهاب بكثرة مستشرقة وعرب إلى استعراض ما وقعت فيه وتتبع اقدم النصوص المحفوظة ،ولم ينوا في جمع مختلف الاثار ؛ وكان من نتائج هذا البحث الشاق آراء لا تقع فيها على القول الفصل ،ولا أعلم لاحد بحثاً تحقيقياً قبل الاستاذ (نللينو)ومهما يقال على النتائج التي وصل اليها فلا ينكر عليه قيمتها ؛ ويسرنا هنا أن ننوه برأي طريف جداً للاستاذ الزيات أخذ أخذاً ،فيه استبعاد ولكن على كل حال جدير بالدرس ؛ وحاصله أن (أدب) في الشومرية معناه الانسان ولا يبعدان العرب نقلته بالابدال بالميم فقالت (آدم) ووجه جدارته انك لو أخذت مادة (ادب) ومقاليبها ومادة(ادم) ومقاليبها كذلك لالفيتها تنظر إلى معنى واحد لا اختلاف فيه مما يقضي بأن بين =

. . . .

= المادتين تناظرا وان كان هذا التناظر يمكن ان يرد إلى تقارب ما بين الباء والميم . فان كلا منهما يأتي من مقاليبه ما بمعنى الزمن الطويل خذ (أمد) و (أبد) وتشعر المقابلة بين مقاليب المادتين بأن مادة (ادم) أحدث من أدب ولكن مع هذا نرى انه لا يخلو عن مجازفة نظرية. بيد أنا نرى رأياً جديداً ربما يشتمل على عناصر من القوة والحقيقة أكثر مما في كل رأي سابق؛ ورأينا هذا بكل صراحة لا يستند الا على التحليل اللغوي فليس هو نتيجة ابحاث تاريخية تقوم على مستندات كانت مجهولة وانما هو التحليل اللغوي لا اكثر . فان مقاليب هذه المادة تعطينا معنى غير مختلف ودلالة متآخية وهي الزمن الممتد او الخلود الزمني . وكيفما كان فالنتيجة واحدة. وعليه فلفظة الادب قديمة ووضعت لمعنى (خلود الذكر) وعنه نشأ ادب بمعنى (تخلق) وعن هذا نشأ ادب بمعنى (دعي إلى الطعام) وعن معنى (خلود الذكر) ايضاً نشأ ادب بمعنى (القصص والحكاية والنادرة) . وعن هذا نشأ ادب بمعنى (سمر) ومن ثم اطلق على الشطرنج انه من الادب . وفي اثناء هذه الانفصالات تولدت من الشريعة لفظة العلم مراداً منها الدين ولذا كانوا لا يطلقون على ما سوى علوم القرآن علماً . فقامت لفظة الادب في الجانب الاخر لتؤدي ما عدا ذلك جميعاً دالة على (الفن) وكل ما ليس إلى الدين من أنواع الدرس، ولذا قالوا ادب الدرس وادب النفس . وقال ابن المقفع في ص٤ من الادب الكبير (يا طالب العلم والادب) واستعملها في موضع آخر بما يقرب من الناموس والسياسة قال في ص ٢١ (حتى تحملهم ان استطعت على الرأي والادب الذي بمثله تكون الثقة) . وقال أبو العيناء (ان لعلي (ع) تسع كلمات فقأن عين البلاغة؛ ثلاث منها في المناجاة وثلاث في الحكمة وثلاث في الادب؛ أما التي في المناجاة فهي: إلهي كفاني عزاً أن أكون لك عبداً ، وكفاني فخراً ان تكون لي رباً ، أنت كما اريد اجعلني كما تريد . واما التي في الحكمة : فهي قيمة كل امرىء ما يحسنه ، المرء مخبوء تحت لسانه ، ما هلك امرؤ عرف قدره . وأما التي في الادب : احتج من شئت تكن اسيره ، وتفضل على من شئت تكن اميره ، واستغن عمن شئت تكن نظيره) فنحن بمقارنة ما بين كلمات الحكمة وكلمات الادب نجد جلياً كيف كانوا يفهمون من الادب معنى السياسات . وبالتقدم الفكري عند العرب نشطت لفظة العلم وتوسعت لتدل على أكثر مما كانت تدل عليه لاسباب أهمها انها اوسع الالفاظ في اصل العربية لهذه الدلالة، وايضاً لان علماء الشريعة شاركوا في علوم من علوم الدنيا ودخلت في شعبة اختصاصهم؛ ولما شملت العرب الحركة المنطقية اكتسبت لفظة العلم أوسع معنى وبدأت تنتزع من الادب كثيراً مما كانت تقال عليه حتى عادت ولا تقال إلا على فنون بعينها شملها فيما بعد ايضاً لفظ (العلم) وأصبح لها معنى الوحدة؛ وعليه فقد عراها ما عرى كلمة الفلسفة من تغيرات بين السعة والضيق والعمومية والاختصاص وايضاً تشبهها من وجه اخر وهو أن كلتيهما لا يعرف لهما مولد على وجه التحقيق ولا غرض على وجه الدقة وإنما كل ما يعرف من شأنهما استعمالات لا تؤدي وجه الغرض بل ربما زادته غموضاً نظراً لما هي عليه من الاختلاف فالفلسفة يستعملها (هيرودوت) بمعنى غير ما يستعملها فيه (بركليس)؛ راجع دائرة البستاني ومبادىء الفلسفة. والادب استعملت في أقدم ما حفظ من =

يدل في أوضح ما يكون دلالة غيبية محضة . ومن ثم رأى بعض الطبيعيين أن الأقرب في مذهب التعليل ، أن نسمي الجاذبية (مقاومة الانفصال) ورأى ماكس نورداو أن الأصح في المنطق أن نسمي نظرية بقاء الاصلح (ببقاء الأحيل)

وليس في هذا ما يدعو الى الدهشة ، فانا إذا وقفنا على تمام الملاحظة في اصطلاح (الانتخاب الطبيعي) ، رأينا مقدار ما تقوم عليه الفاظ العلوم من الحظ الأدبي .

وعليه فليس لنا أن نعتمد على كل ما تُخَيِّله المصطلحات . بحيث ننظر اليها كإطار للحقيقة . فإن هذا الاعتماد يسوقنا إلى مغالط كبيرة ومغالطات ذات أهمية ؛ فهي تفسر الشيء أحياناً تفسيراً غير صحيح . وأحياناً تفسيراً يميل الى التعميم . ومَثَله أنّا إذا تساءلنا عن نجاح انسان ، فإنا نعلله بالشخصية الموفورة ، وإذا تساءلنا عن الشخصية لم نلق جواباً واضحاً . فيكون كل ما استطعناه أن ننقل التساؤل لا أن ننتهي به . إذ ليس للشخصية حد حقيقي في كثرة ما لها من التعاريف .

لذلك لا يهمنا أن نذكرها في معناها . بل في آثارها الهامة وعناصرها الجوهرية المكوّنة التي هي :

الجاذبية ، النشاط العقلي ، المشاركة الوجدانية ، الشجاعة ، التفاؤل ، الحكمة ، التواضع ، حسن المظهر ، قوة البيان ، الثقة بالنفس ، اعتدال المزاج .

ثم للشخصية صفات كمالية وهي على وجه العموم : الذاتية ، الاخلاص ، الحماسة ، قوة الوجدان أو الإحساس .

= نصوص بمعنى الدعوة إلى المأدبة ثم رأيناها تبعد شيئاً فشيئاً إلى معان ليس بينها وبين الدعوة إلى المأدبة آصرة ولو بعيدة ؛ وهكذا نجد بين الكلمتين شبهاً من كل الوجوه تقريباً فهما في عهد ما قبل الارتقاء يستعملان بمعنى أبعد ما يكون عن المعارف ، وفي عهد المعرفة يستعملان بما يكون جامعاً لها . ولا يمنع من هذا أنا لا نجد شواهد لغوية في المعجم المحفوظ . والخلاصة ان كلمة ادب ترجم بها العرب كلمة فلسفة وكثر استعمالها في السياسات على اختلافها كسياسة المدينة وسياسة المنزل وسياسة النفس وسياسة الطباع ؛ ولا شك ان أدب القول من سياسة الطباع .

وعلم النفس التطبيقي ينصرف إلى أن ذا الشخصية قمين بالنجاح أو هو ناجح من غير بد . بيد أن هذا ليس صحيحاً على إطلاقه . بل لا بد من شيء جوهري آخر لتحقيق هذا النجاح ، وهو استعداد الظرف أو الاجتماع . فلقد تُستجمع كل عناصر الشخصية في شخص ما . ولكن مع ذلك يفشل في زمنه أو عصره ، لأن عناصر شخصيته ليست منتزعة من صميم المكيِّفات العامة للعصر . ولذلك يبقى بشخصيته بعيداً عن الوسط . فإن الشخصية ليست بذات حدود آلية أو قاعدية تحكمها ، وإذا كان لها حدود فليس لها طابع ثابت أو لون واحد بعينه .

والنجاح يقوم على مقدار ما يستطيع المرء على تكييفها مع الصفات البارزة للعصر التي هي شخصية ثانية . وهذا التزاوج على الدوام إنما يتم بسبب واحد ، هو المرونة في شخصية المرء لأن شخصية المجتمع أو الجماعة أكثر ثباتاً أو ثابتة . وهذه المرونة أو الحيلة بعبارة أصح هي السبب الصحيح للنجاح الدائم . فليس النجاح تابعاً لتوفر الشخصية الصحيحة . إذا كان للشخصية أقطار وحدود ، وإنما هو تابع للحيلة في استعمال هذه الشخصية .

ولقد كانت حقيقةً عظيمةً . الملاحظةُ التي أبداها ماكس على مذهب بقاء الأصلح ، بأن الأولى في مذهب التعبير الواقعي أن نقول بقاء الأمكر أو الأحيل .

وإنما اجتهدنا بإثبات هذه الملاحظة على النظرية المذكورة ، ليتسق لنا فهم الفشل الذي مني به مثل علي (ع) من أصحاب الشخصيات الكبيرة . والتي لا نكر في أنها ممتازة إلى أبعد غاية .

ومما لا يمكن الريب فيه أن للتربية يداً في إبداء الشخصية وتركيزها على خطة مثلى ، وأما أنها تعتمل الشخصية ، فهذا ما ليس في طوق مناهج التربية أن تعطيه بحال .

وهي إذا قدمت نوعاً من الشخصية المستعملة ، فان فرق ما بين الطبيعية والاكتسابية كالفرق بين الانسان الحي والانسان (الميكانيكي) الآلي .

ولسنا نريد أن نتبلّغ بهذا إلى الانكار على المنهج التربوي فائدته وآثاره

الهامة في التهذيب وإعطاء الشخص الفاضل . فقد ثبت أنها كفيلة بهذا القصد وحفيلة بفضلى النتائج . وانما الغرض الذي نتوسل اليه أن نقرر أن الشخصية الكامله المقصودة بهذا اللفظ عند الاطلاق . هبة في أهم أنحائها لم تتفسر على وجة واضح . فالبطل كما يقول (كارلايل) يولد بطلاً .

وسنأخذ الآن ببحث نواحي الشخصية عند الحسين (ع) ، لنقدم فيه قدوة نبيلة . مُخطَّطة على رسوم جليّة . وهي بَعْدُ شخصية محببة الينا ، لا تَعْدِل بنا أن نَتَوَخّاها .

الجاذبية :

هي أهم عناصر الشخصية المكوِّنة . ولقد غالى بعض رجال التّربية فجعل منزلتها من الشخصية منزلة الحقيقة أو الجنس . وإنما سائر العناصر الأخرى قوى فقط .وهذا له وجهه . فإن أعظم ما يسترعي اهتمام التاريخ في الحديث عن الشخصيات . هو هذا الجانب فإن للجاذبية فعلاً أسرياً يحول بين المرء ونفسه ، ويستولي على مناطق الشعور منه بحيث لا يشعر بشيء على الاستقلال . بل يجعله كأنما هو موجّه إلى جهة يريدها أو لا يريدها . فهي سلطان قاهر يطيف بالنفوس فيُسبيتها أو يبعث فيها خدراً عميقاً يتركها بلا حول .

فقد ذكر (لوبون) في كتاب «روح الاجتماع» أن (نابوليون) كان يدخل مجلس الأمة ، وكثير من رجاله معنّفُون عليه ، فما هو إلا أن يدخل حتى ينقلب أشدهم عنفاً وتطرفاً في الانتقاد أكثرهم اقتناعاً ، وقد كان يقول أحدهم يخيَّل إلي لو أن هذا الرجل أخذ بأذني فأخرجني ما اختلفت عليه .

ومع ان الجاذبية شائعة الوجود في أفراد من الناس ، لم نَظْهَر على تفسيرها الصحيح . ولا تزال تشرح على سنة وصفية بحت . ولو أظْهِرنا على سرها لكان لعلم النفس أن يتحكم في الجاذبية طغياناً ونُضُوباً ؛ والحق أن الجاذبية من أسرار النفس العليا ، لا يمكن النفاذ اليها بسهولة ولقد عبر عنها صاحب الشريعة صلوات الله عليه بأدق تعبير وأعمقه (الأرواح جنود مجنَّدة ما تعارف منها

ائتلف وما تناكر منها اختلف) . فهي مَغْنَطِيسيَّة حية تفعل في النفوس ، كما تفعل المغنطيسية بالحديد ، لا يختلف عليها منه إلا ما قُدِرَ أن يسقط عن رتبته ، بما تراكبه من الصدأ او استحال عليه من الأتربة .

وإذا كان سر الجاذبية قد تفسر لدينا في المرتبة الجمادية ، فلم يتفسر سرها على وجه صحيح أو على أي وجه في مرتبة الأحياء . فإن من المدهش هذا التأثير الجذري الذي لا يملك الإنسان له دفعاً او منه مناصاً فهو ينزل بالشخص المستقل الإرادة ، التام التركيب ، القوي العَضَل ، المتمتع ببناء عضوي كامل ، فيفقده إرادته واستقلاله ويجعله بعضاً من شيء غَيْرِه بعد ان كان شيئاً لنفسه . فالجاذبية قوة أسرية ساحقة تفعل في الجماهير كما تفعل في الأفراد ، وإن كان أسرها الجماعي أضعف من أسرها الفردي . ولكن على أيٍّ حال لا يختلف تأثيرها ، في أنه طائف كهربائي مُصْمِتٌ . ولقد يقوم نجاح بعض الأفراد الدائم في كل المراحل على هذا الجانب من الشخصية فقط ، وبذلك يظهر أن النجاح لا يتوقف على توافر أنحاء الشخصية . فإنه قد يقوم على جانب واحد أو وضع واحد ، ولكن يجب في هذه الحالة أن يكون العنصر من الشخصية مبالغاً إلى درجة يبدو معها شخصية كاملة .

والحق أن المرأة (بالنظر إلى عموم الصنف) تتمتع بوضع واحد من أوضاع الشخصية الكثيرة ، ولكنه يكون فيها إلى حد موفور ، يضمن لها النجاح التام تقريباً بالاعتماد عليه ؛ فانها تقوم في تأثيرها المطلق على الجاذبية وحدها الناشئة من اختصاص [1] الصنف ، حتى ولو كانت مشوهة فإن الفشل الذي يصادفها احياناً يكون بأسباب أخرى ، كالفشل الذي يصادف الجميلة يكون بأسباب شتى بحسب ما يجيء به الظرف .

فمن الخطأ الظن بأن السيطرة في المرأة يرجع إلى الجمال ، فإنه من مصححات الانوثة وليس شرطاً أساسياً في السيطرة والتأثير ، وإنما هو شرط

---

(١) هذا ملحظ الاستاذ هوبس الانجليزي . ونعني باختصاص الصنف ، الانوثة .

أو كالشرط في مبالغة التأثير والسيطرة . والواقع أن الانوثة على اختلاف درجاتها كالمتر [1] ، مهما تناهت اجزاؤه صغراً ، فإنها تملك قدراً من الأبعاد ، والأنوثة مهما فقدت من مصححاتها ، فانها تملك قدراً من الجاذبية والسيطرة .

والجاذبية تكون طبيعية ، وتكون مُعْتَمَلَة [2] كالشخصية بكل عناصرها . بيد أنه لا يقدر البقاء إلا للأولى فقط ، فقد يَتَسَنّى لكلا الصنفين الظهور بتناظر كبير . وقد تغلب الثانية أحياناً ولكن مَرَدَّها إلى البَوار بحيث لا يكتب لها البقاء . وهذا شأن الحق والباطل في كل دور وكَوْر ؛ وشأن الحسين (ع) ويزيد ، ومن قال بأن الحق لا بد له أن يغلب في عصره ، فقد بعد عن جادة الصواب . فان المسيح (ص) تناهى أمره والطغيان في مده ؛ ولكنه ترك على صخرته كلمة الحق ، فتقاصر الطغيان وبرزت الصخرة بما ثبت عليها ، ليس إلا إياها بارز مشهود وحق ممهود ، ثم كان لها البقاء [3] .

ولقد قلت بأن أدق تعبير حفظ عن الجاذبية . قول النبي (ص) (الارواح جنود مجنّدة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف) . وبيان وجه العمق والدقة فيه ، بأن نرجع بالتصور إلى العهود السالفة ، حين كانت الجنود تلتحم في المعترك الواحد ، ليس لهم ما يميزهم إلا كلمة الشعار ، وهي كلمة سرية يعرف بها الجندي عدوه من سواه .

---

(١) كلمة متر يظنها اكثر الناس اجنبية محضاً . ولكننا سقطنا على نص مثبت في كتاب العلامة أبي بكر الباقلاني (اعجاز القرآن) بأن العرب في الجاهلية كانوا يسمون علم موازين الشعر (المتر) وسواء صح أنها عربية الاصل أو لا فانا لا نرى ترجمتها بغير اللفظ العربي (متر) . وقد ترجمنا المتر المربع بكلمة (رمت) بضم الأول وسكون الثاني .

(٢) اعتمال الجاذبية يكون بالتفخرية والاعتقادية والارثية . فالاول مثل (نيرون) القزم طاغية روما والى هذا اشار شاعر القطرين خليل بك مطران .

قزمــة هم نصبــوه عاليـــاً   وجثوا بين يديه فاشمخــرا

والثاني مثل نابوليون الثالث . والثالث مثل يزيد بن معاوية .

(٣) البقاء نسبي اي إلى ان اراد الله تجديد الشريعة ببعث النبي (ص). على ان الشريعة واحدة والانبياء مجددون فقط . والفرق بينهم وبين المصلحين ان تجديد الانبياء يتناول الاساس احياناً لانه بالتنزيل ، بخلاف المصلح فانما عمله في حدود التفريع والشكلية فقط .

على هذا التصور يبدو الحديث ، كأدق ما يكون دقة ، وأسمى ما يكون سموّاً وأرفع ما يكون بياناً . يقول[1] النبي (ص) الارواح في هذه الحياة الدنيا كأنها الجنود في معترك شديد الالتحام ، أو هو مُلتحِم على الدوام لا هدنة فيه ولا هوادة . وانما عِرْفانها ونكرانها وائتلافها واختلافها بشيء من الروح ككلمة الشّعار التي تُعَرّف بالجندي (إن كان من اهلها أو من أعاديها) .

وسر الاعجاز البياني في الحديث آت من إبْداء الصورة على هذا الشكل واللون . فالحياة معترك فرضته طبيعة البقاء والاستمرار . وبنو الانسان جنود في المعترك يدفع بعضهم ببعض . وإنما يتعارفون ويتناكرون كما يتعارف ويتناكر الجندي مع الجندي في الملحمة بكلمة السر . وفي هذا تصوير للحب والبغض بأبرع صورة تمثيلية بيانية .

ولا نفيض كثيراً لئلا تنقطع بنا الصلة . بين ما نكتب عنه إلى ما نكتب فيه ولنر الآن آثار الجاذبية عند الحسين (ع) .

ذكر ابن عساكر أن معاوية قال لرجل من قريش (إذا دخلت مسجد رسول الله (ص) فرأيت حلقة فيها قوم، كأن على رؤوسهم الطير فتلك حلقة ابي عبدالله مؤتزراً إلى انصاف ساقيه) .

وذكر ابن كثير (أن الحسين لما خرج وابن الزبير من المدينة إلى مكة ، وأقاما بها عكف الناس على الحسين (ع) يفدون إليه ويقدمون عليه ويجلسون حواليه ويستمعون كلامه) .

وقد تقدم هذان الخبران ، ومما لا اختلاف فيه بين الرواة ان الحسين (ع) كان محبباً إلى كل نفس ، مصطفى بين كل قبيل . وزادت به جاذبيته إلى الناس ، أنهم غدوا يقدسونه تقديساً وينظرون اليه بالنظر الذي هو فوق اعتبارات الناس .

---

(١) شرح هذا الحديث كثير من رجال الاثر او فقه الحديث . ولكن لم يقعوا منه على طائل . والمعنى الحقيقي فيه هو ما ذكرنا . وكان بودنا ان نشرحه على الطريقة الوجدانية التي اخذنا بنهجها في موضوع (المسلم القرآني) من هذا الكتاب ولكن ليس في الوقت متسع ولا في المقام مجال .

فقد ذكر الواقدي [1] عن أبي عون قال (خرج الحسين من المدينة فمر بابن مطيع وهو يحفر بئره. فقال: أين فداك أبي وأمي ؟ متعنا بنفسك ولا تسر . فأبى حسين. فقال إن بئري هذه رشحتها . وهذا اليوم أوان ما خرج الينا في الدلو . فلو دعوت لنا فيها بالبركة ، قال هات من مائها . فأتي به في الدلو فشرب منه ثم مضمض ثم رده في البئر) . شأن النفوس أياً كانت أن يعروها ضرب من القلق الوجداني الذي لا يعرف له مصدر في حقيقة الواقع . فتلجأ إلى المخدرات ، فيطلبها أناس في حدود الشهوات والإنغماس في الملذات . وهو مكمد وقتي الاثر فيبالغ الاشخاص في الانغماس إلى درجة (ابيقورية) .

ويطلبها آخرون في المخدر بأنواعه. لان فيه ضرباً من الانصراف بالوجدان المذعور الحائر .

ويطلبها بعض أرباب السمو العقلي في المطالب العلمية العالية .

ويطلبها ارباب السمو الروحي في الاسباب الغيبية التي تضع حداً حقيقياً للحيرة الانسانية . وإنما يجتمع اعتقادهم فيمن هو معمور بفيض الجاذبية القوية الأخاذة. بحيث تجعله محبباً إلى النفوس وقريباً من القلوب . وهذا هو السر في الهدوء إلى جانب رجال الدين . وإلى جانب المرأة وإلى انحاء الفنون الجميلة .

ونختم حديث الجاذبية عند الحسين(ع) بحادث وقع له في مسيره إلى الكوفة ؛ وهو يرسم بوضوح أسر الحسين النفسي وسيطرته الروحية . ذكروا عن جماعة من فزارة أن زهير بن القين البجلي حج في السنة التي خرج فيها الحسين إلى العراق وكان عثمانياً ، فلما رجع من الحج جمعه الطريق مع الحسين وكان لتمسكه في العثمانية يكره مسايرته والنزول معه في منزل واحد . وفي يوم لم يجد بداً من النزول معه... فبينما نحن جلوس نتغدى إذ اقبل رسول الحسين (ع) فقال :

---

(١) أثبت هذا الخبر الذهبي في تاريخ الاسلام في اخبار مقتل الحسين . وأثبته ابن عساكر في التاريخ الكبير ج٤ ص ٣٢٣ بزيادة (وهو يحفر بئراً واذا ماؤها مالح فشرب منه فتمضمض ثم رده في البئر فعذب ماؤها) ..

يا زهير ان أبا عبدالله بعثني إليك لتأتيه . فطرح كل انسان منا ما في يده كأن على رؤوسنا الطير كراهة ان يذهب زهير إلى الحسين . فقالت إمرأته — وهي ديلم بنت عمرو — سبحان الله . أيبعث اليك ابن رسول الله ثم لا تأتيه . فلو أتيته . فأتاه زهير على كره فما لبث ان جاء مستبشراً قد أشرق وجهه وحول فسطاطه إلى الحسين . وقال : قد عزمت على صحبة الحسين لافديه بروحي وأقيه بنفسي . فودعته امرأته وقالت : خار الله لك،أسألك ان تذكرني في القيامة عند جد الحسين (ع) . وقال لاصحابه من أحب منكم ان يتبعني وإلا فهو آخر العهد مني . إني سأحدثكم حديثاً إنّا غزونا بلنجر وهي من بلاد الخزر ففتح الله علينا وأصبنا غنائم ففرحنا . فقال لنا سلمان الفارسي : اذا أدركتم شباب آل محمد فكونوا أشد فرحاً بقتالكم معهم مما اصبتم من الغنائم ؛ فأما أنا فأستودعكم الله . ولزم الحسين حتى قتل معه .

الألمعية أو النشاط العقلي :

من الظواهر البارزة في ذوي الشخصية . وفور الاستعداد الذهني ، وجودة الملاحظة . وخصب الفطنة ، وحضور البديهة ، وسرعة البادرة ، وجمال المحاضرة . حتى يبدو أحدهم في مجال الحديث خرّاجاً ولاّجاً يداور بين البديهة والإحكام كأنه الحوّل القلّب . ويمتلك من المجلس على مقدار ما يمتلك من الاستعداد .

والسر في أن النشاط العقلي يرفع بقيمة المرء ، ويحطه الخمول والوهن العقليان. أن مقاييس الناس لقيم الأشياء تجتمع في الاعجاب ؛ فعلى مقدار ما تترك في النفس من أثر إعجابي تكون قيمة الأشياء . والاعجاب على الدوام باعث من بواعث النشاط النفسي يبدد ما يعرو النفوس من الملل . ومن ذلك تأتي قيمته . بينما الخمول العقلي ينتقل ميكروبه من صاحبه إلى النفوس الأخرى، فيسارع اليها الملال ويعروها ضرب من الخمول الشديد . وفي قول أبي العلاء المعري ، ما يفسر هذا .

(تثاءب عمرو إذ تثاءب خالــد بعدوى فما أعدتني الثؤباء)

وهذا أخذ وصفي بعيد عما يتطلب الأسلوب العلمي من دقة في الافاضة والشرح ، لان من قصدنا أن نخط صورة قريبة ، تضم الوصف إلى التعليل ، والأسلوب الشعري إلى الأسلوب العلمي تَطْرِيَةً وتقريباً .

والنوادر في هذا الباب كثيرة جداً ، حتى توفر أبو اسحاق الحُصْري في كتابه (جمع الجواهر) على ضم شتيتها وقد جاءت رائعة رائقة وفي أقضية (أمير المؤمنين) علي (ع) قدر كبير من هذا النشاط ، ولقد عني بها الامام الترمذي فجمعها ، ونقل قسماً كبيراً منها العلامة ابن قيم الجوزية في كتاب (السياسة الشرعية) . وفي كتاب الأذكياء لابن الجوزي جزء كبير من هذه النَّـدَرات. ونثبت بعضها قصد تلوين الحديث .

ذكر الحصري أن الجاحظ حكى عن الشرقي بن القطامي . أن أبن ابي عتيق [1] لقي عائشة (ض) — وهي عمة ابيه — على بغلة ، فقال إلى أين يا أماه ؟ فقالت أصلح بين حيين تقاتلا ، فقال عزمت عليك إلاّ ما رجعت ، فما غسلنا أيدينا من يوم الجمل حتى نرجع إلى يوم البغلة ..

ودخل يوماً على عائشة (ض) وهي لما بها ، فقال كيف أنت يا أماه جعلت فداك ، قالت في الموت ، قال فلا إذاً إنما ظننت أن في الأمر فسحة ، فضحكت وقالت ما تدع مزحاتك بحال .

ومن أقضية علي (ع) ما ذكره ابن القيم . أن امرأة استنكحها رجل أسود اللون ، ثم ذهب في غزاة فلم يعد ، فوضعت غلاماً اسود فتعيّرته ، فبعد ان شب الغلام استعداها إلى سيدنا عمر (ض) فلم يجد شهادة إثبات وكاد يتم للمرأة ما أرادت ، بيد أن علياً (ع) أدرك في طرفة ما تجتهد المرأة بإخفائه ، فقال : يا غلام أما ترضى أن اكون أباً لك والحسن والحسين أخوياك ، فقال الغلام : بلى ،

---

(١) كان نادرة الزمان في سرعة الاجابة وحضور البديهة واجتذاب النكتة .

ثم التفت إلى أولياء المرأة ، فقال : أمَا ترضون أن تضعوا أمر هذه المرأة في يدي ، قالوا بلى . فقال إني زوجت مولّيتي هذه من ابني هذا على صداق قدره كذا وكذا ، فأجفلت المرأة وقالت النار النار يا علي ! .. والله انه ابني . ولكني تعيرّته لسواد لونه .

ومما ذكره ابن الجوزي في (الأذكياء) . أن رجلين أتيا امرأة ووضعا عندها مالاً . وأوصياها أن لا تعطي المال إلا لهما جميعاً . وبعد لأيٍ جاءها أحدهما وطلب المال بناء على أن صاحبه توفي فأسلمت إليه المال ، ولم ينشب أن جاء صاحبه فطلب المال ، فقالت دفعته إلى صاحبك . فداعاها إلى أمير المؤمنين عمر (ض) ، وكان علي(ع) يشهد الدعوى وقد فهم من سير الخصومة أن الرجلين يمكران بالمرأة ، فقال للرجل عندنا ما طلبت ولكن ائت بصاحبك على مقتضى الشرط . فذهب ولم يعد .

وذكر ابن الجوزي في كتاب الأذكياء : ان أبا حامد الخراساني القاضي ، قال : بنى ابن عبد السلام الهاشمي بالبصرة داراً كبيرة ، ولم يتم له تربيعها إلا بمسكن لطيف كان لعجوز في جواره امتنعت من بيعه ، فبذل لها أضعاف ثمنه ، فأقامت على الامتناع فشكا إليّ ذلك ، فقلت هذا من ايسر الأمر انا اوجب عليها بيعه ، فاضطرّها إلى ان تسألك وزن الثمن .

ثم استدعيتها فقلت : يا هذه إن قيمة دارك دون ما دفع لك وقد ضاعفها أضعافاً فإن لم تقبليه حجرت عليك . لأن هذا تضييع منك . فقالت جُعِلْتُ فداك ، فهلاّ كان هذا الحجر منك على من يزن فيما يساوي درهماً عشرة . وتركت منزلي ما أختار بيعه . فانقطعت في يدها .

وذكروا في كتب الأدب أن تميم بن جميل السدوسي ، كان قد خرج على المعتصم فبينما كان يجوس خلال الفرات اختتله جند المعتصم وأحضروه اليه ، فأمر بالنطع والسيف ولكن رآه جميلاً وسيماً ، فأحب أن يعرف أين لسانه من منظره ، فقال : يا جميل لم خرجت علينا .

قال يا أمير المؤمنين ان الذنوب تخرس الألسنة الفصيحة وتعيي الأفئدة الصحيحة . ولم يبق إلا عفوك أو انتقامك وارجو ان يكون اسرعهما إلي واقربهما مني اشبههما بك واولاهما بخلقك ، ثم أنشأ يقول :

أرى الموت بين السيف والنطع كامناً
يلاحظني من حيثما أتلفتُ
وأكبر ظني أنك اليوم قاتلي
وأي امرىء مما قضى الله يفلت
وما جزعي من أن أموت وانني
لأعلم أن الموت شيء موقّت
ولكنّ خلفي صِبْيَةً قد تركتهم
وأكبادهم من حسرة تتفتت
فان عشت عاشوا خافضين بعزة
أذود الردى عنهم وان مت موتوا

فقال المعتصم : كاد والله يا جميل ان يسبق السيف العذل ، ولكن اذهب فقد غفرت لك الصَبْوة وتركتك للصبية .

وذكر الحصري أن الوليد بن يزيد قال لبديح ، وكان أحلى الناس وأذكاهم ، خذ بنا في الاماني فاني اغلبك فيها ، فقال له : يا امير المؤمنين أنا أغلبك لاني فقير وأنت خليفة وانما يتمنى المرء ما عسى أن يبلغ اليه وأنت قد بلغت الآمال ، قال لا تتمنى شيئاً إلا تمنيت ما هو أكثر منه ، قال فاني أتمنى كِفْلين من العذاب ، وأن يلعنني الله لعناً وبيلاً ، فقال اعزب لعنك الله دون خلقه .

ويروى أن أحد النواب الامريكيين كان مرشحاً عن منطقة ضد آخر ، فبينما هو يخطب داعياً إلى تأييده على برنامجه الانتخابي جاء بعض نصراء الخصم بحمار حتى اذا نهق قطع على الخطيب ، فقال النائب ببداهة نادرة أرجو من جمهوري الاصغاء إلى ما يريد ان يقول زعيم الخصوم .

مالنا وللحديث عن الناس؛ لنفرغ إلى تشخيص هذه الناحية عند الحسين(ع) في آثار ما نطق به لسانه .

روى ابن حجر[1] ان الحسين قال: اتيت عمر وهو يخطب على المنبر، فصعدت اليه فقلت: انزل عن منبر ابي واذهب إلى منبر ابيك، فقال عمر: لم يكن لابي منبر: واخذني فأجلسني معه اقلب حصى بيدي، فلما نزل انطلق بي إلى منزله فقال لي: من علمك، قلت: والله ما علمني احد؛ قال بأبي لو جعلت تغشانا. قال فأتيته يوماً وهو خال بمعاوية وابن عمر بالباب، فرجع ابن عمر فرجعت معه، فلقيني بعد، فقال لي: لم ارك، فقلت يا امير المؤمنين اني جئت وانت خال بمعاوية فرجعت مع ابن عمر، فقال: انت احق من ابن عمر فانما انبت ما ترى في رؤوسنا الله ثم انتم .

وروى[2] ابن ابي طلحة القرشي ان اعرابياً دخل المسجد الحرام فوقف على الحسن (ص) وحوله حلقة، فقال لبعض جلساء الحسن: من هذا الرجل، فقال: هذا الحسن بن علي، فقال الاعرابي اياه اردت، بلغني انهم يتكلمون فيعربون عن كلامهم، واني قطعت بوادي وقفاراً واودية وجبالاً، وجئت لاطارحه الكلام، واسأله عن عويص العربية، فقال له جليس الحسن: ان كنت جئت لهذا فابدأ بذلك الشاب، وأومأ إلى الحسين (ع) فوقف عليه وسلم فرد عليه السلام. ثم قال ما حاجتك يا اعرابي، فقال: اني جئتك من الهرقل[3] والجعلل[4] والأينم[5] والهمهم[6]. فتبسم الحسين فقال الاعرابي واقول اكثر من هذا فهل انت مجيبي على قدر كلامي ؟. فقال الحسين قل ما شئت فاني مجيبك عنه فقال الاعرابي

---

(١) راجع الاصابة ج٢ ص ١٥ .
(٢) راجع مطالب السئول في مناقب آل الرسول .
(٣) ملك الروم ويريد به ارض الروم
(٤) النخل القصار
(٥) ضرب من النبت
(٦) القليب الكثير الماء .

(تثاءب عمرو إذ تثاءب خالــد بعدوى فما أعدتني الثؤباء)

وهذا أخذ وصفي بعيد عما يتطلب الأسلوب العلمي من دقة في الافاضة والشرح ، لان من قصدنا أن نخط صورة قريبة ، تضم الوصف إلى التعليل ، والأسلوب الشعري إلى الأسلوب العلمي تَطْرِيَةً وتقريباً .

والنوادر في هذا الباب كثيرة جداً ، حتى توفر أبو اسحاق الحُصْري في كتابه (جمع الجواهر) على ضم شتيتها وقد جاءت رائعة رائقة وفي أقضية (أمير المؤمنين) علي (ع) قدر كبير من هذا النشاط ، ولقد عني بها الامام الترمذي فجمعها ،ونقل قسماً كبيراً منها العلامة ابن قيم الجوزية في كتاب (السياسة الشرعية) . وفي كتاب الأذكياء لابن الجوزي جزء كبير من هذه النَّـدَّرات. ونثبت بعضها قصد تلوين الحديث .

ذكر الحصري أن الجاحظ حكى عن الشرقي بن القطامي . أن أبن ابي عتيق [1] لقي عائشة (ض) — وهي عمة ابيه — على بغلة ، فقال إلى أين يا أماه ؟ فقالت أصلح بين حيين تقاتلا ، فقال عزمت عليك إلاَّ ما رجعت ، فما غسلنا أيدينا من يوم الجمل حتى نرجع إلى يوم البغلة ..

ودخل يوماً على عائشة (ض) وهي لما بها ، فقال كيف أنت يا أماه جعلت فداك ، قالت في الموت ، قال فلا إذاً إنما ظننت أن في الأمر فسحة ، فضحكت وقالت ما تدع مزحاتك بحال .

ومن أقضية علي (ع) ما ذكره ابن القيم . أن امرأة استنكحها رجل أسود اللون ، ثم ذهب في غزاة فلم يعد ، فوضعت غلاماً اسود فتعيّرته ، فبعد ان شب الغلام استعداها إلى سيدنا عمر (ض) فلم يجد شهادة إثبات وكاد يتم للمرأة ما أرادت ، بيد أن علياً (ع) أدرك في طرفة ما تجتهد المرأة بإخفائه، فقال: يا غلام أما ترضى أن اكون أباً لك والحسن والحسين أخوياك ، فقال الغلام: بلى،

---

(١) كان نادرة الزمان في سرعة الاجابة وحضور البديهة واجتذاب النكتة .

ثم التفت إلى أولياء المرأة . فقال : أما ترضون أن تضعوا أمر هذه المرأة في يدي ، قالوا بلى . فقال إني زوجت مولَيِّتي هذه من ابني هذا على صداق قدره كذا وكذا ؛ فأجفلت المرأة وقالت النار النار يا علي ! .. والله انه ابني . ولكني تعيرَّته لسواد لونه .

ومما ذكره ابن الجوزي في (الأذكياء) . أن رجلين أتيا امرأة ووضعا عندها مالاً . وأوصياها أن لا تعطي المال إلا لهما جميعاً ، وبعد لأي جاءها أحدهما وطلب المال بناء على أن صاحبه توفي فأسلمت إليه المال ، ولم يَنشَبْ أن جاء صاحبه فطلب المال ، فقالت دفعته إلى صاحبك ، فداعاها إلى أمير المؤمنين عمر (ض) ، وكان علي(ع) يشهد الدعوى وقد فهم من سير الخصومة أن الرجلين يمكران بالمرأة ، فقال للرجل عندنا ما طلبت ولكن ائت بصاحبك على مقتضى الشرط . فذهب ولم يعد .

وذكر ابن الجوزي في كتاب الأذكياء : ان أبا حامد الخراساني القاضي ، قال : بنى ابن عبد السلام الهاشمي بالبصرة داراً كبيرة ، ولم يتم له تربيعها إلا بمسكن لطيف كان لعجوز في جواره امتنعت من بيعه ، فبذل لها أضعاف ثمنه ، فأقامت على الامتناع فشكا إليّ ذلك ، فقلت هذا من ايسر الأمر انا اوجب عليها بيعه ، فاضطرّها إلى ان تسألك وزن الثمن .

ثم استدعيتها فقلت : يا هذه إن قيمة دارك دون ما دفع لك وقد ضاعفها أضعافاً فإن لم تقبليه حجرت عليك . لأن هذا تضييع منك . فقالت جُعِلْتُ فداك ، فهلاّ كان هذا الحجر منك على من يزن فيما يساوي درهماً عشرة . وتركت منزلي ما أختار بيعه . فانقطعت في يدها .

وذكروا في كتب الأدب أن تميم بن جميل السدوسي ، كان قد خرج على المعتصم فبينما كان يجوس خلال الفرات اختتله جند المعتصم وأحضروه اليه ، فأمر بالنطع والسيف ولكن رآه جميلاً وسيماً ، فأحب أن يعرف أين لسانه من منظره ، فقال : يا جميل لم خرجت علينا .

قال يا أمير المؤمنين ان الذنوب تخرس الألسنة الفصيحة وتعيي الأفئدة الصحيحة . ولم يبق إلا عفوك أو انتقامك وارجو ان يكون اسرعهما إلي واقربهما مني اشبههما بك واولاهما بخلقك ، ثم أنشأ يقول :

أرى الموت بين السيف والنطع كامناً
يلاحظني من حيثما أتلفتُ
وأكبر ظني أنك اليوم قاتلي
وأي امرىء مما قضى الله يفلت
وما جزعي من أن أموت وانني
لأعلم أن الموت شيء موقّت
ولكنّ خلفي صبْيَةً قد تركتهم
وأكبادهم من حسرة تتفتت
فان عشت عاشوا خافضين بعزة
أذود الردى عنهم وان مت موتوا

فقال المعتَصم : كاد والله يا جميل ان يسبق السيف العذل ، ولكن اذهب فقد غفرت لك الصَبْوة وتركتك للصِبية .

وذكر الحصري أن الوليد بن يزيد قال لبديح ، وكان أحلى الناس وأذكاهم ، خذ بنا في الاماني فاني اغلبك فيها ، فقال له : يا امير المؤمنين أنا أغلبك لاني فقير وأنت خليفة وانما يتمنى المرء ما عسى أن يبلغ اليه وأنت قد بلغت الآمال ، قال لا تتمنى شيئاً إلا تمنيت ما هو أكثر منه ، قال فاني أتمنى كِفْلين من العذاب . وأن يلعنني الله لعناً وبيلاً : فقال اعزب لعنك الله دون خلقه .

ويروى أن أحد النواب الامريكيين كان مرشحاً عن منطقة ضد آخر ، فبينما هو يخطب داعياً إلى تأييده على برنامجه الانتخابي جاء بعض نصراء الخصم بحمار حتى اذا نهق قطع على الخطيب ، فقال النائب ببداهة نادرة أرجو من جمهوري الاصغاء إلى ما يريد ان يقول زعيم الخصوم .

مالنا وللحديث عن الناس؛ لنفرغ إلى تشخيص هذه الناحية عند الحسين (ع) في آثار ما نطق به لسانه .

روى ابن حجر[1] ان الحسين قال: اتيت عمر وهو يخطب على المنبر، فصعدت اليه فقلت: انزل عن منبر ابي واذهب إلى منبر ابيك، فقال عمر: لم يكن لابي منبر: واخذني فأجلسني معه اقلب حصى بيدي، فلما نزل انطلق بي إلى منزله فقال لي: من علمك، قلت: والله ما علمني احد؛ قال بأبي لو جعلت تغشانا . قال فأتيته يوماً وهو خال بمعاوية وابن عمر بالباب، فرجع ابن عمر فرجعت معه، فلقيني بعد، فقال لي: لم ارك، فقلت يا امير المؤمنين اني جئت وانت خال بمعاوية فرجعت مع ابن عمر، فقال: انت احق من ابن عمر فانما انبت ما ترى في رؤوسنا الله ثم انتم .

وروى[2] ابن ابي طلحة القرشي ان اعرابياً دخل المسجد الحرام فوقف على الحسن (ص) وحوله حلقة، فقال لبعض جلساء الحسن: من هذا الرجل، فقال: هذا الحسن بن علي، فقال الاعرابي اياه اردت، بلغني انهم يتكلمون فيعربون عن كلامهم، واني قطعت بوادي وقفاراً واودية وجبالاً، وجئت لاطارحه الكلام، واسأله عن عويص العربية، فقال له جليس الحسن: ان كنت جئت لهذا فابدأ بذلك الشاب، وأومأ إلى الحسين (ع) فوقف عليه وسلم فرد عليه السلام . ثم قال ما حاجتك يا اعرابي، فقال: اني جئتك من الهرقل[3] والجعلل[4] والأيم[5] والهمهم[6] . فتبسم الحسين فقال الاعرابي واقول اكثر من هذا فهل انت مجيبي على قدر كلامي ؟ . فقال الحسين قل ما شئت فاني مجيبك عنه فقال الاعرابي

---

(١) راجع الاصابة ج٢ ص ١٥ .
(٢) راجع مطالب السئول في مناقب آل الرسول .
(٣) ملك الروم ويريد به ارض الروم
(٤) النخل القصار
(٥) ضرب من النبت
(٦) القليب الكثير الماء .

اني بَدوَي،واكثر مقالي الشعر وهو ديوان العرب ، فقال الحسين قل ما شئت فانشأ يقول :

هفا قلبي إلى اللهو وقد ودَّع شرْخَيْه
وقد كان أنيقاً عصرَ تجراريَ ذيليه
عيالات ولذات فيا سقياً لعصريه
فلما عمم الشيب من الرأس نطاقيه
وأمسى قد عناني منه تجديد خضابيه
تَسَلَّيْتُ عن اللهو وألقيت قناعيه
وفي الدهر أعاجيب لمن يلبس حاليه
فلو يُعْمل ذو رأي أصيل فيه رأييه
لألفى عبرة منه له في كر عصريه

فأنشد الحسين ارتجالا :

فما رسم شجاني قد محت آيات رسميه
سفُور دَرَّجت [١] ذيلين في بوغاء [٢] قاعيه
هتوف حَرْجَف تترى على تلبيد ثوبيه
وولاج من المزن دنا نوء سماكيه
أتى مُثْعَنْجِر الودْق يجود من خلاليه
وقد أحمد برقاه فلا ذم لبرقيه
وقد جلل رعداه فلا ذم لرعديه
ثجيج الرعد ثجاج إذا أرضى نطاقيه
فأضحى دارساً قفراً لبينونة أهليه

فلما سمع الأعرابي ما أنشده له ، قال بارك الله عليك، مثلك تجلّه الرجال.

---

(١) الريح الدروج التي يدرج مؤخرها حتى ترى لها مثل ذيل الرسن في الرمل .

(٢) التربة الرخوة .

وروى [1] ابن عساكر أن نافع بن الازرق وهو رأس الازارقة الخوارج قال للحسين (ع) : صف لي إلهك الذي تعبد .

فقال يا نافع من وضع دينه على القياس لم يزل الدهر في الالتباس، مائلاً اذا كبا عن المنهاج ظاعناً بالاعوجاج ، ضالاً عن السبيل قائلا غير الجميل ؛ يا ابن الازرق أصف الهي بما وصف به نفسه . لا يدرك بالحواس ولا يقاس بالناس ، قريب غير ملتصق وبعيد غير مستقصى . يوحد ولا يبعض ، معروف بالآيات ، موصوف بالعلامات . لا إله إلا هو الكبير المتعال .

فبكى ابن الازرق وقال ما أحسن كلامك . فقال بلغني انك تشهد على أبي وعلى أخي بالكفر وعليّ ؛ قال ابن الازرق اما والله يا حسين لئن كان ذلك لقد كنتم منار الإسلام ونجوم الأحكام . فقال الحسين اني سائلك عن مسألة فقال سل ، فسأله عن قوله تعالى (واما الجدارُ فكان لغُلامين يتيمينِ في المدينَة) فقال يا ابن الازرق من حُفِظ في الغلامين فقال ابوهما ، فقال الحسين ابوهما خير ام رسول الله فقال ابن الازرق : قد انبأ الله تعالى عنكم أنكم قوم [2] خَصِمون .

الاخبار عن الحسين (ع) في هذا الباب أكثر من أن تحصى ، ولقد كان يجيء بالمدهشات في الفُتْيا وما إليها من العلم . حتّى قال فيه ابن عمر (ض) انه يُغَرُّ العلم غراً — اي يغذى —

الغيرية أو المشاركة الوجدانية :

هذه صفةٌ من الانسانية تَضعُها على أقْوَم اوضاعها . وتجيء منها في اهم اقساطها . وهي لا تختلف في انها تعبر عن انبل ما في الانسان من شعور . وبها

(1) راجع التاريخ الكبير ج٤ ص ٣٢٣ .

(2) ذكر السمعاني في كتاب الأنساب ص ٢٨ . انه لما انتشرت الازارقة اظهرت في اتباعها ان علياً (ع) هو الذي انزل الله فيه (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام) .

يسمو عن رتبة الأحياء الاخرى . حتى قال التوحيدي في كتاب (الصديق والصداقة) الانسان حيوان ذو عطف . وبذلك اعتبرها خاصة مميزة له رافعة للشركة . ومما لا ريب فيه أن الانسان حيوان بغيض اذا كان لا يشعر بمكان هذا الشعور او تجرد من اماليه . وهو من بين سائر النوع لا يشعر بالفردية وحدها ، وانما يجد تمامه في الغيرية . ولذلك قيل في اقدم الدهر : إن الانسان مدني او اجتماعي بالطبع .

فهذا الشعور في حدوده تستوي عليه الانسانية في حدودها . فانه لولا المشاركة الوجدانية التي تخفف من حدة انانيته الجارفة : لكان الانسان اسوأ اثراً من أيّ حيوان . وهو بين الانانية والغيرية في متجاذب شديد من الشر والخير والباطل والحق ، اذا انتصر احد الشعورين تبعه لازمه بدون تخلف او انفكاك . ولن تجد رجلاً فاضلاً او مُدِلاً بخليقة الا وعنده اوفى قسط من هذا الشعور السامي .

وانا لا افهم فرقاً بين الانسانية والغيرية — مشاركة الناس في شعورهم — ولعل الاسلام هو الدين الوحيد الذي اقام كل تعاليمه الروحية والزمنية على اساس من هذا الشعور ، وزاد مبالغة في اعتداده انه جعله قاعدة الإيمان . فاذا كان الاسلام في اعمال الظواهر قد بني الإسلام على خمس ، فانه في المنطقة الإيمانية لا يقوم إلا على تحقيق هذا الشعور .

قال النبي (ص) لا يؤمن احدكم حتى يُحب لأخيه ما يُحبُّ لنفسه .

وقال [١] ايضاً : الخلق كلهم عيال الله واحبّهم اليه أنفعهم لعياله .

فالاسلام قوّم تعاليمه على النفع وتبادل الحب والاستواء في أسباب الاخاء ، وبذلك جاء ليضع التصميمات الصحيحة للجمعية الانسانية الكبرى .

ولقد استطاع النبي محمد (ص) ان يقدم للعالم اجمع في زمن قصير . نموذجاً

---

(١) هذا الحديث ذكره كثيرون ، ومنهم الشريف الرضي في المجازات النبوية بسند الخلفاء العباسيين وهو اسناد ملوكي غريب .

للتصميم الذي غبّر الانسان على اعتباره اقرب إلى الافكار الطوبوية . وجاء في تجانسه ونظامه شيئاً مدهشاً وطريفاً معْجباً . وفي النهاية قُدّر لهذا العالم أن يفتح عينه على الحقائق فتسارع في دين الله الذي هو لُبانة كل نفس .

وربما كان أدهش ما حفظ مما جاء على لسان صاحب الشريعة (ص) قوله لجرير بن عبدالله البجلي حينما جاء يبايعه على شهادة أن لا اله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فقال النبي (ص) والنصح لكل مسلم . هذا الحديث من روائع الاسلام حين جعل المشاركة الوجدانية صنواً لكلمة الشهادة،ولعل ديناً من الأديان لم يبالغ في اعتبار وتقييم هذا الجانب اعتباراً عملياً مثل دين محمد وشريعة محمد .

وبذلك جاءت صحابته (ص) في دقة الشعور بالغَيْرِيَّة ، كالموازين لا يفوتها شيء إلا ما ليس منه شيء في الحساب . وفي قَصَص عمر (ض) عبرة وذكرى وخُطّة فوق مناهج الناس .

والحسين (ع) جاء بمقتضى الفطرة وتعاليم الدين مثلاً نادراً من حيث الشعور بالغيرية . وندع الآن الحديث للرواة فيما حفظوا من آثار الحسين في هذا الجانب .

روى ابن عساكر في التاريخ الكبير عن أبي هشام القناد انه كان يحمل إلى الحسين بالمتاع من البصرة، ولعله لا يقوم حتى يهب عامته .

وروى أيضاً [1] . أن سائلاً خرج يتخطى ازقة المدينة حتى أتى باب الحسين، فقرع الباب وانشأ يقُول :

لم يخب اليوم من رجاك ومـن	حرك من خلف بابك الحلقة
أنت ذو الجود أنت معدنـــه	أبوك قد كان قاتل الفسقــة

(١) راجع عيون الاخبار ج٣ ص ١٤٠

وكان الحسين (ع) واقفاً يصلي فخفف من صلاته وخرج إلى الاعرابي فرأى عليه اثر ضر وفاقة ، فرجع ونادى بقنبر فأجابه لبيك يا ابن رسول الله ، قال ما تبقى معك من نفقتنا قال مائتا درهم أمرتني بتفرقتها في أهل بيتك ، فقال هاتها فقد أتى من هو أحق بها منهم ، فأخذها وخرج يدفعها إلى الاعرابي وأنشأ يقول :

خذهـا فإني اليك معتـــذر | واعلم بأني عليك ذو شفقة
لو كان في سيرنا عصا تمد اذن | كانت سمانا عليك مندفقة
لكن ريب الزمان ذو غيـر | والكف منا قليلـة النفقـة

فأخذها الاعرابي وولى وهو يقول ألله أعلم حيث يجعل رسالته :

مطهرون نقيـات جيوبهـم | تجري الصلاة عليهم اينما ذكروا
وأنتم انتم الأعلـون عندكم | علم الكتاب وما جاءت به السور
من لم يكن عاوياً حين تنسبـه | فما له في جميـع الناس مفتخر

ومما رووا ان الحسين (ع) دخل على اسامة بن زيد . وهو مريض وهو يقول واغماه ، فقال له الحسين (ع) وما غمك يا أخي قال ديني وهو ستون الف درهم ، فقال الحسين هو علي، قال: إني أخشى أن أموت. فقال: لن تموت حتى اقضيها عنك ، فقضاها قبل موته .

وروى ابن قتيبة . أن رجلاً اتى الحسن بن علي يسأله . فقال الحسن إن المسألة لا تصلح إلا في غُرْم فادح او فقر مدقع او حمَالة مُفْظِعة . فقال الرجل ما جئت إلا في إحداهن . فأمر له بمائة دينار ثم اتى الرجل الحسين ابن علي فسأله فقال له مثل مقالة أخيه فرد عليه كما رد على الحسن فقال كم اعطاك قال مائة دينار فنقصه ديناراً كره ان يساوي أخاه . ثم أتى الرجل عبدالله بن عمر فسأله فأعطاه سبعة دنانير ولم يسأله عن شيء . فقال له الرجل إني أتيت الحسن والحسين ؛ واقتص كلامهما عليه وفعلهما به . فقال عبدالله ويحك! وانى تجعلني مثلهما إنهما غُرَّا العلم غُرَّا المال .

وروى البحراني [1] . أن الحسين (ع) كان جالساً في مسجد جده رسول الله (ص) بعد وفاة أخيه الحسن (ع) وكان عبدالله بن الزبير جالساً في ناحية المسجد وعتبة بن أبي سفيان في ناحية اخرى . فجاء اعرابي على ناقة فعقلها بباب المسجد ودخل ووقف على عتبة بن أبي سفيان فسلم عليه فرد عليه السلام ، فقال الاعرابي اني قتلت ابن عم لي وطولبت بالدية فهل لك ان تعطيني شيئاً . فرفع رأسه إلى غلامه وقال ادفع اليه مائة درهم . فقال الاعرابي ما أريد إلا الدية تماماً ثم تركه واتى عبدالله ابن الزبير وقال له مثل ما قاله لعتبة فقال عبدالله لغلامه إدفع اليه مائتي درهم . فقال الاعرابي ما أريد إلا الدية تماماً ثم تركه وأتى الحسين فسلم عليه وقال يا ابن رسول الله إني قتلت ابن عم لي وقد طولبت بالدية فهل لك أن تعطيني شيئاً ، فأمر له الحسين بعشرة آلاف درهم وقال هذه لقضاء ديونك وعشرة آلاف درهم اخرى وقال : هذه تلم بها شعثك وتحسن بها حالك وتنفق منها على عيالك فأنشأ الاعرابي يقول :

طربتُ وما هاج لي مَعْبَــقُ ... ولا لي مقام ولا مَعْشَق

ولكن طربت لآل الرســول ... فلذَّ ليَ الشعــر والمنطق

هم الأكرمــون هم الأنجبون ... نجوم السماء بهــم تشرق

سبقتَ الأنام إلى المكرمــات ... وانت الجــواد فلا تلحــق

أبوك الذي ساد بالمكرمــات ... فقصر عن سبقــه السُبَّق

به فتح الله بــاب الرشــاد ... وبابُ الفساد بكــم مغلق

روى ابن قتيبة [2] . ان معاوية لما قدم المدينة منصرفاً من مكة بعث إلى الحسن والحسين وعبدالله بن جعفر وعبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير وعبدالله بن صفوان ابن أمية . بهدايا من كسى وطيب وصلات من المال ثم قال لرسله : ليحفظ كل رجل منكم ما يرى ويسمع من الرد . فلما خرج الرسل من عنده

---

(١) راجع عمد الآل في مناقب الآل .

(٢) راجع عيون الاخبار ج٣ ص ٤٠

قال لمن حضر : إن شئتم انبأناكم ما يكون من القوم، قالوا اخبرنا يا امير المؤمنين قال :

أما الحسن فلعله ينيل نساءه شيئاً من الطيب ويُنهِب ما بقي من حضره ولا ينتظر غائباً .

واما الحسين فيبدأ بأيتام من قتل مع أبيه بصفين فإن بقي شيء نحر به الجُزُر وسقى به اللبن .

واما عبدالله بن جعفر فيقول يا بديح اقض به ديني فإن بقي شيء فانفذ به عداتي .

واما عبدالله بن عمر فيبدأ بفقراء عدي بن كعب فإن بقي شيء ادخره لنفسه ومان به عياله .

واما عبدالله بن الزبير فيأتيه رسولي وهو يسبح فلا يلتفت اليه ، ثم يعاوده الرسول فيقول لبعض كُفاته خذوا من رسول معاوية ما بعث به وصله الله وجزاه خيراً ، لا يلتفت اليها وهي اعظم في عينه من أُحُد ثم ينصرف إلى اهله فيعرضها على عينه ، ويقول ارفعوا لعلّي ان أعود بها على ابن هند يوماً ما .

واما عبدالله بن صفوان فيقول قليل من كثير . وما كل رجل من قريش وصل اليه هكذا ، ردوا عليه فان رد قبلناها .

فرجع رسله من عندهم بنحو مما قال معاوية ، فقال معاوية انا ابن هند اعلم بقريش من قريش .

ليس بعجيب ان نَظْهَر من معاوية على فِراسة نافذة كهذه التي تعرضها علينا قصة ابن قتيبة . فقد كان له خُبْر وخَبَر عن كل الرجالات المرهوبين . ونترك ما في القصة من الجوانب التي لا تتصل بموضوعنا ونفرغ إلى ما يهمنا منها .

يصور معاوية بكل صدق وحقيقة ما يتصل بنفس الحسين(ع) . وربما كانت هذه الفِقْرة الخاصة به اصلح صورة تعكس علينا ما نريد أن نفهمه عنده .

فالحسين كان مغلوباً إلى حد كبير بتأثير هذه العاطفة . فهو يشعر بشعور الآخرين . ويشاركهم ما يقع في وجدانهم . ويحس بنوع الاحساس الذي يمرّ في سماوة نفوسهم ، فيألم اذا تألموا ، ويسر اذا سروا .

وكأن له اتصالات تربطه بكل الناس ؛ وله في كل قلب جهاز يشعره بشعوره . هذا من معاوية تمثيل للمشاركة الوجدانية القوية . وكأن الحسين (ع) لا يزال ، إلى تاريخ القصة ، تمر في خياله صور تلك الملاحم الرهيبة التي خاضها مع ابيه (ع) بما فيها من آلام وآمال . فينبعث لمشاطرة اولاد اولئك الشهداء ، حتى يشعرهم بأنهم إذا فقدوا بآبائهم عطفاً وحناناً فإنهم لم يفقدوا كل عطف وكل حنان . وهذا أصدق ما تكون به المشاركة الوجدانية ، فهو لا يرجع إلى طبيعة الجود بل إلى الأسى والمواساة ايضاً .

فقد كان ابن جعفر جواداً يعطي كثيراً ويهب كثيراً حتى لامه الحسين (ع) على تبذيره ، ولكنه يعطي للاعطاء ، سواء وقع موقعه أم اختلف عنه — فإن العطاء وحده لذة الجواد بعيداً عن كل شعور آخر . ولقد أجاد بشار حين قال :

إنّما لَذّةُ الجواد ابن سَلْــــم　　في عَطَاء ومَرْكب لِلقَــاء

فهو يشاركنا في أن الجود لذة الجواد . وهو مدفوع لطلب هذه اللذة وحدها بدون دافع آخر أو مؤثر وراءه .

واما الحسين في هذه القصة فهو لا يعطي للجود ، ولكن للمواساة والمشاركة الوجدانية .

وفي تصوري ان الذي لا يشعر بالغَيْرِيّة اصم النفس ليس متصل الباطن بأشياء الوجود . وبذلك يكون كأنه يعيش في عالم مهجور قفر ليس فيه حي ولا حياة . وبعبارة اخرى يبدو الفردي الذي لا يشعر بشعور الناس كأنه الغى الوجود الكبير بينه وبين نفسه ؛ فلم يعد في الوجود الواسع إلا هو وحده ؛ وفي الواقع حين الغى الوجود في اعتباره ؛ الغى وجوده في اعتبار الناس . وبذلك تكون نفسه قد ضاقت عن ان تسع معه من آحاد الناس واحداً . ومن ثم يعود

اتساع نفسه فراغاً وخلاء بغيضاً . كالمغار يتسع للظلام والفراغ القاتم والرهبة الموحشة .

بينما يكون الغَيْرِيُّ أو الوجداني كأنما خَلَطَ الوجود بنفسه الذي استحال إلى شيء فيها ، فهو يعيش ويعيش معه كل ما في الوجود من احياء . وبذلك يكون قد اطّاف نفسه بمملكة الأحياء فوجد مكانه في كل حي ، والفردي قد اطاف بنفسه فلم يجد بينها مقاماً .

والحسين (ع) زاد به الإحساس الوجداني ، حتّى كان كاليد الآسِيَّة لا تمر على شيء إلا مر عليه الشفاء .

رووا أن زينب [1] بنت إسحاق زوج عبدالله بن سَلاّم القرشي ، والي العراق لمعاوية بن ابي سفيان كانت مثلا في اهل زمانها في جمالها وتمام شرفها وكمالها وكثرة مالها ، وان يزيد بن معاوية فتن بها ، فذكر ذلك لخصي خاص بأبيه معاوية فقال الخصي لمعاوية : ان يزيد ضاق ذرعه بها ، فقال معاوية ليزيد اكتم أمرك . ثم كتب إلى زوجها ليقدم عليه ، فأنزله معاوية منزلاً اعده له ؛ وأرسل إلى ابي هريرة وابي الدرداء — وكانا يومئذ بالشام — فأخبرهما بانه بلغت له ابنة يريد إنكاحها ، وانه رضي لها ابن سلام لدينه وشرفه وفضله ، وكلفهما ذلك له عنه وانه جعل لها في نفسها شورى . فأتيا عبد الله بن سلام وذكرا له القصة ؛

---

(١) هذه القصة رواها عدد من المؤرخين ورجال الادب باختلاف في الاسم والجهة فعند ابن قتيبة في الامامة والسياسة ج١ ص ٣٠٤ ان اسمها اريتب ووقائعها في العراق وعند شهاب الدين النويري في نهاية الارب ج٦ ان اسمها زينب وذكر الميداني ان وقائعها في المدينة وتجد اختلافاً كثيراً في انها وقعت للحسن او الحسين وان الواسطة ابو الدرداء او ابو هريرة وان الزوج عبدالله بن سلام او عدي بن حاتم وقد جاء ذكرها عند ابن قتيبة في السياسة والنويري في نهاية الارب وابن بدرون في شرح قصيدة ابن عبدون وذكرها السيوطي في تحفة المجالس والشبراوي في الاتحاف بحب الاشراف والميداني في مجمع الامثال . وهي مع اختلافها تلقي علينا بصيصاً ما نجتهد بالاخذ به ورأينا الخاص ان القصة في اقرب رواياتها وارجحها انها وقعت في العراق وان الذي انتصف هو الحسين عليه السلام ولذلك اثبتناها .

ودخل معاوية على ابنته وحضها على ان لا تقبل حتّى يفارق ابن سلام امرأته . ورد ابن سلام ابا هريرة وابا الدرداء يخطبان له ابنة معاوية فأتياه فأدخلهما عليها فأعلماها ، فقالت لهما ما قال معاوية لها ، فرجعا إلى ابن سلام واعلماه بما قالته فظن انه لا يمنعها منه الا فراق زينب ، واشهدهما بطلاقها واعادهما إلى معاوية ، فاظهر معاوية كراهة فراقه لزينب وامرهما بسؤال ابنته عن رضاها ، فاعلماها بطلاق عبدالله بن سلام امرأته ، فصرفتهما لتسأل عن دخلة امره ، اثنت على ابن سلام .

وتحدث الناس بما كان من طلاق عبدالله زينب ولاموه على مبادرته بالطلاق ، ثم وستحث عبدالله أباهريرة وابا الدرداء فأتيا ابنة معاوية ، فقالت انها سألت عنه فوجدته اغير موافق لما تريد ، فلما بلّغاه كلامها علم انه مخدوع وذاع امره في الناس وشاع ونقلوه إلى الامصار وتحدثوا به في الاسمار ، وقالوا خدعه معاوية حتّى طلق امرأته وانما ارادها لابنه . فبئس من استرعاه الله أمر عباده . ومكنه في بلاده واشركه في سلطانه . يطلب امرأً بخدعة من جعل الله اليه امره .

فتمت مكيدة معاوية . ولكن المقادير أتت بخلاف تدبيره وبضد تقديره . وذلك أنه لما انقضت اقراء زينب وجه معاوية أبا الدرداء إلى العراق خاطباً على ابنه يزيد . فخرج حتّى قدم الكوفة . وبها يومئذ الحسين بن علي(ع) ، فبدأ أبو الدرداء بزيارته فسلم عليه الحسين وسأله عن سبب مقدمه . فقال : وجهني معاوية خاطباً على ابنه يزيد زينب بنت إسحاق ، فقال له الحسين : لقد كنت أردت نكاحها وقصدت الارسال اليها ، فاخطب عليّ وعليه لتتخير من اختاره الله لها ، واعطها من المهر مثل ما بذل معاوية عن ابنه ، فلما دخل عليها أبو الدرداء قال لها : قد خطبك أمير هذه الأمة وابن ملكها وولي عهده والخليفة من بعده يزيد ابن معاوية ، والحسين بن بنت رسول الله (ص) وسيد شباب أهل الجنة ، وقد بلغك سناؤهما وفضلهما وقد جئتك خاطباً عليهما فاختاري أيهما شئت ، فسكتت طويلاً ثم قالت : يا أبا الدرداء لو أن هذا الأمر جاءني وأنت غائب لأشخصت فيه الرسل اليك واتبعت فيه رأيك ، فأما إن كنت أنت المرسل فقد فوضت أمري

اليك فاختر أرضاهما لديك ؛ فلما لم يجد بداً من القول والاشارة ، قال : أي بنية ، إن ابن بنت رسول الله (ص) أحبّ إليّ وأرضى عندي والله أعلم بخيرهما لك؛ قالت: قد اخترته فتزوجها الحسين وساق لها مهراً عظيماً، فبلغ ذلك معاوية فتعاظمه ، ولام أبا الدرداء لوماً شديداً .

وأما عبدالله بن سلام فان معاوية اطرحه وقطع عنه روافده لسوء قوله فيه حتى قلّ ما في يديه ، فرجع إلى العراق ، وكان قد استودع زينب مالاً عظيماً فظن أنها تجحده لطلاقها من غير شيء كان منها ، فلقي حسيناً فسلم عليه وقال له : انه استودعها مالاً وأثنى عليها وطلب أن يحضها على رد ماله ، فبلغها الحسين ذلك ، وقال لها أدي أمانته وردي عليه ماله فقالت : صدق ، استودعني مالاً لا أدري ما هو فادفعه اليه بطابعه ، فأثنى عليها الحسين ، ثم لقي عبدالله وأمره أن يدخل اليها معه فأخرجت اليه البَدرَ فشكر وخرج الحسين عنهما، وفضّ عبدالله خواتم بدرة وحثى لها منها فاستعبرا جميعاً ، فدخل الحسين عليهما وقد رقّ لهما ، فقال : اشهد الله أنها طالق ثلاثاً ، اللهم قد تعلم أني لم أستنكحها رغبة في مالها ولا جمالها، ولكن أردت إحلالها لبعلها ، فسألها عبدالله أن تصرف إلى حسين ما كان قد ساق اليها من مهر ، فأجابته إلى ذلك فلم يقبل الحسين ، وقال: الذي أرجو الله من الثواب خير لي ؛ فلما انقضت اقراؤها تزوجها عبدالله .

هذه قصة تلقي بين أيدينا ضوءاً على إحساس الحسين (ع) الشديد وانتصافه لقضية العدالة وانتصاره للمظلوم ، ومضائه على طيّته بدون رعاية لجانب إلا جانب الله وحب إلا حب المصلحة العامة ، باعتباره ساهراً عليها . فإن الإسلام قد انتدب كل مسلم للمحافظة على قضايا العدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ثم نرى الحسين (ع) يمضي تحت إملاء أحاسيسه الطافحة لا ينثني ولا يلتوي . ثم يبالغ في المواساة في كل ما يَستَشْعر ان فيه مَحْسَنَة وصنيعة .

روى ياقوت المستعصمي عن أنس . قال كنت عند الحسين(ع) فدخلت

عليه جارية بيدها طاقة ريحان فحيته بها، فقال أنت حرة لوجه الله تعالى؛ فقلت له: جارية تجيئك بطاقة ريحان فتعتقها، فقال كذا أدبنا الله فقال تبارك وتعالى (وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا) وكان أحسن منها عتقها..

الشجاعة:

من مصححات الشخصية الشديدة البروز، ولقد يزيد اعتبارها إلى درجة قصوى بحيث تكون مقوّماً للاستعدادات الأخرى كافة.

وربما نزلت من الاستعدادات منزلة الروح التي تنشرها كائناً حياً. وأي أمرىء مهما بلغت به استعداداته من الوفرة والبسطة والتفوق، فإنه لا يكون خليقاً بالنجاح إلا إذا أحكمها بالشجاعة، فإن معنى الشجاعة إظهار هذه القوى بالمظهر الأخاذ، والمبالغة في قيمتها أو إعطائها القيمة الحقيقية. فالشجاعة أبلغ تعبير عن الكوامن النفسية؛ وأية شخصية، إذا زايلتها الشجاعة، فقدت كل قيمة، وأسرع إليها الذبول، وعراها الضؤول وتخافتت في غمضات. والجبن على أي اعتباراته مرض سريع الفتك بالشخصية مهما بلغت نضرتها، حتى عزا إليه علم النفس التطبيقي كل تَخلُّف في حقل الاجتماع. وهذه المجبنة تظهر بعدة أشكال في الحياة العامة والخاصة، ومن حيث نسبة الفرد إلى نفسه ومن حيث نسبته إلى المجموع.

والشجاعة ضبط النفس مع أي مؤثر من المؤثرات بالغاً مبالغه في الشدة والإعْنَاف. وهذه القدرة على ضبط النفس هي أساس قوة الشخصية وقوة الخُلُق معاً، وقاعدة الكرامة والكبرياء الانسانية جميعاً، وهذه الشجاعة هي في الرجل كمال الرجولة، وفي الأنثى كمال الأنوثة، لأنها مظهر ثابت لا تحيك به الزعازع ولا تميّله الهزاهز. فالرجولة الكاملة والأنوثة الكاملة هما ركنا الاجتماع الثابت. وأية أمة أفتُقِد فيها كمال الرجولة والأنوثة تسير مسرعة في خطة الانحلال وطريقة الفناء، فإن معنى فقدهما فقد الشجاعة الكافية في ابراز

الاستعدادات ، ومعنى أن نفقد الشجاعة أنا نفقد الشخصية ، وأمة لا شخصية لافرادها لا شخصية معنوية لها ، أي لا وجود لها حقيقي .

وأعظم أمراض الشخصية خطورة وفتكاً هذه المَجْبَنَة التي تُهَوِمّ على جوانب القوى فتُدَرِّيها وتخمد فيها جذوتها المتقدة . والمجبنة على اختلافها ملابسات ترجع إليها عن قرب أو عن بعد ، وهي في سرد مجرد .

(أ) الشعور بالوجود الذاتي ، وهو ينشأ عن مغالاة المرء بقيمته حتى تترسخ كصفة ثابتة تحمل صاحبها على زيادة التحرز والتوقي والتخوف ، ولا يرضيه أيما شيء يأتي به، فيكثر منه العثار ،وفي خيال بعض علماء النفس أن الحشرة المعروفة باسم أم أربعة وأربعين شعرت بوجودها الذاتي ، فارادت أن تشاهد كيف تسير ، فتشابكت اقدامها وتلوت وتقاطعت فانقلبت على ظهرها ولم تستطع القيام .

ومن أعراض هذا الشعور كثرة الارتباك في مجلس الآخرين،وخوف الظهور في المجتمعات ، والانتقاد للذات ، والاكثار من مقارنة النفس بالآخرين .

(ب) عدم التوازن الاجتماعي وهو ينشأ من فقدان الشجاعة اللازمة في آداب السلوك العادية .

(ج) تخوف الفشل في المآتي اللازمة والمشاريع الهامة .

ثم للشجاعة مظاهر مختلفة وأشكال متعددة حتى اتخذت في معجم اللغة الفاظاً مختلفات وهي في سرد تطبيقي :

(١) ضبط النفس : وهذا الشكل يتمثل جيداً ، عند الحسين (ع)، فيما رووا من أن غلاماً له وقف يصب الماء على يديه فوقع الإبريق من يد الغلام في الطست ، فطار الرشاش في وجهه ، فقال الغلام : يا مولاي (والكاظمين الغيظ) قال : قد كظمت غيظي ، قال : (والعافين عن الناس) قال قد عفوتُ عنك ، قال : (والله يحبُّ المحسنين) قال : إذهب فأنت حرٌّ لوجه الله الكريم .

(٢) محاولة التغلب على الصعاب : وهذا مظهر يبدو في موقفه (ع) حين حاول رجالات مكة أن يصدوه عن الخروج إلى العراق ، فأبى ووقف حيث هو لا يحول رغم ما يرى من تغوّل الاحداث . وأعظم ما يعبر عن هذا الجانب عند الحسين (ع) موقفه من الوليد ومروان وقد انشد حين ولّى خارجاً :

لا ذَعرتُ السوامَ في فلَق الصبـ ـح مُغيراً ولا دعوتُ يزيدا
حين أُعطِي مخافة الروع ضيْماً والمنايا يرصُدنني أن أحيـدا

(٣) الصراحة في الإجابة رغم بواعث الرعب . روى الحُصري [١] والسيد البيّي العلوي أن الحسين (ع) اعتق جاريته وتزوجها ، فكتب اليه معاوية (أما بعد ، فإنه بلغني أنك تزوجت جاريتك وتركت اكفاءك من قريش ، ممن تستنجبه للولد وتمجد به في الصهر ؛ فلا لنفسك نظرت ولا لولدك انتقيت) فكتب إليه الحسين (ع) : (أما بعد فقد بلغني كتابك وتعييرك إياي بأني تزوجت مولاتي وتركت اكفائي من قريش ، فليس فوق رسول الله منتهى في شرف ولا غاية في نسب ، وإنما كانت ملك يميني خرجت عن يدي بأمر التمست فيه ثواب الله ثم ارتجعتها على سنة نبينا (ص) ، وقد رفع الله بالاسلام الخسيسة ، ووضع عنا به النقيصة فلا لوم على امرىء مسلم إلا في أمر مأثم ، وإنما اللوم لوم الجاهلية) . فلما قرأ معاوية كتابه نبذه إلى يزيد فقرأه وقال : لشَدّ ما فخر عليك الحسين؛ قال لا ، ولكنها السنة بني هاشم الحداد التي تفلق الصخر وتغرف من البحر .)

هذه أهم عناصر الشخصية ، ونجدها ضافية عند الحسين بكل مظاهرها فهو شخصية فوق مستوى الشخصيات . ونحن اذا أفضنا في نواحي الشخصية المقارنة عنده لا نكون إلا كما جاء به المثل العربي القديم (أريه السُها ويُريني القمَر) . وآخر ما أود مقاله في هذه الحلقة ان النبي (ص) قدمّ في الحسين (ع) مثال المسلم الكامل ، وقدّم به عليّ (ع) مثال الرجل الكامل : فنظر إلى الدنيا بغير

---

(١) راجع زهر الآداب للحصري ج١ ص ٣٩ ومواسم الادب البيّي ج١ ص ٣١

عينها ، ومن غير ناحيتها ، فرآها كما هي على الحقيقة ؛ فما حركت فيه شهوة ولا ايقظت عنده مَطْمَعاً ، وإن كان أقل ما تجيء به في أعظم ما تجيش به اماني الناس .

ذلك نظر من تَخَضَّبَتْ نفسه بالروح الالهي ، فكانت الدنيا لا تساوي عنده جناح بعوضة ، كما هي عند الله ؛ وهؤلاء الاصفياء في حياة الناس ، كالنجم في حياة الارض ، يضيء عليها وهو لا يفكر بكل أشيائها ، او لا تمر هي وما جمعت خاطرة في مُنْثال خواطره .

ولقد أعطى الحسين (ع) أعظم تحليل للدوافع التي تدفع الناس في الحياة العامة بأخصر فقرة وأبلغها ، وهي على اختصارها تترك ضياء في العقل وضياء في النفس ، فلا يتلبّس علينا ولا يُحَال دوننا في فهم مبلغ السمو الانساني في كل جيل .

إنَّ الناسَ عَبيدُ الدُّنيا ، والدينُ لَغْوٌ على ألسِنَتِهِمْ ...

يَحوطونَهُ ما درَّتْ به معايِشُهُمْ ...

فاذا مُحِّصوا بالابتِلاء قلَّ الديّانون ...

تم

• تاريخ الحسين

نقد وتحليل

عبد الله العلايلي



الحلقة الثانية

دار مكتبة التربية
بيروت

فهرست

الحلقة الثانية

★ ★ ★

فاتحة

النّاسُ في الحَياة أشْباحٌ مُبْهَمَة تَخْتَلط ثم تتكسّر في ظلام الأبَدية بغَيْر ضجيج ، ولكنّ الكائنَ العظيم وَحْده هو الذي يقُدّمُ التاريخ العظيم ..

والتاريخ قطعةٌ من الزّمَن ليس لها حُدُود ورَاءَ الكائن الذي يُفْرغ عليها صُنُوف التهاويل ...

وشتّان بين الكائن الذي يجيءُ شيئاً من معنى الجيل، والآخرِ الذي يجيءُ الجيلُ شيئاً من معناه ...

وأيُّ تاريخ هو أجْدَرُ من تاريخك « ابا عبدالله » بأنْ يَحْمِل شارة العِظَم والخلود ...

* * *

نَوَاة انْفَصَلَتْ من صميم المُعْجزة ، لتجيءَ معجزة أخرى في صميمها ... وليست الشجرةُ الزّاهية، بما فيها من مَجَالي الفن ، إلاّ نواة خرجتْ بقوتها ، او قُوّة اسْتَكَنّتْ في سِرّ النواة ... والنُّبُوّة معجزة تَعِدُ الانسانية لشيء جديد ،

والانسان الاسمى هو المعجزة في الشيء الجديد نفسه ...

فالنبي (ص) أَعَدَّ البَشَر للانسانية المُهَذَّبة فتَمَّتْ بذلك مُعْجزته ، وأنتَ « ابا عبدالله » اعددتَ نَفْسك لتحلَّ في مكان الاعجاز من الانسانية الجديدة ، فتمّت بذلك مُعْجزتك ...

* * *

إلاهَةُ الاساطير تحتاج إلى نبيّ يَمْحُوها ، حتّى يردّها إلى خيالٍ طائشٍ في حُدُود الخرافة ...

والانسان المُسْتَألِهُ يحتاجُ إلى مُصْلح يَمْحوه ، حتّى يردّه إلى طَبيعتِه في حُدُود الحقيقة ...

فالجَدُّ النبيُّ محــا آلهة الاساطير ، والسِّبْط المُصلح محا الآلهة منَ النّاس .. وكذلكَ حَال [1] الحُسين (ع) بكفَاحه دُونَ أنْ يَسْتَعْبد الانسانُ الانسان ...

* * *

الحياةُ حركةٌ دائمةٌ ، والموتُ سكونٌ دائمٌ ، ولكنّه بالنسْبَة إلى العظيم يُعْطي معنى آخر . فانَّ موتَ العظيم لَيْس سُكوناً هَامداً ، بل هو [2] خُرُوج الحركة عن مَرْكَزِها لِتَنْتَشِر في أحْياء كثيرين ...

فَفي رُوح كل مُصْلح بَدَوَات من رُوحكَ ، وفي ضمير كلِ مُجَاهد قَبَسٌ من ضيائك ...

---

(١) ان حركة الحسين عبرت عن قوة الرأي العام وعن خطره مهما كانت السلطة مستبدة متحكمة .

(٢) الحياة حركة حول مركز الشخص الحي فاذا مات وكان عظيماً خرجت حياته عن مركزه الشخصي وسيرت أتباعه ومعتنقي رأيه .

تصدير

أظُنُّني صادقاً أو غير بعيد من الصدق ، حينما اقول واطلق القول ، بان جَمْهرَة المؤرخين المحدثين في العربية لم توفق إلى اقامة التاريخ العربي على سنة منطقية ، وقاعدة نقدية تحتفل بتبيان الدوافع والعوامل التي من شأنها ان تهيء ظروف التاريخ المختلفة ، وتحدد له الاتجاهات ، وتفرض عليه الحركة حين يجب ان يتحرك ، والسكون حين ينبغي به ان يسكن . هذه الدوافع التي نصل بها إلى تمام الغرض العلمي اذا ما اعطيناها كلمة « الحيوية التاريخية » .

وهذه الحيوية ، كما ندعوها او فلسفة التاريخ كما يدعوها الآخرون، ضرورية[1]

---

(١) اعلن هذه الضرورة اللورد اكتن في محاضرته التي القاها سنة ١٨٩٥ حين قال « ان اختصاصنا يتناول ما هو ابعد مدى من شؤون السياسة ان من واجبنا ان نحيط بحركات الافكار التي هي علة الحوادث العامة لا نتيجتها وأن نجعلها نصب اعيننا دائماً » وكذلك اعلن دولنجر الالماني حين أكد ما للدين من قوة مؤثرة في التاريخ ، واعلنت مدرسة كارل ماركس الاشتراكية التصور الاقتصادي او المادي التاريخ ، واعلنت مدرسة كارل لمبرخت الالماني سلطان العقل الباطن وما الطبيعة البشرية والجماعات المنظمة من الدوافع الغريزية ، وجاء فلاسفة المؤرخين في العصر الحاضر واعلنوا بان عاملا واحداً لا يستقل بتفسير ما المجتمع الانساني من ظواهر متعددة وان لكلّ من الخلق والبيئة نصيباً من ذلك التفسير خاصاً به وان كلا من الجبر والاختيار ليس بمعطينا بمفرده الحق من حيث بيان مصدر اعمال الانسان وان الافكار والدوافع الغريزية والروح والجسم كل اولئك حقائق نهائية لا يتأتى التعبير عن بعضها بنفس الالفاظ التي يعبر بها عن البعض الآخر . راجع ص ١٤٠ و ١٤١ من كتاب علم التاريخ للاستاذ هرنشو .

لمن يريد ان يشخّص عصراً او جيلاً ، ويعبر عما مار به واجتمع عليه . وانما كانت حرية بالتمثيل من حيث إنها تقودنا إلى ان نعايش ذلك الجيل من الناس ونمتزج بهم وننفذ إلى خلجات ضمائرهم كما لو كانوا يعيشون بيننا اليوم .

ومن ثَمَّ تنكشف لنا جوانب من ذلك المحيط ، كانت خفيّة وادق من ان يحصيها اولئك الاخباريون البسطاء ، الذين درجنا على اخذ التاريخ عنهم واعتمدناهم اعتماداً تَعَبُّدياً . أنا لا اقول بان على المؤرخ ان يطّرح ما نقل إلينا هؤلاء ، ويُرْخي لنفسه العنان في ان يرتجل التاريخ بعد ذلك ارتجالا . وانما اريد أن اقرر شيئاً آخر له اهمية [1] وقيمة في متن التاريخ ، وله إلى جانب هذا خَطَر في الناحية الدراسية من حيث الاطمئنان إلى ما يفرض ويقضي به هذا الاسلوب ، حين نكون قد اجتهدنا بقدر ما في تصحيح الوسائل والوسائط [2] . وهذا الذي انوّه به وارفع من شأنه هو الارتداد بنا إلى السند مرة اخرى ، كما كان يفعل المحدثون [3] القدماء في نقل السنة ، وان كان ادركهم بعض التلفيق في اواخر عهدهم ، حتى ليخيل للناقد بانه لم تكن [4] لهم مقاييس

---

(١) و (٢) يذهب بعض اللغويين إلى تخطئة هاتين الكلمتين بالنظر إلى العرف اللغوي ، ونحن لا نرى مانعاً من استعمالها ذهاباً مع رأي جمهرة من اللغويين بان الخطأ المشهور اذا كان خاضعاً للقياس اللغوي فلا مانع من استعماله . .

(٣) انما ملت بالكلام نحو السنة لان قواعد المحدثين اعتمدها المؤرخون في نقل الاخبار وان لم يبلغوا مبلغ المحدثين في دقة تطبيقها .

(٤) راجع كتب الموضوعات كمؤلفات ابن حجر وابن الديبع والسيوطي والقاري والشعراني والعجلوني ، وهؤلاء ذهبوا مذهب اللغويين في التحيل والمداورة حتى يصحح هؤلاء الغلط واولئك الحديث او على الاقل يستلونه من دائرة الوضع . وهذه الحمى عرت متأخري المحدثين كما عرت متأخري اللغويين بينما اذا ارتقينا بالنظر قليلا نجد كتاب الموضوعات لابن الجوزي الذي لا تحتجزه حرمة كتاب او اشتهار حديث من تخريجه على اصوله الدقيقة والطعن عليه ، ونجد كتاب المستدرك للحاكم الذي يتساهل بافراط ونحن لا نظن به كما ظن الحافظ الذهبي من ان الغفلة ادركته ، وانما نرى انه وابن الجوزي زعيماً مدرستين في السنة لهما تعاليمهما واصولهما في الصحة والضعف ، وكانت ميزة مدرسة ابن الجوزي التشدد وميزة مدرسة الحاكم التساهل ولكن المدرسة الثانية انتصرت في النهاية وعمت ، ومن هنا جاء الاختلاط الذي نشهد اثره في كتب الموضوعات . وعلينا ان نتلمذ لابن الجوزي ونحيي معالم مدرسته التي عفت رسومها ، وكأنما كبر على متأخري المحدثين ان يسقطوا ثروة كبيرة من السنة باعتماد اصول ابن الجوزي فوجروها حيث ولدت .

ثابتة للصحة والضعف . وبذلك يكون جديراً بنا أن نغربل السنة وَفْق موازيننا الجديدة ، وأن نعود إلى درس شخصيات الرواة مرة اخرى على مقتضى معارفنا النقدية الحديثة البعيدة عن المبالغة والتعميم اللذَيْن نقع عليهما في دراسات الأقدمين . وانا لا ازعم هنا بان الاولين لم يكونوا موفقين ، وايضاً لست اقصد تجريدهم عن نزعة التحري ، وانما اريد ان أقول بانهم وفقوا إلى حد ما ، وحققوا شيئاً من التحقيق ؛ وهذه سنة التسلسل العقلي الدائمة ، فهي تعطي المتأخر لتأخذ منه فلا تنفصم الحلقات .

لم يكن من مستطاع الاوائل او أية جماعة اخرى ان يقولوا كل شيء ، وليس في وسعهم أن ينتهوا بدراسة فتنتهي ايضاً في اعتبار الناس . فعلينا ان نصل ما انقطع من جهود القدماء بمؤتمرات للسنة والتاريخ تأخذ على عاتقها القيام بتحقيق هذه الاهداف ، حتى تضع تحت الايدي خلاصات موثوقاً بها ثقة تتناسب مع ما نجتهد ان نفضي اليه من دراسات . ويجب بذل هذا الجهد لشيء آخر وهو تخليص موسوعات القدماء من التشويش الفظيع الواقع ، فهم لا يكادون يتفقون على تعديل رجل او جرحه .

وبما انه قد اجتمع لدينا من الموازين والمعايير ما هو ادق من موازين ومعايير القدماء ، سنكون اكثر تحقيقاً واوثق نتائج . فنحن لا ندرس الرواة من وجه ما عرف عنهم واشْتُهِر فقط ، بل نعود إلى درس بيئتهم ومجتمعهم ومنزلتهم فيه ، ومقدار اتصال هذه المنزلة بما يروون من الاخبار .

وشيء آخر أيضاً وهو تحقيق النص ، فانه ثبت لي امر الح اليه قدماء المحدثين الحاحاً ، وهو ما اسميته بالتدلس الخفي وانبهني اليه ما جاء في الجزء العاشر من مسند عمر للحافظ ابن شيبة فقد ذكر ان احمد بن زيد قال « سمعت حديث عمرو بن دينار بيننا مراجعةً ، قال محمد بن المنهال مراجعةً تذاكرٌ بينهم ، يذكر هذا نصف الحديث وهذا نصفه . يسمعون من عمرو بن دينار فيحفظ بعضهم نصفاً وبعضهم ثلثاً فيتذاكرونها بينهم ثم يكتبونها . »

وهذه العبارة تضع بين ايدينا شيئاً يبعثنا على الشك في النص ، ويحملنا على زيادة التحقق بان ما يعزى لقائل هو ما قال بعينه .

المدخل [1] إلى التاريخ في رأيي : حينما تجتمع لنا النصوص الوثيقة تكون قد اجتمعت لدينا مواد البناء وايضاً الرسوم التخطيطية للتصميم ، ومن بعد هذا نطمئن إلى ان نقدم بناء تاريخياً صحيحاً عن الجيل الذي نُجْمع اسبابنا على درسه . وانا اريد في التاريخ شيئاً كالذي ورد على لسان المرحوم شوقي وصفاً شعرياً :

« أفْضَى إلى خَتْم الزَّمان فَفَضَّه
وَحَبَا إلى التّاريخ في محْرابه »
« وطَوَى القُرُون القَهْقَرَى حتّى أتى
فِرْعَوْنَ بَيْن طَعَامِـه وشَرَابه »

أو شيئاً كالذي طالعنا به المأسوف عليه (جان دبس) النابغ اللبناني ، حين صنع ، على ضوء بحوث المُخَطِّطين والمُنَقِّبين في اطلال هياكل بَعْلَبك ، نَموذَجاً مَشِيداً لتلك الهياكل ايام كانت تفيض بالحياة والاحياء ، وقد انتهت به محاولته إلى ان يبعثها كما لو كان دونها ستار فأزاحه .

هذا عمل في جانب من التاريخ نريد مثله في جوانبه الاخرى . وانا لا اشك مع ذلك في ان الدرس الاستنتاجي قد يخضع احياناً للخاطر الوثاب ، ويكون قوياً يعلل الحادث او المجرى الواقعي تعليلاً صحيحاً لا يتسق العَرْض الا به ولا يستقيم الا عليه . وهذا شيء لا نمتنع عن الأخذ بمثله في التاريخ ما دمنا نقدمه على انه اجتهاد فقط وليس تاريخاً . ولا يُشْتَبه في ان بينهما فرقاً جوهرياً

(١) لا يؤخذ علينا باننا نفيض بتوسعات تاريخية تتصل بمن يكتب في درس التاريخ ، لا بمن يكتب في موضوع من التاريخ ، لانها توسعات اجريت عليها موضوعي الخاص واعتمدتها ولا بد لمن يتعقب نتائجي ان يقف على الطريقة التي تأديت بواسطتها وتهديت على ضوئها كما صنع المؤرخ الانجليزي هنري بكل في مقدمة كتابه تاريخ الحضارة في انجلترا ، فقد خصها بدرس التاريخ من الوجهة التي يراها .

يبيح للناقد ان يفسر ويعلل ويقارن ويؤاخي ويطابق بين حوادث التاريخ على الشكل الذي يتراءى له انه حق صحيح . وانما نُلِحُّ بتقرير هذا الفرق قَصْدَ ان يتضح لأولئك الأُنْبُوشيِّين [١] الذين لم يتصلوا بالثقافة الا من وجه عام ، ولم يُعْنَوْا بتصنيفها وتنسيقها على طريق علمي ، فهم لذلك يجيزون الخلط بين العلوم والادبيات خلطاً شنيعاً .

فالمؤرخ القدير يستطيع أن ينفذ إلى غَيَابات الماضي البعيد يحتاج من النصوص وحاسّة الالهام او حاسة [٢] الاتجاه كما يدعونها احياناً ؛ وهذه الحاسة لا بد من توافرها عند المؤرخ لكي يستقيم له ازاحة النقاب عن وجه التاريخ، كما لو نقل الينا الماضي السحيق او نقلنا اليه .

ونعني بحاسة الالهام القدرة الفنية التي يدخل في جملة عناصرها ، سرعة الانتقال الذهني مع دقة الملاحظة . وهذه القدرة الفنية هي التي تجعل من الروائي قاصاً خلّاقاً او ابداعياً ، ومن الاخباري مؤرخاً فاطراً او ابتداعياً .

الحاضر اداة لتفسير الماضي : وفي رأيي انه لا فرق بين المؤرخ والروائي من بعض الجوانب التي تدخل في البناء الخاص بكل منهما ، كعرض نفسية الجماعات ، والمؤثرات التي تحركها ، وتشخيص المُسَيِّرات الرئيسية بالنظر إلى الطبيعة والوراثة والبيئة . هذه الامور التي يفرض اشتراكها علمياً ، وبالاعتماد على قانون [٣] التطور العام في الاجتماع والمثَل الاخلاقي وما اليهما ، يمكننا ان

---

(١) نسبة إلى الانبوشة وهي النبتة اول ما تتكشف عنها الارض .

(٢) هي حاسة سادسة زعموها في الطير كالحمام وحيوانات اخرى .

(٣) قال الاستاذ هرنشو :وعلى الرغم مما كان بين مؤرخي القرن التاسع عشر من خلاف في تصور التاريخ ، فانهم كافة وجدوا في المبدأ العظيم مبدأ النشوء الذي جاءهم من عالم العلم والفلسفة ما وحد اعمالهم وبث فيها الحياة . إلى ان قال كان مبدأ التطور عند هجل مفتاح التاريخ العالمي اذ رأى عملية النمو في الجنس الانساني سياسياً انما هي باسرها تحقيق تدريجي لمعنى الحرية . والحق ان التصور النشوئي التاريخ اصبح من خصائص المدرسة الابتداعية في مجموعها ، وقد استطاعوا ان يدللوا بواسطته على ان من العبث ان يقال مع التعقليين ان الفترة بين قسطنطين وكولمب مجرد هوة فاصلة بين عصري استنارة يرجعان إلى اصل واحد. وان الواجب ان نلحظ وراء مظاهر الاشياء =

نجعل جيلنا بما يمور فيه نقطة مركزية ، ثم نشرح [1] كل جيل تاريخي على ضوئه غير مغفلين حساب نسبة البعد عنه او القرب منه .

وهذه النسبة ذات تأثير في إبداء الصورة للعصور على وجه الحُلكة او الإسفار . والذي يبعثنا على الطمأنينة إلى نتائج مثل هذا النظر ، دقة موازين التطور النفسية والعقلية والاجتماعية والادبية التي بين ايدينا ، حتّى كادت تتماثل إلى ان تكون من اشياء العلوم .

= غرضاً واحداً ثابتاً يعمل على التجدد والظهور بنفسه ببطء في ذلك العصر وفي كل عصر اخر . إلى ان قال : ولما كان يصاحب جميع العمليات التي يمكن تتبع نشوئها ، قانون ثابت بمعنى اطراد تتابع العلل والمعلولات فقد ظهر ان في وسع الناس بقدر كاف من المهارة ان يصلوا إلى هذا النوع من القوانين في كل ميدان من ميادين البحث وذلك ما اجمله جون ستيوارت ميل بقوله : « ان جميع الظواهر على الاطلاق تحكمها قوانين غير قابلة التخلف ولا تعترضها ارادة ما طبيعية كانت او فوق الطبيعة » وعلى هذا الرأي جعل ميل غرضه الاساسي في الحياة ان يصل إلى القوانين الثابتة التي يقوم عليها نشوء الانسان اخلاقياً واجتماعياً ، فكان غرضه من كتاب المنطق بيان الطريقة المثلى لبحث علوم الانسان كما ان تحوله إلى الاقتصاد السياسي يرجع إلى اعتقاده بان في العلم باحوال الانسان من حيث هو منتج الثروة ومستهلك ومبادل لها قوانين من النوع الايجابي الصحيح لا يتعذر الوصول اليها ، مثال ذلك (قانون تناقص الغلة) و (قانون السكان) لمالتوس و (قانون الاجور) لريكاردو . وكان ميل يقفو اثر استاذه الفرنسي اوغست كنت الذي نصب نفسه للوصول إلى القوانين التي تفسر غرابة اطوار الانسان في حال التفرد والاجتماع لكنه لم يكن مؤرخاً يستقرىء الحوادث بل فيلسوفاً يقيس الامور باشباهها ثم ظهر توماس هنري بكل فقصد ان ينشىء على مقتضى اصول فن الاحصاء علماً وضعياً للاجتماع الانساني في مقدمة كتابه (تاريخ الحضارة في انجلترا) راجع كتاب علم التاريخ ص ١٤٢ و ١٤٥ .

(١) يرجع الفضل في كشف هذه الطريقة من وجهة ادبية محض إلى الشاعر العظيم شكسبير فقد اتبع في كتابة دراماته الكبرى طريقة تشخيص وتفسير الماضي بالحاضر فكان اذا اراد ان يبرز لنا صورة من صور العصر الروماني مثلا جمع من بلوطرخس وغيره الحقائق الهامة ومنهم يستوعب شكل الحكومة ومقام الدين ودرجة توزيع القوة والسلطة في بناء الهيئة الاجتماعية، وبذلك يخرج تصميمه الاولي الذي يشيع فيه الحياة والنشاط على ضوء طبيعة العصر الذي عاش فيه ، عما يلاحظه من تأثير النظم والمباديء الاجتماعية من وجه عام في عقول الناس مع احلال الفروق الجيلية بين اساليب الحياتين في الصور السياسية والدينية . وبذلك ادرك من التاريخ ما لم يدركه غيره واصطنعها طريقة في بناء الرواية نرى لزام اتخاذها في بناء التاريخ وعرضه

ويحسن بنا ان نُعنّى بفهم وجهة هذا النظر ، لانه بمثابة وضع قاعدة ثابتة للتاريخ ، ونستخدم في شرحها اسلوب المناظرة والتمثيل .

جيلنا الحالي له وضع اجتماعي خاص ، ومثل اخلاقي كذلك ، وسنة ادبية بعينها ، وطريقة طبيعية ذات مميزات . ولكنّ هذه الاشياء بجوهرها وبما تنحل اليه من البسائط تشبه امثالها التي كانت تتصل بحياة الجيل التاسع عشر والثامن عشر ،وهكذا . فالمُفارَقات بين هذه الاشياء ثابتة من حيث التركيب ، ثبوت الاشتراك من حيث التحليل ، وهذه المفارقة إمّا بالارتقاء قُدُماً او بالانحراف الذي هو نتيجة عوامل طبيعية جزئية او ثورات .

واذا ثبت لدينا،من القضايا المبرهن عليها في العلوم البيولوجية،ان المسيّرات الرئيسية للبشر واحدة او بعبارة اصح تكون دائماً نسبة اشتراكها اكبر من نسبة اختلافها ، ضرورة امتناع الطفرة في التطور كما يقول داروين ، جاز للمؤرخ أن يدرس اجياله الماضية على ضوء الجيل الذي يعيش فيه ، وان يُوصِل بعض الحوادث ويُنَسِّقَها مُستلهماً محيطه وعصره ونفسية الجموع الذين يشاركونه الحياة وان يصحح (١) الروايات عن الماضي على اساس النسبة التي يقضي بها الحاضر . فبين المؤرخ والروائي علاقة قوية في هذا الجانب ، حتى ابالغ فاقول بأن من واجب المؤرخ اذا شاء التوفيق أن يكون روائياً قبل ان يكون مؤرخاً .

وعلى هذا القانون يمكننا أن نجعل لكل عنصر بشري دائرة خاصة ، نضع فيها جيله نقطة مركزية ثم ننتقل إلى الاجيال السالفة بنسبة قربها حتى ننتهي إلى ابعدها ، وكلما زدنا الدائرة تخصيصاً زدنا تحقيقاً بلاريب . ونعني بهذا وضع ميزان بين ايدي المؤرخين حينما يفرغون للتعليل والتحليل في صدد الاجيال التي

---

(١) نرى التاريخ حين يحدثنا عن محاكم التفتيش مثلا ينسب اليها من الفظائع والاهوال ما لا يصدر الا عن الانسان القديم الذي كان اقل تطوراً في غرائزه كالانسان الأشوري والبابلي والمصري؛فالنظرية التي نقُررها تقضي بنفي اغلب ذلك وتحكم بانها مبالغات خيالية محض لا يمكن ان تصدر عن الانسان المتطور المصقول الغريزة؛وعليه فهذه الاخبار اخترعها المؤرخون من ذوي الاغراض، والروائيون الذين عمدوا إلى محاربة الاوضاع والاهابة بالناس إلى التحرر والثورة .

يدرسونها ، وهذا القانون النقدي يتم بالاعتماد على تحرير الموازين النفسية والاجتماعية والاخلاقية وفرضها فرضاً تطورياً .

مثاله « الفضيلة [1] في المرأة » تعتبر هدفاً اخلاقياً في القرن التاسع عشر كما هو في القرن العشرين ، ولكنها تَعْنِي في العصر الاول غير ما تعنيه في العصر الثاني ، فكان من جملة مظاهرها في الشرق الاسلامي ، الحجاب والخدر ومجانبة الاختلاط ، ولم تزل الفضيلة هدفاً في جيلنا الحاضر ، ولكنها لم تعد تعترف بأن هذه الاشياء داخلة في معناها . فالذي تغير ليس هو الفضيلة من حيث كونها هدفاً او مُسَيِّراً ، وانما تغير الشكل العرفي فقط .

القالب العددي في التاريخ : فنحن نستطيع ان ندَّعي إذاً بأن المسيِّر في جوهره لم يتغير ، وانما تغيرت ملابساته واشكاله ، وينبغي ان نحدد مقدار هذه النسبة على سنة عددية ، لان التطور يحتفظ بنسبته على الدوام ، كما أن المقايسة الرياضية أدق سبيلا .

وهذا الفرض العددي يظهر اكثر صدقاً في ظاهرة التاريخ الطبيعية منه في ظاهرة التاريخ الصناعية ؛ ونعني بالظاهرة الطبيعية للتاريخ ، حالات النشوء والتكامل في الاستعدادات والقابليات والامزجة وما يتبعها . وبالظاهرة الصناعية للتاريخ ، درجات التقدم في العمران والنظم والاوضاع المدنية . وانما كان الفرض العددي المذكور اكثر صدقاً في الاولى من حيث انها عمل طبيعي ، والطبيعة تميل إلى النظام والاحتفاظ بالنسبة دائماً ، بينما الثانية عمل انساني محض ولذا اسميناها صناعية ، وهي عرضة للتقدم السريع والانتكاس . واما الاولى فلا يعتورها هذا الضرب من الانتكاس والردة إلى الوراء .

---

(١) ساق العلامة الباليتنولوجي ماتيو ، في مقاله : اساس الحضارة المقبلة ، امثلة عديدة من هذا القبيل مثل نظرية الجريمة والعقاب وتطورها في آراء المحدثين ، وصفة الشجاعة وضبط النفس ؛ وانتهى إلى هذه النتيجة القائلة (هنا نستطيع ان نعثر سواء في مظاهر التفكير ام في مظاهر العمل على دلائل من الارتقاء بالغة الاثر وعلى تهذيب بطيء التقدم غير مفصوم الحلقات ولا مقطوع التسلسل) .

وسنرى بعدُ اننا فرقنا بين التطور ذي الظاهرة الطبيعية والارتقاء ذي الظاهرة الصناعية، وحكمنا بان الانحراف يصيب الارتقاء فقط. وعليه فان التاريخ مظهرين: احدهما طبيعي والآخر صناعي ، وهما خاضعان لنسبة رياضية ثابتة غير ان خضوع الاول اكثر ظهوراً ، فان المزاج [1] العقلي وخلق الامة، وهما من النوع الاول، كلاهما يحتاجان إلى زمن طويل، بينما شكلية الاجتماع وشكلية الاوضاع ، وهما من النوع الثاني يتمان بطريق ارادي صرف اي صناعي . ولذلك يعرض لاصناف النوع الثاني الارتقاء والاسفاف ، في حين ان صفات الامة النفسية سائرة في طريق تقدمها على نسبة ثابتة .

فالميزان التاريخي الذي نرغب ان نقيس به اجيال التاريخ لتكون نتائجنا الدراسية اكثر دقة واقل اختلاطاً واختلافاً ، انما يتم لنا تقديمه والعمل به بعد التحقق من صلاحية الموازين الاخلاقية والاجتماعية والنفسية وقيمتها، لان التاريخ يشملها جميعاً ويعتمد عليها . ونرى لانفسنا الحق بان نزعم هذا الاشتراك الجوهري في المسيرات من حيث التطور العضوي والغريزي [2] بطأً يشبه السكون. واذا توافر لدينا هذا الميزان التاريخي ، تأتى لنا فهم مدى تطور هذه الدوافع للاجيال المستقبلة ايضاً ، كما تأتى لنا فهمها في جانب الماضي .

وانا اعتقد بان هذا الشرح لا يوضح الفكرة التي اشتهي تقريرها على وجه تام ، ولكن لا يسعني الآن الا هذا المقدار منه ، لئلا تخرج بنا المناسبة إلى غير طريق الموضوع . ولكنْ لا يفوتني ان اتكلم عن النظرية الكلاسيكية (التاريخ يعيد نفسه) هذه النظرية التي توسّل بها الاولون إلى فهم حوادث المستقبل على ضوء الماضي ، ولكنّ علمنا الجديد المستند إلى الانثروبولوجي والعلوم التي تحالفه،

---

(١) راجع كتاب سر تطور الامم ص ١٦ إلى ٣٩ . ويحسن مراجعة فصول هذا الكتاب الاول لأنه يوضح شيئاً كثيراً من مقاصد هذا التصدير .

(٢) ذكر بعض علماء النفس ان رغبة الافتراس في الانسان لا تزال متأصلة فيه غير انها تهذبت بنسبة كبيرة فان ما يصنع الانسان المتمدن من نحر الحيوان وانضاجه صورة مهذبة عما يصنع الانسان الوحشي من قتل الحيوان والتهامه نيئاً .

اظهرنا على ان الانسانية تتبع في بقائها ناموساً تطورياً ،وان الانسان في اجتماعه يَتَّبع عين الناموس الذي يَتَّبعه في طبيعته . وهذا اطاح بالنظرية السابقة إلى مهوى بعيد ، حيث تعود إلى مكانها في خيال الانسان .

ان نظرية التطور في التاريخ تجعله دائماً في تغير وتزايل على اساس نسبي ثابت ، وبذلك لا ينتظر ان يعيد التاريخ نفسه مرة اخرى . وأما التشاكل الذي نفرضه فانما هو من حيث تحليل حركات التاريخ في الحاضر وسابقاتها إلى بسائط كلٍّ منهما ؛وهو الذي نفيده من الميزان التاريخي الذي نرمي اليه . وحيث كانت هذه الحركات لا تعود مرة اخرى باشكالها بل متحولة على جانب كبير ، فمن الخطأ اعتماد مثل قاعدة التاريخ المذكورة.

ومما ينبغي التنبيه عليه قبل مزايلة الموضوع ، أن من طبيعة الحي الحركة ولن تترك الحركة الكائن حيث هو ، فلا بد ان يسير ولا بد أن يتقدم ، فالكائن في كل جيل ينتظم خطواته إلى الامام . ولا ينكر مع ذلك ان خطواته قد تجيء في بعض الاحيان قصيرة للغاية تشبه الوقوف،لاسباب كالخمول العقلي والضغط الحكومي ، وهذا يظهر جيداً في العلوم والآداب ازمان الجمود . فان حركة التقدم الطبيعي حين لم تظهر في جوهرها ظهرت في حواشيها ، كالفلسفة عند اليونان حينما وقفت في صميمها ظهرت آثار الحركة في الشرح والتفسير ، وان الابتكار عند العرب في الادب حينما وقف ، ظهرت آثار الحركة ايضاً في الصناعة اللفظية والزخرفة المجازية .

دواعي الاسراع : وينبغي ان لا نسقط بعد ذلك حساب الارتقاء السريع بالدوافع المختلفة التي :

منها — **الامتزاج الاجنبي والتزاوج الحضاري** — كما اذا غلب شعب على شعب آخر وكان للغالب او للمغلوب صفة الاكملية . ومثل هذا الارتقاء يتم بين شعوب الجيل الواحد، ولكنّ في الجيل كله فهو ذو نسبة واحدة ثابتة،قلما يتعداها اذا لم تصادفه حادثة طبيعية او ثورة، والا فهو ينحرف كثيراً او قليلاً

على مقدار درجة الضغط التي ادت به إلى هذا الانحراف .

ومنها — **استعداد العصر وقابليته** — فان له دخلاً كبيراً في فهم مقدار الانحراف او مقدار الارتقاء . ومثاله الزلزال الذي وقـع في تركيا سنة ١٩٤٠ ، وهـدم مدناً وقرى ؛ فانه لو وقع في العصور الغابرة ، حين كان الاستعداد بطيئاً في استرداد العمران وما اليه ، فيستغرق زمناً طويلاً لتستعيد الامة سيرها من جديد متصلة بخطها الطولي الذي رسمته لنفسها ، لكان يعتبر عاملاً انحرافياً كبيراً ، بينما هو اليوم ، نظراً للاستعداد المتوافر ، لا يؤبه له من وجهة نظر المؤرخ .

ومنها — **تصحيح المنهج التربوي** — الذي اراه ، على وضعه في العالم ، علة من علل الابطاء ، لانه يزودنا بعقلية تستمد تفكيرها من الماضي بحكم الطابع الذي يلابسه . وتصحيحه في رأيي بشجب دراسة تاريخ العلوم والتاريخ مطلقاً في دور التكوين الثقافي للناشىء ، لانه شديد الخطورة من حيث ظهور آثار هذا التكوين في كل مراحل تفكيره المستقبل . فان درس التاريخ على شتى فروعه وتلوين الدراسات الاخرى بلونه ، كما هو الواقع اليوم في كل مناهج التربية التي لم تتجرد من عنصر الماضي ، يحيي في نفوس ابناء الجيل صوراً منه ، ثم تختلط في عقله وتتركز حتى يستمد منها التفكير في المستقبل . وهذا يجعل العقل دائماً يلتفت إلى الماضي في حين يريد الالتفات إلى الحاضر وحده ، وبذلك لا يستمد تفكيره كله من حاضره الصرف ، بل يفكر في الحاضر شاخصاً إلى الماضي فلا يرى حاضره كما يجب ان يراه . وهذه علة ابطاء بلا ريب بَلْهَ ما تتركه الوراثة كعامل طبيعي ؛ ان المنهج التربوي يجب ان يساعد الارتقاء الطبيعي على عمله فيقلل من آثار الوراثة .

والخطة المتبعة اذا تركزت في عقل الناشىء ابطأت بجانب الاخلاق [١]

---

(١) وشاهد هذا ان علماء التربية اتخذوا التاريخ وسيلة إلى غاية اخلاقية . من الخير ان انقل عبارة الاستاذ هرنشو في الفصل الذي خصه بالتاريخ قال (ان الفائدة الاخلاقية هي بالدقة ما يجعل للتاريخ قيمة من حيث التربية . يقول بولنجبروك قد بان لي ان دراسة التاريخ دون سواها اصلح الدراسات لتعويد الانسان الفضائل الخاصة والعامة. ويستخدمونه لفائدة اخرى وهي اعداد الفرد للحياة =

والأدبيات اكثر من اي جانب آخر ، لان جثوم اشباح الماضي وشخوصه في عقل كل منا يرغمه على التلفت إلى الوراء، فتجيء فكرته على مثل صورته في هذا الوضع، لو احتبستها عدسة لاقطة؛ وانا هنا لست اعني ان لا ندرس التاريخ ، بل ان نقتلع من نفوس النشء فرض مثلهم فيما انكشف عنه الماضي ، وان نشيد بحاضرهم قبل كل شيء حتى يستمدوا منه تفكيرهم ؛ وبعد هذا التركيز يصح ان يدرس التاريخ ليكوّن في الناشيء شعوراً لا عقلاً . واذا اردت مثلاً فخذ الأدب، ان درسه[1] في نصوص القدماء ، قبل كل شيء وآثارهم، يجعلهم في نظر الناشيء مُثُلاً سامية فيحذوهم اشد حذو ، واذا نضج اقام مدرسته على

= المدنية والحياة السياسية . راجع ص ١٥٨ و ١٦٠ يظهر من هذا ان الغاية من التاريخ هو اعداد الفرد ، وهذا الاعداد لن يكون بالضرورة مستمداً من الحاضر ولا معبراً عنه في شيء كذلك ما يلقنه التاريخ من المثل الاخلاقية . وعليه فان تلقين التاريخ في دور التكوين الناشيء يعني اقامة تصميم راسخ في ذهنه لن يزول بسرعة فوجب علينا ان نكون الناشيء تكوينا يستمد معه كل مثله الاخلاقية والعلمية والادبية من حاضره وحده وبذلك نستطيع ان ندعه يسير بسرعة ناهيك انه يكون صورة صادقة عن الزمان والمكان اللذين اشتملا عليه . وعندي ان مهمة التاريخ التربوية هي تأليف الافراد في جماعة متكافئة على معنى ان يكون عمل الافراد في الكائن الاجتماعي مثل عمل الاعضاء في الكائن الحي لكل منها وظيفة خاصة تكافيء وظيفة العضو الآخر وتتممها . فان اية جماعة انسانية لا ترقى متساندة مع فقد التكافؤ ، فيجب اذا اردنا ان نقيم جمعية صحيحة بذل الجهد بتأليف الفرد مع الآخر بحيث يعطيان صفة التكافؤ ضرورة ان الجمعية المؤلفة من افراد غير متكافئين في وظائفهم يسرع انحلالها وكذلك نجد في الكائن الحي فان العضو اذا لم يقم بوظيفته تماماً يضمر شيئاً بعد شيء ويتلاشى ثم لا يبقى الا زائدة اثرية او اذا قام بوظيفة غير متكافئة فانه يورث الاعراض المرضية . وهذا التأليف يأتي من جانب التاريخ بما يولده من الشعور المشترك بين الافراد ، واما الاعداد الذي يتصل باسباب التفكير والمثل فانتكاس .

(١) المعروف في طريقة درسه انا نروي الناشيء نصوص جرير والاخطل وبشار ومن اليهم ؛ فاذا تركزت طرائقهم في نفسه لم يجاوزها الا في جهد شاق كما ان نمو الادبي يكون غير طبيعي لانه لم يبدأ من حيث انتهى آخر اديب بل يبتدىء معه من حيث ابتدأ ، فقصاراه اذن ان يجيء بمثل ما جاء به او ان يزيد عنه في مقدار قصير . وسببه ان تكوين الادباء في كل جيل يتبع عين الطريقة ، فالنصوص التي كونت ادب المتنبي هي التي كونت ادب شوقي، فلا بدع اذا وجدنا خطى التجديد قصيرة الغاية .

خيالهم ، واذا استلهم ظهرت له صورهم؛ قبل كل شيء، محاولة ان تنطق له بما يقول .

فالاصلاح التربوي يقضي بان لا نرويّ هذا الناشيء الا ما انتج اعلام الحاضر فقط من آداب ، وبذلك يتركّز الحاضر في عقله كمصدر تفكير والهام ، وايضاً لا نجانف في نفسه بين المثل الادبية لجيله وبين المثل التي اصطنعها له منهجه التربوي . فاذا درس بعد ذلك الأدب وتاريخه استطاع ان يدرك قصوره او تماثله ، لانه يدرسه بعقلية فيها بعض الغربة عنه ، عدا عما يورث المنهج المتبع من تذبذب في المثل عند الناشيء حين نرويّه مثلاً ادبية لعصور مختلفة اذا اختلطت اعطت مَثَلاً غير مفهوم او مشوهاً .

ولقد بالغ الباحثون باضافة هذه الآثار إلى الوراثة، وهو خطأ؛ لان الوراثة تجد في المناهج[1] المتبعة ما يساعدها من حيث يتقمص الماضي فيها على شكل بارز ، وانا اقرر هذا هنا كعلة ابطاء في سير الجيل من وجهة تاريخية خالصة .

نظرية جديدة في تعليل التوسع (expansion) : ومنها — غلبة مذهب متطرف وتطبيقه بالعنف — كما لو قدر للبلشفية ان تسيطر على النصف الثاني من هذا الجيل ، فانها تمر به مراً سريعاً . فمن اكبر واجبات المؤرخ اذن ، أن يتحقق من علاقة التاريخ بالافكار العامة المسيطرة على الجماهير ، فان انتصار مدرسة بتعاليمها توجه قضية التاريخ توجيهاً خاصاً يدفع بها إلى الامام او يردها إلى الوراء .

---

(١) وخطأ المنهج التربوي اكبر ما يظهر في درس القانون بحكم انه يستمد من قوانين قديمة تستند إلى العرف والعادة ومن قضايا سابقة اخذت فيها احكام قضائية . رغم ان مفهوم العدالة والظلم والجريمة والعقاب وما يتفرع عنها يتغير دائماً بتغير الصفات الادبية العامة، وعليه فليس من الجائز ان تبقى التعميمات في القانون محافظة لشكليتها وروحها ، كما لا يجوز ان تجعل منابع التفريعات فيه منحدرة من الماضي الذي لا يسانده الحاضر . وهذا تعليل بطء تطور القانون بالخصوص وتخوف القانوني من اية محاولة تشريعية جديدة ، لان دراسته له على هذا الشكل ادخل في فطرته نوعاً من التمسك والحذر ، رغم ان احكامه تبعد كثيراً عن حاضر الناس .

وانما نرى تشخيص مثل هذه العلاقة واجباً على المؤرخ ، لان التاريخ في اكبر بواعثه وليد فكرة [1] الفيلسوف حين تصير جزءاً من تفكير الجماعة او الطاغية او هما جميعاً .

وفي حالة ما اذا اتحدت هاتان الفكرتان ، يتغير وجه التاريخ ويتشكل الانقلاب . خذ مثلاً الاجتياح [2] اليوناني في عهد الاسكندر ، والاجتياح الفرنسي في عهد نابوليون ؛ فالجماعة ذات الفكرة الفلسفية ، اذا سيطر عليها طاغية او فاتح غير محدود الاطماع ، تحدث دائماً انقلاباً في التاريخ .

والاجتياح العربي [3] شكل من هذا الاتحاد بين فكرتين : فكرة الاسلام الفلسفية ، وفكرة الفاتح غير المحدود الاطماع كعمر [4] بن الخطاب مثلا .

---

(١) مثال الاول الماركسية فقد كانت فكرة شخص ولما تبنتها الجماعة كفكرة في مجموع افكارها بعثت قضية التاريخ على لونها الخاص . ومثال الثاني طغيان الامم البدائية كغزو البربر لروما واجتياح التتر لآسيا ، والفرق بين التوسع الذي يكون وليد التفاعل بين فكرتين والتوسع اللذي يكون وليد فكرة الطاغية ، ان الاول يحدث انقلاباً تاريخياً من حيث انه غزو للافكار ايضاً ، بينما الثاني مد فقط ثم ينجذر بعد حين بدون ان يترك طابعاً خاصاً ، فالاول انقلاب والثاني طغيان .

(٢) الاجتياح اليوناني تم في حين شملت الفكرة الفلسفية الجمهور الاغريقي في شيء غير قليل من التذبذب المتفعل بالنظريات المختلفة . فقد كانت الفلسفة في ابان استوائها وتم من بنايتها الشرقة التي استأهلت ان يقف فيها ارسطو مرسلا قواعد النظام الفكري الخالد .

(٣) ان الاجتياح العربي لا يمكن تعليله الا بما قدمنا ؛ وذهاب مؤرخي العرب مذهب المستشرقين في تعليله بيقظة القومية التي هي عندهم نظرية عامة في كل توسع وانتشار ، خطأ مزدوج ؛ لان الفكرة من اساسها خطأ وتطبيقها على التوسع العربي خطأ آخر . فان الوثائق مجمعة على ان العرب لم يتعرفوا إلى القومية إلا على شكل جزئي وفي عهد الامويين فقط بمعنى انها لم تكن قاعدة الدولة في اي دور من ادوار حكومتهم ؛ وسببه ان التعليم الجديد الذي جاء به النبي (ص) كان بشرياً عاماً نقلهم من القبلية إلى الجامعة الدينية التي أخذت شكلا انسانياً بدخول الاجناس والعناصر المختلفة فيها . واغرق من كل هذه الآراء في السطحية رأي الدكتور جوستاف لوبون الذي ضمنه كتاب مقدمة الحضارات الاولى حيث علل الاجتياح الفرنسي بتأثير الاماني ، وهو كما ترى وصفي محض ؛ والاجتياح العربي بتأثير المعتقد الجديد الذي استغل له النبي (ص) الحماسة الروحية من حدة الطبيعة العربية راجع ص ١٢٤ .

(٤) سيأتي لنا في بحث النظام العام ان سياسة عمر كانت سياسة حربية خالصة تعد العرب الفتح والتوسع فقط .

فنابوليون لو ظهر في غير ذلك العهد من تاريخ فرنسا الذي قام على فكرة فلسفية من العقل الجديد.، لكان قصاراه ان يجيء قائداً مثل (هنيبال) القرطاجني. والملاحظ في هذه الانقلابات انها لا تتم الا على ايدي الجماعة الذين تتذبذب في رؤوسهم الفكرة الفلسفية في نوع من الامتحان العقلي بحكم الجدة ، وليس على ايدي الذين يستسلمون لفكرة فلسفية في نوع من الايمان الوجداني العميق بحكم الوراثة والتبلّد ، لما يفقدونه من الحماسة والثورة للمبدأ . فسبيل احداث الانقلابات التاريخية أن نفتن الناس بفكرة مغرية ومعقـــدة ايضاً . والتعقيد ضروري لانه يحمل الجماعة على التفكير الطويل في نوع من التساؤل المستمر ، واما الفكرة البسيطة فانها تحدث من اول الامر نوعاً من الاستسلام او الجمود العقلي .

والنظرية الحديثة في التاريخ تعلل الانتشار (expansion) بيقظة القوميات ؛ وبهذا فسروا توسع اليونان والرومان والعرب . وهو في نظري تعليل سطحي مغرق في السطحية ، وإن كنت لا أنكر بأن يقظة القوميات باعث من بواعث التنافر الاجتماعي ، ولكنه لا يبلغ بالتنافر حد الغاية الذي يشكل الاجتياح ؛ إن سر الاجتياح مستكن في هذا التفاعل او الاتحاد العقلي بين فكرتين .

ومنها — **سيطرة العلم والاكتشافات** [1] **في جيل ما** — فسيطرته مثلاً على الاجتماع والصناعة والحرب يجعل التطور سريعاً سرعة هائلة .

ومنها — **التغييرات الجغرافية** — سواء كانت نتيجة لعوامل طبيعية او انشائية او تصادفية ، كالأسر النهري وقنال السويس والمسالك [2] الجديدة التي كشفتها فتوح جنكيز خان . فان الثاني غيّر علاقات الشرق بالغرب من الوجهتين السياسية والحربية ، ولا يزال باعثاً هاماً من بواعث التاريخ الحديث .

ومنها — **اهلية شعب اكثر من سواه للتغير** — ويعنون بهذا استعداد الشعب وقابليته لاحراز صفتين متضادتين هما الثبات والتغير في موازنة دقيقة . وبذلك

(١ و ٢) راجع كتاب علم التاريخ للاستاذ هرنشو ص ٥٠ .

يخضع نفسه لقوانين ثابتة ويحصل تدريجاً على صفات جديدة ، اذ تكون حركته اشبه بالموجة التي تحدثها الحصاة في الماء ، فهي تفضي إلى حركات متعاقبة اوسع منها ولكن في غير خروج على النقطة الاولى المركزية .

وسيظهر لك فيما بعد ان الطبيعة العربية تميل إلى المحافظة او الثبات ، فهي غير مرنة في خصائصها الادبية . وهذا ما جعلها تتفاعل بخصائصها الثابتة مع خصائص الامم الاخرى تفاعل تناحر وليس تفاعل اتحاد . وهذا ايضاً يفسر لنا السبب في تأثر اليهود بالطباع العربية وخصائص العرب الادبية ، حين حلوا عليهم قبل الاسلام ، دون ان يؤثروا فيهم الا بمقدار ، كما يفسر سر ابتلاع العرب لخصائص اي قبيل نزلوا عليه بعد الاسلام وفرض خصائصهم وحدها ، ولذلك اعتقد بان العرب لو هضموا تعاليم الاسلام ، قبل محاولة التوسع ، لبدل جمودهم بمرونة غير قليلة ؛ فما لاحظه ابن خلدون على العرب في مذاهب الحكم والدولة آت من هذا الجانب . والذي ينقض أن يكون هذا طبيعة فيهم تتصل بالعنصرية ، استعدادُ العرب اليوم للانطباع بشتى الاشكال ومرونتهم الظاهرة . وشاهد آخر وقع في تاريخ العرب يوضح ما تقرر . فقد شهدنا حكومة قريش المرنة في عهد الدولة الاموية بحكم رقيها القديم . وشهدنا حكومة القبائل في الاندلس التي قدمت ملوك الطوائف ؛ فان الاولى استطاعت ان تقدم لنا نموذجاً صالحاً من وجهة علم السياسة لكلمة دولة ، بينما الشكل الذي قدمته الاخرى اقرب إلى اللون الاقطاعي . وفي نظري ان الثورة في عهد عثمان شكل من اشكال التناحر بين الخصائص العربية الثابتة والخصائص الاخرى المرنة . وقد انتهت بغلبة الثانية غلبة غير حاسمة .

وهذه الدواعي ، لكل منها تأثير في تصحيح حساب النسبة وتعديل الميزان التاريخي على الوجه المقصود ، والميزان التاريخي بحكم مقدماته الثابتة وهي :

(١) خضوع [١] الارتقاء العام للتطور العضوي والغريزي .

---

(١) راجع برهان هاملتون على الحوادث الارادية التي لا نشعر بها المقتبس من افكار ليبنيز .

(٢) احتفاظ التطور مطلقاً بنسبة ضرورة امتناع الطفرة .

(٣) مشابهة حياة الكائن الاجتماعي لحياة الفرد على ما اثبته العلامة هربرت سبنسر ، وهذا يظهر شدة اتصال ما بين الفرد والجماعة ، وخضوعهما لقوانين واحدة .

نجد انفسنا مطمئنين اليه نظرياً ، واما هو من الوجهة العملية فيحتاج إلى تَقَصٍّ واستقراء وفرض للنسب العددية على شكل رياضي صحيح في كل الشعب العضوية وما يتصل بها .

والشيء الذي لا ارى البحث، في اضيق حدوده، يتم بدونه هو بحث مفهومي كلمتيّ فوضى [١] وثورة واثرهما في التاريخ . وهما عندي : الارتياب في المثل الاعلى في شكل ما يكون عملاً عنيفاً ، والفرق بينهما ان الثورة تتجه وراء هدف معين وفكرة خاصة بينما الفوضى لا تتمثل فكرة معينة أيْ ارتيابٌ فقط .

وكلما كانت الامة اكثر ارتياباً في المثل كانت أحْيى واغزر انتاجاً . وهذا تفسير ندخل به على كل شعب المعرفة ايضاً ، فنظرية كوبرنيك في النظام الشمسي ارتياب في المثل الفلكي ، ونظرية ديكارت ارتياب في المثل المنهجي ، ونظرية سبينوزا ارتياب في المثل الإلهي ، ونظرية الرومانتيك ارتياب في المثـل الكلاسيكي ، وكذلك نظريات داروين وكانت وماركس ؛ وهذه ثورات علمية وادبية لأنها تداور فكرة بعينها ؛ وإن افكار ابي العلاء ارتياب في المُثُل الدينية والاوضاع ، وافكار نيتشه ارتياب في النظام العام ، ونظرية اللاأدرية ارتياب في عناصر الفكر المنطقي ، وهذه فوضى في الفكر لأنها لا تتمثل هدفاً معيناً . .

ومن وجه آخر الثورة حركة النهضة العنيفة ، فهي لعنفها من ناحية ولأنها تفاعل تصاعدي إلى الاعلى من ناحية اخرى تحدث اصداء مختلطة نعبرّ عنها

---

(١) وكثيراً ما تتداخلان فان الثورة الفرنسية ثورة وفوضى لان الوضع الذي استقرت عليه لم يكن هدفا لها منذ البدأ بل اسلمت نفسها إلى الظروف التي لعبت بها زمناً غير قليل ثم اقرتها على وضع تهيأ بنفسه تقريباً ؛ وكذلك الثورة على عثمان كانت ثورة وفوضى .

من الجهة الوصفية بالفوضى ، والا فهذه الحركة في صميمها هجرة من ادنى إلى اعلى . فالثورة الاجتماعية هجرة إلى وضع اسمى واكثر تباتاً وصلاحية في الاجتماع ، وهي كلمة لا تعطي معنى تحقيقياً وانما تعبر عن حالة وصفية خالصة تلابس الظواهر المتعاكسة للنهضة، وتحمل صورة من ظلالها والوانها المختلطة اختلاطاً تذاؤبياً (١) . وهذا يُظهر بوضوح خطأ الظن السائد بان الثورة نتيجة فساد النظم فقط، والواقع انها نتيجة سمو الكائن عن نظمه في دائرة الفكر والحياة العامة، فهو لذلك يطلب مجتمعاً يتناسب مع عرفه الراهن .

نجد، بعد هذا التفسير الذي قدمنا به ، ان الثورة رجة عنيفة تمس الافئدة والعقول، فتبعث فيها تيارات جديدة تختلف قوة وضعفاً ، ولا تخلو ملابساتها عن تغيير في ارتكاز الآفاق العامة للاوضاع او تعديل في السنن المفروضة . ولا شك في ان عملية البَعث التي تَسْتَنُّها الثورة ، ثم ماتوالي به من شتى الالوان والتشكلات تُعِدُّ (٢) الانسان في خاصياته النفسية وفي حالات اجتماعه لشيء جديد .

وعليه فالفوضى — وكذلك الثورة — ليست مظهراً تشاؤمياً ، بل هي قوة، في حقل التاريخ ، وحياة والحاح في طلب اكمل الاوضاع .

هذا تفسير للفوضى والثورة ، وإن يكن غريباً إلا أنه حقيقي ، قصدتُ به أن أُصحح ما قد يقع به المؤرخون من تسارع إلى الحكم بالانحراف على أية بيئة علقت فيها الفوضى . وسترى ان الثورة الفوضوية التي وقعت في عهد عثمان وتواصل مَدُّها الى عهد معاوية ، كانت لخير الحكومة العربية حين بنتها بناء اقوى في الادارة والسياسة، وأوجدت معارضة متطرِّفة فعّالة انتظمت في الخوارج والشيعة ، ومعارضة معتدلة انتظمت في رجال الاصلاح امثال سعيد بن جبير وابن ابي ليلى .

---

(١) من قول العرب : تذاءبت الريح ، اذا هبت من كل جانب .

(٢) والامثلة على هذا كثيرة لا نتعرض لذكر شيء منها وانما نحيل القارىء إلى كتاب (مقدمة الحضارات الاولى) لغوستاف لوبون ص ١١٧ و ١١٨ و ١١٩ و ١٢٠ .

والتاريخ في غير توسعة آخذ بتحقيق الصفة العلمية له وعما قريب ايضاً ، وان كان لا يزال في الاعتبار المدرسي فرعاً من الآداب .

والآن نلخص المراحل الهامة التي يجب ان يقطعها المؤرخ حتى يستقيم له تقديم دراسة معتبرة اعتباراً ما . ومراحل [1] البحث التاريخي الكامل اربع :

الاولى مرحلة التجميع : وهي تعني جمع اكثر ما يمكن من الوثائق والمصادر الاخرى، كشكل العُدَد والحصون وطريقة قطْع الاحجار في البناء والصور والنقوش ؛ ولم تزل الوثائق هي المصدر الهام للمؤرخ حتى قال شارل سنيوبوس (لا تاريخ بغير وثائق) .

الثانية مرحلة النقد : وهي تعني فحص عبارات الوثائق وتدقيق الاصول الاخرى ومناقشة استعمال الالفاظ من حيث دلالتها الزمنية التي هي دائبة التغير ؛ فالكلمة الواحدة تستعمل في جيل بمعنى يخالف معناها في الجيل الآخر ، وهذا يحتاج إلى معاناة كبرى وجهد متشعب الاطراف . ودائماً تكون اقدم الوثائق اجدر بالاعتماد ، وهي تبعث على الشك في الزيادات التي تحتفظ بها الوثائق المتأخرة ولكن لا تنفيها ، لاحتمال ان يكون كاتب الوثيقة المتأخرة قد وقف على وثيقة تعاصر الاولى وقد انعدمت . ومن هذا يظهر كبر الخطأ الذي يقع فيه بعض [2] المؤرخين ، باعتمادها اعتماداً كلياً ونفي الزيادات نفياً باتاً ، متذرعاً بأوهن الوسائل الاخرى .

ويدخل في نقد الوثائق تصنيف الكتب من حيث اعتمادها وردها ، كالذي حاوله ابن خلدون في المقدمة حين ارسل تعميمات في كتب المسعودي والواقدي ومن اليهما ، ولكنه لم يوف التصنيف حقه ؛ ونرى ضرورة هذا التصنيف من

---

(١) راجع كتاب علم التاريخ للاستاذ هرنشو في الترجمة العربية ص ١٧ إلى ١٢٠

(٢) مثل المؤرخ المصري الاستاذ عبد الحميد العبادي حين اثار الشك حول لقب السفاح ، وفي مناقشته الرواية القائلة باباحة يزيد المدينة . قال في بعض محاضراته (هذا ما قيل في بعض المصادر ولكن الروايات القديمة جداً لا تذكر هذه الاباحات) ومن ثم راح ينكرها او يميل إلى الانكار .

حيث يجرنا الاعتماد على كل ما فيها إلى مغالط كبيرة، كما ان بعض التعميمات، من جانب ابن خلدون، جاءت في غير محلها، كاطلاق الطعن في تقول المسعودي لأنه اشتم منه رائحة الميل إلى الهاشميين ؛ وهو الذي يجد فيه المستشرقون مؤرخاً فذاً اجتمعت فيه كل صفات المؤرخ الحق ومزاياه .

وشيء آخر يدخل في نقد الوثائق وهو محاولة التوفيق بين نصوصها ما امكن، قبل اللجوء إلى الموازنة بينها موازنة تنتهي بطرح بعض واعتماد بعض .

الثالثة مرحلة التأويل : وهي اشق المراحل لأنها تقتضي تطبيقاً واسعاً للميزان التاريخي ، ونفوذاً في خفايا الماضي البعيد ، وهي لا تستقيم الا للعبقريين من اعلام التاريخ .

الرابعة مرحلة صياغة القصة التاريخية : وهي ذات اهمية كبرى لانها الوسيلة إلى ابراز قضية التاريخ ابرازاً قوياً ، يُخَيَّل الينا معه انه تقرير للواقع في شيء من المشاهدة والقرب .

* * *

هذه لمحة قصيرة اردنا بها تقييد فكرة ونفي وَهْم ؛ وهي مع ذلك تتصل اتصالاً وثيقاً بموضوع هذا الكتاب الذي يعرض لدرس تاريخ الحسين(ع) بما اشتمل عليه من علل واسباب ، وبما احتفل به من مؤثرات وبواعث . واذا كان حرياً بالمؤرخ أن يعرض نتائجه ، فبالأحرى ان يعرض الطريقة الخاصة التي تأتي بها إلى اصطناع هذه النتائج .

وهذا الكتاب ليس ترجمة حياة ، بل هو تاريخ حياة ، والغالب في الاولى ان تكون شخصية اي مقصورة على الشخص وما يتصل به من قرب ، وقلما تجاوز خطوط حياته الا بمقدار ، بينما الثانية تتسع لكل ما تتسع له كلمة « التاريخ » .

وستجد في هذا الكتاب ايضاً نوعاً من الاسهاب في المقدمات التي توخيناها ، لانها في نظرنا بسائط للكل التاريخي يجب تدقيقها وبحثها بأناة .

وشيء آخر يحملنا على بحث شتى العوامل التي مست عصر الخلفاء الراشدين واثرت فيه ، وهو ان عصر الخلفاء يقع في جزء من حياة الحسين التي كانت صلة بين ثلاثة عهود: عهد النبي (ص)، وعهد الخلفاء، وعهد الدولة الاموية . وكانت ميزة الاول أنه عهد التشريع وسن اللوائح ، وميزة الثاني انه عهد الاجراء والتطبيق ، وميزة الثالث انه عهد الابتعاد بالاشكال الاجرائية ابتعاداً جاء في بعض الاحيان كلياً وكثيراً ما مس جوهر التشريع .

فتاريخ الحسين من هذه الناحية ، يضطرنا إلى كثير من التجاوز في كثير من الاسهاب . وبذلك ايضاً كان الحسين (ع) اخلق شخصية لدرس ذلك الجيل ، من حيث انه وحدة [1] تاريخية كاملة له ، فقد كانت حياته حافلة بقضايا التاريخ ، وكانت حياته بعد الموت عاملاً من عوامل التاريخ الاسلامي العام . وهؤلاء الاشخاص الذين هم وحدات تاريخية، في مثل التعاريف، كل ما يقع بعدها شرح وتفسير ، اجدر ما يكونون بالدرس لان جيلهم، بما فيه، شرح لمذاهب حياتهم الغامضة .

وانا بعد ذلك ماض في تقرير نتائجي بدون ما نظر إلى كبير مخالفتها للعر ف التاريخي الشائع ، فرب غير معروف صار لا يعرف سواه .

وعلى ان فئة من الناس قد تعرض عن هذه النتائج اعراضاً كبيراً او قليلاً ، وتتنكّر لهـــا تنكراً ربما كان وبيلاً ، فاني احسن الظن بهم وامضي على طيّتي التي أراني اخدم بها قضية تاريخنا الاسلامي . فان من البر بهذا التاريخ في حقل الدرس ان لا ننتصر كبير انتصار لرغائبنا الخالصة منه ، وانما علينا ان نتجرد إلى اظهاره بما يتناسب مع الخطة الموضوعية التي هي وحدها الرغبة الحقيقية للدارسين .

وماذا يفيد، لو اننا تناولنا تاريخنا تناولاً ذاتياً محضاً، سوى الاتهام واساءة الظن

---

(١) يرى بعض المؤرخين اختيار الرجالات الذين كانوا يعبرون عن اجيالهم تعبيراً وافياً بما مر بهم من اطواره بجعلهم وحدات تاريخية يكتفي بدرسها عن درس الاجيال نفسها .

في اننا نؤرخ ما وقع إلى ما نشتهي ان يكون واقعاً . وهذه مغالطة مزدوجة، على التاريخ مرة ، وعلى انفسنا مرة اخرى . فقد انتصرنا منذ زمن مضى ضد نظرية (الطوتم) والامومة عند العرب ، وكان ما كان من ثورة قلمية كبيرة ، ولكنها لم تعبر عن شيء ، ولم تدخل اي تغيير في وجهة نظر التاريخ العلمي ، ولا يزال العلماء ينظرون إلى تاريخ العرب بالنظر الطوتمي الذي ثبت عندهم كمرحلة لا بد من قطعها في سبيل النظام الأُسري القائم على الأبوّة، فاستثناء العرب مناقضة لاولية اجتماعية ليس ميزة ان لا نقطعها كأننا أنفياء اجتماعيون وشواذ بشريون ، وانما الميزة ان نخضع ككل صنوف الكائن الحي لنواميس الارتقاء العامة .

هذا مثل أردت به أن أبين أن الثورة التي تأخذنا في مدافعة نظرية نَتَشَهّى غيرها ، لا تقلل من قيمتها ، بل هي ماضية في سبيلها لتأخذ مكانها اللائق حتى من ادمعه الثائرين . وهذا هو سحر العلم او سحر الحقيقة الذي عبر عنه القرآن بقوله :

« إنَّ الباطِلَ كانَ زَهُوقاً »

واي لفظ ابلغ في افادة هذا المعنى من لفظ القرآن « زهوق » [1] الذي هو صورة كثيرة الدقة كثيرة الاتقان ، حين رسمت لنا ان من طبيعة الباطل لفظَ انفاسه في تدارك وبَهَر ، وان من تمام وجوده ان لا يتنفس بكل رئتيه ، مِثْل السِّقْط الذي مرت به الحياة من بعيد فحركته بما تدفعه عنها ، لا بما ثبت فيه منها . فهو مولود كامل التكوين فيما يُشَكِّل ظاهره ، غير انه تزوير على الطبيعة يغري الحياة به ولكنه لا يخدعها . وليس يوجد لفظ وراء لفظ القرآن اوفى بكل هذا المعنى في ايجاز واقتضاب .

---

(١) وهذا آت من التعبير (بزهق) الثلاثي و (زهوق) فان ازهق الرباعي يفيد ان الاهلاك بفعل فاعل ، والثلاثي اللازم يفيد ان الهلاك طبيعة فيه او من طبيعته ؛ وهذا سر العدول .

ومن الخير ان نصطنع هذا النهج ، لان تاريخ الخلفاء او تاريخ المسلمين في هذه الفترة غامض اشد الغموض . فقد كان هدوءاً ثم عاصفة تتلو ، ولا بد لهذا الهدوء وهذه العاصفة من فواعل ، ولا بد في درس تاريخنا من تشخيصها وعرضها عرضاً مبيناً ، لما كان لهذا العهد من تأثير في تسلسل التاريخ الاسلامي العام الذي اندفع به ، وتلون بالالوان التي مزجها له ثم طبعه بها .

وفي ظني ان اول من تنبه إلى وجود العلاقة بين الافكار الدينية القديمة وبين النزعات المختلفة بعد ذلك ، والى وجود العلاقة بين حركة النفاق في عهدالنبي(ص) وبين حركات الاضطراب في عهد الخلفاء الراشدين ، ثم رمى إلى استيضاح كل هذا ، الفيلسوف الاسلامي الكبير عبد الكريم الشهرستاني في كتابه الملل والنحل ، وقد صاغ فكرته في كثير من الاطمئنان والتثبت العلمي . وتحقيق مثل هذه العلاقات وكل ما يتصل بذلك المجتمع من شؤون الادارة والنظام هو الذيانصرفنا اليه ، ليجيء عملنا احصاء وتعليلاً في مأتاة التاريخ ، وبذلك نكون قد اعطينا دراسة إن لم تكن صادقة في تفصيلها وأعراضها ، فلا تبعد عن الصدق في اجمالها وجوهرها .

ولا تمنعني غرابة رأي اظن انه صحيح او اعتقد صحته من ابدائه ، لان الشهرة لم تعد ابداً عنوان الحقيقة . وايضاً لا يحول بيني وبين رأي انه قليل الانصار ، لان الحق لم يعد ينال بالتصويت ، فان الانتخاب من عمل الطبيعة وهي لا تغالط نفسها كما لا تعمد إلى التزوير .

واطرف شيء اذكره عن ذلك الطراز من النقد الذي يقوم على الاستنكار دون التروي ، ما اجابني به احد اصدقائي الباحثين وكان نشر كتاباً يدرس (عمر الخيام) قال في تصديره « اقدمه إلى القراء بيد راجفة » ، فقلت له يا هذا تحقق من موضوعك ثم قدمه بيد مطمئنة ، فعطف عليَّ ضاحكاً وهو يقول « لقد فتصلتُ منه وانا اشد ما اكون ثقة بنتائجه ، ولكن ما تصنع بمن يكاد ينقد او ينقد

بالفعل قبل ان يَقرأ » ، هذه كلمة عابثة إلا انها مريرة حين يكون فيها نصيب من الواقع غير قليل .

وأنا بعد ذلك ادين برأي طائفة من الفلاسفة كانت تحرم على المرء ان يقول ما لا يعتقد ، لانه في نظرهم يخادع نفسه ويخدع قارئه،وهو في الحالتين مُضِلٌ او غوي ، ويسرني ان لا اكون احدهما بَلْهَ ان اكونهما ...

مُقدّمات

القبليّة

أسباب ونتائج : ثبت العرب على شكل بدائي من اشكال الاجتماع وهو ما يُعبّر عنه بالقَبَلِيّة ، بحكم البيئة الجغرافية التي فرضتها الطبيعة في جزيرتهم . وكانت هذه القبلية واجبة من حيث انها اقصى ما يمكن ان تسمح به طبيعة الارض التي يعيشون فوقها ، فهي لا تمدهم باكثر مما يتّسق مع هذا النظام .

ونجد عند الأخذ في هذا البحث مسألتين لا بد من فهمهما قبل كل شيء ، وهما القبلية ، وثبوتها كشكل نظامي كافل للمجتمع الخاص .

اما أولاهما ، فانها ظاهرة تطورية لا بد لكل شعب ان يمر بها في اثناء رحلته الاجتماعية الشاقة ، ولكنّه لا يلبث حتى يزايلها بما يمده الاقليم من اسباب النماء ، وبما يجمع له من عوامل النُّضج شيئاً بعد شيء . فالانتخاب وبقاء الاصلح في الاجتماع يتبعان المكان بأكثر مما يتبعان طبيعة البناء والدم او العنصرية [1] .

---

(١) هذه الكلمة يضعونها في مقابل كلمة (Racisme) وهي تعبر عن فكرة قديمة جداً الا انها عولجت في الماضي على شكل وصفي خالص ولم تظهر الرغبة في معالجتها من ناحية تعليلية الا في العهد الجديد حين تقدمت بحوث علم الاحياء والتشريح والاجتماع والاثار . واهم من حمل لواء هذه الفكرة وتعصب لها في المانيا الموسيقار الشهير (فاجنر) وفي فرنسا (جوبينو) وهذا يعتبر من واضعي اسس النظرية ؛ ومؤلفه الهامة في تفاوت السلالات البشرية من اشهر ما الف فيها ، وفي انجلترا (هستون =

على ان المفروض في العنصرية انها تنتقل من حالة التجانس إلى التنافر او عدم التكافؤ بفعل الموضع وحده ، ثم تثبت الفروق العرقيّة كطبيعة بتعاقب التاريخ وتَلَبُّد الصفات، فتبدو المفارقة حينئذ بصورتها المركبة كأنها ذاتية . فنحن هنا لا ننكر ما للعنصرية من خاصية في حالات الاجتماع العليا ، وانما نميل بها إلى التحديد حتّى لا تصطنع لدى تحليل الخاصيات الادبية والعقلية في ابسط ما تكون بساطة .

واما ثانيتهما ، وهي ثبوت القبلية في محيط العرب على انها شكل اجتماعي

— ستوارت تشمبران) . وهذه الفكرة ترمي إلى تقرير ان البشر يتفاوتون في المدارك والعقول والقابليات الاجتماعية والادبية تفاوتاً ذاتياً بين السمو والاسفاف تبعاً للعروق والسلالات وتبع هذا التصنيف القول بوجوب تحكم الاعلى بالادنى وهم يختلفون اختلافاً كبيراً في تحديد هذه العروق بالنظر إلى الاصالة والفرعية وكان اكثر هؤلاء مبالغة في تأييد النظرية وتقريرها على شكلية علمية استاذ فرنسي يدعى (فاشية دو لابورج) فقد ألف كتاباً دعاه (الانتخابات الاجتماعية) وقسم البشر إلى سلالات جعل على رأسها السلالة الاوروبية، وانتهى بعد ذلك إلى ان لكل من هذه السلالات خاصيات ذاتية متأصلة وان على العروق مدار كل تطور وارتقاء سواء في الفضائل الجسمية أو النفسية . وكان من نتائج هذه النظرية الوبيلة انتحال مذاهب اجتماعية غاية في التعصب كالنازية في المانيا وجمعية (كو كلكس كلان) في امريكا ، ومحاولة تقرير مبدأ في علم النفس الجنائي يقضي بان مجرد اتهام فرد من السلالة الدنيا كاف في ادانته وتقرير مبدأ عدم التساوي في الحقوق المدنية .

والحق ان هذه النظرية على الشكل المذكور خطأ بالغ لان دعوى الذاتية في الخصائص هدم لقانون التجانس الذي يقضي به علم الاحياء وهدم لقانون التطور ، كما انها لا تصلح ان تكون مقدمة تحليلية الا في فهم التنافر بين الاشكال الادبية العليا عند الشعوب ، واما الاشكال البسيطة فان تنافرها يرجع إلى البيئة الجغرافية وحدها التي هي اساس كل تغاير . فاذا درسنا خاصية حب النظام عند الرجل من السلالة الاوروبية ورقة هذا الحب عند العربي نجدهما يرجعان إلى تأثير الموضع من اقرب طريق . فالعربي الذي دأبه انتجاع المرعى المتباعد الشقة لن يجد في الطبيعة ما يهيؤه ليكون نظامياً ، ولكننا اذا درسنا حب النظام عند الرجل الاوروبي وعند الرجل الالبيني كما يسميه (لابورج) نجد التفاوت نتيجة للعنصرية التي زاد في رقيها مد التاريخ .

ومما يدل على فساد نظرية العنصرية، بالنظر إلى خصائصها الذاتية، قابلية العناصر المفروض فيها الامتياز للانتكاس ، وقابلية العناصر الدنيا لنوع من السمو تدريجاً بفاعلية التاريخ . وحكم ابن خلدون على العرب جاء من استناده إلى هذه النظرية وان لم تكن اخذت بعد شكليتها الحديثة .

كامل الارتقاء ، فانها ترجع إلى تأثير[1] البيئة الطبيعية التي تعهدت العرب بالانماء والتطوير . وبذلك كانوا ابعد الامم عهداً بهذا النظام وتراوحاً عليه ، وكانوا إلى ذلك اكثر الناس شعوراً بآثاره من حيث ان مجتمعهم استوى في حدوده ، ثم لم يجاوز قواعده الا بمقدار لا نسمح لانفسنا ان ننعته بشيء وراء الاندماج القبلي الجزئي .

فالذي نرغب في تعليله الآن ، ليس هو تَمَذْهُب العرب في ماضيهم بالمذهب القبلي ، لانه سنة تكاد تكون طبيعية او هي طبيعية بالفعل . ولكنما هو استقرار هذا النظام لديهم بحيث كان ظاهرة لازمة،لها ابلغ مساس بتصريف حياة العرب وتلوينها ، وهذا ما نعلله بالبيئة الجغرافية .

والذي نعرفه من تكوين تلك البيئة ، انها مجموعة من السهوب والصحارى ، ينحسر البصر دون ان يتناهى في انتظام ارجائها ، تكسوها طبقة رابية من الرمال الملتهبة التي تُنَدّيها الشمس بلعابها الحرور ، وتتخللها جبال كثيرة وأوداء كثيرة مختلفة الخصوبة تتناثر بين هنا وهناك .

فطبيعة كهذه لم تكن لتسمح للعرب بالزراعة — وهي مقدمة القومية — الا في حد محدود وفي بعض الانحاء ، ولم تكن تساعدهم الا على ان يكونوا قبائل رُحّلاً ينتقلون حيث الماء والكلاء . وعندي ان العمل في الارض بالزراعة[2] باعث لكل شعور بالوطن اذ يورث الانسان عشقاً مبهماً للارض التي تهبه كل ما يحتاج اليه من مقومات الحياة ، وتدعوه للاندماج القومي الصحيح .

---

(١) تأثير البيئة على هذا النسق مبرهن عليه في كل انواع الكائن ، فانا نرى في فصائل النبات والحيوان كيف تزودها فواعل الجو والبيئة بخصائص كان يظنها القدماء ذاتية محضاً كشجر الصنوبر مثلا فقد اكتسب قوة الالياف من صموده الطويل امام الزوابع . وابلغ من هذا في معرض المثل الحيوانات من الفصيلة الواحدة،فانها تختلف اختلافاً كبيراً في الاشكال الجسدية والاعمال العضوية بحسب البيئة فهي بين افريقيا واسيا واوروبا تتمايز إلى حد بعيد واضح .

(٢) واضح ان الاستقرار وعشق الموطن والشعور الشديد بوجوده نتيجة لازمة للحياة الزراعية ؛ وارى ان تعلق اليهود بالتجارة وحدها كضمان لمقومات الحيوية زاد في تفسخهم وصيرهم شعوبيين وستجد ظاهرة هذا في قريش ،فان التجارة لم تنتف بهم عن علائق القبيلة .

فنحن مهما بالغنا في تفتيش شعر العرب فلن نقع على شيء من الحنين (١) إلى الارض كالذي نجده عند الفلاح الروسي مثلاً . ولن نقع بين دموعه المنظومة على دمعة واحدة ارسلها في وداع الحقل ، بينما نجد شيئاً كثيراً من هذا الحنين وهذه الدموع يبثها ابله وخباءه لانهما كانا اكبر مقومات الحياة لديه .

فلم يكن العربي فلاحاً لان بيئته لم تهيء له ما به يكون كذلك ، وان اتباعه القطرة من المطر حيث تحل جعلته مُنْتَجعاً رحّالاً واورثته الاضطراب في كل سهل وحَزْن ، ودعته للاندماج ولكنْ في حدود القبيلة التي يتصور فيها ان ترحل جميعاً وتحل جميعاً .

وهذا التكوين الطبيعي لسطح الجزيرة يرينا كيف استطاع العربان ينتقلوا من الاشكال البدائية الاولى ويقفوا عند النظام القبلي الذي هو اسمى ما تمنحه بيئة على هذه الشاكلة . ثم توالت الحياة بالعرب وهم على سنة هذا النظام فثبت في نوع من الارتكاز . وان اضطرار العربي تحت عامل الطبيعة ان يتّبع مساقط الغيث ومراعي الكلأ من حين لآخر ، لم يهيئة ابداً للتحول عن شكل نظامه الاجتماعي . وساعد عليه ايضاً قيام حياتهم على الانتقاص والغزو من حيث انه ارّث القبلية وجعل منها عصبية حقوداً فكانت بينهم تراث وثارات لا تفتأ تهيج بهم على الدوام .

ويظهر لنا من هذا ان العرب ظلوا على النظام القبلي بحكم البيئة ، وان

---

(١) لا يؤخذ علينا بما يوجد في الشعر العربي من الحنين إلى الاوطان حتى الف الجاحظ رسالة بهذا الاسم جمع فيها طائفة من الاقاصيص وطائفة من الشعر ، لانها دمعة اجراها ذكر الصبا وعهود الانس . واما الحنين الذي نعنيه فهو تلك العاطفة التي تثيرها الارض باعتبارها شيئاً عزيزاً يتصل باسباب الحياة حتى ليفضل المرء فراق الحياة على فراقها . على ان الشعر العربي يعرفنا ان العربي علق الرياح باكثر مما علق الارض لانها كانت تحمل اليه شيئاً من الطراوة والخفة والنشوة بنسبة لا يجدها في الارض ، وانا نكلف الجاهلي شططاً اذا طالبناه بشعر العاطفة السامية وشعر الروح ، وبيئته تسد عليه المنافذ إلى العاطفة والروح ، ان العربي عبر باصدق لهجة عما وجد وشاهد . واني الفت نظر نقاد الادب إلى ان كل شعر الجاهلية يذهب مذهب السمو الروحي او بتعميم اصح كل شعر ينسب للجاهلي ولا تساعد عليه البيئة فهو منحول . والا فنحن نتهم معارفنا ونؤمن بالمفارقات .

التحول عنه لا يتم الا باستعداد الموضع للزراعة ، وان اساس كل قومية ثابتة يستند استناداً كبيراً أو كلياً إلى صلاحية الارض لتكون زراعية . وقد نجد البرهان على هذه الدعاوى في تحول عرب اليمن واطراف الجزيرة إلى فلاحين ، فقد عكفوا جيداً على الارض التي نعتوها بالسعيدة ، واختصُّوها بنـــوع من الحب والتعلق والأمل ، حتى ظهرت اشكال من امانيهم الزراعية في ديانتهم ، فألّهوا النخيل [1] في بعض انحاء اليمن ، كما ألّه العرب الآخرون في المناطق الجرداء الآبار [2] ، ويذهب ظننا إلى ان (زمزم) كان معبوداً عند عرب الوادي ، ومن ذلك اكتسب اسمه الخاص الذي يعطي في السامية معنى الارتعاد والكهانة . وهؤلاء الذين وقعوا في بيئاتهم على ما يكفل حاجتهم في شيء من الاستقرار ، اتجهوا بابصارهم نحو القومية او فكرة الامة وتَلَبّسُوا بما لا ينكر من اشكالها . فالاستقرار لا يقوم إلا على الزراعة ، والقومية لا تقوم الا على هذا النوع من الاستقرار ، فحيث كان العرب زراعاً كانوا اقرب إلى القومية واكثر استعداداً للتكَتُّل ؛ ولذلك عمد النبي (ص) لنقل العرب من رعاة رُحّل إلى زراع ، وهي خطوة هامة في التحضير والقضاء على القبلية قضاء حاسماً ، فقد قال « خير المال سكّةٌ مأبُورة وشاة مَوْمُورة » .

ويُصدِقُ وجهة نظرنا سرعة تحـــول [3] اليهود الذين شاركوا العرب جزيرتهم ، رغم انهم حاملو تراث داود وسليمان ، إلى قبيلين فيهم من عصبيتهم وحماستهم ، وفيهم من كل ما يتصف به القبلي الخالص. ولا يخالجنا شك في ان

---

(١) راجع كتاب تاريخ سوريا المطران الدبس ج١ .

(٢) عرف هذا النوع من التأليه في طوائف صحراوية عديدة ، ولكن الشيء الوحيد هو دعوى عبادة (زمزم) فليس بين ايدينا نصوص تشايع هذا الظن وتدل على انه كان معبوداً او الاهاً وانما جل اعتمادنا فيه على تحليل الاسم ووجود قبيلة كانت تنتسب اليه او تحمل اسمه في بعض نواحي مدين (راجع تاريخ لبنان للآباء اليسوعيين) وهو ظن قريب من حيث ان عبادة الآبار مألوفة ومن حيث انه يفسر حقيقة التقليد المروي في الآثار من انه تفجر بغمزة جبريل للارض .

(٣) عرض إلى تعليل تحول اليهود إلى هذه الشاكلة الدكتور ولفنستون في كتابه (تاريخ اليهود في بلاد العرب) ولكنه لم يقع على شيء يطمأن اليه .

البيئة امتصت من افكارهم ما لا يتسق مع وضعها ، وما انفكت تنفث فيهم حتى تفسّخوا وارتدوا إلى القبلية الدنيا .

وهناك سبب خارجي ايضاً ساعد على رسوخ القبلية فيهم ، وهو كون العرب غير مهددين بعدو اجنبي يدعوهم إلى التكتّل القومي ، فان الامم المهددة من الخارج تقاوم بفضل الامتزاج والتعاون الذي يجعل من المجموع رجلاً واحداً . ونحن اذا علمنا بان العرب كانوا مهددين بعداوة بعضهم انكشف لنا السر في تكتلهم تكتُّلاً قبلياً . وقد ظهرتْ في أواخرِ جاهلية العرب تجربة من جانب الفرس دعتهم إلى نوع من التعاون في غير حدود الحلف والقبيلة ، فهبوا يوم ذي قار لدفع عادية الفرس في تضامن جزئي ، الا انه من حيث الشعور كان تضامناً حقيقياً ، حتى لنجد أثر هذا الشعور على لسان النبي (ص) ، فقد اغتبط لانتصارهم وبارك كفاحهم وافتخر به . وهذا شيء يرينا مدى تأثير الخطر الاجنبي في بعث القوميات وانه كبير .

وكان لهذا التركيز الطبيعي آثار بالغة في مذاهب ميول العرب النفسية ، فقد صبها صباً فولاذياً،واضاف إلى طبيعتهم عنصر الجمود والثبات ، وافقدهم قابلية التحول والتغير ، هذه القابلية التي هي مدار كل تطور وتكامل . وقد سبق لنا في بحث دواعي الاسراع أنْ عددنا في جملتها اهلية الشعوب للحصول على صفات جديدة ، وقلنا إنه لا بد لدوام الارتقاء من قدرة الشعب على تحقيق التوازن بين تحوله وثباته ، والا فهو مساق إلى التصلب الذي يفقده الحيوية والمرونة شيئاً بعد شيء .

فالمحافظة المُتَزَمّتة ، والانفصالية المتطرفة يُفْضِيان إلى نتائج واحدة ، هذا من جهة التصلب ، وهذا من جهة الانحلال . وكذلك كلما زادت نسبة الثبات في الشعب وقف ، وكلما اشتدت به الحركة فقد تماسكه وتبعثر .

فكان الجمود ظاهرة واضحة في قابليات العرب الاولين نتيجة لهذا التركيز القبلي الطويل،وقد انعكس اثره في بناء الدولة التي لم تقم على تطهير نفسيّ شامل، فأدى إلى زوالها في الجهات كافة من اندلسة إلى المغرب إلى الشرق.وهذا طبيعي ما

دام الائتلاف لم يقم على تهذيب اجتماعي صحيح، بل ضمنته القوة وحدها، وسرعان ما ظهرت فيه الفتوق بانحلال الرباط الوقتي . واي شعب يقوم على مثل هذا الائتلاف، بمجرد انحلاله لا يستطيع ان يستعيده مرة أخرى، لانه يفقد القابلية الشعبية للائتلاف .

وانا اعترف هنا بان التبعة الجسيمة تقع على عاتق الامويين الذين ألهبوا (١) حماسة القبيلة واستغلوها ؛ فقد كان هذا جزءاً من سياستهم، الا انه صدّع بعد ذلك بنيان دولتهم المطبوعة على غراره ، وصدع بناء الدولة عموماً .

ويجب ان يفرق جيداً بين القبلية في العهد الجاهلي ، والقبلية في عهد الامويين ؛ فان الثانية كانت تفاخراً وعصبية بالانساب والاصول ، بينما كانت الاولى قبلية تنظر إلى القبيلة بانها رمز المصالح التي اهمها البقاء ؛ هذا النظر لم يعد الحادي على العصبية في عهد بني امية، فقد اتسع افق نظرهم وشعروا بالدولة وانها معقد المصالح ومصدرها ، ولكن نفوسهم بقيت منحنية على ما فيها من ادران .

وهذه ملاحظات دقيقة جداً ومهمة جداً، من حيث انها تشرح لنا كثيراً من الخوافي، وتعلل طائفة من الظواهر المعقدة ، وتصحح اوهام نقدة التاريخ في استعدادات العرب الذاتية وقابلياتهم اللازمة ؛ فقد نستطيع على ضوئها ان نفهم لماذا كان العرب قبليين ؟ ولماذا ظلوا كذلك حتى بعد ان شكلوا لهم دولة مبسوطة

---

(١) في كتب الادب والتاريخ اقاصيص شتى واخبار كثيرة عن اهتمام بني امية بهذا النوع من المنافرة والمفاخرة، وعنايتهم باذكاء العصبيات الحطيمة وافساحهم المجال للمطارحات التي تدور على هذا اللون ؛ واخص منها خبراً ذكره صاحب الاغاني في ترجمة الفضل اللهبي ج ١٥ ص ٨، وخبر مجالس معاوية في كتاب المحاسن والاضداد لابن قتيبة . وللحصري في جمع الملح طرفة نادرة تعبر عن مبلغ هذه الحماسة ؛ قال لما بلغ التعصب القحطانية والعدنانية مبلغه انطلق رجل إلى بعض الانحاء فاستوقفته جماعة سألته عن نسبته اقحطاني ام عدناني ؟ فخاف الرجل اذا هو قال عدناني وكانت الجماعة قحطانية ان يقتلوه، والعكس؛ فتحيل للخروج من حرجه بانه من سفاح. وهي نادرة لا تحتاج إلى تعليق فانها تعبر بجلاء عن مبلغ استحكام التنافر القبلي في عهد بني امية .

الارجاء مختلطة المصالح ؟ وبالتالي نتمكن من ان نكشف عن مقدار الوهم الجاثم في نظرية ابن خلدون عن العرب ومشايعيه من مستشرقة الفرنجة .

ووفاء بحق البحث، وان يكن توسعاً وخروجاً، اتكلم عن اثر هام من آثار الصراع القبلي الطويل ، وهو الامتياز في الكفاح .

فان التنازع [1] على البقاء يستتبعه ابداً انتخاب الاصلح كما يقول التطوريون، وان دوام التنازع يزيد الكائن عزماً ورصانةً وصبراً وصدق نظر في الحياة ، إلى غير ذلك من عناصر النجاح . ونحن من محيط العرب القبلي امام تنازع لا يعرف الهدنة ، وغلاب لا ينتهي او ينتهيَ الاحياء المتنازعون . وهذا يُفضي بنا إلى نتيجة مهمة ، وهي ان المجتمع القبلي الذي يظهر فيه عمل قانون التنازع على صورة ابلغ تكون افراده احسن استعداداً للحياة، واجدر بالنجاح في حومة الاعتراك السياسي والاجتماعي ، من حيث ما يجتمع فيهم من عناصر الامتياز الطبيعي .

فمن اسباب تبريز العرب اذاً في الغلاب الذي اخذوا العالم القديم به ، وتوسعهم السريع فيه بالصورة القوية الهائلة ، أنهم الشعب المنتخب بفعل التنازع على البقاء الطويل ، وهؤلاء حينما أخذوا بالتهذيب الادبي الاسلامي وتوسعت آفاق نظرهم ، اضحوا رجالاً ممتازين من كل وجه ، وبذلك اعطوا النتيجة التي لا تزال محل دهشة المؤرخين ، ومن ثم نستنتج أن الشعب القبلي اكفأ دائماً في الكفاح والتوسع ، ولكنه يضعف [2] عن تعهُّد الحياة المدنية وتوجيهها إلاّ بعد ان

(١) راجع اثر التنازع على البقاء في تكوين الشعب الممتاز في كتاب (مقدمة الحضارات الاولى) لغوستاف لوبون ص ١١٣ . وهذه الملاحظة على العرب جديرة جداً بانعام النظر وتوفيره ،وقد فاتت كل نقدة التاريخ الذين عرضوا لبحث التوسع الاسلامي السريع ، وتدلنا على المحسنة الوحيدة التي استفادها العرب من رسوخ النظام القبلي في محيطهم .

(٢) وشاهد هذا في حكومة ابن سعود فانها بدون شك تشبه حكومة العرب الماضية ،فان القبائل تنتظمهم القوة وحدها بدون ما تعليم خاص يملأ فراغ نفوسهم بتربية دينية صحيحة او وطنية متماثلة ،والقوة لا تكون المزاج العقلي والروح الشعبية للامة ؛ وبذلك نقطع بان اي امتحان يصيب القوة التي تربط القبائل والجماعات فيها يفسخهم ويعود بهم إلى نظامهم القديم ،فهي نوع من الدولية القبلية. فاذا فرضنا ان دولة ابن سعود امتدت في بيئآت حضارية ،ثم لم تعد شأنها القبلي ،فليس لان العرب من طبيعتهم القبلية فلا يصلحون للملك والدولة وانما لانهم لم يعالجوا معالجة كافية لخلق الروح الشعبي والمزاج العقلي ؛ راجع كتابي (ابن سعود) للمستر وليمز وآر مستروئج .

يُدْخَل به في مراحل تهذيبية طويلة، فاذا أُهْمِلَ من هذه الناحية وتُرِكَ لطبيعته، فانه يرتد إلى القبلية في حدود اوسع ، ومن هنا أُتي العرب في نظري ، ومن ثم ظلوا قبليين ايضاً .

ونستخلص من هذا ان نظام القبيلة مرحلة اجتماعية ، وان العرب وجدوا في بيئتهم ما يساعدهم على الوصول اليها ، ثم تَخَلَّفَتْ بهم طبيعة الارض عن قطعها وبلوغ مرحلة القوميات . وان كل شعب مهما تكن عنصريته مَقْضيٌّ عليه بهذا النظام والعيش في ظله ما دام في حدود بيئة كالجزيرة ؛ والسلالة مهما كانت درجتها من السمو فانها، اذا لم تجد في البيئة ما يساعدها على عمل طبائعها الادبية والخلقية المكتسبة من تراكم الوراثات، تتقهقر وتُسِفُّ حتى تتسق مع المكَيِّفات الطبيعية الخاصة . وقد رأينا في موجات العرب القديمة ما يبرهن على هذا ، ورأينا كيف شكلت حضارات مَرْموقة في بابل واشور،وكيف اكسبت العرب صفات ادبية جديدة .

وان التركيز للصفات القبلية،وعدم العناية بمكافحتها على الطريقة التي استَنّها النبي (ص) ، غلب الدولة بآثاره في كل عهد .

والغريب، في نزعة الدرس الحديث لتاريخ العرب، مبالغة المؤرخين باظهار نظام القبلية بمظهر الدولة او المقاطعة وهو خطأ محض ، ولعل الحادي لهم على هذا التصنع رغبتهم في الظهور بمظهر المدافعين عن الاجتماع العربي القديم . وهم بذلك يسيئون اليه من حيث يظنون انهم يخدمونه، فان معنى التسليم بان القبيلة من الناحية السياسية دولة ، التسليم بان البيئة العربية تجمع المؤهلات الخاصة بالدولة . وفي هذا تأكيد ما توسم به السلالة العربية من انها لا تصلح الا لنوع هذا النظام مهما اختلفت بها البيئة . والحق ان القبيلة لا يمكن ان تعتبر كذلك،لان من خصائص الوحدة السياسية :

الارض ، والشعب ، والاستقرار ، والنظام ، والاشتراك في الآمال .

ومن هذا يظهر ان القبيلة المتقلقلة لا يمكن بحال ان تعد مظهراً للدولة او المقاطعة ، وانما هي أسرة بنظامها ومزاجها .

القبيلة ونظامها : لكي نتحقق من صدق هذه النظريات يلزمنا ان نعرض ، على وجه سريع ، القبيلة والنظام القبلي الذي كان سائداً عند عرب الجاهلية. فالقبيلة طائفة مُتبَدِّية من الناس تعيش متقلقلة فوق بقاع من الارض تصلح للحياة بأضيق معانيها . ومن فرط تماسكها تذهب إلى انها اسرة حقيقية لها اب واحد قديم ، وتجري في عروقهم دماء واحدة ايضاً .

والقبيلة من وجه عام وحدة العرب الاجتماعية ، ونظامها يميل إلى الاشتراكية السّاذَجة، الا انها استطاعت ان تذيب الفردية تماماً من جهة ، وان تحقق صلة الجماعة بالفرد من جهة اخرى ؛ فكما لم يكن له استقلال شخصي فيما تتجه اليه الجماعة ، كان عليها ان تكلأ جانب الفرد وتحوطه من العدوان . وكان يشرف على هذا النظام رئيس له شبه سلطة مطلقة ، ومن فرط خضوعهم لنوع هذا النظام استجابةً لمطالب البيئة التي لا تسمح للفرد ان يعيش وحده، فيطلب دائماً الاندماج في الجماعة، سيطرت عليهم الحماسة للقبيلة وتوهجت بنارها في نفوسهم؛ وهكذا تكونت العصبية العنيفة عند القبيلة للفرد، وعند الفرد للقبيلة؛ هذه العصبية التي كان من شعارها « انصر اخاك ظالماً او مظلوماً » .

و : لا يسألون اخاهم حين يندبهم
في النائبات على ما قـــال برهانا

حنَتْ نفوس العرب على اعتبارات شديدة الخطورة في توزيع الشعور وبدوات الاحساس، واقامت ميولهم على قاعدة بالغة الضيق بالغة الحرج . وبرغم اضرارها كانت ضرورة من ضرورات المحافظة على البقاء في حدود القبيلة ، من حيث ركزت في طباعهم وحدة المطالب والغايات والافكار والعادات ، ووسمتهم بسمة التكافل والتضامن السابغين ؛ فكان هذا الوضع الحيوي لديهم يشبه نظيره عند الاسبرطيين، وان كان وضع الحياة في اسبرطة اكثر ميلاً إلى اللون الحضاري والطابع القومي .

ان ضرورة التعاون، في الدفاع عن النفس، صيّر بين القبيلة آصرة قوية ولحمة

عضلية مجتمعة الألياف، واقامت المجتمع العربي على العصبية النكراء. ولقد غلَتْ بهم حتى امتدت بآثارها إلى القانون والعرف، وحتى استحال تاريخ العرب القبلي إلى تاريخ للدماء. واذا اردنا ان نحصر بواعث التاريخ لديهم فلا نجد شيئاً وراء هذه الداعية العنيفة، وقد نكون اكثر تحقيقاً اذا قررنا انها كانت المحرك الحيوي العام، فقد ظهرت بألوانها في الاجتماع والاخلاق والادبيات وفي المُثُل ايضاً. فكان لكل قبيلة طوتم خاص بها، وطقوس تُرْضي تصوراتها وتنسجم مع مذاهب ميولها. ولم تكن عند العرب نزعة ما تفوق هذه النزعة في عنفها وشدتها، وكانت إلى جانب هذا معيناً تمد خيالهم الادبي والمثالي. فاستحكام القبلية، على هذه الشاكلة عند الجاهليين، يظهرنا على مقدار الجهود الواجب بذلها لتطهير النفس العربية واعدادها بسبيل المبادىء الجديدة.

والنبي (ص) اعتمد، في كفاح العصبية، على شتى الوسائل وطاولها مطاولة كانت قمينة بأنْ تأتي عليها، وبالفعل رأينا انها استترت في زمن النبي (ص) واستخفت كما يستخفي الميكروب في انحاء الدم حتى اذا هادنه العلاج ظهر بعنفه وقوته وانتشر بحُمّاه. وسياسة النبي (ص) تتلخص بالسمو ببيئة العرب والقضاء على المزاج العقلي القبلي باعطائهم مزاجاً عقلياً جديداً خليقاً بتصريف حركاتهم في كيانهم الدولي، وتهيئتهم مع الزمن لما يسمونه بخلق الامة على شكل صالح. وهذا يستدعي من العناية العملية اكبرها، والا فمجرد [1] التعاليم لا تكفي لتغيير روح الامة، ولذا قال نقاد الثورة الفرنسية: ان الشعب الفرنسي سار في طريق الملكية من حيث لا شعور، وكذلك الشأن في العرب فانهم عادوا، في ظل

---

(١) وشاهد هذا ان التنافس على القربات الدينية دخله شيء كبير من العصبية اي انها تأثرت بالمزاج العقلي القديم؛ ذكر ابن جرير الطبري في ج٣ ص ٧ (ان هذين الحيين من الانصار: الاوس والخزرج كانا يتصاولان مع رسول الله (ص) تصاول الفحلين لا تصنع الاوس شيئاً فيه غناء عن رسول الله الا قالت الخزرج والله لا يذهبون بهذه فضلا علينا عند رسول الله في الاسلام، فلا ينتهون حتى يوقعوا مثلها الخ) وهذا خبر يرينا مقدار تأثير المزاج العقلي الذي لم تضعف شكيمته بعد رغم ما يأخذهم النبي (ص) به من تهذيب؛ فالقبلية بلا شك كانت لدى العرب مسيراً اعظم.

الحكومة الجديدة والتعليم الجديد، إلى مزاجهم العقلي القديم. وعندي ان في جملة الاسباب التي اعانت على ان تنجم العصبية مرة اخرى أمرين مهمين :

(١) التعجل بالفتوح قبل الاختمار الديني الذي يؤلف من مجموع الصفات النفسية للافراد صفة عامة ، وهي التي يعبر عنها بخلق الامة ؛ مما ادى إلى ان يخرج هذا الخليط الكبير من العرب ، وينتشر في بقاع واسعة من الارض ، حاملاً غريزته الاجتماعية التي كانت لا تزال اكثر اتصالاً باسباب نفسه ، ولقد تمتد فتصبغ كل صفاته الادبية بصبغتها .

(٢) عدم عناية حكومة الخلفاء ببث التربية الدينية على النحو الذي جرى عليه النبي(ص) ، هذه التربية التي اذا اقترنت بالزمن كونت المزاج العقلي للأمة الذي هو الوحدة الحقيقية لها والرباط المعنوي ؛ الثابت فانه يعمل في تطور الامم من وراء النظم والفنون والتقلبات السياسية .

وهذان سببان مهمان، سنتكلم عليهما عندما نتناول الفكرة الدينية عند العرب، لإنهما أكبر مساساً واتصالاً بها . وخليق بنـــا أن نعرض المناسبات التي ظهرت فيها الفكرة القبلية بشكلها العنيف بعد أن أسلم النبي (ص) نفسه ولحق بالرفيق الأعلى . واهم المواقف التي غلَبَتْ فيها العصبية أو كانت معتركاً للعصبيات في عهد الخلفاء ، هي :

١ — الانتخاب يوم السقيفة، فقدكان تنازعاً تمده العصبية بأسبابها، وأي واقف على الخبر لا يخفى عليه جانب العصبية في هذا النزاع . بيد أنه كان متميزاً مع ذلك بصفة هامة ، وهو التنازع والخلاف ضمن نطاق محدود يحترمه الجماعة كافة وفي حدود رمز واحد يختلفون إلاّ عليه ؛ ولذلك لم تعمل العصبية عملها النكير وكانت عقيمة الأثر ، لأن الجمهور المتنازع كان مختمر النفس مشبوب العقيدة عامر القلب بالمبدأ السامي . وهذا يظهر صدق نظريتنا في أن الخلفاء لو عنوا ببث التربية الدينية على الشكل الذي بثه النبي (ص) في نفوس الجموع القريبة منه ، لما تفرق العرب قدداً وتطوّحوا في مذاهب مختلفة . وإليك خبر هذا اليوم الذي يعتبر أول اجتماع انتخابي في تاريخ الدولة العربية :

اجتمع الانصار في سقيفة بني ساعدة وقد عقدوا امرهم على تولية سعد بن عبادة ، ثم توافى الناس إليهم ، فتكلم سعد وكان منطق خطبته يدور على أن الغنم بالغرم ، والانصار هم الذين غرموا في سلسلة الحروب وحركات الجهاد التي قام بها النبي (ص) ؛ وهاتان المقدمتان تسلمان إلى النتيجة التي يتوخاها سعد زعيم الحزب الانصاري الذي يقول بأن الخلافة للانصار . ثم تكلم أبو بكر وكانت عناصر دفاعه عن قضية المهاجرين ترجع إلى أن قاعدة « الغنم بالغرم» لا تصح ضد المهاجرين الأولين الذين كانوا التربة الأولى للنـــواة الاسلاميـــة ، فهم زملاء النبي (ص) في الدعوة إلى الدين الجديد ، فللانصار منزلتهم ولكن على غير هؤلاء الاشابة المختارة ؛ وهذا المنطق اسلمه إلى النتيجة التي شغلت الانصار ، وجعلتهم يفكرون في شيء جديد ، وهي : « نحن الامراء ، وانتم الوزراء » .

واعتقد أن خطبة ابي بكر كانت مداورة لبقة أكثر مما كانت دفاعاً بالمعنى المقصود من هذا اللفظ ، وبراعته الفائقة ظهرت في الفكرة الجديدة التي انتهى إليها ، ففيها اغراء وبذلك اطمعهم وحرك آمالهم ، وفيها تسليم بقاعدة « الغنم بالغرم » وبذلك اعطى على نفسه وحزبه ضماناً للانصار بأن لهم أن يستفيدوا من المراكز التي تلي الخلافة بالذات .

وكم كان أبو بكر دقيقاً حين خص دفاعه بطائفة المهاجرين الاولين فقط ، دون المهاجرين عامة ، وإلا لتهدم دفاعه من اساسه ، لانه ليس لعامة المهاجرين هذه الصفة التي أوسعها في خطابه ، كما أنه بذلك يوقظ العصبية الراكدة . ولا ريب في أن أول أثر يتركه هذا الدفاع في جماعة الحزب الانصاري الانقسام ، ولقد احس بهذا الانقسام الحُبَاب بن المنذر من الانصار ، فاجتهد بأن ينقذ الموقف باقتراح جديد ، هو : «منا أمير ومنكم أمير » ، وكان خليقاً ان لا يلاقي اشياعاً لانه رجوع إلى المنطق القبلي الخالص . على أن العصبية ابت إلا ان تذر قرنها وسط هذا الانتخاب فقال عمر : « والله لا ترضى العرب ان يؤمروكم ونبيها من غيركم ولكن العرب لا تمتنع ان تولي امرها من كانت النبوة فيهم وولي أمورهم منهم ،

من ذا ينازعنا سلطان محمد وامارته ، ونحن اولياؤه وعشيرته ، الا مُدلٍ بباطل أو مُتورِّط في هلكة » .

فقال الحباب بن المنذر رداً عليه « يا معشر الانصار املكوا على ايديكم ولا تسمعوا مقالة هذا واصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر ، فان أبوا عليكم ما سألتموه فاجلوهم عن هذه البلاد وتولوا عليهم هذه الامور ، انا جُذيلها المُحكَّك وعُذيقها المُرجَّب ، اما والله لئن شئتم لنعيدنها جذعة » .

وقال سعد بن عبادة لعمر « والله لو أن بي قوة ما أقوى على النهوض لسمعت مني في اقطارها وسككها زئيراً يُجحِرُك واصحابك ، اما والله إذاً لالحقنك بقوم كنت فيهم تابعاً غير متبوع » .

ومن هذه المقاولات نفهم أن فكرة الدولة كانت بعيدة عن أذهانهم ، كما تلمس مقدار الأثر القبلي في الخلاف ، ولكنه لم يتحول إلى صراع ففوضى كبيرة ، لان نفوس المختلفين كانت أكثر تهذيباً ، فلذلك كانت أقل عنفاً .

٢ — الارتداد : كان الارتداد حركة يراد بها ، في أول الامر ، الخروج على السلطة المركزية التي تمثلها هيئة حاكمة في المدينة . ولا ريب في أن الباعث الأهم عليها هو العصبية التاريخية بين طوائف الشمال وطوائف الجنوب . ثم غلت العصبية في جماعات ، فعمدوا إلى الانفصال بكل الاشكال حتى في الدين ، فقد قدَّموا انبياء ايضاً قاصدين بذلك القضاء على كل ما يُشتَمُّ منه رائحة الاتصال .

وهؤلاء المتنبئون لاقوا تعضيداً من اغلب المرتدين الذين وجدوا فيهم الرمز الروحي المفقود لحركتهم الانفصالية التي كانت جزءاً من الصراع القديم بين الشمال والجنوب ، وبالتالي بين القحطانية [1] والعدنانية . ونحن إذا لاحظنا أن الروح القبلي لا ينسجم والحكم المركزي بحال ، نقع على الحافز المهم الذي دفع

---

(١) يذهب العلامة جويدي المستشرق الايطالي إلى ان الأولى ، في التقسيم ، الاعتماد على النسبة الجغرافية لان في الشمال قحطانيين وفي الجنوب عدنانيين .

المرتدين إلى تشكيل حركتهم الكبيرة بشكلها العنيف ، ونرى أيضاً كيف اعثرو بسرعة على ما يوحد بين جهودهم الخاصة . ويحسن بنا أن نتكلم باجمال عن كلمة ارتداد وعن عوامله الأخرى .

لم يكن [1] لهذا اللفظ معناه الفقهي الذي يرادف الالحاد في ذلك الزمن ، وانما اطلق بمعناه اللغوي فقط الذي يفيد النكول والرجوع ، لان من جملة طوائف المرتدين جماعات لم تكفر ولم تلحد ، وانما امتنعت عن التقيد بممارسة النظام المالي الذي كانت تمارسه في زمن النبي (ص) ؛ وعليه فالمرتدون قسمان :

(١) الملحدون وهم المفرطون في العصبية .

(٢) الخارجون على السلطة المركزية في المدينة .

وعوامل هذه الحركة ، عدا ما ذكرناه ، كثيرة منها :

(أ) الجحود الطبيعي في النفس البدوية ، وحالة الشك الديني المتولد عندهم من تناحر الديانات المختلفة .

(ب) فقر العرب .

(ج) نظريتهم في الحكومة بأنها عدوان على الحرية الشخصية والكيان الفردي .

(د) نظريتهم في الذكاة بأنها ضريبة تمس الاستقلال المالي للفرد وتنافي الملكيات الخاصة .

ويضاف إلى هذا سبب آخر مبني على نظام [2] الطبقات الذي كان يفصل ما

---

(١) ومن هذا يظهر ما في تقرير بعض المؤرخين ، من ان هذا اللفظ اطلقه عليهم خصومهم للتهييج ، من مجازفة وعدم تحقيق .

(٢) كانت القبيلة تعرف نظام الطبقات فكانت عندهم (١) طبقة الاحرار اي العرب الخلص الذين لم يجر عليهم رق (٢) طبقة العبيد وهم اسارى الحرب او الذين يشرون بالمال (٣) طبقة الموالي وهي طبقة وسطى بين الحر والعبد ؛ وانواع الولاء كثيرة منها : مولى الموالاة ومولى النسب ومولى العتاقة . وكان لهذا النظام نتائج هامة ؛ فالعبد معدوم الحقوق جملة ، والحر يتمتع بالحقوق العامة كاملة وهي التي تسمى الآن مدنية ، والمولى وسط بين التمتع بالحقوق كاملة والحرمان منها جملة ، فليس من حق المولى ان ينتسب إلى القبيلة الا مسبوقاً بكلمة حليف ، وله ان يرث من حليفه بخلاف العبد .

بين الجماعات العربية ، وهو :

(هـ) فهمهم للزكاة بانها حق لازم للطبقة الفقيرة يؤخذ منهم بالكره ، وفي ، هذا تهديد لنفوذ الطبقة المالية ، فلا بدع إذا رأوا في نظام الزكاة استطالة ً وتَطَفُّلاً ، وبذلك نفهم أن حركة المرتدين في حقيقتها كانت « ثورة الرأسمالية على المبادىء الاشتراكية الجديدة » تحمسها العصبية ويذكيها الروح القبلي .

والآن نعود الى صدر الحديث لنجيب على سؤال ، وهو : كيف استساغ هؤلاء الحكم المركزي في ظل حكومة النبي (ص) ، ولم يستسيغوه بعد ذلك ؟

يرجع السبب في هذا الى انهم أخذوا حكومة النبي (ص) من جانبها الروحي ، ونظروا اليها من هذه الناحية فقط ، فلم يجدوا فيها ما يحيي عنعناتهم العصبية القديمة ، وما يهيج فيهم الحماسة التقليدية . ان النظر الى النبي (ص) كان دينياً محضاً على انه وان مارس السلطة الزمنية فقد كانت الصبغة الدينية تغمرها حتى لتخفي بوادي الحكم والسيطرة ؛ ويكفي أن نعرف أن الاعتقاد حينئذ بأن اسلاس القياد في يد النبي (ص) قربة دينية وذخيرة اخروية ، وليس كذلك الخليفة بعده مهما كانت مزاياه . ونحن اذا درسنا كلمة خليفة التي تفيد معنى النيابة في الحكم دون الاستقلالية فيه ، نشعر بأن الهيئة الحاكمة انما اختارتها لقباً ليلينوا من شكيمة اولئك النافرين ، حين لا يكون من معناها شيء سوى الاشراف على الحكم بالوكالة ، وفي هذا اللفظ لباقة تُسَهِّل وقعه .

وهذا التحليل يظهرنا على أن السلطة لو أسندت ، من أول الأمر ، الى شخص من أسرة النبي (ص) لكانت أكثر انسجاماً مع الروح العربية الساذجة البعيدة عن مذهب الحكم ، من حيث انها تمنحه جزءاً من نظرها الروحي الذي كانت تنظر به وحده الى النبي (ص) . ويحسن أن نُعنّى بفهم وجهة هذا النظر لانه يُجْلي لنا السر في اندفاع قبائل الجنوب الى الخروج ، كما انه يعرفنا أن الاساس الذي قامت عليه الحكومة لم يكن ثابتاً الى حد كبير .

نحن نعرف أن الاعتقاد في حكومة النبي (ص) قائم على انها آلهية محض ،

وان ممارسته لها ضرب من رسالته التشريعية ، فلا عجب اذا مالت القبائل الى الرضى والاستسلام ، ولم تحارب السلطة المطلقة في شخص النبي (ص) . وموت النبي وضع حداً لهذا الاعتقاد في الاشخاص ، فلم يكن بدعاً أن تنظر القبائل الى القائم بأعباء الحكم ، من بعده ، بالنظر الآخر الذي يحيي فيهم النزعات الكامنة ويوقظ لديهم الحماسة القبلية القديمة ، بقطع النظر عن الصلاحيات والمزايا التي يتمتع بها المرشح ، هذه الصلاحيات التي كانت بعيدة عن فهم أولئك العرب الفطريين .

ومما يشهد لهذا ان بعض الصحابة ، حينما توفي النبي (ص) ، اعتقدوا أن كل شيء قد انتهى ، ومالوا الى العزلة ممارسين واجباتهم الدينية بينهم وبين أنفسهم ، مما دعا ابا بكر الى تذكيرهم بأخبار النبي (ص) المتعلقة بغلبة كسرى وقيصر . وهذا يُظْهرنا على أن العرب حينئذاك لم تكن لهم فكرة عن الحكومة الزمنية البتة ، ولا رغبة خاصة بعيدة عن الدين في المحافظة على الدولة العربية الفتية .

فأول ما يتبادر إذاً الى ذهن الاعراب ، اذا رأوا رجلاً من عامة العرب يتبوأ كرسي الحكم ، أن الامر تم له بالغلبة فقط ؛ والنتيجة المنطقية لهذا انهم ما داموا ذوي سلطة تخول لهم الغلبة في حومة الصراع ، فهم أحق وأجدر بالأمر . وثبّت صدق هذا النظر ، عندهم ، الخلاف على الترشيح الذي نُمِي اليهم من أخباره ؛ ولا شك قد كان فيهم من يرثي لمصير علي (ع) وهو الذي عرفوه عن قرب وأحبوا فيه شخصيته الممتازة ؛ ونحن نعرف أيضاً أن اعتقاد الفطريين ينصرف الى الوراثة الدينية ، وأسرة النبي (ص) عريقة بهذا النوع من التخصص والامتياز الروحي ، فلم يكن بعيداً أن يطمئن العرب الناؤون الى ممارسة هذه الاسرة الحكم ، في ظل الدين ، بالخلافة والنيابة ؛ والذي يدلنا على صدق هذا التقدير ، احتجاج عمر (ض) الذي اصطنع فيه منطقاً صور فيه النفسية العربية من هذه الناحية خير تصوير ، فقد أشار لنا في كلمة له يومذاك الى أن العربي شديد النفور من السلطة الا عن نبعة الدين . ومن الخير أن نذكرها على طولها لما لها من القيمة الجوهرية في بحث هذا الموضوع ؛ [1] قال :

---

(١) راجع تاريخ الطبري ج٣ ص ٢٠٩ .

« والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم، **ولكن العرب لا تمتنع أن تولي امرها من كانت النبوة فيهم وَولِيَّ امرها منهم**، ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين ، **من ذا ينازعنا سلطان محمد وامارته ونحن اولياؤه وعشيرته** ، الا مُدلٍ بباطل او متجانف لاثم او متورط في هلكة » .

تأمل قوله: ولكن العرب لا تمتنع أن تولي امرها من كانت النبوة فيهم، الذي هو بيان تصويري يكشف بجلاء عن خوافي النفسية العربية من هذه الناحية . ونحن الآن نستطيع أن نستفيد من منطق عمر (ض) الذي استعمله ضد خصومه السياسيين في اكتساب قضية الترشيح ، من حيث هو شاهد على ما ندعي من أن النفس العربية تنبو عن كل سلطة على اية شاكلة، الا اذا جاءت من جانب الدين فتلين شكيمتها ؛ وعمر بعد ذلك يتوسل بأنهم عشيرة النبي (ص) فهم أَخْلَقُ بتمثيله، ومن هذا نتنزع الدليل على أن السلطة لو وكلت الى اسرة النبي (ص) ، من أول الامر، لما شجر هذا الخلاف، ولما ظهرت حركة الارتداد، في أغلب الظن وهذا لا يعني ان الأمر سيفضي في النهاية الى الحكم على نظام الاسرة ، بل يعني أن شكله كذلك أكثر انسجاماً مع الروح السائدة اذ ذاك ؛ وبالتكتل التاريخي وقرب الامة شيئاً بعد شيء من فهم مذاهب الحكم تتغير نظرتها .

واذكر الآن كتعليق على حركة الارتداد ، بأن الشدة التي أخذهم بها ابو بكر (ض) وتسديده الضربة القوية اليهم كانت لخير الدولة، لأن أولى النتائج التي ترتبت على حركته الموفقة هي ايجاد الوحدتين السياسية والعسكرية بشكلهما الحقيقي . ونحن لا ننكر بأن النبي (ص) وحد الجزيرة ووضع الأسس لمن يعمل بعده، الا أن ظهور الوحدة العسكرية التامة كان على يدي ابي بكر ، واليه يرجع الفضل فيها من أقرب طريق ، سواء كانت هذه الوحدة العسكرية هدفه ام لا .

٣ — اقتناع قريش بعدم العصيان أو بتعبير ذلك العصر بعدم الارتداد: يحدثنا التاريخ بأن قريشاً حاولت، ككثير من العرب، أن تخرج وتعلن العصيان، ولكنها عادت فركدت . وفي هذا الركود السريع ما يدعو الى الدهشة، ويحمل

الدارس على انعام النظر لفهم السر الصحيح . وأعتقد بأن المؤرخين عموماً لم يَكْتَنِهوا الأسباب الحقيقية لرضى قريش بالتعاون مع حكومة المدينة بالخضوع لها.

وتعليله عندي بأن التنازع على الخلافة يوم السقيفة كان في ظاهره بين حزبين: كتلة المهاجرين وكتلة الأنصار ، وفي حقيقته بين مكة والمدينة . وكان الظن القريب ان المدينة ستفوز في الخلاف المنتظر ؛ ولو تم الأمر بغلبة الأنصار لما أخلدت قريش الى السكينة البتة ، ولكنَّ انجراف الفوز الى جانب المهاجرين — اي فوز مكة في الصراع الانتخابي — سهّل على قريش الخضوع والاستسلام. ومعنى فوز مكة ، في الحقيقة البعيدة ، فوز اكبر أسرها المدنية ؛ فلم يفز بنوتيم بفوز ابي بكر بل فاز الامويون وحدهم ، ولذلك صبغوا الدولة بصبغتهم ، وآثروا في سياستها وهم بعيدون عن الحكم ، كما يحدثنا المقريزي في رسالته (النزاع والتخاصم) .

ومن تاريخ هذا الفوز الانتخابي بدأت سعاية بني امية لتهيئة الأسباب الى الانقلاب الذي سيفضي في نهايته الى استحواذهم على السلطة . وأي ناظر في حركات ابي سفيان لا يشك بأنه بدأ يعمل بهمة لا تعرف الكلل لتعبيد الامور على ما يريد ، فقد رأينا كيف يفكر باستعجال الامور من وراء شخص علي والعباس ، وكيف يستعد ويعلنهما باستعداده ، لإحداث الانقلاب ، مستغلاً العناصر غير الراضية عن نتائج الانتخاب .

وبالنظر الى هذا التحليل لركود قريش بعد التهيؤ للثورة ، نلمس عمل العصبية الكبير في هذا الحادث ، ونضع أيدينا على السر الصحيح في محيط القبليات. وان من الغرارة الركون الى تصوير المؤرخين الساذج لهذا الحادث بأنه نتيجة تعنيف الضمير الديني ، وهو لم يبلغ بعد . ان الواجب التاريخي يقضي علينا بأن نفهم كل حادث في محيط القبلية على ضوئها لأنها بآثارها أقوى من كل عامل آخر ، كالدين مثلاً الذي لم يختمر بعد في نفوس العرب اختمار القبلية. ونحن حينما ندير البحث ، في هذه الفترة من التاريخ ، على قاعدة الدين قبل كل شيء ، نغالط انفسنا في حقائق الطبيعة البشرية وأوليات علم النفس ، كما أن الميزان التاريخي الذي قررناه في

التصدير يقضي بأن يكون أثر الدين البَدْيء والمثل الجديدة ، في هذه النفوس ، جزئياً وعاملا الى حد ما .

٤ — التعيينات الحكومية : أبدى المقريزي دهشته المصحوبة بتساؤل حائر من حرمان بني هاشم من التعيين في الولايات، بينما كانت مغمورة بالعنصر الاموي ، ففي كل جهة وال من أمية؛والمقريزي لا يخفي دهشه الشديد من هذا الاجراء ، لأنه لا يمكن تبريره بأنه لم يكن بين الهاشميين رجل واحد كفيء بأعباء الولاية وتبعات الامارة ؛ وهذا اذا أمكن في الفرض فانه يستحيل في الواقع . ونحن بهذا لا نريد أن ننتهي الى أن هذه السياسة الادارية كانت مقصودة، من الخليفة القائم، تحزباً وعصبية؛ وانما دللنا عليها لنشهد من خلال هذه السياسة مقدار نفوذ الاصبع الاموي في تسيير دفة الأمور . وقد ساعدهم على اكتساب ثقة الخلفاء انهم الاسرة السياسية — اذا صح هذا التعبير — العريقة ، فالخلفاء لذلك يقدرون مواهبهم المدنية الموروثة . ومن ثم نصل الى النتيجة الخطيرة التي نسعى الى تقريرها وايضاحها ، وهي :

أن اكثرية الامراء والولاة كانوا من بني امية في أزمان أبي بكر وعمر وعثمان . وإذاعلمنا أن إثارة العصبيات المكبوتة كانت جزءاً من سياسة الحزب الأموي ذي المطامع الكبيرة، استطعنا أن نقطع بأن هؤلاء الولاة كانوا، وهم يمارسون إمارتهم في زمن ابي بكر وعمر، لا يفتأون يحيون كوامن النزعات ويُرَبِّبُونها ليلهبوا المجتمع الاسلامي الزاخر بما فيه من شؤون .

وهذا تقدير سوف يستبعده جل الدارسين، ولكنه حقيقة تناصرها الشواهد الكثيرة، وتعلل الاضطراب السريع .

٥ — التعبئة القبلية : ونعني بهذا تنظيم الجيش تنظيماً بحسب القبائل ، فكل قبيلة كانت تشكل فرقة من الجيش، وقائدها هو الزعيم القبلي نفسه. وهذا وان كان يولّد منافسة محمودة من حيث الاستبسال في الفتح، الا أن اضراره في النتيجة تفوق كل تلك المزايا ؛ ولقد سمعنا في احتجاج أولئك الزعماء نغمة أنهم مغبونون وأنّ ما

نالهم من فوائد الحرب أقل بكثير من تضحياتهم ، مما يؤيد وجهة نظرنا في أن هذا المنطق استولى عليهم وظهر بعد حينٍ بخطره العنيف .

٦ — السياسة المالية : لا ريب في أن النظام المالي لم يكن بعيداً عن التأثر بهذه النزعة القبلية، وبالأخص في خلافة عثمان حيث ظهرت فيه بكل جلاء . وسيأتي لنا بحث النظام المالي حينما نتناول بالدرس النظام العام، وسنرى هناك أي أثر كبير تركته السياسة المالية التي قامت على أساس قلق، من شأنه أن يثير الاضطراب في كل مناسبة كبيرة أو صغيرة . وان مما يعكس لنا صورة من قبلية هذا النظام ترتيب الدواوين على القبائل وتنسيق القيد في السجلات على سنتها .

فقد ظهرت القبلية إذاً في مناسبات شتى وظروف كثيرة بل وفي كل ظرف منذ وفاة النبي (ص) ، وهذه المناسبات ايقظت العصبية الكامنة حتى انطلقت في النهاية من عقالها وشكلت الثورة العنيفة . وكان الواجب النظامي يقضي على هؤلاء الخلفاء باتباع السياسة النبوية في القضاء على العصبية النكيرة التي كانت تقوم على أساسين مهمين :

(١) تأنيس النفوس الآبدة بتطريات العقيدة، وصقل الضمائر الخشنة حتى تعود انسانية نبيلة تؤلف بينها مُثُل واحدة تقوم عليها وتصدر عنها . وهو ما عنيناه ببث التربية الدينية التي كانت لازمة لذلك المجتمع لزوم التربية الوطنية في نظام القوميات الحديث . ولا شك بأن دفع العرب القطريين الى الفتح والجهاد ، ثنى نفوسهم وجوانحهم على تقاليدهم القديمة وعاداتهم السحيقة مرداة برداء الدين ، فكانت تربيتهم الدينية شكلية محضاً .

وقد ذكرت في كتاب (سمو المعنى في سمو الذات) طائفة من الاخبار ، تشهد بأن الاعراب خصوصاً لم يتضلعوا من الدين . وقد كبر على كثيرين القول بأن الخلفاء لم يعنوا بهذا اللون من التربية ، فتساءلوا عن الاشخاص الذين أوصلوا الدين الى الجهات المختلفة، وأعطوا تلك المجموعة الاسلامية الكبرى . ونحن لم ننكر أن الخلفاء عنوا بالفتح، وهو يستتبعه دائماً دخول أقوام لإعداد لهم في دين

الغالبين ، ولكن دخولهم ، على هذا الشكل ، لا يعني أكثر من انهم مسلمون بالكم فقط ، وهذا ما لم نُعْنَ به ، وانما انصرفنا الى درس اسلامية هؤلاء وأولئك من حيث آثارها في الضمير . والنبي (ص) انبهنا الى أن المدار على الضمير الديني وحده الذي يجب تخصيبه ومده بنمير التعاليم الصالحة لاروائه بقوله عليه السلام «رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر» وبهذا أجلى النبي (ص) عن خطته الرشيدة في الفتح والتهذيب . ولا ينكر ان سياسة الخلفاء كانت سياسة فتح فقط ، وعليه فقط تركت أهم الجانبين من السياسة النبوية .

(٢) تحضير العرب بتمصيرهم وتخطيط الاراضي ليقوموا عليها بالزراعة ، فالنبي (ص) كان جهده منصرفاً الى :

(أ) ترغيب العرب في سكنى الامصار ، ولذلك حض الاعراب على الهجرة الى المدينة لتبدل من نفسياتهم التابية .

(ب) ترغيبهم في الزراعة ، فقد قال عليه الصلاة والسلام « خير المال سكة مأبورة ، وشاة مومورة » ، وفي هذا الحديث حض للعرب على أن يكونوا زرّاعاً مستقرين ؛ وهو يكشف عن مقدار شغف النبي بالعمران .

ونحن اذا درسنا السياسة التي أدى اليها اجتهاد الخليفة الصالح عمر بن الخطاب ، نراها سياسة حربية خالصة حتى [1] منع ادّخار الاموال وحرّم على المسلمين اقتناء الضياع وتعاطي الزراعة ، وبذلك أوقفهم على الجندية ؛ وهذا دليل على أن نفس عمر الكبيرة لم تكن تفكر الا بالتوسع ، فهو لم يعدّ الشعب للاستقرار ، وانما اجتهد باعداده للحرب بسبيل نشر المبدأ الاسلامي الجديد في أكبر رقعة من الارض . وهذه الخطة وان تكن أفادت العرب دولة واسعة الأرجاء ، الا أنها غير متماسكة أيضاً . وسرعان ما انبعثت فيها العصبية القبلية والعصبية الشعوبية ، وعانت الدولة أشد العناء في رتق الفتوق التي أوقفت كل نشاط مثمر .

---

(١) راجع المقريزي ج٢ ص ٢٥٩ .

ولعل اكبر دليل على عدم نضج التعاليم الاسلامية في نفوس العرب أنهم سموا بعنصرهم فوق العناصر، حتى لكأنهم ارستقراطية على الناس كافة. والاسلام لا يعرف ارستقراطية الجماعة والجنس. بل جانس بين الشعوب حين خلقهم من ذكر وانثى وجعلهم شعوباً وقبائل ليتعارفوا على مثل خاصة ومبادىء فضلى وتعاليم قويمة، لا تفاضل فيما دون اتباعها.

ومن هذا يظهر ان عصبية العربي كانت تعمل ضد أخيه [1] العربي. وضد اخيه المسلم من سائر الشعوب. مما استتبعه اعتزاز الشعوبي[2] بقبيله وماضيه أيضاً؛ وفي معترك هذه العصبيات القبلية والشعوبية انحل الرباط الاسلامي الصميم.

(١) ذكر العلامة دوزي في كتابه تاريخ الاسلام في اسبانيا (ان بغض قيس لليمن، وبغض اليمن لقيس، كان اشد من بغض العرب للاعاجم) وارجع إلى سلسلة الحروب القيسية واليمنية في الاندلس تجد مقدار ما عملت العصبية في حل عقدة الرباط الدولي للعرب.

(٢) اراد الشعوبي ان يندمج في الدولة الجديدة فلم يجد امة، وانما وجد قبائل معتزة بانسابها متعصبة لها، فاضطر ان يعتز بنفسه وقبيله وقديمه.

التـديّن

تناحر الديانات في الجزيرة ادى إلى حالة من الشك : يقتضينا البحث ، في تشخيص الروح الديني ، ودرجة ثبات العقيدة لدى العرب في عهد الخلفاء ، أن ندرس تاريخ المناحرة العنيفة بين الاديان التي شهدتْ فصولها بلاد العرب قبل الاسلام ، وكانت على ما يظهر مناحرة رهيبة مروِّعة ، وقد يكون الحديث عنها طريفاً عدا عن أنه ضروري لازم لمن يريد أن يسبر غور النفس العربية من حيث العقيدة ، وينصرف الى اماطة اللثام عن الحيرة النفسية المبهمة التي شكّلت عند البعض إعْصَاراً قوياً، أورثهم حالات من الشك والتعطيل والتردد، وبالأخص إذا عرفنا ان العرب كانوا لا يملكون [1] القدرة المنطقية على الموازنة والتحكيم .

---

(١) والشاهد على هذا خلاف علي وابن مسعود في حامل توفي عنها زوجها ، فقال علي: تمتد بابعد الاجلين توفيقاً بين آية البقرة وهي (والذين يتوفون منكم ويذرون ازواجاً يتربصن بانفسهن اربعة اشهر وعشراً) وآية سورة الطلاق(واولات الاحمال أجلهن ان يضعن حملهن) ،وقال ابن مسعود : من شاء باهلته ان الثانية نزلت بعد الاولى فهي ناسخة. هذه القصة تكشف لنا عن مقدار السذاجة العقلية التي لا تستقيم لها الموازنة والتحكيم ، وانما تلجأ إلى الغيب المحض ، فابن مسعود ينذر بالمباهلة ويستند اليها كقدمة برهانية ؛ هذا هو المنطق الغالب على العرب لذلك العهد ، فليس بدعاً ان يترددوا ويبالغوا في التردد ؛ وانا اعتقد أن شيئاً يصدر عن منطق كهذا ما كان ليفهم علياً (ع) ؛ وبتدقيق النظر في منطقه ، في هذه المسألة ، ينكشف لنا نظام تعقله السري .

والنتيجة التي نستخلصها ، من صراع الديانات وغلاب الشيع ، أن تتولد في العقلية العربية شبه ذبذبات مضطربة متنازعة ؛ فلم تكن النفس العربية فطرية بالمعنى الصحيح ، ولا صحيفة بيضاء أو ساذجة ، بل كان حشيتها تعاليم مختلطة اختلاطاً غير منسق ولا مفهوم .

فالبيئة العربية من هذه الناحية كانت موبوءة الى حد كبير والى درجة فظيعة . والآن نأخذ بعرض هذه الديانات التي احتضنتها الجزيرة ولعبت فيها أدواراً مختلفة الأهمية ، ثم نعود الى درس أثرها ومدى ظهوره في حركات ما بعد الاسلام الغامضة ، فان نظرية المرتدين والمتنبئين ، وكذلك نظرية الخوارج والسبئية لا يمكن فهمها الا على ضوء هذا التشخيص . والنحل المذكورة هي :

الوثنية ، المجوسية ، الصابئة ، اليهودية ، الحنيفية ، النصرانية ، اليهودية النصرانية. ومن هذا نرى ان جميع الديانات المعروفة لذلك العهد في الشرق الادنى ، اجتمعت في بلاد العرب قبيل الاسلام . ويحسن بنا أن نعطي تعريفات سريعة عن كل ديانة ، حتى اذا خضنا في حديث الصراع وآثاره وضحت لنا النتائج التي نجتهد بشرحها وتمثيلها عن قرب .

الوثنية : كانت هي الديانة الغالبة في المحيط العربي ، وهي تقوم على تأليه التماثيل أو قوى الطبيعة التي ترمز اليها ، على شكل من وثنية اليونان والرومان ، وان كانت منحطة لا تبعث في صاحبها أنواعاً سامية من التفكير ولا نظراً خاصاً الى المثل الاعلى للخير والجمال . والمعروف أن لكل قبيل من العرب معبوداً خاصاً يرضي ميوله القبلية وينسجم مع أهوائه الخاصة . وبذلك كانت وثنية مفرقة جرت على العرب التطاحن والحرب ، فان من أسباب الوحدة السياسية وحدة المعبود . وقد بدت طلائع الاجتهاد الديني بين القبائل الوثنية في أعمال الطقوس وتقديم القرابين مما أدى الى تكون طائفة سميت بالحمس [1]

(١) الحمس هم : قريش وكنانة وخزاعة وجماعة من بني عامر بن صعصعة ، وسموا بذلك لتشددهم في احوالهم ديناً ودنيا ؛ راجع شرح ديوان الحماسة للخطيب التبريزي ج ١ ص ٤ . وسبب التسمية ينظر =

المجوسية: ديانة تمثل أحلام الروح الآرية التي تستهويها مناظر الطبيعة، وتخلبها فتون الكائنات، كما أنها ديانة رمزية أي ترمز الى المعاني والفضائل من طريق قريب الى فهم الانسان، وتقوم على فكرة الخير والشر، ثم مضت في الرمز الى أبعد من هذا، فاتخذت النار رمزاً للضوء، والضوء رمزاً للخير، وبتعبير آخر قالت: ان النور من الشمس، والشمس من النار؛ فأصل النور اذن هي النار، فرمزوا بها إلى الخير. واتصلت ببلاد العرب من الجهة الشرقية، فقد وجدت في قبائل هجر وقبائل البحرين. وكتاب «افستا» لزرادشت عرفه العرب عن قرب، فقد نقل اليهم وتأثروا به الى حد ما.

الصابئة: هي ديانة بابلية بقيت بعد ذواء ينبوعها الاقدم اجيالاً طوالا. وتقوم على عبادة الاجرام السماوية، وتسند اليها القدرة على تسيير الناس. انتقلت الى بلاد اليمن من أقدم الدهر، وقصة بلقيس في القرآن شاهد على أنها كانت الدين الرسمي أو القومي في دور من ادوار التاريخ القديم. ولعل التسمية بعبد شمس التي كانت

= إلى شيء وراء ما وضح للغويين، وهو عندي يدل على مذهب ديني خاص، فان القريشيين عرفوا بذلك، كما تبعث فينا هذه التسمية احساساً بان الحماسة كانت عند العرب هي المثل الاعلى، ونظن ان ابا تمام استعملها بهذا المعنى حين اطلقها على الديوان. وعليه فقد كان للعرب مثل اعلى يعبر عن اقصى ما تصبو اليه احلامهم. وبالمناسبة اذكر بانه وضح لي لفظ آخر يصلح ان يكون هو لفظ المثل الاعلى عندهم وهو الامانة، فان العرب الجاهليين اطلقوا لقب الامين على النبي (ص) في الجاهلية لانه كان نسيج وحده في شمائله العالية، وبسبب ذلك استعملوا له كلمة المثل الاعلى، ويؤيد هذا التقدير نصوص القرآن فقد اورد مشتقات هذه المادة كلها تقريباً وهي تدور على هذه الملاحظة. ومهما فرضنا ان القرآن هو الذي طور هذه المشتقات وافرغ عليها معاني جديدة فليس من الجائز البتة ان نظن مطلقاً بانه تجوز بالكلمة عن اصل معناها، فهو يستعمل الامين بمعنى «القدس» بجانب جبريل وبمعنى «الرسول» في سورة الشعراء وبمعنى «القوي» في سورة النحل، ويستعمل الامانة بمعنى «الشريعة» في الاحزاب، ويستعمل المؤمن وصفاً «لله» ووصفاً «للمسلم» وكأنه في جانب الله بملاحظة المثل الاعلى الذي هو مصدر المثل، قال تعالى (ولله المثل الاعلى) وفي جانب المسلم بملاحظة المثل الاعلى الذي يشخص الناس اليه او الذي هو حد للانسانية الرفيعة، ثم كلمة آمين التي تستعمل في الدعاء، والداعي حين يدعو يحاول غرضاً عجز عنه بقوته فلجأ إلى الغيب يطلب منه العون الالهي للوصول اليه وهو الغرض الأسمى له في حاله. وبما ان الشعب تتفاوت طبقاته، فقد كان للعرب مثلان: الاول مثل الطبقة العامة وهو الحماسة؛ حلل جيداً الفضيلة في (انصر اخاك ظالماً او مظلوماً) فقد كان هذا التحمس والتعصب فضيلة خاصة. الثاني مثل الطبقة الخاصة وهو الامانة.

شائعة عند العرب تدلنا على مبلغ سيطرة تلك الديانة العتيدة كعقيدة ، وعلى درجة رسوخ أصباغها مراسم وطقوساً .

اليهودية: هي ديانة سماوية اعترف بها الاسلام، وعني بدرسها، واختصها القرآن بطائفة من الآيات. وهذا يدلنا على عظم أثرها في العرب، وانها كانت أكثر سيطرة من سواها وأكثر تأثيراً. ولعل السبب في تغلغلها بسرعة وقوة في محيط العرب يرجع الى انها سامية كل السامية، فوقع العرب فيها على ما يعبر عن تصوراتهم الدينية، ولذلك وجدت الى نفوسهم مجازاً عريضاً . وقد أثر انتشارها في عقلية العرب تأثيراً كبيراً ، الى حد ظهر في ادبياتهم العامة ، وهذا نقل العرب من حيث يشعرون أو لا يشعرون الى حال أرقى . وكانت قبائل يثرب أسرع تأثراً بها وقبولاً لها من سائر القبائل الوثنية الأخرى . وكذلك تطرقت الى اليمن وكان لها شأن من الناحية السياسية حتى ان البيت المالك تهوّد ، وكان لهذا تأثير في مجرى الاحوال السياسية نظراً إلى وجود حزب آخر يؤيد النصرانية .

النصرانية: هي كسابقتها ديانة سماوية اعترف بها الاسلام، وأوسع لها مكاناً في القرآن، وكان لها تأثير غير يسير في الهيكل الروحي العام ، غير انها لم تكن متركزة في ناحية معينة كاليهودية، على أن قبائل عديدة تنصرت، بيد ان تسربها الى الجزيرة مكتنف بالغموض؛ والظاهر أن المذهب النسطوري، بعد أن انتقل من بلاد الروم الى العراق ، نفذ الى بلاد العرب .

الحنيفية: يذكر المستشرق «ولهاوزن» ان الحنيفية كانت مذهباً نصرانياً ذائع الصيت في بلاد العرب. وتعارضه طائفة من المستشرقين بأن الحنيفية لم تكن مذهباً نصرانياً كما لم تكن مذهباً معيناً ، وانما كان هناك أشخاص من مفكري العرب استنكروا عبادة الأوثان متأثرين بتعاليم اليهودية والنصرانية، حتى دخل بعضهم في اليهودية، وبعضهم في النصرانية، وبقي جماعة منهم غير متمسكين بدين؛ جاء في سيرة ابن هشام « ان زيد بن عمرو بن نفيل توقف عن دخول النصرانية واليهودية ، واعتزل ديانة الاوثان وتقاليدها، ونهى عن قتل الموؤودة، وكان يسند ظهره الى الكعبة، ويقول : يا معشر

قريش لم يبق على دين ابراهيم غيري ، ثم يقول : اللهم لو اني أعلم أيّ الوجوه أحبّ اليك عبدتك ولكني لا أعلمه ».

وأخيراً طلع الدكتور ولفنستون في كتابه (تاريخ اليهود في جزيرة العرب) برأي طريف بناه على دراسة لغاتية [1] دقيقة لكلمة (حنيف) و (ملة ابراهيم) ، قال : هناك اصطلاح مشهور عند العرب قبل الاسلام وهو (ملة ابراهيم حنيفاً) ، وبحث هذا الاصطلاح قد يفهمنا شيئاً عن عادة الختان ؛ يعرف العضو بعد ختانه في العبرية باسم (ملة) وقبله باسم (غرلة) ، وبما ان الختان من أصول الدين الاسرائيلي، فقد عبر الناموس الديني عن كل من اختتن انه دخل في ذمة ابراهيم . ومن هنا اطلق اليهودي على كل من اختتن هذا التعبير (ملة ابراهيم) ، وهذا اللفظ يقوله العاذر للطفل عندما يعذره ، والحاضرون يؤمّنون ، ولما كان الختان وحده لا يؤدي الى الايمان فقد أطلق اليهود على كل من اختتن ، دون أن يعتنق اليهودية ، اسم حنيف الذي معناه في العبرية (تملق . اقترف اثماً . تذلل . داهن) يعنون به غير الصالح أي الختان غير المستوفي للشروط ، ولهذا متابعات في ما تحفظ المعاجم العربية من تفسيرات لكلمة حنيف . جاء في لسان العرب ان من اختتن في الجاهلية وحج سمي حنيفاً ، قال الفراء (الحنيف من سنته الختان ، وتحنف الرجل اختتن). وهو ينتهي الى أن الحنيفية طائفة تأثرت بطقوس وعادات اليهودية ، غير أنها لم تؤمن بجوهر الديانة .

ومن بين هذه التقديرات نفهم ان الحنيفية نحلة أو نزعة عرفت بها طائفة لم تكن بعيدة عن التأثر بالمسيحية واليهودية على السواء ؛ وهذه الطائفة كانت أقرب الى الحيرة والشك .

اليهودية النصرانية Secte Judée christienne : وهي فرقة تجمع بين عادات اليهود وعقائد النصرانية ، عبرت الاردن وقت حصار الروم لأورشليم ، فسكنت في بلاد العرب . ومن هذه الفرقة السموأل [2] الشاعر .

(١) كلمة من وضعنا الجديد :رادف فيلولوجي ؛ راجع كتابنا : مقدمة لدرس لغة العرب .
(٢) راجع شرح ديوان السموأل لنفطويه ص ١٠ .

ويعارض بعض [1] المؤرخين هذا الرأي ، بأنه لا جدال في انه وجدت طائفة يهودية نصرانية في الحين الذي كانت فيه النصرانية دعوة يهودية بحتاً ، وكان النصارى شيعة من شيع اليهود ؛ وقد فنت هذه الفئة بعد أن أخذت النصرانية تنتشر بين اليونان والسريان، ولم يبق للطائفة اليهودية النصرانية ذكر في القرن الثالث بعد الميلاد، وليس لنا مراجع تاريخية تثبت وجود هذه الطائفة منفردة في الجزيرة ...

هذا الخليط من الديانات والنحل جعل بلاد العرب في شبه حركة زَوْبَعيّة ، لأنها لم تكن فاترة بل عاملة ناصبة ، ومن ثم دخلت في صراع عنيف اتصل بأسباب الحياة العامة ، وأدى الى تنافر سحيق وحرب مستعرة . وأشد ما كان الصراع والتناحر بين المسيحية التي تشجعها الدولة الرومانية وبين اليهودية التي وجدت في الجزيرة ملاذاً لها يحميها من عدوان المسيحيين . ولكي تكون ضامنة لمستقبل مستقر جمعت اهتمامها لتصبغ العرب بصبغتها ، وفكرت لأول مرة بالدولية [2] اليهودية ،

---

(١) راجع كتاب : تاريخ اليهود في بلاد العرب الدكتور ولفنستون .

(٢) فكر اليهود، بعد تشتيتهم، في موقفهم كأمة من واجبها الدفاع عن كيانها؛ وبعد محاولات كثيرة توصل عقلاؤهم في العصر الحديث إلى وجوب تعيين مكان ليعتبروه وطناً قومياً لهم فانتخبوا بقاعاً كثيرة كالارجنتين وشاطىء افريقيا الغربي وفلسطين؛ ولكن التجارب اخفقت الا في فلسطين حيث امكن لزعمائهم اقناع سواد اليهود بسهولة، واذكى هذه الفكرة فيهم مذابح الروسيا التي وقعت خلال القرن التاسع عشر، فتخطوا الحدود إلى الارض المقدسة؛ وكانت اول هجرة منظمة في عام ١٨٨١، وانشئت الجمعيات لايواء اولئك المتشردين ، فكانت اول مستعمرة منظمة هي (ريشون لصيون) وجمعية اخرى اسست مستعمرة زمارين؛ وكانت هذه الجمعيات تعمل منفردة إلى ان اجتمعت في جمعية مركزية للاشراف على حركة الاستيطان في فلسطين واسمها جمعية الاستعمار اليهودية؛ ثم ظهر (هرتزل) العالم اليهودي الالماني الذي تفرغ للدعوة إلى الحركة المذكورة، وابلغ رسالته في كتابه (الحكومة اليهودية) وهو انجيل الصهيونيين في الوقت الحاضر .

وكان قد سبق (هرتزل) يهودي آخر عمل لترويج الفكرة بوجوب اندماج اليهود في العناصر التي يعيشون بينها، فاليهودي المقيم في بريطانيا يجب ان يكون بريطانياً؛ وقد سفهت تعاليم هذا الرسول الجديد المدعو (مندلسوهن) ؛ راجع كتاب العقائد لعنايت ص ٨٩ إلى ص ١٠٢

وفي نظري ان هذا النشاط السياسي لليهود ظهرت اول محاولاته في جزيرة العرب قبل الاسلام، ولذلك كان لانهيار الدولة الحميرية اليهودية رنة اسى من جميع اليهود في الجزيرة وخارجها حتى ظهر في اشعارهم ومراثيهم الطويلة لتلك الدولة، وبلغ بهم خيالهم المذعور إلى التوهم بان الدولة لم تمح بل هي متحصنة في الصحارى، ولذلك هاجر اليهود إلى اليمن ليبحثوا عن حكومتهم الموهومة؛ راجع كتاب : تاريخ اليهود في جزيرة العرب .

ولعل هذه المحاولة تصلح أن تعد فاتحة الحركات اليهودية لتأسيس الوطن القومي ، فما ذهب اليه ولفنستون من أن اليهودية لم تكن تُعنّى بالتبشير في الجزيرة، استناداً الى أنها ديانة غير تبشيرية ، وهم بالغ ؛ لأن الظرف يقضي بأن تتخذ التبشير وسيلة من وسائل المحافظة على البقاء . كما نعثر على ديانة ثالثة كانت تبذل جهوداً لا تقل عن جهود هاتين الديانتين، وهي المجوسية التي اتخذتها الدولة الفارسية وسيلة الى القضاء على النفوذ الروماني .

والشيء الذي يلفت نظري أن الفرس كانوا ينظرون الى انتشار اليهوديةفي بلاد العرب بعين الرضى ، وهذا يحملنا على ظن ان الفرس — وهم الذين عطفوا على اليهود بعد فتح بابل — اتخذوا من اليهود صنائع لهم في جزيرة العرب يستغلونهم في الحيلولة دون تسرب النفوذ الروماني اليها . ومعنى هذا أن الفرس أغروا اليهود بتأسيس دولة يهودية في البلاد العربية . ولما كان من غير المستطاع أن يجعلوها يهودية قلباً وقالباً، والا أهاجوا العرب عليهم ، اكتفوا من يهودية الدولة بالدين ، فحصروا جهودهم في تهويد البيت المالك وجعل اليهودية ديناً رسمياً للدولة ، ولقد تم لهم ذلك . وهذا يفسر لنا أن حكومة ذي نواس كانت شديدة الاتصال بحكومة الفرس ، وكانت سياستها العامة جزءاً من سياسة الثانية ، ولعل حركة ذي‌نواس ضد النصارى كانت بتشجيع الفرس أنفسهم لتكون مقدمة لخصام عنيف ، حين وقفت كلتا الدولتين على جهود الاخرى . فالرومان اتخذوا التبشير في الحجاز والأحباش في الجنوب وسيلة الى الظفر ، واتخذ الفرس وسيلتهم الى ذلك باقامة دولة يهودية موالية لهم في الجزيرة . والذي يدلنا على صحة هذا التقدير ، انه سرعان ما انكشفت الحوادث عن تماسٍ القوى الفارسية والرومانية بدون مباشرة وبمباشرة . ومن الخير أن نذكر ادوار الصراع بين المسيحية واليهودية ، لما كان له من نتائج نفسية وسياسية واجتماعية في وجود العرب العام .

ذهبت طائفة من المستشرقين منهم العلماء (جريمّي وولهاوزن وهالفي) الى أن ظهور اليهودية في بلاد حمير كانت نتيجة لنضال عنيف وقع بين اليهودية والنصرانية، تمكنت فيه الأولى من أن تتغلب على الأخرى في بادىء الامر .

وذهبت طائفة أخرى منها العالمان (جلازر ، وفنكر) الى أن الباعث سياسي محض ، وهو أن ملوك الدولة الرومانية الشرقية بعد أن فرغوا من الاقاليم المجاورة للجزيرة العربية ، تأهبوا لضم أطرافها الى أملاكهم ، فرتبوا لتنفيذ هذا الغرض سياسة محكمة ، تقوم من جهة على ارسال وفود الرهبان الى الحجاز ليمثلوا دور الدعاة للنصرانية بين البدو والحضر ، ومن جهة أخرى على تمهيد الأفكار والنفوس لقبول السلطان الروماني . فلما تنبه ملوك حمير لهذه الحيل وأدركوا ما يتعرض له كيانهم السياسي من الخطر الشديد بسببها ، نشطوا لاحباطها وفكروا في أمضى الأسلحة التي تمكنهم من القضاء عليها . فاعتنقوا اليهودية ليقاوموا سيطرة الدين الجديد باعتباره ديناً توحيدياً . وبذلك قضى ملوك حمير على كل الحجج التي كان ملوك الدولة الرومانية الشرقية يعتمدون عليها في الترويج لدعوتهم السياسية .

وكان من النتائج المباشرة لهذا الصراع بين الديانتين ، المذبحة التي ارتكبها ذو نواس الحميري بتحريض اليهود ، وإعداد الشعب لثورات اجتماعية داخلية . فقد حدث [1] المؤرخ اليوناني يوحنا من مدينة (افزوس) أن دومنيوس (ذو نواس) قبض على تجار من نصارى الروم وقتلهم ، واستمر يعامل تجارهم بالقسوة والعنف ويضطهدهم كلما مر أحدهم ببلاد اليمن ، حتى انقطع جميع التجار المسيحيين من دخول اليمن . فكسدت التجارة وضعفت الحركة ، لأن أسواقها تستمد الحياة مما تصدره الى الخارج من الحاصلات الزراعية والمنتجات الصناعية ، ولأن ثغور اليمن كانت الواسطة بين الهند وجميع الأصقاع الشرقية والغربية . فلم يكن من الممكن أن ينظر اليمنيون الى شل الحركة في الاسواق بعين الرضى ، فتقدم (ايدوج) قَيْلٌ وثني الى ذي نواس ، وقال له : ان أعمالك القاسية نقلت الحركة التجارية من ثغورنا الى ثغور الاعداء . فأجابه ذو نواس بأن اخواني اليهود في بلاد الروم يذوقون الواناً شتى من الهوان والتعذيب ، فأنا أريد أن أكفهم عن ذلك بمعاملة تجارهم بقسوة مماثلة . ولكن (إيدوج) خرج غير راض عن هذه السياسة التي ستؤدي الى خراب البلاد

---

(١) راجع كتاب : تاريخ اليهود في جزيرة العرب للدكتور ولفنستون .

ففكر في أن يتخلص من ذي نواس، فاتفق مع باقي الاقيال الوثنيين، وجمع بواسطتهم جموعاً قاتل بها ذا نواس حتى تغلب عليه وقتله ثم اعتنق (ايدوج) النصرانية .

هذه الرواية يشك فيها بعض المؤرخين لأنها لا تشير الى غزو الحبشة لليمن ، وليس فيها ما يدعو الى الشك عندي، لأن عدم تعرض الرواية للتنويه بذكر غزو الحبشة لا ينفيها ، فقد يحتمل أن تكون الغزوة الحبشية رافقت الثورة الداخلية ، والمؤرخ اليوناني مهتم بالسبب الذي كان أكثر مساساً في الانقلاب؛ على أنه صح لدينا أن الدعاية السياسية، عن طريق الدين، للدولة الرومانية الشرقية اصطنعت بعض الشخصيات العربية ، وان تَنَصُّر (ايدوج) أو بعبارة أصح اظهاره النصرانية يدفعنا الى اعتقاد أنه كان صنيعة من صنائع الدولة الرومانية ؛ وهذا يصحح الرواية من بعض الوجوه .

وذكر مؤرخو العرب ثورة أخرى قام بها رجل يقال له لَخْنيعة ينوف، وتمكن هذا من الغلبة وجمع السلطة في يديه ، ولكن المصادر العربية لم تذكر ما اذا كانت ثورة لخنيعة متجهة الى الأسرة الحاكمة فقط أو كانت متجهة أيضاً الى هدم كيان اليهودية أيضاً، اذ لا بد من آلة يستعملونها للتأثير في نفوس الشعب وتهييج عواطفه، وخير وسيلة لذلك بأن يظهروا بمظهر المدافعين عن عقيدة الآباء والأجداد ودين البلاد .

فهذه الحركات التمردية اذاً التي دبرها القيل (ايدوج) والشعبي (لخنيعة) كانت متأثرة بالصراع بين الديانتين .

والنتيجة الثالثة التي ترتبت على هذا الصراع ، هي قلق الضمير الديني وحيرة النفس المفعمة بالتساؤل المبهم . فالعربي لم يعد يطمئن الى وثنيته التي لمس في ادبياتها نوعاً من الضعة والانحطاط بمقارنتها بالادبيات المثالية لكلتا الديانتين ، كما لم يطمئن الى واحدة منهما لأن الدعاة المتنازعين كشفوا عما في الديانتين من عورات ، والمجتمع لم يستطع تقديم مصلح عبقري يتسنى له انقاذ هذا الشعب الحائر، قبل أن تسلمه الحيرة الى أسوأ حالاتها . وبالأخص في قريش الذين كانوا في

حالة نفسية مريضة للغاية ، بما اجتمع فيهم من موهيات لذلك ، فقد كانوا تجاراً يجوبون العالم القديم تقريباً للتجارة ، ويختلطون بشعوب تنتسب الى ديانات مختلفة ، ويشهدون اشكالاً من العبادات تثير طلعات نفسية متفاوتة ، وتبعث الوجدان على الوان شتى . ولذلك كانوا ذوي قلوب غُفْل حيال دعوة الاصلاح التي أذكاها النبي (ص) ، فوُجِد فيهم من يعارض مواعظ النبي القوارع بأقاصيص اسفنديار وأخبار الفرس القدماء ؛ لأنهم أخذوا دعوة النبي (ص) على أنها صنو لدعوة المبشرين من ذوي الديانات الأخرى ، فعارضوه بما استقر في نفوسهم من تأثير الدعاة المجوس وتأثير الدعاة الآخرين . فقد ذكر الواقدي انه وجد في مكة يهود ، كما حاول المستشرق (لامنس) أن يبرهن على أن عدداً كبيراً من اليهود كان يسكن مكة قبيل ظهور الاسلام ، وإن من المؤكد أن أفراداً من النصارى وعبيدهم كانوا في مكة مختلطين بأهلها .

فلهذه الحيرة الدينية ولعوامل دينية أخرى لم يستسغ القرشيون دعاية الاسلام ؛ وأما المدينة ، فلأن اليهودية تركزت فيها وحدها ، كانت عقلية قاطنيها الدينية هادئة كثيراً ، وكانت أقرب الى التأنس بالاسلام .

وهذا التطبيق في محيط قريش يوصلنا الى نتيجة هامة ، وهي أن طبقات قريش ، على اختلافها ، كانت مغلوبة بحيرة بالغة ؛ وفي معرفة كلٍ منا ان آل هاشم كانوا يمثلون طبقة كهنوتية أو انهم حماة التقاليد الموروثة ، فبحكم هذا التخصص كانت لهم تربية دينية خاصة ، تجعلنا نقطع بأن بيئتهم الدينية ولّدت فيهم ضميراً خصيباً بحكم الوراثة ، فينبغي إذن أن يكون صاحب التعاليم الجديدة منهم ، وأنْ يكونوا هم رعاة هذه التعاليم أيضاً .

والذي يصدق هذا التقدير ، أن الوجدان الديني كان يغلب على جميع رجالاتهم في كل دور ، فان علياً (ع) والحسن وابن عباس وزين العابدين ومحمد ابن ابراهيم شواهد صادقة .

فالنفس العربية كانت حائرة ما في ذلك شك ، وقد تمادى بها الشك الى ألوان

من الجمود والالحاد الخالص . فان من المحقق أن الاطفال ومن في مستواهم من ذوي العقليات البدائية التي تضعف عن الموازنة والتحكيم ، تميل بل تسرع الى التصديق والإيمان في غير شك ولا ريب ، والمنطق الجازم هو الذي يأخذ سبيله الى عقولهم وقلوبهم ، ليملأ خلاءها الساذج ، وهذه الرغبة عند الانسان التي لا تفتأ ساعية به إلى إرواء ظمئه الروحي هي التي تجعل استعداده للايمان غير محدود، وإن ما يسمونه في الفلسفة بالوجدان البديعي sentiment esthétique يدفع الانسان الفطري الى اشباع نهمه الفكري . فالعربي بدائي ، والبدائي سريع التصديق ، ولكنَّ نشاط المبشرين بديانات مختلفة ، جعله يتردد . فهو لا يمكنه الايمان بها جميعاً ، كما أنها لم تكن ديانات وثنية أو تشبه الوثنية حتى يجد الحل من قريب ، بأن يحترم آلهتها بدون تفريق ، كما كان يفعل الوثنيون القدماء . فالاسكندر ، حين فتح مصر ، تَبَنَّى فكرة المصريين الدينية، وحَرَّق لآلهتهم .

فلم يبق أمام العربي اذاً الا أن يشك ويلح في الشك ، لأن حرب الديانات بينهم لم يكن يعرف الهدنة. فالعربي كان صاحب وجدان ديني مريض، وبالأخص الذي يسكن الحواضر . والأخبار التي حدثتنا عن شك العربي في مناسبات حياته أكثر من أن تحصى ، حتى لقد اهتم القرآن بشأن هؤلاء الشاكين اهتماماً خاصاً، وهاجمهم مهاجمة عنيفة كلما حكى أفكارهم، في مثل آية (إنْ هِيَ إلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيا نموتُ ونَحيْا وما يُهْلكنا إلاَّ الدَّهْر) وآية (ومَا نَحنُ بِمَبْعُوثِين)، الى غير ذلك من الآيات الكثيرة . وهذا المذهب الدهري كان أكثر المذاهب انتشاراً ، كما يظهر .

والذي يدل على مكان هذا الشك ، في نفوس العرب ، شيوع فكرة النفاق في عدد كبير بعدما قوي شأن النبي (ص) وظهرت دعوته الاصلاحية . واشتعلت الضمائر بالثورة على القديم ، ومال الناس الى تعاليم النهضة التي أعد النبي (ص) هيكلها . رغم هذا النمير الصافي الذي أجراه النبي (ص) الى كل نفس لإرواء ظمئها وتبريد غلة الشك فيها ، لم تتأنس نفوس المنافقين بتعاليم الدين الجديد بل لم تطمئن اليه ، وهم معذورون، لأنهم كانوا يعانون من برح الشك الخفي ما جعل ضمائرهم قلقة على الدوام .

والاشياء التي تركها صراع الديانات عند العربي سواء في الوضع النفسي أو الديني أو الاجتماعي هي :

(١) الحيرة النفسية العميقة .

(٢) صقل الوثنية إمّا بالفكرة عند الطائفة المستنيرة، كالذي حدثنا به القرآن حاكياً قولهم (ومَا نعبُدُهُمْ إلاّ ليقرّبُونا الى الله زُلْفَى)؛ فهذه الوثنية المتطورة الفكرة لا بد انها مذهب أثّر في وجوده ما شاع بين العرب من أفكار الديانات الاخرى . وإمّا بالعادات ، كالصُّوفة والنسيء .

والصوفة وظيفة[1] دينية ، قال ابن هشام: كانت صوفة تدفع بالناس من عرفة وتجيز لهم اذا نفروا من منى ، فاذا كان يوم النفر أتوا لرمي الجمار ، ورجل من صوفة يرمي للناس، ولا يرمون حتى يرمي ، وكان آخرهم الذي قام عليه الاسلام (كرب بن صفوان)؛ ويقول الدكتور ولفنستون: ان صوفة التي معناها في العبرية الحارس أو الشخص الذي يبصر في الشؤون الدينية ، وظيفة تسربت الى العرب من اليهودية .

والنسيئة وظيفة أيضاً تسربت الى العرب من اليهود . وتميل جمهرة المستشرقين الى تفسير هذه الكلمة بما كان معروفاً عند العبريين ، من أن الناسىء، أي الرئيس الديني كان يؤخّر ويقدّم الشهور ويعيّن مواعيد الاعياد والصيام، ويعلن النتيجة بايفاد الوفود الى الطوائف اليهودية المختلفة . والناسيء هو الاسم الشائع لرئيس القبائل عند بني اسرائيل منذ أزمنة غابرة . ووجود هذه الوظيفة في بني كنانة التي كان

---

(١) من المسائل التي لم تحل حتى الآن تعيين الاصل الذي تنظر اليه كلمة (صوفية) و (تصوف) ؛ وعلى كثرة التقديرات لم يصل العلماء إلى رأي قاطع ، فهم تارة يردونها إلى الصوف وتارة إلى الصفاء واحياناً يردونها إلى اصول يونانية . ورأيي الذي اطمئن اليه جداً ان يكون (صوفية وتصوف) من كلمة صوفة العبرية. ومصدر هذا الاطمئنان شيئان (أ) الآصرة الشديدة بين معنى صوفية ومعنى صوفة، فكل منهما طائفة لها ترتيب ديني خاص واشكال تعبدية ؛ وان تخصص فريق من عرب الجاهلية بوظيفة الصوفة يجعلهم طبقة ذات شعائر وامتياز في مذاهب حياتها على شكل المتصوفة . (ب) مساعدة قواعد العربية في النسبة والاشتقاق على هذا التخريج اللغوي .

منها بطون مشهورة يرجح هذا التقدير ، كما يؤيده ما ذكره ابو معشر البلخي في كتاب (الالوف) وابو الريحان البيروني في كتاب (الآثار الباقية عن القرون الخالية) والمقريزي في كتاب (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار). ويذهب المستشرق الهولندي (دوزي) الى أن حرم مكة عمر ببطون[1] بني شمعون ، .وان تقاليده ليست الا وراثة اسرائيلية قديمة . كما ذهب أيضاً الى أن العرب استعاروا أسماء أيام الاسبوع من اليهود ، اذ لا يمكن تصور استعمال لفظ السبت بدون هذا ، كما أن يوم الجمعة عرف عند أهل مكة بلفظ عروبة ، وهو لفظ يطلق عند اليهود على كل يوم قبل السبت وقبل الاعياد .

(٣) فكرة تحريم الأشهر التي تشير الى شعور اجتماعي خاص دفعهم الى تكتل قومي مؤقت . هذه الفكرة التي كانت وليدة الشعور البليغ بالاجتماع . ونحن نطمئن الى أنه نتيجة الاتصال بنظم جديدة ، لأنه لون من التعاون الشعبي أوسع

---

(١) لي رأي جد غريب في اصل قريش والعدنانيين استخلصته من دراسات لغوية محض على الاصول التي وضعتها في كتاب (مقدمة لدرس لغة العرب) . ورغم انه رأى لا يستند إلى وثائق تاريخية فهو يتسقها ، ويتلخص بان العرب والعبريين كانوا قبيلة واحدة يسكنون في الجنوب ، والجماعات التي كانت مساكنها اقرب إلى الساحل سموا (عبريين) اي ساحليين نسبة إلى (العبر) والجماعات التي كانت مساكنها اقرب إلى الصحراء سموا (عرباً) اي صحراويين من كلمة (عربة) اي صحراء . وعليه فهذه التسمية جغرافية خالصة لا كما توهم المتوهمون من مستشرقين واحبار. وأقدر أن هؤلاء الساحليين كانوا يشتغلون في البحار كما هو شأن اشباههم. وقد وفقوا إلى نوع من الحضارة بينما الجماعات الاخرى الصحراوية الح بها الجهد واضطرها التكاثر إلى مزاحمة العبريين في مساكنهم واظن انها كانت الاماكن المتصلة بمدن التي ارى ان معناها عاصمة او مرفأ. وكان ضغط العرب او الصحراويين عليهم شديداً حتى حمل كثيراً منهم على المهاجرة صوب العراق ولكن بقيت منهم بقية دعي افرادها بالعدنانيين اي المقيمين ودعي العرب المتغلبون قحطانيين بالنظر إلى القحط او إلى الصحراء التي لا يفارقها القحط . واذا ثبت هذا الاحتمال الخالص بشواهد تاريخية فيما بعد نعرف أن عدنان وقحطان اقدم مما كانا نظن . ثم اتخذ هؤلاء العدنانيون سبيلهم إلى الحجاز حيث عاشوا هناك وشيدوا في أم القرى المعبد العتيق . وربيعة ومضر في نظري علمان جغرافيان ايضاً،وليسا علمين على جدين ؛ فان معنى ربيعه يشير الى الارض المربعة ومنازلها كانت كذلك، ومعنى مضر يشير إلى الرمال الملتهبة ومنازلها كانت كذلك . هذا رأي اقتصر منه على ما ذكرت لانه لا يستند إلى وثائق تاريخية وانما هو تقدير مجرد مبعثه التحليل اللغوي الخالص .

من اعتبارات القبلية متخذاً شكلاً دينياً عميقاً ، بَلْهَ انه كان حاجة أكيدة من حاجات التعايش في ظل الجنس . ويدل على انه غير بعيد النشأة أن قبائل من العرب كلخم لم تكن تخضع لهذا التشريع .

والنتائج التي نتوصل اليها بعد هذا العرض السريع :

(١) ان صراع الديانات كان عنيفاً وكان مأجوراً استعملت فيه شر الوسائل، حتى أدى الى مذابح رسمية في الجنوب على ايدي الحميرين[1] ، والى مناوشات في الحجاز .

(٢) ان الديانات لم تظفر بتحويل العرب عن عقائدهم، بل ظفرت بإثارة الشكوك .

(٣) ان الاسرة الهاشمية كانت هي المأمولة بأن تقدم المصلح ، وان المدينة هي الوطن الصالح لنمو الديانة الجديدة وبقائها .

(٤) ان النفاق مبعثه الشك الديني .

هذا بحث لا يعنينا منه الا أن نتحسس حالة الشك عند العرب قبل الاسلام ، ومقدار ما بقي منها في النفوس بعده . وقد ظهر لنا مما سبق أن حالة الشك كانت متحكمة الى حد كبير في عقول العرب ونفوسهم ، ورأينا أيضاً كيف أخذ الشك في عهد النبي (ص) شكلاً آخر دعي نفاقاً . وفي كتب التاريخ أخبار كثيرة وأقاصيص كثيرة من مثل قصة عمرو بن معدي كرب التي ذكرناها في مقدمة[2] الحلقة الأولى من هذه السيرة . وقصة تهاون المغيرة بن شعبة بالصلاة على ما ذكره

---

(١) الحميريون طائفة مبهمة النشأة؛ والمؤرخون على اختلاف في حقيقتها. وانا اشك في عربيتهم واعتقد بانهم دخلاء ؛ ومبنى شكي على التحليل اللغوي، فانا اذا تتبعنا كلمات احمر وحمر واحامر وجدناها تدل على غير العربي ؛ وفي ظني ان حمير ترجمة كلمة (فينيقي) فقد ذهبت طائفة من المستشرقين، منهم الاب اليسوعي «مرتين»: مؤلف تاريخ لبنان ، إلى ترجيح ان يكون معنى فينيقي احمر . واخبار التاريخ جاءت بأن بعضاً من الفينيقيين نزل في بلاد العرب جهة اليمن ايام سليمان (ع) .

(٢) راجع الحلقة الأولى : سمو المعنى في سمو الذات ص ٤٦

البخاري في كتاب مواقيت الصلاة من صحيحه ، وتهاونه بالحدود على ما ذكره الاصبهاني في كتاب الاغاني . وكلها تدلنا على مكان هذا الشك الذي ظهرت طلعاته وخوالجه المكبوتة في حركة الارتداد وحركة المتنبئين .

فإن حركة الارتداد، اذا درسناها درساً دقيقاً، دلتنا على موضع الشك عند هاتيك الاقوام القطرية ، وانه امتد الى نواحي نفسياتهم وصبغ عليهم ميولها . وهذه الحركة كانت متممة لحركة التنبؤ التي بدت طلائعها في زمن النبي (ص) آخر عهده . وكانت شائعة بين كثير من الخواص . وان ظاهرة الشك فيها كانت ملموسة الى حد كبير ، حتى لنراها في تضاعيف قصة المتنبئين واضحة جلية . وقد تأثرت هذه الحركة في نظري بعوامل ثلاثة :

(١) الاستياء الذي تملّك الطبقات الدينية (الكهان) من ضياع نفوذهم بالاسلام ، فعمدوا الى إستعادة مجدهم المفقود بدعوة مشابهة .

(٢) قلق الوجدان الديني الذي ظهر انه كان قوياً الى حد ما ، وقد استغله المتنبئون لإيصال دعوتهم الى العقول، أو على الأقل لإثارة الشك في التعليم الجديد الذي اطمأن العرب اليه اطمئناناً ما . وهذا يكسبهم رجوع العرب الى جاهليتهم المضطربة .

(٣) عدم فهمهم للنبوة على حقيقتها ، فان الذي في خيالهم عنها كان تصوراً مبهماً ومشوهاً . ولكي تتضح لنا هذه العوامل في حركة المتنبئين ، على وجه ادعى الى التصديق ، نورد نتفاً من أخبارهم .

ذكر ابن جرير انه لما اشتكى النبي (ص) وثب الاسود باليمن ، ومسيلمة باليمامة ، ووثب طليحة في بلاد بني اسد . ولعل أطرف شخصية بين المتنبئين هي سجاح بنت الحارث التي كانت كاهنة ، وكانت على علم بالنصرانية وكانت راسخة فيها تأثرت بنصارى تغلب . وإنما اخترناها لأن شخصيتها ازدوجت بشخصية متنبيء آخر هو مسيلمة .

وخبرها كما ذكره الطبري [1] : انها تنبأت بعد موت رسول الله (ص) بالجزيرة في بني تغلب ، فاستجاب لها الهذيل وترك التنصر ، وكان قصدها غزو ابي بكر في المدينة ، غير أن الظروف جعلتها تغير اتجاهها الى اليمامة . ويقولون انه جرى على لسانها (عليكم باليمامة ، ودفوا دفيف الحمامة فانها غزوة صرامة ، لا يلحقكم بعدها ملامة ، فنهدت لبني حنيفة وبلغ ذلك مسيلمة فهابها فأهدى اليها ثم أرسل لها يستأمنها على نفسه حتى يأتيها؛ فنزلت الجنود على الامواه،واذنت له وأمنته ، فجاءها وجعل لها نصف الارض . ورووا انها تزوجته وطلبت اليه أن يصدقها،فأمر مؤذنها شبث بن ربعي الرياحي أن يؤذن في الناس : ان مسيلمة بن حبيب رسول الله قد وضع عنكم صلاتين مما اتاكم به محمد : صلاة العشاء الآخرة وصلاة الفجر . وذكر الكلبي ان مشيخة بني تميم حدثوه أن عامة بني تميم بالرمل لا يصلونهما .

وكان من جملة أصحابها عطارد بن حاجب ، وهو الذي يقول :

أمست نبيتنا انثى نطيف بها ... وأصبحت انبياء الله ذكرانا

ثم أسلمت وحسن اسلامها .

هذه القصة تذكر أن سجاح كانت متأثرة بالنصرانية الى حد كبير ،أي غير مطمئنة،أو حائرة،وكانت كاهنة،فهي لذلك مستاءة حيث أن الاسلام وضع حداً للاعتقاد بأشباهها ، واتبعها كثير من متنصرة تغلب ، وانها تزوجت بمسيلمة الذي جعل صداقها اسقاط صلاتين من ديانة محمد (ص). ويؤكد نظريتنا في ضمير العرب الديني ،وانه كان متلدداً،ما ذكره الكلبي من أن عامة بني تميم بالرمل لا يصلونهما . على اننا نكاد نلمس الابتسامة الماكرة الساخرة في قول عطارد بن حاجب وبالأخص هذا التعبير (انثى نطيف بها) ورغم ذلك نجده منقاداً مستسلماً لأسباب منها ، أو أهمها : الحيرة التي شملت مجموعهم النفسي .

---

(١) راجع الطبري ج٣ ص ٢٢٨ إلى ٢٤١

والآن ننتقل الى درس هذه الظاهرة في عهد الخلفاء، خصوصاً عند الاعراب ومن لف لفهم . ولسنا نقف عند حوادث جزئية وقعت من الاشخاص في بعض مناسبات حياتهم ، وانما نتجه من أول الامر الى أحداث كبيرة تجلت فيها ظاهرة الشك على نحو يفيدنا ان نشخصه .

ويحسن بنا أن نشير هنا الى أن كتاب نهج البلاغة، اذا درسناه دراسة نقدية، نقع فيه على ما يؤكد هذا الظن ، ففيه خطب كثيرة ومجالس كثيرة تدور على مسائل من أصول الدين ، كان الناس لا يفتأون يسألونه عنها أو يتساءلون بها فيما بينهم ، وهي مسائل تتعلق بالذات الآلهية، في أغلب الاحيان كمثل خطبة الاشباح ، وهي من جلائل خطبه ، وكان سأله سائل أن يصف الله حتى كأنه يراه عياناً ، فغضب الامام(ع) ، وعرفهم كيف ينزه الله ؛ وخطبته في ابتداء خلق السموات والارض ، وخطبته في تنزيه الله ؛ وأجوبته في الحرية الادبية أو الارادة الجزئية (معضلة القضاء والقدر) ؛ مما يدلنا على ما هو متملكهم من حيرة خفية ، فان الاسلام رغم انه وضع حداً لهذه الحيرة بما فرض من مثل وتعاليم ، عادت فظهرت على أشكال اسلامية ، وبالأخص بعد عملية المزج الكبرى التي أدى اليها الفتح السريع . فلدخول ذوي الديانات الاخرى في الاسلام — والامم لا تغير دياناتها كما تغير اثوابها — ثبّت هذه الحيرة أو انماها ، ولكنه أعطاها شكل الاجتهاد الديني . والآن ندرس حركة الخوارج والسبئية على ضوء هذه النظرية .

نظرية الخوارج :

جاءت الاخبار بأن المتحاربين في صفين لما اتفقوا على التحكيم ، نفر قوم من جند علي (ع) أكثرهم من قبيلة تميم ، من أن يحكّم أحد في كتاب الله . وينبغي أن لا ننسى أن تميم كانت فيمن ارتد ، وكانت ردتها إلحاداً، فقد قدمت نبية كان لها شأن مهم ، وهي سجاح بنت الحارث . وانما انبهنا على هذا ليبقى في ذُكْرنا انهم كانوا ذوي ضمير ديني قلق ، تبعا لما يعرض في سماوة خيالهم . و بما أنهم يفقدون

القدرة على الموازنة العقلية فهم لذلك يصيرون الى التمسك بالرأي أو التردد . وستجد صدق هذا بعد حين ، فان بعضهم تشدد وغلا ، وبعضهم تردد : فكانت أفكارهم تختلف بين عشية وضحاها كما يقولون ؛ وفقدهم القدرة على الموازنة يعلل انقسامهم على أنفسهم هذا الانقسام السريع . وقد جعلوا شعارهم هذه الكلمة (لا حكم الا لله)المأخوذة من قوله تعالى (إنِ الحكمُ إلاَّ لله) .

أهَمَّتْهُمْ أنفسهم حينما قبل علي (ع) بالتحكيم لأن قبوله كما ذكرت في كتاب : (سمو المعنى في سمو الذات) ، معناه ان للخصوم شبهة حق وهو ما لا يسمحون لأنفسهم باعتقاده ، والا فقد تهافتوا بين عملهم اليوم وعملهم بالأمس . وهم ، حين استبد بهم القلق لضعف الموازنة العقلية عندهم ، لم ينقذهم الا أن يقر علي (ع) بالخطأ اي بالكفر .

ومن الخير أن نذكر طرفاً من تعاليمهم لنوجد صلة عقلية بين أفكارهم وبين الأفكار القديمة من جهة ، وصلة أخرى بين طلوعهم بهذه التعاليم وبين الحيرة المسيطرة .

ذهبوا في أول الامر الى أن الخلافة ليست حقاً اصلياً ولا مكتسباً لقريش ، وانما هي حق مشاع بين العرب ، ثم قالوا بين عامة المسلمين .

دقق النظر في هذه الفكرة التي تَنْفس على قريش سلطانها وتحكمها ، وبين ما جاء على لسانهم يوم الارتداد ، تجد البواعث واحدة . فمسيلمة كان يقول : ان قريشاً قوم يعتدون ، وقال قيس بن عاصم :

ألا أبلغا عني قريشاً رسالة ... اذا ما اتتها بينات الودائع

كما نجد من أهم بواعث الثورة على عثمان أيضاً ، ان القبائل نفست على قريش إمْرتها ، وقد أنضج سخيمتهم تصرُّف قريش تصرفاً غير مشروع ولا عادل ، الى حد جعل القبائل ترمي قريشاً بأنها نَصَلَتْ من الدين تقريباً . واسمع الى ما يقول شاعر :

بلينـــا من قريش كل عـــام أمير مُحْدِثٌ أو مستشـــار
لنا نـــار نُخَوِّفُهافَنَخْشى وليس لهم ، فلا يخشون ، نـــار

فكان بين هذه الحركات الثلاث صلة شديدة ، وهي في الواقع حركة واحدة ظهرت في ظروف مختلفة ، وكانت تصطنع لها في كل ظرف ما يناسبه . فحركة الخوارج في نظري بقية من حركة الارتداد الكامنة ، ولكنها في هذه المرة أخذت شكل اجتهاد ديني اسلامي .

ورأيهم في الخليفة انه لا يصح له أن يتنازل ولا أن يحكّم ، واذا تم اختياره صار رئيس المسلمين ، ويجب أن يخضع خضوعاً تاماً لما أمر الله،والا وجب عزله . ومن طوائف الخوارج من يذهب الى أنه لا حاجة بالأمة الى امام ، وانما على الناس أن يعملوا بكتاب الله من أنفسهم ،وهذا ما كان يفهم من كلمتهم «لاحكم الا لله» ؛ ولذا قال علي (ع) : « كلمة حق أُريدَ بها باطل ، نعم انه لا حكم الا لله ولكنَّ هؤلاء يقولون لا إمْرة الا لله » . يتبين لنا من هذا أن نظرية الخوارج ترجع الى عوامل ثلاثة :

(١) القلق الديني .

(٢) العصبية .

(٣) خضوع هؤلاء الاعراب أيام جاهليتهم للكهان خضوعاً تاماً ؛ فما كانوا يقطعون بشيء الا بعد تحكيمهم . والمفروض في الكهان انهم يستفسرون الغيب ، وهذا أدخل في فطرتهم انهم مسيرون كرهاً ،وجاء التنبؤ فثبّت في ضمائرهم أن الغيب هو المحكّم في كل شيء . فالعرب من هذه الناحية كانوا جبريين ،ونجد في الآثار المروية ونهج البلاغة أن علياً (ع) اجتهد كثيراً في تفهيمهم حقيقة القدر ، وكانت لهجته في ذلك قاطعة صارمة ، وتأمل قوله في الجواب عن مسألة في القدر « لو كان،اي معنى القدر، كما تظنون لبطلت الشرائع والتكاليف والجنة والنار وبطل ارسال الرسل ، اياكم وهذه العقيدة فانها عقيده مجوسيي هذه الامة» . هذه هي البواعث الحقيقية لخروجهم ، وان كان ، في ظاهره ، لا يعطي الا أنه نتيجة ظرف خاص انكشف عنه .

السبئية: والآن نتناول السبئية التي كانت أدخل في وجهة هذا النظر . وهي نِحْلة تنتسب الى شخصية غامضة كل الغموض حتى عُدَّتْ شبه تاريخية ، وهو عبد الله بن سبأ ، والرواة يختلفون فيه الا أنهم يجمعون على الدور الذي لعبه ، وأكثرهم يذهب الى انه يهودي من صنعاء ، قدم الحجاز ، ودخل في الاسلام كما دخل غيره من اليهود ؛ وقد ابتدع للعرب قضايا شغلت الافكار وأقامت المجتمع العربي ، وأذكت فيه الثورة ، ولعله الشخص الذي نظم تعاليم الثورة وأعطا هاشكلاً متسقاً مهذباً .

والمسائل التي خلب بها الناس تنظم في صنفين :

(١) لاهوتي ، ومسائله هي : (أ) أن علياً يجب أن يَخلف النبي (ص) وليس ابا بكر (ب) ان علياً (ع) وصي محمد (ص) كما كان هارون وصي موسى (ع) ، وشمعون الصفا وصي عيسى (ع) (ج) ان محمداً (ص) سيعود كما عاد موسى ، وكما للمسيح رجعة ، مستنداً الى قوله تعالى (ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد).

(٢) اجتماعي وهو من النوع الاشتراكي المتطرف ومسائله هي : (أ) ان المال يجب أن يقسم بين الناس بالسوية، وليس هناك غني ولا فقير . (ب) ان تسمية معاوية للمال بمال الله لا مال المسلمين افتيات على حقوقهم ، وقصد معاوية من هذا، كما كان يروج أن يستأتي له التصرف به كيف شاء . ولا يختلف اثنان من المؤرخين بأن ابن سبأ تأثر الى حد كبير بتعاليم الديانات المختلفة، وأخصها المزدكية في الجانب الاجتماعي من أفكاره . وفي نزعته مصداق نظريتنا التي اجتهدنا أن نفسر بها الأهواء الدينية التي أدت الى اختلاف كبير .

والمؤرخون يرون في عبدالله بن سبأ هذا ، رجلاً دساساً خطيراً ، ونرى فيه غير ذلك . ومقدمات هذا الرأي الذي كوّنته لنفسي ، ان السياسة المالية التي سار عليها عثمان(ض) ، من حيث اقطاع المحاسيب — فقد أقطع مروان خمس ما فتحه في افريقيا ، والاقطاع شيء مستحدث في الاسلام، بله انه خوّل قريشاً الملك واقتناءالضياع والتزيّد منها الى أبلغ حد — كانت طفرة بالنظر الى سياسة عمر (ض)

الصارمة في هذا الجانب . وقد نشأ عنها ولوع بالاستكثار، ورغبة جامحة في التمول ضرورة انها نقلة من الفقر الجديب الى الثراء العريض . وقد ظهر أثر هذا التسابق على الامتلاك سريعاً في الوضع الاقتصادي العام ، حيث جعل العسكريين الذين أوقفوا أنفسهم على الجندية طبقة فقيرة يائسة، والحف عليها الفقر بصورة أشد حينماوقفت الفتوح. واذاعلمنا أن العسكريين هم أكثرية العرب المسلمين نصل الى ان الطبقة الفقيرة شملت العرب اكثرهم ، وأصبحت قريش وحدها هي التي تؤلف الطبقة المالية أو الارستقراطية ، فعرفت الناس ضغينة على قريش باعتبارها المستبدة بالمرافق العامة والمستبدة بالدولة، ولاعبت نفوسهم أفكار ثورية عميقة . وبحكم ان عبدالله بن سبأ كان رحالة ، ويحمل عقلاً مفكراً وحساً نافذاً الى بواطن المجتمعات، فقد لمس أسباب الاستياء العام ، وحاول أن يتناول المجتمع في ناحية المال باصلاح مناسب ، ولذلك لاقت أفكاره رواجاً اي رواج .

واما أن نظن بأنه استطاع أن يفتن شعباً مطمئناً الى عقائده وشؤونه بالدعاية الخالصة، فخرق بالنظر النفسي والاجتماعي ، وان يفتن خُلّص الرجال الذين ساهموا ببناء الهيكل الاسلامي، من مثل ابي ذر (ض) الرجل الذي طورته الديانة تطويراً حقيقياً، وجعلت منه مسلماً عميق الاسلامية ، فانه يرمينا بنوع من البله والسذاجة في فهم طبائع النفوس . فقد كان في حكم الثابت اذاً أن الناس عامة شعروا بشعور واحد، وألف بينهم الاستياء؛ ويدل على هذا انتقاد علي(ع)نفسه لهذه السياسة التي جعلت قريشاً تبتلع المجتمع الاسلامي الواسع وتتجاهله، وهو القرشي الصميم ؛ وشكواه من قريش التي كان يرمز بها في ذلك الحين إلى الامويين تملأ خطبه التي في النهج .

وان ابا ذر (ض) لمس هذا الاستياء، وحاول أن يضع حداً للتدهور الاجتماعي السريع الذي بدأ يؤذن بالثورة على الرأسمالية الوليدة ؛ وقد استنام الى أفكار عبدالله ابن سبأ التي تؤلف برنامجه الاصلاحي ، لأنها وافقت أفكاره ولأنه وجد فيها علاجاً لا يبعد عن روح الاسلام في جوهره، خصوصاً وان في برنامجه مرداً الى سياسة عمر المالية ، في غايته ، بدون نظر الى الصيغة التي افرغ فيها .

ونحن لا ننكر أن أفكاره الاشتراكية متطرفة، ولكن التطرف دائماً شأن الشعور بالضيق ؛ والمفكر بأفكار ثورية يكون على الدوام مفكراً متطرفاً . وكذلك الشعب الثائر يكون متطرفاً على مقدار كبير. فعبدالله بن سبأ مسلم ليس ما يحملنا على الشك في اسلاميته، وصاحب أفكار اصلاحية استلهمها من حالة المجتمع العامة، لا انه نفثها فيه. وهذا لا يمنعني أن أقرر أن برنامجه، في قسميه : اللاهوتي والاجتماعي، كان مقتبساً من ديانات عدة ، وبالأخص في القسم الاجتماعي، الا أنه سبكها على شكل لا تتنافى به مع روح الاسلام [1] ، فهو صاحب فلسفة دينية مقتبسة . وقد أثر أيضاً في الخوارج ؛ وسيأتي لنا درس هذا في بحث الثورة على عثمان (ض) .

هذه مقدمات ونتائج نريد أن نصل من ورائها الى استيضاح أثر القلق في الوضع الديني والحياة العامة بعد الاسلام ، ونحن في هذا الفصل قد اظهرناه في حدود المناسبة التي دعت اليه . ويتحتم علينا، قبل مزايلة الموضوع، أن نتكلم عن السياسة التربوية التي اتخذها النبي (ص)، وتحزم بها للقضاء على القلق الديني الخطير الأثر . ونحن، بعد المامة قصيرة بالسيرة النبوية، نجد النبي (ص) اعتمد على أساليب تربوية خالصة لابلاغ الدين الى الضمائر في استقرار مكين . فكان يأخذ العرب بالترغيب تارة والترهيب أخرى ، ويأخذهم أحياناً برياضات دينية من شأنها أن تبعث الضمير الديني المهذب . بيد أن الفترة التي قضاها النبي (ص) بينهم كانت قصيرة فلم تحقق الاختمار الا في طبقة بقيت لها ميزتها في السياسة، الى زمن بعيد، وميزتها في الاعتقاد ، ما تبقى على الارض مسلمون .

وكان على الخلفاء أن يتابعوا هذه السياسة التربوية التي انتهجها النبي (ص) لكي يحققوا الاختمار الديني المنتظر . بيد أن سياسة الخلفاء مالت الى التوسع في تزيد أسرع بفناء الطبقات التي تهذبت على يدي المصطفى كالقراء ، ولم يدع فرصة لتحقيق الاختمار في الباقين . فالتعجيل بالفتوح كان بمثابة جذر

---

(١) وقع القول بالرجعة في وهم عمر (ض) بعدما مات النبي (ص)، فقد كان وقع الخبر عليه شديداً فلم يصدق وذهب يغالط نفسه في صدق الخبر بانه لم يمت وانما ذهب كما ذهب موسى وسيعود؛ ومن هنا اخذ الرجعة ابن سبأ. واخذ دعواه في الوصاية من حديث : انت مني بمنزلة هارون من موسى — الحديث.

قوي في النفسية العربية الاسلامية ، وقد لمسوا بعضاً من نتائجه المحسوسة في فناء القراء تقريباً ، حتى عمدوا الى كتابة القرآن صوناً له عن الضياع .

فان من المسلم به انه لا بد من مرور الزمن لترسخ التعاليم وتتحول الى صفة ارادية غير مشعور بها، كما يعبر (ليبنز)؛ فهذا الاختمار الديني ضروري جداً .

وقد اصيب الاسلام، من حيث العجلة بالفتوح، بما اصيبت به الثورة الفرنسية، فان حركة نابوليون جاءت سريعة، بحيث لم تدع لمبادىء الثورة ما كان يلزم لها من زمن . وهي وان تكن قد نشرت مبادىء الثورة خارج الحدود، كما نشرت حركة الفتح الاسلامي الدين خارج الحدود، فقد حالت دون قطف ثمارها على الوجه الذي كان مرغوباً فيه — والثورة الفرنسية كالثورة الاسلامية تماماً ، فقد تولد من امتدادها في غير حدود فرنسا، على الوجه المذكور، مذاهب اجتماعية متذبذبة في كل اوروبا كما حدث في الاسلام، فالماركسية والفوضوية وما الى هـــذه من مذاهب أخرى كانت كالخوارج والسبئية ؛ لأن كلاً منهما صار، بفعل عدم الاختمار، مذهباً غـــامضاً .

على اننا لا نجرد هذه الحركة من محاسنها، بيد أنها لا توازي ما نشأ عنها من نتائج كانت أشد خطراً وأهمية. ولو أن الاسلام أدركه الاختمار اللازم، ثم جرب أن يلعب دوره العسكري، لما كان مباءة البتة لاية نزعة . فتأثير عملية المزج التي كانت نتيجة ضرورية للتوسع الاسلامي ، جاء من هذا الجانب الاعتقادي الذي كان مريضاً .

ولا تنس هنا أثر القبلية التي ثبت لنا، في الفصل السابق، انها كانت شديدة التحكم في نفس العربي وعظيمة التصريف لحركاته. ويحسن بنا أن نشير الى أن، من جملة أسباب الردة أو الحركة الانفصالية الدينية كما افهمها ، القبلية ؛ فان من الاشياء التي سبقت الاسلام تفكير النجرانيين بتأسيس كعبة لهم ، قال ياقوت في المعجم: «وكعبة نجران هذه يقال بيعة بناها بنو عبد المدان بن الديان الحارثي على بناء الكعبة، وعظموها مضاهاة للكعبة، وسموها كعبة نجران، وكان فيها اساقفة مُعَمَّمُون». غير ان بعض الباحثين يميل الى انها كانت كعبة للعرب تحج اليها قبل مجيء

النصرانية ، ثم اتخذها النصارى بيعة بعد انتشار النصرانية فيها وهذا؛ هو الرأي المحقق في نظري . وبتأمل بسيط في الحادي على الانفراد بكعبة، نعثر عليه في النزعة القبلية التي تميل الى التحرر من التبعية في كل ألاشياء واشياء العبادات ايضاً .

ويظهر لنا من هذا أن الرغبة اتجهت الى الانفصال الديني في الجاهلية ؛ ولما جاء الاسلام ، وثبت التبعية الدينية، ووحد الكعبات ، عاودتهم الرغبة السالفة الى الانفصال ، فأذكوا حركة الارتداد .

يثبت لنا من هذا ، أن عدم الاختمار الديني أدى الى البلبلة التي شهدنا من آثارها في المحيط العربي شيئاً كثيراً، وشهدنا من آثارها مثل ذلك بعد عملية المزج الاسلامي الواسعة .

والمسيحية كالاسلام أدركها بعض الاختمار في أولها ، ثم طفرت بدخول قسطنطين فيها ، وكان بدء انتشارها بدء اضمحلالها أيضاً . فان هؤلاء الذين دخلوها بعد ذلك دخلوها على وجه السرعة ، فلم يدخلوا وحدهم بل بعقائدهم ايضاً ، فاكتسبت المسيحية شكلية اخرى ، وبدأ الانقسام فيها نتيجة للاختلاف الاعتقادي القديم ، وليس نتيجة للاختلاف الاجتهادي أو التفسيري كما يظن .

والحق ان الاسلام صادف ما لم يصادفه دين آخر ، من حيث هُيِّئَتْ فيه نبل التعاليم وفطريتها، ومن حيث جمعت له القوة أيضاً ليحوطها، فلم يكن في حاجة الى عون يعتمد عليه، ولكن التحرك السريع أفقده هذه المزية، وظهر فضل ميزة القوة التي هيأها محمد (ص)، أكثر ما ظهر، في عدم تحريف التعاليم، فان التحريف نتيجة للضعف والتستر والتخفي .

والنبي (ص) أخذ بعمل الاختمار في دار الارقم . وفي نظري ان دار الارقم كانت مَرْبَى للجماعة الاسلامية من جهة ، وكهف الثورة من جهة أخرى . وشاءت طبائع الثورات أن يكون لها هذا الكهف أول منزلة من منازلها ، ثم تُطِلُّ منها ككُوَّة لا تزال تتسع وتتكوَّر حتى تسامت الافق وتضيق عنهــا الحــدود . «فغاريبلدي» كان له مثل دار الارقم ، وكذلك كل ثائر وكل مصلح .

ويحسن بنا أن نسرد نتائج هذا الفصل، بعد لمحة العرض التي أتينا بها، لتكون في ذُكْرنا القريب ، وهي :

«١» تناحر الديانات، على شكل أن يدّعي كل فريق بأن الحق في جانبه، أقام الفكرة الدينية عند العرب على الحيرة المبهمة والشك الخالص ، ففشا فيهم التعطيل والالحاد والقول بعدم البعث .

«٢» الديانات الدخيلة كانت أرقى من الوثنية، فأثرت فيها تأثيراً متفاوتاً؛ وهذه نتيجة ضرورية للتفاعل بين الديانات والوثنية .

«٣» الديانات التي تكوّن لها ، في نفوس الشعوب ، مزاجاً خاصاً ، لا تندثر بل تتقمص وتستعيد حياتها في زي آخر .

«٤» النزعات الاسلامية الاولى كالخوارج والسبئية تأثرت بصفة الشك التي لابست النفس العربية .

«٥» صراع الديانات أعد العرب للثورات الداخلية ولحركات الاضطراب .

«٦» اسرة بني هاشم هي الاسرة التي نضج فيها الضمير الديني حتى زودها بحصانة ضد الشك والقلق، فهي اذن الاسرة الخليقة بأن تقدم المصلح للمجتمع المحموم، وهي الخليقة بكفالة التعاليم ورعايتها، لأن الدين منها كالطبيعة من كل نفس .

النظام العام

نظرية: لكي نكون أكثر فهماً للنظام في عهد الخلفاء ، من شتى نواحي الادارة والحكومة والقضاء فيما يتعلق بالتفصيلات ، نقدم بين يدي الموضوع نظرية لها أهميتها لأنها كالقطب الذي يدور حوله الموضوع ، وعلى ضوئها نَتَهَدّى الى شرح خفيّاته . وأظن بأن كثيرين يشاركونني الرأي فيها .

وهذه النظرية هي أن الثورة الاصلاحية التي وضع النبي (ص) تصميمها ، ثم أذكاها في المجتمع العربي الواسع على حدوده ، لم تدخل في دور استقرار حقيقي . بل اتصلت عبّر الحدود الى الاقاليم القريبة والشعوب المجاورة ، وكذلك اتسعت دائرتها في حركات تعاقبية سريعة ، وما انتهت الى سكون طبيعي الا بقيام الدولة الاموية . ومعنى هذا أن الثورة الاسلامية كان لها دوران ، الاول حين الهبها النبي (ص) في جزيرة العرب ، والثاني حين الهبها الخلفاء في العالم القديم كله ؛ وبانتهائها انتهى عهد الخلفاء .

ومن طبيعة التنظيم ، فيما يتعلق بالاجراءات والتفصيلات ، انها لا تتم الا بعد الاستقرار ، ضرورة ان الادارة والتنظيم التامين عمل تشييدي لا يكون في فترة الفتح والتوسع الا بمقدار الحاجة والضرورة . والفرق بين معاطاة الفتح في عهد الامويين وبينه في عهد الخلفاء ، ان الاول كان من جملة أعمال الملك المتمركز ،

بينما الثاني كان كل عمل الخليفة .

وهذا يوصلنا الى أن التنظيم الكامل لم يتم في عهد الخلفاء ، لأنهم لم يستقروا في حياة مدنية خالصة تدعوهم اليه ، على انهم قطعوا أشواطاً في سبيل التنظيم العام . ولا يتوهمن متوهم حينما نتكلم عن النظام اننا نعني الناحية التشريعية التي كملت بالقرآن ، وانما نعنيه من الناحية العملية الاجرائية أي من ناحية التشكيلات والتراتيب خاصة .

وإن الواقف على الكتب التي عنيت بهذه الناحية من الدرس، ككتاب الماوردي الموسوم بالاحكام السلطانية، يقع على تجربات تقنينية ومحاولات تنظيمية تمت في عهد الخلفاء ، إلا أنها لم تجاوز هذه الصفة أي لم تنسق على وجه يسمح لنا بإطلاق اسم النظام عليها الا في توسع ومجازية . وهذه المحاولات والتجربات ألهمت ذوي العقليات القضائية العميقة أن يقدموا دستور النظام العام بكافة ما يلزم فيه . ومما لا ريب فيه أن علياً(ع) كان صاحب اكبر عقلية قضائية نظامية في هذا العهد، فهو قد استفاد من كل ما مر بالحكم العربي الاسلامي من أشكال ، وأيضاً لمس حاجة المجتمع من وجه ، ومحاسن المحاولات التي حاولها الخلفاء قبله ومساوئها من وجه آخر . فقدم دستوره التنظيمي العظيم ، في عهده الى الاشتر النخعي ، بعد الاختمار والامتحان الواقعي .

وهذا العهد يشك فيه بعض الباحثين مستندين الى أن الأفكار النظامية التي يحتويها لا تسمح باضافتها الى عصر علي (ع) ، ومما ذكرنا نتبين بأنه لا محل للشك ، لأن علياً موهوب في القضاء والادارة ما في ذلك شك ، حتى قيل : « قضية ولا ابا حسن لها »؛ ولقد اهتم المشرعون بعد ذلك بجمع اقضيته وأحكامه وتنظيماته، فألف الترمذي كتاباً في مجلدين دعاه « اقضية علي »، والف ابن قيم الجوزية كتاباً في « السياسة الشرعية » ملأه بأقضيته، فهذا يدلنا على أن علياً كان يمتاز بعقلية نادرة في القضاء المتصل بالتنظيم . ولأن المحاولات التي صدرت من ابي بكر (ض) جاء عمر فحور فيها، وعمر (ض) كان أكثر تشبثاً بالتنظيم وميلاً

اليه، فكثرت في عهده التشكيلات نوعاً ما، ثم جاء عثمان (ض) فأقر نظماً وغيـّر نظماً واستحدث مثل ذلك ، وعلي (ع) يرقب كل هذا التطور النظامي وهو متصل بالشعب يرى مقدار رضاه عن هذه الترتيبات ، فاستفاد من هذه المحاولات التي مرت به الى ما عنده من فطرة قضائية خارقة . وبذلك استطاع أن يطابق بين أماني الناس ، وبين النظم التي تحكمهم ، وان يعطي أيضاً تشريعات اصلاحية تتصل بالاجتماع والسياسة والنظام العام، فاذا كان النبي (ص) هو المشرع القانوني، فان علياً (ع) هو المشترع [1] النظامي .

فعهد علي الى الاشتر النخعي ليس فيه ما يدعونا الى الشك فيه أو استبعاده عنه؛ وهو أول دستور حكومي صدر كمرسوم في الاسلام. ويظهر من هذا العهد أن علياً (ع) كان يرمي، في مدة خلافته، الى أخذ الشعب الاسلامي الذي تركب بماشمل من الامم المختلفة بعمل تشييدي عظيم ، وكان عملاً موفقاً جداً ونظامياً جداً ، لانه الطبّ بأدواء المجتمعات من النواحي التشريعية . ولكن الثورة الداخلية التي اثيرت عليه، ودارت حول شخصه ، أعجلته وأوقفت كل حركاته الاصلاحية التي ابتدأها بحزم وشدة .

وأهم نواحي النظام التي سندير البحث عليها هي : نظام الحكم ، نظام المال، نظام الادارة والقضاء ، نظام الجندية .

نظام الحكم : نتعرض لصعوبة حقيقية حينما نريد أن نحدد من أي نوع من أنواع الحكومات كانت الحكومة الاسلامية في أطوارها الاولى . ولنكون أكثر قصداً في بحثنا يحسن أن نقدم بين يدي الموضوع توطئة في الدولة [2] ووظـائفها على ما هو معروف عند علماء السياسة .

يرى ارسطو أن أنواع الحكومة تتمايز بعدد الاشخاص القابضين على زمام

---

(١) انما عبرنا بمشترع، وان كانت صيغة اشتراع غير محفوظة، لان غرضنا ان نضيف إلى التشريع معنى الاقتباس الذي يستفاد من صيغة افتعل .

(٢) راجع كتاب : تاريخ الدستور للاستاذ وايت ص ٤٧ إلى ص ١٧٤

السلطة ، فالدولة التي يدير شؤونها فرد واحد تسمى ملكية ، والتي يدير شؤونها جمهور الامة تسمى جمهورية ، والتي يدير شؤونها جماعة قليلة تسمى ارستقراطية .

وهذه الانواع الثلاثة اذا كانت الدولة صالحة أي كان الغرض منها رعاية مصالح الامة ؛ فاذا ظهر فيها الفساد ، وأصبح همّ الحكام تحقيق مطامعهم الشخصية ، سميت الحكومة من النوع الاول استبدادية ، ومن النوع الثاني استئثارية ، ومن النوع الثالث حكومة الغوغاء . ثم يذهب الى ان هذه الأشكال تتعاقب على الدولة الواحدة في سنة اجتماعية دائمة تقريباً . فالدولة تكون في بدايتها ملكية صالحة ، حتى اذا فسدت طباع المَلِك انقلبت استبدادية ، غايتها تحقيق شهوات الحاكم ، فاذا تغلب عقلاء الامة على المُلك وتقلدوا زمام الاحكام أصبحت ارستقراطية ، فاذا خلف من بعدهم خلف وجهتهم الاستئثار بالسلطة والمنافع تحولت الى حكومة استئثارية ، فاذا هبت الأمة لتذود عن مصالحها وتولت أمورها بنفسها أصبحت جمهورية ، فاذا جاوز الافراد حد المعقول في استعمال السلطة وتنازعوا أمرهم بينهم اضحت الحكومة فوضى ، وفي هذا الظرف تعود الى الملكية كما بدأت . وقد كانت الثورة الفرنسية مصداق نظريته من كل الوجوه .

وذهب مونتسكيو الى أن الحكومة لا تخرج عن أن تكون ملكية أو جمهوريةأو استبدادية ، فالملكية عنده ما تولى الحكم فيها فرد بمقتضى قوانين ثابتة ، والجمهورية ما كانت السيادة فيها للامة أو بعضها ، والاستبدادية ما كانت السلطة فيها بيد فرد يتصرف فيها بارادته وأهوائه .

وقسم روسو الدول باعتبار عدد الأشخاص الذين يتولون الأمر ، الى ملكية وهي التي يدير شؤونها فرد واحد ، وارستقراطية وهي التي يدير أمورها فئة قليلة ، وديمقراطية وهي التي تستمد سلطتها من عامة الشعب . والديمقراطية نوعان مباشرة وهي لا تكون الا في الجماعة القليلة العدد المحدودة المطالب والحاجات ، وغير مباشرة او نيابية .

وزاد بعض كتاب الالمان نوعاً آخر أسماه الثيوقراطية وهي التي يستمد فيها الحاكم نفوذه من السلطة الالهية .

وهناك نظريات مختلفة في وظيفة الدولة وهي ترجع الى ثلاث ، اذا نحن أبعدنا النظرية الفوضوية التي ترمي الى القضاء على الحكومات باختلاف أنواعها .

(١) النظرية الفردية : وهي ترمي الى قصر عمل الحكومة على رد الاعتداء عن الأفراد ؛ فعملها سلبي ، وتكون وظيفتها الخارجية المحافظة على سلامة الدولة من الاعتداء، ووظيفتها الداخلية المحافظة على الامن العام، وكل عمل تأتيه وراء ذلك يكون خروجاً عن الاغراض التي وجدت لأجلها . وكان سبنسر من أكبر دعاةهذه النظرية ، وقد انتشرت في أواخر القرن الثامن عشر .

(٢) النظرية الاشتراكية : وهي ترمي الى ضرورة تدخل الحكومة في جميع الأعمال ، توصلاً الى زيادة هناءة الفرد ورفاهيته ؛ وأصحاب هذه النظرية يهتمون بالحرية الفردية أيضاً، ولكنهم يرون ان صيانتها أتم من طريق تدخل الحكومة، ولم يتفق أنصار هذا المذهب على مدى تدخـــل الحكومة في شؤون الافراد ، فهنـــاك متطرفون ومعتدلون .

(٣) النظرية المتوسطة : وهي ليست فردية بحتاً ولا اشتراكية بحتاً .

والآن نتناول حكومة النبي (ص) وحكومة الخلفاء ، حتى نقع على الشبه الذي يردهما الى نوع من أنواع هذه الحكومات المذكورة .

نعلم أن النبي (ص) جمع السلطة الزمنية في يديه، الى جانب السلطة الدينية، فكان مصدر السلطات كافة . فحكومته على ما وصل الينا من أخبارها ثيوقراطية في جوهرها ، وديمقراطية مـــن حيث إن الأفراد كانوا يبايعونه على اسلام الامر اليه ومده بالسلطة . وهذه المبايعة انتخاب آكد من التصويت ، وكانت ثيوقراطية من حيث الصفة التشريعية .

وديمقراطية حكومة النبي (ص) من النوع المباشر ، وهذا ما يعطيه قوله تعالى: « وشاورهم في الامر » ، وكانت من حيث الوظيفة أكثر انطباقاً على النظرية المتوسطة ؛ فهي تحافظ على الامن العام، وتدافع عن سلامة الدولة الفتية، وتشجع العمران وما اليه من كل ما يتصل بالعمل الحكومي الايجابي .

وأما في عهد الخلفاء فقد عرف نظام جديد للحكم يقوم على فكرة الخلافة ؛ والاساس الذي تقوم عليه هو أنها عقد حقيقي بين المُنتَخَب وبين الجمهور ، وليس أمعن في الديمقراطية من أن يتعاقد طرف مع آخر على شروط معينة ، بحيث اذا اخل أحد المتعاقدين بالشروط انحل العقد . يرى روسو ، في نظرية العقد الاجتماعي ، أن أساس الحكم فلسفياً هو عقد بين الجماعة وبين شخص ، على أن يتولى حكماً لمصلحتها . وروسو لم يجلب شاهداً واقعياً على دعوله ، وانما استند فيها الى الفلسفة المحض ؛ وفي الخلافة شاهد واقعي صريح .

والذي نعلم من أمر الخلافة أن المبايعة شرط ضروري فيها ، فهي إذن قائمة على الانتخاب ، وأن الخلفاء الأربعة ليسوا من أسرة واحدة فهي إذاً لا وراثية ؛ ووجدت بينهم طبقة دعيت بأهل الحل والعقد ، ويظهر من اسمها أنها كانت ذات نفوذ كبير في الشؤون كافة ، مما يجعلنا ننظر اليها كطبقة برلمانية ، وان لم تكن لها الأشكال عينها ، فان العبرة بالروح لا بالحرفية .

فالخلافة من هذه الناحية ديمقراطية لها شكل الملكية ، وديمقراطيتها كانت غير مباشرة ، أو نيابية بعبارة اكثر مجازية . فان طبقة أهل الحل والعقد كثيرة الشبه بطبقة النواب ، لانهم كانوا في موضع الثقة من الطبقات الاسلامية كلّها . وبقيت هذه الصفة لحكومة الخلفاء الى زمن عثمان (ض) الذي حفّت به طبقة حاكمة من اسرته ، مالت بالحكومة الى الارستقراطية ، وكانت وجهتهم الاستئثار بالمنافع ، فان سياسة مروان الذي أطلق يَدَهُ في حكومة عثمان كانت نفعية محضاً . وبسبب هذا هبت الامة لتذود عن مصالحها ، فأحدثت الثورة التي انتهت بمصرع الخليفة ، وتولت أمورها بنفسها في عهد علي[1] ، فكان المنتخب الجمهوري بدون وساطة أهل الحل والعقد ، فقد بايعه ، أول من بايعه ، الاشتر الثائر ؛ وبذلك كانت حكومته جمهورية بكل المعنى .

---

(١) لم يكن نفوذ الجمهور في دور اقوى منه في هذا الدور ، وظهر اثر قوة الجمهور في اكراه علي(ع) على التحكيم يوم صفين ، وفي التصميم على الايقاع بالبصرة يوم الجمل رغم ان رأي علي اتجه إلى مطاولتها ، وفي اعتزال الخوارج بعد التحكيم وخروجهم .

وكان، كما يظهر من عهده الى الاشتر، يميل، في وظيفة الحكومة، الى النظرية الاشتراكية الخالصة، فاننا نجده يوجب على الحكومة التدخل في كل ما من شأنه أن يؤدي الى ضرر اذا ترك لحرية الأفراد، كالضرب على أيدي المحتكرين وتسهيل السبيل للتاجر المغامر، وهو الذي عبر عنه بالمضطرب بماله، وأوجب الاصلاح العمراني والزراعي في مقابل الضرائب. ولكن هؤلاء الجمهوريين جاوزوا الحد في التدخل، وتنازعوا أمرهم بينهم فظهرت الفوضوية — التي يقول عنها ارسطو — في الخوارج الذين قالوا: لا حكم الا لله أي لا إمرة الا لله، وبذلك أعدوا الظرف الى الملكية.

من هذا نتبين أن في تسلسل الحكومة الاسلامية التي ابتدأت بالنبي (ص) وانتهت بعلي (ع) مصداقاً من بعض الوجوه لنظرية أرسطو في تعاقب أنواع الحكومات. فلم يكن لدولة الخلفاء صفة واحدة، كما يظن أكثر المؤرخين، بل تشكلت بأشكال شتى، على ما ذكرناه، فكانت.

(١) إلهية «ثيوقراطية» لها شكل الديمقراطية في مدة حكومة النبي (ص)، ومن حيث الوظيفة متوسطة [١].

---

(١) كان في دولة النبي (ص) تشريع ضاف للاسرة وهو ما نسميه اليوم (بقانون الاحوال الشخصية) حض على الزواج الذي هو الطريقة الوحيدة التكثير القومي، وبين موانعه، ووضع قانون الرضاع والعناية بالطفل والايتام، وقانون الطلاق والارث، وورث الطفل المستكن، ولم يكن العرب يورثونه؛ وتشريع في المعاملات وهو ما نسميه (القانون المدني) ويدور على (أ) العقد الذي هو اساس المعاملات الشرعية (ب) طرق الاثبات كالشهود والكتابة والرهن (ج) عرض المعاملات الرئيسية كالبيع وتحريم الربا والغش والتدليس والتطفيف وبيع الغرر، ووضع آداباً للمداينة كالرفق بالمدين (وان كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة) ومن التأجيل الجبري الديون (المورتوريوم). ومن (قانون العقوبات) وسماها القرآن حدوداً. والمنصوص عليها في القرآن اربعة (أ) القتل مع تفصيل في العمد وغير العمد، والعمد جزاؤه القتل. (ب) عقوبة السارق. (ج) عقوبة قطع الطريق. (د) عقوبة الزنا وعقوبة القذف واللعان؛ وهي عقوبات قاسية وضعت للزجر القاطع وكل ما اوصل إلى هذه الغاية من عقوبات يقوم مقامها، كما ذهب اليه بعض الفقهاء على ما ذكره السرخسي في المبسوط، على ان الشريعة اشترطت شروطاً شديدة في اثبات العقوبة، كما تركت العقوبة للشبهة البسيطة اي فسرتها في مصلحة المتهم، وما سوى هذه الحدود تسمى (تعازير) وهي متروكة إلى تقدير الحاكم؛ وعلى كل فالعقوبات مراعى بها المكان والزمان، كما يظهر من اختلاف الفقهاء.

(٢) ديمقراطية لها شكل الملكية ، في مدة حكومة أبي بكر وعمر (ض) ، ومن حيث الوظيفة متوسطة .

(٣) ارستقراطية لها شكل الجمهورية ، في مدة حكومة عثمان (ض) ، ومـــن حيث الوظيفة متوسطة .

(٤) جمهورية بحتاً، في مده حكومة علي (ع)، ومن حيث الوظيفة اشتراكية.

(٥) فوضوية، في حكومة الخوارج الى ما قبل تأمير[1] عبدالله بن وهب الراسبي .

ولان مهمتنا هنا وصفية خالصة؛ فلا نغتر بكلمتي: خلافة وخليفة اللتين اطلقتا على هؤلاء الاربعة ، فنصف حكومتهم بصفة واحدة باعتبار وحدة الاسم كما وقع لجمهور المؤرخين. إن الحكومة، في عهد الخلفاء، تشكلت بأشكال اجتهدنا بردهاالى شُعَبها بالمقدار الذي وضح لنا . ومحاولتنا هذه لا تعدو أن تكون تطبيقاً لنظرية أرسطو من أكثر الوجوه .

وفي الخلافة نظريات دينية قامت على أساسها فرق شتى في الاسلام ، ولم تزل إلى آخر العهد الكلامي موضعاً للأخذ والرد، حتى عقد المتكلمون لها باباً خاصاً، ودعَوه بالامامة، ولما تزل محلاً للخلاف من وجهة النظر الديني ؛ ونحن هنا لا نتعرض لشيء منها، لئلا تجرنا المناسبة الى مناسبة أخرى نخرج بها عن الموضوع خروجاً كلياً .

نظام المال :

ـد، في السيرة النبوية، أن أسس هذا النظام المالي الكبير وضعت في زمن النبي (ص) . فقد رتب أهم موارد الدولة الاسلامية ، وأقامها على توازن دقيق بين رأس المال وقوته على الانتاج ، ولذلك خالف بين الأنصبة التي تجب فيها الزكاة بحسب

---

(١) قال ابن ابي الحديد (ان الخوارج، كانوا في بدء امرهم، يقولون: لا حكم الا لله اي لا إمرة الا لله؛ ويذهبون إلى انه لا حاجة إلى الامام . ثم رجعوا عن ذلك القول لما امروا عليهم عبدالله بن وهب الراسبي) راجع شرح النهج له ج١ ص ٢١٥ .

أنواع المال ، وفرضها في معادلة مُقدَّرة ، بين استفادة الفرد من المجموع بأنتاجه[1] ، وبين استفادة المجموع من الفرد باستهلاكه ؛ وبذلك حقق الصلة بين الفرد والجماعة على أساس عادل بحيث لم يسمح لنمو الفردية الا بمقدار ، كما لم يسمح لنمو الاشتراكية الا بمقدار ، فكان نظامه (ص) برزخاً بين مدّ القوتين ، وعلاجاً لمشكلة[2] الانسانية الدائمة . وكان خضوع الأفراد لنظام المال ، في أول الأمر ، خضوعاً فردياً ؛ فكل مسلم يخرج الزكاة بنفسه ، فلم يكن للحكومة القائمة جباة مخصصون ، ولم تكن تشرف بنفسها على درجة تطبيق النظام . ولكن في أواخر عهد النبي (ص) جعل نظام للصدقات ، ووُكل الى طائفة من العمال «الموظفين» أمر مقاضاتها . ولما فتحت بلاد اليهود والنصارى ووضعت عليها الجزية اتسع نطاق عملهم .

ومقادير الزكاة « أي ضريبة الاموال » مقدرة مفروضة على من بلغ عنده النصاب ، ويختلف باختلاف الأصناف ، وهذا تشريع بقَدر موزون قائم على أدق نظريات المال وقوة انتاجه ؛ وهذه القوة هي مدار التفاوت . وأما الجزية فقد ترك النبي (ص) تقديرها لولي الامر ، لانها تخضع لأحوال دائبة التغير ، كحالة الارض وحالة المال وحالة الزرع وحالة الجو . فكان النبي (ص) يرسل أحد أصحابه الى خيبر ليقسم ثمرها بينه وبين المُلاّك .

---

(١) نعني بهذا ان الفرد يستفيد من المجموع بما ينتجه والمجموع مستهلك ، فللمجموع حق في ثروة الافراد الذين استغلوه في جمعها بزيادات تكون في اغلب الاحيان فاحشة بالنسبة إلى رأس المال والمجهود ، فللجمهور إذن حق اكيد . وعلى هذا النظر بني تشريع الزكاة كما يتضح . وهذه ملاحظة وقعت في خيال ابي العلاء فصورها بصورة نثرية جميلة قال : ان الخلائق دعوا إلى مائدة الله فسبق اليها اقوام ، وليس من حقهم ان يمنعوا الآخرين ، وانما عليهم اذا لم يتمكنوا من الوصول ان يناولوهم مما ثبت على المائدة وان يساعدوهم على الوصول اليها .

(٢) وبحق نقول انها مشكلة الانسانية التي لا تفتأ عابثة بالقوى البشرية ودافعة لها في مضايق تبعثها بعثاً عنيفاً إلى النزاع والتخاصم . ولوضوح هذه الظاهرة ذهب الماركسيون إلى النظرية المادية في تعليل حركات التاريخ . واذا وفق المصلحون إلى تقرير التكافؤ بين الشعب الواحد فلم يوفقوا إلى تحقيقه بين الشعوب المختلفة والدول الآخذة بأسباب التقدم الحيوي . فالمجال الحيوي الواسع هو هدف كل شعب وكل دولة . وفي الاسلام تحقيق مكين راسخ لهذا التكافؤ البشري العام .

هذا هو العمل في جزية الاراضي ، وكذلك كان الحال في جزية الرؤوس ، فالمدن الكبرى كاليمن مثلاً حيث يوجد السكان الذين يشتغلون بالصناعة ، فأحياناً تكون ديناراً ، وأحياناً أقل أو أكثر .

وعندما فتح العرب الشام والعراق وجدوا نوعاً آخر اسمه الخراج ، فخصصوا الجزية بضريبة الرؤوس ، والخراج بضريبة الاراضي ، وعليه فليس الخراج ضريبة جديدة وانما تدخل في حد التشكيلات فقط . والنظام الذي اتبع فيها لا يخرج عن النظام القديم في دولة الرومان ودولة الفرس ، فالعرب وجدوا ، في الاقاليم المفتوحة ، نظام [1] الضرائب وجبايتها ، فرأوا الابقاء عليه مع تغيير مال به الفاتح الى التخفيف وملاءمة روح الشريعة التي يعمل على نشرها ، وهذان اللفظان [2] كانا معروفين قبيل الاسلام .

والجزية من الموارد المالية الهامة ، وزاد في أهميتها أن الشريعة لم تقيدها بنصوص خاصة ؛ فهي تقدر كيفما اقتضت حالة الدولة ، كما لم تكن مقيدة أيضاً في وجوه انفاقها ، ولولي الامر حرية التصرف بها في جميع مرافق الدولة .

والخراج مالوا به ، في التصنيف الجديد ، الى تخصيصه بضريبة الارض ، والاراضي التي يشملها نظام الخراج هي التي تحت يد أهل الذمة فقط ، وكانت على أنواع . ارض عَنْوة وهي التي تفتح قسراً ، وأرض صلح وهي التي تؤخذ عن طريق المفاوضة والاتفاق . والأولى تصبح ملكاً للفاتحين ، والثانية تظل متمسكة بحريتها واستقلالها ، وملكيتها تبقى في ايدي أصحابها . ومن النوع الاول أكثر أراضي الشام والعراق ،

---

(١) وعلى هذا بنى من قال من المستشرقين بتأثير الفقه الروماني في الفقه الاسلامي من حيث التفصيلات ، لان الاسلام ورث الشعب والنظام الاجرائي ، فتأثر به من الناحية العملية إلى حد كبير . وبما ان هذه التفصيلات والاجراءات اقرها الخلفاء وفقهاء الصحابة كسنة من سنن الادارة ، اعتمدها المجتهدون في عهد التقنين المظيم وفرعوا عليها . وهذا يجعلنا نذهب إلى ان تأثر الفقه الاسلامي في المادة الحقوقية كان طفيفاً للغاية ومحدوداً للغاية ؛ وانما التأثر المظيم اتصل بطرائق العمل والادارة . والذين يزعمون غير ذلك تنقصهم الشواهد الضرورية .

(٢) يقال انهما من اللغة النبطية (جزيت) و (خرجة) .

فأصبحت ملكاً للعرب الفاتحين أي غنائم ؛ وحكم الغنائم أنها تقسم الى خمسة أقسام : أربعة للجيش ، والخمس الباقي لبيت المال .

والخراج على أشكال ثلاثة :

«١» خراج المساحة : أي على كل مساحة معينة مقدار من المال .

«٢» خراج المقاسمة : وهو الذي عرف في زمن الرسول(ص) ؛ ويقسم المحصول بين الدولة وبين صاحب الارض .

«٣» خراج المقاطعة : وهو أن يفرض على صاحب الارض مقدار من المحصول يؤديه باستمرار .

وكان السائد في مصر خراج المساحة ، وفي الشام خراج المقاطعة ، وفي العراق خراج المساحة ، فكل جهة كان لها نظام خاص يلائمها .

وهنا عرضت مشكلة قانونية ، وهي كيف نقسم هذه الامبراطورية الجديدة بين الجنود ؛ وهذا الامر يؤدي الى فوضى وارهاق من الناحية الاقتصادية. على أن أهل البلاد الاصليين يوطنون أنفسهم على الثورات دائماً . فاستشار عمر الصحابة في حل المشكلة على صورة تضمن حقوق الجميع . فمنهم من أشار باتباع النص، وكان الجند من أنصار هذا الرأي، ولم يرض عمر به، لأن تنفيذه يجر الى مشاكل كبيرة ؛ منها حرمان الدولة من الموارد الهامة التي بواسطتها تستطيع حماية نفسها من غارات العدو وترعى مصالحها ، ومنها القضاء على الروح العسكرية في العرب ؛ فمال عمر الى رأي آخر ، وهو أن تبقى في أيدي أصحابها ويؤخذ منهم الخراج ويوزع على المستحقين ؛ وبذلك أجرى الاراضي المفتوحة عنوة مجرى الاراضي المفتوحة صلحاً.

هذا الرأي يكون موفقاً لو كان عند العرب في ذلك الحين خدمة عسكرية دائمة ، ولكن أما والجندية عندهم مؤقتة بالمقدار الذي يقتضيه الظرف ، ثم يعود العسكريون الى مدنيين ، فمن المنتظر أن يتألب هؤلاء حينما يرون أنفسهم اكثرية فقيرة ثم يثورون ، وهذا ما حدث بالفعل . ومن ثَمّ يظهر سر التشريع النبوي

الذي كان يرمي الى تمليك هؤلاء الجنود المؤقتين ، لكي يعودوا الى اصلاح أنفسهم في حياة مدنية ذات غضارة ، ويكون منهم طبقة مالية منتجة يُعْنَوْن بالارض والثروة . والامر الذي لا ريب فيه ان عمر (ض) كان يرمي الى تأسيس نظام الجندية الدائم ، وهذا التشريع المالي عنوان على ما يجول في نفسه .

وعرضت مشكلة اخرى وهي تقدير العطاء ، وكان العمل في زمن النبي (ص) وأبي بكر جارياً على التسوية العامة ، إلا أن عمر رأى — وخالفه علي [1] — أن لا يجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه ، فجعل الامتياز بحسب السابقة ، فالذي قاتل يوم بدر يفضل من قاتل في فتوح العراق والشام . ومن هنا حدث التفاوت الملموس في الأعطيات ، وتشكل في طبقات ومراتب. فطائفة تأخذ عطاء كبيراً ، وأخرى عطاء متوسطاً ، والاكثرية يأخذون عطاء ضئيلا . وكانت الطبقات على هذه الشاكلة :

«١» زوجات النبي (ص) وأقرب الناس اليه في حياته ، ولهم بضعة الآلاف من الدنانير سنوياً .

«٢» كبار المهاجرين .

«٣» كبار الانصار .

«٤» من اشترك في الغزوات حسب أهميتها .

«٥» كل من جاء من البادية واشترك في الحرب .

هذا التنظيم المالي أوجد تمايزاً كبيراً ، وأقام المجتمع العربي على قاعدة الطبقات ، بعد أن كانوا سواء في نظر القانون (الشريعة) ؛ فقد أوجد ارستقراطية وشعباً وعامة ، وبما أن التجنيد شمل العرب كافة ، فقد اشتركوا بالعطاء اشتراكية فذة . ولما ركدت الفتوح واستقر الجند في الامصار ، فكروا في أنفسهم وفيما صاروا اليه من

---

(١) راجع كتاب الاحكام السلطانية للماوردي ص ١٧٧

عطاء قليل، وقالوا: لو قسمت الارض علينا لكان أرفق بنا؛ فانتشرت هذه الفكرة انتشاراً مريعاً، وذكت حفيظتهم حين قارنوا أنفسهم بما وصل اليه الافراد من قريش ، فاستقر في رُوْعهم أن قريشاً استأثرت بالمال ، وكان هذا مهيئاً للثورة ومقدمة الى االفتنة .

ومن هذا نستنتج أن الثورة التي دارت على عثمان (ض) لم تكن نتيجة سياسته الخاصة وحدها، بل ونتيجة مجاوزات سياسية سابقة ظهر أثرها الكامن حين استعد الظرف وحان حينه ؛ وقد فكر عمر، لما كثرت الاموال بكثرة الفتوح، أن يدون الدواوين؛ فكان يحصر أسماء الجنود في ديوان، وأمام كل جندي عطاؤه . ورتبت الاسماء على حسب الانساب، واعتُمد، في ترتيب القبائل وتنظيمها في الديوان ، جانبُ البعد [1] والقرب من قريش .

وكانت الاموال تنفق على صورة أن يبدأ كل قطر بسد حاجته، ويرسل الباقي الى المدينة ؛ وأول شيء يفعله الخليفة هو أن يعطي كل جندي عطاءه ، وفي آخر كل سنة يوزع ما يبقى في الخزينة على المستحقين . واذا علمنا أن كل عربي خرج غازياً، الا من لم يستطع احتمال الجهاد لهرم أو لمرض ، نعلم انه بعدما ركدت الفتوح انقلب العرب وهم أفقر الناس، لأن الميزانية لا تتحمل على الدوام مدهم بما يكفيهم ، وليست لهم ثروة عقارية يعتمدون عليها في سد حاجاتهم ، لأنه حيل بينهم وبينها بمقتضى النظام الذي جرى عليه عمر (ض) في قسمة الارض .

---

(١) يظن بعض المستشرقين الذين ذهبوا إلى الشك في الانساب عند العرب ، ان ترتيب الديوان على الشكل الذي تم عليه في زمن عمر هو الاساس الذي بنيت عليه مشجرات الانساب المحكمة . ونحن نستند إلى هذا الترتيب ايضاً في تصحيحها ونفي الشك عنها ، لانها لو لم تكن اصح ما يكون واحكم ما يكون لما جنح اليها عمر في التنظيم المالي الذي يبنى عادة على ادق الاشياء واصحها . والنظاميون في عهد عمر (ض) لما لم يجدوا ادق من الانساب، ليجعلوه قاعدة التنظيم، اعتمدوها قاعدة السير النظامي ، فاذا لم تكن تلك الانساب مقررة معروفة فكيف يحقق البعد والقرب من قريش . ونحن، من تنظيم عمر على الانساب، بين امرين: اما ان نشك فيها وهذا الفرض لا يتم الا بتقدير ان عمر اخترع ايضاً مشجرات الانساب ثم اقام الديوان عليها ، واما ان نعتمدها اعتماداً لامرية فيه ولا شك .

نظام الادارة والقضاء : بقيت الوظائف الادارية مختلطة في الدولة اختلاطاً كبيراً ، فكانت تجتمع في شخص الخليفة أحياناً بحيث يباشرها بنفسه ، وأحياناً ينتدب لها أشخاصاً انتداباً بدون تعيين . حتّى جاء عمر (ض) فرتبها ترتيباً حسناً قام على التخصص وفصل الوظائف ، فجعل في كل مصر قاضياً ووالياً ، وكان الوضع في الأمصار صورة مصغرة عما هو عليه في المدينة . فالوالي يمثل الخليفة ، وسلطته محدودة من فوق بالخليفة ، ومن تحت بهيئة المشيرين الذين هم رؤساء القبائل ، وكان اختصاصه يشمل الاسس الثلاثة الآتية وهي :

«١» أن يؤم الناس في الصلاة .

«٢» أن يقودهم الى الحرب .

«٣» ان يجبي الاموال .

على انه سرعان ما وجد التخصص الاداري حتّى في هذه الصلاحيات المذكورة . فاختص رجل بالامامة، وآخر بقيادة الجيش، وثالث بجباية الاموال أطلق عليه صاحب الخراج . وأضيف اليهم قاض مرجعه الخليفة رأساً ليفصل في الخصومات .

وهنا أثبت ملاحظة عرضت لي في الحلقة [1] الاولى ، ومن الخير أن أنقلها بالنص، قلت: « على أن الخلفاء قد اضطروا أحياناً الى فصل السلطتين في الولايات، فقد كان الخليفة، كعمر، يبعث بالوالي الزمني وبالقاضي معاً، بحيث لا يكون للوالي سلطة على القاضي بل يعملان متعاونين ، وهذا ممارسة لفصل السلطتين في مناطق محدودة ». هذه ملاحظة ذات أهمية في فهم كثرة الخلاف على ولاة الأمصار ؛ وكأن عمر (ض) رمى من وراء هذا الفصل بين السلطتين أن يوجد رقابة متبادلة من وجه، ويقلل من حدة الانتقاد على الحاكم الزمني من وجه آخر . ويحسن أن نورد عبارة ابن خلدون في وظيفة القضاء، كما كانت في عهد الخلفاء، قال: [2]

---

(١) راجع كتاب : سمو المعنى في سمو الذات .

(٢) راجع المقدمة ص ٢٢٠ و ٢٢١

• وأما القضاء فهو من الوظائف الداخلة تحت الخلافة ، لانه منصب الفصل في الخصومات حسماً للتداعي وقطعاً للتنازع ، الا أنه بالأحكام الشرعية المتلقّاة من الكتاب والسنة ، فكان لذلك من وظائف الخلافة ومندرجاً في عمومها . وكان الخلفاء في صدر الاسلام يباشرونه بأنفسهم ولا يجعلون القضاء الى سواهم وأول من دفعه الى غيره وفوضه فيه عمر . فولى أبا الدرداء معه بالمدينة وولى شريحاً بالبصرة وولى أبا موسى الاشعري بالكوفة ، وكتب له في ذلك الكتاب المشهور الذي تدور عليه أحكام القضاة وهي مستوفاة فيه ، يقول أما بعد فان القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم اذا ادلي اليك ، فانه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له وآس بين الناس في وجهك ومجلسك وعدلك ، حتّى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك . البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر . والصلح جائز بين المسلمين الا صلحاً أحل حراماً أوحرم حلالاً ، ولا يمنعك قضاء قضيته أمس فراجعت فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع الى الحق ، فان الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل . الفهم الفهم فيما يتلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة ثم اعرف الامثال والاشباه وقس الامور بنظائرها واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أو بينة أمَداً ينتهي اليه . فان احضر بينته أخذت له بحقه والا استحللت القضاء عليه . فان ذلك انفى للشك وأجلى للعمى . المسلمون عدول بعضهم على فعض الا مجلوداً في حد أو مجرى عليه شهادة زور أو ظنيناً في نسب أو ولاء . بان الله سبحانه عفا عن الايمان ودرأ بالبينات ، واياكوالقلق والضجر والتأفف بالخصوم ، فان استقرار الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن به الذكر والسلام . انتهى كتاب عمر وانما كانوا يقلدون القضاء لغيرهم وان كان مما يتعلق بهم لقيامهم بالسياسة العامة . والقاضي انما كان له في عصر الخلفاء الفصل بين الخصوم فقط . ثم دفع له بعد ذلك امور أخرى على التدريج بحسب اشتغال الخلفاء والملوك بالسياسة الكبرى . واستقر منصب القضاء آخر الأمر على انه يجمع مع الفصل بين الخصوم استيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين بالنظر في اموال المحجور عليهم من المجانين واليتامى والمفلسين وأهل السفه وفي وصايا المسلمين

واوقافهم وتزويج الايامى عند فقد الاولياء على رأي من رآه والنظر في مصالح الطرقات والابنية وتصفح الشهود والامناء والنواب واستيفاء العلم والخبرة فيهم بالعدالة والجرح ليحصل لهم الوثوق بهم وصارت هذه كلها من تعلقات وظيفته وتوابع ولايته » .

هذه العبارة تضع بين ايدينا شيئاً عن نشأة القضاء وتطوراته ، وهي تفيدنا ان الخلفاء الراشدين اهتموا من كل وظائف الدولة بهذه الوظيفة ، فعالجوها كثيراً ونظموها كثيراً لتجيء شيئاً يرضون عنه، وأحاديث نزاهة قضاتهم وعدالته جاوزت الاحصاء، حتى قيل: كان القضاء في عهدهم ساحة يقف فيها الظبي الأغن مع الاسد الرئبال فلا يهابه ولا يخشاه . وقد اجتذبت سياستهم القضائية عدداً كبيراً الى الاسلام .

وكتاب عمر مرسوم اشتراعي عظيم أصْدر وصدق في حكومته ، وفيه تقرير لمبدأ الاستئناف ونقض الحكم، إلا أنه جعل هذه الصلاحية للقاضي نفسه، فكان ثمت ازدواج في البداية والاستئناف . على أن الخليفة كان المرجع الاعلى للقضاء فكان بمثابة محكمة النقض والابرام، كما يظهر من القصص التي ذكرها المقريزي وغيره من أنه كان ينقض على القضاة والولاة أحكامهم واجراءاتهم .

نظام الجندية : لم يخرج في ترتيباته العسكرية على القاعدة المتبعة في حروب العرب [1] التقليدية القبلية إلا بمقدار يسير ، وكان النوع الغالب على حركاتهم، حرب الازعاج والعصابات، والعرب يسمونه حرب الاجهاد والانهاك (Guerre d'usure) ، وبلجأوا الى هذا النوع ، في حرب الشام والعراق، أول الأمر.

وكانت فرق الجيوش تسير مستقلة استقلالاً تاماً ، فلم يكن عندهم قائد اعلى للجيش، يناط به توحيد القيادة وتنظيم الحركات العامة . كما أن الكتائب تؤلف تأليفاً قبلياً، فرئيس الكتيبة هو الزعيم القبلي نفسه. وعدد الفرقة كان يتراوح بين ثلاثة آلاف الى سبعة آلاف ، ولها مدد أي قوى احتياطية .

---

(١) راجع حركات خالد بن الوليد العسكرية للفريق طه باشا الهاشمي .

وكان همهم ينصرف الى المدن والعواصم وتحاشي الالتقاء بالجيش ؛ وهذه الخطة أدت بهم الى انهزامات كثيرة واندحارات جمة ، فقد استولى جيش الشام على كثير من المدن كحمص ثم اضطر الى اخلائها والجلاء عنها . ومن الاوليات المتبعة في حركات السوق الجيشية ، الابتداء بقهر الجيش أولاً في معركة فاصلة ، وعلى نتائجها يترتب تعيين الاهداف التالية والتدابير الأخرى .

والصفة العامة لحركاتهم الخفة والسرعة والاحتفاظ بخط الرجعة، خوفاً من التطويق والالتفاف من الوراء، ولعل السرعة الفائقة كانت اكبر ميزة المحارب العربي، ويظهر هذا جلياً في المجازفة التي قام بها خالد بن الوليد ، حينما انتقل بجيشه من العراق لانجاد جيش الشام. وهي مثال نادر من سرعة القرار وخفة الحركة، ولا يشبهها الا حركة نابوليون في معركة (واغرام) الشهيرة ، فقد انتقل، حينما بلغه تجمع الاوربيين ضده، من اسبانيا بسرعة البرق، كما يقولون ، ودخل معهم في معركة قاسية .

وهذه الترتيبات غير المنظمة بقيت، الى ما قبل اليرموك، المعركة النظامية الأولى في الفتح العربي. فقد غير ، لاول مرة، خالد بن الوليد من نظام الحرب المتبع، بعد أن استطلع حالة خصمه ودقق في تشكيلاته وطراز تعبئته، واقتنع[1] بأنه لا بد من تقسيم جيشه وترتيبه على طراز الجيش الروماني ، فعمد الى تنسيقه وفق الاصول الرومانية . قسم الجيش الى كراديس وبلغ مجموعها من (٢٦ الى ٤٠) كردوساً، عين لكل منها قائداً ، ثم ألف الكراديس فرقاً من (١٠ الى ٢٠) كردوساً ، وجعل على كل منها قائداً كبيراً ، وخصص للقلب (المركز) فرقة، وللميمنة فرقة، وللميسرة فرقة ، وأنشأ هيئة أركان الحرب ، وكان لديه من هيئة أركان المقر (مقر القيادة العامة) ابو الدرداء قاضي الجيش ، وأبو سفيان ابن حرب القاص (أي خطيب الجيش، ومن وظيفته أيضاً ايصال الاخبار الى الفرق المحاربة ونقل الاوامر) وعبدالله ابن مسعود مأمور الأقباض (أي الذي يموّن الجيش ويجمع للغنائم) وأقام

(١) راجع محاضرة عسكرية في خطط خالد في فتح الشام لاحمد بك اللحام قائم مقام اركان الحرب .

أمام الجيش طلائع (خفراء الامام) وكانت هذه التعبئة، في اليرموك، أول تعبئة نظامية .

فالعرب استفادوا من الرومان والفرس نظاماً جديداً، فيما يتصل بالتشكيلات الحربية والتعبئة والقيادةالعامة وخطة استدراج الجيش، قبل كل شيء، للايقاع به وابطال مقاومته؛ وكلمات كثيرة منها (كُرْدوس) التي يقدرون انها محرفة أو معربة عن كلمة (Kortis) الرومانية وهي بمثابة كتيبة ، و (أَرْطَبون) وهي محرّفة عن كلمة (Tribun) ومعناها قائد فرقة .

بيد انهم لم يستفيدوا شيئاً مما يتصل بالتربية العسكرية التي تعلم الطاعة وتقضي على الروح القبلي قضاء حاسماً ، والجندية الدائمة التي تحدد المدنيين والعسكريين وتخلق شعوراً في الصنفين يدركون به صلاحياتهم ومدى اهلية تدخلهم . وهذا ما لاحظناه، في مقدمة الحلقة الاولى، وأسميناه فساداً عسكرياً أدى الى كثير من النتائج السيئة المؤلمة ، فقد قلت عنه : [1] (وفائدة النظام العسكري انه يعلم الائتمار ، ويحسر النظر عن التطلع الا في حدود المهنة ، ويبعد بنفس العسكري عن المناقشة للشؤون العامة، ويَرُوِّضه على التمساك بالحاكم المدني القائم ، ومن فضائل هذا النظام الواضحة جبن الرجل العسكري، مهما سما قدره ، عن وضع نفسه في مركز مدني صرف ، وتحمل المسؤوليات والأعباء العامة . فعدم وجود نظام من هذا النوع إذاً، في محيط العرب، جعل الرجالات العسكريين الذين اشتهروا بالبطولة يفكرون بالدعوة لأنفسهم ، والانتقاض لاحتواش السلطة .) وأهم نتائج هذا الفصل هي :

(١) ان نظام الحكومة لم تكن له قاعدة واحدة ، بل سار من الديمقراطية الى الارستقراطية فالجمهورية فالفوضوية .

(٢) ان نظام الاموال لم يقم على قاعدة تكفل حاجات المجتمع وتحقق امانيه .

(٣) ان نظام الجندية تجرد من الروح العسكرية التي تبعثها التربية الخاصة .

---

(١) راجع كتاب : سمو المعنى في سمو الذات .

الحزبية

تطمئن جمهرة الباحثين الى أن الحزبية علقت بمجتمع العرب الوليد، والحزبية، ككل الطفيليات الاجتماعية، ما علقت بمحيط الا أثرت فيه تأثيراً سيئاً ؛ لأن نشاطها ينصرف الى تأييد أهداف الحزب وأغراضه الرئيسية، وبالأخص اذا لم يكن لها مَثَلٌ رمزي تعمل له جميعها ، وتقف جهودها في سبيله، على اختلاف في الوسائل والطرق .

وهذه الحزبية التي نتحدث عنها ، لم تكن من طراز الحزبية ذات اللون المفيد المنتج ، بل كانت مغرضة نفعية في أغلب طوائفها ، تدور على الإنتهازية والافتراص .

ومن المعلوم أن الوسط القبلي أصلح ما يكون لهذا الضرب من التحزب ، وزاد فيه التركّب الأُممي الذي أدى اليه الفتح السريع . فلم تكن دولة العرب في ذلك الحين بسيطة، بل مركبة تركيباً صناعياً غير محكم . فكان ضرورياً أن تتولد فيها تيارات مختلفة القوة مختلفة العنف تلعب بالجماهير وتعبث بالقوى العامة . وما من امة قامت على أطلال امم اخرى ، الا وبقيت مملوءة بالانقسامات الداخلية والتقلبات المختلفة ، ولا تنقضي حتى تستقر الأخلاق النفسية الجديدة .

والملاحظ على هذه الحزبية التي نتحدث عنها أنها كانت تندفع بعوامل ثلاثة :

(١) القبلية، وكانت على صنفين :(أ) قبلية خالصة كالتحزب ضد قريش والتحزب ضد[1] الـمَعَدِّيَّة (ب) قبلية نفعية كالتحزب الاموي والتحزب القحطاني الذي حاربه معاوية محاربة قوية على ما يظهر من خبر [2] ذكره البخاري في صحيحه .

(٢) الشعوبية ظهرت هذه الحزبية نتيجة انحلال عناصر شتى وامم شتى ، دخلت في دور تفاعل عنيف، ولمّا تنته الى اتحاد راسخ يقوم على مزاج عقلي واحد وخلق شعبي وَسطي أي يمثل الوسط كصورة كثيرة الصدق، وهو ما يعبر عنه بالمثال الوسط في الامم الناضجة اجتماعياً أو المكتملة التطور .

ان العنصر الذي كان مفقوداً في دولة العرب الفتية هو هذا الخلق الشعبي الذي يقرر مستقبل [3] اية امة ، وهو موجود على الدوام خلف العوامل التي فرضها الناس سبباً لأعمالهم .

فالتحزب الشعوبي في المحيط العربي كان منفعلاً بهذا الامتزاج السريع ، واعتقد أن الحزب الشعوبي كان صنيعة من صنائع الحزب الاموي يحركونه في

---

(١) ذكرابن قتيبة في «الشعر والشعراء» ان عمرو بن معدي كرب الزبيدي كان يقص اقاصيص من اخبار فتكه ، فقص على شجاع من شجعان العرب وهو لا يعرفه ، انه غزا قومه وبارز الشجاع الذي كان يتحدث اليه وفتك به، فقال له محدثه : ليهنك يا ابا ثور ان صريعك هو محدثك؛ فقال عمرو بدون دهشة : اسمع يا هذا لما يلقى عليك فانا بهذه الاحاديث نرهب هؤلاء المعدية . وكان تخطيط الكوفة تخطيطاً قبلياً .

(٢) اخرج البخاري بسنده : انه بلغ معاوية ، وعنده وفد من قريش، ان ابن عمر يحدث بانه سيكون ملك من قحطان؛ فغضب فقام فاثنى على الله بما هو اهله ثم قال : اما بعد فانه بلغني ان رجالا منكم يحدثون احاديث ليست في كتاب الله ولا تؤثر عن رسول الله (ص) : واؤلئك جهالكم فاياكم والاماني التي تضل اهلها، فاني سمعت رسول الله (ص) يقول ان هذا الامر في قريش لا يعاديهم احد الا كبه الله على وجهه ما اقاموا الدين . راجع ج٩ ص ٦٢ .

(٣) راجع كتاب : سر تطور الامم لغوستاف لوبون ص ٣٥ .

سبيل أغراضهم ، وكانت شخصياته آلات مسخرة في ايديهم ؛ وأبعد ما يكون عن الظن انهم كانوا يشتغلون على وجه الاستقلال. وهذا تقدير وقع في خاطر عمر (ض) فحذر من الموالي ، لأنهم سرعان ما ينقلبون آلة في أيدي ذوي الاغراض ، والا فهم على الانفراد اضعف من أن يحوكوا المؤامرات . وهذا أمر نشاهد مثله اليوم فان المترصدين الذين تصطنعهم الاحزاب لأغراض اجرامية كبيرة ، انما يكونون عادة من النُفاة الغرباء الأفاقين . والمشاهد انهم لا يقومون بعمل استقلالي البته ، وهذا من الوجهة النفسية صحيح جداً . والموالي كانوا بهذه المثابة ؛ فما اسرع ما يستخدمون بسبيل هذه الاغراض لمتحزبين ذوي نفوذ .

(٣) المثالية الجديدة التي وضع النبي (ص) أسسها وشيد هيكلها الروحي والاجتماعي . فقد كان لها شخصيات تحافظ على مبادئها وتحامي عن ذمارها وتعمل بسبيل خدمة اغراضها ونشر تعاليمها ،ومن هؤلاء علي وابو ذر وأبو ايوب الانصاري ورافع بن خديج وسائر الطبقة القديمة من المهاجرين والأنصار .

وكان هؤلاء يشكلون حزباً محافظاً متقيداً بالرسوم والطرائق النبوية وأساليبها السياسية . وقد اهتم بدراسة الاحزاب عدد من كبار المستشرقين أهمهم «فان فلوتن» في كتابه: السيادة العربية؛ ونحن توسعنا في هذا البحث،بناء على ملاحظة عرضت في الحلقة الاولى من هذا الكتاب ، جاء فيها « ان الاحزاب التي نستطيع أن نعينها في ذلك العهد ، والتي كانت تعمل متنازعة هي حزب عثمان أو الحزب الاموي ، وحزب طلحة ومن اكبر شخصياته عائشة ، وحزب أبناء عمر ومن اكبر شخصياته ابو موسى الاشعري ، وحزب المنشقين من بني امية ومن اكبر شخصياته عمرو بن العاص ، وحزب علي (ع) أو الحزب المحافظ »

ولاحظنا في الحلقة المذكورة ايضاً ، ان السبب في استشراء الحزبية لعهد عثمان هو حصر الترشيح في عدد من الاشخاص الذي ارتآه عمر (ض) . وهذه الاحزاب اكثرها وليد في عهد عثمان . ونحن عُنينا بها هناك،لأن قصدنا كان منصرفاً الى تأريخ هذه الفترة من عهد الخلفاء الراشدين ، بيد اننا اذا تناولنا العهد

مجموعاً خرجت لنا أحزاب أكثر عدداً وأكثر اختلافاً في الغايات والاغراض .وهذه الاحزاب هي :

(١) حزب الثلاثة :

وهذا الحزب مال الى القول بوجوده طائفة كبيرة من المستشرقين،بينهم الاب لامنس ، ودرسوا على ضوء هذا التقدير كثيراً من المسائل كمسألة الترشيح والانتخاب .

وفي رأيهم ان هذا الحزب كان مؤلفاً من ابي بكر وعمر وابي عبيدة ابن الجراح ، وقد سبق تأليفه وفاة النبي (ص) . والثلاثة تعاقدوا على انه اذا تمت الخلافة حدهم نقلها من بعده الى صاحبيه . ويستندون فيه الى امور ثلاثة :

(١) الجهد الجميع الذي بذلوه معاً في حركة الانتخاب ، فقد كانوامتضامنين لاتضامناً قوياً ، كأنه نتيجة خطة سابقة اتفقوا عليها .

(ب) تبادلهم الترشيح يوم السقيفة ، فقد رشح ابو بكر عمر أو أبا عبيدة ، وهما رشحاه .

(ج) لما سئل عمر رأيه فيمن يكون بعده قال : لو كان ابو عبيدة حياً لعهدت اليــه .

وهذه القرائن الثلاث عندهم تؤلف ما يثير شبهة في انهم كانوا حزباً واحداً ، ونحن لا نرى فيها ما يساعد على اعتماد هذا التقدير .

(٢) حزب الامويين :

وهذا الحزب ذهب،الى انه قد كان، عدد من كبار المؤرخين ؛ونحن لا نشك في وجوده أيضاً،ولعله أخطر حزب استطاع أن يثير الجماهير ويتحكم فيهم ويحدث الاضطراب . وأهدافه التي كان يعمل لها من أخطر الاهداف،وهي تتناول الوضع السياسي والاجتماعي من كل الوجوه ؛ وأهم نظرياته حصر السلطات العليا في

اسرة ، وتقرير مبدأ الملكية المطلقـــة في السلطة [1] الاولى ، ونظـــام [2] الوراثة ، وتسليط العنصر [3] العربي على الشعوب ، وفرض العرب طبقة ارستقراطية ، وفرض نظام [4] اداري مقتبس من النظم الاجنبية أي غير مشتق من طبيعة الحياة العربية والتشريع الاسلامي الجديد ، وتحوير نظام [5] المال الى ما يؤيد سلطتهم عليه واطلاق ايديهم فيه ، وفرض [6] الاقطاع ، والقضاء [7] على الطبقة الدينية المرموقة التي ساهمت في بناء الشريعة لانها كانت تحول بينهم وبين اغراضهم ، وتسميم المعنوية الجديدة التي خلقتها الديانة الجديدة ، وتشجيع [8] المجـــون والحياة اللاهية بكل أشكالها .

هذه هي أهدافهم الرئيسية ، وكانوا يعملون لها سراً في ظل الحكومات السابقة لحكومة عثمان ، ويتوسلون اليها بأساليب تجمع بين الاغراء والارهاب ، وقـــد ساعدتهم الحظوة التي رزقوها من الخلفاء على اعداد الجمهور ، وكان نفوذهم يمتد حتى يطغى على أكثر الاحزاب ويستخدمها في تنفيذ رغائبه . وتاريخ حركات هذا الحزب مفيد ايما فائدة وطريف ايما طرافة .

نعلم أن بين الاسرتين : الهاشمية والاموية خلافاً تاريخياً يتصل بعهد جاهلي بعيد ، ثم أخذ شكلاً أكثر عنفاً بعد الدعاوة الاسلامية التي ظهر بها الرسول الهاشمي ، فجهد الامويون بوضع الصعاب في سبيل نجاحها . بيد أن صاحب

---

(١) ظهر انه من اهدافهم بالانقلاب الملكي الذي احدثه معاوية في ايام حكومته .

(٢) ظهر من قول ابي سفيان حينما تولى عثمان (لتصيرن إلى اولادكم وراثة) ومن صنيع معاوية حينما عهد إلى ابنه .

(٣) ظهر هذا ظهوراً واضحاً في كل ايام سيطرتهم وحكمهم .

(٤) نص التاريخ على ان عمر (ض) لما ورد الشام رأى طلائع هذا النظام في حكومته ، فانتقده .

(٥) يدل على انه من اهدافهم انتقاد ابن سبأ وابي ذر .

(٦) يدل عليه اقطاع مروان في حكومة عثمان ، واقطاع عبدالله بن أبي سرح .

(٧) يدل عليه حركة يزيد في القضاء على اهل المدينة قضاء قاسياً ؛ وسمى (فان فلوتن) هذه الطبقة : حزب اهل المدينة ، وقال المسعودي ، بعد حركة يزيد ، لم يبق بدري .

(٨) دل عليه تغاضيهم عن اعابيث عمر ابن ابي ربيعة ولفيفه .

الرسالة شق طريقه بين الجلامد والصخور ، متغلباً على الحواجز المعترضة كافة ، ناجحاً في اطراد مجهود . وبذلك غدوا فئة مستضعفة عديمة القيمة ثم لا وزن لها سياسياً ، فعمدوا الى العمل سراً ، لكي يستعيدوا مجدهم المفقود ومكانتهم الضائعة في ظل الحكومة الاسلامية .

وكانت الحركة الانتخابية اول مناسبة استغلوها فتحرك ابو سفيان — زعيم الحزب الاموي السري في الاسلام ، كما كان زعيم الحزب المعالن قبل فتح مكة — للعمل في حماسة ونشاط ، مستغلاً العناصر غير الراضية عن نتائج الانتخاب ، ولكنه فشل فشلاً ذريعاً لما اكتشف علي (ع) دسيسته . على أن الحزب استفاد من هذه المناسبة الانتخابية شيئين :

(١) ثبوت الخلافة في قريش .

(٢) ابعاد الهاشميين عن الحكم . وهم لا يحسبون حساباً لغيرهم من سائر الاسر القرشية ، فاعتقدوا أن مصير الحكم لهم إنْ قريباً أو بعيداً . وهذا ما يشهد به قول ابي سفيان ، بعد فوز عثمان بالخلافة ، (فوالذي يحلف به ابو سفيان ما زلت ارجوها لكم) .

ولِنَعْلَم مقدار نفوذهم النفسي العميق على غيرهم من قريش ، نذكر قصة[1] اوردها المسعودي ، قال :

(بلغ ابا بكر (ض) عن ابي سفيان صخر بن حرب أمر فأحضره وأقبل يصيح عليه ، وأبو سفيان يتملقه ويتذلل له ، وأقبل ابو قحافة فسمع صياح ابي بكر ، فقال لقائده : على من يصيح ابني ، فقال له : على ابي سفيان . فدنا من ابي بكر ، وقال له : أعلى ابي سفيان ترفع صوتك يا عتيق ؟.. لقد تعديت طورك وجزت مقدارك . فتبسم ابو بكر ومن حضره من المهاجرين والأنصار ، وقال له : يا أبت ، إن الله قد رفع بالاسلام قوماً وأذل به آخرين) .

---

(١) راجع المروج بهامش نفح الطيب ج٢ ص ٢١٩ .

وهذه القصة لا تحتاج الى تعليق فيما يختص بسلطتهم على قريش ومبلغ نفوذهم ، وفي دهشة أبي قحافة وجواب ابي بكر دليل على ذلك . فالذلة التي لحقتهم — كما يقول ابو بكر — والمفروض فيهم انهم الاعزاء حملتهم حملاً عنيفاً على السعي الحثيث للاستحواذ على السلطة بأي ثمن ، واسترداد عزتهم المدحورة . ويظهر أن الفشل جعلهم يغيرون أسلوب العمل ، فعمدوا الى تملّق الخلفاء واظهار الرغبة في الخدمة الادارية باخلاص ، فأكثر ابو بكر وعمر من تعيينهم في شتى المراكز . وبذلك انفسح أمامهم سبيل العمل ضرورة ان السلطة الاقليمية أصبحت في ايديهم ، فهم يصرفونها على الشكل الذي يلائم مصالحهم ويخدمها . فكانت وسائلهم كثيرة، ومَعين أفكارهم لا ينضب، فتارة يستخدمون نفوذ الحكومة، وتارة يميلون الى الاغراء والاطماع . وقد دللت، في فصل القبيلة من هذا الكتاب، على اسلوب من جملة الأساليب الكثيرة التي كانوا يعتمدون عليها في تقوية حركتهم ، لما ذكرت ان اكثرية الولاة كانت منهم وكان من خطة الحزب الاموي أن يشجع العصبيات ويزيد في اوارها . فان كل حركة من هذا القبيل تضعف التحزب السياسي ضد قريش ، وهم ينزلون من قريش منزلة الزعماء . وهذه وسيلة سلبية هامة ، ولهم وسائل ايجابية كثيرة منها أو أهمها : الرغبة في الادارة الاقليمية وقيادة الجيوش ، ولقد تم لهم من ذلك شيء غير قليل .

ولم تزل الايام تؤاتيهم وتجري وفق أهوائهم حتى أواخر عهد عمر (ض) ، فقد بدأ يميل الى بني هاشم ميلاً شديداً ؛ فهو يتوسل حين الجدب بالعباس ، ويقرب ابنه عبدالله ، ويشيد بسابقات علي (ع) في الاسلام ، ويقترن بابنته ام كلثوم في اخريات أيامه ، ويفضي الى عبدالله بن عباس بأشياء كثيرة عن الخلافة ، وانهم اي آل [1] هاشم أحق بهذا الامر ؛ وميل عمر هذا يذكرنا بميل المأمون الذي حمله على العهد لعلي الرضا .

وقد أيقن الامويون، وهم الساهرون على قضيتهم، أن عمر لا بد صائر الى

---

(١) راجع الطبري ج٥ ص ٣٠ و ٣١ .

ترشيح زعيم الهاشميين علي للسلطان الاعلى ، وبذلك ينهار حجر الاساس من بنائهم ، ففكروا كثيراً ثم أجمعوا امرهم على شأن رهيب وهو اغتيال عمر قبل ان يعلن شيئاً مما يدور بخلده . وقلت منذ حين إن الشعوبيين كانوا يستخدمون لمآرب الاحزاب الكبيرة ، وكان الحزب الاموي أقوى الاحزاب القائمة وأملكهم لوسائل الاغراء، فضم اليه، كأدوات منفذة، أبا لؤلؤة وجفينة وكعب الاحبار وسواهم، وكان لكل واحد من هؤلاء دور خاص يقوم به .

ثم عمدوا الى الاستفادة من الظرف الجديد الذي خلقوه لعمر ، فدسوا له عبد الرحمن بن عوف بعد الاعتداء فكان لا يفارقه تقريباً ، ولا ندري لماذا إن لم يكن لذلك.وعندي ان عبد الرحمن كان في نظر عمر مفكراً ألمعياً، فهو، بهذا الاعتقاد ولأنه صريع منزوف لا يملك كامل قوته، يستطيع أن يؤثر فيه وأن يوجه أفكاره كيف شاء، وقد ظهر صدق هذا التقدير فيما ذكره [1] الطبري من أن عمرُ حينما سئل رأيه فيمن يكون ولي الأمر من بعده لم يتردد في ترشيح علي « وما عمّ الامر حتى اشتبهت عليه وجوه الرأي مدة » ثم جعلها في الستة المعروفين . لا شك ان تصريحه الحازم اولاً وتردده ثانياً والعهد أخيراً لهؤلاء الستة ، يدلنا على مقدار ما عراه من وهن نتيجة للنزيف الدموي الهائل ، فلم يعد رحمه الله صاحب تلك الارادة الحديدية الصارمة بل انقلب ليناً سهل القياد والتأثير فيـــه ، وسادراً يفكر بما يوحى اليه ، وهذا التقدير صحيح فيزيولوجياً ، وقد نزف دمه الزكي . ان عمر الحازم العظيم والمفكر العميق ، ما كان ليعطي هذا الرأي الواهن لو بكامل قواه .

واول ما عرض لي هذا الرأي في الحلقة الاولى ، فقد قلت هناك (اذا عرفنا ان المغيرة بن شعبة كان أشد ما يكون اخلاصاً لهذا البيت الاموي وتعلقاً به ونفاقاً على غيره — وعلائق الثقفيين ببني امية وطيدة — وعرفنا ان ابا لؤلؤة كان غلاماً للمغيرة بن شعبة ، وعرفنا أن هناك حزباً اموياً يعمل له المغيرة ، خرجت لنا قضية مترتبة الحلقات متوالية الوقائع على نسق طبيعي واضح . ومن ثم يظهر ان اغتيال عمر

---

(١) راجع الطبري ج٥ ص ٣٤

لم يكن بفكرة فارسية البتة ، وانما كان وليد فكرة موضعية خالصة ، واموية بحت . واذا لم يكن هذا التقدير صحيحاً ، فلماذا اجتهد المغيرة بادخال هذا الفارسي المدينة،مع علمه بمنع عمر من ذلك؟ وبماذا نفسر هذه المصادفة في أن يكون قاتل عمر هو غلام المغيرة الذي كان اموي الرأي والهوى ؟) .

فهذا الاغتيال أحدث بلبلة كبيرة في الأفكار ، وهيأ المجتمع لنقلة جديدة ، وقد ظهرت في سماء المجتمع برامج لا عهد للعرب بها أدت الى زيادة التبلبل الفكري ، من مثل حصر السلطات العليا في اسرة أو قبيلة، هذه الفكرة التي روّج لها الحزب الاموي وعمل على نشرها وتعصب لها ، ثم لم يعرف حديث الامامة في قريش ، الا عن طريقهم وهم رواته . وكان رد الفعل على التمهيد لنظريتهم ، ظهور نظرية الخوارج بأنها لعامة العرب أو لعامة المسلمين. فنظرية الخوارج ردّ فعل قوي للنظريـــة الاموية التي جنحوا الى تطبيقها بغير لباقـــة ، ايقظت عنعنات العرب الاخرين ، فان المعروف عن الخوارج أن أكثرهم من غير الحجازيين ، وزاد في عنعنتهم حصر الصلاحية في اسرة، ثم الوراثة الملكية .

فالانتقال،من الديمقراطية التي هي طبيعة عربية تتصل بأسباب النفس والمزاج العقلي،الى الارستقراطية فالملكية الوراثية ، أيقظ المجتمع لثورات متواصلة يسجر نفسه في أتونها . فقد كان في عهد عثمان إذاً نظريتان تتحاربان بدون هدنة أو استجمام : النظرية الاموية ، والنظرية الجمهورية واشياعها جمهور العرب، واحتكتا كثيراً ، حتى تولد من الاحتكاك الشديد والتماسّ العنيف شرارة اتصلت بالمجتمع من اقطاره .

والذي يدل على أن الحزب الاموي كان يعمل لأهداف ثابتة ، تغير السياسة دفعة واحدة ومن أساسها أيضاً في عهد عثمان الذي ترك لهم سياسة الامور العامة ، وأطلق أيديهم في كل المُقدَّرات . ولكن الشعب بدأ يستيقظ ويستفيق على اعمالهم من سباته العميق ، فرأى افتياتاً على حقوقه ، ورأى انتهاباً واغتصاباً في كل المرافق ، ولمس الفساد يدب في طرق الاجراء والادارة ، وشعر بالحاجة الملحة الى الاصلاح ، فمضى معلناً الثورة ، ودق الناقوس الشعبي الاقدس .

ولم يجد، بعد زوبعته، مصلحاً ينسجم مع ميوله الا علياً، فترامى الشعب في أحضانه ، وسقط بكلكله عليه .

فالحزب الاموي كان يعمل بوحي خاص ولمآرب خاصة على منهج مقرر ، ورغم الظروف المختلفة التي غمرته نجد لحركاته طابعاً خاصاً لا يتغير ، فعهد معاوية كعهد عثمان في الجوهر السياسي عند التدقيق والعمق ، وميزة عهد عثمان انه كان أكثر اتصالاً بالرأي الشعبي في السياسة العامة، وذلك بسبب انه كان التجربة الاولى من تجربات الحزب ، وانه نقلة بين عهدين . ثم تسنى للحزب في الدور الثاني أي في عهد معاوية أن يحكم مباشرة ، وأن يعطل الصلاحيات الشعبية ويكمم الحريات، ويتحلل من كل مسؤولية أمام الشعب، ولم يغد يعترف بالرقابة الشعبية البتة .

هذا هو الحزب الاموي السري بأشكاله وأهدافه على القدر الذي وضح لي ، وعسى أن يجد المؤرخون ما يجعلهم أقدر على تشخيصه . وهذا الحزب تسمى بأسماء مختلفة بحسب الظروف، فكان أولاً القرشي[1] لانه نصب نفسه مدافعاً عن قضية قريش ، ثم العثماني لأنه قام دفاعاً عن الدم المطلول ، ثم الاموي وقد تكشف من استاره في عهد معاوية .

(٣) حزب الشعب :

كان يجمع جمهور العرب الذي أحس بعدم صلاحية الوضع الراهن للمجتمع ، وان الاصلاح يجب أن يمس كل شيء متناولاً الاساس أيضاً . شعر هؤلاء أن الهيئة الحاكمة التي فرضت عليهم فرضاً لم تعد تطاق، وأن ضغطها آخذ في الزيادة، فقرروا الثورة ، بعد أن وجدوا أن لا مذهب عنها ، وانها العلاج الوحيد لطغيان المتدبين للحكم الذين لم يفهموا حقيقة تمثيلهم .

---

(١) ادرك علي (ع) الغرض المقصود وراء هذه التسمية التي كانت تعني الاموية، فحاربها كثيراً ؛ ونهج البلاغة مملوء بذلك .

والحكومة الجمهورية اذا تجاوزت في فهم صلاحياتها ، أو بعبارة أصح اذا فسدت ، كانت نكبة أشد من النكبة بالملك المستبد أو الحاكم بأمره — كما يقول جون ستيوارت ميل في كتاب الحرية — لأن الوضع ، في رأيه ، لم يخرج عن استبداد الفرد الا الى استبداد الجماعة الذي هو أشد هولا .

وقد وفق الشعب المضطرم الى معلم ثوري هو عبدالله بن سبأ ، فصاغ مطالب الاصلاح بأسلوب موجز مغر ، يجعلها قمينة بسرعة الانتشار . وكان اكبر شخصيات الحزب الشعبي في الشام ابو ذر الغفاري (ض)، وفي العراق الاشتر النخعي ، وفي مصر محمد بن ابي حذيفة ومحمد بن ابي بكر . وهذا الحزب يمثل المعارضة المتطرفة، ونحن اذا أطلقنا عليه كلمة حزب فبتجوز وتوسع ، وإلا فالحزب بالمعنى المعروف لنا اليوم لم يكن صفة الا للحزب الاموي خاصة .

(٤) حزب علي (ع) او الحزب المحافظ :

كان هذا الحزب يضم اليه اكثر ذوي السابقة في الاسلام ، ويقوم على مبادىء المثل الاعلى الذي فرضه الدين الجديد . ومن مهمته ارشاد الحكومة وتسديد خطواتها، حتى لا يستعجل بها الظرف ويتأزم عليها . وبذلك كان يعمل في حدود المعارضة المعتدلة ، ويقوم بدور الرقيب على تصرفات الحكومة ودور الكفيل لمصالح الشعب، في حدود المنهج الاسلامي القويم . وكان في الوقت نفسه يعطف على الحزب الشعبي المتطرف ويكبح جماحه . ولم يفتأ حزب المحافظين عن تصحيح أساليب الحكم المتبعة ، والعمل على ابقاء الصلة بين الهيئة الحاكمة والهيئة الشعبية جهده ، فكان أحياناً وفي بعض المناسبات ضامناً أمام الشعب الهائج للهيئة الحكومية ليخفف من حدته وغلوائه . وقد قلت في الحلقة الاولى (لولا وجود علي (ع) في خلافة عثمان لانهارت من اول عاصفة، ولكن علياً كان دعامتها وسندها المتين) . واليك هذه القصة التي ذكرها المسعودي، قال (لما جاءت جموع الامصار الى المدينة وأخبر بهم عثمان بعث الى علي بن ابي طالب ، فأحضره وسأله أن يخرج اليهم ويضمن لهم عنه كل ما يريدون من العدل وحسن السيرة ، فسار علي اليهم ، فكان بينهم

خطب طويل فأجابوه الى ما اراد وانصرفوا)

نعلم من هذا أن حزب علي (ع) كان يقوم بالنصح والارشاد والتوسط أحياناً لحل المشاكل الداهمة أو المفاجئة . والذي كان يبعث الشعبيين على الاطمئنان الى شخصيات هذا الحزب انهم يمثلون العهد الذهبي للاسلام أي عهد النبي (ص)، ولأن على رأسهم اكبر قانوني ومشترع يستطيع أن يعبر عن امانيهم ويوجه الهيئة الحاكمة اليها . ولكن تطرف هذه الهيئة نُتج عنه تطرف الهيئة الشعبية ايضاً ، ودخلها اليأس من صلاحها ووقعت الثورة التي لم يعد منها مناص ، وتخطى الشعب الحزب المحافظ الذي يحترمه ، وعمل بنفسه .

وكان من اكبر شخصيات حزب المحافظين علي (ع) وابو ايوب الانصاري وعبدالله بن عباس وعمار بن ياسر والمقداد بن الاسود .

(٥) الحزب الشعوبي :

هذا الحزب كان يضم الموتورين من ذوي الحكومات المنقرضة والامم المنحلة . وهم يعملون بين الضغينة والمزاج العقلي الموروث على تسميم مجتمع العرب ، وبالفعل ظهر تأثيرهم الكبير على أفئدة العرب الغضة ، وعمل عمله الخطير بينهم . غير أن مدى حركتهم لم يكن يعدو نفث الافكار المفرقة والتعاليم الموجّجة ، أو أن يُستخدَموا أدوات هدامة[1] في ايدي الاحزاب القوية . ومثلهم ، في مجتمعنا اليوم ، كمثل الاقليات المأجورة المسممة التي تكون باباً الى الامة الناهضة المتماسكة ، وهذه الاقليات التي لا تنسجم مع الامة في مزاجها العقلي وروحها

---

(١) للمرحوم حافظ بك ابراهيم الشاعر المصري الكبير ابيات جميلة حكيمة ، في هذا المعنى ، ضمنها قصيدته العمرية وهي :

واقه ما غالها قدماً وكاد لها ... واجتث دوحتها إلا مواليها

لو انها في صميم العرب قد بقيت ... لما نعاها على الايام ناعيها

يا ليتهم سمعوا ما قاله عمر ... والروح قد بلغت منه تراقيها

لا تكثروا من مواليكم فان لهم ... مطامعاً بسمات الضعف تخفيها

الشعبية أو المِلّيّة – كما يعبر لوبون – ثم لا تشاركها في شيء من وراثاتها ، لا تكون سوى معاول للتخريب، فيها من معنى التخريب، وفيها من قوة المعول .

وكانت الاقلية في المجتمع الاسلامي الاول هي البقية المنهوكة من كل امة أطاحها الاسلام وهوى بها . ويعرف التاريخ من شخصيات هذا الحزب ابا لؤلؤة وجفينة وكعب الاحبار والهرمزان ، لأنهم اقترنوا اقتراناً وثيقاً بحادث الاغتيال الفظيع .

(٦) حزب اهل المدينة :

هذا الحزب أكد وجوده المستشرق (فان فلوتن) في كتابه : السيادة العربية، قال : (والمنتمون اليه يعتبرون ان وصول بني امية الى الحكم ، معناه انتصار اعدائهم القدامى من مشركي مكة) .

ونحن لا نستبعد وجود حزب له هذا الطابع وهذه المسحة، بل لدينا شواهد تاريخية تشجع على المضي في اعتماد الرأي المذكور . وكان كما يظهر يعمل ضد الحزب الاموي بالذات ، ويقاومه مقاومة عنيفة ، ويسيء به الظن . والذي جعل اهل المدينة ينشطون لصراع الاموية تعلق هؤلاء بالدعوة لقضية قريش تعلقاً مفرطاً، مما احرجهم وجعلهم يتململون، وبذلك نظن أنـــه كان للغلاب التاريخي القديم بين مكة برمز الاموية والمدينة ، عودةٌ مرة أخرى ، وبالأخص حينما نافسوهم على المدينة موطنهم القديم .

على ان الشباب في المدينة، وهم النشء الجديد، كانوا اكثر[1] نزقاً واندفاعاً، أن ولهم أيضاً تفكيرهم الخاص في الخلافة وما يتبعها من الشؤون السياسية، كما وجدوا أن الضمان الذي قطعه الخليفة الاول لهم بأنهم الوزراء لم تسع حكومة الى تحقيقه فتحمسوا ولجوا في الحماسة وخصوصاً في أواخر عهد عثمان واتصل الى عهد يزيد . وهذا، كشاب بالغ النزق ومضغن ذي احنة وترات، جرب أن يضربهم ضربة حاسمة قاسية .

---

(١) راجع قصة تحدي عبد الرحمن بن حسان للامويين وعبثه بهم في الاغاني .

وكانت للامويين سياسة خاصة نحو المدينة تقوم (أ) على تسميم المعنوية المثالية فيهم، وبذلك يسقط مكانهم الادبي في النظر الاسلامي العام، فشجعوا المجون واستأجروا طوائف من الشعراء والمخنثين لينشروا حياة تقرب في الوانها من الاباحية. (ب) أخذهم بالعنف دائماً فولوا امراء اضطهاديين (ج) تخصيص زمرة من أعلام الادب يهاجمونهم بكشف سوءاتهم، وكانت منزلة هؤلاء الاعلام في العصور القديمة كمنزلة الصحفيين اليوم يتوسل بهم الى نشر الدعايات . ويشهد لهذا ان معاوية لما أراد العهد ليزيد[1] استخدم طائفة من الشعراء، منهم المسكين الدارمي الذي يقول :

اذا المنبر الغربي خلّى مكـــانه　　　فــان امير المؤمنين يــزيد

ومن شخصيات حزب اهل المدينة قيس بن سعد بن عبادة، وعبدالرحمن بن حسان .

هذه احزاب رئيسية كان لها آثار متفاوتة الا انها شَرَعٌ فيما أحدثته من تيارات متعاكسة متدافعة جعلت المجتمع يمور ويصطخب في حركات جذرية عنيفة تتصل بالأغوار. وهناك احزاب ثانوية اخرى، ونثبتها هنا كما وردت في الحلقة الاولى (سموّ المعنى) ، وقد انصرفنا هناك في مقدمة الحلقة المذكورة الى تحليل نشوء هذه الاحزاب الثانوية بحصر عمر الانتخاب في عدد مخصوص . (فان هذا التعيين أوجد جزئية وبيلة، وهيأ لها أن تعمل اسوأ اعمالها ، ولم تقف عند حدود النجاح أو الفشل في الانتخاب فحسب ، والاهان امرها . والذي يجب أن نفهمه جيداً ان حصر الترشيح في عدد جعل لكل مرشح حزباً يناصره بضرورة حصر دائرة الانتخاب ، وزاد في حرج الانتخاب ان ينص على الحكم الانتخابي (عبد الرحمن بن عوف ، مما يسهل سبيل الظفر لحزب بعينه اذا استطاع أن يستميل الحكم ، ولقد كان كذلك بالفعل). وهذه الاحزاب الثانوية هي :

---

(١) راجع كتاب: الشعر والشعراء لابن قتيبة . ويروى البيت على وجه آخر (اذا المنبر الغربي خلاه ربه) .

(٧) حزب طلحة والزبير :

وهذاحزب يقوم على عصبية شخصية بسبب ما منيا به من فشل في الانتخاب ، وكان ينضوي اليه بعض من الناقمين على سياسة عثمان ، ومن اكبر شخصيات هذا الحزب عائشة .

(٨) حزب ابناء عمر بن الخطاب :

هذا حزب لا يحدثنا التاريخ عنه كثيراً ولا يسجل له ظهوراً، ولكني ارجح انه قد كان. فان موقف عمر من أهل بيته لم يكن مرضياً، ووجد في الناس من يدعو لآل الخطاب ، ومـــن اكبر الشخصيات المنتسبة اليه ابو موسى الاشعري الذي رأينا من خروجه على صلاحية الحكم في صفين الى اسقاط الامام القائم ومعاوية ، وترشيح عبدالله بن عمر للخلافة التي لم يرها له ابوه (ض)

(٩) الحزب الاموي المنشق :

كان يعمل ضد الخليفة بالذات ، ويقوم بدور الجاسوسية عليه، لحساب بعض الاحزاب كحزب طلحة — على ما يظهر من قصة ذكرها المسعودي — ومن اكبر شخصياته عمرو بن العاص .

فهذه الحزبيات المتصارعة أدت الى حالة من الاضطراب والشعور المشترك بالحاجة الى الاصلاح .

والحقيقة الواضحة هي أن الحزب الاموي كان يرمي الى اعداد ثورة في المجتمع تغيّر كل شيء، وتأتي على ما هو معروف من أوضاع ما دامت متحكمة بالشعب فلن يستطيع تحقيق أهدافه التي يسعى اليها جهده . وقد رأينا من أهدافه التي ذكرناها وعنينا باحصائها من الظواهر التي صاحبت حكمه ، أنه كان يبغي التحلل المطلق والسيطرة المطلقة ؛ وقد نجح في كل شيء . وأهم ما نجح فيه أن الثورة طالت والتفت على نفسها بحيث أتت على الطبقة القديمة التي كان يرهبها كثيراً ويفرق منها كثيراً، وبذلك مزق أعصاب الشعب أيضاً وحمله على الاستكانة.

إن الثورة، حينما طال أمدها، أطاحت بأكثر الزعماء والجمهرة الاسلامية الاولى وأنهكت قوى الجمهور، فرضي بالامر الواقع؛ وهذا الشعور الذي لمسه الحسن بن علي (ع) ظاهراً واضحاً في نفسية الجمهور حمله على المسالمة ووضع أوزار الحرب.
ونتائج هذا الفصل هي :

(١) ان الحزبية علقت بمجتمع العرب، وكانت مغرضة نفعية في أكثر جهـاتها.

(٢) ان الحزب الاموي كان يرمي الى تغيير الأوضاع كافة، وكان يقوم بدور المعارضة المتطرفة الحزب الشعبي، وبدور المعارضة المعتدلة حزب المحافظين.

(٣) ان الصراع الرهيب كان بين الحزب الاموي من جهة والحزب الشعبي وحزب اهل المدينة من جهة أخرى؛ ومعارضة الاول كانت من وجهة سياسية، بينما كانت معارضة الثاني من وجهة نفسية محض.

(٤) ان الثورة كانت وليدة صراع الحزبيات.

القديم والجديد

من طبيعة المجتمعات أنها تظل في حالة تغير وتزايل دائمة ، فاي مجتمع لا يبقى حافظاً لأوضاعه أمداً طويلاً ، بل يطلب اشكالاً جديدة ، وخصوصاً حين يتصل ويحتك بمجتمعات أخرى فانه يتأثر بها على نسب متفاوتة . وهذا راجع الى الطبيعة في الكائن الحي الذي يؤلف المجتمع . وقد كشفنا في التصدير عن مقدار ما يعرض للمجتمع باعتباره كائناً مركباً يعرض له ما يعرض للكائن البسيط ، وهذه الخاصة ، في كلٍ من الكائن الحي والكائن الاجتماعي على نسبة متقاربة ، هي الأساس الذي بنينا عليه النظرية الجديدة في التاريخ . فالارتقاء خاصيّة لازمة للجماعة ، ما لم تحل الموانع دون عملها ، وهذا هو التجديد .

فتجدد المجتمع إذاً ضربة لازب ، وهذا بعينه ما صادف المجتمع العربي الوليد ، حين مالت الجماعة الاولى الى الزوال ليحل محلهم نشء جديد له افكاره وميوله ومذاهبه ؛ وهذا النشء ، بما اجتمع له من أشكال اجتماعية وأوضاع مدنية لامم شتى ، كوّن لنفسه فكرة ولوناً متميزاً ، ودخل بأشيائه الجديدة في دور صراع مع الجماعة الاولى بأشيائها القديمة ، وتفاعل الجديد مع القديم تفاعل تناحر ضرورة أن كلاً منهما يتشبث بأسباب البقاء .

ولعل أحداً لا يشك بأن محمد بن ابي بكر كان ينظر الى الحياة من غير

الناحية التي ينظر منها ابوه ، فالنظرة العامة له انحرفت في كثير أو قليل. كما نلمس أيضاً تأثر كثير من رجالات القديم بالالوان الجديدة التي انتقلت الى العرب بضم مجتمعات كثيرة ذات حضارة سامية ، وكان من هؤلاء طوائف كبيرة من مثل طلحة والزبير وزيد بن ثابت وعبد الرحمن بن عوف ويعلى بن امية الذين أخذوا بالترف وحياة الغضارة الناعمة، فاستكثروا من الاموال ومالوا الى اعتناق النظام الارستقراطي متأثرين بوضع الامم التي فتحوها، ونصلوا بدرجة كبيرة من النظام الديمقراطي الذي فرضته الطبيعة العربية والدين [1] . وهذا ما كان يتخوفه النبي (ص) فقد ورد من اعلام النبوة (انما أخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زَهرة الدنيا وزينتها ، إنه لا يأتي الخير بالشر ، وإنّ مما ينبت الربيعُ ما يقتل [2] حَبَطاً أو يُلمُّ الا آكلة[3] الخُضر فانها اكلت حتى اذا امتلأت خاصرتاها استقبلت الشمس فثلَطتْ وبالت ثم رتعت ، وان هذا المال خَضِرَة حلوة ونعم صاحب المسلم هو لمن أعطاه المسكين واليتيم وابن السبيل ، فمن أخذه بحقه ووضعه في حقه فنعم المعونة هو ، ومن أخذ بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع ويكون شهيداً عليه يوم القيامة .)

فالنبي(ص) يحذر من التعلق بما سماه زهرة الدنيا، كأنه كان يستقبله واقعاً مادياً محسوساً .

فقد كان اذاً، في المجتمع العربي الاول الذي نُعنَى بدرسه، قديم وجديد؛ وهذا الاخير تطمئن اليه وتنتصر له اكثرية الشباب وطوائف كبيرة من الشيوخ الذين عايشوا النبي (ص) طويلاً .

---

(١) اخرجه البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري ، وذكره الميداني في مجمع الامثال .

(٢) هذا مثل ضربه النبي المتزيد المفرط في جمع المال من اية طريق ، وحبطت الدابة حبطاً اذا اصابت مرعى طيباً فافرطت في الاكل حتى تنتفخ وتنشق امعاؤها وتهلك .

(٣) هذا مثل المقتصد ، فان الخضر ليست من احرار البقول وانما تنبت بعدها ، فضربها النبي (ص) مثلا لمن يقتصد في اخذ الدنيا، فهو ينجو من اخطارها كما نجت آكلة الخضر ، فانها اذا شبعت منها بركت مستقبلة الشمس تستمرىء بذلك ما اكلت تجتر . راجع مجمع الامثال للميداني في المثل (ان ما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً او يلم) ص ٧ و ٨

وكانت فكرة الجديد تقوم على الارستقراطية الاجتماعية، وظهرت في التنافس على الامارات المدنية والعسكرية ، وعلى التزيد من الاموال ، وعلى التحلل بالحياة العامة من القيود واعطائها صفة من الحرية أكثر سعة .

وكانت فكرة القديم تقوم على قاعدة تناقض ذلك مناقضة تامة ، فهو يؤيد الديمقراطية ، ويبيح الأخذ من الاموال بقدر فقط ، ويتشدد في القدوة واتباع الأوضاع . فالهوّة بين القديم والجديد كانت واسعة ، وزادت مع الايام سعة وامتداداً. فالابتعاد اتصل بالعقلية والفكرة والشعور، مما جعل نظرة كلّ أحد الى أشياء الحياة تختلف عن الاخرى .

ونعرض الآن للعوامل الّتي نزعت بالناس الى التجديد والبعد شيئاً فشيئاً عن خطة الوضع القديم ، والذي وضح لي منها ، عدا الارتقاء الطبيعي ، هي :

(١) العقلية الفطرية: وهي تميل دائماً الى الاحتذاء والتقليد، فالامة العربية اتسعت بسهولة وسرعة واهتضمت عناصر شتّى ونظماً كثيرة ، وبحكم فطريتها احتذت اكثر الوانها . وظهر في التجديد اختلاف أيضاً ، لأن العرب كشعب غير ثقافي في بداءتهم ، تأثر كل قبيل منهم بأوضاع الامم الّتي حلوا عليها ونظمها ، فالذين نزلوا ارض فارس تأثروا بلون الحياة الفارسية وقامت في نفوسهم فكرة البيت المالك، وكذلك كان شأن الذين حلوا بلاد الروم . وهذا وجه افكار العرب وجهات مختلفة كان لها أثرها في التشريع والاجتماع والنظر العام . وعليه فلم تكن للتجديد صفة بعينها ، بل كان يختلف باختلاف اللون الذي اعتنقه العربي بحكم البيئة الجديدة . ومثل هذا الاختلاف الواقع في نزعة التجديد ، الاختلاف بيننا اليوم ؛ فان المثقف من ينابيع لاتينية ينصرها ويجتهد بتحويل مجتمعه اليها ، وكذلك المثقف من ينابيع المانية أو سكسونية أو روسية . فاختلاف نزعة التجديد في العهد الاول الاسلامي كان خاضعاً لاختلاف البيئة الجديدة ، وفي عهدنا خاضع لاختلاف الينبوع الثقافي .

(٢) أطماع الشيوخ : وهم من الطبقة القديمة إلاّ أن احتكام نفوسهم بأطماع

لا حد لها جعلهم ينزعون قسراً الى الجديد ، ويعتنقونه في ظمأ واطمئنان . فهم ، حينما وجدوا فتوناً لا حد لها ومغريات لا عهد لهم بمثلها ، نزعت نفوسهم اليها ، كما ينزع السهم من اليد التي كانت تمسكه ، مندفعين بشيء من ميولهم كالوتر الذي اكسب السهم قوة الاندفاع والاستمرار .

والملاحظ على البدائيين انهم اكثر تحللاً في سبيل هوى النفوس ، بحيث لا يرعون لشيء من أشياء القديم إلاً ولا ذمة ، ما دام في الجديد ما يرضي رغائبهم المكبوتة. وهذه الظاهرة تعلل بالظمأ الطبيعي أو الكبت الطبيعي، فان البداوة تكبت على المرء شهواته الا بمقدار ، فهو لايجد سبيلاً اليها حتى ينقلب ملكياً أكثر من الملك. وهذا ما رهَّب عنه النبي (ص) في الحديث السابق وأسماه (زهرة الدنيا) ورغَّب به. ان النبي ذا النظر العميق في أسرار النفوس وطبائعها اعتمد، في تهذيب العرب، كل الطرائق التربوية التي تفعل الاختمار الناقل للوراثات .

(٣) الشباب واطماعهم : كثر الشباب كثرة مطلقة، واحتلوا مكانهم في الحياة العامة ، وعمدوا الى المساهمة فيها بأفكارهم وأحاسيسهم ، ولا ريب في انها لا تتفق في كثير مع أفكار الشيوخ وأحاسيسهم، فظهر التفاوت المنطقي بين الفئتين، كما أن الشباب يكونون أسرع تأثراً بما يرضي الغرائز ويشيع فيها النشوات . فالحركة السريعة للفتح العربي وجدت سبيلها الى أفئدة الشباب فطفرت بهم .

(٤) الغنى المفاجىء : نقل الشباب وطائفة من الشيوخ الى جانب آخر غير الجانب الذي كانوا يسيرون فيه، وغمسهم غمساً بمثل الوان الترف عند الامم التي حكموها .

(٥) قوة الضعفاء : هذه القوة على الدوام تنتج الميل الى الارستقراطية ، وقد وقع الملحظ في خاطر ابي تمام الشاعر :

(وضعيفة ، فـاذا أصابت فرصة قتلت ، كذلك قدرة الضعفاء)

(٦) ظهور المرأة: وهي كثيراً ما تنساق بحوافز عاطفية، فكان لها أثر في التوجيه

الجديد . وقد ظهرت المرأة بحركات كبيرة استقلالية في مناسبتين(أ)يوم الردة،في امرأتين : احداهما سجاح بنت الحارث وتقدم [1] خبرها ، والاخرى هي سلمى [2] ابنة مالك بن حذيفة سبيت أيام رسول الله (ص) ووقعت لعائشة فاعتقتها ، وقد قادت جموع غطفان وهوازن وسليم وأسد وطيء ثائرة ، فنزل خالد بن الوليد عليها وعلى جُمّاعها فاقتتلوا ، وهي واقفة على جمل امها — وكانت مرهوبة عظيمة المنزلة — تستنهض الجموع وتعزز الحماسة ، وقد قتل حول جملها مائة رجل ثم قتلت وتفللت الجموع . ارتدت هذه المرأة نتيجة لتفكير جزئي أو قل: سطحي، فهي تريد أن تثأر لاخيها حكمة الذي قتل أيام النبي(ص) . (ب) ظهور المرأة يوم الجمل في شخص عائشة(ض)فانها لعبت مثل دور عتيقتها سلمى ابنة مالك،فقد خرجت على حكومة علي (ع) كما خرجت الاخرى على حكومة أبيها ؛ ولغرض مشابه تقريباً ؛ فتلك تثأر لاخيها ، وهذه تثأر لعثمان، وقد عقدت الصداقة بينهما زمناً طويلاً ، فقد كانت تختلف الى عائشة كثيراً وتنزل عليها دائماً.ولا يبعد عندي أن يكون في جملة الرغبات التي دفعت عائشة الى الخروج ، انها كانت معجبة بالدور الذي لعبته سلمى .وقد كان دوراً معجباً حقاً لهج به الناس كثيراً حتى قيل: بلغ من عزها أنه وضع مائة من الابل لمن يجرؤ على نخس جملها . والمرأة ذات تفكير تلعب به الميول والعواطف .

لذلك لا استبعد أن تكون عائشة قد انطوت على اعجاب عميق بسلمى .وهذا الاعجاب كان عاملاً نفسياً كبيراً هوّن عليها سبيل الخروج لتلعب دوراً مماثلاً تكون فيه القائدة وعلى جمل ايضاً يضحي دونه كثيرون ؛ وكان المصير واحداً تقريباً . وهذا من أغرب المصادفات التاريخية ، وليتنبه الى اننا لا نقول إن اعجاب عائشة بسلمى كان عاملاً من عوامل خروجها ، بل نقول كان رغبة في جملة الدوافع التي تركز عليها عزمها .

---

(١) راجع الحلقة الثانية من هذا الكتاب .

(٢) راجع الطبري ج٣ ص ٢٣٣ و ٢٣٤ .

فخروج عائشة، كإمرأة، للقيادة العامة شيء جديد في المجتمع الاسلامي الاول ، ثار حوله تفكير طويل في انه هل للمرأة أن تأتي مثل هذه الحركات أم لا ؟. وكان التفكير في ذلك من وجهة دينية محض فأم سلمة[1] (ض) — زوج النبي — والطائفة المحافظة على القديم ذهبوا الى انه لا يجوز ذلك لها ، وطلحة والزبير والعرب الذين سكنوا البصرة وتأثروا بأفكار الفرس ذهبوا، كما يظهر من عملهم، الى جوازه . فظهور المرأة شيء جديد أثار مسألة جديدة ما في ذلك شك .

(٧) غمّر الاسلام للاديان : فان الاسلام حينما غمر في طريقه هذه الاديان الكثيرة انبعثت فيه ثانية وأحدثت فكرة دينية جديدة لها شكلية اسلامية وحقيقة من كل دين . فكان في المحيط الاسلامي يهودية اسلامية ، ومسيحية اسلامية ، ووثنية اسلامية، لبّست في عقائدها وأعطتها شكلاً اسلامياً، كما يظهر من علم الاديان المقارن ، وبقيت تتكاثر على مثل التوالد الذاتي حتى أتت في اكبر عدد مفروض .

من هذا نعلم أن العرب، قبل مصرع عثمان (ض)، شعروا بشيء جديد شمل الاعتقاد والاجتماع والحريات الادبية وآداب السلوك ، وشهدوا صراعاً خفياً بين الجديد والقديم أدى الى الذبذبة والاضطراب .

---

(١) اوضحت رأيها هذا في كتابها الحكيم إلى عائشة ؛ وتجدر بكل قارىء مطالعته ، وهو موجود في « الامامة والسياسة » لابن قتيبة .

الثورة

بعد ذلك العرض المسهب للبواعث التاريخية التي اتصلت بالمجتمع الاسلامي الاول ، وتشخيصها بالمقدار الذي يسمح لنا بفهم المحركات الرئيسية لذلك العهد ، تبدو لنا الثورة حادثاً طبيعياً للمحركات المجتمعة التي تؤدي كل منها الى توليد حركة ذات صفة بعينها ، فاذا اختلطت حركاتها وتشابكت تشكلت الثورة على وجه طبيعي جداً .

وفي كلمة التصدير اعطينا تعريفاً جديداً للثورة يحسن بنا ان نعيده مرة اخرى ، فقد قررت هناك أن الثورة هي الارتياب في المثل الاعلى حين يتخذ شكلاً عنيفاً ، وهو يتحرك الى هدف معين ويدور على فكرة خاصة ، وهذا تعريف جد حقيقي يفهمنا ان الثورة على الدوام تعبر عن فساد في الحكم ونضج في الشعب . وكذلك كانت الثورة الاولى في الاسلام او الثورة على عثمان .

فهمنا ،من الفصول المارة، ان مزاج الشعب العقلي لم يزل قبلياً ، وفهمنا ان القلق الديني لم يزل يتملك الافراد في كثير من التأثير ، وفهمنا أن قضية المال لم تسوَّ على الوجه الذي يحقق الاماني،وأن كثيراً من المجتمعات،بنظمها وقوانينها، انحلت في المجتمع الاسلامي ولم يمثلها أو يهضمها هضماً حسناً ، وفهمنا ان

الحزبية البغيضة علقت بذلك المجتمع الوليد ، وأخيراً شهدنا صراعاً بين القديم والجديد يشطر العالم الاسلامي في الفكرة الى معسكرين .

فقد ماد المجتمع العربي إذاً تحت عوامل نفسية واجتماعية مَيَدَاناً شديداً ، وتطلع الشعب الى الاصلاح الشامل ، وبالاخص بعد ان استقل بالحكومة الحزب الاموي ومال بها الى الارستقراطية وحكم الناس بسياسة اللامبالاة في الادارة والاموال وشتى نواحي النظام . ان سياسة الضغط والانتهاز التي سار على منوالها الامويون ، جعلت الشعب يحتج ويبالغ في الاحتجاج مطالباً بضرورة الاصلاح السياسي ، مرتقباً استرداد حرياته المغتصبة . ولكن الحزب لم يشأ تغيير شيء من سياسته التقليدية ، فثار الشعب المتذمر وأعلن العصيان .

اعلن الشعب الثورة لان الاوضاع التي كانت تصلح لسياسة المجتمع يوم كان محدوداً ضيقاً ، لم تعد تصلح له بعد أن أدخل تحت جناحيه اكثر العالم القديم وهو مختلف العادات والتقاليد والتربيات . ولان الطماعية أو الجشع ، التي دعاها موللرلبير Pleonexia ، تسلطت على موارد الدولة كافة في حكومة الحزب الاموي ، حتى حلوا كثيراً من الملكيات وجعلوها وقفاً عليهم ، وهذا ما صرح به كبير من ولاتهم وهو سعيد بن العاص، فقد قال : انما هذا السواد — سواد العراق — بستان لقريش ، واستبدوا بالاموال استبداداً كبيراً . ولأن الفكرة الاجتماعية بلغت في الناس مبلغ النضج تقريباً بتأثير نظم الامم التي انتقلت الى نظامهم ، ويشير الى هذا أن اكثر الثائرين من الجهات التي خضعت في يوم من الايام لحكومات نظامية قديمة كمصر والعراق.ولان الأخطاء السياسية للحكومات السابقة تجسمت في عهد عثمان فأخذ بها ، من مثل سياسة الاموال التي وضعت في حكومة عمر ، فان تمليك الاكرة والفلاحين الارض التي كانوا يعملون [1] فيها على نظام الرق،وهو يجعلهم تابعين للاراضي في عهد الحكومات المقهورة ، أدى الى الفوضى من حيث إن الفاتح العربي لم يملك المالك الاول وحده بل أوجد مالكاً جديداً هو الفلاح ،

(١) راجع محاضرة رفعة علي ماهر باشا في التربية والتاريخ المنشورة في مجموعة متخرجي المدرسة الخديوية سنة ١٩٠١ ص ٣٥ و ٣٦ .

وكان أولى أن يجعل هذا المالك الجديد هو المجاهد العربي . إن ما هرب منه عمر وقع فيه : هرب من تمليك العربي حتى لا يحرم المالك القديم ، فيؤدي الى الاضطراب ، ولكنه وقع على أي حال فيما يماثله حيث اشرك مالكاً جديداً مع المالك القديم . وكان الافضل، من وجهة النظر الاقتصادي حيث حلت الملكيات بالفتح عنوة ، أن يخلف المجاهد العربي المالك القديم أو أن يشرك معه على الاقل .

فثورة الشعب كانت نتيجة لرغبة اكيدة في الاصلاح ، وهذه الثورة هي التي أوحت لعلي (ع) بنظام الاصلاح الذي ضمنه العهد الى الاشتر . ومن هذا يظهر أن عهده المذكور لم يكن مرتجلاً ، بل كان نتيجة التروي العميق والتمرس بنظم قديمة وجديدة .

ولعل أقرب الثورات، في التاريخ الحديث، الى ثورة العرب الشعبية هي الحرب الاهلية [1] الانجليزية التي قادها (اوليفر كروموِل) ضد الملك كارلوس الاول الذي أخذ بأخطاء ابيه وأخطائه ؛ فكان كأبيه يكره الحكم الذاتي وحقوق الشعب السياسية وتقييد يديه وايدي حاشيته في المالية ، ولكن الشعب قدم (عريضة الحق) وقبلها الملك بعد أن أقرها مجلسا اللوردات والعامة نهائياً . إلا أن الصلة بين الشعب والملك عادت فتحرجت، فحل الملك «البرلمنت» الذي طلب محاكمة الدوق بوكنهام، وكان سيء السمعة محرضاً للملك، واحتج الشعب احتجاجه العنيف الذي أغضب الملك غضباً شديداً، فعزا الى الزعماء جريمة التمرد، ولما لم يكن من اساس للتهمة اعتبرت غير قانونية ،وحاول القبض عليهم فأخفق .

لذلك اعتبر مجلس العامة أن الملك بفعله أعلن الحرب ضد حرية الشعب، وخاف أن يستخدم الجيش ضده ، فاقترح وجوب أن يتم تعيين قواد الجندية في « مجلس العموم»، فرفض الملك وشبت الحرب الاهلية، وقاد الشعب (كروموِل) الذي انتصر على الملك وأخذه أسيراً، ثم حاكمه وحكم عليه بالاعدام، باعتبار أنه صاحب فتن ودسائس ضد الشريعة وحرية البلاد . وتغطرس الجنود المنتصرون غطرسة فيها شيء من الاستهانة (بالبارلمنت) .

---

(١) راجع كتاب : تاريخ اساس الشرائع الانجليزية للاستاذ دافيد وطسن راني ص ١٣٧ إلى ١٤٨ .

هذه الثورة، في كثير من ظروفها وأغراضها، تتفق مع ثورة الشعب العربي الاولى . فان الدين اكسب الامة الحق بحكم نفسها (وأمرهم شورى بينهم . وشاورهم في الامر) ، وفرض الطاعة للسلطة التنفيذية في حدود طاعة السلطة نفسها للقانون (يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولي الامر منكم ، فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا .) والتنازع في الاية على وجهين : تنازع الافراد على الحقوق ، وتنازع الشعب مع السلطة الحاكمة التي عبر القرآن عنها (بأولي الامر) وحكمهما واحد في ضرورة الرجوع الى القانون المؤلف من القرآن وأقوال النبي وأفعاله ؛ وبذلك خول الشعب ، اذا كان الحق في جانبه ، أن يأخذها بمقتضى قانون الجزاء السياسي على ماهو مشروح في السنة من انحلال البيعة وما يتبعها ، كما يؤخذ الافراد بمقتضى قانون الجزاء [1] العدلي.

فالقانون الدستوري للاسلام اثبت إذاً حقوق الشعب ، وأعطاه الحرية الواسعة للمحافظة على هذه الحقوق ، والشعب اعتنق هذا القانون، فهو لا تمر به سانحة تجاوز فيها السلطة غاية القانون الا احتج ورفع صوته مطالباً باحترام الدستور .

ولما جاء الدور لحكم الحزب الاموي ، وتجاوز المبادىء المقررة وخط لنفسه سياسة ليست مشتقة على أي وجه من حقوق الشعب في الحكم الذاتي ، عارض الشعب واحتج وطلب الاصلاح ، فأظهرت الهيئة الحاكمة قبولها ، ولكن سرعان ما عادت الى التجاوز وعاد الشعب الى الاحتجاج ؛ وزاد في عنفه اطلاق الخليفة أيدي حاشيته في المالية وإقطاعهم . ولكن الهيئة الحاكمة عادت فوعدت بتغيير الخطة السياسية ومنهاج الحكم ، ولم تلبث حتى رجعت الى سابقة أمرها . وهنا هُدِي الشعب الى معلم ثوري نظم مطالب الاصلاح أو «عريضة الحق»، فقررت الهيئة الحاكمة القبض على الزعماء ، فقبض عليهم معاوية وفيهم الاشتر ، وأسلمهم الى

---

(١) هذه الآية لم يفهمها كثير من المفسرين على وجهها الصحيح حين قصروها على الوجه الاول من التنازع ، ولكن اقتصار الآية بعد ذلك على ذكر الله ورسوله دون اولي الامر يدل على انه يريد ان يتناول ايضاً وجه النزاع الثاني الذي هو بين المؤمنين (الشعب) واولي الامر (الهيئة الحاكمة) كما بسطناه في كتاب :(مدخل التفسير).

القائم بأعمال حمص ، فاضطهدهم وعاملهم بقسوة ثم عاد فأطلقهم . ولكن هؤلاء لم تخمد حركتهم الاصلاحية ، فعادوا يطالبون بالاصلاح ، ويتشبثون بمحاكمة مروان بن الحكم : مستشار الخليفة الذي ثبت لهم انه الوحيد الذي يتلاعب بمقدرات الحكم ، فأبى الخليفة وتمسك به ، وتحرجت الامور سريعاً نتيجة أخطاء سياسية فظيعة ، وأعلن الشعب الثورة بزعامة الاشتر ووقعت الكارثة بمصرع الخليفة .

وهؤلاء تلافياً للامور حتى لا تطغى الثورة وتشكل حركة زوبعية لا يعلم مداها . قرر الثوار وجوب تعيين الحاكم الاول (الخليفة)، فانتخبوا علياً (ع) للخلافة ، او قل : حملوه عليها . وقد فهم علي ان الظرف يقتضي اخذ الامور بالحزم والشدة ، لأن طلائع الفوضى بدأت تذر قرنها وتلعب من بعيد ؛ وفي مثل هذا الظرف لا تنجح الا حكومة الحزم غير ان الناصحين ذوي النظر الضيق في طبائع النفوس والحركات الاجتماعية الكبيرة أشاروا عليه بالملاينة ، وهذا هراء لم يصغ اليه الخليفة العبقري فعمد الى سياسة البطش والشدة ، فضرب الخارجين يوم الجمل ضربة صاعقة اخضعت العراق والحجاز واليمن ، وأرهبت الشام . ولقد بات الحزب الاموي في مثل رهبة الظربان ، ومعاوية لم يعد يثق من نفسه ، ويدل على هذا الرعدة التي اخذته حتى مال الى الاستسلام بدون قيد ولا شرط كما يظهر من كتابه الى المغيرة بن شعبة الذي قال فيه (قد ظهر من رأي ابن ابي طالب ما كان يقدم في وعده لك في طلحة والزبير ، فما الذي بقي من رأيه فينا) .

وحركة علي (ع) السريعة في الانتقال من حرب البصرة الى حرب الشام ، ترينا موضع الاحكام في خطته ، فلم يترك لخصومه ظرفاً يتأشبون عليه فيه ، كما لم يدع الجذوة المتقدة في نفوس جيشه تخمد ، وعمل على استغلال أثر الرهبة التي اورثتها وقعة الجمل . وهذه الحركة السريعة واجبة اذا درسناها على ضوء الفوضى حين تتملك النفوس ، فانه لا يثبت في هذا الغمار الا الرجل القوي الذي يسوس المتمردين بالحزم كما فعل علي (ع) ، ولكنه انما أُتي من جانب تسلط المزاج العقلي القبلي بطلعاته على نفوس جنده ، وهــذا يجعلهم نفعيين نفعية مطلقة ، كما ان تضحياتهم لم تجرّ الى مغنم ينسيهم فداحتها ، فلن يجروا إذن الى آخر الشوط

بدون غم على انه بمغارم كثيرة ، وعلي متشبع بقضايا الحق والعدل ووجوب الاصلاح من أقرب الطرق ، فلم يخولهم شيئاً من أموال خصومهم ومحاربيهم .

ان المؤرخـــين الذين انتقدوا سياسة علي كانوا ساذجين في درس التاريخ على مقتضى الطبائع النفسية ، إن علياً (ع) يجب أن يفعل ما قد فعل من عزل وتعيين وأخذ بالشدة ؛ فانه لن يحدد مدى اتساع الفوضى ، وقد علقت بالنفوس ، الا سياسة تقوم على هذه الشاكلة ، فان الرجال الذين رافقتهم ظروف فوضوية كانت سياستهم تقوم على الحزم الشديد بل والارهاب من مثل (كرومول) و (نابوليون).

وعليه فالثورة على عثمان (ض) كانت نتيجة للنضج الاجتماعي ، وكانت اصلاحية الى حد كبير تقوم على فكرة بعينها ، ولكن لان فصولها تتالت مسرعة انتقلت الى فوضى . والذي يدل على انه قد كانت تعمل فيها افكار انكشافها عن نظريات جديدة من مثل نظرية الخوارج . فقد بقيت لها إذاً صفة الثورة الى أن ابتدأ الصراع بين علي ومعاوية ، ومن ثم انحرفت وأخذت صفة الفوضى ، وهذه الصفة لها كانت تروق في عين معاوية فدفع الجزية الى ملك الروم لاطالة الصراع ، فان من اولى نتائج المطاولة تمزيق الاعصاب وانهاك الجموع التي تميل معه الى الاستسلام . وقد بقي هذا الشعور يتزايد في كل نفس الى ان بلغ الغاية بوفاة علي(ع) فلم يجد الحسن (ع) خطة أضمن وأفضل من المصالحة .

والتلخيص العام لأهم ما جاء في فصول المقدمات مما هو متصل بالثورة ، هو :

(١) ان عمر تردد بين ان يتبع طريقة ابي بكر أو طريقة النبي (ص) ، وخاف الاختلاف فجمع بين الطريقتين ؛ غير أن الستة الذين حصر الانتخاب بهم اختلفوا وهو حي ، ولا شك ان هذا الاختلاف انتقل الى انصارهم في الخارج وعملت العصبية عملها وتشكلت الاحزاب الثانوية . وعبد الرحمن بن عوف لعب دوراً مهماً حين وسع دائرة الانتخاب وانتقل به نحو الشعب حتى لم يتم مدة الشورى. وذلك لأن علياً (ع) كان الفائز لا محالة في الانتخاب التداولي الذي دار بين الستة ، فان المؤهلات التي اجتمعت له لم تجتمع لواحد منهم ، على انه خاض

معركة الانتخاب للرئاسة ضد ابي بكر (ض) ولم يخضها سواه من سائر الستة المجتمعين . ولا ننسَ أن الزبير انحاز الى علي ضد ابي بكر في المعركة الانتخابية الاولى ، على ما ذكره ابن الوردي في التاريخ .

ويقول بعض مؤرخي الفرنجة: ان عبد الرحمن لم يترك الانتخاب حرّاً بل استعمل فيه طريقة المداورة والانتهازية ، كما لم يستشر عبدالله بن عمر وهو المستشار في وصية عمر . ولما نقل عبد الرحمن الانتخاب الى الشعب ووسع دائرته والحزب الاموي قد أعد القبائل لنصرته ، ونحن نعلم أن كثرة من القبائل كانت صنائع لبني امية في القديم . فتعيين الترشيح في ستة [1] مهد السبيل لدى الامويين لاستغلال الموقف ؛ وقد وصل الى مثل هذه النتيجة من قبلُ ، سيد[2] امير علي الهندي قال :

« ان حرص عمر على مصلحة المسلمين دفعه الى اختيار هؤلاء الستة من خيرة اهل المدينة دون أن يتبع سياسة سلفه . وكان للامويين حزب قوي في المدينة ،ومن هنا مهد اختياره السبيل لمكائد الامويين ودسائسهم: هؤلاء الذين ناصبوا الاسلام العداء، ثم دخلوا فيه وسيلة لسد مطامعهم الاشعبية وتشييد صرح مجدهم على اكتاف المسلمين . »

(٢) ان نظام المال الموضوع في عهد عمر فت في عضد الجيش ، وقد اصاب

---

(١) المستشرقون يرون هؤلاء الستة اجتمعوا من تلقاء انفسهم ، ويستدلون إلى ان رجلاً مطعوناً لا يستطيع ان يفكر تفكيراً ما في امر دقيق كهذا يستدعي توازناً في القوى وضبطاً لاعصاب التفكير . هذا صحيح ،الا انه لا يدعونا إلى الشك في انه رشح الستة المذكورين . على ان ظاهرة هذا الضعف وضحت ايما وضوح في وصيته التي كانت اقرب إلى الافكار المتقطعة المختلطة . فهو يتمنى لو كان أبو عبيدة حياً ،ويتمنى لو كان سالم مولى ابي حذيفة حياً ثم يدل تارة على علي (ع) وتارة يتردد، ويجعلها تارة في الستة ويأبى الا ان يتم انتخاب واحد منهم قبل موته ثم يمده إلى ثلاثة ايام من وفاته مما يجعلنا نعتقد أنه قد عرته حالة مرضية جعلته يهجر . وهذه الظاهرة التي تطبع رواية وصيته تصححها بلا ريب لانها تحمل صفة من وهنه رحمه الله وأفسح له في رضوانه بما ابلى في سبيل الله والاسلام .

(٢) راجع كتابه المسمى « a short history of tho saracens » ص ٥٥ .

(ولهاوزن) حين قال في كتابه (المملكة العربية وسقوطها) : وكانت المقاتلة تحتمل ما دامت تدر عليهم الغنيمة ، ولكن أما وقد منـــع توزيع الاراضي عنهم ، فقد لان عزمهم ووهنت شكيمتهم ، وبعد أن كانت الحكومات تعتمد على مساعدة الجيش أصبح الجيش يعتمد على مساعدة الحكومة ، ومن ثم لا نعجب اذا ظن المقاتلة أنهم خدعوا من جانب الحكومة . على ان المحسوبية ذرت قرنها في التنسيقات والتعيينات والاعطيات ، وهذا ما يقوله الشاعر الثائر عبد الرحمن الكندي لعثمان :

ولكن خلقت لنـــــا فتنـــة   لكي نبتلى بك او تبتلى
فأعطيت مروان خمس العباد   ظلمـــــــاً لهم وحميت الحمى

(٣) الشعور بالحاجة الى الاصلاح .

(٤) تجاوز السلطة .

(٥) التكتل الحزبي : فقد ذكر ابن الوردي في التاريخ ان هوى المصريين كان مع علي ، وهوى الكوفيين مع الزبير ، وهوى البصريين مع طلحة .

هذه هي الثورة الاسلامية الأولى ، وكانت ثورة اجتماعية سامية ، ثم لا تقل شأناً عن أنبل الثورات الاصلاحية التي عرفها التاريخ . ولكن الحزب الاموي سممها وانحرف بها الى فوضى مهدمة خطيرة .

ومهما كانت ثورة او فوضى فقد بنت الدولة بناء أقوى في الادارة والنظام، لولا ما حفلت به من دماء زكية عزيز علينا طلها ، ومصارع لم يزل لها في أعماق الذكرى جراح وندوب .

الحسين (ع)

في عهد النبي (ص)

طفولة سامية

في منزل السمو النفسي وهيكل الروح الاقدس ، حيث كانت عبقات السماء تهب مثلما يتضوع عبير الزنبقة في الليلة الحالمة الأضحيانة [1] ، وحيث كانت أرسال الملائك تتصل بالارض كما يتصل شؤبوب المطرة الريق ، هذا ليمس التربة بالحياة وهذا ليمس النفوس بالمعنى الحي ، برزت من الغيب طفولة سامية ...

غرس بطل عربي — كما يسميه كارلايل — في طبيعة العرب نواةً اتصلت واتصلت،من فوق رمال الصحراء ، والصحراء أبدية مكشوفة ، ولكنَّ النواة لم تُخرج عشباً أو شيئاً يشبه العشب ، وانما أخرجت انسانية مشبوبة لتحل في هيكل العالم الحاوي ، وبقي الينبوع الصافي يطّرد على النواة ليتصل فيها الري ، ومن عين ذلك الينبوع تَبلْوَرت طفولة سامية ...

في الغار او في الكهف [2] اسرار مبهمة مجهولة ، لا يزال الشعراء يقفون عنده ويستلهمون ، والحكماء يتطلعون اليه بعيون نهمة ويستلهمون ، لأن الحقيقة العظمى

---

(١) الاضحيانة هي الليلة المقمرة الشديدة الضياء .

(٢) اجرى افلاطون في الغار او الكهف خياله في المثل والمثالية .

تتخذ أصدافها منه ، ولكنها تجذب اليها البشري الكامل لتحل فيه ، فدخل النبي (ص) الغار وخرج منه بمعناه ، فلم يعد في الغار ذلك السر المبهم ، لان الغار اطلع سره ليمشي في ضوء النهار ، ومن اسرار الغار الاقدس انفصلت طفولة سامية ...

حينما ضُفّر إكليل الغار على فتى الغار (ص) الذي انتظم الامجاد مجداً الى مجد ، كما تنتظم الأزاهير على حِفاف الوادي ، اشتقت من منظومة الامجاد طفولة سامية ...

قانون الوراثة ناموس طبيعي ، والوراثة كهربائية خفية تنتقل بتيارها في مراحل النسل الممتد ، فتلك الوراثة السامية أعطت هذه الطفولة السامية ...

ليست الارستقراطية الحقيقية بما يحتبك للمرء من ظلال الدنيا التي تغيب في عين الشمس ، وانما هي شيء في الدم ومعنى في الروح ، وما خرج عنهما أو وقع دونهما فسخريات وأشباه سخريات ، فلله كم اجتنت بما فيها من الوراثات تلك الطفولة السامية ...

ان التهاويل التي يجمعها المرء من حوله ، حتى يبيت منها في اطار ، لا تجعله هائلاً ما لم يكن هو كذلك ، لأنها ظلال لما ثبت منها في الدم ، فاذا لم يكن له دم العظامي فلا تزيده تهاويله التي سوّر بها نفسه ، عن أن يكون دُمْية تسند الى حائط او تنقش فيه لتكون مجلى للفن ، وأما حقيقة الدمية فهي [1] ساقطة بين الفن الذي تلبّست به وبين الناظر الذي أخذ بما فيها من بدوات الرواء ؛ فلله كم ثبت من التهاويل في تلك الطفولة السامية ...

طفولة خرجت سامية وكبيرة بما اجتمع لها من الوراثات ساعة انفصلت من عالم واستقرت في عالم ، وهي هي بين العالمين محدودة بمعنى السمو والكِبَر .

---

(١) اكثر الذين يظهرون بهذه التهاويل يفتقرون اليها ، كالممثل الذي يقوم بدور الملك يضم اليه اثوابه ومظاهره ولكنه لا يكون بها ملكاً الا بمقدار ما يشبع عبث الجمهور المشاهد ويشيع فيه البلاهة.

طفولة لم تكن تزهو بحركة العصب والدم ، بل بحركة المعنى الثابت في الدم ، فهي تحمل في معنى طفولتها معنى سموها ايضاً ...

طفولة لولا ما دخلها من عنصر الزمن ، لكانت حقيقة الكِبَر في الكبير ، فكم من كبير هو طفل في مداه ، وطفل هو الكبير في مداه ومعناه ...

أذان

في أمسيَّة يوم من أماسي شعبان[1] ، ولدت فاطمة حسيناً ، فأخذه النبي (ص) وأذَّن في أذنه كما يؤذَّن للصلاة .

أذان كان همسة ناعمة خافتة ، وهو نداء الروح للروح ، وليس نداءَ الاشباح للاشباح لتجتمع على عمل الطقوس . إنه نداء يحمل الى القلب سر وجوده ، والى الضمير سر العبادة ، وعلى موجاته الاثيرية تتلاقح الروحان . إن نداء الاشباح نداء للروح الشاردة الحائرة ، وهذا نداء حتّى لا تشرد الروح أو تتحير . وهو بعد ذلك سَكْبٌ لكل المعنى في كل الظرف حتى يَتَبَلْوَرَ به ، فلا يكون له وجود دونه او بعيداً عنه .

وهو إعلام للروح الطبيعية ، قبل ان تتناولها أشياء الحياة ، بأن هذا مبدأها وهذا

(١) روى ابن الاثير في «اسد الغابة» انه ولد في ليال خلون من شعبان سنة اربع ، وكذلك ذكر الاصبهاني في «مقاتل الطالبين» ، وابن حجر في «فتح الباري» ، والمفيد في « الارشاد» ، والصبان في «اسعاف الراغبين » . ولابن الاثير في اسد الغابة رواية اخرى بانه ولد في السنة السابعة من الهجرة ، ولمحمد ابن يعقوب الكليني في «الكافي» رواية بانه ولد سنة ثلاث . واخرج ابو داود والترمذي في «السنن» عن ابي رافع مولى النبي (ص) قال : رأيت النبي أذن في اذن الحسين حين ولدته فاطمة كما يؤذن الصلاة ، وذكر الصبان في اسعاف الراغبين أنه حنكه بريقه ، واذن في اذنه ، ودعا له وسماه حسيناً يوم السابع وعق عنه ، وذكر المفيد في الارشاد ان النبي عق عنه كبشا .

قاعدة وجودها . فلا تكون بعد ذلك الا مؤمنة تقية ، لأن الايمان اول لون انصبغت به ، والتقوى آخر لون تتشكل فيه .

والأذان - في أصل معناه - إعلان الانسان بأن الله يدعوه ليعمل في طبيعته عملية التصعيد التي ترسّب ما علق بالطبيعة من أقــذاء وادران حالت بها عن أصل الفطرة .

نبرات ينطلق بها لسان المؤذّن، ولكنها إيذان بأن كل سمو وطهر. وكل فضيلة ومعنى انساني قد انطلق ايضاً مع هذه النبرات الروحانية التي هي ليست من لغة صاحبها ولا من صوته ، نبرات تعلو من فوق ضجيج الحياة وصَخَبها ومن فوق الانسانية المختنقة بنسمات الضّراوة والحيوانية ، لتردها الى الطهارة التي وضعها الله قاعدة لأعمالها . وقرار الاذان يتخافت في الضمائر بأن كلمة الله هي العليا ، ثم ينقطع الرّجْع لتبقى تلك الحقيقة ناطقة وحدها رغم الاباطيل التي تميد .

هذا الاذان بمعناه يهمس به النبي (ص) في اذن فتاه ، ليقول لتلك الروح المرفرفة شيئاً، وليبذر في نفسه بذوراً. اذا آذنت بالنماء أعطت الخير المطلق والطهر المحض والانسانية المهذبة .

همسة ناعمة في أذن ، إلاّ أن رجعها في ضمير الفتى سيتصل ويتصل ما اختلجت الحياة به . وستظل في أعماق نفسه نغماً حياً يملك عليه اتجاهه نحو الفلاح والبر والعمل الصالح .

ارسل النبي في ضمير الفتى هذا النداء ليظل انشودة نفسه اللاشعورية . وبذلك أقام في قلبه معبداً ينبض بأحاسيس التقوى. وفي ضميره شعوراً يفيض بأحاسيس الفضيلة ثم لا تختلف عليه . كما اقام في نفسه إذْ أرسل هذه الكلمة الهادئة مِشْعالاً يضيء عليه ، فلا تخالطه ظلامية أو دُجُنّة في سبيل حياته المطمئن .

والاذان نداء يمحو فتون الدنيا وأباطيلها من النفس ساعة ، وهذا نداء في اذن المولود يحول دون ولادة الفتون والاباطيل في دنياه ، وبذلك يظــل في دنيا الناس رمزاً لشيء آخر لا تكمل الا به .

أفرغ النبي (ص) بعضاً من روحه في سريرة الفتى . ليعطي بعضاً من النبوة في بعض من أعمال الناس .

بقي أذان النبي صلى الله عليه وسلم في أذُن الفتى نشيد الانشاد في قلبه ، فكانت آخر خلجات هذا القلب المفعم كأولها « الله اكبر ؛ الله اكبر ؛ لا إله الا الله » .

درس وتحليل

يحسن بنا ان نعرض الآن الى درس ناحية هامة من نواحي طفولة الحسين (ع) ، وهي الوراثة ومكانها منه .

يظهر للباحث في قانون الوراثة بأنها على صنفين : وراثة تاريخية ، ووراثة تأثرية او انفعالية؛ ونعني بالاولى انتقال الصفات النفسية التي للاجداد الى المولود، وبالثانية انتقال انواع الشعور التي تتأثر بها الام الى الجنين ؛ وهذا الصنف من الوراثة ثابت الأثر ، وهو قانون طبيعي تخضع له جميع قوى الانسان ومداركه المادية والعقلية والادبية . والامثلة على هذا كثيرة، ونذكر منها على سبيل الايضاح ما يأتي :

كان الفيلسوف [1] هوبس الانكليزي يعلل ما فيه من خلق الجبن ، بما لاقته أمه من الأهوال في أثناء حملها به، حينما كانت العمارة الاسبانية المسماة ارمادة الشهيرة تهدد انكلترا ، وتطوف حول سواحلها، وكان ما يتحمله اهلها من صورة اغارة الاعداء عليهم يلقي الرعب في القلوب .

---

(١) راجع كتاب : التربية الاستقلالية ، ترجمة عبد العزيز بك محمد ص ٥٠

وروى [1] احد العلماء ان والدة فلاكسمان النقاش المشهور ، كانت مولعة بالفنون الجميلة وخصوصاً النقش والتصوير . وكانت مدة الحمل تكثر من مشاهدة الرسوم والنقوش التي أبدعها أشهر الفنانين . فلما رزقت ولدها فلاكسمان ظهرت عليه وهو صبي ميول فطرية الى النقش والتصوير . ولما بلغ اشده أبدع أجمل التماثيل وأعظمها .

ونحن ، على ضوء قانون الوراثة بصنفيها ، نجتهد في أن ندرس الحسين (ع) ونفهم طباعه الثابتة والتي هي في حكم الثابتة .

ذكرت في فصل التدين [2] ، من هذا الكتاب ، أن آل هاشم مالوا ، منذ أقدم التاريخ ، الى التخصص بالشؤون الدينية . فكانوا يشرفون على المناسك في الجاهلية ويتولون اعمالها بين ايدي الناس . وكان لهم بحكم هذا التخصص تربية خاصة يتصل اتصالاً وثيقاً بابداع الضمير الديني ، واذكاء الشعور ذي اللون التألهي . وبالفعل نرى اكثر رجالاتهم في الجاهلية يضفو عليهم شعور من هذا القبيل ، فهاشم وعبد المطلب وابو طالب ، ثلاثتهم على لون واحد من الاخذ الديني والانتزاع الاجتماعي . وقد كملت الوراثة الدينية بالنبي (ص) اذ كان مظهراً للضمير الديني على أتم أشكاله وأكمل أوضاعه

فالحسين كان إذاً غنياً — ما في ذلك شك — بما تراكب في دمه من الوراثات الدينية المتصلة على طول حبل النسل الممدود في أعماق الماضي البعيد .

ولقد كان لهذه الوراثة بوادٍ ظاهرة في كل تصرفاته الخاصة والعامة ، وعليه فان من الواجب أن ندرس مآتيه على ضوء هذه الوراثة الدينية النبيلة ، وعلى ضوء ما تضفي من أحاسيس تنزع بصاحبها الى المحافظة والتمسك بأهداب المثل ، وايقاع الجهود بسبيل صيانتها .

---

(١) راجع كتاب : التربية الاخلاقية للاستاذ ابادير حكيم ص ٧٩

(٢) راجع الحلقة الثانية من هذا الكتاب .

هذا أثر الوراثة التاريخية في الحسين (ع) . والآن نتناول أثر الوراثة التأثرية فيه ؛ نعلم أن السيدة فاطمة وضعت الحسين ولها من العمر عشرون [1] سنة تقريباً ، وكانت — كما جاء في مناقبها — عملاً براً ومعنى صالحاً ، فهي لا تفتأ جاهدة على اعمال التقوى . وفي سنة ثلاث للهجرة التي كان فيها الحسين جنيناً ، وقعت غزوة أُحد، وهذه أحدثت أبلغ الاسى وأعمقه في النفوس عامة، ونشرت على الوجوه نوعاً من الكآبة ، ومسحتها بسهامة قاتمة، بسبب ما اصاب المسلمين، حتى لقد دخلت الوتيرة والذحل كل بيت ، والنبي (ص) اصيب بعمه حمزة (ض) .

وهذا يشعرنا بأن السيدة فاطمة جزعت من نتائج هذه الغزوة التي لم تكن في جانب جيش ابيها ، وأدركها الاسى العميق والحزن المرير لفقد حمزة . ومعنى هذا ان الانفعالات التي تأثرت بها ورثتها لجنينها ؛ وهي :

(١) اخذ النفس بأعمال البر والتعلق بحبائل التقوى .

(٢) غلبة الشعور بنوع من الاسى ، فقد كانت هذه الظاهرة واضحة عند الحسين في حياته. ولذا نراه قليل المرح قليل العبث كثير التفكير بمستقبل الامور وسط هذه الزعازع الناشبة والعالقة بأطراف المجتمع ، وكان يميل في تفكيره الى نوع من اليـــأس .

(٣) نضج السخيمة عنده على الناكبين عن طريق الهدى . فان السيدة فاطمة لا شك أنه قد ملك مشاعرها تحرق شديد للانتقام من اعداء ابيها ولو في التمني ، وهذا الشعور ورثه الحسين ، وشاءت الظروف أن يكون أعداء جده الذين وتروه في احد ، هم اعداؤه يوم استقبل الامويين بالكفاح وقد وتروه ايضاً .

---

(١) الخلاف في هذا يتبع الخلاف في سنها حين تزوجت من علي(ع)؛ فعند ابن سعد في «الطبقات» انها تزوجت بنت ثماني عشرة سنة ، وعند الكلبي انها تزوجت بنت ست وعشرين سنة ، وعند الصبان في «اسعاف الراغبين» انها تزوجت بنت خمس عشرة سنة، وعند الكليني انها تزوجت بنت اثنتي عشرة سنة ؛ والصواب من بين هذه الآراء انها تزوجت بنت ثماني عشرة، كما يقول ابن سعد وراق الواقدي .

فالحسين ، من هذه الناحية ، كان مثقلاً بمتارك الوراثة التأثرية ومتلبدات الوراثة التاريخية ؛ وهو ،من بين هاتين الوراثتين ، كانت له سيرته الخاصة ونهجه الخاص الذي ينزل منه منزلة الطبع لا يحور عنه ولا يحول .

ولقد ساعد هذه الوراثة على اتباع خطتها ، لون التربية في الطفولة ، ومشاهد الرجولة الكبيرة الاهمية . ومروره بعدة ثورات لها خطرها ، كالثورة على عثمان وثورة الخوارج على ابيه وثورة أهل المدينة التي كانت تعد في الخفاء .

فهذه الوراثة وما اقترن بها من التربية والمشاهدات أعدت منه رجلاً كبيراً خليقاً بأن يقوم بتطبيق أفكار الاصلاح الشامل التي اعدها ابوه العظيم : وسلكها في نظام دستوري نضيد .

وإن كنت أعجب من شيء ، فمن أولئك المؤرخين الذين يأخذونه بحركته ويعنفون عليه . ونحن في كل يوم نحيي ، كأبطال ، الرجال الذين يثورون على حكوماتهم الفاسدة لقاب وضع وتركيز وضع ، وننتزع منهم عناوين مجيدة عن القلب الكبير النبيل الذي يفيض بأسمى معاني الاخلاص . من هؤلاء أو اعظم هؤلاء كان الحسين بن علي ...

المربت[1] أو المربي النبوي

حفل النبي (ص) بمولوده ، ثم انصرف اليه يمارس فيه عمل الانسان الكامل ، حتى اذا تركه ترك فيه انسانية رفيعة على الشكل الذي وضع الله تصميمه في القرآن .

فالنبي (ص) كان يحاول ان يفرغ ما انطوت عليه نفسه الكبيرة من مكنونات افراغاً في روح الفتى ، بأسلوب ، كما تشاء الطفولة ، يجمع بين طراوتها وبين جد المعنى الكبير الذي يعده له ، وكان يعمل على ان ينفض في رقعة نفس الفتى ما اجتمع في رقعة نفسه ، وانما استوى في نفسه (ص) الانسانية المثالية والمعنى الاتم للحق والايمان .

فالمَرْبَتُ النبوي أخرج اثنين فقط ، كان احدهما مثالاً لكلمة الحق الهادئة ، وكان الآخر مثالاً لتلك الكلمة أيضاً حين تشتق طبيعة الناس من طبيعة الحديد المتراكب بالصدأ ، ولا تجلو طبيعةَ الانسان الا صرخةُ الحق المدوية ، كما لا يجلو طبيعة الحديد الا هدير النار الفائرة وتلظّي الجمر الوقيد . فأحدهما

(١) كلمة من وضعنا بمعنى (روضة الاطفال) ، من مادة ربت اي ضرب على كتف الطفل لينام ؛ ويرجع الفضل في انشاء المربت إلى فريدريك فروبل الالماني الذي درس طبائع الاطفال وملكاتهم ، ووضع المبادىء الاولية لتربيتهم . راجع كتاب التربية الاخلاقية ص ١٥ .

مثال للداعي الى الحق ، والآخر مثال للمحامي عنه الذي يغمس نفسه بالنار الملتهبة دونه ، وهو واثق أن هذه النار التي أُعدّت له حتى تسجر عليه دعوته ، سيترك فيها كلمة الحق التي تدع النار تؤج وتؤج ، ثم لا تتناهى الا بالتهام الذين سجّروها انفسهم .

والذي نعلم من اساليب النبي (ص) التربوية للطفولة أنه يأخذ الجسم والعقل والنفس جميعاً بعمل مشترك، من شأنه توزيع النماء على هذه القوى، فلا تضعف قوة بسبيل الاخرى ، وهو من وراء ذلك يغمره بالحنان، ليشعره بوجوده الذاتي ، وتتكون بذلك شخصيته الاستقلالية .

ذكر ابو رافع مولى النبي (ص) انه كان يلاعب الحسن والحسين بالمداحي [1] . وعن ابي هريرة ان الحسن والحسين [2] كانا يصطرعان بين يدي رسول الله (ص) . وعن يعلى [3] العامري ان رسول الله(ص) خرج الى طعام، فاذا حسين في السكة مع غلمان يلعب ، فتقدم رسول الله امام القوم وبسط يديه ، فجعل الغلام يفر ها هنا وها هنا ، وجعل رسول الله يضاحكه حتى اخذه فوضع احدى يديه تحت قفاه ، والاخرى تحت ذقنه ،وقبّله .

وعن شداد، قال: خرج علينا رسول الله في احدى صلاتي العشاء وهو حامل حسيناً ، فتقدم النبي (ص) فوضعه ثم كبر للصلاة فأطال سجدة الصلاة ، فرفعت رأسي فاذا الصبي على ظهره وهو ساجد، فرجعت الى سجودي فلما قضى الصلاة، قيل: يا رسول الله انك سجدت بين ظهري صلاتك سجدة أطلتها حتى ظننا انه قد حدث امر أو انه يوحى اليك ، قال : كل ذلك لم يكن ، ولكن ابني ارتحلني فكرهت ان اعجله حتى يقضي حاجته .

---

(١) ذكره ابن الاثير في «النهاية» . والمداحي : احجار يحفرون لها حفرة، ويدحي الملاعب ، فان استقر الحجر فيها غلب والا غلب .

(٢) ذكره ابن الاثير في «اسد الغابة» ج٢ .

(٣) ابن ماجة في «السنن» وابن عساكر في «التاريخ» ج ٤ ص ٣١٥ . وقد عقدنا لشرح ما انطوى عليه من معان وجدانية في فصل خاص من الحلقة الثالثة التي خصصناها بالناحية الادبية والنفسية العالية .

وذكر البزاز الكردري ان عبد الرحمن السلمي كان يعلّم الحسن والحسين القرآن .

هذه بعض من اخبار الحسين (ع)، وهي ترينا الوان التربية التي كان النبي يأخذه بها ، وفيها كل ما يحسب من سمو وكل ما يراد من تكميل . وفي تناول النبي (ص) هذه الحقيقة الكونية بكل حنانه اشعارها بأن تتناول الانسانية بكل حنانها .

درس وتحليل :

يحسن بالدارس أن ينعم النظر كثيراً في هذه الفترة من حياة الحسين (ع) ، لانها تفهمنا سر حركاته التي أتاها في أزمان رجولته ، فان هذا الوجود الصغير للكائن يطبع عليه وجوده الكبير بطوابع قلما يتحلل منها او ينفصل من آثارها . فتعهّد الطفل في هذا الدور هو ما يجعلنا تطمئن اليه ونثق به ، فان رعاية غرائزه وتوجيهها يحفظ عليه توازنه الذي هو اس الشخصية الكاملة .

ويجدر بي أن انقل تصوير الاستاذ بستالوزي وتمثيله الرائع للتربية، قال :

(تتمثل لي التربية بشجرة مثمرة، بجانب جدول مياه جار ، وما أصلها الا حبة صغيرة اودع الخالق فيها شكل هذه الشجرة وخواصها وأثمارها ، فلما غرست وتعهدها الزارع بما يساعد الطبيعة على عملها ظهرت تلك الحبة في شكل نبات ثم نمت وترعرعت حتى كبرت وأينعت وأثمرت ، وما هي الا الحبة الصغيرة مكبرة نامية .

وهذا هو الحال في الطفل الذي اودع فيه الخالق تلك القوى التي تنمو وتظهر معه بالتدريب ، فتنمو أعضاؤه وملكاته تدريجاً حتى يصبح من مجموعها وحدة . فيجب على المربي ان يساعد قوى الطفل البدنية والادبية والعقلية على النمو الطبيعي، دون استعمال الطرق الصناعية، فينبغي ان ينمّى الايمان في الطفل لا بالكلام النظري، بل بما يُنَشّأ عليه الطفل بتصديقه الفعلي ورسوخ الاعتقاد في نفسه) .

هذا تمثيل حقيقي لعمل التربية في انماء القوى الادبية وما اليها ، وهي لا تزال تعمل عملها حتى تعود الادبيات ملكات راسخة؛ وبذلك يتحقق الغرض الاسمى من التربية الأخلاقية الذي هو ان تستحيل الأفعال الاخلاقية الارادية افعالاً لا ارادية » على ما يقول لوبون في كتابه : روح التربية » .

هذا الغرض التربوي هو الذي اراد النبي (ص) ان يشيعه في نفس الغلام ، وكذلك علي (ع) من بعده الذي ما فتىء يمده بالمعنوية المتدفقة ، تلك المعنوية التي لم يكن يدركها انحسار بل هي في مد على الدوام، وذلك لأن ايمانه غرس الطفولة والشباب والكهولة والهرم ، فأدبيات الاسلام ومثالياته عادت في نفس الاب من الصنف اللاارادي .

والاسلام، في طقوسه ورياضاته، يرمي الى هذا الهدف العميق، الهدف الذي كان يعمل له اهل اسبرطة القدماء — كما يقول مونتسكيو في كتابه: روح الشرائع — فانهم كانوا يفهمون التربية لا على شكل أن يكون المرء معها فاضلاً ، بل على شكل ان لا يمكن أن يكون الا كذلك . فأعمال الفضيلة عندهم لا تكون شيئاً اذا كان يصحبها القصد الأخلاقي ، فانها بذلك تكون متكلفة سرعان ما تحور اذا وجدت الدوافع عنها والجواذب الى منافياتها ؛ فالاسبرطي كان يصدق، لا لان الصدق فضيلة وعمل من الأخلاق ، بل لانه كذلك ينبغي أن يكون .

فهذا النوع من التربية عند الاسبرطيين هو ما قام عليه الاسلام ، فالمسلم الصحيح الاسلامية فاضل عصباً ودماً قبل أن يكون كذلك في الميل والشعور . والمسلم طبيعة كأنها مشتقة من طبيعة الآلة كيفما اقمتها لا تنتج الا ما استوى في تركيبها ؛ وتركيب المسلم الصحيح استوى على مُثُل من الفضيلة وأعمال من الاخلاق ، فهو لا يجاوزها الا اذا لم يكمل تركيبه الاسلامي او نقص منه شيء افسد على الآلة حركتها .

فالنبي (ص) ، كذلك اراد سبطه ، فبارك طفولته وأخذه بضرب من التهذيب العميق الذي كانت له نتائج مُثْلى بما يدعونه في الفلسفة بالفعالية الصامتة

الكامنة في النفوس . قال [1] بعض كبار النفسيين : (لا نعرف ماهية هذه الفعالية الصامتة حق المعرفة ، من ذلك لو قلتم لنفس من النفوس كلمة بسيطة لم تفقه لها معنى ، لظننتم كلمتكم هذه لم تلبث اذ عاشت أنْ تلاشت ، ولكن يأتي يوم تظهر فيه هذه الكلمة ثانية بعد أن طرأ عليها تحولات غريبة فيراها الانسان قد جاءت حينئذ بثمرات كثيرة لم يكن يتوقعها . فالنفس تحول ما نودعها اياه من الاشياء البسيطة الى أشياء خطيرة رائعة) .

فهذه الفعالية الصامتة كان لها عمل في تحويل ما استودع النبي (ص) في نفس الغلام من الوان وتكبيرها ، حتى انها لتفيض بالروائع لانها الوان اجتازت [2] عتبة الشعور ، واستقرت حيث تعود مؤثراً أعظم فيما يصدر من الانسان مباشرة او بوسيلة ما .

نحن لا نشك بأن نصيبه من تربية النبي (ص) لم يكن طويلاً ، ولكن ليس معنى هذا انه لم يكن كبيراً بما ترك من آثاره النفسية عليه . فان الحسين (ع) عايش جده الى ما بعد السادسة من عمره ، ولا ريب في انها سن تسمح لصاحبها بأن ينقل الى دخيلة نفسه كثيراً من مشاهداته ، يساعده على ذلك الخلو النفسي . وهذه المشاهدات تركت في نفسه آثاراً لها شأنها ولها خطرها . واذا نظرنا الى ان النبي (ص) علّقه واخاه حتى عدهما ريحانتيه ، وقفنا على مقدار ما زودهما به النبي من آيات تربيته العالية ، وما أغدق به عليهما من هبات نفسه الكبيرة . والظاهرة البادية في تربية النبي التي كانت لا تخفى حتى كأنها المدار التربوي هي الأخلاق والاخلاق قبل كل شيء . وهذا اساس متين ، فان الاخلاق عامل تقدم وبقاء ، كما ان انحلالها عامل السقوط الآكد، على ما يظهر من مطول (جيبون) المؤرخ المشهور عن رفعة

---

(١) راجع كتاب الفلسفة الحديثة ج ١ ص ٦٥ تعريب جميل البحرة . ورأيت في كتاب : درس في الغرائز انابا العلاء كفته الحاسة التي بقيت عاملة عنده إلى سن الثالثة ان تزوده بخيال تصويري عميق فتأتى له معها ان يتحف الادب بكثير من الصور البصرية الرائعة .

(٢) le seuil de la conscience ... العلامة بوانكاره في الاتية التي لا يشعر بها بحث دقيق .

الدولة الرومانية وسقوطها . واظهار روائع التربية النبوية عليه هو ما أوسعناه وانصرفنا اليه في الحلقة الثالثة من سيرة الحسين (ع). ومن المستحسن ان انقل هنا ما جاء في[1] مؤلف بستالوزي النفيس فيما يتعلق بالتربية الدينية، لنشخص اثر والدته فيه. قال :

(وهنا أسعى لحل مسألتي في نفسي ، فأسأل : كيف تولدت فكرة الله في نفسي ؟ وكيف وصلت للاعتقاد فيه تعالى ، حتى ارتمي بين ذراعيه وأشعر بنعمته كلما احببته واعتمدت عليه وشكرته وأطعته ؟ .

فأرى ان هذه الاحساسات — احساسات المحبة والشكر والثقة والطاعة — لا بد من وجودها في داخلي قبل أن أشعر بها نحو الله تعالى . اذ يجب أن يكون لديّ هذه المحبة والشكر والثقة والطاعة نحو الناس قبل شعوري بالمحبة والشكر والثقة والطاعة نحو الله تعالى . لان من لا يحب اخاه الذي يراه ، كيف يمكن ان يحب الله تعالى الذي لم يره ؟ .

حينئذ أسأل نفسي : كيف وصلت الى محبة الناس وشكرهم وطاعتهم والثقة فيهم ؟ . وكيف نمت هذه الاحساسات في طبيعتي حيث تسكن المحبة الانسانية والشكر الانساني والثقة الانسانية والطاعة الانسانية ؟ فأجد أن الاصل الوحيد لكل هذه العواطف تأتي من العلاقات الكامنة بين المولود ووالدته . فالوالدة بما اودع فيها من الغريزة الفطرية مدفوعة الى العناية بمولودها فيبتهج خاطره، ومن ذلك تتولد في فؤاده عاطفة المحبة والثقة والشكر . يعرف الطفل وقع قدمي والدته ويبتسم كلما شاهد خيالها ، ويحب كل من على شاكلتها ، ويعتقد ان كل مخلوق مثلها هو مخلوق طيب ، فكما يبتسم في وجه والدته يبتسم في وجه كل انسان : يحب كل من تحبه ويعانق كل من تعانقهم، ومن ذلك تتولد فيه عاطفة الانسانية والاخاء .

فالمحبة بنت الحاجة وعنها نشأت، والشكر مولود التغذية، ولولاها لما ازهر في فؤاد الطفل ، والثقة بنت العناية، والطاعة وليدة القلق، فنرى الطفل يصرخ ويقلق

(١) اسم هذا المؤلف how Gertrude teaches her children اي كيف تعلم جرترود اولادها .

قبل تعلمه الصبر والطاعة ، ومع أن القلق والصبر متناقضان ، فان اولهما يؤدي الى الثاني ؛ ومن هذا ينتقل الطفل من درجة الطاعة القهرية الى الطاعة الاختيارية التي تنمو مع الزمن بزيادة الادراك ونمو الاختبار .

من ارتباط الطاعة والمحبة والشكر والثقة واتحادها في نفس الطفل يتولد الضمير وبه يشرق على عقل الطفل، لاول مرة في حياته ، ثم يرتقي ادراكه فيعلم أن كل ما في الوجود لم يخلق له وحده ، ثم [1] يتدرج في سلم الترقي حتى يصل الى اعلى درجات الشعور الانساني، فيدرك انه هو نفسه لم يخلق في هذا الوجود لذاته، ومن هنا يبدأ بمعرفة الواجب والحق .

هذه امهات الفضائل الادبية، وجميعها منبثقة من العلاقات الكائنة بين الوالدة ومولودها . ومتى نما وقوي وأنس من نفسه القدرة على القيام بحاجاته ، دبت في صدره روح الاستقلال وشعر أن له شخصية مستقلة عن والدته ، وبزوال حاجاته الاولى نحو والدته تضعف من نفسه تلك العواطف والفضائل التي غرستها هذه الحاجات . حينئذ تحدثه نفسه الامارة بالسوء ، فيقول (انني لست في حاجة بعد الى والدتي) وهذه الفكرة لا بد ان تصطرع في نفسه ، بمجرد شعوره بالاستقلال ؛ وواجب الام هنا عظيم جداً وإلا تهدم عليه بناء المبادىء الادبية التي آنس بها وهو فطيم ، ولا وسيلة لانقاذه من هذا الموقف الحرج الا بتوجيه عواطفه وعقله الى قوة اعظم وقدرة اتم وأوفى من قوتها وقدرتها ، مرشدة له بأنه وان زال احتياجه اليها ، الا أن خالقه وخالقها وموجد هذا الكون والوجود ومبدع جميع الكائنات ، هو الذي يجب الاعتماد عليه والرجوع اليه . وهو الذي يمده بالمساعدة التي تعجز هي عن تقديمها له كلما التمسها منه تعالى ، وهو مصدر كل راحة كما انه الذي يمهد له سبل السعادة التي ليس للوالدة اليها سبيل .

---

(١) قال بستالوزي، في موضوع آخر من مؤلفه : واجب الام في هذه الادوار عظيم جداً وتوفيقها في مهمتها التربوية يرجع إلى درجة استعدادها هي وتهذيبها. والسيدة فاطمة ابنة الرسول الاعظم كانت اوفر ما يكون استعداداً واسمى ما يكون تهذيباً .

بهذه الوسيلة تمنع الوالدة الحكيمة ولدها من السقوط في هذه النقيصة ، وتغرس في فؤاده شعوراً حياً ومقاصد عالية ، وايماناً ثابتاً في الخالق يرتفع بنفس المولود عن مستوى هذه الماديات المحيطة به ، فيبتهج كلما سمع من فم والدته اسم ذلك الخالق القوي الرحيم ، ويشعر فؤاده نحو الله بذلك الحب والشكر والثقة التي كان يشعر بها نحو والدته ، فيتطلع اليه تعالى كوالد رحيم .

متى غرستْ في فؤاد الطفل هذه الفضائل نحوه تعالى ، خطا نحو الفضيلةوالتقوى خطوة واسعة ، لأن الشاب الذي يتطلع الى الله وهو في عنفوان شبابه ، كما كان يتطلع الى والدته في سني طفوليته ، يقوم بعمل الواجب والصواب حباً في الله كما كان يعملهما حباً في والدته .

على هذه الملاحظة الجديرة بالاعتبار ـ يجب ان تؤسس التربية الاخلاقية ، فاننا اذا ادركنا ان عواطف المحبة والشكر والثقة والطاعة هي ثمرة ائتلاف غريزي بين الوالدة والمولود ، امكننا ان ندرك ان نمو هذه العواطف والفضائل يتوقف على مقدار تشبع نفوسنا والعمل بمبادىء الاخلاق؛ يجب على الوالدة ان توقن أنه لا بد من يوم في حياة كل مولود في هذا الوجود ، تضعف في نفسه تلك الاسباب ، ويشعر فيه باستغنائه عن والدته؛ وبدخول هذا الشعور الى نفسه ، تضعف هذه العواطف فيه نحوها ، وبهذا يتسرب اليه الضعف الاخلاقي الذي يجعله عرضة لأخطار أدبية مخيفة . فالطفل كما لاحظنا فيما سلف يحب والدته ويشكرها ويعتمد عليها ما دام هو في حاجة إليها ، كذلك هو يحب الخالق تعالى ويشكره ويعتمد عليه ما دام يشعر باحتياج اليه ؛ وبزوال هذه الاسباب تزول نتائجها ، فتضعف العواطف الطيبة في فؤاد الطفل نحو والدته حالما يشعر باستقلاله وعدم حاجته اليها) .

من هذا نتبين أن الطفل يتعرض الى دور انتقال خطير ـ والام وحدها هي التي تستطيع انقاذه والاستيلاء على مشاعره لتوجيهها توجيهاً آخر يكون اكثر ثباتاً ، وهذا التوجيه الذي هو من وظائف الام الاولية يتوقف ويتفاوت على ما استوى في نفسها من ادبيات سامية وأخلاق رفيعة .

والذي انتهى الينا من مجموعة أخبار الحسين(ع) ، أن أمّه عنيت ببث المثل الاسلامية الاعتقادية، لتشيع في نفسه فكرة الفضيلة على اتم معانيها وأصح أوضاعها، ولا بدع فان النبي (ص) اشرف على توجيهه أيضاً في هذا الدور الذي يشعر الطفل فيه بالاستقلال .

فالسيدة فاطمة أنّمت في نفسه فكرة الخير والحب المطلق والواجب، ومَدَّدَتْ في جوانحه وخوالجه أفكار الفضائل العليا، بأن وجهت المبادىء الادبية، في طبيعته الوليدة ، من أن تكون هي نقطة دائرتها الى الله الذي هو فكرة يشترك فيها الجميع .

وبذلك يكون الطفل قد رسم بنفسه دائرة محدودة قصيرة حين أدار هذه المبادىء الادبية على شخص والدته ، وقصرها عليها وما تجاوز بها الى سواها من الكوائن. ورسمت له والدته دائرة غير متناهية حين جعلت فكرة الله نقطة الارتكاز ، ثم أدارت المبادىء الادبية والفضائل عليها ، فاتسعت نفسه لتشمل وتستغرق العالم بعواطفها المهذبة ، وتأخذه بالمثل الاعلى للخير والجمال .

« سلامٌ عليه يوم وُلد »

جاء في اخبار الحسين انه كان صورة احتبكت ظلالها من أشكال [1] جده العظيم، فأفاض النبي عليه شُعَاعة غامرة من حبه وأشياء نفسه، لِيَتِمَّ له ايضاً من وراء الصورة معناها . فتكون حقيقتُه، من بعدُ كما كانت من قبلُ، انسانيةً ارتقت الى نبوَّة « أنا مِنْ حُسَيْن » ، ونبوَّةً هبطت الى انسانية «حُسَيْنٌ مني».
فسلام عليه يوم ولد ...

الطفولة انسانية لم تمسّها ضَرَاوة الغرائز وشهوات العقل ، كالمَطْرة قبل أن تمسها الارض بتَربتها فتدخل عليها الواناً ليست من معناها ولا من طبيعتها .

ثم تتفاضل الطفولة بالبيئة التي تَمرُّ منها الى الحياة ، كتلك المطْرة اذا حلّت في قارورة او حلت في تربة .

---

(١) هذه الشكلية خاضعة لقانون « الاتافيسم » الذي ترجمناه بقانون (التجدي) من تجدد بمعنى تشكل بشكل الجد؛ وقد جاء، في الاصول الاشتقاقية التي اقررناها في كتابنا: مقدمة لدرس لغة العرب، أن المضعف الثلاثي اذا صيغ على وزن تفعل جاز قلب لامه في التكرار حرف لين مثل تظنن، قال العرب: تظني؛ وتمطط، قالوا فيها: تمطي. ونحن اجريناها قاعدة في الاشتقاق مع اختلاف المعنى دفعاً اللبس . وعليه فتجدد بهذا المعنى خروجاً عن اللبس بتجدد بمعنى التجديد : نقلب اللام فيه حرف لين ونخصه بمعنى الذي اتخذ صورة الجد، وبذلك تكون ترجمة حقيقية الكلمة باتافيسم .

والحسين الطفل حَلَّ في بيئة النبوة التي هي الانسانية العُلْيا في المظهر البشريّ ، فكان بذلك اسمى [1] رجل لانه اسمى طفل في اسمى بيئة .

فسلام عليه يوم ولد ...

حينما فَصَل الحسين (ع) من قُوَّة في النواة ، الى كائن مبسوط تمدّدت فيه القوة على شكل آخر ، خرجت خصائصُ الوراثة من [2] نقطة الدائرة الى محيطها .

فسلام عليه يوم ولد ...

عُلِّقَ النبي (ص) حسيناً ، لأنه رأى ظلّه ورأى حقيقتَه في الطفل الوليد ، فحبُّ النبي له لم يكن بمَحْض العاطفة فقط ، بل بشُعُور آخر أيضاً هو الإبْقاء على الذات .

فسلامٌ عليه يوم ولد ...

« اللهم أَحبّهُ فاني أُحِبُّه » كلمةٌ كأنّها الوِسام من النبي (ص) لمولوده الصغير ؛ والوسام ، في لغة المراتب الاجتماعية ، مَنْبَهَةُ لحامله على انه قام بعمل عظيم. وهذا وسام ينبه على عمل خالد سوف يقع من الطفل الجديد ؛ ولم يُمنحْهُ قبل الاستحقاق ، لان عمله الخالد سيكون تضحية رهيبة تضع حداً للحياة .

فسلام عليه يوم ولد ...

النبوة طاقةٌ تغلِبُ المادة وتتمدد في القلب والعقل والضمير ، والحكمة طاقة تغلبها المادة إلا انها تسيطر على القلب والعقل والضمير .

---

(١) يقول المثل الانكليزي (الطفل ابو الرجل) ومعناه ان ما استقر في الطفل من كمال او نقص ، هو الذي يبعث الرجل ذا الكمال او النقص؛ وليس من يرتاب في ان بيئة النبي «ص» ارفع بيئة ، وان الذي استقر في الحسين الطفل هو اشباؤها ، فلم يبق ريب في ان الحسين لا يمكن الا ان يكون اسمى رجل ، فان طفولته كانت ابا رجولته .

(٢) نعني بهذا أن خصائص الوراثة، بعد ان كانت مجتمعة في النبي «ص» الذي هو نقطة الدائرة، انتقلت بالحسين واخيه اللذين هما الحافظان النسل النبوي من الانقطاع ، إلى محيط اوسع شكل دائرة كبرى .

والفرق ان هذه تبدأ سيرها من المادة الى ما وراء ، وتلك تبدأ السير من الطاقة الى ما وراء ، وبينهما ان الاولى لا تخرج عن المادة الا بمقدار فهي فيها ابداً ، كما ان الثانية لا تتصل بالمادة الا بمقدار فهي فوقها ابداً ، والنبوة الصغيرة حكمة كبيرة.

فسلامٌ عليه يوم وُلدَ ...

يقول السيد الطَباطبائي :

غَرْسٌ سقـــــاه رسولُ الله من يده وطابَ من بَعد طيب الاصل فارِعُهُ

النبوة ليست شيئاً من عمل الدنيا ، إلا فيما يتصل بصلاحها وتهذيبها ، فميراثها لا يدخل في زُخرُف الحياة الذي هو سر التراب ، وانما يدخل فيما ينتظم التقوى والفضيلة مما هو سرّ القلب ومعنى الوجدان .

وكان سر قلب النبي (ص) هو إرث الحسين منه ، فطاب من بعد طيب الاصل .

فسلام عليه يوم ولد ...

لاول مرة يخشع الكمال الانساني على مَنْظرَة الجَدّ والسبط في ساعة قُبلة او عناق يُدَغْدِغ احلام الروح ، ويمسها بتيار جديد يجعلها وَضيّةً في تسام أبديّ . خشع الكمال الانساني لاول مرة وبارك ما يرى .

فسلامٌ عليه يوم وُلد ...

نظر النبي الى الحسين طويلاً ليرى اين هو من طبيعته ، ونظر الحسين الى النبي كذلك ليتَمَلأ منه ويفجّر ينابيعه ، ثم انصرفا بمعنى واحد : هذا صوبَ الماضي ، وهذا صوب المستقبل. ولكنّ الجدّ سار وهو يلتفت الى سبطه الذي اسلمه الى المستقبل في حنان وحذر .

هذا المستقبل الذي لم يثبت في طبعه من غصن [1] الزيتون إلاّ انه يُثمر حباً

(١) في غصن الزيتون معنى رمزي ، فاذا اسفت الانسانية وغدت تقيس قيم الاشياء بمقاييس المعدة ، لم يعد لغصن الزيتون معنى سوى انه يثمر حباً يدخل في اشياء المعدة .

يُلهي المعدة . فلم يأمنه على طفله الذي ارسله بقبس الهيكل .

فسلام عليه يوم ولد ...

ارتحل الحسين (ع) ظهر جده العظيم وهو ساجد في الصلاة ، وجاء في الحديث ان أَقربَ ما يكون المرء من ربه وهو ساجد .

ومعنى هذا ان النبوة الساجدة كانت معراجاً روحياً لهذا الطفل الذي استودع فيه النبي اسراره العظمى وانسانيته العُليا .

فسلام عليه يوم ولد ...

الحسين (ع)

في عهد الخلفاء الراشدين (رض)

في عهد أبي بكر

الذي في معرفتنا من أخبار الحسين (ع) في عهد ابي بكر (ض) قليل للغاية؛ والشيء المحقق انه كان في التاسعة من عمره، وانه رزىء بامه، وهو رزء أحس بعظيم وقعه، وكان له بلا ريب رجع عميق في نفسه الغضة اللدنة، وأنه شهد اباه إذ أقام أمداً ليس بالقصير على خلاف ابي بكر ، وأنه انطوى على شعور طفل متغيظ محنق حين أخذ ابوه بسياسة العنف والشدة ، على مـــا اجمعت عليه الروايات ، فقد كان بيته — في لغة هذا العصر — مراقباً [1] ؛ فهذا الضرب من السياسة كان له أثره في موطن شعور الحسين . لذلك نتعلق في هذه المرحلة من حياته بدراسة تربوية نفسية .

رغم الفلسفـــات المختلفة في الاسلوب الى حد التبـــاين التي تدرس اسرار النفس والحيـــاة ، وهي : نظرية الحيويين [2] ونظرية المعضونين

(١) ذكر الطبري في «التاريخ» ج٤ ص ٤٢ ان ابا بكر قال: وددت اني لم اكشف بيت فاطمة ولو انهم غلقوه على الحرب .

(٢) النظرية الحيوية (Le vitalisme) تعتبر الحياة سلسلة من العوارض ، والمادة سلسلة اخرى ؛ ويقول انصارها بتضامن السلسلتين وتباين منشأيهما . وهذه النظرية تفرعت من المذاهب الروحية واشتهر بها شتاهل ولوردا . ان مبدأ الحياة على آراء علماء مدرسة مونبيليه يخالف مبدأ الروح ومبدأ الجسم، ولهذا تنوعت العوارض التي تظهر في الانسان إلى انواع ثلاثة وهي العوارض الطبيعية الكيماوية وهذه تنشأ من قوات الجسم المادية ، وعوارض المفكرة وهذه تنشأ من الروح ، وعوارض الحياة وهذه تنشأ من القوة الحيوية .

الفيزيولوجيين[1] ، ونظرية الحيويين البيولوجية [2] ، ونظرية الروحية الحديثة [3] ، يتفق العلماء على الاعتراف بأثر البيئة في البناء الروحي للكائن ، وبرابطة الجبر الكلي بين لون التفكير والبيئة .

والبيئة ذات تأثير مادي على النفوس ؛ وهذا التأثير يؤدي الى شكلين من الخضوع ، ينحصر الاول منهما في الاستسلام شيئاً فشيئاً لعادات وأحكام استسلاماً غير مدرك ومتنوع الدرجات ، فترسخ هذه في الزمن خلسة وتبقى في مأمن من روح النقد ، ويصور الاستسلام احياناً للانسان الخطأ صواباً والظن حقيقة ثابتة والباطل حقاً ، فقد يُضعف هذا التأثير روح العدل عند القاضي ان قيّده المشرّع بتطبيق قانون عرف انه مخالف للعدل ، وتهيج البيئة الخمّار فيدمن الخمر ، كما تحرض أنواع البيئات افرادها على الاخذ بأنواع معينة من الشعور والتفكير والحركة . وأما الشكل الثاني وهو مكمل للاول فينحصر في ان الخاضع لتأثير ما ترفض نفسه كل تأثير من نوع آخر ، الا اذا كان للتأثير الجديد تيار شديد جارف .

وبيئة الحسين اخذنا عنها صورة في درس الطفولة ، والذي خرجنا منه هناك أن بيئته كانت ينبوعاً جرى بأرفع عقيدة مثالية ، هذا الينبوع الذي انقلب سريعاً الى محيط خِضَمٍّ جرف في طريقه كل مثالية لكل امة .

فالحسين من هذه الوجهة غُذي بلبان العقيدة ونمت أعصابه على نميرها ، وكان

---

(١) نظرية التعضون الفيزيولوجي (L'organicisme) وانصارها يعتبرون ان مبدأ الحياة ومبدأ المادة شيء واحد ، فهم يرفضون النظرية الميكانيكية اذ لا يعتبرون الحياة نتيجة نهائية لحركات منشؤها ما للمادة من الصفات العامة بل يقررون أن الحياة ناشئة عن صفات خاصة سموها الصفات الحيوية ويتصف بها نوع معين من المادة .

(٢) النظرية الحيوية البيولوجية (neovitalisme) انصارها يعتبرون مبدأ الحياة مختلفاً عن مبدأ المادة .

(٣) النظرية الروحية الحديثة (animisme) انصارها يقررون وجود روح وخضوع المادة لها ، ويقولون بوجود قانون مطلق نافذ الحكم على العالم المادي وما الحالات العقلية الا حالات تطرأ على الروح . وعندهم الروح بمثابة قوة عالية مهيمنة توجد حركة القوات المتعددة وتدفعها نحو غاية واحدة ؛ وبهذا يفسرون ما يوجد بين الحياة العقلية والحياة العضوية من التوافق .

ميراثه العقلي منبثقاً منها . فلم يكن قبلياً ، لأن القبلية قد هوى بنيانها ، ولم يكن ذا عصبية في غير عصبية الدين ، وكان متشبعاً بمبادىء المثل الاعلى بمقتضى النشأة . وهذه نتيجة طبيعية للبيئة ذات الطابع الخاص ، ولا نعلم تأثيراً جديداً كان له ذلك التيار الجارف حتّى يقوض ما بنت البيئة الاولى من هيكل قدسي في نفسه . والذي يقف على ما جاء في كتاب ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى [1] يقف على لون التربية الروحية الزاهدة التي اخذ بها الحسين (ع) وهي متمثلة في كلمة واحدة من خطبة أمير المؤمنين علي (ع) وهي (لولاما اخذ الله على العلماء أن لا يقارّوا على كظّة ظالم ولا سغب مظلوم ، لا لقيت حبلها على غاربها ولسقيت آخرها بكأس اولها ولألفيتم دنياكم هذه ازهد عندي من عفطة عنز).

ومن الخير ان نذكر طرفاً من وصيته الى الحسن (ع) وهي تعبر احسن تعبير عن المسحة التربوية التي مسح بها ابناءه، قال: (اوصيك بتقوى الله ولزوم امره وعمارة قلبك بذكره والاعتصام بحبله، واي سبب أوثق من سبب بينك وبين الله إن انت أخذت به .

أحيِ قلبك بالموعظة وأمِتْه بالزهادة وقوّه باليقين والرضى ، وعليك بأخبار الماضين فانك تجدهم قد انتقلوا عن الاحبة . فأصلح مثواك ولا تبع آخرتك بدنياك وامسك عن طريق اذا خفت ضلالته، فان الكف عند حيرة الضلال خير من ركوب الاهوال . وأمر بالمعروف تكن من اهله ، وانكر المنكر بيدك ولسانك وباين من فعله بجهدك ، وجاهد في الله حق جهاده ولا تأخذك في الله لومة لائم ، وخض الغمرات للحق حيث كان وتفقه في الدين وعوّدْ نفسك التصبُّر على المكروه، ونعم الخلق التصبر ، والجىء نفسك في الامور كلها الى إلهك فانك تلجئها الى كهف حريز .

واعلم يا بني ان احب ما انت آخذ به اليّ ، الأخذ بما مضى عليه الاولون من آبائك ، والصالحون من اهل بيتك)

---

(١) كتاب جليل في موضوعه للمحب الطبري .

هذه وصية تعرفنا شيئاً كثيراً من الالوان التي كان يمزجها الوالد الحكيم ويصبغ ابناءه بها . وهي وصية ذات وحدة لا تعدو المثالية ، وظاهرة لا تخفى وهى الانتفاء من زخارف الدنيا التي مَرَدُّها الى التراب ، ثم لا يبقى منها الا أسراب في احلام وأحلام في اسراب . وان من الثابت علمياً أن لكل شخص فلسفة خاصة به منشؤها المزاج والبيئة ، فلسفة تحدد في نفسه ادراك العالم والله والروح والخير والشر والحق والواجب . ومن شأن التركيب الانساني ، أنْ يحول العارض العضوي الى عارض نفسي يهتز به المخ اهتزازات خاصة . وقد أوضح هذا أصحاب النظريـــــــة الميكانيكية [1] .

فالبيئة التي مالت به وتحكمت بأحاسيسه ومشاعره كانت نقية وبالغة في النَّقَاوة ، والآن نعود الى فهم مقدار العناية التي بذلها والده العظيم بتخليقه والحيلولة بينه وبين جموح نفسه بقساوة ، اذ حور المبادىء الادبية الاولى التي تكوَّنت عنده على الشكل الذي ذكره بستالوزي ؛ ومن الضروري ان نذكر تمام الفصل الذي اثبته في كتابه : (كيف تعلم جرترود اولادها) ، قال :

(فالطفل كما لاحظنا فيما سلف يحب والدته ويشكرها ويعتمد عليها ما دام هو في حاجة اليها ، كذلك هو يحب الخالق تعالى ويشكره ما دام يشعر باحتياج إليه ، وبزوال هذه الاسباب تزول نتائجها فتضعف هذه العواطف في فؤاد الطفل نحو والدته حالما يشعر باستقلاله .

وفي هذا الدور من الحياة يظهر العالم للناشىء في مظهر جديد،لم يدركه وهو طفل،فينظر اليه بعين جديدة ، وينخدع قلبه بمناظره ومسراته، فيناديه العالم ولسان حاله يقول: «اقبل علي الآن يا بني فأنت لي»؛فلا يسع الانسان،في ذلك الدور حين تضعف في نفسه عاطفة الطفولة وتدب في صدره قوة الشباب وشهواته،الا اجابة

---

(١) اصحاب هذه النظرية لما وجدوا تعادلا بين العمل الميكانيكي والقوات الاخرى،اي وجدوا نسباً معينة بينها ، مدوا درس الميكانيك على عوارض القوة، وقرروا انالرابطة بين المخ والنفس ليست رابطة التعادل ورابطة الضرورة»فقط،بل ان المخ هو الاساس المادي، والنفس هي مظهر من مظاهر المادة.

ذلك النداء والاقبال على العالم ، فتتبدل فضائل النفس وتموت ، إن لم يتدارك الوالد الامر ، وينتشله في هذا الموقف الحرج من السقوط ؛ وذلك لا يتم الا بتوجيه عواطف الطفل التي يشعر بها الى الخالق تعالى وربط حلقة الاتصال بينه وبين الله .

ايها الوالدان ! يسعى العالم بكل طرق الغواية لينتزع الطفل ، فان لم يوجد في هذا الوقت من يستطيع تغليب عواطفه الشريفة على شهواته فقد ضاع لا محالة — نعم ان العالم يعمل على ان يختطف الطفل ، فيصبح زخرف العالم ومسراته هي والدته الجديدة ، وشهوات الجسد والاستسلام لهوى النفس معبوده وسيدته .

ايها الناس ! يجب عليكم في هذا الدور ، وهو دور انتقال الطفل من عهد الصبوة الى الشباب ، حين تزول من نفسه عاطفة الطفولة وتزهو نفسه وترقص طرباً بهذا العالم ومسراته ، ويشعر باستقلاله واستغنائه ؛ في هذا الدور ، حين تضعف في فؤاده تلك العواطف الشريفة ويتسرب الى نفسه حب العالم وتلعب بقلبه مظاهره وتمتلك لبه مفاسده ، ينسى كل المبادىء .

نعم في مفترق هذين الطريقين يجب عليكم ان تبذلوا الجهد لتحويل عواطف الناشىء حتى تبقى الحياة الانسانية الادبية ماثلة بينه وبين نفسه ، وبزوالها تزول روح الله من قلبه . فالعالم الذي يتطلع اليه الشاب اليوم بعيني شبابه هو غير ذلك العالم الذي أوجده الخالق في فطرته الاولى ، بل هو عالم أفسدته يد الانسان وصيرته مفسدة لمشاعره الخارجية وعواطفه الداخلية ، هو عالم مملوء بشباك الشر لاقتناص نفس الشاب ؛ فالشاب ، مع ما فطر عليه تركيبه البدني ولرجاحة كفة البدن في هذا الدور من العمر على كل قوة اخرى فيه ، نراه سريع الانقياد لشهوات الجسد تؤثر فيه وتتغلب على نفسه المؤثرات المادية على اختلاف انواعها وأشكالها ، فنراه يصبو الى ملذات هذه الحياة يزهو بزهوها وينخدع بسرابها .

لذلك يكون من الخطل في الرأي والنقص الفاحش في نظام التربية ان يهمل شأن تربية الاخلاق في هذا الدور ، ولا يبذل الجهد في تقوية عنصره الروحي الذي لا معدى عنه للتغلب على قوة بدنه وشهوات جسده ، والا فالشاب لا

كحالة منحدر في تيار هــذا العالم . تلعب به امواج مطامعه ومفاسده وتجرفه آثامه ، وبذلك يقضي على نفسه وأخلاقه قضاء مبرماً . بهذا الاهمال تضيع مـــن نفس الانسان ملكة التعقل والتنبه الاخلاقي التي تحفظه من السقوط ، وتوصد في وجهه ابواب الفضائل ومكارم الأخلاق،وتسير به شهوات الجسد في طريق بعيد يقطع كل اتصال ويفصم كل رابطة بين العقل والضمير ، وبانفصام عروة هذه الرابطة تنقطع كل علاقة بين الانسان وخالقه ، وفي قطع هذه العلاقة الشريفة الضربة القاضية على نفسه التي هي المميز الوحيد للانسان عن الحيوان ، بهذا يصبح الانسان حيواناً عالماً مفكراً .

يجب ان نضع للتربية نظاماً يكفل نموّ العقل والعواطف نمواً متساوياً يؤدّي الى الموازنة في القوى والمحافظة على العنصر الاخلاقي،ويمنعه من السقوط الادبي ومحبة الذات التي تنشأ عادة من تغلب قوة الجسم على قوة العواطف والضمير .

وهنا نسأل كيف الوصول الى تغليب المبادىء على الشهوات،وحب الاحسان على الاغراض والميول ؟ فنقول: الجواب في التركيب الطبيعي للانسان . وطريق الوصول الى هذا الهدف أن نسير مع منهاج ذلك التركيب الطبيعي ، فنجعل اساس التربية اخضاع العنصر الجسدي الفاني الى العنصر الروحي الخالد ، وكلما نما البدن واشتد اخذنا زمامه وسرنا به تحت ارشاد مبدأ سام يجري على وفقه ويعمل على منهاجه ؛ ويرجع هذا المبدأ السامي الى قاعدتين :

(١) تقديم تربية العواطف وتهذيب القلب على انماء العقل وتقوية الفكر .

(٢) التأمل في القانون الطبيعي الذي يخضع له الانسان في نموّه ، فتسير التربية بموجبه ولا تقف في وجه ذلك القانون الطبيعي الذي رأى الخالق انه احسن أسلوب يسير عليه الانسان في نموه . ألا ترى ان الطفل يبدأ نموه بتمرين حواسه الخمس ، وانه يقضي زمناً طويلاً في هذا النمو ،قبل ان تساعده الطبيعة على تنبهه العقلي، وتمهد له سبيل النمو الفكري . لذلك تراه يقضي جزءاً كبيراً من عمره خاضعاً لعواطفـــه وأحاسيسه قبل تحكيم نفسه .)

هذا فصل في قصة التربية الدينية كما يراها العلامة بستالوزي؛ وفيه نقاط ذات أهمية وقيمة . وقد أنبهنا الى دور الانتقال او التحول الذي يدك ماضي الناشيء الصاعد في الاخلاق، ليبنيه بناء آخر مشتقاً من الوان الحياة المترفة وتأمتها المغرية .

والمربي المذكور يحصر اهتمامه التربوي بتنمية العواطف عن طريق الدين ، ويراها أقوم طريق يعطينا النشء المنتخب . والآن نستقبل الحسين (ع) في هذا الدور : دور الانتقال فنجده مغلوباً بتربية دينية نادرة من حيث ما اجتمع فيها من ينابيع مثالية أول ما تفجرت ، فارتوى ولمّا يجاوز الينبوع منبثقه . فلم يتغير بشيء مر عليه في مجراه ، لانه لم يبعد عن منبعه بعد .

فالعهد الرسولي السابق كان يلتمع من فوق برج الحياة ويرسل أشعته أبعد ما تصل ، والحسين تغمره كل شعاعة وكل بارقة .

وسنأتي في فصل : «تاريخ مقارن » من هذا الكتاب على تبيان الفرق التربوي بين الحسين (ع) ، ويزيد الذي كان ذا تفكير قبلي لانه نشأ في محيط القبلية في بني كلب حتى دور الشباب ، وكان ذا عصبية لأنه غذي بروح النزعة الاموية ، وكانت مسحة تربيته مسيحية بعدما ترجح لنا أن أستاذه من نساطرة الشام ، وكان مستهتراً لانه لم يأخذ في دور التحول والانتقال بشيء من التربية الدينية التي دل عليها بستالوزي .

وكان ميراثه العقلي فقيراً من الروح المثالي الذي تركز في الجماهير . وهذه نتائج طبيعية جداً، لا مجال لمناقشتها الا اذا حاولنا قلب الحقائق وتحررنا من المنطق الواقعي .

وهنا لا نغفل ما تركت الارزاء المجتمعة التي تناولت نفس الحسين (ع) في اكثر ما تكون غضارة ولدانة ، فهو قد شعر بفراغ مرير حين اصيب بجده العظيم ، وزاد هذا الفراغ اتساعاً وذكنه حين تناولته الاقدار بأمه الرؤوم . وانحنت نفسه على حفيظة – اذا ساغ لنا أن ندعوها كذلك – حين وضع بيت ابيه تحت المراقبة الشديدة وانتهكت حرمته بدون لباقة ، حتى لقد بقي ابو بكر متأثراً ونادماً ندماً عصبياً على ما

فرط منه ، فقد فُتِّش بيت علي (ع) تفتيشاً دقيقاً حذراً من أن يكون قد أعد العدة لاحداث انقلاب يطيح بالحكومة القائمة . والسيدة فاطمة قبضت يدها عن ابي بكر فلم تبايع ، وتأثر الهاشميون حركتها فلم يبايعوا .

فهذه الاحداث الهامة لم تمرّ على الحسين مرّاً ساذجاً بدون أن تترك آثاراً لها خطر . والمحقق ، بمقتضى عمل الفعالية الصامتة ، انها مست مشاعره بأثر غامض : أثر يجعله ينقم ويتشجع على الانتقاد ؛ وسنورد قصة بادرة وقعت من الحسين في عهد عمر توضح لنا صدق ما نقول . فنفسه كانت مفعمة بشيء خفي مجهول ، الا انه يميل به دائماً الى الانتصاف ، خصوصاً وشعوره مرهف دقيق الاحساس .

في عهد عمر

طموح : روي [1] أن الحسين بن علي قال : اتيت عمر وهو يخطب على المنبر فصعدت اليه ، فقلت : انزل عن منبر ابي واذهب الى منبر أبيك ، فقال عمر : لم يكن لابي منبر . وأخذني فأجلسني معه اقلب حصى بيدي ، فلما نزل انطلق بي الى منزله ، فقال لي من علمك ، قلت والله ما علمني احد ، قال بأبي لو جعلت تغشانا

فأتيته يوماً وهو خال بمعاوية، وابن عمر بالباب، فرجع ابن عمر، فرجعت معه؛ فلقيني بعدُ فقال لي: لم أرك، فقلت: يا امير المؤمنين إني جئت وانت خال بمعاوية فرجعت مع ابن عمر ، فقال : انت أحق من ابن عمر ، فانما انبت ما ترى في رؤوسنا الله ثم انتم .

الطموح صفة للنفس الكبيرة تبدو من وراء المظاهر الهادئة أملاً قوياً يستخفنا في دهشة واعجاب .

ونظر النفس الطامحة يبدأ من النقطة التي عجز الناس عما وراءها، فالافق الذي يشرف منه اصحاب الطموح، هو الافق الذي يستشرف اليه نظر الآخرين،

---

(١) راجع الاصابة لابن العسقلاني ج٢ ص١٥ . قال ابن حجر : سنده صحيح .

وكأنما هم يدرجون في الجو الذي يحلّق فيه سائر الناس ، وأما جوّهم فهو للآخرين مثابة الاماني والأحلام .

وطموح الطفولة عنوان على النضج النفسي قبل بلوغ الاهاب ، وطفلنا الطموح يرى مسجداً طالما كان يجوس خلاله بين يدي جده بإدلال ، وهذا منبر طالما كان يرقاه،والنبي (ص) يرسل صوته الهادي،حتى ألفه؛ فحنّ اليه واختلط الحنين بكبرياء العظيم وطموحه ، وانحسر بينه وبين نفسه كل ما هو واقع ، فلم ير المنبر الا شرفته التي يُطِلُّ منها وهي له من دون الناس .

ذهبت نفسه مذاهبها في الجد ، ومذاهبها في الطموح ، تمدها من ورائهما الطفولة المتطلعة ، فرأى أن المنبر نصب للنبي أول ما نُجِر ، وان المسجد بَيْتُ دعوته ، وهو يحس بالنبي حياً بين جوانحه ، فاعتلى المنبر في غير عبث الطفولة ، بل في جد النظر وخيال الطموح .

ونظر من ظاهر النفس الى باطنها فلم يجد الا أشباح الحدود على شريط الوراثة الممتد ، ورأى المنبر والمسجد ، ورأى النبي (ص) في مقعده منهما لم يتغير عليه شيء . فانقلب الى الحس والواقع فأنكر ما يرى وسما به الطموح فقال في جد القول لعمر (ض) ، انزل عن منبر ابي واذهب الى منبر ابيك . وكأنما مس عُمَرَ بتيار تأمله ، فشمله نوع من انكار الذات ، فقال له « لم يكن لابي منبر ».

تراجعت نفس امام نفس، وقالت الحقيقة مقالها على لسان عمر الحكيم ، ودخلا في صموت بقيت الحقيقة تتجاوب فيه بصدى عميق على همسات الحصى المتخافتة التي كان يقلبها الحسين بيديه . وكان منظراً له مغزاه .

الطفل الذي يقلب الحصى بيديه،لانه محدود بالطفولة، هو الذي تطمح نفسه بسرّ القلب الكبير لكي يتَسَنّم الذروة التي تنتهي عندها أحلام الناس . منظر رائع هذا الذي يقع بين عبث الطفولة ، وبين جد القلب .

منظر كان رمزاً لمعنى نبوي أعمق ، وهو أن أسمى ما تجيش به اماني الناس

في أحلام الشهوات ، لا يقابل في منطق الحقيقة العظمى ، الا بضحكات الحصى الناعمة حينما تقلبها يد عابثة .

مرت بعمر (ض) خواطر مختلفة في فترة الصموت القصيرة التي جرت بينهما ، ولكنه بقي شاخصاً تحت وحي نفسي غريب ، مبعثه الاعجـاب والتساؤل .

كلمة صارمة لم يكن مبعثها البتة سذاجة الطفولة ، أو حديث الببغاء « عقله في اذنيه » بل جد الشخصية الكبيرة . فذهب يسائله : « من علمك » ، ولما أيقن أنها بادرة من وحي الشخصية الكامنة ، انصرف اليه لأنه وجد فيه الرجل الكبير الذي يحاول أن يطفر الى خارجه فقال له : « بأني لو جعلت تغشانا » يريـد بذلك أن يأخذه بسنة الحكم وينمّي عليه شخصيته المُلْتَمِعَة من وراء الزمن حتى لكأنها غير محدودة به . ولقد نطقت الحقيقة مرة أخرى على لسان عمر الشهيد « انما أنبت ما في رؤوسنا الله ثم انتم »

وفي القصة استصغار وطموح وشخصية ، ثلاثة معان اذا انتظمت كانت إكليل غار .

مجد العرب نواة غرسها في الهامات الله ثم أنتم ...

وقد نبتت في جراح الكبرياء ، حين أجرى اليها النمير الصافي الله ثم أنتم ...

والتفت على الرؤوس كما تلتف الغَيْضَة بالأزاهير والنوار ، بما روّحها الله به من نسمات ثم انتم ... وازدهرت غصون المجد بالفضائل المنظومة والمكارم المنثورة ، بما نفخ الله بها من روح ثم انتم ...

ومجد العرب والاسلام يعود كما بدأ ، فانّما مبعثه على التاريخ الله ثم انتم ...

شعور : تسامع [1] الناس وجرت بينهم همسات مُنْطَلِقة تشيع فيهم

(١) ذكر ابن عساكر في«التاريخ الكبير»ج٤ ص ٣٢١، انه قدم على عمر حلل من اليمن،فكسا الناس،فراحوا في الحلل،وهو بين القبر والمنبر جالس والناس يأتون فيسلمون عليه ويدعون. فخرج=

سروراً من سرور الجسد والزينة ، بأن حللاً من وشي اليمن وردت الى امير المؤمنين ، جلس لها في مسجد النبي (ص) بين المنبر والقبر .

وكان هذا اعلاناً بأن التاريخ الذي ينشر العرب منه ويطوون قد لبس حلة جديدة ... حلة هي رمز المجد وغلبة الحق في الكفاح ، وهي رمز الصراع المنصور بين العالم القديم المتداعي والعالم الجديد الذي يشيده العربُ والعربُ وحدهم ...

رمز انتصار العقيدة في الجهاد ، ورمز انتصار الفضيلة السامية التي كانت مكبلة مغاولة ، لتقول كلمتها وحدها في هذا العالم الذي يضع معالمه العربُ والعربُ وحدهم ...

هذا العالم الذي كانت الكلمة العليا للأخلاق والفضائل والحريات المهذبة ، العالم الذي انتشل القلب والضمير قبل ان يختنقا وتُعطَّل معاني السمو فيهما ...

فدولة الاسلام بحق تُدْعى ، دولة العقل والضمير والأخلاق والقوة ...

وهذه الحلة كانت أثراً من انتصار الدولة ، فهي رمز لانتصار هذه القوى جميعاً ...

وشاء الخليفة أن يكون توزيع الحلل في المسجد ، ليضيف اليها وشياً جديداً فيه معنى المسجد وفيه أسراره . وشاء أن يكون جلوسه بين القبر والمنبر — جاء في الحديث انها روضة من رياض الجنة — ليقول للمسلمين إن الجنة بدأت تحل في دنياهم .

عجَّ المسجد بما ازدحم فيه من طبقات الناس ، فرحاً بالفكرة المنتصرة التي ترمز اليها الحلة الجديدة ، واظهاراً للذاتية في الامة الناهضة ، الأمة المعلِّمة التي تسوق العالم الى الفكر الجديد والحرية التقية .

= الحسن والحسين من بيت امهما فاطمة في جوف المسجد ليس عليهما من تلك الحلل شيء، وعمر قاطب صارم ما بين عينيه، ثم قال : والله ما هناني ما كسوتكم . قالوا : لم يا امير المؤمنين ؟ فقال : من اجل هذين الغلامين يتخطيان الناس ليس عليهما مما كسوت الناس شيء؛ ثم كتب لصاحب اليمن ان ابعث إلي بحلتين لحسن وحسين؛ وعجل فبعث بحلتين فكساهما، وقال : الان طابت نفسي. وفي رواية : ان الحلل لم يكن فيها ما يصلح لهما .

وكان هذا يوم احتفالها بالبطولة الساخرة من القوى المجتمعة ، ولم يكن لهذه الأمة إلا أن تُحيّا مجتمعة ، لأن كل أفرادها ككل أفذاذها في المعنى الذي يكون للبطل .

في غمار الجموع مر غلامان كأنهما قطرتا الندى في عين الفجر ، وكانا يخطران في غير حلة سوى حلة المعنى الضافي ، فعرا عمر (ض) شعور مبهم عنيف وأطرق إطراقة من فعل شيئاً . فقد ترك [1] النبي (ص) فيهما تذكاره بين المسلمين ، كما ترك بالقرآن تعاليمه ، والمسلمون لن ينسوا باني نهضتهم ومؤسس العالم الجديد ، ولكنهما كانا كاعلان من النبي (ص) بأنه هنا يسمع ويرى ، فلم يدخل في أخدود التاريخ ، بل انفصل من إهاب المادة والنواميس ، ليُدْخِل الماضي والحاضر والمستقبل في تاريخه .

هما صغيران ليس في الحلل ما يستوى على جسميهما ، غير ان عمر المرهف الحس شعر بشيء جعله يَصَعِّرُ ما بين عينيه طويلاً ، ثم يقول : «والله ما هناني ما كسوتكم من أجل هذين الغلامين يتخطيان الناس ليس عليهما مما كسوت الناس شيء » فكتب لصاحب اليمن أن ابعث اليَّ بحلتين لحسن وحسين وعجل ، فكساهما وقال : الآن طابت نفسي . فعمر يعدل بهما سائر المسلمين ، لأن فيهما عين الينبوع الذي غمر العالم القديم ، وأعطى اليَبَس سرّ الحياة فعاد أخضر فيتاناً .

وشعور عمر بأنهما تذكارا النبي (ص) الى المستقبل حمله على أن يجعل لهما عطاء [2] أهل بدر وكان خمسة آلاف ، وان يقدمهما [3] على ولده .

---

(1) جاء في الحديث ان النبي «ص» ترك في الامة الثقلين : القرآن والعترة اهل البيت .

(2) ذكر ابن عساكر في «التاريخ الكبير» ج ٤ ص ٣٢١ ان عمر جعل عطاء الحسن والحسين مثل عطاء ابيهما فالحقهما بفريضه اهل بدر ففرض لكل واحد منهما خمسة آلاف . وروى البخاري في كتاب المغازي من صحيحه ان عطاء البدريين خمسة الاف وقال عمر : لافضلنهم على من بعدهم

(3) روى سبط ابن الجوزي في كتابه «تذكرة خواص الامة في معرفة الائمة» عن ابن عباس ، قال كان عمر ابن الخطاب يحب الحسن والحسين ويقدمهما على ولده ولقد قسم يوماً فاعطاهما عشرين الف درهم واعطى ولده عبدالله الف درهم فعاتبه ولده وقال قد علمت سبقي في الاسلام وهجرتي وانت تفضل علي هذين الغلامين ، فقال : ويحك يا عبدالله ائتني بجد مثل جدهما وانا اعطيك عطاءهما .

في عهد عثمان

نستقبل الحسين في خلافة عثمان شاباً في ميْعة الشباب وعنفوانه ، فقد كان عمره عشرين سنة تقريباً ، وهذه سن تسمح لصاحبها بأن يخوض معترك الحياة ويعطي رأيه ويعالجها من ناحيته .

وقد رأينا،في الفصول التحليلية التي تناولنا بها تربيته ، انها كانت مشبعة بروح الحق ومَمْلأى بقضايا العدالة والواجب. اضف الى هذا الوراثة ومشاهد الطفولة والمسكن — فقد حدثنا ابن عساكر ان بيت فاطمة كان في جوف المسجد — وهذا له تأثيره الكبير في البناء الروحي وهيكل النفس المحَجّب .

فان الحسين كان في عنفوان الشباب، وكان سريـاً بالخلَجات الدينية الى حد كبير ، وهو يشعر بارستقراطية الدم الذي يجري في عروقه ، ولم تكن أرستقراطيته على الشكل المعروف من هذا اللفظ أي بمعْناها الاجتماعي ، بل كانت ارستقراطية تقية تتعصب لمبادئها وتثور لها بوقدة الشعور والتهاب العاطفة .

ونحن لا نزال نذكر طموحه الذي رأينا صورته منه في أزمان طفولته ، ونذكر أيضا أنه تأثر الى حـد مـا بفشل أبيه في الانتخاب مرتين ، والآن يفشل أبوه للمرة الثالثة بمداورة كانت مكشوفة وظاهرة حتى أثارت حفيظة الكثيرين .

ويظهر أن المعركة الانتخابية كانت عنيفة الى حد كبير ،ولم يثبتها التاريخ كاملة ، وان احتفظ لنا ببعض وثائق ونُتَف من الاخبار ، ترينا مدى العنف الذي سيطر على الحركة ، ولكنها بتراء مقتضبة على أي حال. والأهمية ليست في أن يفشل المنتخب ولكن في أن يداور مداورة تنتهي به الى ذلك ، فان الفشل على هذا الشكل يطوي الكثيرين على موجدات مختلفة حتى عند البعيدين عنه .

وهذا ما وقع لعلي(ع) ؛ فقد كان فشله نتيجة حركة من هذا القبيل جعلت ذوي الضمائر يُعنّفون الانتقــاد ويجهرون بالانكار . فحمل على التلاعب الانتخابي المقداد بن الأسود وعمار بن ياسر وكثيرون حملة شديدة ، حتى كادت تحيق بالجموع كارثة انتخابية مؤلمة .

وأعتقد أن الذي سبّب كل هذا ، حَصْرُ عمر الانتخاب في هؤلاء الستة وترشيحهم ، فان تسمية هؤلاء الى جانب علي (ع) جعلهم يتمتعون ببعض الثقة الشعبية ، ويثقون بأنفسهم الى حد كبير . وإلا فلو ترك الانتخاب حراً لما وجد هؤلاء،عدا علي، في أنفسهم الشجاعة الكافية التي تحملهم على خوض غمار الانتخاب ضد مرشح ممتاز ، كما لا يجدون التشجيع الكافي من الشعب ، خصوصاً أن الزبير قد بايع ، بالأمس القريب في عهد ابي بكر ، المرشح الذي ينزل ضده اليوم .

ومنطقيّ جداً أن مثل هذا لا يجد الجرأة التي تحمله على أن يرشح نفسه ضد علي ، واذا وجدها فلا يجد التأييد الشعبي ؛ إذن كان ترشيح عمر لهم بمثابة التزْكية .

وهذا قد أوجد — عدا الحزبية التي تكلمنا عنها في بحث الثورة — دوافع الاعتراك والاصطراع . فالحسين كان منطوياً على موجدة وحنق شديدين من الفئة الاموية التي تسعى الى غش الجمهور ، وهي تدير القوى الى ما يخدم أهواءها .

وقد ألقت هذه التظاهرة التي ولدها الانتخاب بذور الشنآن في قلب الحسين الشاب ، وبذور الريبة في انهم مخلصون على وجه عام ، فهو بدافع ضميره وبدافع

احقاق الحق انطوى على ظلامة واستفزاز كبير ، ظهرت نتائجهما بعد أن دارت الحوادث دورة غير قصيرة .

المجاهد الشاب :

الإزورار والاعراض لم يحملا الحسين على مقاطعة اجراءات الحكومة القائمة بل نراه يمضي بحماسة الى التضحية في سبيل مجد الدولة مُطَّرِحاً كل خصومة نفسية أو شخصية ، لأن هناك مبدأ يقدسه ويعمل في سبيله وقد صار أهلاً للعمل ووجد فرصة للخدمة . فمضى ملبياً نداء الحكومة غير متوان عن عمل الواجب ، فانه وان كان يكبر خصومته هو أكثر اكباراً للمبادىء العامة ، وهذا نضج لا شك فيه .

ونحن لا يخالجنا شك في أن الحزبية اذ ذاك كانت قد شملت المجتمع العربي الاسلامي ، وكان الحسين منتسباً الى حزب أبيه المحافظ كما أريناك في فصل الحزبية . ورغم هذا لم يتأخر عن التضحية المندوب اليها في سبيل المجد القومي والديني بعيداً عن الحدود .

وهذا عنوان عن الاستعداد النفسي لتنامي الحفائظ في سبيل الخدمة العامة التي هي فوق سائر الاعتبارات وأقدس من كل شيء آخر . وكذلك تكون العقلية الناضجة والعقيدة المختمرة التي تضع اختلافاتها وحزبياتها وعنعناتها دون [1] الهدف الأسمى بمراحل كبيرة .

وهذا درس يجب أن نستفيده من الامام الشاب في مراحل جهادنا اليوم بسبيل استعادة مجدنا المفقود ، فهو يعطي الشباب درساً نبيلاً وأمثولة رائعة في فهم الحزبية وأين يجب أن توضع ، وفي أي المناسبات يُحمد العمل بوحيها . وسنرى ، بعد حين في عهد معاوية ، كيف يلبي ايضاً في الحملة على القسطنطينية ، رغم الظلامة التي انقلبت حزازة نفسية عنده بما أجرت الحوادث من دماء غزيرة عزيزة عليه .

---

(١) اذكر اني قرأت في كتاب «عشر سنين في لندن» ان الرجل ضمه مجلس جمع أفراداً من كل الأحزاب في انجلترا ، فتناقشوا على أفضل الخطط التي يحسن انتهاجها ؛ فكل مال إلى تأييد خطة حزبه وكان نقاشاً عنيفاً كادوا يخرجون منه إلى التدافع بالمناكب ؛ وفي هذه الغمرة قام أحدهم ، وقال : باسم التاج والمجد البريطاني اهدأوا وليعد كل منكم إلى مقعده فاستصاخ الحضور إلى صوته وكأن لم يكن من شيء . هذه حادثة تظهر لنا فهم ذوي النضج للحزبية وانها شيء دون الهدف الأسمى .

ذكر[1] ابن خلدون انه، في سنة ست وعشرين، عزل عثمان امير المؤمنين ، عمرو بن العاص عن مصر ، واستعمل مكانه عبدالله بن ابي سرح أخاه من الرضاعة ، وكان عثمان في سنة خمسة وعشرين أمر عبدالله بغزو افريقية ، وأمّر عقبة بن نافع على جند وعبدالله بن نافع على جند آخر ، فخرجوا الى افريقية في عشرة آلاف وصالحهم أهلها على مال يؤدونه ولم يقدروا على التوغل فيها لكثرة أهلها . ثم ان عبدالله بن ابي سرح استأذن عثمان في ذلك واستمده ، فاستشار عثمان الصحابة فأشاروا به . فجهز العساكر من المدينة وفيهم جماعة من الصحابة منهم الحسن والحسين وابن الزبير وابن عباس وابن عمر وابن عمرو بن العاص وابن جعفر وساروا مع عبدالله بن ابي سرح سنة ست وعشرين ولقيهم عقبة بن نافع فيمن معه من المسلمين ببرقة ثم ساروا الى طرابلس، فنهبوا الروم عندها، ثم ساروا الى افريقية وبثوا السرايا في كل ناحية ، ففتح عليهم ، ورجع الجيش بعد مقامه سنة وثلاثة أشهر .

وذكر[2] ابن جرير الطبري : انه في سنة ثلاثين استعمل عثمان ، سعيد بن العاص على الكوفة ، وفي السنة نفسها غزا سعيد بن العاص طَبَرْستان من الكوفة ولم يغزها أحد قبله . وكان الاصبهذ — وصوابه الاصبهيد[3] على ما ذكره الراغب الاصبهاني — صالَحَ سويد بن مقرن عنها أيام عمر على مال . فغزاها سعيد ومعه ناس من أصحاب رسول الله منهم الحسن والحسين وعبدالله بن العباس وحذيفة بن اليمان ، فسألوا الامان فأعطاهم على أن لا يقتل منهم رجلاً واحداً ، ففتحوا الحصن . فقتلهم جميعاً الا رجلاً واحداً ، وحوى ما كان في الحصن .

عرفنا، فيما سبق، ما احتكم بنفس الحسين(ع) من ترتيبات عالية، وما قام

---

(١) راجع تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ١٢٨ و ١٢٩ . وذكر دخول الحسين وأخيه الحسن المغرب فيمن دخله من الصحابة أحمد بن خالد الناصري السلاوي في كتابه: الاستقصا لأخبار المغرب الاقصى ج ١ ص ٣٩ .

(٢) راجع تاريخ الطبري ج ٥ ص ٥٧ و ٥٨ . وابن خلدون ج ٣ ص ١٣٥ و ١٣٦ .

(٣) ذكر الراغب الأصبهاني في محاضرات الادباء ج ١ ص ٧٦ إن الاصبهيد هو صاحب الجيل وهو الصواب .

عليه قلبه من مبادىء فضلى لا يتغاضى البتة اذا انتهكت ، وهو متقيد بحدود المُثل القرآنية والسياسة النبوية لا يحيد عنها .

فلا عجب اذا رأيناه يستنكر استنكاراً صارخاً ، استنكاراً ديمقراطياً نبيلاً على أمير الجند وهو بينهم جندي ، حين أعطى عهداً ونكث به ، وغدر بمستأمنين؛ والمسلمون — كما جاء في الحديث — عند شروطهم .

وانتقلت حركة هذا الانتقاد الى المدينة ، فأثار الضمائر وأسعرها ، وزأرت العدالة على لسان علي (ع) زئيراً رهيباً ، زئيراً يقض المضاجع ويقلق المستنيمين الى هذه السياسة التي نعتها بسياسة الجبروت ، ونعت سعيداً هذا بالجبار . والاسلام دين الرحمة فليس فيه جبروت على المستضعفين ، والمسلمون رحماء ، فليس فيهم الجبار على الضعفاء . وهذه الظاهرة المدهشة التي صبغت فتوح العرب الاولى ، هي الحلة الحميدة للفتح الاسلامي وحده .

بادرة من أمير المؤمنين ، تدلنا على لون سياسة الامويين واتجاههم الحكمي ، وتضع أيدينا على موضع الختل والعبث الطبيعيين ، وعدم الاعتداد بأي شيء في سبيل المطامع الشخصية . هذا الامير يطمع بما في الحصن ويعجز عن فتحه عنوة ، فاستدرج أهليه الى الامان ولكنه انقض عليهم ليظفر بغنائم الحصن كاملة. وسياسة كهذا تحفظ المتشبعين بقضايا الحق والواجب والعدالة. وانما توجد الديمقراطية الصحيحة ، حيث توجد الرقابة الشعبية المخلصة التي تشعر الهيئات الحاكمة بوجود الشعب وحياة الدستور .

وفي هذا درس نبيل حين يرتسم أمام نواظرنا الحسين الجندي أو النفر ، يصارح أمير الجيش بأن هذا غدر ونكث لا يجوزان في منطق القانون . والفتح الاسلامي الذي يعمل على نشر فكرة ويدعو الى تهذيب الانسانية والاجتماع ، لا يتفق هذا الصنيع مع أهدافه الرئيسة الصميمة .

وبعث الامة لا يتم الا بالتقاء الطبيعة المؤمنة بالطبيعة المجاهدة ؛ فمضى الحسين الى الجهاد ليفسح لكلتا الطبيعتين في نفسه ...

قيام المرء بالعقيدة وحدها ، قيام بنصف الحياة ، فمضى الحسين الى الجهاد كي يعلن عن نفسه بأنه حي كامل لا جزء الحي :

قف دون رأيك في الحيـــاة مجاهـــداً   ان الحيـــاة عقيدة وجهـــاد

العقيدة بدون جهاد كالجهاد [1] بدون عقيدة ، لا يزيد هذا عن أن يكون وحشية وترويعاً وقطع طريق ، كما لا يزيد ذاك عن أن يكون ضميراً في نفس الميت، وكل منهما يعبر عن معنى لم يتم، ويرسم شكلاً ممسوخاً. فمضى الحسين الى الجهاد في افريقية ناظراً الى الغرب الاقصى ، كما مضى الى الجهاد في طبرستان ناظراً الى الشرق الاقصى ، ليقول إن حدود العقيدة أن لا تكون في حدود ...

خرج الحسين (ع) بروح المسجد الى الكفاح ليمزج بها روح العالم ، ويتولد من بين هذا اللقاح هيكل الفضائل الحي الذي يقوم على مثل حدود المسجد وقواعده ...

دفاع : كنت لا تسمع الا نأمة طويلة تنذر بخطر رهيب ، وكان الناس يتحلّقون هنا وهناك في شرود وتوثُّب ، كأنما هم ينتظرَون كارثة دامية ستقع بعد حين قريب . ووفدت جموع الغرباء من شتى الأقطار ، وعلى وجوههم سطور الثورة الحمراء التي تلاعب نفوسهم حتى لكأنها مقروءة بوضوح، وتجمهر هؤلاء في طرقات المدينة ينادون بالاصلاح أو الانقلاب ، وبعدوى الشعور انقلبت المدينة كأنها مجاز تدفقت فيه السيول الجارفة ، وانعقدت أصوات الجموع في صرخات لم تعد قائمة في مقاطع مفهومة ، فقد غدت وزمجرة صارخة داوية . وعرت الناس رهبة الجمهور الثائر فوقعوا تحت سبات مشدوه من الشعور المبهم .

دخل النزاع بين الشعب والهيئة الحاكمة في دور عنيف لم تعد تنفع فيه وساطة الحزب المحافظ ، لأن المرجل قد حمي ، ولم يبدر من جانب الهيئة الحاكمة بادرة تخفف غلواء الجمهور ، وتساعد الحزب المحافظ على النجاح . فان الجمهور الثائر

---

(١) لفظ الجهاد لا يطلق الا اذا صاحبته العقيدة، واطلاقه هنا من باب التجريد .

لم يعد يثق الا بنفسه ، والثورة تبعث الثورة كما أن الأسى يبعث الاسى ، فاشتعلت حتّى أصبح من المتعذر اطفاؤها ، فتنحى (ع) وحزبه من طريق الجمهور المحطم وهذا طبيعي .

فان الظرف من وجهة النظر النفسي دقيق جداً ، فكل مصادمة لرأي الجمهور يعدها خيانة لأنه واقع تحت تأثير شعور عنيف — كما يقول بنيامين كيد — يسيطر على كل مناطق التفكير ويصبغها بلونه الداكن ، ومن ثم لا يعود للتعقل الهادىء أثر ما في حركات التوجيه .

أخلى الحزب المحافظ الطريق لامرين : [1]

(١) ان من العبث الوقوف بعد في وجه الثائرين ، بل ربما أدى الى عكس النتيجة ، واستفحلت الثورة استفحالاً قاسياً بحيث تنقلب ثورة للثورة دون قصد آخر ، فتعم الفوضى الطائشة والفتنة المريرة .

(٢) أن ترى الهيئة الحاكمة بنفسها عنف الجمهور الثائر ، فتغير خطتها وتجيب المطالب في الحين الذي تكون الثورة لا تزال مدفوعة بقصد معين مفهوم ، وأي تأخر في النزول على رأي الثائرين يجعلهم يندفعون بغلواء الشعور ويتنبههم القصد من الثورة وهنا الخطر ، اذ تخرج الثورة من نقطة الدائرة الى محيطها وتتدفق متخطية الحواجز والجسور ، كالفيضان حين تنوء الحواجز عن ضغطه فلا يطّرد في الاقنية والمجازات .

---

(١) ويوجد هناك أمر آخر ذكره المؤرخون وهو أن مروان كان يوغر دائماً صدر عثمان على علي حتّى أجمع لا يقوم دونه ، وقال قولته المشهورة : (ما رضي مروان منك الا بتحرفك عن دينك وعن عقلك مثل جمل الظعينة يقاد حيث يسار به ، واللّه ما مروان بذي رأي في دينه ولا في نفسه ، وايم اللّه اني لأراه سيوردك ثم لا يصدرك ، وما أنا بعائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك ، اذهبت شرفك وغلبت على أمرك) ولقد تأثرت امرأة عثمان نائلة ابنة الفرافصة بنصح علي (ع) حتّى قالت لزوجها (اتق اللّه واتبع سنة صاحبيك من قبلك فانك متى أطعت مروان قتلك ، ومروان ليس له عند الناس قدر ولا هيبة ولا محبة ، وانما تركك الناس لمكان مروان منك فأرسل إلى علي فاستصلحه فان له قرابة منك وهو لا يعصى) .

كانت الحواجز بيد الهيئة الحاكمة فلم تنشط وتخف الى رفعها ولو قليلاً بحيث تنفس عن الجمهور ، بل عمدت الى احكام الحواجز حتى تم الطغيان . وقد اقتنعت الهيئة الحاكمة أخيراً حين رأت جد الجمهور الثائر ، فكتب عثمان الى علي كتابه المشهور :

(بلغ السيل الزبى ، وجاوز الحزام الطبيين .

فان كنت مأكولاً فكن انت آكلي والا فأدركني ولـــــا أمزق)

لا يحدثنا التاريخ عن الأثر الذي كان للكتاب في علي (ع) ، ولكنني مقتنع بأنه طرب جداً لهذه النتيجة التي أقنعت الحاكم الأعلى بعد لأي بوجوب الاصلاح وتعديل السياسة . فقد آذنه عثمان بوضع كل المقدرات في يديه وتوجيه السياسة العامة على الشكل الذي يراه ، فعمد الى العمل السريع قبل الاستفحال ، فبعث بحسن وحسين ليحافظا ويحولا دون امتداد الثورة من قريب . ولكن تصريح عائشة ، في هذه المرحلة الدقيقة المستعرة ، حيث بلغ الجمهور قمة الشعور الحماسي ، الى مروان بالكلمة [1] الحمراء :

« وددت لو انه مقطع في غرارة من غرائري ، واني أطيق حمله فأطرحه في البحر » دفعت بالثورة عن نقطة ارتكازها وأججتها ، وكانت أسرع من حركة علي (ع) الذي نظم الامور لفل الثورة بترضيات الجمهور ؛ ووقعت الكارثة قبل وصول علي الذي كان بعيداً عن المدينة . ودفاع الحسين (ع) وغيره لم يغن الا غناء قليلا .

وسيطر الثائرون على الموقف سيطرة مطلقة حتى حالوا دون دفن عثمان الشهيد ، وتم انتخاب الخليفة على ايديهم. غير ان علياً أراد أن يضع حداً لتسلط الثوار ،

(١) بعد أن هدأ علي ثائرة الناس اذ أعطاهم عن عثمان مهلة ثلاثة أيام ، وانتهت واجتمع الناس على بابه مثل الجبال قال عثمان لمروان : أخرج فكلمهم فاني استحي أن أكلمهم. فخرج مروان إليهم ، والناس يركب بعضهم بعضاً ، فقال : ما شأنكم قد اجتمعتم كأنما قد جئتم لنهب؟ شاهت الوجوه ، كل انسان آخذ بأذن صاحبه. جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا ، اخرجوا عنا ! إلى آخر هذه الخطبة المملوءة حمقاً ورعونة ؛ وقد كانت شرارة شديدة الأثر في الهاب نار الثورة .

فاتخذ خططاً دقيقة مبنية على نظر عميق — كما قدمنا في بحث الثورة — قبل أن تدور الثورة على نفسها وتدخل في الثقافات جديدة وتخلق أزمات وتيارات مزعجة. فعزل وولّى، ومضى في سياسة من شأنها رد الأمن إلى نصابه ووضع حداً للانتهازية والأطماع التي بدأ يفكر فيها الجمهور المندفع، فجهز البعوث للقضاء على المتمردين المتنمرين، وكانت سياسة رشيدة حازمة تدل على بعد النظر، حين بناها على الحركة السريعة وأخذ الأمور من أقرب طريق، لولا ما اجتمع في المحيط العربي من عوامل القبلية والقلق الديني واصطباغ النفوس البديئة بالطماعية.

تأخذنا الدهشة كلما فكرنا بموقف علي (ع) من عثمان (ض)، فقد كان له رائداً متطوعاً باخلاص، يغار عليه ويخطط له الخطط القويمة متناسياً كل حفيظة وكل موجدة ومتناسياً ان الامويين داوروه مداورة لاسقاطه وانتخاب عثمان. ولا بأس من أن نذكر طرفاً من أساليبه في الاشارة عليه لنرى بجلاء مدى العاطفة الشريفة التي كانت تغمر فؤاده الكبير وقلبه النقي الطاهر الذي لا يفيض الا بالاخلاص للناس جميعاً. هذه الصفة التي انتقلت الى فتاه الحسين (ع) وظهرت منه في كل مناسبة ما دام الخليفة غير متجاوز تجاوزاً مكشوفاً، فقد قرر الخضوع لمعاوية أيضاً، لأنه لم يكن مستهتراً مبالغاً في الاستهتار. وهذا يظهر لنا — وهو الذي خبر يزيد عن قرب يوم كان أميراً على الجيش في الحملة على القسطنطينية — لماذا خرج على يزيد؟.

يذكر التاريخ مُثُلاً كثيرة من أساليب علي في نصح عثمان وننتزع منها هذه الأمثولة الرائعة، دخل عليه يوماً، وقال له:

(الناس ورائي وقد كلموني فيك، ووالله ما أدري ما أقول لك، وما أعرف شيئاً تجهله، ولا أدلك على أمر لا تعرفه. انك لتعلم ما تعلم، ما سبقناك الى شيء فنخبرك عنه، ولا خلونا بأمر دونك فنبلغكه. وقد رأيت وسمعت وصحبت رسول الله (ص) ونلت صهره، وما ابن أبي قحافة بأولى بعمل الحق منك، ولا ابن الخطاب بأولى شيء من الخير منك.

فالله الله في نفسك ، فانك والله ما تُبَصَّرُ من عمى وتعلم من جهل، وان الطريق لواضح بيِّن .

فاذا اعتذر عثمان بأنه يقتفي أثر عمر . أجابه علي اجابته الموفقة اذ يقول : سأخبرك أن عمر بن الخطاب كان كلُّ مَن ولي فانما يطأ على صماخه،ان بلغه عنه حرف جلبه ، ثم بلغ به أقصى الغاية ؛ وأنت لا تفعل ، ضعفت ورققت على اقربائك .

فاذا ذكر له عثمان أن معاوية كان ممن ولاّه عمر مدة خلافته كلها، وانه اقتدى كذلك بعمر في توليته ، ابان له علي (ع) الفرق بين العملين ، فقال : أنشدك الله ، هل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر ، من (يرفأ) غلام عمر ؟. قال نعم .

قال علي : فان معاوية يقتطع الامور دونك ، وأنت تعلمها ، فيقول للناس : هذا أمر عثمان ، فيبلغك ولا تغير على معاوية .)

هذه أمثولة من أمثولات كثيرة، كلها ترينا موضع النبل والاخلاص وإنكار الذات من نفسه الوَضيـّة بشعاع الضمير .

كان للحزبية التي شهد الحسين (ع) من حركاتها الكثيرة ، والثورة التي خاضها دفاعاً عن الخليفة،ما أجج نزعة الاصلاح في نفسه قبل أن ينتقض ما بناه النبي (ص) بتَنَقُّص النظام الاجتماعي . وكان يرى في أبيه المصلح المنتظر ، كما يرى ذلك كل الذين تلاعب نفوسهم أفكار الاصلاح ، ويرى في الحزب الاموي انه مصدر التبلبل والدس بسبيل أطماعه ، فجزم أن لا استقرار ما دام للامويين سلطة [1] أو شبه سلطة ، وأجمع على أن يخدم هذه الفكرة في ظل حكومة أبيه وفي كل حين .

---

(١) قد أريناك، في الحلقة الأولى،ان مثل هذا الرأي كان عند عامة أهل المدينة وكثيرين كعبد الله بن الزبير ، فقد طرد الأمويين من الحجاز أجمع وتفاهم خارج الحدود ، لأن لهم مداخل بين الحشا والصفاق. راجع الأغاني ج ١ ص ٦ ترجمة أبي قطيفة .

وهو وان يكن خضع على مضض لمعاوية ، فقد كان ينتظر انفراج الأزمة الاجتماعية بوفاته ، ورد حق الجمهور المغتصب ، ولكن لما رأى أن الحزب الأموي دخل في مداورة جديدة لنقل مقدرات الحكم الى ابنه ، وفي هذا زيادة على الاغتصاب للحق العام ، عبث بالادبية المثالية للاسلام ، فكان طبيعياً أن لا يقر هذا الوضع مهما كلف الأمر . وبالأخص اذا نظرناه من الوجهة القانونية البرلمانية التي تقضي بأن هذا، في جوهره، تلاعب بالدستور الانتخابي المتواضع منذ وعهد الخليفة [1] الاول والدستور الديني الموحى به .

واذا كان الانكليز ينظرون الى ضحايا الدستور الذي قرر حقوق الشعب، حاول الملوك التلاعب به ، نظر القداسة، واعتبروهم مجاهدين سجروا أنفسهم بسبيل الحرية العامة . فان أول ضحية من ضحايا الدستور وحرية الشعب، في الاسلام، لم يكن غير الحسين(ع)؛ فنحن أجدر بأن ننظر اليه هذا النظر . إن (كرومول) بقي محترماً من الانجليز — رغم انه انقلب ديكتاتوراً — لأنه قاد ثورة الحرية وظفر بخصوم الجمهور الطغاة .

بهذا النظر يجب أن ندرس الحسين ونفهم حقيقة حركته التي أذكاها ضد يزيد الطاغية .

---

(١) اتخذ الناس طريقة العمل الانتخابي منذ الخليفة الأول قانوناً، ويظهر هذا من رد عبد الله بن الزبير على معاوية اذ أعلن رأيه في يزيد، وطرح الثقة في اجتماع الحج الذي هو البرلمان الأعظم في الاسلام، وقال له: ليس لك أن تفعل الا كما فعل النبي (ص) اذ جعل الانتخاب عاماً أو كما فعل أبو بكر انتخب رجلاً من عرض الناس أو كما فعل عمر جعلها في ستة . راجع ذيل الأمالي لأبي علي القالي.

في عهد عليّ

لمحة : اوفى الحسين في عهد أبيه على الثلاثين من عمره ، واستوى رجلاً ناضجاً ملء برديه استبسال وعزيمة وتعلق بالاصلاح ومضاء في حركة التطهير التي يتطلبها الوضع الجديد الذي رسم خطته علي (ع) .

والاب العظيم أشرف على الثورة وهي تمور وتؤج وتندلع بنيرانها المسجورة، حتى اذا أحكم خطتها وجمع اليه الخيوط ليحركها بحسب الأدوار . تقطعت في يديه .

عندها أدرك انه لم يتم من الثورة الا فصلها الاول ، وان التغلب على الاحزاب التي كشفت الثورة عن شرّها ، والتي ستعمد الى الصراع الطويل لن يتم الا بضربات سريعة قاسية ، ورأى انه لن ينجح إلا بإعجالهم قبل أن يتأشبوا فيستعصي القضاء عليهم ، ووقعة الجمل عينت لمن سيكون الفوز ، ولذلك استسلم الامويون بعدها واحداً بعد واحد واسقط في ايديهم وأشرفت الثورة على النهاية التي يسدل من بعدها الستار .

بيد أن جيش [1] علي (ع) الذي كان قبلياً في مزاجه العقلي والذي أفسدته

---

(١) يقرر هذا ان عبد الله بن الزبير استقامت له الأقطار وحاصر الشام ثم تعلل لان مادة الجيش كانت قبلية بخلاف جند الشام النظامي .

الحزبية والثورة ، وخالفت بين خطواته الحيرة الدينية الراسخة ، تحطم على الصخرة النفسية التي لم تعمل فيها المبادىء الادبية الاسلامية الا عملاً قليلا .

حملت عائشة راية الثورة من جديد ، كما حملت راية الاستفزاز على عثمان . والتاريخ لا يحدثنا لماذا خرجت على علي (ع) ولم تر بعدُ من سياسته شيئاً ما . ودعوى انها خرجت طلباً بدم عثمان توهيم ، لأنها لم تكن جاهلة بالشريعة التي تقضي (أ) بترك الامر الى الحاكم المركزي، فان لم يكن فلولي القتيل،وليست من أوليائه . (ب) بأخذ المباشر دون المسبب .

فلم تخرج عائشة اذاً طلباً بدم عثمان بل لشيء آخر ، وهو ما لم يذكره التاريخ صراحة . والذي يستقيم عندي في هذا الامر أن الحزبية بلغ من نفوذها مبلغاً عظيما حتى عدَت الى زوجات النبي (ص) فكانت ام سلمة (ض) من حزب المحافظين أي حزب علي ، وعائشة (ض) من حزب طلحة والزبير — كما ذكرت في مقدمة الحلقة الاولى — وكانتا كذلك في عهد النبي (ص) ، فقد كانت ام سلمة زعيمة طائفة من نسائه وعائشة زعيمة طائفة أخرى ، ولا ريب في أن هذه الحزبية ولدت في نفسيهما حزازة تاريخية تقريباً اتصلت بمسلكها العام ؛ ففوز علي يُحفِظ عائشة لانه فوز لام سلمة،اضف الى هذا موجدتها الخفية على علي(ع).

تناهى الى سمعها نعي عثمان وفوز علي ، وهي في طريقها من مكة الى المدينة — التاريخ يذكر هنا رواية ساذجة بتراء فيقول انها رجعت الى مكة من فورها ولا نعلم سبباً لرجوعها — وصحة الخبر عندي انها وهي في الطريق لقيت طلحة والزبير ، وهذان حملاها على الرجوع وسهلا عليها الخوض في معمعة اجتماعية طاحنة ، حتى اذا هبطوا مكة وجدوا فلول الامويين ، ففكر طلحة والزبير باستغلالهم فرتبوا الامور هكذا :

يعصي بالشام معاوية ، وهم يعصون بالعراق حتى اذا استقروا حاصروا الحجاز وانتزعوا السلطة من علي(ع) . فهم علي ذلك كلّه فنشط لتسديد الضربات السريعة وهو واثق من نفسه كل الوثوق فلم يستمع للناصحين ذوي النظر السطحي ، لأن كل تأخير يفضي الى خسران القضية المعلقة .

ومن ضيق النظر [1] التاريخي ذهاب طائفة من المؤرخين الى أن وقعة الجمل كانت وقعة عرضية على هامش الصراع . لأننا حينما ندقق في أسباب التأشب على حكومة علي ، نجد ان الشام والبصرة كانتا على تفاهم تام . ويشهد لهذا ما ذكره ابن الاثير [2] في «الكامل» (من ان الخارجين فكروا بالذهاب الى الشام فقيل لهم قد كفاكم معاوية الشام ، فاستقام الرأي على قصد البصرة) وانما بدأ علي (ع) بالبصرة ، لأن خصميه طلحة والزبير ومن ورائهما عائشة أكثر تأثيراً في الجمهور العربي من معاوية الذي يسهل القضاء عليه بالنظر الى انه لا يتمتع بشيء من الثقة . فاذا أمهلها وقصد الشام استشرى أمرهما وحبطت القضية من أولها ، وبالقضاء عليها يخلص من أشرس خصومه . وأعتقد أن معاوية لم يلجأ الى خوض العراك الا ليظفر من علي بالمطمع الذي يلاعب نفسه : ولكن علياً لا يرغب البتة بأن يبقي نكأة في جسم الدولة . فأبى الا القضاء عليه ، وهو نظر موفق جداً : وعلى ضوء علم السياسة هي الخطة الواجبة . بيد أن علياً أتى من قبل الجيش من حيث لا يحتسب ، فان جيشه هو الجيش الذي كانت تستخدمه الدولة في الفتوح ، فهو منهوك ، وزادت الثورة في انهاكه ، فمال بعلي كرهاً الى التحكيم بخلاف جيش الشام فكان قليل الجهود في الفتح الاسلامي ، فهو متماسك ولم تمسه الثورة فتنهكه ، وهذا يظهر من تقاعد الجيش كلما طلبه علي (ع) ، حتى قال مقاله الحكيم (ما غزي قوم في عقر دارهم الا ذلوا)

في فصول الثورة تكشفت نفسيات الاشخاص ، ومدى احتكامها بمنطق الضمير والدين والأخلاق ، فعائشة زوج النبي القوامة الصوامة تخرج وتسفك الدماء ، وطلحة والزبير اللذان صحبا النبي (ص) امداً طويلاً ينقضان البيعة ، وأبو موسى الاشعري يخذل اميره في مقعد القضاء والتحكيم ، ومعاوية يعبث بالقرآن —

(١) يذهب الأستاذ العبادي المؤرخ المصري إلى أن وقعة الجمل من الحوادث العرضية . وهذا عندي أخذ بظاهر الروايات التاريخية الساذجة .

(٢) راجع الكامل ج ٣ . وشرح النهج لابن أبي الحديد ج ١ ص ٨١ ، والعقد العريد لابن عبد ربه ج ٢ . وابن الصباغ في الفصول المهمة .

كتاب الله الاقدس — فيرفعه على الاسنة خدعة حطيطة ، والجموع تتفرق من حوله حينما لم يخولهم من الاموال الا ما خولهم اياه الدستور الذي ثاروا لأجله .

ولدت هذه المشاهد في نفس علي (ع) أسى مريراً ظهر جلياً في خطب النهج— هذه الظاهرة لا تدع شكاً في صحة نسبة النهج الذي يعبر أحسن تعبير عما يجب أن يصدر من فؤاد علي وسط هذه الزوبعة العاصفة — حزت على نفسه هذه الفرطات المؤلمة ، ولذعته كثيراً ، فانصرف الى تثقيف الجمهور بروح الاسلام من جديد ، وتقديم المثل الاعلى للمسلم الصحيح في شخصه ، وما فتىء يضرب على هذه النغمة حتى خرّ صريعاً وهو ينادي الناس الى الصلاة الى الفلاح في غلس الليل .

* * *

وكان هذا ايذاناً بأن فجر الاسلام المثالي قد ذهب مع الامس ، وفجر الغد سوف يكون ملطخاً أبداً بالدماء والاباطيل الحمراء ...

أطلت الشمس على الدم القاني وهي في خدر امها — كما يقول بشار — فجذبت الغمام اليها ، كأنها تشيح بوجهها أن ترى منظر الهول الممدود في انسان المبادىء الفضلى ...

أبت الأقدار إلا أن تمنحه وسام الشرف في ظل كلمة الله التي جاهد لها وخرّ صريعاً دونها ، وهي ملء قلبه وفمه .

جاء في الشريعة أن السحر وقت تجلي الله ، فينفح الرحمات ويهب البر والخير والمحبة ، وكان باطل الانسان يقظان أيضاً في شكل افعى تنفث معناها ، وفي عين الله ، التوت على عنق الداعي (حي على الصلاة ، حي على الفلاح) ثم استدارت على يده كي تطفىء مصباح [1] (ديوجين) كأنها ترهب أن يفضحها ، فرأى الله وأبصر ..

---

(١) لمصباح ديوجين معنى رمزي هو الدلالة على الحق والفضيلة والانسانية الصالحة؛ وهذا هو المقصود هنا.

نطق الحق بصوت الليل ، هاتوا أبنائي وخذوا أبناءكم . فان الباطل الى التراب يصير ، والحق يجنح صعداً نحو السماء ...

ازدوج صوت علي (ع) حينما تخددت هامته بيد فاجرة ، مع صوت المؤذن : الله اكبر الله اكبر ، وكان لهما قرار واحد ثم صمت الفجر كأنه يتسمع ...

صدق (ماكس نورداو) حينما قرر بقاء الاحيل دون بقاء الاصلح ، فان الاصلح لا يدوم طويلاً في دنيا الاباطيل ...

مر انسان بانسان وقال له شيئاً ، فبكى احدهما وضحك الآخر ، ثم مضيا معاً يضربان في كل مكان ، كأن كلاً منهما يتمم على الآخر معناه . هذه صورة من حياة الارض فهنيئاً لك بالسماء مهد المثالية ايتها المثل ...

متارك نفسية : مثلما تركت هذه المشاهد في نفس علي(ع) ؛ تركت في نفس الحسين ؛ فقد رأى ، من أطماع الناس وأهوائهم وأنانيتهم التي بلغت غايتها ، شيئاً كثيراً ، حتى لراعه ما يرى ويشهد . لم يكن يظن في من حوله الا الخير ، ولكن الناس فجأوه بسرائرهم ومطويات نفوسهم ، فلم ير فيها الا سواداً ودكنة قاتمة :

إن شئت أن يسود ظنك كله   فاجعله في هذا السواد الأعظم

أدركه الاسى من مصير الناس ، وأدركه الاسى حينما أحس بالضوء الذي أرسله النبي (ص) من مصباحه الوهاج يتخافت في ومضات . وشعور الاسى في نفس العظيم لا يستحيل يأساً بل عامل بعث جديد ، فنشط الى الجهاد والجهاد العنيف حتى كان قائد الميسرة في وقعة الجمل .

وكان كأبيه يعتقد أن المجتمع لن يصلح الا اذا لقح بعصارة جديدة ، وبترت منه الزوائد وأبعدت عنه الطفيليات ، وكانت هذه عقيدة كل أنصاره أيضاً ، وبذا ارتجز [1] عمار بن ياسر في صفين ، قال :

---

(١) راجع تاريخ ابن الوردي ج ١ ص ١٥٩ .

نَحنُ قتَلْنَاكم على تَأويلـه		كما قتَلْنَاكم على تَنْزيله
ضرباً يُزيلُ الهامَ عن مَقيله		ويُذْهِلُ الخليلَ عـن خليله

فحركة علي (ع) كانت في جوهرها حركة بناء ، وليست بحركة تخريب — كما يشاء طائفة من المؤرخين نعتها — ونحن حينما نحللها نحاكم المؤرخين إلى المبادىء ، فان حركة علي كان لها برنامجها الواضح ، بينما لا نعلم لحركة معاوية برنامجاً ما ، سوى ما كان يلوّح به من الثأر ، هذه النزعة الجاهلية الخالصة التي برىء منها الاسلام في خطبة الوداع التشريعية . وان كان يتداركني العجب من شيء ، فمن أولئك المؤرخين الذين يأخذون الحسين (ع) بحركته ضد يزيد ، فقد نعتوها بانها مهدمة مفرقة ولم تكن مادتها سوى اهل بيته ، ولشد ما يسهل الاحاطة بهم فتتفلل . ويغفلون عن التعليق على حركة معاوية ضد امام الحق علي (ع) ، وكانت مادتها جيشاً كثيفاً ، عدا عن انه لا يختلف اثنان في ان علياً كان ولي الامر ورجل الجدارة والاستحقاق . وفي الحق انه — ان كان في الحركات الخطيرة التي صادفها التاريخ الاسلامي في دوره الاول من ضر — فحركة معاوية كانت جُمّاعه ومصدر كل تهديم وانحلال وتفلل اصاب تاريخ الدولة الفتية .

فالحسين من بعد هذه المشاهد كلها ومصرع ابيه استبد به شعور انبعاثي يدخل في عناصره الاصلاح والحفيظة والانتقام ، إلى ما استقام في تربيته من محافظة وغيرة على مبادىء القرآن وادبيات الاسلام، اضف إلى هذا وصايا ابيه، وخصوصاً وصيته اليه التي جاء [1] فيها :

يا بني اوصيك بتقوى الله عز وجل في الغيب والشهادة،وكلمة الحق في الرضى والغضب ، والقصد في الغنى والفقر ، والعدل في الصديق والعدو ، والعمل في النشاط والكسل ، والرضى عن الله تعالى في الشدة والرخاء .

---

(١) راجعها في كتاب الاعجاز والايجاز لأبي منصور الثعالبي ص ٣٢ . وفي كتاب ينابيع المودة ص ٥١٩ .

يا بني ما شر ، بعده الجنة ، بشر ؛ ولا خير ، بعده النار ، بخير ؛ وكل نعيم ، دونه الجنة ، محقور ؛ وكل بلاء ، دون النار ، عافية .

اعلم يا بني أن من ابصر عيب نفسه شغل عن غيره ، ومن رضي بقسم الله تعالى لم يحزن على ما فاته . ومن سل سيف البغي قتل به . ومن حفر بئراً لاخيه وقع فيها ، ومن هتك حجاب غيره انكشفت عوارت بيته ؛ ومن نسي خطيئته استعظم خطيئة غيره ، ومن كابد الامور عطب . ومن اقتحم البحر غرق . ومن اعجب برأيه ضل . ومن استغنى بعقله زل ، ومن تكبر على الناس ذل ؛ ومن سفه عليهم شتم . ومن دخل مداخل السوء اتهم . ومن خالط الانذال حقر . ومن جالس العلماء وقر ، ومن مزح استخف به . ومن اعتزل سلم . ومن ترك الشهوات كان حراً ، ومن ترك الحسد كان له المحبة من الناس .

يا بني عزُّ المؤمن غناه عن الناس ، والقناعة مال لا ينفد ، ومن اكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير ، ومن علم ان كلامه من عمله قل كلامه . يا بني الطمأنينة قبل الخبرة ؛ ضد الحزم اعجاب المرء بنفسه وهو دليل على ضعف عقله . يا بني كم من نظرة جلبت حسرة . وكم من كلمة جلبت نقمة . لا شرف اعلى من الاسلام ، ولا كرم اعلى من التقوى . ولا معقل احرز من الورع ، ولا شفيع انجح من التوبة . ولا مال اذهب للفاقة من الرضى بالقوت ، ومن اقتصر على بُلْغة الكفاف تعجل الراحة وتبوأ حفظ الدعة ، الحرص مفتاح التعب ومطية التعب وداع إلى التقحم في الذنوب ، والشر جامع لمساوىء العيوب .

وكفى ادباً لنفسك ما كرهته من غيرك ، ومن تورط في الامور من غير نظر في الصواب فقد تعرض لمفاجأة النوائب . التدبير قبل العمل يؤمنك الندم . من استقبل وجوه العمل والآراء عرف مواقع الخطأ ، الصبر جُنّة من الفاقة ، في خلاف النفس رشدها .

يا بني ! ربك للباغين من احكم الحاكمين ، وعالم بضمير[1] المضمرين ، بئس

---

(١) بعض الناقدين الأدبيين يتشكون بهذه الوصية لوقوع مثل هذا اللفظ فيها ، فان الضمير بمعنى القوة النفسية الخاصة وموطن الوجدان لا يعرف بهذا المعنى زمن علي ؛ ونحن نقول إن خطأهم ناشىء من فهم الضمير بهذا المعنى ، والا فهو هنا بمعنى المضمر ، ولا شك بأنه كان معروفاً بهذا المعنى اذ ذاك .

الزاد للمعاد العدوان على العباد ، في كل جرعة شَرَقٌ ، وفي كل كلمة غصص ، لا تنال نعمة الا بفراق اخرى ، ما اقرب الراحة من التعب ، والبؤس من النعيم ، والموت من الحياة ، فطوبى لمن اخلص لله تعالى علمه وعمله وحبه وبغضه ، الويل الويل لمن بلي بحرمان وخذلان وعصيان ، لا تتم مروءة الرجل حتى لا يبالي أي ثوبيه لبس ، والا اي طعاميه اكل .)

هذه وصية اجدر ما تكون بالوصف الذي اعطاه اياها ابو منصور الثعالبي (اعجاز في ايجاز) . وهي تجمع شيئاً كثيراً من فلسفة الاخلاق والحب والبغض ، وفلسفة الالم واللذة التي هي مدار المذهب الاخلاقي الحديث . وانا كلما تأملت قوله (ما اقرب الراحة من التعب ، والبؤس من النعيم) تمثلت (ارثر شبنهاور) وفلسفته التي كشف عنها في مؤلفه العظيم (العالم كارادة وتصور) .

وقد جعل فلسفته قائمة على اساس تصور الارادة والقوة بمفهوميهما ، وهو يقول إنه لا يمكن تصور العالم الا في أحد الافكار ، فالارادة قوام عالم الحوادث . وهذه الارادة تبدو بمظهر الميل إلى الحياة . الا ان هذا الجهد مصحوب بالالم ؛ ومن اقواله ان خير ما يعالج به الالم هو العفاف والزهد . وقد دون علم اخلاق قائماً على الرأفة والشفقة . وعلى أساس مماثلة الموجودات بعضها بعضاً . وهو [1] كأنه ينقل إلى الاجنبية فلسفة علي (ع) الاخلاقية ، أو كأن علياً يترجم إلى العربية فلسفته .

وبذلك وجه الحسين وجهة سبقت محيطه وعصره بكثير ، واقامت فيه امثولته الاصلاحية من شتى نواحيها .

---

(١) عقدنا فصلا هاماً في المقارنة بين الفلسفتين في كتابنا الكبير عن علي (ع) الذي سنخرجه عما قريب .

(فترة بين شكلين من أشكال الحكم)

فشت في روح الجماعات فاشية الانحلال والتداعي النفسي وبدأت الحماسة تدخل في دور ركود طبيعي ، لأنها لم تؤد إلى نتيجة حاسمة . وانما كان تفلل الاعصاب وتحدث فيها زوبعة من الاستياء واليأس القاتل .

والجماعات — لأنها تتحرك باثر الشعور — فهي سريعة الحركة سريعة السكون ، الا انها تسكن على قلق فلا تلبث أن تثور . فلم يكن عهد معاوية في الحقيقة الاجتماعية الا فترة سكون مؤقتة. وكان معاوية قصير النظر للغاية في فهم روح الجماعات . حينما لم يعمد إلى مداواة بقايا الزوبعة الكامنة في كل نفس ، بل على العكس عمد إلى استثارتها بشتى الوسائل ؛ وكانت خططه وسياسته استفزازية محضاً ، فقد نفى خصومه بازدراء ، واهتاجهم بعنف حينما سن بدعة سبّ علي (ع) وانصاره على المنابر ، وفي الناس انصار له كثيرون فلم يبرد الحفيظة بل زاد في اوارها واذكى اشتعالها . وبذلك كتب على دولته وملكية بيته الفناء العاجل . وقد ظهرت هذه النتائج سريعاً في الثورة على يزيد ابنه في اخريات ايامه . فلم يجد حفيده حلاً سوى الحل الذي سنه الحسن (ع) .

فمعاوية لم يكن سياسياً — كما نفهم اليوم — بل مداوراً . والذي يتأمل اسباب نجاحه . يجدها ترجع من اقرب سبيل إلى الوقت الذي دخلت عاصره

في الظرف السياسي القائم ، فرجحت باحد الجانين ؛ فنجاحه جاء عفواً .

وانا كلما تأملت حركاته لم اجد فيه الا سياسياً عادياً للغاية ، كان اكبر ما في سياسته انه نجح فقط ، فهو من السياسيين اليوميين وفي رأيي أن اكبر سياسيي الامويين هو عبد الملك بن مروان ، واعتقد أن معاوية لو تعرض لما تعرض له عبد الملك لفشل فشلاً ذريعاً ، فقــد اجتمع عليه الخوارج وعبدالله بن الزبير وثورة عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث .

ولي رأي قد لا يوافقني عليه الكثيرون ، وهو ان معاوية كان يرمي ، من وراء خططه الاستفزازية ، إلى القضاء على بقايا انصار علي (ع) من الرجالات المرهوبين والى استئصال شأفتهم ، وكانت خطة سب علي مقصودة لهذا الغرض ؛ فقد كان يفكر انه — اي السب — سيثير انصاره وهم فلول ، وبالاخص الهاشميين كالحسن والحسين وعبد الله بن جعفر ومن اليهم ، وبذلك يتسنى له القضاء عليهم بحجة مسموعة تعذره عند الشعب ، ويؤكد هذا عنفه في اخــذ حجر [1] بن عدي وسواه من الكثيرين ، لما اظهروا الاستياء من السبّ العلني والنيل الخالي من الذوق الديني والادبي .

كانت خطة يريد بها القضاء على الهاشميين بالذات ، ويختم ، بذلك ، الصراع

(١) ذكر ابن جرير في تاريخه ج ٦ : ان معاوية لما ولى المغيرة بن شعبة الكوفة في سنة ٤١ دعاه وأوصاه بشتم علي وذمه والعيب على أصحابه والاقصاء لهم وباطراء شيعة عثمان والادناء لهم والاستماع منهم ، فأقام المغيرة على الكوفة عاملا لمعاوية سبع سنين وأشهراً لا يدع ذم علي والوقوع فيه والدعاء لعثمان بالرحمة ، والتزكية لأصحابه والمطالبين بدمه ، فكان حجر بن علي اذا سمع ذلك قال بل اياكم فذمم الله ولعن ثم قام فقال ان الله عز وجل يقول كونوا قوامين بالقسط شهداء لله وانا اشهد ان من تذمون وتعيرون لا حق بالفضل . ولما هلك المغيرة سنة ٥١ جمعت الكوفة والبصرة لزياد بن أبيه فلما لعن علياً وأطال الخطبة وأخر الصلاة قال حجر بن علي : الصلاة ، فمضى في خطبته ثم قال الصلاة ، فمضى في خطبته ، فلما خاف حجر فوت الصلاة ثار اليها وثار الناس معه فكتب زياد إلى معاوية ، فكتب إليه هذا أن شده بالحديد ؛ فلما دخل عليه قال له معاوية : والله لا أقيلك ، آخرجوه فاضربوا عنقه ، فضربت عنقه ؛ وقالت هند ابنة زيد الأنصاري ترثيه :

ترفــع أيهــا القمر المنــير	تبصر هل ترى حجراً يسير
يسير إلى معاوية بن حــرب	ليقتلــه كــا زعم الإمير
فان يهلك فكل زعيم قــوم	من الدنيا إلى هلك يصير

التاريخي الطويل حتى لا تعود له ذيول . فمعاوية إذن لم ينقذه الا اطالة الصراع الذي اوهن اعصاب الجماعات ، وظهورُ الفرقة في جيش علي (ع) نتيجة للقلق الديني والقبلية ، وعلى كلٍ فمعاوية اثبت عدم فهمه البتة لروح الجماعات والجماهير .

ونعود الآن بعد هذا الاستطراد إلى ما عرا الجماعة من كلالة وسأم ظاهرين لمسهما الحسن على كل وجه فلم يجد حلاً للموقف إلا بان يتنازل ، وهو نفسه قد سئم وملّ ايضاً ، فكانت اولى تصريحاته بعد ان نزل على رأي بعض الجمهور المتحمس وسار نحو الشام «ان الجماعة خير من الفرقة» فثارت الحماسة في رأس البعض — وهو الجراح بن سنان — فطعنه بِمْغوَل في فخذه فشقه حتى بلغ العظم .

وتنازل الحسن (ع)، رغم اختلاف الرواة في كيفيته واختلاف النقدة من المؤرخين في اسبابه ومحاكمته ، يدل على عزوف الحسن . وزاده عزوفاً المفاجأة التي صدمته فبددت عزيمته شَعاعاً، وهي هرب عبيد الله بن عباس، وكان قائد جنده ومن لحمته . فاسودّ ظنه في الناس . ومن ثم يظهر الفرق بينه وبين ابيه الذي لم يتضعضع مع استسلام أخيه عقيـــل ، أو أخيه الحسين الذي ثار حينما فاجأه بعزيمته على التسليم لمعاوية .

والتاريخ يحدثنا بان هذه المفاجأة كانت عنيفة الوقع على الحسين ، حتى لم يضبط شعوره وانفعال نفسه، وكذلك يكون العزوم ذو المضاء . انفجر كما ينفجر البركان تجاه الرأي الذي عقد النية عليه اخوه الاكبر ، ونطق بكلمته المدوية التي تجمع الغميزة إلى مقال الحق « اعيذك بالله أن تكذب علياً في قبره ، وتصدق معاوية » وفي رواية «انشدك الله أن تصدق أحدوثة معاوية وتكذب احدوثة ابيك» . وهذه كلمة تجمع إلى الاستنكار الصارخ ، الاستفزاز العميق ، وقد جمع فيها الحسين كل قوته ودهائه ليبلغ من اخيه مبلغاً يثيره . وبالفعل استيقظت نفسه

المالة، الا انه غالط شعوره،وانصرف بحماسته إلى تعنيف اخيه، فقال: «والله ما اردت امراً الا خالفتني إلى غيره ، والله لقد هممت أن اقذفك في بيت فاطينه عليك حتّى اقضي امري . »

وامام جواب اخيه العنيف لم يملك ان يقول له اكثر مما قال « انت اكبر ولد علي ، وانت خليفتي وامرنا لامرك تبع ، فافعل ما بدا لك » كلمة فيها تسليم المكره، ولكن مع القاء التبعة والبراءة من كل مسؤولية . وكأن الحسين يتجه إلى أن الظرف وان يكن حرجاً فلم يفلت كل شيء من اليد ، وفي الاستطاعة تدارك ما فات ، واستثمار الضعف حتّى يصبح قوة ماضية .

وكذلك تكون النفس الكبيرة التي تحمل صاحبها على ان يكافح ويكافح ما بقيت لديه مادة تغري ارادته .

واذا كانت النفوس كبــــاراً تعبت في مرادهــا الاجسام

نحن لا ننكر هنا أن للحسن عذره في اعلان الهدنة وطلبها نظراً للانحلال والانهاك الذي اصاب الجماهير ، كما صرح بهذا إلى عبدالله بن جعفر «قد والله طالت الفتنة وسفكت فيها الدماء وقطعت الارحام وتقطعت السبل وعطلت الثغور » .

ولكنه كان قديراً على ان يعد الجماعات المنحلة عن طريق الاستثارة والاحماس وبث روح العزم والارادة ، كما رأينا في القادة الحديديين امثال (نابليون) الذي تولى شعباً انهكته الثورة الطويلة كما انهكت العرب ، وزاد هو في انهاكه بالحروب المتتالية المستمرة التي اخذ بها اوربا . ولكن القائد غمرته موجة السأم التي غمرت الناس .

الحُسين (ع)

في عَهد الدَّولة الأَمويّة

انقلاب

نستقبل في عهد الدولة الاموية تجديداً يشمل الاوضاع كافة ويتصل بجوهرها ، حتى بات منه المجتمع العربي في شكلية لا عهد له بها ، ثم لا تتصل بالعهد الغابر الا اتصالاً خفياً فيه كثير من الغموض . فهيئة الحكم وطريقة الاجراء والإدارة وقاعدة العمل العام ، لم تعد كما كانت .

ونحن قدمنا — في فصل القديم والجديد — ان الميل إلى التجديد واعتناق اشيائه ظهر في اوائل عهد عثمان اي في اوائل حكم الامويين ، ضرورة الاحتكاك بنظم الامم المختلفة التي غمرها الاسلام وصهرها في بوتقته ، ولكن هذه النظم لم تزل فيها حيوية وصلاحية للبقاء ، والامة الجديدة ساذجة بعض الشيء او في حكم الساذجة ، لذلك افسحت لنفسها مرة اخرى بان تعيش .

والامويون ، نظراً للاستعداد النفسي الذي لم تصقله العقيدة كثيراً ، كانوا اكثر جنوحاً إلى محاكاة هذه النظم التي هي جديدة بالنظر إلى العرب ، فلما آنسوا من انفسهم القوة ، وجمعوا مقدرات الحكم في ايديهم ، وعطلوا حرية الشعب ، وقضوا على رقابته ، مالوا بكليتهم إلى فرض النظم المقتبسة ، واتصل هذا التجديد بالشعب ، فسرعان ما تغير وتحلل وطلب الحياة في الهواء الطلق كما يقولون .

وساعد الشعب على سرعة تحلله أن أكثر رجال القديم ذهبوا ضحية الصراع

الثوري العنيف،فالجمهور الباقي يتألف من الشباب وحدهم وخليط من الامم المنحلة ، فكان لديه الاستعداد التام لحركة انقلابية مـــن هذا النوع . فالادبية الاسلامية إذاً اصيبت بانحراف كبير ،إن لم نقل إن الحياة العامة خرجت عن قاعدتها . وهذا ما يعلل تفشي المجون في مهبط الوحي، وانتشار الحياة اللاهية المفتونة هنا وهناك . ولعل في درس حياة يزيد وصنوف اللهو التي دخلتها ، وهو في بيت الملك او الخلافة — كما يشاؤون تسميته — ما يوقفنا على مدى التجديد الجارف والانحراف الذي شمل الدولة الاموية او قام معها اول ما قامت ، إلى ان توارت في استخفاء ابدي . وفي رسالة القيان للجاحظ اقاصيص كثيرة ترينا الواناً من العهد الجديد الذي هو انقلاب وليس تجديداً فحسب بالمعنى المفهوم من هذا اللفظ .

امام هذا التجديد الذي انحرف بالحياة عن سنتها الخاصة التي وضع النبي (ص) طريقتها، وثبتت في نفوس افراد كثيرة وجماعات كذلك، وقف الحسين (ع) كمنتقد ومتّهم ، وكان يرفع الصوت بالانتقاد الصريح في المناسبات التي تعرض؛ فحينما قتل عدي بن حجر كتب الحسين إلى معاوية كتاباً سيظل على التاريخ سجلاً لعبث السلطة، وانتقاد الشعب الذي يأبى الا ان تكون له الرقابة الممنوحة له من قبل الله .

ومن الخير اثبات هذا الكتاب بنصه لانه يدلنا على اكثر الاشكال التي اصطنعتها السياسة الاموية طريقة لها ، قال [1] :

(اما بعد فقد بلغني كتابك تذكر فيه أنه انتهت اليك عني امور انت لي عنها راغب ، وانا بغيرها عندك جدير ؛ وان الحسنات لا يهدي لها ولا يسدد اليها إلا الله تعالى .

اما ما ذكرت انه رقي اليك عني ، فانه انما رقاه اليك الملاقون المشاؤون بالنميمة

(١) راجع الامامة والسياسة لابن قتيبة ج ١ ص ٢٨٤ . واخبار الرجال لأبي عمر الكشي . واختيار الرجال لأبي جعفر الطوسي ج ٣٢ .

المفرقون بين الجمع ؛ وكذب الغاوون . ما اردت لك حرباً ولا عليك خلافاً ، واني لاخشى الله في ترك ذلك منك ، ومن الاعذار فيه اليك والى اوليائك القاسطين : حزب الظلمة .

الست القاتـــل حجر بن عدي اخا كندة واصحابه المصلين العابدين الذين كانوا ينكرون الظلم ويستفظعون البدع ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ولا يخافون في الله لومة لائم؛ ثم قتلتهم ظلماً وعدواناً، من بعد ما اعطيتهم الايمان المغلظة والمواثيق المؤكدة ، جراءة على الله واستخفافاً بعهده .

أَولستَ قاتل عمرو بن الحَمِق صاحب رسول الله (ص) العبد الصالح الذي ابلته العبادة فنحل جسمه واصفر لونه ؛ فقتلته بعدما امنته واعطيته من العهود ما لو فهمته العُصْم لنزلت من رؤوس الجبال .

او لست بمدعي زياد بن سمية المولود على فراش عبيد ثقيف ، فزعمت انه ابن ابيك ؛ وقد قال رسول الله (ص) الولد للفراش وللعاهر الحجر ، فتركت سنة رسول الله (ص) تعمداً وتبعت هواك بغير هدى من الله ، ثم سلطته على اهل الاسلام يقتلهم ويقطع ايديهم وارجلهم ويسمل اعينهم ويصلبهم على جذوع النخل ، كأنك لست من هذه الامة وليسوا منك .

اولست قاتل الحضرمي الذي كتب فيه زياد اليك ، انه على دين علي كرم الله وجهه ، فكتبت اليه ان اقتل كل من كان على دين علي؛ فقتلهم ومثل بهم بأمرك ، ودين علي هو دين ابن عمه (ص) الذي اجلسك مجلسك الذي انت فيه ، ولولا ذلك لكان شرفك وشرف آبائك تجشم الرحلتين : رحلة الشتاء والصيف .

وقلت، فيما قلت ، انظر لنفسك ولدينك ولامة محمد، واتق شق عصا هذه الامة وان تردهم إلى فتنة. واني لا اعلم فتنة اعظم على هذه الامة من ولايتك عليها. ولا اعظم نظراً لنفسي ولديني ولأمة محمد (ص) افضل من ان اجاهرك ، فان

فعلت فانه قربة إلى الله ، وان تركته فاني استغفر الله لديّني واسأله توفيقه لارشاد امري .

وقلت، فيما قلت، اني إن انكرتك تنكرني، وإن أكدك تكدني ، فكدني ما بدا لك، فاني ارجو ان لا يضرني كيدك وأن لا يكون على احد اضر منه على نفسك ، لانك قد ركبت جهلك وتحرّصت على نقض عهدك . ولعمري ما وفيت بشرط ، ولقد نقضت عهدك بقتل هؤلاء النفر الذين قتلتهم بعد الصلح والأيمان والعهود والمواثيق ، فقتلتهم من غير ان يكونوا قاتلوا وقتلوا . ولم تفعل ذلك بهم الا لذكرهم فضلنا وتعظيمهم حقنا ، مخافة امر لعلك لو لم تقتلهم مت قبل ان يفعلوا ، او ماتوا قبل ان يدركوا ، فابشر يا معاوية بالقصاص واستيقن بالحساب ، واعلم ان لله تعالى كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها ، وليس الله بناس لاخذك بالظنة وقتلك اولياءه على التهم ، ونفيك اياهم من دورهم إلى دار الغربة، واخذك للناس ببيعة ابنك الغلام الحدث، يشرب الشراب ويلعب بالكلاب ، ما اراك الا قد خسرت نفسك وتبّرْت دينك وغششت رعيتك وسمعت مقالة السفيه الجاهل واخفت الوَرعَ التقيَّ ، والسلام) .

هذا الكتاب سجلٌ للدماء التي سفكها الامويون ، وهو صرخة في وجه العبث والتلاعب والتجاوز ، كما انه بيان لحقوق الشعب التي لا يمكن التغاضي عنها مهما كلف الامر ، وايضاً يكشف لنا عن جانب من الاسباب التي دعته للخروج على يزيد فيما بعد .

على انه لم يستبح الخروج على معاوية ،وفاء بعهده،رغم نقض معاوية للعهد، ولانه لم يستهتر استهتاراً مكشوفاً لا يترك للنفس عذراً .

ولله كم هي هذه الكلمة رقيقة شاعرة (كأنك لست من هذه الامة وليسوا منك) هذه الكلمة المشبعة بالشعور القومي الشريف ، وقديماً قال الضابي (ان الرجل من قوم ليست له اعصاب تقسو عليهم) وهو اتهام من الحسين (ع) لمعاوية في وطنيته وقوميته ، واتخذ من الدماء الغزيرة المسفوكة عنواناً على ذلك .

وليس بعد هذا السجل الذي يلصقه الحسين بمعاوية ، ما يحملنا على الشك في النتيجة التي قررناها في مقدمة[1] الحلقة الاولى وهي (ان نظام الحكم في عهد الملوك الامويين لم يكن الا ما نسميه في لغة العصر بنظام الاحكام العرفية . هذا النظام الذي يهدر الدماء ويرفع التعارف على المنطق القانوني ويهدد كل امرىء في وجوده . وفي هذا العصر اذا كان يتخذ في ظروف استثنائية ولحالات خاصة ، يراد بها الارهاب واقرار الامن ، فقد كان في العهد الاموي هو النظام السائد . وفي الحق انه لا يمكننا ان نسمّيَ هذا سلطة قضائية البتة بل ننكر بكل قوة ان يكون في العصر الاموي سلطة قضائية بالمعنى الصحيح ، الا في فترات لا تلبث حتى يكون التيار من ورائها طاغياً . واكبر الشواهد على هذا أن الخليفة او حكومته تأتي ما تهوى بدون ان تتخذ لمآتيها شكليات قانونية على الاقل ، مما يشعر باحترام السلطة للقانون .

وان من المهم أن نتحقق من عدم وجود السلطة القضائية في ذلك العهد ، وان نزن الاجراءات الحكومية جميعها بهذا الميزان الذي يعرفنا اكثر ما نحن في حاجة إلى معرفته بين يدي الدراسات الاموية .)

ويناصر هذه النتيجة السياستان التقليديتان اللتان اصطنعتهما الدولة الاموية في دوريها :

الدور الاول : يبتدىء بمعاوية الاول وينتهي بتنازل معاوية الثاني . وكانت سياسة هذا الدور التقليدية هي سياسة زياد بن ابيه الدموية .

الدور الثاني : يبتدىء بمروان وبالاحرى بعبد الملك وينتهي بمصرع مروان الجعدي ، وكانت سياسة هذا الدور التقليدية هي سياسة الحجاج القائمة على الحديد والنار . وقد لفتنا إلى هذا التقسيم تصريح عمر بن عبد العزيز الذي ذكره القالي في الامالي وهو (ماذا فعل الحجاج حتى يؤتم به ، ذاك زياد الذي جمعهم

---

(١) راجع الحلقة الأولى (سمو المعنى) .

جمع الدر) . وهاتان سياستان نعلم من اخبارهما شيئاً كثيراً ، ولا اظن كائناً من كان يقول : إن القضاء كانت له حرمة فيهما .

عند قسطنطينية : ذكر ابن عساكر : أن الحسين وفد على معاوية، وتوجه غازياً إلى القسطنطينية في الجيش الذي كان اميره يزيد بن معاوية ، وهي الغزوة الثانية .

هذا مثل جديد يضيفه الحسين (ع) إلى جملة الامثال الرفيعة التي ضربها في انكار الذات وتناسي الحفيظة بسبيل الخدمة العامة وبسبيل ايجاد آفاق جديدة للمبادىء . فالحسين يدعى للجهاد ضد عاصمة الدولة الرومانية الشرقية ، وهي مغامرة جريئة وخطوة لها خطر ، فيجيب ، ولكن تحت قيادة من ؟ .

تحت قيادة يزيد الذي كان يسمع الحسين من اخباره المستهترة شيئاً كثيراً، ولكي تعلم مبلغ استهتاره وتماجنه نذكر ان زيـــاد بن ابيه نصح لمعاويـــة اذا شاء ان يستقيم له امر ولده ، وان يضع حداً لمباذله وللشائعات المتزايدة من حوله ، فليبعثه في الغزوات وليبعده عن حياة القصر المشبوبة بالفتون .

فحمله معاوية حملاً [1] على الخروج في هذه الغزوة، وانتزعه انتزاعاً من احضان الحريات المستهترة ، على انه لم يذعن الا بان يجمع اليه في المعسكر ناس ممن يملأون اذنيه بصدى الشهوات ويخلقون له جواً ذا نسب قريب بالجو الذي فارقه على كره .

فبلاه الحسين (ع) وشهده عن قرب ، وخبر ميوله واهواءه كما لو وضع

---

(١) راجع الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ١٩٧ . فقد ذكر ان معاوية سير جيشاً إلى بلاد الروم فتثاقل عنه يزيد فأصاب الناس في غزوتهم جوع ومرض شديد فأنشأ يزيد يقول :

ما ان أبالي بما لاقت جموعهـــم ... بالفرقدونة من حمى ومن موم
اذا اتكأت على الأنماط مرتفقاً ... بدير مران عندي أم كلثوم

وهذا في الغزوة الأولى التي لم يذهب بها .

عليها اليد ، فانكشف له من نزعات نفسه ونزغاتها ما جعله عنيفاً في الحملة عليه لدى اية مناسبة .

تكبر النفس بالعقيدة حتى لا ترى الا اياها ...

وتحول احلام النفس وشهوات الغرائز في مذهب سموّ العقيدة ...

فالحسين (ع) احال غرائزه إلى ما يساعد عمل العقيدة فيه ، فأنكر الذات ومضى إلى الجهاد ...

في عهد يزيد

المأمة : فكر معاوية بتقرير نظام ولاية العهد في الاسلام على سنة وراثية ، ولا شك في ان هذا اقتباس من البيئة الجديدة التي تأثر بها إلى ابعد حد . غير انه عمد إلى تطبيق هذا النظام بضرب من المداورة والخديعة للرأي العام ، واليك ما جاء في النوادر [1] لابي علي القالي (عن جويرية بن اسماء قال : لما اراد معاوية البيعة ليزيد ولده ، كتب إلى مروان وهو عامله على المدينة ، فقرأ كتابه وقال : ان امير المؤمنين قد كبر سنه ودق عظمه ، وقد خاف ان يأتيه امر الله تعالى فيدع الناس كالغنم لا راعي لها ، وقد احب أن يُعْلم عَلَماً ويقيم اماماً . فقالوا : وفق الله امير المؤمنين وسدده ليفعل .

فكتب بذلك إلى معاوية . فكتب اليه : ان سمِّ يزيد . قال : فقرأ الكتاب عليهم وسمّى يزيد . فقام عبد الرحمن بن ابي بكر فقال : كذبت والله يا مروان وكذب معاوية معك . لا يكون ذلك ، لا تحدثوا علينا سنّة الروم . كلما مات هرقل قام مكانه هرقل .

فقال مروان : ان هذا الذي قال لوالديه : أُفٍّ لكما أَتَعِدانِنِي أَنْ

---

(١) راجع النوادر ص ١٧٥ و ١٧٦ .

أُخرج ، قال : فسمعت عائشة ذلك فقالت : ألابن الصدّيق يقول هذا . استروني ، فستروها ، فقالت : كذبت والله يا مروان ان ذلك لرَجُلٌ معروف نسبه .

قال فكتب بذلك مروان إلى معاوية فأقبل ، فلما دنا من المدينة استقبله اهلها فيهم : عبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير والحسين بن علي وعبد الرحمن بن ابي بكر ، فاقبل على عبد الرحمن فسبه وقال لا مرحباً بك ولا اهلاً ، فلما دخل الحسين عليه قال لا مرحباً بك ولا اهلاً ، بَدَنَةٌ يترقرق دمها والله مُهَرَيقُه . فلما دخل ابن الزبير قال : لا مرحباً بك ولا اهلاً ، ضَبٌ تَلْعَة مُدْخِل رأسه تحت ذنبه . فلما دخل عبدالله بن عمر قال : لا مرحباً بك ولا اهلاً وسبه ، فقال : اني لست باهل لهذه المقالة ، قال : بلى ولما هو شر منها .

قال فدخل معاوية المدينة واقام بها ، وخرج هؤلاء الرهط معتمرين ، فلما كان وقت الحج خرج معاوية حاجاً ، فاقبل بعضهم على بعض ، فقالوا : لعله قد ندم ، فاقبلوا يستقبلونه . فلما دخل ابن عمر قال : مرحباً بك واهلاً يا ابن الفاروق ، هاتوا لابي عبد الرحمن دابة . وقال لابن ابي بكر مرحباً بابن الصدّيق هاتوا له دابة . وقال لابن الزبير مرحباً بابن حواري رسول الله هاتوا له دابة . وقال للحسين مرحباً بابن رسول الله . هاتوا له دابة . وجعلت الطافه تدخل عليهم ظاهرة يراها الناس ويحسن اذنهم وشفاعتهم .

قال ثم ارسل اليهم فقال بعضهم لبعض : من يكلمه ؟ فاقبلوا على الحسين فأبى ، فقالوا لابن الزبير : هات فانت صاحبنا . قال : على أن تعطوني عهد الله الا اقول شيئاً الا تابعتموني عليه قالوا نعم . فدخلوا عليه فدعاهم إلى بيعة يزيد ، فسكتوا . فقال ابن الزبير : اخترّمنا خصلة من ثلاث . قال : ان في ثلاث لمخرجاً . قال : اما أن تفعل كما فعل رسول الله (ص) قال ماذا فعل ؟ . قال لم يستخلف احداً . قال : وماذا ؟ قال او تفعل كما فعل ابو بكر قال ماذا فعل ؟ قال : نظر إلى رجل من عُرْض قريش فولاه . قال : وماذا ؟ قال : او تفعل كما فعل عمر بن الخطاب قال : فعل ماذا ؟ قال : جعلها شورى في ستة من قريش .

قال معاوية : ألا تسمعون اني قد عودتكم على نفسي عادة واني اكره أن امنعكموها قبل ان ابين لكم ، أن كنت لا ازال اتكلم بالكلام فتعترضون عليّ فيه وتردون ، واني قائم فقائل مقالة ، فاياكم ان تعترضوا حتى أتمها ، فان صدقتُ فعلي صدقي ، وان كذبت فعلي كذبي ، والله لا ينطق احد منكم في مقالتي الا ضربتُ عنقه . ثم وكل بكل رجل من القوم رجلين يحفظانه لئلا يتكلم ، وقام خطيباً فقال : ان عبدالله بن الزبير والحسين بن علي وعبد الرحمن ابن ابي بكر قد بايعوا فبايعوا . فانجفل الناس عليه يبايعونه ، حتى اذا فرغ من البيعة ركب نجائبه فرمى إلى الشام وتركهم . فاقبل الناس على الرهط يلومونهم ، فقالوا : والله ما بايعنا ، ولكن فعل بنا وفعل .)

هذه وثيقة مهمة جداً يحتاج المؤرخ إلى تدقيقها ودرسها درساً تحليلياً . وهو بعد هذا الدرس يصل إلى ان يزيد تمت بيعته بطريقة الاغفال ، فهي غير صحيحة ، ويزيد ليس اماماً يعتبر الخارج عليه باغياً ، اضف إلى هذا صفاته الشخصية التي تقدح في امامته باتفاق ولا تصحح انتخابه ، مراعى في ذلك الزمان والمكان والعرف .

فالحسين (ع) لم يخرج على امام وانما خرج على عادٍ فرض نفسه فرضاً او فرضه ابوه بدون ارعواء ، وهذا مأخذ نيابي وغلطة سياسية من معاوية تصدق رأينا السابق فيه ، وانه ضيق النظر . فنظام ولاية العهد جر على الدولة الويلات من وجه ، واعد المجتمع للثورة مرة اخرى اعداداً قوياً حينما عهد إلى يزيد .

والوثيقة تعرفنا قوة الرأي العام في ذلك العهد رغم الضغط وتكميم الافواه ، وتثبت لنا ايضاً وجود اصول انتخابية مقررة .

تاريخ مقارن : عرفنا شيئاً كثيراً من عناصر تربية الحسين (ع) في الفصول المارة وخرجنا منها بنتائج هامة ، وهي انه كان مثالياً في العقيدة والاخلاق والسلوك . والآن نعرض لأثر التربية في يزيد .

أنبهنا العلامة بستالوزي ، إلى دور الانتقال او التحول الذي يعرض لكل ناشىء ، وان واجب المربي في هذا الدور عظيم جداً ، فاذا اهمل الناشىء

اندك في نفسه صرح الفضائل الاولى والمبادىء الادبية المكتسبة .

فاذا علمنا أن يزيد في هذا الدور كان مرسل العنان في بني كلب اخواله ، مطيته الشباب والفراغ والجدة ، وصلنا إلى السبب الذي جعل سلوكه متجاوزاً على ما جاء في الاخبار . ومما يدخل في تدقيق الموضوع ذكر نتف مما حدثنا التاريخ .

(ذكروا ان يزيد [1] عرف بشرب الخمر واللعب بالكلاب والتهاون بالدين ، ويلهو [2] بالنرد ويتصيد بالفهود ومن شعره :

اقول لصحب ضمّت الكأس شملهم
وداعي صبابات الهـــوى يترنّـــم
خذوا بنصيب من نعيم ولـــــذة
فكلٌ ، وإن طال المـــدى ، يتصرم

وكان [3] صاحب طرب ومنادمة على الشراب . جلس ذات يوم على شرابه وعن يمينه ابن زياد بعد قتل الحسين فاقبل على ساقيه فقال :

اسقني شربة تـــروي مشاشي ثم صل فاسق مثلها ابن زياد
صاحب السر والامانة عنـــدي ولتسديد مغنمـــي وجهادي

ثم امر المغنين فغنوا . وغلب على اصحاب يزيد وعماله ما كان يفعله من الفسوق . وفي ايامه ظهر الغناء بمكة والمدينة واستعملت الملاهي واظهر الناس شرب الشراب .

وبالجملة كان [4] موفر الرغبة في اللهو والقنص والخمر والنساء وكلاب الصيد حتى كان يلبسها الاساور من الذهب والجلال المنسوجة منه ويهب لكل كلب عبداً يخدمه ، وساس الدولة سياسة مشتقة من شهوات نفسه ، وكانت

---

(١) راجع كتاب أخبار الدول لأحمد بن يوسف القرماني ص ١٣٠ و ١٣١ .
(٢) راجع حياة الحيوان للدميري في الكلام على الفهد ج ٢ ص ٢٧٠ .
(٣) راجع مروج الذهب للمسعودي ج ٢ ص ٧٤ .
(٤) راجع الفخري لابن طباطبا المعروف بابن الطقطقي ص ١٠٣ .

ولايته ثلاث سنين وستة اشهر ، ففي السنة الاولى قتل الحسين بن علي ، وفي السنة الثانية نهب المدينة واباحها ثلاثة ايام [1] ثم فيها قتل سبعمائة من المهاجرين والانصار ولم يبق بدري بعد ذلك ، وقتل عشرة آلاف من الموالي والعرب والتابعين ، وافتضاض الف عذراء) .

اضف إلى هذا ما اجتمع له من الوراثة التاريخية ، وهي على شتى اشكالها تساعده على ان يكون كذلك بعيداً عن المثالية بكل معانيها .

وقد ذكرت في الحلقة [2] الاولى ان يزيد نشأ نشأة مسيحية تبعد كثيراً عن عرف الاسلام ، وذلك لان يزيد يرجع بالامومة إلى بني كلب ، هذه القبيلة التي كانت تدين بالمسيحية قبل الاسلام ، ومن بديهيات علم الاجتماع أن انسلاخ شعب كبير من عقائده يستغرق زمناً طويلاً ، على ان طائفة من المؤرخين ترجح ان من اساتذته بعض نساطرة الشام من مشارقة النصارى . واذا صح هذا نعثر على سبب خطير ايضاً يساعده على ان يظهر بهيئة الساخر من الاوضاع التي يأخذ المجتمع بها نفسه . كما ان القبيلة عملت فيه عملها فخرج جافياً ذا عصبية قاسية .

فاحدهما اذاً سماء ، والآخر ارض . وستظل بينهما هوة فسيحة تبدو كأنها لا نهائية ، فخروج الحسين (ع) كان واجباً دينياً واجتماعياً وبرلمانياً — اذا صح هذا التعبير — ولاحظنا في الحلقة الاولى : أنه كان على معاوية — وهو يعلم ان السلطتين الدينية والزمنية اندمجتا في الاسلام، وللاولى شروط [3] تتعلق بالسلوك — أن يفصل ما بين السلطتين حتى لا يُعَرِّض المجتمع لكوارث لا تحصى ، بنسبة تعريض بيته لها . وهذا قصر نظر بلاريب ، وغلطة سياسية حفرت القبر مع المولود .

---

(١) راجع كتاب أخبار الدول للقرماني ص ١٣٠ .

(٢) راجع الحلقة الأولى (سمو المعنى) .

(٣) ولعل أوفى ما قيل في ذلك قول الحسين (ع) في كتابه إلى أهل الكوفة (فلعمري ما الامام الا العامل بالكتاب والآخذ بالقسط والدائن بالحق والحابس نفسه على ذات الله . راجع تاريخ الطبري ج ٦ ص ١٩٧ .

مَصرع في سبيل الواجب

وازن الحسين (ع) بين الرغبة في البقاء ، وبين الواجب ، فرأى طريق الواجب افسح الطريقين وارضاهما عند الله والناس ...

واشرف إلى الأفق البعيد ، فرأى العهد الزاهر يأخذ بالتلاشي والانحدار شيئاً بعد شيء ليفسح المجال لدنيا جديدة وحياة جديدة ، ولم يبق سواه رمزاً للماضي المثالي الاقدس فزاده استعاراً ...

هم قلّة المؤمنون بقضيته ، ولكنّ القلة المؤمنة التي تجاهد لله وفي سبيله كثرة ، وصوت الحق في معترك الباطل ارفع الصوتين ...

اطل من علياء مكة التي هي رمز السماء في الارض وينبوع المُثُل في الاسلام ، إلى الحياة [1] الجديدة التي تجيش فيها الشهوات ، في زوبعة يدير

---

(١) تشبه هذه الحياة صورة رمزية عن(الحياة من ربى الخلد) في روايتنا الرمزية الشعرية (رحلة إلى الخلد) :

ظلمة سادت وغشت ظلمة	بين موجيها شقاء الأبرياء
طغت الموجة تحدو أختها	في ظلام الدجن والدخ كساء
يطلع الشيطان من أقطارها	ناثاً في طيها كل بلاء
وترى الجنة فيها مرحاً	مسرح الجنة أصداء الحواء
مرد جازوا على أسوارها	شدق كل كخليج من دماء
يزفر المارد منهم زفرة	كهزيم الرعد في الأرض العراء
شرر النار على أفواههم	قمة البركان عند الصعداء
جمعت خبثاً ولؤماً ورياء	وقصارى كل ما فيها جفاء

رحاها داعية في الجانب الآخر الذي لا تطلع فيه الشمس ، فرأى اكْفِهْراراً ورأى تَجَهُّماً استَفَزّاه ...

- مشى إلى الفوز او إلى الموت ، والموت نصر سلبي في الجهاد،فمن جاهد ومات فقد طرح اهاب الارض ليلبس حلة السماء حلة الخلود الضافية ...

سار بقلته المؤمنة ، وثبت في معركة الحق والباطل . وجعل بين ناظريه برهان ربه : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » .

والفتنة في الآية ليست بمعنى الاختلاف والتنازع ، بل بمعنى شيوع الفساد والفسوق ، فخروج الحسين(ع) ليس فتنة — كما اتهموا — بل لمكافحة الفتنة ، فاية محاولة وثورة على الفساد في سبيل ان يكون الدين كله لله ، نحن مأمورون بها ، فالحسين بخروجه لم يجاوز برهان ربه ...

سقط الامام صريعاً بعد كفاح[1] رهيب ، وبعد ان ارسل كلمة الحق في العراء ، هذه الكلمة التي طوّفتْ بالهياكل وعادت بنشيد الشهداء ...

* * *

دمٌ جرى في التراب ، لينبت أشواكاً في طريق الظلم والظالمين ...

روحٌ تحاملَهُ الهواء ، ليظل اشباحاً مُرْعبةً وطُيُوفاً بغيضةً في أعيُن المُعْتَدين ...

وأنّاتٌ زاهقة احتواها الغيب ، ليرسلها وَقْراً في آذان المستبدين ..

وزفراتٌ طويلة رعاها الليل ، ليبعث بها جَلْجَلة كصلصلة الاجراس يفجأ بها المُسْتَقْوين ...

---

(١) ما ذهبت أصور المصرع الا فاض قلبي حسرات وذهبت نفسي شعاعاً ولعلي فاعل في كتاب مستقل.

وعيونٌ ظلّت مفتوحةً ، تسجّل الخيانة في وجوه الخائنين ...

ولحاظٌ ازورّتْ جاحظة ، لتبقَى في هيكل العدل تَكْراء تُطَالع بها الغاوينَ ...

ودموع اعتصرها الحق من التراب ، ليرسلها سَموماً تَلْفَــح وجوه المنكّلين ...

وانفاس احتاطتها يد السماء ، لتذكيها ناراً تشوي بها جسوم المُستَخِفّين ...

لا يَغُرَّنَّكَ يــدٌ ظالمــــة　　إن للعدل وراء الظلم يَدْ

. . .

اسْتَفَاق الحسين (ع) على صوت الضحايا في جوف الليل البهيم .

وأهاب به نداء الدم المطلول في مُنْعَرَجات الاديم ...

وأنشَطَه انطلاق الظلم والباطل على مثل انطلاق الظَلَيم ...

ومضى وحده يجاهد امة جمعها العدوان ، وكذلك تكون ذاتية العظيم ...

فسلام عليه يوم يموت ويوم يبعث حياً .

. . .

علّمنا الحسين (ع) كيف نعتنق المبادىء وكيف نحرسها .

وعلمنا كيف نقدس العقيدة وكيف ندافع عنها ...

وعلمنا كيف نموت كما علمنا كيف نحيا كراماً بها ...

ورسم طريق الخلود الادبي والقومي من طريقها ...

سلام عليه يوم يموت ويوم يبعث حياً ...

. . .

رسم الحسين (ع) خطته في كلمات خالدات ، ستدور مع الفلك ثم تنتشر فيه لتبقى خطة الابطال المخلصين .

هيهات منا الذلة ، يأبى الله ذلك ورسوله والمؤمنون ، وحجور طابت وبطون طهرت وانوف حميّة ونفوس أبيّة ...

الا ترون ان الحق لا يعمل بـه ، والباطل لا يتناهى عنه ، فلا أرى الموت الا سعادة ، والحياة مع الظالمين الا برماً ...

فسلام عليه يوم يموت ويوم يبعث حياً .

تـم

• أيام الحسين

عرض وقصص

عبد الله العلايلي

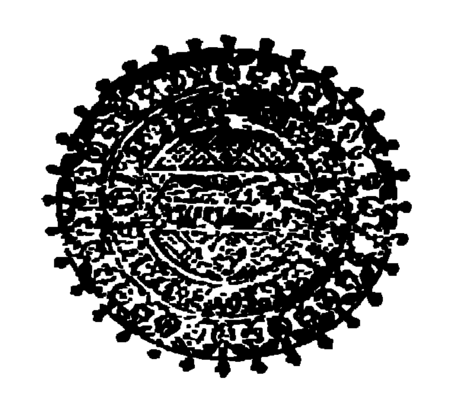


الحلقة الثالثة

دار مكتبة التربية
بيروت

فهرست

الحلقة الثالثة



الفــاتحة

هذه فصول من حياة تمجّدت فيها احلام الانسانية ، واتصلت في الواقع بقَدْر غير محدود من روعة الاحلام ...

فلم تَعد تحمل اسمها التقليدي « الاحلام التائهة » الذي أعطاه أقدم ناطق بالشعر منذ فجر الانسانية ، يوم غدت واقعاً حيّاً لكائن حي ...

*

وكان هذا الفجر قد انبثق في الغاب ، واتصل بلألائه في المغاور والكهوف ، حيث أطل الانسان لاول مرة الى الافق متأملاً ، وشعر بوجوده ...

ولكن لم يسقط من وجوده الا على أشباح ورموز ، ثم لم يفهم ...

*

اتصلت حيرة الانسان بكنْه انسانيته في مراحل النشوء العقلي ، ومَدّ الخيال في معنى الحيرة ...

ولم يزل يلج معصوب العينين هيكل الوجود الاصم ، حيث لا يكون للصوت

رجعٌ ولا صدى . الا حفيفاً خافتاً ولغطاً ينبعث من كل مكان . بيد انه مبهم كنغمة الوتر المقطوع ، أو رجفة الحنين الشاردة الذاوية ...

*

يمر شريط الوجود سريعاً كاللمحة المُضْمَحِلّة . وما يثبت منه الا رُؤى بعدها السراب والآل ، كتلك الرؤى التي تتراقص على القمم في عين الفجر واغتماض الغروب ...

ان انسان اليوم حين يلتقي في بعض منحدرات * الطريق بانسان التاريخ البعيد . لن يجد لديه بعد رحلة الزمن الطويلة به ما يخبره عنه ...

*

وأخيراً ثبت في طبع الانسان ان بحث الوجود يحول دون تذوّقه ، فانكفأ عليه ونسج أحلامه عن السعادة والخير والجمال ...

وكثيراً ما كان يمر بين حين وآخر في جو الانسان ، كواكب ملتمعة تضيء جوانب هذا الوجود ، وهي تجنّح أحياناً وتذهب صُعُداً أحياناً ، لتنقل البشر من الحيرة الى التأمل ، مأخوذين بنشوة خفيّة تظل الذكرى تُشيعها ابداً ...

*

والى هذه الذكرى التي تحمل معنى أزلياً ، قصدنا في عرض حياة الحسين ، الكوكب الذي غاب في الاحزان ، وترك ألوانه المثالية الرائعة تشير الى الخلود ، وتنسدل بشَفَقها المشعّ على البقاء ...

(*) كناية عن القبر .

مقدمة

لم أقصد في هذه الحلقة الثالثة من سيرة الحسين الى التاريخ إلا فيما يدخل في حد تصحيح الرواية أو الخبر ، واما ما وراء ذلك فقد أوسعت تحقيقه ودرسه في الحلقة الثانية التي خصصتها بالوجه التاريخي المحض وما يدخله من قرب أو بعد ، لكي يتسنى للمطلع أن يتصل بالشخصية التي يدور البحث عليها اتصالاً تاماً يخوله أن يصدر حكماً بسلب أو ايجاب .

وحاولنا هناك أن نتفهم حركات الحسين ، بالاضافة الى عوامل العصر التي لا بد أن تقيد مجاري التاريخ ، انْ للجماعة أو للافراد .

وهذه العوامل التي هي مصدر ألوان الزمن ، نسميها تاريخاً حينما تقع في المكان وتحرك الجموع على ما استنّت من اتجاهات وحددت من مذاهب . وبدونها لا نفهم من التاريخ الا أنه تكرار لحركات مبهمة لا تعبر لنا عن شيء يدخل في حد فائدتنا .

ويكون الغرض من التاريخ قد ضاع ، حين لا يتسنى لنا أن نصل الجانب الواقعي من الحياة التي نعيشها بالجانب التاريخي ، فان الحياة كلمة مؤلفة من الواقع والتاريخ جميعاً وان الجزء الأهم فينا، جماعاتٍ كنا أو أفراداً ، تاريخي محض،

وما دمنا لم نستطع أن نصل ما استوى فينا من الواقعية بما استوى فينا من التاريخية ، فلن تكون لنا فائدة من التاريخ .

بيد اننا نشعر بالحاجة الى التاريخ . حتى ليخيل الينا ان لدى الانسان ، طفلاً وشيخاً ، حاسة سادسة تاريخية تُلحّ فيه بحاجتها وتشيع في دخيلته اطمئناناً مشفوعاً بتلبّس للقصة ، كأنما هو يسمع حكاية نفسه أو كأنما انتقل عبر الزمن الى حيث يكون الزمان الموهوم وتقوم وقائع الماضي .

وهذا الميل في الانسان يرجع عندي الى ما استوى في مزاج النفس ووحدتها من الجزء التاريخي ، فاذا صادف ما يبعثه تحرك بقوته وأخضع المشاعر لمدّه في نوع من الهيام والحنين ، وفي نوع من الاحساس العميق بأنه شيء يتصل به اتصالاً ذاتياً كأنما مرّ عليه منذ بعيد .

وهذا يبيح لنا أن نستنتج أن الانسان الفطري — أو بعبارة أشمل الانسان الذي لم يكوّن له تاريخاً — يفقد هذا الجزء ، ولذلك هو لا يتحسس بهذا الميل أو النزوع .

وعليه ففقر القصة أو عدمها في أدب أمة ما يرجع الى ضعف هذا النزوع ، الى عدم توافي الجزء التاريخي فيها واستوائه . وهذا ظاهر لدى عرب الجاهلية الذين لم تكن القصة تستهويهم استهواء يجيء في درجة شهوات النفس أو الجسد الأخرى. بينما نجد القصة بدأت تبرز في أدب العرب الذين استقروا وكوّنوا لهم تاريخاً نوعاً ما ، كالحيريين في عهد المناذرة ، والشاميين في عهد الغساسنة ، فتولد لديهم الميل الى قصص التاريخ . ولعل في الظاهرة الآتية ما يقطع كل ريب في صحة هذا الرأي ، وهي أن القصة المركّزة لا تكون إلا حيث يكون للامة تاريخ منوّع .

فالعرب عادوا بعد التاريخ الى تذوّق القصة ، لانه توافرت فيهم لذة الاستماع التي يبعثها الجزء التاريخي في النفس ، وقد قويت هذه اللذة دراكاً مع التاريخ ، وتقوى كذلك في كل أمة وقبيل .

ونحن نلمس في عصرنا الحالي ميلاً أشدّ الى القصة حتى كادت تتميز باسم

الأدب وتستبدّ به عما سواها ؛ ولقد قال بعض الناقدين : إن الأدب هو القصة في القرن العشرين .

وأما الشعور بكلية الحياة والشعور بأن التاريخ والقصص يعبران عن معان مشتركة اللذان يعلل بهما عادة الميل الى القصة ، فقد تولدا بلا ريب بعد التاريخ . فان هذين الشعورين نتيجة تجربات ومقارنات قام الانسان بها بين نفسه وبين الماضين ، وأدرك هذه الصلة وتحقق من كلية الحياة بعدها . فتعليل الميل الى التاريخ والقصص بهذا الشعور التجريدي الكلي ، تعليل بالسبب المنفعل دون السبب الفاعل الحقيقي .

وهذا الرأي الذي نعطيه في بواعث القصة ولذتها وتعلق الجمهور بها ، حتى وصلت الى درجة أن تصبغ الادب وتسيطر عليه بصبغتها ، حقيقي جداً ... وانا أشعر بحاجة الى الزيادة من ايضاحه لأنه يصحح جملة الأوهام وطائفة الأخطاء الشائعة في الموضوع .

لا ريب في أن الانسان الذي أسلمه التاريخ الى العصور يمتاز بحاسة تاريخية خاصة ، تفصله عن الانسان الذي أسلمته الطبيعة الاولى والذي انبثق من يد الله . وهذه الحاسة تزداد عملاً في الانسان بازدياد عمل التاريخ فيه وتنبه العصور في أعماقه ، والميل الى التاريخ أو القصص وليد وجود الحاسة المذكورة وتوافرها ، وهو أي الميل يتفاوت على مقدار تفاوت الجزء التاريخي في الكائن البشري . ومن الخطأ الظن بأن ميل الانسان الى القصص فطري أو عفوي . بل هو نتيجة تلبّد أجيال من التاريخ في جوهره النفسي ومده بايحائها . وهذه الحاسة التاريخية الحية تتطلب غذاءها وتكون في بعض من الشعوب نهمة ونهمة الى حد كبير ، ولكن هذا النهم ليس متروكاً للعفو والطبيعة العرقية بل هو خاضع لسنة نشوئية خالصة ما دامت الامة قد اتصلت بالتاريخ واتخذت خطواتها فيه .

وهذا الرأي ينتهي بنا الى تفسير : لماذا كان أدب اليونان فقيراً من القصة في جاهليتهم ؟ ..

ولماذا أثْرَوْا بالقصة بعد التاريخ ؟

ولماذا كان أدب العرب كأدب اليونان فقيراً منها في الجاهلية ، ثم أثرى بها بعد التاريخ حتى بلغت قمتها في الف ليلة ؟

ولماذا بلغ نهم الحاسة التاريخية بعد ذلك في الجمهور العربي الى درجة لم يثبت أمامها نحو من الادب والفن ، كما تشهد بهذا قصة حب علي بن آدم والبخلاء ورسالة الغفران والزوابع والتوابع وحي بن يقظان والمقامات وأحاديث ابن دريد الاربعون ومصارع العشاق، وأعطت عصور النهم قِصَص عنترة وأبي زيد الهلالي والملك سيف ؟

ولماذا زاد الميل الى القصة في الأدب الاوربي الحديث عنه في القرون الوسطى ؟

ونحن إنما نحصر نظرنا في الادب دون أن نلتمس أنحاء أخرى ، لأن الادب أكثر استجابة إلى رغبات الجمهور وتطلّع المحيط، وهو إلى ذلك يتلوّن بمختلف الالوان ويحفظ بتلونه تراوُح العوامل التي أثرت فيه .

فعدم وجود أدب القصة في أدب العرب الجاهلي ، معناه عدم ميل الجمهور اليها أو ضعف هذا الميل عنـــده التابع لضعف الجزء التاريخي في مزاج النفس ووحدتها .

فما ذهب اليه إذاً مؤرخو الآداب من إسناد خصائص واستعدادات مزاجية لبعض الشعوب دون بعض اقتضت ذلك ، خطأ محض . ناهيك أنه تعليل غارق « بأوهام الكهف [1] والسوق » على ما يسمى ذلك « بيكون » في منطقه الجديد ، كما أنه تعليل يعطي في كل مثال [2] رأياً ولا يقوم في قانون يبيّن العلاقة الموحدة

---

(١) يعني بالكهف شخصية الفرد التي تكونها الطبيعة والبيئة والتغذية والتربية . ولما كانت تلك العوامل مختلفة باختلاف الافراد كان لكل انسان نزعته الخاصة واخطاؤه الخاصة . ويعني بالسوق عقلية الوسط ولما اوهام تنحل في تفهم الافراد وتعقلهم .

(٢) من مثل تعليل فقر الأدب العربي من القصة بعدم استعداد العرب الطبيعي لها ، وتعليل القصص عند بعض الأدباء العرب في العهد العباسي بالتأثر الأدبي والدموي ، وتعليل ظهور الف ليلة بالمزاج الأدبي الخليط ، وتعليل القوة والضعف في القصة عند الأمم المستعدة لها في مزعمهم بتعاليل شتى لا تستند إلى تعليل يقوم على مؤثر واحد .

بين حادث السبب وحادث الأثر .

والقصة على أي حال وباطلاق لا يمكن أن تنشأ إلا في أمة اجتمع لها تاريخ منوع ومر بها زمن كان كفيلاً بتزويد الافراد بحاسة تاريخية تجعلهم يتذوقونها ويميلون اليهـــا .

وهذا الرأي الذي تقرره يكشف، عدا الخطأ المذكور، عن كثير من الأوهام التربوية التي جنحت إلى القصة كأسلوب للاطفال بتعميم خاطىء . بل لا بد لسلامة التطبيق من مراعاة مرور الزمن وقيمة هذا الزمن في توفير الحاسة التاريخية في الوسط المشترك للطفل وتفاوتها . وقد ينتهي بنا هذا الرأي الى إخضاع الأسلوب التربوي للقصة لمن هم فوق الطفولة . اذا كانت الحاسة فيهم أكثر تحكمـــــاً واقتياداً .

كما يدلنا على السبب الصحيح لاخفاق أدب القصة لدى بعض الشعوب ، والسبب في عدها نسيجاً أعلى عند بعض الشعوب الأخرى ، وأيضاً يدلنا على أن العناصر التي تلزم لتذوق القصة تتفاوت بتفاوت الحاسة المذكورة . والقصة في نظري لا فن لها ولا عناصر قاعدية إلا نسبية فقط ، فهي محدودة بالزمان والمكان والكائن . والمحاكاة أو الاحتذاء وَهم وبُعْد عن فهم ما ثبت في جوهر النفس المتحول الذي يمسح الفن بتهاويله ويمد الادب بالحياة والروح .

فالداعية الخفية فينا الى التاريخ والقصص التي نحس بها ظامئة على الدوام متطلِّعة على الدوام ، هي وليدة ما استحال في جوهر النفس من أشياء الماضي المتلبـــد ، وتمـــدد في بنائه كهُلاميّات عاملة حية . واذا ثبت أن فينا جانباً تاريخياً ، فلا منقلب لنا عن أن نتفهم وقائع الماضي كتاريخ ، وأن نتصل بالمشاعر التي سيطرت فيه كعرض وقصص ، وبذلك يظل التاريخ مادة حية شاعرة .

واستواء الحياة في الحاضر إنما يقوم على دوافع الماضي وجواذب المستقبل ، فلا فلا جرم أن كانت بنا حاجة إلى التاريخ التعليلي من حيث نتصل بالمؤثرات

الحقيقية ، وداعية إلى التاريخ الوصفي من حيث نرى الصور المختلفة التي طفت على سطح الحياة المحتجبة .

*

ونحن في هذه الحلقة نحاول عرض حياة الحسين في شيء من القصص الواقعي الذي لا بد أن ينبه فينا كامن الحس بما يبث من الايحاء الصامت ، ويهيىء جوهر النفس لما سماه « تولستوي » عدوى الشعور ، وهو ذو أثر بعيد فعال في تكوين الشخصية الممتازة .

وقصة حياة الحسين لا تدعنا نخرج بتأمل سلبي تختلط فيه الدهشة بالاعجاب فقط ، بل تزودنا بما يدعونه «الاشتراك في الوعي» أي بتأمل إيجابي يجعل فينا اشتراكاً في الصفة الشعورية .

وكذلك تستحيل النفس الانسانية استحالة أخرى بما أسميه «عدوى التاريخ» . فعلينا لذلك أن نعرف كيف نستثمر التاريخ مثل قوة تنصبّ في شرايينا وعروقنا ، وكيف نحوّل تياره المبعثر في اللج الباهت ليزيد حياتنا حركة ، وحاضرنا اندفاعاً ومضاء .

والحسين شخصية إيمان ومبادىء ، وشخصية دعة وسلام ، ولقد أرانا في كل جانب ألواناً .

فكان جزءٌ من تاريخه عقيدة ، والجزء الآخر جهاداً ؛ فكُتِب الخلود له ، وكتب علينا أن نأتمّ به لنجرب إيماننا في الجهاد وجهادنا في الإيمان .

وأية شخصية هي أحفل من شخصيتنا التي ندير الحديث عليها بمعنوياتها وفعّالياتها ، وأيها أحظى بآثارها ، فلم يكن لنا معدل عن أن نتوخاها ونستفيد منها في الذكرى ، كما استفدنا منها في الحياة .

ولست أزعم لنفسي شيئاً من الفضل وإن جهدت في تفهمها زمناً غير يسير ، فانني كلما أوغلت فيها رأيتني أحوج ما أكون إلى ابتداء درسها مرة أخرى بمعنى جديد . وكذلك ستظل ينبوعاً يَرِدُه الصادي وهو يجد في كل رشفة معنى ولذة ونكهة ، ثم لا يحور معناها ولذتها ونكهتها في مذهب إحساسه وشعوره .

يوم المدينة

كنت ترى الناس في المدينة يروحون أفواجاً ويغدون أفواجاً ، والغبطة تملأ جوانحهم بهذا الحدث المجيـــد . وهم وان لم ينصبوا «قوس النصر» حقاً ، فقـــد كان معناه في قلوبهم الطافحة بكبرياء العقيدة وكبرياء المعنى ، وفي عزائمهم الطافحة بكبرياء الذاتية وكبرياء المجد . وكان الناس يختلطون ويتحلقون في كل مكان ، وعلى أفواههم كلمات ضاحكة بسر المرح المنشور ، فقد كان هذا اليوم يوم الظفر ببدر [1] .

غدت المدينة ، منذ هذا اليوم ، بلد الدولة بعد أن لبثت زمناً وهي بلد العقيدة ، وفازت بتجربتها الرائعة وخطّت أبهى سطر في مجد العرب ومجد الانسانية جميعاً . فلم يكن هذا النصر تسجيلاً لهزيمة فريق وظفر آخر ، بل كان تسجيلاً لظفر الانسانية الجديدة المحرّرة على الانسانية الرجعية العتيقة ، إنسانية الأغلال والقيود وإنسانية الاستعباد الوحشي المنكر .

كان هذا الظفر في حقيقته ظفر الفكرة الجديدة والعقلية المتطلعة ، وظفر

---

(١) مناسبة هذا الفصل من حيث ما ورد في الروايات من أن زواج علي بفاطمة كان بعد وقعة بدر الكبرى ، فمهدنا بهذا الفصل لفصل يوم القرآن ...

المثالية والأخلاق على المادية الصارمة والاباحية الجامحة ، وكان يوم تحرير الانسان من شتى العبوديات الدينية والاجتماعية ، ويوم تجديد الانسان وإنشائه إنشاء آخر .

غدت المدينة في أبهاتها وأمجادها الحفيلة بلداً جديداً ، فلم تعد « يثرب القديمة » التي كانت كغيرها وكراً من أوكار الفكر البالي والعقلية الجامدة ، التي لا لون لها سوى ذلك اللون القاتم وكان يشيع في جزيرة العرب ، ولم تعد البتة بعد اليوم مركزاً للنظام الاجتماعي المتأخر الموروث من شرائع الغاب وفيه الطبيعة البربرية ، وكان يشيع بشتى مظاهره في كل العالم القديم . فالشعب ضحية الطبقات وهؤلاء جميعاً ضحايا فرد مستبد يلاشي كيان الأمة في كيانه . ويحوّل تيار النشاط في الشعب الى ما يغذي أطماعه ويشبع ميوله ورغباته .

غدت المدينة ، منذ هذا اليوم ، مركز الفكر الناهض المشع والنظام الاصلاحي في كل حقل من حقول الاجتماع ، ومركز الدولة الحية الجديدة التي بدأت تنزع الأغلال السابغة عن كل انسان في كل مكان . وكذلك امتدت وانطلقت كما يمتد وينطلق خيط النور سريعاً سريعاً حتى انتظمت معظم العالم القديم .

لبثت المدينة أياماً مديدة وهي غارقة ببهجاتها ، منتشية بما أحرزت من نجاح ، فقد حملت شعلة الاصلاح وغدت رسول المدائن والأمصار ، وهي لن تتنازل عن رسالتها الى العالم مهما كلّفها تبليغ هذه الرسالة من تضحيات دامية ووثبات حمراء .

احتضنت المدينة عقيدة خالدة ونظاماً إصلاحياً خالداً ، ثم ألفت حزباً خلاقاً فدولة محرِّرة . وكان من حظ بلاد العرب أنها شهدت لأول مرة تجربة نظام محمد الاجتماعي ، وقد نجحت في حدودها ونجحت خارج حدودها ، وفيها القدرة على النجاح دائماً ...

كان في أفواه الناس حديث واحد كله الاعجاب ، منذ تسنّى لفئة قليلة مؤمنة ، أن تحطم حملة كاملة جهزتها مكة وتمزقت شعاعاً . وخطورة النصر ترجع الى أن المعركة لم تكن من نوع المعارك التي تحدث كثيراً وتقع كثيراً ، وإنما كانت

صراعاً بين مبدأين وعقليتين وحياتين، وقد انتهى بغلبة الاصلح منهما في كل أولئك جميعاً .. فشاع في الناس كافتهم نوع من الفرح العقلي كالذي يحس به رجل الفكر وهو يجهد جهده بسبيل المعرفة ، ونوع من الفرح النفسي كالذي يستخف المكافح الظافر والآمل الواجد .

وكان يمر بين جموع الناس رجلان يهوديان مطرقين في تأمل في أكثر تطوافهما، وأحياناً يأخذان بأطراف الحديث الخفيض الهامس وهما: مُخَيريق[1] وعبدالله بن سلام .

قال مخيريق : لشد ما يدهشني ويروعني هذا الظفر الذي أحرزه محمد وحزبه، فقد كان ظفراً سريعاً وناجحاً ولا ينشب أن يتخطى حدوده الضيقة ويشمل الجزيرة كلها بنظامه الاصلاحي القويم وتعاليمه الواعية الأخاذة ، حتى لقد بلغ من مدى فاعليتها أنها تحقق لنفسها الانتشار السريع دون ما دعاية وتبشير .

قال ابن سلام : لكأنك — يا مخيريق — تحس بما في نفسي وتنطق عن لساني ، فاني دَهِش كدهشتك ومروّع كارتياعك ، وما أحسب محمداً إلا مفضياً إلى منتهى عظيم جلل ، وكل ما يبدو لي ينذرني بهذا المنتهى إن لم يكن أقل ما سيبلغ اليه .

ومحمد واثق كأشد ما يكون ، فقد أوجد مادة حية وصححها تصحيحاً معنوياً، وولّد فيها قوى لا حد لها وغذاها بتعاليم تفاعلت مع نفسيّات العرب تفاعلاً يكفي أن يكوّن بينهم وحدة في الصفة العقلية والشعورية ، كما غرس في قلوبهم طبيعة الايمان الصحيح الذي يزدري هبّة العاصفات ، وحرر أفئدتهم من الأساطير

---

(١) هو مخيريق النضري الاسرائيلي. قيل من بني قينقاع وقيل من بني القيطون. وذكر الواقدي والبلاذري أنه كان عالماً وأسلم . قال لليهود يوم احد : ألا تنصرون محمداً والله إنكم لتعلمون أنه نصرته حق عليكم بمقتضى المعاهدة . فقالوا : اليوم يوم السبت . فقال: لا سبت. واخذ سيفه ولحق بالنبي فجرح جراحاً قاتلة ، فلما حضره الموت قال : أموالي إلى محمد يضعها حيث شاء . راجع الاصابة لابن حجر العسقلاني ج٦ ص ٧٣ .

والأوهام وبَلْوَر عليهم الفكر وعوّدهم النظام وألزمهم الطاعة وكلمة التقوى، فكانوا أحق بها وأهلها . وليس يخطئني ظني في أنه لن تقوم لشريعته شريعة ، ولن يثبت لقومه قوم .

قال مخيريق : هيّجت وايم الله في نفسي حديثاً طالما كنت أذوده عن لساني ذياداً حتى لا يجري به ولا أراني إلا مفضياً به اليك .

نظرت في شرائع العالم ونظمه على اختلاف ألوانها وقلبتها على شتى وجوهها ، فانتهيت الى أنها تتناصر على سحق قوى الأفراد والجماعات واستغلالهم استغلالاً أنانياً صارماً . وهذه الشرائع والنظم متعاونة فيما بينها من أجل هذه الغاية التي لا تتفق بحال والحرية الذاتية للبشر ، فسبيلها القضاء على الكفاءات والقابليات التي هي عنوان امتياز الانسان، ليحولوا دون أن يتم النشوء دورته، وبذلك يستسلم لهم القطيع.

ولقد بات المجموع البشري من تأثير هذه الأدوار في روحية مريضة للغاية، وانكفأت الجماعات تهوي في أتون التنازع الساحق ، حتى لكأن البشرية في دور احتضار لا تلبث معه طويلاً أن تنقلب هامدة لا حراك فيها .

فلم يعد في الأديان ما يروي ظمأ النفوس ، بل على العكس غدت الأديان مادة الظمأ ، كطالب الري بالحنظل فانه لا يروى ولكنه يزيد شعوراً بالحاجة الى الري . فالأديان الذاوية الكسيفة ، و « الهرطقات » المستطيرة ، والأوضاع الاجتماعية الفاسدة ، والنظم الاقتصادية التي أذكت نضال الطبقات بشرّته المفظعة ، والتداعي الاخلاقي ، ويقظة الاباحية الطامسة ، كل ذلك أعد العالم بقصد ودون قصد الى انتظار كلمة البنّاء العالميّ . ولا أظن محمداً إلا ذلك البناء العالمي الأعظم ، ولا أظن دولته الصغيرة في حدود المدينة إلا نواة تلك الدولة العالمية العامة التي ستصهر في بوتقتها الفوارق الملية وتستعلي على الاجناس والشيع ، فالاسلام عقيدة ودولة وجنسية .

عرف محمد سلسلة الارباب المترابطة في نسق ، وعرف ان البشرية لن تتحرر من هذه العبوديات المركبة المتداخلة التي تؤلف خطراً على الفكر البشري

وبوارز الامتياز الانساني ، وتغل النشاط الحيوي بما ترزح به ككابوس ضاغط وجاثوم مروّع الا بعمل عنيف ، وعرف أن حجر الاساس في بناية العبوديات الشامخة هي الطبقة الروحية التي تسوق الجموع طائعة بما تسيطر به على مناطق اللاوعي ومراكز اللاشعور . فأعملَ معوله الاقدس في بناية العبوديات الراسخة التي شهدت من نوع تلك العواصف شيئاً كثيراً، فمزقت رياحها المتناوحة المزمجرة وبقيت في محلها شامخة راسخة . لكن محمداً عرف سر ثباتها فسدد ضربته الاولى الماضية الى هذه الطبقة وربوبيتها [1] وتحداها في نوع من السخرية والاستفزاز المثير ، وما هو الا أن تزلزل حجر الاساس وخرت صروح الربوبيات التي سخرت بالزمن مذرورة متناثرة في حالة تبعثرٍ وتراكم .

ثم وقف محمد فوق أطلالها شامخاً يعلنَ حرية الانسان[2] وحقوقه في الاستقلال[3] الذاتي ، ويعلن حرية [4] العمل والانتاج والجهد ، ويقرر مبدأ [5] المسؤولية الشخصية في الحقوق والجزاء ونظرية الجزاء للحق العام [6] ، وينزع أغلال الفكر . فمحمد حارب الربوبية في شخص الاوثان الجامدة،وحارب الربوبية في شخص الاوثان الاجتماعية الحية ، وبذلك حرر الفكر وحرر المجتمع .

والمدهش — يا ابن سلام — في منهج محمد الاصلاحي انه قام على الزلزلة

---

(١) قال تعالى (تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ان لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) سورة آل عمران .

(٢) قال تعالى (فحشر فنادى . فقال أنا ربكم الاعلى ، فأخذه الله نكال الآخرة والاولى) سورة النازعات . وقال (فاستخف قومه فأطاعوه) سورة الزخرف . وقال (لست عليهم بمصيطر) سورة الغاشية . وقال (ربنا إنا اطعنا سادتنا وكبراءنا فاضلونا السبيلا) سورة الاحزاب .

(٣) قال تعالى (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) سورة البقرة . وينبغي ان يلاحظ أن القانون العام يخضع القانون الادبي .

(٤) قال تعالى (وان ليس للانسان الا ما سعى . وان سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الاوفى) سورة النجم .

(٥) قال تعالى (وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه) وقال (ولا تزر وازرة وزر اخرى) سورة الاسراء .

(٦) قال تعالى (ولكم في القصاص حياة يا اولي الالباب لعلكم تتقون) سورة البقرة .

الفكرية ، ليُعيد النفس التي خلصت[1] من وراثاتها الى اعتناق كل مبدأ صالح، مهما بدا نابياً والمبادىء السائدة ، ويفسح للافراد والجماعات سبيل التفكير المنطقي الهادىء الخالي من شوائب الافكار الاولى ونزغاتها . وكذلك لم يعمد الى تصحيح الأوضاع القائمة وتغييرها فقط كما عمد المصلحون من قبل ، بل قصد الى تصحيح فكرة الحياة أولاً ليضمن روحية جديدة يتوقى معها الردة والانتكاس اللاشعوريين ، وكانا آفة كل اصلاح خرج عن يد المصلحين السالفين .

أولئك كانوا يصححون الأوضاع ويشيعونها في المجتمع ، وروحية الجماعة لم تزل غارقة في الاوحال والأمراض ولم تزل تالفة أشد ما يكون التلف . فلا تلبث الاوضاع أن تفسد بفساد روحية الجموع ويقع الانتكاس في المجتمع وتعاوده الحمّى ، ويكون المصلح لم يزد عن انه نجم التمع فجأة ثم ابتلعه خضم الليل الحالك ... ولكن محمداً لم يكن من طراز هؤلاء ، فقد صحح فكرة الحياة وروحية الجماعة أولا ثم صحح النظم والأوضاع . وبذلك ضمن سلامة المجتمع أبداً، ووقى الكائن الاجتماعي من الانتكاس والحمى .

فمحمد لم يصنع أمة في عداد الامم بل صنع أمة في عداد الرسل الى كل كل الامم ، وأكبر ظني أن امته ستنطلق في جسم العالم المتداعي كما تنطلق العصارة وفيها الحرارة والحياة والحركة . فهذا اليوم — يا ابن سلام — بداءة دنيا جديدة وأول يوم من تاريخ عالم جديد ، فقد استدار الزمان وبدأ يخط دورة أخرى كما أراد محمد أن تكون ، وكذلك يفرض المصلح نفسه على الزمن .

قال ابن سلام : أراك — يا مخيريق — تتكلم كلام من استهوته رسالة محمد وما أبرئك ، ومع ذلك فاني أنصفك بأنك لم تجاوز المنطق في دائرة أولها الفكر

---

(١) قال تعالى (واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون) سورة البقرة . وفي هذه الآية تحرير العقل من الوراثات ودعوة إلى نقدها على ضوء المنطق والفكر المجرد ، وبذلك قضى القرآن على الوراثات كأساس للفكر وحكم العقل بها فلم يشجب القديم الموروث مرة واحدة بل القديم الذي يصطدم بالمنطق في سنة النشوء وجاء تحريره العقل من حيث انه قضى عليها كأساس للفكر .

وآخرها الحس . ولقد شاءت لي الظروف أن أجتمع ببعض من أتباعه . وهو وان لم يكن له جلاء منطقك ودقة تحليلك فقد غمرتني روحيته ولعبت بي تياراتها . وما أحسب نفسي أقل انجذاباً منك .

وأذكر اني سمعت آية [1] تدعو الى الايمان العقلي من قرآن محمد . وما هي الا أن تمددت في قلبي وعقلي جميعاً . فتمددت لها نفسي وأخذت طريقها الى ما وراء القوى الواعية . ومضت تفعل فعلها تارة في الفكر وتارة في مذاهب الشعور . حتى انتهت بتركيز فلسفتها علي وتركيزي عليها . وإذا بي أحس إحساساً وجدانياً بأنها فلسفة ينبغي أن أعهدها في أول ما أعهد من قضايا العقل . واذا بي احس احساساً عقلياً بأنها كل المنطق حتى لم يعد لي مَعْدِل عن أن تكون مقدمة الفكر .

والعجب — يا مخيريق — ان محمداً عالج قضايا الدين والعقل والحياة والاجتماع ؛ وأعطى حلولاً هي ما ظلت الانسانية تائهة عنها وعبثاً تنشدها . ولعل أعظم ما يستوقفني ويغريني حله لمعضلة الاديان فهو لم ينقضها بل صححها من الطفيليات العالقة عليها . فان في كل دين قضايا الحق الاولى وقد تناولها كل قبيل بنوع عقليته وما ثبت فيها فلونها بلونه ، وما زال يلبسها ويضيف اليها ويحمل عليها حتى اختفت قضايا الحق وراء أستار صفيقة ، وغدت كاللباب تحجبه قشور قاسية . والذي يثبت في عقل الجماعة مظاهر الأشياء دون حقائقها المحجوبة ، فوقف ايمان الجموع عند حد المظاهر وعمل التاريخ عمله في هذا الايمان فتحجّر عليها ، رغم أن هذه المظاهر والأشكال ليست سوى انعكاس من وراثات القبيل .

ولكن محمداً استطاع باعجاب أن يكشف قضايا الحق الاولى وأن يبصر مكانها في كل دين رغم كل الاستار الصفيقة ، فأعلن للناس على اختلافهم وحدة الاديان وان قضايا الحق الاولى واحدة في كل دين ، وهي لا تتغير الا اذا تسنى لناموس الطبيعة أن يتغير ، وأعلن أن ما يتوهمه الناس لباباً هو قشور فقط ، وبضربة حطمها ، وأعطى تحديده الدقيق للدين الجديد . فكان عمله وجهاده فقط في

---

(١) قال تعالى (قل هذه سبيلي ادعو إلى الله على بصيرة انا ومن اتبعني) سورة يوسف .

تجريد قضايا الحق مما ران عليها وعلق بها ، أو ردّ الناس الى حقائق دياناتهم ، التي أفسدها النضال الطبقي والقومي وأفسد كل مجتمع من ورائها ، رغم أن الاديان ما جاءت الا لمحو هذا النضال .

وكما قلت — يا مخيريق — ليس من الممكن للمصلح ، إذا أراد البناء المكين ، أن يتجه الى العقل الملوّث المنحرف والفكر الغارق بالأوهام ويحمله رسالته ، بل لا بد من مهاجمة هذا العقل وهذا الفكر حتى اذا تطهرا اتجه اليهما من جديد وذهب يبني ، وبعبارة أصح ذهب يخلق ، وكذلك فعل محمد وكان له ميزة على المصلحين ، وينبغي أن نعرف أن محمداً لم يكن مغامراً يتستر بخطة الاصلاح ، وإنما كان مصلحاً دفع المغامرة في طريق الاصلاح . وبينهما أن أولهما أناني بلحمه ودمه ، يطلق العاصفة كعملاق ويدفع الجموع الى التواثب فوق القمم ، وزلة في العاصفة تترك الجموع في فضاء الهاوية طيوراً تحوم في المنحدر السريع السحيق ، ودائماً ينتهي بالتهديم ليقف من بعدُ على أطلال الأشلاء مسخاً جاحظاً متقلصاً . وثانيهما غيريّ في شعوره وضميره ، يضبط العاصفة ويصرّف مخزونها فيما يعود على المجتمع بالإنشاء وتوفير القوى والطاقات ، ودائما ينتهي بالبناء ليقف وأتباعه من بعدُ على القمم .

قال مخيريق : لله كم تفعل العقيدة في النفوس ، فانها تصنع من الضعف قوة وقوة لا حد لها . ألا ترى أصحاب محمد كيف غدوا ، بفضل العقيدة الخلاّقة ، قوة لا تتصل بالضعف بعد أن كانوا ضعفاً لا يتصل بالقوة ... وهذا صحيح فان الفكرة تصنع الحياة والحياة تصنع القوة ، فلا قوة بدون فكرة تقذف الطاقة والحياة جميعاً .

بلغني وانا مما بلغني في عجب ، إخالك تعرف فتى قريش وطالما شاهدته هنا في المدينة ، وهو من ينعتونه بحامي الاسلام « علي بن ابي طالب » ، بلغني انه كان من استبساله وتفانيه في نصرة مبادىء هذا الدين الجديد ، ما جعله في بدر الكبرى أمة من الابطال كأنها تنطلق في كل مجال اذا انطلق ، فمن كل وجه عليّ ،

ومن كل صوب علي نفسه ، حتى لأجدّ على كل لسان : ان فتى قريش هزم الجموع من قريش .

قال ابن سلام : أذكر اني أعرفه وأذكر أن له سيماء ناطقة بالصلابة والعزم القصي ، ورغم حداثته فقد قذف في رُوعي أنواعاً من التجلة وأنواعاً من الاسر . حتى لا حسبني بتّ مأخوذاً عن نفسي ساعةً بشيء لا أفهم كنهه وهو ما يسمونه سحر الشخصية .

وأذكر أن حديثه اليوم على كل لسان ، وهم يشفعونه باعجاب طائف ممدود ، (أليس الذي فعل الأفاعيل بقريش) ، هذه عبارتهم التي لا تكاد تسقط من حديث أحد عنه ، حتى غدت تقليدية وطبيعية . قال هذا . وسكت مطرقاً ويده تداعب جبهته كالذي يريد أن يتذكر شيئاً أقدّر انه خطير ، وعلى فُجاءَة نقر جبهته نقرة شاع سرورها في مقلتيه وأساريره .

قال : يا مخيريق سأخبرك خبر فتى قريش يوم تزمّل في فراش محمد ليلة الهجرة إيهاماً عنه ... قال مخيريق : اذكر اني سمعت شيئاً من ذلك ... ومضى ابن سلام في حديثه : إنها مغامرة يظنها البسطاء دون استبساله في معركة بدر ؛ لكنها عندي من وجهة العقيدة أعظم شأناً وقد لا يعد لها موقف . فان الاستبسال قد تولده حماسة المشهد وأصوات الجموع المائجة، وقد تولده خيلاء الذاتية في موقف لا مفر من الظهور فيه ، وكثيراً ما بدّلت هذه المشاهد نفسية الجبان ، كما لا تدل على أثر العقيدة دائماً .

ولكن تلك ، هي مغامرة العقيدة المجسمة . فقد كانت تعريضاً للنفس دون تذرّع ، بأسباب الدفاع ،وبكل هدوء،فليس فيها انفعال عنيف يُنسي المرء ذاته ويدفعه الى عدم المبالاة دفعاً قسرياً ؛ وهي مغامرة ان كانت تعبر عن شيء فانما تعبر عن نسيان الذات على كل حال . بفاعلية العقيدة وحدها التي طغت على كل المشاعر واستبدت بها . ان التضحية رهيبة — يا مخيريق — دائماً ؛ ولكنها أرهب ما تكون في المواقف الحادثة التي لا تثير الاعصاب بشعور غير عادي .

إن محمداً عرف كيف يجعل النفس العربية مؤمنة ذات آفاق في الايمان ، فكانت بذلك قوية ذات آفاق في القوة . خصوصاً وإيمان محمد يجعل المرء لا يرى في حدود الايمان ويرى الايمان في حدود كل شيء ، كتلك الفراشة التي أسلمها المصباح اليه فهي لا تحول عنه وان كان في ذلك أنها تحول عن الحياة . وبهذا صغرت الدنيا والحياة وفكرة متاعهما في قلب أصحابه ، لأن عقلهم لم يعد ينبعث من حدود غرائزهم بل من حدود تعاليمهم . والاعتقاد نفسه غريزة طبيعية ، وبين الغرائز كما بين سائر الأشياء تناحر على الظهور والبروز ، وأكثر ما تتم الغلبة للغرائز الدنيا لانها أدخل عضوياً في تركيب الكائن الحي ، ولا تتم الغلبة لهذه الغرائز البتة الا وتشد اليها العقل والقلب ، فيفسد العقل وينحط القلب .

فعمل المصلح ينحصر في تنشيط غريزة الاعتقاد لكي تسيطر بروح الايمان الجديد ، وهي تشد العقل والقلب اليها فيصلح العقل ويسمو القلب ، حتى الغرائز الدنيا تصبح دنيا بمعنى جديد . فهي لا تنبعث في شهوة الجسد بل في شهوة الروح المركزة بالايمان ، وان شهوة الروح الشعورُ بذاتيتها العليا في الفطرة والأخلاق والاجتماع ، ولا يزال الايمان يعمل عمله حتى يجعل في الغرائز عقلاً وفي الشهوات ارادة وأخلاقاً . فمحمد صحح نفوساً وأوجد مادة مؤمنة تنطلق كما ينطلق القدر الواقع الى مصيرها وغايتها . وهي بهذا الشعور مجتمعة كمثلها متفرقة ، فقلب الجماعة شعور متجاوب بين قلب وقلب .

ويعجبني في فتى قريش أنه يملكه إيمانه حتى في أحرج ما تكون رهبة النفوس ، وقليل هم الافراد الذين يملكهم الايمان ، وهذه ميزة أصحاب محمد ، بينما الآخرون يحاولون أن يملكوا الايمان ، وفاتهم ان الايمان إما أن يكون كل شيء في النفس واما أن لا يكون شيئاً فيها ، والفرق بينهما كالفرق بين من يُصَرِّفه الايمان وبين من يتصرف به .

قال مخيريق : لشدّ ما تفعل العقيدة في النفوس ، ولله أنت يا محمد كم هي أخّاذة تعاليمك ... قال هذا ، وسكت يفكر في أمر يبدو مهماً ، ولبث طويلاً يحاول أن يجد النقطة التي يبتدىء منها الحديث ، فاطّرد ممعناً يقول :

يسرني اننا متفقان في الفكرة والميل ، ولكن ما الذي يحول باليهود عن محمد رغم ما يعلمون أنه سيغمرهم لا محالة ، فاذا طاولوه كان لهم منه يوم كيوم « بختنصر » ... وكان مجرد ذكر بختنصر كافياً لبعث آلامه القومية الدفينة ، فتغشّته سحابة حزن ولكنه واصل حديثه :

أعرفُ أن قومنا شردوا مراراً واضطهدوا مراتٍ ومن شعوب مختلفة، فحقدوا على كل امة وتآمروا بكل مجتمع ، وبثوا روح الانتقام في كل تصاريفهم متخذين كل شعب هدفاً ، غير مفرقين بين قبيل وقبيل . وبذلك أخطأوا في عدم تحديد التبعة الذي اكسب نفوسهم صفة الغل السحيق وأفقدهم رغبة التعاون مع الآخرين ، وصفة التبادل المخلص حتّى مع قوم لم يكن منهم إلا الاحسان اليهم ، كهؤلاء العرب الذين احتضنونا بينهم وأحلونا محل أنفسهم واختصونا بأنواع من العطف في هجرتنا الاولى [1] والثانية الى جزيرتهم .

قال ابن سلام : ان ما ذكرته سبب ، ولكنّ وراءه أسباباً أكثر فاعلية فيما أعتقد ، حتّى لقد جعلت روحية اليهود من سوء أثرها البارز في كل دور معضلة اجتماعية ؛ وعناصر هذه الروحية كما أحس :

أ ـ المادية : التي استهوتهم استهواء فظيعاً وحالت معنويتهم الى درجة جعلتهم لا يتورعون عن استخدام أسمى مثالياتهم ومثاليات من يحلون بينهم بسبيل المطامع ، ولا يعوقهم عنها أنها دنيئة أحياناً . فكان لهذا أثر في توليد صفة الجشع والشره والافتراص ، وحين تكون المادية هي مثالية الامة فقد باتت خطراً وشكلت معضلة دائماً .

ب ـ طبيعة التطفل: حقٌ للفرد أن يجني ثمرة جهده،وحق للجماعة أن تجني ثمرات جهودها ، وأما ان يجني المرء ثمرة جهد الآخرين فهذا عدوان منكر . والحياة قائمة على الجهد فمن لا يجهد لا يجني . هذا منطق الطبيعة ، وخفف المصلحون من حدته بالتعاون الذي يحفظ توازن الطبقات ،على شكل ما ترى في تعليم محمد

(١) راجع كتاب : « تاريخ اليهود في جزيرة العرب » للدكتور ولفنستون .

الجديد في نظام الزكاة والصدقات والكفارات. واليهودي من طبيعته انه لا يبذل جهداً يوازي الفائدة، بل يسعى الى أن يستحوذ على أكبر فائدة بأقل مجهود . وهذا لا يأتي الا عن طريق التطفل على جهد الآخرين واستغلالهم . فتولدت بينهم طبقات المرابين والمضاربين وما شاكلهم ، وهؤلاء جميعاً يشكلون في النظر الاجتماعي بيئة طفيلية شديدة الخطر على سلامة أي مجتمع كان .

فاليهود طفيليون يمتصون المجتمع بشتى الطرق والوسائل كالهوامّ التي تطلب حياتها على جسم حي ، ولذّ لهم هذا الطريق الهين فألفوه وافتنّوا في أشكاله مستفيدين من الوسائل الخاصة بكل عصر .

ج — الفوضوية : عرف اليهود أن وسائلهم للامتصاص لا بد أن تنكشف ما دام المجتمع في حالة من الهدوء ، فأخذوا أنفسهم بايجاد أسباب الاضطراب والفوضى ، تارة باختراع مذاهب دينيّة ومحافل سرية ، وآونة ببث مبادىء اجتماعية حديثة ، وأخرى بتزيين الحروب . وثبتت هذه الفوضوية فيهم طبيعة حتى غدوا مادة الفوضى والثورات في كل مجتمع .

من هذه العناصر تألفت الروحية اليهودية .

واليهودي قد يصلح اذا ارتد الى الارض، وفارق صفة التجواب التي تجعله لا يخلص لأمة مهما عاش بينها، واستّرد مثاليته الضائعة. ألست تلاحظ معي ان « بني قُريظة » المزارعين أكثر ميلاً للتعاون مع محمد ودولته الجديدة من «بني قينقاع» المرابين ؟

قال مخيريق : بلى نعم ما تلاحظ .. ومضى ابن سلام في حديثه : ولست أتردد البتة في أن هذه الروحية البغيضة هي التي تحول بين اليهود ومحمد الذي حارب هذا الخليط المنكر في روحيتهم .

قال مخيريق : ألا تجيبني الى أمر قد يحقق فكرة انقاذ الشعب اليهودي التائه ، وانتشاله من أوحال المادية الصارمة التي لا تلبث أن تقضي عليه وتحطمه ؟ فأنت

حَبْر اليهود ولك محلّك ومقامك ولي منزلي ومكاني . فتنضم وأنضم الى حزب محمد ، فنضعضع من قوة موقفهم السلبي تجاه الحركة التحريرية المنقذة . ولا بد أن نترك بينهم أثراً يكفل لنا عدداً إن لم يكن اكبر عدد ، خصوصاً ونفسية الجماعة سريعة التردد سريعة الاستسلام .

قال ابن سلام: هذا ما فكرت فيه،وعقدت العزم عليه،وكأن القدر ساقك لتشجيعي ..

وعلى ذلك افترقا ... فمضى مخيريق في الطريق المؤدي الى المسجد ، مركز الدعوة والدولة .. وتمهّل ابن سلام حتى يجعل لدخوله صدى أوسع انتشاراً وأشد وقعاً . ولكنه ظل شاخصاً في إكبار لتصميم مخيريق الذي هو دليل النفس الكبيرة ، وفي اعجاب بمنطقه الدقيق الذي هو دليل الفكر النابغ ..

*

الاسلام عقيدة وعمل وحياة ونظام ...

وله في الأفراد والجماعات تفاعلات على أنحاء أربعة ...

تتفاعل العقيدة فيه مع الاوهام العالقة بالفكر : فيغدو فكراً جديداً بمنطق جديد ...

ويتفاعل العمل فيه مع الجهد المبدّد ، فيغدو جهداً منتجاً ...

وتتفاعل الحياة فيه مع الحياة المغللة الكاسفة ، فتغدو طلقة شامخة ...

ويتفاعل النظام فيه مع النظام المحموم ، فيغدو انسانياً صحيحاً ...

*

والاسلام بعد ذلك فكرة وإعداد ،

وبينهما تتولد على الدوام الامة والدولة والمجتمع ...

يوم القِران

مضى ، بين يوم المدينة وهذا الليل الذي استيقظ فيه النبي على ذكرى ناعمة كرَجْع الحنين ومُنعشة كلمسة الحب وشائقة كوَقع الأمل ، أيام إن شئت تحسُبُها بأسابيع (١) فذاك وإن شئت تحسبها بأشهر فقد تصيب .

انجرد النبي من الليل ويده تمسح النوم عن جفونه التي أخذها رقاد هنيء رافهٌ بأحلام الغد ، وكانت نفسه تجيش بذكرى محببة اليه قريبة منه حتى لكأنها ترجع الى أمس النهار الذي لم يفصل عنه يوم وغد .

وهي ذكرى ما كانت تمر في خاطره إلا وتجيش بها نفسه ويشملها اطمئنان ورضى ، على أنها لم تكن تعبر مجازها في خياله الا وتترك على مقلتيه دمعة متبخرة وأخرى تذوب في خفقة رقيقة وزفرة غير طويلة . ذكرى يحركها عنده طيف ابي طالب الذي كان يتراءى له ويلمّ به احياناً ، وغدا بعد يوم المدينة كثيراً ما يراوحه . وكان الطيف يبدو بعد هذا اليوم مزدهياً تلفّه من نواحيه نشوات ، ومتلفّعاً باشراقةٍ تشيع عليه من أقطاره ، وهي تعبر عن زهو المكافح الميت بمجد المكافح الحي .

---

(١) سكتت الروايات عن تقدير المدة بين وقعة بدر واقتران علي بفاطمة .

كانت تمر عليه في طيف ابي طالب صور متحركة سريعة . تتصل بغار حراء ومكة ودار الإعداد والدعوة « بيت الارقم » فيحس بالحنين العميق .

وتمر به صور الاوثان المنضدة التي تحداها في سخرية وهاجمها في تحطيم . فيحرّق الأرّم .

وتمر به صور ما لاقى من عنَتٍ إجماعي وهو ماضٍ في كفاحه لا يحفل ولا ينثني ولا يتردد ، معتقداً الظفر رغم الجموع . والنجاح رغم تأشّب الباطل وسَورته . وكذلك المصلح الحق ينقطع الفكر بينه وبين العقبات . ليقول كلمته ويسمع صداها ، ودائماً يكون مزلزلاً مرعداً .

ويبدو ابو طالب من ورائه يدفع عنه ويشد ازره ويحمي حماه : فيشمله رضى بأنه أدى رسالته وشهد نجاحها في الخلق والانشاء .

وتمر به خديجة في هالة الحب الزوجي الاقدس ، وفي صورة من مقام المرأة وأثرها في حركات البعث والانقلاب ، فيعروه حزن صامت وتقدير خفيّ واكبار يظهر أثرهما في مركز المرأة من التشريع الخالد ... وتزوي تلك الصور وتثبت هذه الحقيقة :

نجاح الحركات الخلاقة بدعائم ثلاث : رجل المبادىء الذي يعمل بقواه المعنوية والفكرية مجتمعة ، والمرأةِ التي تعمل بروحيتها المشعّة وعواطفها الواعية ، ورجلِ الدفاع الذي يعمل بكل وسائله باخلاص ...

وتنتقل به الذكرى ولا تنقطع ، الى الهجرة ، فيمر به عليّ وتضحيته الرهيبة في التزمّل عنه ، فيرنو في دهشة مُكبِرة .

ويمر به غار أبي ثور وصاحبه الباسل أبو بكر ، والطريقُ المروِّع وهما ينهبان الأرض نهباً ، فيشعر بأسى وينكمش على خاطرٍ أن يغدو صانع المجد طريد المهد .

ويمر به يثرب وجهوده في تثبيت العقيدة واستثمارها في بناء قواعد الدولة الجديدة ، فيثغر في ابتسامة عريضة هادئة .

ويمر به سلسلة المعارك التي كان أهمها بدر ، ويرى الجمعين وقد تصافا للقتال . ويرى أبطاله على درجاتهم ، ويرى علياً صاعقته المدّخرة تنقضّ في كل مجال . ويشهد النهاية الظافرة ، فيهزّه في مظهره الوقور سرور بعيد الغور .. وتروي تلك الصور أيضاً وتثبت هذه الحقيقة :

إن أبا طالب كان أسد محمد ورسالته في دور التأسيس ، ولم ينفض يده من الحياة إلا بعد أن قدم ،في فتاه عليّ ،أسد محمد ورسالته في دور التشييد والاعلاء..

قام النبي وقد عزم على أمر أرضى به ضميره وحبه معاً . وخرج وهو يشعر أنه أدى حقاً . ومرت به فاطمة وهي تخطر لبعض شأنها ، فقبلها قبلة اجتمع فيها شعور جديد أحست معناه غامضاً مبهماً ، ولكنه استبنت فيها شيئاً لم تدرِ كنهه إلا أنه مبهج على أي حال .

لم ينفصل النبي عن حجراته بعيداً حين أقبلت أسماء بنت عُمَيْس على فاطمة تزورها ؛ فأنست اليها كما لو كانت تنتظر لقاءها بلهفة وصبر نافد .. والمرأة تتكشّف الى المرأة بحقيقتها العارية ، وتظهر المرأة الى المرأة بكل ذاتيتها ، وليست تعطي الرجل إلا نصف معناها ويبقى النصف الآخر مجهولاً غامضاً ويذهب في غموضه أبداً . فنحن نفهم المرأة نصف فهم لأنها لا تتكشف لنا الا نصف انكشاف ولا يخرجها من صدَفتها للعراء إلا الحب ، والمرأة اذا تفتحت أنوثتها ونضجت ، حنت حنينا مبهماً فانها تجد نصف معناها في الرجل والنصف الآخر في الولد ، وهي تريد أن تحل لغزها فيأخذها هذا الحنين .

أقبلت أسماء إقبال من فهمت شيئاً وتريد المزيد،وقالت لها:مررت بالنبي وهو في بهجة ضاحكة زادت شعاعاً على ما كنا نعهده بعد يوم المدينة وإن كانت لا تفارقه ، حتى لقد خيّل اليّ أنه عزم على أمر فشاع سروره على محياه البهي . ولا يبعد بي ظني أنك وقفت عليه ، فقد أعلم أنه يَستروِح فيك رَوح النبوة وما هو بغريب ، فانك ولدت له بعد مبعثه وقد استحالت النبوة في معناه وغدت له ذاتية ، فأنت ذكرى من ذكريات الوحي الأولى .

استوت فاطمة وقد تألقت في عينيها إشراقة من حلاوة هذه الملاحظة ، فقد كانت تعزو ما يلقاها به النبي من احتفاء واحتفال إلى محض الحنان الأبوي . وألقت في ابتسامة مفترّة : إذن فأنا شيء منه كالوحي أو كالنبوة ، وطيف سماوي في خيال أبي عندك يا أسماء .

قالت أسماء : وأنا وايم الله ما جلست اليك إلا شعرت بروحانيه هذا الطيف المتألق وجماله ، وشملتني سكينة لا أحدّدها إلا بما تترك في نفسي من اطمئنان لاذٍ رغيب . ولا تحسبيني من هذا الشعور كما قيل « تخيّل ثم خالا » بل هو واقعٌ نفسيّ كالري على الظمأ أو كالأمل الندي .

قالت فاطمة : يسرني أنك تحبينني هذا الحب ، ولكن ما وجه الأمر الذي عزم عليه أبي على ما انتهى اليه حَدْسُك؟ فقد طاف بنفسي شيء كالذي طاف بنفسك ، وإنه عراني إحساس غامض حين قبّلني أبي في هذا الصباح قبلة جديدة المعنى . وبث في قبلته إلى جانب الحنان الذي عودنيه شعورَ من يخشى فراقي ، وكان في بهجته المشرقة نفسها التي لم تزايله حين مررت به .

وكانت حجرات النبي تشرف على المسجد فرأتا شبحاً لم تتبيّناه جيداً ، يدخل مسرعاً ويخرج سريعاً ، فاشرأبت أسماء تنظر وأطلت من قريب ، وعلمت أنه أبو بكر عرض عليه شيئاً فلم ينبسط اليه . ولم يغادر بعيداً ويتوارى حتى جاء عمر فسارّه بشيء لم تتبينه أسماء أيضاً ، فلم ينبسط اليه وظهرت عليه حركة إعراض غير خافية . وما جاوز المسجد حتى أقبل عليّ فتلقاه ببهجته التي لحظتها عليه ساعة أبصرته أول النهار ، فسارّه طويلاً والنبي ينبسط اليه ويحتفل به ، فقام وعلى ثغره ابتسامة عريضة لم يجتهد في إخفائها وإنما تركها تنطلق إلى منتهاها .

فانقلبت إلى فاطمة تقص عليها ما رأت ، ومر بخاطرها ، وقد ضمت قدميها للجلوس : شيء اطمأنت اليه في تفسير ما شهدت وغمغمت : لعل... لعله أن يكون.

وعرض لها ما ثبّت هذا الخاطر عليها ، فقالت بينها وبين نفسها : لذلك ... لذلك لم يكاشفها بالأمر الذي عزم عليه .

ورأت أسماء أنها أحرجت حينما قالت لها فاطمة : لعلك وقفت من الأمر على جليته أو على ما يتصل به . فأدارت الحديث بلباقة الى وجه آخر البسته شكل المفاجأة لتكسب اهتمامها بما تريد أن تصرفها اليه .

فقالت : نسيت شيئاً كنت أريد أن أخبرك به وقد ذكرته الآن . فبدا الاهتمام على وجه فاطمة وأصغت في كثير من التلهف والشوق الى هذا النبأ الجديد .. فواصلت تقول :

سمعت الناس في طريقي هذا الصباح يقولون: إن عبدالله بن سلام حَبْر اليهود أعلن إسلامه وكاشف به . وكان نبأ شديد الوقع على اليهود حتى لقد باتوا يخاطب بعضهم بعضاً بكلمات مختلطة امتحاناً لحواسهم التي بدأوا يشكون في سلامتها ، فان ابن سلام رمز ديني من رموز اليهود ، وعجيب أن يميل الى دين أبيك . وتوقع الناس أن يكون لهذا الصدى الذي أحدثه أثر كبير في الاضعاف من سلبية موقفهم إزاء الدعوة الجديدة ، كما تدارك اليهودَ خوف عميق من أن يفضح لأبيك سر الروحية التي يجتهدون في جعلها لغزاً . ولكن رغم ما أحدثه اعتناقه الاسلام من صدى عكسي عنيف ووقع مزلزل ، لن يؤثر في سلبية اليهود إلا أثراً ضئيلاً علله ابن سلام بما في طبيعتهم من « البُهْت » .

كما أن القومية اليهودية وحدها قامت على الدين الموروث والكنيس الرمزي في هذا الشكل حسب، وبعبارة أصح ان القومية اليهودية كنيس فقط ولا شيء وراءهذا التقليد الديني . فهم لا يتمسكون بدينهم رغم الكوارث بحكم صحته ، بل بحكم أنه قاعدة قومية تكفل وحدتهم ، فاليهودي لا يرفض مبدأ لأنه فاسد أو ليس بصحيح بل لأنه لا يتفق ومثله القومي الذي يجب أن يقبله بدون مناقشة . وهو قد يعتقد عدم صلاحيته كطب للروحية البشرية ولكنه يقبله على أي حال ، لأنـــه الضمانة الأكيدة لسلامة الوحدة اليهودية . فاليهودي لا يُعمل عقله في مُثُله بل لا يجب أن يعمل عقله ، ما دامت هذه المثل تحفظ عليه وحدته العامة التي تتصل ببقائه ، فلو فرض واتسع اليهود كمجموع بشري يعيش على شتى الأمم لاتباع أي المبادىء التي تروق لهم لذابوا وغمرتهم اللجة . فمعتقدهم الديني الموروث حفظ

وحدتهم وبقاءهم أمة وكقبيلاً من البشر يمتاز بخصائصه ، وحفظ اتصال تاريخهم ، وبذلك كان لهم عنصراً أولياً كالارض بالنسبة الى غيرهم من ذوي القوميات الخطيرة في الزمن .

قالت أسماء : بهذا يعلل ابن سلام سلبية اليهود الصلبية وليس إزاء الاسلام خاصة بل إزاء كل المبادىء وكل الاديان ، حذراً من تفسخ وحدتهم وتبعثرهم في الأمم .. قد يُرى يهودي يروّج لمبدأ وآخر يروج لمبدأ ثان ولكنهما لم يؤمنا البتة بما يروجان له ،وانما يفعلان ذلك بما في طبيعتهم من عنصر الفوضوية ومحبة إشاعتها في كل مجتمع ، ليتسنى لهم العمل والنجاح .

وبينا هي في حديثها دخل النبي فهبت اليه فاطمة وتبعتها أسماء ووجدت إذ ذاك فرصة مكنتها من إذنها ، فانطلقت قُدُماً وراء خاطر سنح لها عند الخروج ، بأن أنساً خادم النبي الذي لا يكاد يفارقه عنده من خبر المسجد هذا الصباح شيء كثير . فقصدت اليه ، وكانت أمه إحدى صويحباتها ، وما ظهرت في الباب حتى استقبلتها أم أنس بالخبر كبشرى فذة ، وكان فيما روت لها عن ابنها :

« أن أبا بكر أقبل الى النبي فقعد بين يديه ، فقال : يا رسول الله قد علمت مناصحتي وَقِدَمي في الاسلام وأني .. وأني ..

قال : وما ذاك ؟

قال : تزوجني فاطمة ، فسكت عنه .. فرجع أبو بكر الى عمر ،وهو يقول : هلكت .

قال عمر : وما ذاك ؟

قال : خطبت فاطمة الى النبي فأعرض عني .

قال : مكانك حتى آتيه فأطلب مثل الذي طلبت .

فأتى عمر النبي فقعد بين يديه ، فقال : يا رسول الله قد علمت مناصحتي وقدمي في الاسلام وأني .. وأني ..

قال : وما ذاك ؟

قال : تزوجني فاطمة ، فسكت عنه ...

فرجع الى أبي بكر ، فقال : إنه ينتظر أمر الله بها .. قم بنا الى عليّ نسحثه أن يطلب مثل الذي طلبنا .

فأتياه وهو يعالج فَسِيلاً له ، فقالا : إنا جئناك من عند ابن عمك بخطبة .. فقام يجرّ رداءه حتّى أتى النبي فقعد بين يديه .

فقال : يا رسول الله قد علمت مناصحتّي وقدمي في الاسلام وأني .. وأني ..

قال : وما ذاك ؟

قال : تزوجني فاطمة ... فأشرق وجه النبي ، وقال : فما عندك ؟

قال : فرسي وبزتي .

قال : أما فرسك فلا بدّ لك منها ، وأما بزتك فبعها .

فغادر وباعها بأربعمائة وثمانين وجاء بها حتّى وضعها في حجر النبي ، فقبض منها قبضة .

فقال : أي بلال . ابغنا بها طيباً [1] » .

شاع الخبر في المدينة سريعاً كما يشيع الاريج العابق في كل مكان مع النسم الندي ، فكانت أسماء لا تمر بمحلة من دور الانصار الا وترى المرأة تميل الى المرأة وتقول لها في بشر ظاهر :

أما بلغك النبأ ؟ علي خطب فاطمة ، وبارك النبي العقد . وإنه لنعم الحدث . ليس لهذه السيدة المصطفاة الا هذا السيد المصطفى . هي ربيبة الوحي والرسالة ، وهو ربيب الوحي وبطل الرسالة .

---

(١) راجع كتاب الرياض النضرة للمحب الطبري ج٢ ص ١٨٠ إلى ١٨٤

وفي استدارتها صوب منزلها سمعت رجلاً يسمر الى آخر في ناحية من الحي ويقول :

إن النبي لم يزوج علياً ، وانما كرّم البطولة الخالدة المظفرة في شخص البطل الخالد المظفر ، وان من حق البطولة تكريمها ، وما فات النبي أن يكرم البطولة بأعز ما عنده وأقرب ما هو الى قلبه ، فان فاطمة قلب النبي مصوراً في إنسان أملاكي أو ملاك إنساني . وليس في هذاالقران معناه بل معنى التكريم، فان محمد في حقيقته رسالة ودعوة وهو المبتدأ ، وان علياً في حقيقته إيمان وإجابة وهو الخبر ، ولا شك في أن فاطمة رابطة الاسناد .

وما فات أسماء أن تسمع ما ردّ به الآخر وكان من المهاجرين الاولين ، كما تقول . وأيضاً لقد كرم النبي بهذا القران بطولة أخرى هانئة في أبديتها المشرقة الواعية ، إنه كرّم أبا طالب النصير البر والمجاهد الأول .

قال الانصاري : فهذا القران إذاً تكريم مزدوج ضاعف معناه ، وأخلد بهذا اليوم يوم تكريم البطولات ، إنه ليستخفّني بمعناه الكبير .. رنت أسماء في الظلام وأحدّت بصرها كمن رأى شبحاً، فاذا شخص يقبل عليهما وإذ تبيّناه هتفا جميعاً : أهلاً بك سلمان .

وكان سمع بعض الحديث ، ووقف منذ حين على الخبر ، فقال :

إنه جدير أن يستخفك يا هذا ، إنه تكريم لأكبر مما كنا نصنع نحن الفرس في جاهليتنا : من إقامة تمثال جامد تخليداً للبطل . فان محمداً منح تمثالاً حياً أسمى تخليداً للبطولة الحق ؛ فكل ما في عمل الفرس وغيرهم أنه تخليد بمقدار ما في الحجر من القوة على البقاء ولكن الفناء في طبيعته . وهذا تخليد بمقدار ما في الروح من القوة على البقاء،ولكن الابدية في طبيعتها .. وأغرق ثلاثتهم في تأمل صامت طال عليهم ، وجعل أسماء لا تنتظر وتلج المنزل .

أخذها الليل بنوم هادىء تخللته أحلام بهيجة استيقظت منه على لذّتها ،

فخفّت الى حجرات النبي بقدم شاعرة تحت قصد غير شاعر ، وكانت فاطمة تتحيّنها أيضاً وتنتظر منها شيئاً . فان أباها الليلة أخذ بها في أحاديث شتّى كما تشاء الابوة ، ولكنها لم تفصح لها عن شيء يضع حداً لتساؤلها ، بيد أنّها تريد أن تعلم ، ومن لها غير اسماء ؟

بدرتها فاطمة : لعلك أتيتني اليوم بخبر إسلام كعب الاشراف وفلان وفلان .. فابتسمت أسماء وأدركت انها تريد أن تعلم علم ما كان بالامس .

فقالت : كأنه لا يهمك كثيراً إسلام هؤلاء ...

قالت : بلى يهمني ولكني لحظت بالامس أنك حدّثت عن حديث بحديث .

قالت اسماء : كان الامر يتعلق بابن عمك علي ... وأفاضت في اطرائه مثل معجبة اتصل بها اعجاب وحب .

قالت فاطمة : وقد شعرت أنها تحيد أيضاً .. وما أنا من هذا الآن ؟

قالت أسماء : أوَلستِ تحبينه وتعجبين به ؟ وليس من أحد اليوم الا وهو يحبه ويعجب به ، ثم لا يمل الحديث عنه ؟

قالت فاطمة : بلى ، إني لأحبه بحب أبي له وأعجب .. فقاطعتها أسماء : وانك سوف تحبينه بحب قلبك وحب أيناثك أيضاً ..

جمدت فاطمة ساعة ، وصبغها لون قد يكون أزهر وقد يكون ناطقاً . ثم قالت بعد لأي : حسبكِ لقد فهمتِ الآن ، فهمت كل شيء . انه يحبه ويحبه الى حد كبير ولكن .. وضغطت على كلامها وأخذتها إطراقة مفكرة لم تحاولها أسماء صرفاً عنها ، ورأت حسناً أن تنصرف وتتركها الى خواطرها وأفكارها .

بعد أيام من حوارهما أدناها النبي اليه ، وأعلمها في أحاديث بين الحنان والاشفاق .. فمرت فاطمة في سُبات واجم ، وكان طويلاً غالبت فيه عواطفها مغالبة شاقة ، وقالت في جهد من مشاعرها :

« يا رسول الله ! زوجتني برجل فقير لا شيء له .

فقال النبي : أما ترضين يا فاطمة ، ان الله اختار من أهل الارض رجلين جعل أحدهما أباك ، والآخر بعلك [1] . »

وكان لكلمة النبي في أذن فاطمة معنى كما تحمل الالفاظ ، وفي قلبها معنى آخر هذه الفاظه : إن الغنى ليس شيئاً في المال وهو اصطلاح زائف اخترعه مكر الشهوات في عقل المدنية المدخول ، وانما الغنى شيء في المعنى الانساني الذي هو ناموس خالد يدور عليه التفاضل في ظل الوجود . فالزهرة تكون أبهى وأحب وأغنى بما فيها من المعنى الزهري الذي هو الجمال والعبير وليس بما يعلق عليها وهو خارج عن معناها . والضوء يكون أغنى بما فيه من المعنى الضوئي كذلك . والاسد يكون أغنى بما فيه من المعنى الاسدي ، وهكذا كل شيء يكون غناه على مقدار ما فيه من معناه ... فالغنى ذاتية مطلقة ثابتة ، والمال نسبية مضمحلة ولا تكون شيئاً اذا لم تكن الشهوات كل شيء ، ولا تجد قيمتها إلا في مدى مَسافّ الغرائز ومساقطها .

والمرأة تستكمل معناها بانسانية الرجل دون بهيميته وما يزين هذه البهيمية ويكملها ، كما يستكمل الرجل معناه بانسانية المرأة دون بهيميتها وما يكملها . والمال مكمل للبهيمية الطائشة ، وليس شيئاً وراءها أو بعيداً عنها . ولن تشعر المرأة بذاتيتها وتعتدّ بكبرياء معناها اذا كان المال شارياً والرجولة من ورائه كسيفة خائبة وبائرة متوارية ، وانما يأخذها احساس عميق بأنه لم يُضمّ به معنى إلى معنى بل حيوانية مبذولة وجدت ضعفها الى حيوانية باذلة وجدت قوتها . فتذهب تلك ذاوية ويأخذها تلاشٍ سريع ، وتذهب هذه منتفخة ويأخذها جبروت سريع ، وينتهي المال وقد عمل عمله بأنه الصق عبداً برب ، ولم يضم انسانية الى انسانية تجدان وحدتهما ، بل تباين على مثل الطير في مخلب الطير تكون الدعابة منه نَهْسَةً يشعره فيها بهوانه، وانه في مكان النهاية من فمه . وتكون نهاية زواج المال استرقاقاً أو افتراساً في شعور القلب ، وتكون في شعور المجتمع اختلالاً في توازن

---

(١) راجع كتاب الرياض النضرة للمحب الطبري ج٢ ص ١٨٢ .

الاسرة يصيبها بالفساد ويتجاوز بأثره الى توازن الجماعة فتختلّ وتضطرب . وفي كلمتي :زواج وقران رائحة هذا المعنى ، بيد أن الاولى قُصد فيها الى الروح وأحاسيسها ،والثانية قُصد فيها الى الواقع الاجتماعي وارتساماته . فزواج المال ليس فيه معناه ،وانما فيه معنى العقد الذي هو احتيال بقانون .

والانثى اذا لم تُنر فضاء الرجل النفسي فما تزيد عن انها جسد فقط . والرجل اذا لم ينر فضاء المرأة النفسي فما يزيد عن انه جسد فقط ، والزواج في حسّ الروح فضيلة تكمل فضيلة ، ونور يمده نور .

وكان معنى اختيار عليّ الى جنب النبي جمعَ كلّ الانسانية فيه.وجاء معه علامة على أن الانسانية بكل ما ثبت فيها لن تنحرف عن النبوة الجديدة بكل ما ثبت فيها . فكانت فاطمة منهما بين مصدر اشراق النور ومجلى انعكاسه، وموجات الشعاع تمور متألقة في جو نفسها المتسامية ابداً .

ومرّ في نجوى قلبها ، ان أبي يقول في تعبير آخر ، ظهرت حقيقة الخلق في عالم الابداع الالهي بمظهرين : مظهر النبي الكامل، ومظهر الانسان الكامل، وحبيب الى نفسي أن يكون حظي هذا الانسان .

« وأمر النبي أن يجهزوا فاطمة فحمل لها سريراً مشرطاً بالشرط ، وقال لعلي : اذا أتتك فلا تحدث شيئاً حتى آتيك ... فجاءت مع أم أيمن حتى قعدت في جانب البيت وعلي في جانب ، وجاء رسول الله فقال :

— ههنا أخي ؟

قالت أم أيمن : أخوك وقد زوجته ابنتك !

قال : نعم ...

ودخل رسول الله البيت ، فدعا بماء،فقال فيه ما شاء الله ان يقول ، ودعا فاطمة فجاءت خرِقَةً من الحياة تعثر في مرْطها ، فنضح عليها وقال لها :

— إني لم آلُ ان انكحك أحبّ أهلي اليّ ، اللهم اني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ...

ورأى رسول الله سواداً وراء الباب ، فقال :

— من هذا ؟

قالت : أسماء .

قال : أسماء بنت عميس ؟

قالت : نعم .

قال : أمع بنت رسول الله جئت كرامةً ؟

قالت : إي وايم الله ... فدعا لي دعاء إنه لأوثق عملي ، ثم خرج فما زال يدعو لهما حتى ضمه منزله »[1] .

*

يظل الزمان حقيقة موهومة ، لولا بعض الاعمال الخالدة التي تؤرخه ...

وتكون هذه الاعمال أكبر من الزمن ، لأن حقيقته بعض هباتها ...

فيوم عليّ وفاطمة ، أكبر من الزمن وأخلد من التاريخ !..

*

أثبتت النبوة معناها الخالد في روحية الانسان على وجه ...

وأثبتت النبوة ذاتيتها الخالدة في دم الانسان على وجه ...

فيوم علي وفاطمة ، بُداءة حياة النبوّة الخالدة في الدماء ! ..

*

كانت النبوّة ستظل ذكرى فقط ...

---

(١) راجع كتاب الرياض النضرة ٢ ص ١٨١ و ١٨٢

ولكن شاء الله أن تكون حياة أيضاً ...

فيوم علي وفاطمة ، إبقاء لحياة النبوة على الدهور ! ..

*

تضع الحقيقة الكبرى خصائص معناها في النواة ، لأنها تريد البقاء ...

والنواة لا تختلف في خصائصها ، الا اذا كان لناموس الوراثة الطبيعي أن يختلف ...

فيوم علي وفاطمة ، يومُ بروز النواة عن مثل خصائصها في شكل آخر ! .

*

تذهب النواة التي هي مخزون الخصائص . تتم دورتها وتعطي أشياءها ...

والنبوة فكرة السماء المصلحة في محيط البشر ...

فيوم علي وفاطمة ، طَبْعٌ لعقلية النبوة في عقل الناس ! ..

*

اجتمعت في عليّ قابليات لا حد لها ...

واجتمعت في فاطمة إشراقات لا حد لها ...

فيوم علي وفاطمة ، يومُ نَظَرِ النبوة الى نفسها في المرآة ! ..

يوم الإيمان الشامخ

جمدت في مآقي الناس دمعة حرّى لم يكن الحزنُ كلَّ معناها كما لم تخلُ من بعض معناه ، فقد اتصلت بكل قلب أسباب حزن مرير ، حين استفاق الناس بعد « أحد [1] » على مشهد البطولة الكليمة الجريحة .

وجراح البطولة لا تقذف في النفوس ضعف الألم بل كبرياءه ، ولا تلقها بذلة التجربة ولكن بتجديدها في عزيمة تضاعفت حقيقتها وتعددت في كل أشياء الحس . فان الألم مع الايمان ظهورٌ لذاتية الوجود بقوتها ، كما يكون الالم مع الجحود ظهوراً لذاتية العدم بتلاشيها .

وإن الالم في غايته تحدٍّ ، وتحدي القوة مبالغة القوة في إظهار طبيعتها ومعناها ، وتحدي الضعف مبالغة الضعف في إظهار طبيعته ومعناه .

وتزأر القوة اذا أصيبت زئير القنبلة اذا انفجرت ، وهي تعبر عن أن في بعض

---

(١) جبل في الحجاز قرب المدينة كانت فيه معركة شهيرة بين النبي وأتباعه وبين المشركين وشنها المشركون كمعركة ثأرية بمعركة بدر الكبرى ووقعت الواقعة في صفوف أتباع النبي لأنهم تركوا المواقع الستراتيجية التي عينها لهم النبي قبل نهاية المعركة وإن ظهرت تباشير الظفر أولا في جانبهم ، كما هو معروف في كتب السير والتاريخ .

الكسر ما هو انطلاق لأعمق القوات الكامنة. وتُرعِد ابِعاد الأسد اذا خانه الموقف، وهو يعبر عن أنه الاسد بطبيعته المخزونة التي شاء الموقف أن يطلقها به. وتلك القوات وهذه الطبيعة لا تنطلقان إلا بكسر أو جرح، وهما تحسان به إحساس المادة الملتهبة بالنار لا تميل بها الى ضمور العدم بل إلى كبرياء الوجود، ثم لا تدفعها إلى استسلام كسيف وصموت طامس بل إلى اعتداد رهيب ورد مُصّمٍ، ويكون الكسر أو الجرح قد أضاف إلى معناها معنى جديداً أو سمح لكل طبائعها بالظهور.

وكذلك يكون شعور القوي بالألم إغراء لقوته على أن تنطلق وتنقضّ مُتَنمِّرَةً ظامئة، كما يكون شعور الضعيف بالألم إغراء لضعفه على أن يبرز ويبدو في أتعس أشكال العبوديات الذليلة [1] مَهَانة وخوراً.

والايمان قوة تصنع البطولات المستهينة، ويوم أحد يومٌ أصيبت البطولة فيه، فكان ابتداء إحساسها بالألم ابتداء شموخها الذاهب في السماء والمتحدّب مع الآفاق.. والدماء الصبيبة لا تلهم الابطال روعة الدم الراهبة بل رجفة الدم النابضة، ولا تمر بهم إلا وقد استحالوا قوى مُرْعِدة منقضة في مسافات أشواطها لا يحول دونها إلا ما قدر له أن لا يكون.

والالم للايمان كالحركة للحياة يُمريان الحرارة فيهما، وكما تذهب الحياة بدون الحركة في ضمور، يحور الايمان بدون الالم في تلاشٍ ويأخذه همود سحيق. والايمان قوة ولكن سرعان ما تتفلّل حرارته في أعماق النفس إذا لم يُركزها الالم ويقربها من عملية الحياة.

وإن حركات التاريخ برمته تقع بين جواذب الالم ودوافعه، بل خُطى النشوء للكل الاجتماعي تنتظم بين هذا الدفع وهذا الجذب، وكانت أكبر الحركات لا تزيد في جوهرها عن أنها إيمان بفكرة وألم في الايمان، وأبداً لا يشتدّ الايمان ويخطو صعداً الا إذا قدح الألم زناده وطاير بالشرر. وفي محيط المادة كما في محيط الروح

---

(١) العبوديات الذليلة هي عبودية الانسان للانسان على اشكالها. وأما العبودية لله التي جاءت بها الأديان فانها تحرير لنفس الانسان من شتى العبوديات وإشعارها بكبرياء الذات.

نفس الناموس ، فان الجسم المادي الضعيف يـلين على الالم بينما الجسم القوي يشتد ويهيج حتى يملأ الفضاء مشيراً إلى قوته وأنه لم يـَهن .

فاذا كان في يوم بدر بعضُ الظفر . ففي يوم أحد كل الظفر لأن الايمان أحس بقوته وأنه شيء ، وبدأ يخطو في ذاتية واعتداد .

اندفع الناس الى الناس « يهنىء بعضهم بعضاً » بأنهم وان خسروا المعركة فقد ربحوا الايمان بالمبادىء وربحوا العقيدة التي ظهرت سلامتها، وأنها رباط تسنّى له أن يجمع قلباً إلى قلب ويمزج نفساً بنفس . وأنه لن يتفلّل على الضغط مهما كان عنفوانه ، ومهما جاء منه .

ظهر أنهم لا تجمعهم جامعة من شهوات الارض بما اكتظت به من أهواء واحتفلت به من مطامع ، وإنما تجمعهم جامعة من رغبات السماء ، ورغبة السماء في تطهير ما على الارض من شهوات وأرجاس تمور موراناً وتسوق الجموع الانسانية بعُنف وقَسْر الى حيث لا تكون إنسانيتها وتخسر معناها .. وكانت معركة أحد تجربة سعيدة لاختبار بناية محمد الجديدة في أعماق النفوس ، فقد ثبتت على العاصفة التي تمزقت رياحها على صخرات الإيمان الشامخ .

ما الشهوات النهمة ؟

ما اللذائذ الدنيا ؟

ما البُلَهْنِية والترف ؟

إنها لا شيء في مذهب رغباتهم الكبيرة ، إنها لا تمر بأفئدتهم التي بلورها السمو بمعناه القدسي ، وحاطها حتى لا تهوي مسفّة وترتطم بالأوحال ، إنها أوحال من سفساف الأرض . فهم ينظرون اليها بتقزّز واستعلاء .

هم فكرة من التطهير وفكرة من الاصلاح والعمران،وصيّرهم الجهاد فكرة من التنظيم، فكانوا معلمين أطلقهم الايمان الجديد ليحلوا في عقل المجتمع المحموم كما يحل الاكسير الذي يحمل في معنى الدواء أبدية النشاط وخلود الحرارة والحركة والحياة .

لم يكن فساد المجتمع بمعنى ذاته وإنما كان بفكرة أهوائه التي نفذت الى محل الضمائر وتمددت ، فوقف الفرد للفرد والجماعة للجماعة في كل مكان ، وقد تملأوا بضَراوة وحشية كالحة وذهب كل حي يكافح التيار ، والمجتمع يطفو ويرسب في فوضى اللجة العاتية النكراء .

لو تأتّى لأتباع محمد الظفر دائماً لتحوّل الايمان،بدون شعور،الى فكرة مادية من الغنائم والاسلاب وتبخّر عليهم معناه ، ولكن شاء الله أن يكون جهادهم جهاد إيمان فقط ، فكان في ظفرهم واخفاقهم ظفر لفكرة الاصلاح التي يحملونها، ذاك في التفوق وحيّزُهُ الواقع ، وهذا في التركيز وحيّزُهُ النفس .

وقد أظهروا أنهم مؤمنون فقط استهوتهم الفكرة وأخذت عليهم أحاسيسهم وتفجرت في خلايا نفوسهم ينابيع ، فهم لا يندفعون بدافع من شهوة الناس في لذة الحياة بل بدافع من تطلّع العقل وشعور القلب في لذة الايمان . وقد أراد النبي أن يلقنهم درساً بالغاً في أن الايمان لا تظهر حقيقته إلا في الألم ، وأن الايمان في مظهر الغضارة الرخيّة إيمان بليد منحلّ أو ليس شيئاً خالداً في شعور النفس .

« اذّن مؤذن رسول الله غداة منصرفه من أحد بالخروج في طلب العدو ، وان لا يخرج الا من حضر معركة الأمس ، وأتباعه مثخنون بالجراح .

قال رجل من بني عبد الأشهل لأخيه : أتفوتنا غزوة مع رسول الله ؟ .. ووالله ما لنا دابة نركبها وما منا الا جريح ثقيل . فخرجنا وكنت أيسر جرحاً منه ، فكان اذا غُلب حملته عُقبة ومشى عُقبة، حتى انتهينا الى ما انتهى اليه المسلمون . وكان النبي قد انتهى الى حمراء الاسد وهي من المدينة على ثمانية أميال ، وأقام بها الاثنين والثلاثاء والاربعاء » [1] .

كان رَجْع الألم في الايمان هبة لا تعرف الونى ولا تتصل بالفتور والاستخذاء، إنها انطلقت أشد مضاء وأكثر اندفاعاً ، فقد أحست القوة باعتداديتها وغمرتها

---

(١) راجع سيرة ابن هشام ج٢ ص٩٠ .

موجة الكبرياء لأنهم تحدوها واستثاروها ؛ والقوة اذا استثيرت تنشر طاقات في اخرى أكبر منها ، حتى تسد الآفاق وتملأ أقطار الفضاء ، كمادة التفحم وفيها مخزون من القوة تعلق بها شرارة وتتصل حتى تؤجج بالشرر .

قالت الانسانية الجديدة بعد التحدي وانتظار الرجع (أنا) وهي شامخة بمعناها . وولت الانسانية العتيقة المتهرئة متساقطة متواردة الى أوكارها ، وهي شامخة بخيال المعنى الضائع والمصادفة العارضة ، كالذي تعثر به قدمه فيهوي الى حفير فيه كنز ، فانه يحس بالارتياح الى ما صادف من الثروة ولكنه لا يحس أبداً بفخار الثروة ، لأنها لا تتصل بذاته اتصال الايجاد ، وانما تتصل بأطماعه اتصال الرغبة بما يثيرها ويحركها .

وكان الفرق بين الشاعر بمعناه والغائض فيه معناه ، كالفرق بين من يسقط في حفير فينسى الألم ويشتد في إحساس أنه لم يزل حياً وسيعيد التجربة ، أو يطمئن في إحساس أنه حي بحياة المبدأ الذي قضى دونه .. وبين من يسقط في حفير فينسى الحياة والقوة ويهون في إحساس جراحاته وكسوره ، أو ييأس في احساس انه مضغة بين فكي العدم الصامت . فأولهما يطرد ضعفاً بقوة ، وثانيهما يضيف ضعفاً الى ضعف ... ومر على مسرح أحُد صورة هذين الرجلين :

« أرسل النبي من يبحث عن سعد بن الربيع ، أفي الأحياء هو ، أم في الأموات ؟ .. فنظر فوجده جريحاً وبه رمق في القتلى .

فقال له : ان رسول الله أمرني أن أنظر أفي الاحياء أنت ام في الاموات .

قال : أنا في الاموات . فأبلغ رسول الله عني السلام ، وقل له ان سعد بن الربيع يقول لك : جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته . وابلغ قومك عني السلام ، وقل لهم : ان سعداً يقول : إلا إنه لا عذر لكم عند الله إنْ خُلِص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف [1] »

---

(١) راجع سيرة ابن هشام ج٢ ص ٨٦ .

كلمات كلها يقين واطمئنان ورضى بهذا المصير وهذه النهاية التي يحس أنها كبيرة خالدة .

« قاتل قُزْمان قتالاً شديداً فقتل وحده ثمانية أو سبعة من المشركين ، وكان ذا بأس فأثبتته الجراحة . فاحتمل الى دار بني ظفر ، فجعل رجال من المسلمين يقولون له :

والله لقد أبليت اليوم يا قزمان فأبشر .

قال : بماذا أبشر ، فوالله إن قاتلت الا عن احساب قومي ... فلما اشتدت عليه جراحته أخذ سهماً من كنانته فقتل به نفسه [1] »

وسدل التاريخ من دونهما ستاره وأعلن هذه الحقيقة : قضى أولهما دون فكرة العقيدة فكان بطلاً وتلفّع بالخلود . وقضى ثانيهما دون فكرة الأحقاد ونزغات الاعصاب فانحل بانحلالها وتلفع بالعدم .

وقف النبي وأصحابه في « حمراء الاسد » وقفة الأسد في وثبته الحمراء ، وتحدى طويلاً ورجع الفضاء دويه الرهيب ، وصمت كل شيء ، وبقي الصدى يعلن غلبة الانسان الجديد ...

لفّت المدينة أيام لم يكن فيها من سواد الأسى أثر كبير ، وهي الى أنها أيام تأبين أقرب منها إلى أنها أيام أحزان ودموع ، على أن من الحزن ما هو بهيج وليد شعور بالاعجاب ، ومن الدمع ما هو ضاحك وليد شعور بالامل .

حين شاع الايمان بمعناه الهيامي في الناس شاعت البطولة بمعناها الرائع في الرجال والنساء جميعاً ، وأعطوا صوراً خالدة تضاف الى أشياء التاريخ الكبيرة . فكان لنا من يوم أُحُد أبطال في شخص الشهداء كحمزة ، وأبطال في شخص

---

(١) راجع سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٨٢

الاحياء كعلي ، وأبطال في شخص النساء كنُسَيبَة المازنية[1] ، حتى الطفولة[2] لم يفتها نصيب من البطولة ...

في ظلال التخيل التي بدت واجمة في إطراقة الحالم ، كان الشاعر يستوحي ويستلهم ، وجرت على خدي حسّان عبرات الاعجاب الذي اتصل بعاطفة ملتاعة محزونة . وكانت نفسه مكتظة بمشاعر شتى اكتظاظ اليوم الغابر بالروائع الخالدة ، ومرت به نسمات أجاشت عليه شاعريته فأطلقها على هينتها في كل مجال .

لقد كان هذا اليوم مادة الملحمة العربية المفقودة ، لو تأتّى لشاعر خالد ان يستلهمه ويبرز ما قد طفا على سطحه من روائع ، ينقلها نقلاً أميناً لا تقل عن روعة واقعها . فان ملحمة تكون مادتها هذا اليوم تظل بدون ريب أداة بعث في كل يوم من أيام العرب والمسلمين، وتتجدد كلما جدد العرب والمسلمون حركات الانبعاث وعَزْمةَ النهوض . وكانت أبرز ما تركت معركة احد هذه الحقائق :

ان نجاح الأعصاب في الكفاح على مقدار نجاح الايمان من السيطرة ، وان قيمة الكفاح على مقدار قيمة الفكرة التي يحتدم من أجل تركيزها، وان الكفاح الظافر لا يكون إلا حيث تكون العقيدة الصليبة ، واذا لم يكن الايمان فلا يزيد الكفاح عن أنه فورة خامدة وحركة محتضرة ، ولا يزيد هذا البعث عن أنه بعث فيه برودة الموت ومغزى الانحلال .

وطلع عليه وهو في لذة انشائه وانشاده الحجاج بن عِلاط السّلَمي ، وكان

---

(١) كان من قصتها أنها خرجت في يوم احد ومعها سقاء تسقي منه الجرحى والريح المسلمين ، فلما هبت عليهم انحازت إلى النبي وباشرت القتال عنه تذب بالسيف وترمي عن القوس حتى حصلت الجراحة لها ، وفيها قال النبي ما التفت يميناً ولا شمالا يوم احد الا ورأيتها تقاتل دوني . راجع السيرة الحلبية ج٢ ص ٢٣٠ .

(٢) قتل سمرة بن جنوب لما رده النبي يوم احد لصغر سنه وأجاز رافع بن خديج ، قال لزوج أمه أجاز النبي رافعاً وانا اصرعه ، فقال النبي : تصارعا فصرعه فأجازه وضمه إلى الجيش . راجع السيرة الحلبية ج٢ ص ٢٢٠ .

شاعراً مفتون الشاعرية ببطولة علي يوم أُحد ، فراح يفتن بألوانها ويتغنى بآياتها . فأوسع له حسان في مجلسه :

وقال : كنت أشتهي لقاءك منذ اليوم ، وأحسب ما يقال من أن في قلوب الاخلاء آذاناً تتصل بكل ما في النفس من رغبات وخلجات ، وتحس بها لحينها ، حقيقياً جداً .

فقال السلمي في دعابة مفترّة : ولا سيما إذا كان الامر بين شاعرين شيطاناهما ألمعيان .

فلم يبد على حسان ما كان ينتظر من أثر الدعابة العارضة ، وانما أخذه اطراق خاشع حتى لقد أحس السلمي أنه لا يشاركه المجلس والحديث .

فقال له : ما بك ؟ أراك كالمأخوذ عن نفسه !

قال حسان : تعاظمني يوم احد بتهاويله حتى لقد ضاقت شاعريتي ببعض ما جمع ، واحسب أن القول فيه إلهام من الالهام وليس شعراً من الشعر . أما بلغك نبأ مخيريق ؟

قال السلمي : أنباء اسلامه الذي فاجأ به منذ حين غير بعيد ؟

قال حسان : كلا . ولكن نبأ استشهاده الرائع الذي جعل نفسي وكل نفس تذهب في الدهشة كل مذهب .

قال السلمي : ماذا تقول ؟!

قال حسان : نعم ! انه استبسل دون العقيدة التي عهدها جديدة في قلبه ، استشهاد من يريد الموت أو الحياة في دنيا الفكر الجديد .

قال السلمي : عجيب أنت يا محمد . وعجيب ايمانك الذي يقتلع رسيس النفس بل النفس من أقطارها ونواحيها حتى لا يحس المرء بشيء وراء معناه .

ونهض الرجلان في استغراق الشاعر حتى أفضيا الى الحي ، وما انتبها الا على

حديث الناس « أن النبي لما انتهى الى أهله ناول سيفه ابنته : فقال : اغسلي عن هذا دمه يا بنية فوالله لقد صَدَقَني اليوم .. وناولها علي بن ابي طالب سيفه ، فقال : وهذا أيضاً فاغسلي عنه دمه فوالله لقد صدق اليوم رسول الله ... فقال النبي : وصدق اليوم القتال سهل بن حُنَيف وأبو دُجانة » .

كانت فاطمة تمر بها هذه الاحداث وهي بمرأى ومسمع ، وفي أحشائها [1] روح جديدة تتآلف أمشاجها ، فكان في جملة عناصرها بل اكبرَ عناصرها ، عنصرُ التضحية الدامية للفكرة والعقيدة .

وقفت فاطمة تزيل أثر الدماء وقد ضمت سيفاً الى سيف أي[2] قوة الى قوة، فان السيف رمز العزم على العمل ، وكان معناه أن سيف العقيدة مصلتٌ في مدى سيف المبادىء ، وأنهما معاً ينجحان جميعاً . فأحدهما سيف المبادىء وفعله في الفكر ، وثانيهما سيف العقيدة وفعله في المجتمع ، وبهما تتكوّن الروحية العامة الظافرة. فكل منهما يكون في حاجة الآخر ، وهما جميعاً في حاجة الأمة اذا أريد خلقها أو بعثها من جديد . فالنبي حينما خلق الأمة جرى على هذا الطريق ، ونحن حينما نريد تجديد الامة نجري على نفس الطريق .

ضمت فاطمة سيفاً الى سيف ، وكان معناه أن حركات الخلق لا تنجح الا بقوة الفكرة وقوة التضحية لها . وكان معنى إصلات النبي سيفه ، أن صاحب الفكرة ينبغي أن يكون أشد المؤمنين بها والمكافحين من أجلها ولو على أمرّ صورة .

فنحن نجلّ محمداً لرسالته الى حد كبير ، ونجل محمداً لكفاحه واستبساله

---

(١) لا يظن أن هذا القول يدخل في حد الخيال الشعري بل هو حقيقة نفسية تثبت على البحث الجديد ، فقد قرر العلماء وراثة الجنين لكل ما يختلف ويتراوح على الأم في دور الحمل من تأثرات ومشاعر وإحساسات .

(٢) إن السيف في كلامنا رمزي بحت يشير إلى القوة ، فسيف النبي رمز لقوة المبادىء وسيف علي رمز لقوة العقيدة . ولا يتوهمن أن كلامنا يدور على السيف الآلة المحددة بل نعني القوة الأدبية . وهذا التنبيه لكي لا يتوهم البسطاء ان الاسلام كانت قاعدته السيف وانا نهيب بالناس إلى نهضة السيف قاعدتها .

وآلامه في سبيلها إجلالاً غير محدود ، فان الذي يعطي فكرة ولا يوقف كل أشياء حسه ونفسه عليها جهاداً وتضحية ، يبلبل فكر الجماعة ثم لا ينقذ المجتمع ، بل يزيد في معنى دائه،فان فكرة الاصلاح لا تكون شيئاً نبيلاً اذا لم يجعلها الكفاح كل شيء .

إن الفكرة قد تشير الى امتياز مُلهمها ، ولكنها لا تشير الى خلوده الا اذا تحمل آلامها . وقد بارك الله آلام محمد الخالد حين أدّى رسالته وحمل ثقل الكفاح والجهاد (ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك ، الذي أنقض ظهرك) .. والوزر في الآية بمعنى الثقل ، وهو ثقل آلام الكفاح بسبيل الرسالة الجديدة .

وكان وضع الثقل عنه اعلاناً بأن انسانية محمد أخذت طريق نجاحها ، وقامت على قاعدتها ، ونفت مرارةُ الدواء ألم الداء المصمت الجهيد ...

بعد حين ، تراءى أحد للنبي من بعيد، فأثار فيه ذكريات عذبة بأشيائها الكبيرة ، وأطيافها اللامعة الرائعة ...

وكانت هذه الذكريات قد استحالت إلى حنين فحبّ ، جعلاه رمزاً من رموز الانبعاث والانقلاب والتجديد في ضمير المؤمنين الشاعرين ...

فقال النبي يكرمه « إن أُحُداً جبل يحبنا ونحبه »، يحبنا لانه رضي عن استبسالنا وثباتنا ، ونحبه لأنه رمز هذا الاستبسال وهذا الثبات ...

وكأن النبي «دَشّن » ، بهذا المقال في أحد ، تمثال الايمان الشامخ ..

*

كان يوم أحد يوم الشهداء ...

والشهيد في سبيل أمة ذكرى حية في ضميرها ، ومادة هامة في كبرياء مجدها ...

فيوم أحد يوم الذكريات الحية الخالدة ، ولذلك أحبه النبي ونحن نحبه ولا ننسى عظته الناطقة في الضمير ! ..

*

استحال يوم أحد إلى ذكرى من الروائع ...

واستحالت الذكرى الى حب وهيام بالامجاد ، ما دام على الارض عرب أو مسلمون ...

وأبرز الغيب بعد ذلك روحاً جديدة، جمعت طائفة هذه المعاني وسمّاها النبي حُسيناً ...

ودار الزمن دورة قصيرة ، وثار الحسين وصوت الحق يدوِّي في صوتـــه المرسَل ...

وانطلق الناس يقول بعضهم لبعض :

تحرك اليوم أُحُد مرة أخرى ، وثار بركان الاصلاح يزلزل بالحمم .. !

يوم الميلاد

تنادت نساء الحي أن فاطمة أجاءها المخاض ، وكن يُلمِمْن بدارهـــا كوكيات كوكبات ، وينتظمن هنا وهناك كما شاء المجلس لهن . ومرت لحظات أخذت عليهن كل ما كان يبدو من حركات شاءها الظرف والبشر ، وشملهن صموت خاشع فيه بادية الحذر ، حتى ليخيل للناظر أنهن دمى مجنّحة تطمح الى شيء في غير مرأى العين .

وكانت أسماء بنت عميس وحدها تُرى غادية رائحة ، ومر بها خاطر أنكرت معه موضعها . فقد تراءى لها أنها في معبد اكتظ بالمجنّحات التي تطل في صورها ملائك في فرحة خاشعة .

وسبحت مع خاطرها وراحت في مقعد الأحلام ، حتى لقد انفصلت فوق حدود الزمان والمكان ، فكان لها عالمها الجديد الذي يغاديها برؤى يقظى على خيوط النور .

حسبت كل شيء واقعاً وحسبت أنها تغدو وتروح في عالم ما ترى . إنها أحست بلذاذاته طافحة حتى لقد غمرتها .

لا يمكن أن يكون هذا حُلماً ، انه لأكبر من الحلم في مذهب الحسّ

البادي .. هكذا تناجت في حديث نفسها حينما أنبهتها زغردات النساء التي بدأت همساتٍ حلوةً ناعمة :

فقد أسلمت فاطمة وليدها ...

ولكن أين ما كنت أرى ؟ . أين هو أو أين أنا ! لست ، لست أدري . أحسبني في معرض العجائب . أحسبني في عرس الاملاك . حقاً ان للانسان عوالم شتى وهو يعيش في أقلها تطرية ، أو يجعلها واقع الزمان والمكان أقل تطريــة وبهجات . هناك في غير واقع الزمان والمكان يحس الانسان بالاشياء مكبرة ويتصل بكليات معانيها لأنه يحس بكل نفسه ، وأما هنا فانه يحس ببعض نفسه على مقدار ما يسمح الواقع الجامد ، ويبقى كل النفس ظامئاً .

لم يكن ما رأيت حلماً ؟؟ إنه خالطني حتى لألمسه . نعم . نعم . لقد أدركت الآن ، والآن فقط ، سر النبوات وسر القداسات وسر الالهام والهيام في الفكر والفن والاشياء .. وان يكن حلماً فليتني أظل حالمة ، ولكن هيهات أن يكون في كل يوم مثل وليد فاطمة أرى على وجهه أو أحلم .. هكذا كانت تقول بينها وبين نفسها قبل أن انطلقت وغابت في الجموع المائجة الفرحة ، وضاع وقع خطاها في الرنين الضاحك ...

كان (جميلاً) كخفقة الضوء ، وبهياً كقطرة الندى وقد تحاضنتها أكمام الزهر حتى لكأنها في جو الأحلام ذابت فيه النشوات واستحالت الى أريج تهدهده أيدي النسيم . وكان لألاء كزنبقة الغور وقد مصت إشراقة الغروب التي خلفت فيها الشمس ذكراها السعيدة الى الليل ، وكان ملء العين والهوى حتى لقد قال إن الجمال اختصر به أو إن سنا الوجود المفرق جمع عليه . وكانت تحوطه الى ذلك هالة مشعة فيها (جلال النبوة) وجمال الطهر البريء ، وكان عابقاً كأن السماء اطلعت على الارض بالاريج .

خرج الحضور عن صموتهم ، وغمرت الاثير موجة بشر ظاهرة خفق لها خفقات كانت مؤذنة بالوليد السعيد ...

برز النبي (ص) وسط الجموع كما تبرز المنارة وسط الضباب ، هادية بشعاعتها المستطيلة في انبثاق وتدفق . وأخذ وليده السني بيدين كانت حركات أناملهما تعبر عن فرط السرور ، وحنا عليه حنو المرضعة يهمس في أذنه كلمة الاسلام الشامخة « الله أكبر ! الله أكبر ! »

وغام على أسماء ، فقد كانت اليوم في حساسية جد نافذة . وشعرت حيال هذا المشهد أن الاحياء بنزغاتهم هم ضباب الحياة ، وكثيراً ما يكون مطبقاً داكناً ، حتى لتبدو الحياة نفسها كرة من الضباب ، تدور في مثل حركة الاعصار هادرة بما فيها من الاهواء . ولكنّ الشمس تطلع من ورائها فتبخر ما استوى فيها وتراكب عليها وعلق بأنحائها ، وتمدها بمعنى الضياء فتغدو مزدهية متألقة . ويخشع الانسان عندها في محراب الله الأزلي . إنه خرج من التيه ، ونفض غبار البيداء واستعلى على السراب .

أفٍّ .. للذين يظنون ان الحياة ضباب منتشر في آفاق هذا الوجود ، والانسان يطفو ويرسب مغمض العينين .. إن وجودهم لم تشرق عليه هذه الشمس التي تغمرنا بشعاعها ، إن صورة الحياة في خيال الأعمى ملأى بالظلام ، وفي خيال الأعشى مليئة بالرماد أو الضباب ، ولكن هل الحياة كما تنعكس في مرائيهم المتحجبة ؟ إن شمس النبوة وفيها المعنى الاتم المشرق للانسانية والحياة لم تسطع في سماوة فضائهم .

هنا وفي هذا المكان ، أجد حقيقة الحياة العارية تحت ينبوع النبوة وشعاعتها الخالدة .. هنا وفي هذا المكان ، حيث يبارك النبي إنسانية جديدة ويتفرع منه رافدٌ نمير وثمدٌ فوّار في صُلب الانسانية الحية ، في دمائها المنصبة إلى بحيرة المستقبل البعيد القرار ، يجد الظماء ما يبرد حرارة عقولهم وقلوبهم ، يجدون الينبوع الذي حجبهم عنه سراب الفكر المدخول ...

قال قائل في الظلام — والناس يخرج أحدهم في إثر الآخر — إيه أبا رافع .. وربت على كتفه : أرأيت أعجب من اليوم ، النبي يسرّ في أذن الوليد وكأنه يقول شيئاً ! ..

قال أبو رافع : نعم . إنه « أذن في أذنه كما يؤذّن للصلاة ».

قال الرجل : ولكن أترى أن له نفساً مدركة تعي ما يقال لها وما تخاطب به ؟

قال أبو رافع : نعم . وماذا تظن أنت ؟ لعلك انصرفت بظنك إلى أن نفس الوليد خلاء من القوى ، إن كان ذاك فبُعد ما تظن . إنها واعية كأتم ما تكون نفس من الوعي ، ولكنها غائمة بما في التركيب العضوي-من الوهن وضعف الحساسية .

والنبي توجه الى هذا الوعي وهو في أكمامه ليضع فيه شيئاً خالداً . ليضع فيه كلمة الله فلا يحول عنها ولا يزول مهما اضطربت عليه بواعث الشباب واضطرمت فيه نزواته ، لأنها سوف تأسره بحنين الصوت البعيد .

إنه وضع ، في آخر مرحلة التخلّق وأول مرحلة التفتح والازدهار ، عبَق المُثُل الآلهية . عبق الحقيقة المطلقة . الذي ينفح ولا ينقطع . الذي يفيض ولا يغيض .. تمر به الأهوية الهادرة الهابّة فلا تغيّر فيه وإنما يغير فيها . بما يحمّلها من أريجه الفوّاح ، فتغدو وقد فقدت ما تنذر به بما تبشر ، إنها حملت روح الزهرة في الحقل ...

إن النبي لنا اليوم زهرة الحقل ، وهو يمد يده في أحشاء الزمن بزهرة حقل المستقبل ، فعسى أن يتركها الانسان تضمّخ فضاء الغور في عين الشروق والغروب . ولا تلتف عليها أفعى الشهوات فتقضمها . إني لحذر . اني ... تلعثم ووضع يده على قلبه مخافة السقوط وأغمض عينيه في خيال رهيب .

وكان أبو رافع مولى للنبي . فلم يطق ما مر بخياله وتحامل على صاحبه مدة . ظل فيها صامتاً صموت الليل الذي تزيد في رهبته أصوات متقطعة للذئاب .

وشمل الرجلَ تيّار أبي رافع فاستغرق في وجوم . وسارا يقطعان الليل في خطوات تعبر عن أنها ذاهلة لا تقصد الى شيء ولا تتصل بما تنتهي اليه . وما استفاقا إلا على صوت الانسان في الغَلَس ينادي بكلمة الله الارواح الشاردة

الهائمة . واختلط الصوت بسكون الليل فعبر عن انه قال كلمته ، واستحال الى صدى فيه شرود السكون .

خفّ الناس من كل مكان وفي أعينهم بقايا الحُلم السادر ، متوافدين مع النداء الى حيث يمتزجون بالمجهول ، الى حيث يصححون ضمائرهم في عمل الحياة ، الى حيث يجددون عقودهم مع الله على الخير والحب والمُثُل ، بجعلها مبدأ عمل وواقع حياة .. مدّ الرجلُ خُطاه وهبّ يطلب ما يطلب سائر الناس .

فقال أبو رافع : على رِسْلك يا هذا . إننا لم نزل في صلاة مذ خطونا !

قال الرجل : والآن نصلُ صلاة بصلاة [1] .

قال ابو رافع : نعم . ولكن رُوَيدك ، فان النبي رأى جماعة تتراكض الى الصلاة ، فقال « ليأت أحدكم الصلاة هَوْناً » . وهو يشير بهذا الى أن الصلاة لا تكون واعية الا اذا تلبّست فكر فاعلها ونفسه ، فهي ليست عملاً خالصاً بل فكرٌ في العمل وبذلك يكون لها عمل في الفكر ؛ والاعجال يضيع على الفكر اطراده وانسجامه . والنبي يريدنا أن نبدأها صلاة بالفكر صلاة بالروح ، وإلا فهي صلاة شاردة غير واعية ، لروح أكثر امعاناً في الشرود .

---

(١) لا ريب في ان الصلاة عقد « كونترا » بين الله والانسان . واذا تأملنا الفاتحة نجد فيها شروط عقد متبادل . وعلى ضوء هذه الملاحظة ينكشف لنا سر تكرار الصلاة اليومية على الشكل المعروف في الاسلام وجعلها ليلية ونهارية . وهذا السر هو تجديد العقد وتوكيده حتى لا تضعف فعاليته وحتى لا تمر بالمرء ساعات فتور واسترخاء يخل فيها باحكام العقد فيظل بذلك دائماً طرفاً في عقد جديد . وكما هو معروف على البحث أن الضمير والوجدان والعقائد تتولد من التكرار والتلقين ، والصلاة صيغة تلقين وعملية تكرار معاً . هذا فهمنا الصلاة في الاسلام من ناحية عملية . وأما هي من ناحية فل غية فانها أصح طريقة واسلوب ، واصح شكل وصيغة لما يسميه (ساندرسون) أحد علماء النفس التطبيقي معبد الرؤيا ، هذا المعبد الذي يتأمل فيه المرء منفرداً ويخشع مستغرقاً متفكراً ، وهو يرى أنه لا صلاح الفرد وبالتالي الجماعة الا بمعبد الرؤيا ، او ساعة التأمل اليومية وقد ضمنها الاسلام على شكل مدهش من التكرار في صخب النهار وفي هدوء الليل ، وكأن الاسلام بصلاة النهار ينتزع الانسان انتزاعاً ليغرقه في التأمل والاشراق ولو لحظات .

قال الرجل : ان حديثك ملك عليّ نفسي منذ الليل ؛ ولقد مازجتني حسرة حين قطع الوجوم عليك الحديث ...

قال ابو رافع : لعل صلة الحديث الذي انقطع بيننا ، تجر الشجون الى استدراكها يوماً من اليوم .

قال الرجل : ولكني أجد في نفسي أسْر الحديث ومدّ الداعية اليه ، ولعل نفسي لا تجتمع كما اجتمعت عليّ الليلة من أقطارها . وأجدني أشدّ ما أكون انصرافاً الى مغزى الأذان في أذن الوليد ومغزى الاذان الذاهب كل يوم مرات فوق ضجيج الحياة وصخبها . الاذان القارع في دنيا الاباطيل .

قال أبو رافع : انني لم أزل أخشع تحت ذكرى الرنات الهامسة التي أرسلها النبي في أذن وليده . لتكون كلمة الله أول شيء يتمدد في فضاء تلك الروح ، وأولَ شيء تتموج به وتشتمل عليه . وبذلك يبقى فضاؤها خلياً من الضباب . فلا تمر به حلكة قاتمة ولا تجثم فيه ظلامية أو دُجنّة . فيتكوّر فضاءُ الروح تكوّر الفلك على الشمس .

والأذان الذي يُقصد به الى الروح لا تكون فيه ألفاظ الاذان بل روحانيته . لانها تسمو ، بمحلها ومستواها ، عن الالفاظ ومذاهبها في التعبير . هذه الالفاظ التي تؤلف كائناً آلياً لا حس فيه ، واستأتى به الانسان الى إكمال آلية الحياة وحركاتها الرتيبة . ولذا ظل كائننا الداخلي المجهول أكثر انفعالاً بالمعاني المطلقة عن الاداء ، كالالحان التي هي في حقيقتها معان لم تستحجر . فتتجه الى احساس الروح قُدُماً فتتموج بها سريعاً ، بينما الاداء الآلي « الالفاظ » يمر في الفكر وما وراءه من معابر ، حتى يتجرّد[1] ويستحيل معنى مطلقاً في احساس الروح .

---

(١) توحد الفاظ في اللغة لم تستحجر بما اغدق عليها الشعور حتى لتتصل بما وراء القوى الواعية وتحركها رأساً بدون ان تمر في الفكر كالفاظ الجنة والنار في حس المتدينين ، فهي الفاظ تكمن فيها روح ، ويمكن لنا ان نسميها لغة روحية وتضم كل الالفاظ التي تملك خيالا وذكرى كالفاظ القومية والحب . وهناك الفاظ تتصل بمواطن الحياة وتؤثر متخطية الفكر ايضاً او تمر به مراً سريعاً ، وهي الفاظ الغرائز وما اليها ونسميها لغة حيوية . وما بقي من الفاظ اللغة الاخرى ، فهي الفاظ فكر لانها تؤثر عن طريقه ونسميها لغة آلية مستحجرة .

فهذه الروح الجديدة – التي لم تحلها آلية الحياة المخترعة بعدُ بأشيائها والتي لا تزال غضة لم تتحجر أطرافها – تموجت أولَ ما تموجت، واتسعت، أولَ ما اتسعت، لكلمة الله الخالدة . فمهما مرّ بها من العواصف المتناوحة فلن تنطلق مع الهوى . إنها مركزة بجاذبية الكلمة الاولى ، وهي اذا رمت بالزبد فلن يكون إلا حَبَاب المُثُل المَراكب . فانسانية هذا الوليد السعيد جاءت كما شاءت النبوة .

إنني لا تمر بي ذكرى الاذان في اذن الوليد إلا وأخشع معها ، إنها تفعل بي فعلاً عنيفاً وعميقاً ، ولا أدري كيف أطوّع الفاظ اللغة لتعبر عنها ...

فَصَلَتْ منذ بعيد وأنا دهش بالأذان الذي يَعْلُوَلي مذكّراً الحياة بقاعدتها، والانسانية بأنبل مُثُلها الخوالد ، ويصغي الوجود الى كلمة الله في فم الانسان كأنه يشهد .

وعلا ضجيج الناس بالتكبير ، وكانا قد بلغا باب المسجد فانتظما في صفوف المصلين ، وعاد الكون الى صموته يصغي الى صوت النبي المرسل في اذن الفجر يقرأ :

« الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسماعيل واسحق إن ربي لسميع الدعاء . رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء » .

*

في حقل البشرية الشائك ، غرس النبي نواةً ...

عملت فيها النواميس ، فبرزت زهرةً لم تتفتق عنها الاكمام ...

ومسحها النبي بيديه كلتيهما ، فنوّرت بين أصابعه ...

وماست فوّاحةً تملأ الحقل بالعبير ، حتى ليخيل ان الحقل زهر كله ! ..

*

قصدت اليها من بعيد ، افعى فاحمة لمّاعة الاديم ...

وكانت تفح فحيحاً لاهباً ، ويؤجّ من فيها الحمم ...
والتفّت عند أصل الزهرة ، وتكوّرت كعُقَد القضاء ...
وفي هَدأة الليل ، حين كان الكون في سُبَات قضمتها ...
وعادت وقد عاد الحقل شوكاً ملهباً، وغدت زهرة الحقل ذكرى رمز سعيد !..
زهرة كانت من صنع النبوة في افتنانها وسموها ...
والنبوّةُ شُعْلة في الحياة ، وشَفَق في الفكر لا يتناهى مداه ...
وزهرة الحقل نثرها باطل الانسان ، ولكنها اجتمعت في الذكرى الخالدة ...
فقد غرستها نبوّةٌ صنّاع والنبوة، لاتحور ... !

*

زهرة وضعت فيها اللانهاية أسرارها ...
فلبثت رغم باطل الانسان ولن تدركها نهاية ...
وحار الباطل الى رماد في زوبعة الرياح ... !

*

تحوّل الباطل ، فكان ظلالَ الحياة ...
وتحوّل الحق ، فكان شمس الحياة ...
وأخيراً، وبعد حين ، ضاع الظل في الشمس !

مَشاهِد

مضى، بين يوم الميلاد وهذا اليوم الذي تقاطرت فيه زرافات الناس من كل مكان، « أسبوع » متألق وضيء كأنما تنفّست في جوه السعادة، وطفرت من أعماق الحلم لتموج في واقعية الجموع ودنيا الحياة.

كان البصر يذهب مذاهبه ثم لا يقع إلا على أوزاع مجتمعين ومتفرقين، فقد حفل النبي بسابع أيام وليده وعقّ عنه.

افتداه « بكبش » ذهب خيره في أشابة الفقراء، وكان مغزاه أن الانسانية المثالية السامية، أول ما تقوم عليه هو إهراق النزوات الحيوانية ونزغات ضراوتها، مجتمعة في حيوان يُهَرَاق. فاذا كان في نحر الحيوان من أجل الغذاء معنى الجسد وتوكيدُ أنه حيوان قَرِم، فان في نحر الحيوان من أجل الفداء معنى الروح المتسامية الى العلاء، وكان وحيٌ وإشارة لشيء آخر مترتب ترتب النتائج على المقدمات: الحيوان يفدّى به الانسان الشاعر بمعناه، ليتعلم هذا الانسان كيف يُفدّي فكرة الانسانية وكيف يضحي بسبيل مثالياتها.. ولذا لم يجد[1] المكافحون

(١) كان من عادة الجنود في القديم نحر حيوان تحت العلم وعلى مرأى من الجند، وبقيت هذه العادة حتى زمن محمد علي باشا خديوي مصر.

المستبسلون الى زمن قريب رمزاً لصدق الكفاح الدامي وللارتكاض الى الموت سوى إهراق حيوان بين يدي الصراع مشيرين الى المصير ولو كان هَولاً .

وطَعِمَتْهُ جموع الفقراء ليكون معناه: أن تضحية الانسان جانبَ الحيوانية فيه ؛ كي يملأ الفراغ في هذا الجانب بجماعات المجتمع المحرومة ؛ فيجد في شعورهم شعوره وفي آلامهم ألمه وفي سعادتهم سعادته. فقد مزجهم بنفسه وخلطهم بهواه ، وقامت طبيعة الانسانية فيه على ثُنائية من الفردية المهذبة والغيرية النبيلة . يجد في طبيعته سر الجماعة وفي الجماعة سره ، وبهذا يتم التواصل الانساني الصحيح الذي لم يزل خيالياً وكان في وليد النبي واقعاً .

طبيعة سمت عن الأنانيات . فان النبي استطاع في مجتمعه أن يذيب « أنا » في « نحن » ، وحارب طوال جهاده الذين أذابوا بأحابيلهم « نحن » في « أنا » . فكان لكل امرىء في مجتمع محمد أن يقول « نحن » وليس فيها كبرياء الفردية وعتوّها ، وإنما فيها نبل الغيرية ووحدتها ، واشتراكيتها وتعاونها .

وقد تركت ذكرى هذا الفداء في طبيعته بعد أن استوى رجلاً رمزها الانساني ومعناها النبيل . فلم يبال تحت ذكراه أن يحقق فيه مغزاه . وأن يقدم في نفسه فداء الفكرة التي اذا تجرد الانسان منها ، عاد مخلوقاً بغيضاً ينحط عن أن يكون فداء الحيوان ذي الطبيعة الساذجة وفيها إيثار دون قصد ، وفيها قناعة دون شعور ، وفيها رغبات [1] قاصرة ...

أشرف النبي في هناء الجموع وبهاء الحفل قال :

---

(١) نعني بالرغبات القاصرة أن الحيوان ينفعل بباعث الغريزة كالجوع ، فاذا سقط على طعام تناول منه حاجته وعف عن الباقي ، بينما الانسان يتناول حاجته ثم تتحرك فيه رغبة النهم حركتها فتحمله على الادخار واحتجاز ما فضل عنه دون الآخرين. فلدى الحيوان إيثار دون شعور . وبالجملة تكون رغباته قاصرة بينما رغبات الانسان شرهة صارمة . والتناحر لدى الحيوان على المقومات الحيوية لا يكون إلا حين الشعور بباعث الغريزة والحاجة ، ولكن التناحر لدى الانسان عليها قائم على ادخارها شرهاً فاحشاً فكان الحيوان بالطبيعة أفضل من الانسان .

« أروني ابني ما سمَّيتموه ؟

قال علي : سمّيته حرباً .

فقال : بل هو حسين ! »

تهامس الناس بعضهم الى بعض : سمّاه النبي حسيناً وهو كذلك في سمته ونفسه .

قال عمران بن سليمان : هو كذلك حسين ولكن فيه معنى التكبير .

فقال قائل له : لكأن النبي كره اسم حرب .

قال عمران : نعم . إن الحرب شذوذ في طبيعة الانسان يصيبها بالانتكاس ، والنبي نصير الانسانية يكره ما هو من الحرب ولو بمنزلة الاسم ، لأنه جاء ليقيم الانسان على قاعدة الاحسان .

قال الرجل : ففيم حربنا إذن ؟

قال عمران : إن الحرب هو العدوان طمعاً وعتوّاً واضطهاداً ، وهو رجوع إلى الحيوانية الضارية التي تستضيق، على رحابة الوجود، بغير ذاتها، فتستجيب إلى العدوان وتنازع الآمنين على بقائهم . وأما نحن فاننا نكافح هذا العدوان لنخلص الانسانية من أدران الضراوة الباغية ، فلسنا نحارب منازعةً على البقاء بل تعميماً لحرية البقاء؛ وهذا ليس حرباً بل نضال ضد الحرب ، وإن النضال من أجل حقوق الانسان ودونها إحسان .

فالنبي جاء بالاحسان مبدأ على شتّى وجوهه ومن أقطاره ، ليطفىء نار الحرب في السلم الظالم وفي الصراع العاتي ، وليرد ذئاب البشر إلى الذئاب بتمزيق أقنعتهم فيسلم الانسان .

وبهذا كان النبي اول من حارب الحرب وألغى مشروعيته وأعلن حرمة الانسان أيّاً كان، وروّى التاريخ نبل الجهاد ... وكان في تسمية الوليد حسيناً بعد تسميته حرباً، إعلان بأن طبيعة الحرب لن تتحرك عليه إلاّ إحساناً وفي سبيله...

وفي تهامس الناس « أنّ الوليدُ » أنّةَ ألم زاهقة ، كانت إيذاناً بختانه . وكان مغزى الختان، في إشراق الروح، أن في طبيعة الغرائز زائدة تذهب في شذوذها والتوائها حداً تضعها في مساف المساقط ومآتيها . فلا بد من تشذيب الغرائز لسمو الروح وكمالها ، ولا بد من تقليم الغرائز لدرك المثالية ونبالتها التي بها جميعاً يملك البشري إنسانية صحيحة تضعه فوق الواقع ودون الأحلام ...

*

بعد حين ، كثيراً ما كان يُرى هذا الوليد السعيد ، يموج في حجر جدّه العظيم ...

وهو يرمي بعينين سادرتين ، أرخت عليهما الجفونُ كلكلها فلا تزحزح إلا بفتور ...

ضجعة في جوّ الأحلام ، كان يرتضع فيها الوليد « إبهام جده » البطل النبي ...

ولم يكن في هذا الرضاع معنى الثدي بل معنى القلب ، فلا بدع أن كان له من النبوة طباعُها ومن البطولة تضحياتها ...

*

ضجعة كأنها ضجعة الملاك في هالة النور ، او ضجعة النجم في الأفق المسحور ! ...

أغفى فيها إغفاءة الحشف على ثدي الأمومة الحانية ...

وارتسمت ظلال هذا المشهد على لوح ، كان صورة لبطولة تغذيها نبوة ! ...

*

إبهام كان صلة معنى بمعنى ، وشريطاً تسري عليه روح إلى روح ...

فلما استوت نفس الوليد تألقت ، وكانت بطولةً مُضيئةً من ورائها نبوّة تمدها بالضياء ...

*

هناك في وادي العقيق [1] كانت جموع السمّار تنتظم حلقات حلقات في عفو ودون تكلف ،. وكان هذا النوع من السَمَر محبباً إلى اهل المدينة بما في طبيعتهم من روح مرحة لا كلفة فيها ولا تعقيد . ولم يكن مرحهم أثر روح مكدودة عراها تطيّر وتشاؤم بالحياة وأسبابها ، فهي تفر إلى الخلاء إلى الفضاء الرحب ، وهي تصطنع هذا النوع من المرح لتنسى همومها المشتعلة وضناها اللغوب ، وهي تنضو اثوابها الثقيلة وأغلالها الآسرة العانية لتنسى ذاتيتها بما فيها من عنصري المكان والزمان المرهقين ، لتعبث لتلهو هاربة مذعورة ... تلك طبيعة روح معقدة حجّرها الجدّ الخشن ، فهي لا تفتأ شاعرة بالخشونة فيشيع فيها التجهّم والتقطيب .

لم تكن هذه الطبيعة تتصل بطبيعة أهل المدينة في قليل أو كثير من قرب أو من بعد ، وإنما بنيب طبيعتهم أول ما بنيت على مرح كاد يكون مجوناً دون قيد ، وعلى يسر كاد يكون انطلاقاً من كل قيد ، فشاعت فيهم سماحة مشرقة وانطبعت على أفواههم بسمات مُشِعَّة تمدها نعومة في الطبع تأبى الا ان تظهر في دعابة منطلقة عارضة ، وهي ان جدت تكون متكلفة في الجد ، كما تكون تلك الطبيعة متكلفة في المرح .

وأيّ شيء هذه الحياة اذا كانت لا تمنحنا قلباً سعيداً لم تتحجر فيه السعادة ، والجد لا يصل المرء بالسعادة ، لانها انطلاق ، وهو جمود يحجرها كما يحجر كل شيء يتصل به ، فيضيع فيه حيويته ويعزله من روحه ... هكذا كان يتحدث

---

(١) ان العرب تقول لكل مسيل يشق الارض ويوسعها عقيقاً . وفي بلاد العرب اربعة أعقة ومنها العقيق الذي هو بناحية المدينة فيه عيون ونخيل وقصور ودور ومنازل . راجع معجم البلدان لياقوت ج٦ ص ١٩٨

في مجمع وادي العقيق « نعيمان [1] » طرفةُ اهل المدينة الذي لولا ما دخله من عنصر المادة الحية لكان روح النادرة المبدعة ...

ليلة كانت من هبات القمر ، وهو يدنو فيها كثيراً ويشع كثيراً حتى ليخيل أنه يتحدى الشمس في بهاء وطَرَاوة يشعران بالجمال . ودعاها العرب « أضحيانة » كأنما جمع فيها الضحى أو جمعت فيه ، والضحى إغراء باليقظة ، بيد ان ضحى الشمس اغراء بحياة التكاليف والذكرى واليقظة على الجسد والواقع القطوب ، وضحى القمر اغراء بحياة وراء الحياة ، كلها حرية وانطلاق ، وكلها نسيان وولادة من جديد في اللحظات .

إن الذكرى وفيها عنصر الثبات والجمود تجعل الحياة ضربة لازب في مرارتها وسآمتها وملالها . والنسيان سيل من التجدد والصيرورة يجعل الحي في كل الآنات مولوداً جديداً يتقلب في اسباب الطفولة الناعمة الهانئة . فمدار الشمس دنيا من العمل والوعي الجهيد ، ومدار القمر دنيا من النشوة واللاوعي الحالم ... كذا قال نعيمان وهو يتدفق في تندّره ، وكان يسمي ليالي القمر ضحى الاحلام لأنها صحوات في أعمق سكر ، ولحظات شعرية تفرّ من عتبات الابدية التي أدنانا القمر المسحور من آفاقها المطلة القريبة .

قال رجل من الحضور : لو شاء نعيمان حدثنا حديث هداياه [2] التي

---

(١) هو نعيمان بن عمرو بن رفاعة من بني النجار . توفي في زمن معاوية . كانت تغلب عليه روح الفكاهة والنادرة ، وكان يداعب النبي كثيراً . ذكره الزبير بن بكار في كتاب الفكاهة والمزاح ، وذكره ابن الجوزي في كتاب الظراف والمتماجنين ، وترجم له بتوسع ابن حجر العسقلاني في كتاب الاصابة ج٦ ص ٢٥٠ .

(٢) ذكر خبرها ابن حجر في الاصابة قال : كان لا يدخل المدينة طرفة الا اشترى منها ثم جاء بها إلى النبي فيقول ها أهديته لك . فاذا جاء صاحبه يطلب نعيمان بثمنه أحضره إلى النبي وقال : اعط هذا ثمن متاعه ، فيقول النبي : أو لم تهده لي؟فيقول : إنه والله لم يكن عندي ثمنه ولقد أحببت أن تأكله ، فيضحك ويأمر لصاحبه بالثمن. ، وذكرها ابن الجوزي في كتاب الظراف ،وغير واحد من المؤلفين في النوادر

ستبقى رمز خلوده وان كانت تطفيلاً في الكرم يشبه في المعنى التطفيل في النهم وليست تفضله ، وعلى اي حال فانها سخاء مضحك وهو معها ضحكة الاسخياء... فسرت بين الحضور رنة ضاحكة ، انطلقت وترامت ابعد ما تترامى الاصداء في مطارح الخلطاء .

قال نعيمان : اما انت فضحكة البخلاء ، ومعناه انك اكثر من بخيل . وانا يسرني ان اكون كما تقول أكثر من كريم . واني لا اراك في طبيعتك إلا كمثل زهرة الحنظل ... فارتفعت الاصوات من كل جانب : وما مثل الزهرة الذي ذكرت ؟

قال نعيمان : زعموا ان فراشة ملونة تُخال كأنها زهرة حية طائرة ، مسها نصب الترنيق ولغب الطنين الذي هو نشيد أماني الفراش وهي قاصدة إلى الحقول . فحطت مغتبطة على زهرة حنظل كانت تميس بين أيدي الرياح في غضارة وتملّؤ حتى لتحسب انها تفيضُ عُصارةً ومائية ، فدارت عليها الفراشة دورات يائسة كظامىء سقط على آلٍ حَفِيٍّ ، فمدت جناحيها وخفّت تطير .

قالت الزهرة : اذا عدت بعد حين فسأسقيك من ماء ثماري الوفير .

قالت الفراشة : اذا كنتِ وأنت زهرة من بنات السراب ، فان ماءك وأنت ثمرة عصارة مستنقع كريه ؛ فزهرك باطل بين الزَهَر وثمرك باطل بين الثمر ، فان الزور اذا استحال فانما يستحيل إلى زور اكبر .

وهداياي التي كنت أسوقها إلى النبي إن كانت تعبر عن شيء ، فانما تعبر عن مكان الندى والسماحة من قلب النبي الكبير ، وهو لا يفتأ يأخذنا بألوان منه ويملأ جو حياتنا بطراوته ، وقُصاراه انه اخرجنا منْ بداوة الطبع وزودنا بقلب الانسان .

قال ابو هريرة، وكان احد الحضور : ان الحديث ذو شجون ، وقد اذكرتني

بلحن حديثك واقعة شهدتها . كنت عند النبي « وقد اخذ وليده الحسين يَدْلَع له لسانه فيرى الصبي حمرته فيهش اليه ، وعُيينة بن بدر حاضر فقال :

يا رسول الله تصنع هذا بهذا ، فوالله ان لي الولد وما قبّلته قط .

قال النبي : من لا يَرْحَم لا يُرْحَم » .

قال أبو الدَرداء وكان حكيماً : كم كنت جِدّ محسن يا نعيمان بقولك « وقصارى النبي انه زودنا بقلب الانسان » فقد جمعت غاية ما يقال في أخصر مقال ، وانه ليوحي بشيء كثير .. ثم أطرق في تأمل لم يطل به كثيراً ولكنه مس الجمع ، فنقلهم من جو أنفسهم في مرحه إلى جو نفسه في تأمله .. وما هو الا ان اطرد يقول : لا أدري ماذا ترك في انفسكم خبر ابي هريرة ، فانه أيقظ نفسي على السر الالـهي في محيط الكون الذي هو مصدر ما فيه من تناسق ونظام وجمال وتناغم. واذا كانت قصة المثل [1] تعبر عن واقعية كونية فانه يقع على قمتها ، وذلك السر هو الرحمة ، فانها المعنى الازلي الذي انبثقت منه الحقائق وكان الوجود احدى ظاهراتها وهي فيه مقياس القيم ؛ ونحن لن نتصل بالحقيقة الاخلاقية والطبيعية وننفذ إلى أغوار المطلق الا من طريقها وعلى اضوائها المتمعة ، على ان الخير الذي اعتبرته قصة المثل رأساً ليس في حقيقته الا امتداد الرحمة وظاهرة من تحركها ، والجمال تجسّدٌ للرحمة باكثر مما هو تجسد للخير ، فهي ألفة الحقائق التي بها نفهم الكونية والاخلاقية فهماً مطلقاً ، ونضع اليد على مقياس القيمة الحق .

وميزة الاسلام انه جعل الرحمة دعامته وقام عليها ، ولعله الدين الوحيد الذي تهدّي بها إلى فهم الوجود وقياس الاخلاق وتركيز القانون والاجتماع ، وجعلها نظرية فلسفته الاولى . فقد سمى الله احياناً رحيماً واحياناً رحماناً ، وحين تحدث عن الكون قال في مقام « وسعت رحمتي كل شيء » وفي مقام آخر قال

---

(١) اي قصة المثل الافلاطونية التي تجعل الخير رأس المثل .

« كتب ربكم على نفسه الرحمة » ، وحين تحدث عن المجتمع العام قال « وما ارسلناك الا رحمة للعالمين » وعن الاسرة قال « وجعل بينكم مودة ورحمة » وقال النبي يصف نفسه « أنا الرحمة المهداة » ، وحين تحدث عن الاخلاق قال « الراحمون يرحمهم الرحمن ،ارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء » ؛ وما حدثكم به ابو هريرة الآن « من لا يرحم لا يُرحم » . ففلسفة الاسلام قامت على قاعدة الرحمة التي عالج بها نظام الحياة من شتى وجوهه وجوانبه وبثها في قانونه وأناظيمه ، ودخل بها إلى الهيكل المستغرق الخاشع والمجتمع الصاخب الداوي ، وكسر بها شرة الانانيات الضارية وحد بها من مد الرغبات النهمة .

وبالرحمة عالج الاسلام طبيعة الانسان المعقدة ، ليبلغ بها مبلغ المثل الاعلى الذي عبر عنه بقوله « رحماء بينهم » وليحقق بها مبدأ التآخي العام « إنما المؤمنون إخوة » .

وليس هناك كلمة كفيلة بان تدل على روح الاسلام الشائعة في كل اوضاعه وتعاليمه سوى الرحمة ، فهي رمز جامع لمجموعة حقائقه . كالمحبة التي هي الرمز الجامع للمسيحية من اقطارها وحواشيها ؛ وفرق ما بينهما ان في طبيعة الرحمة توازن القانون ،وفي طبيعة الثانية خيالية التجريد .

وعلى اساس من الرحمة يقيم النبي التربية ويضع مناهج الربابة [1] السمحة التي تأذن لكل الطبائع بالنماء في تقدير موزون ، دون ما كبت يورث انتكاساً والتواء في الطبيعة المتفتحة . ولذا ذهب وليده بحنانه ولا يفتأ يغاديه بشآبيب حبه النمير .

قال شداد بن الهادي : لله درك أبا الدرداء فان فيما اذكره الآن شاهداً على ما تقول « إن رسول الله خرج علينا في إحدى صلاتي العشاء وهو حامل حسيناً ، فتقدم النبي فوضعه ثم كبر للصلاة. فأطال سجوده فرفعت رأسي فاذا الصبي

---

(١) من وضعنا الجديد بمعنى تربية الطفل .

على ظهر رسول الله وهو ساجد ، فرجعت إلى سجودي،فلما قضى الصلاة قيل : يا رسول الله إنك سجدت بين ظهري صلاتك سجدة اطلتها حتى ظننا انه قد حدث امر أو انه يوحي اليك،قال: كل ذلك لم يكن ولكن ابني ارتحلني فكرهت ان اعجله حتى يقضي حاجته » .

فقال أسامة بن زيد « طرقت النبي ذات ليلة في بعض الحاجة ، فخرج النبي وهو مشتمل على شيء لا ادري ما هو. فلما فرغت من حاجتي،قلت: ما الذي أنت مشتمل عليه ؟ . فكشفه فاذا حسن وحسين على وركيه ، فقال : هذان ابناي وابنا ابنتي ، اللهم إني احبهما فأحبهما واحب من يحبهما » .

واستأنف أبو الدرداء حديثه فقال : إن الرحمة في العضويات ومظهرُها الرقة والحَدَب هي سرُّ كيان الموجود الاجتماعي وبقائه ، وإن الطفولة اذا لم تؤخذ برحمة الكبَر فلا بد أن تقع هوة بين الطورين تذهب متسعة كلما ذهبت الايام ممتدة ، وتمتلىء بالكراهيات وتطفح بالأحقاد ، فتخبو النشوات المغرية بالحياة. لأن الطفل لم يعد يجد حاضره اللاذّ في الكبير ، ولأن الكبير لم يعد يجد في الطفل مستقبل وجوده كحلم الخمرة في العنقود .

فمثل نظرة عيينة بن بدر إلى الطفل تُوَرّث البغض الخفي،وتذكي الصراع بينهما على نحو غير مشعور به ، فلا تتجاذب اجزاء الكائن بل تتدافع ولا تتجانس بل تتنافر ، وبذلك يندثر حب الذات في مظهره الاجتماعي وتبهت أحلامه فتبدو خابية .

إن النبي يبث في الشباب المستوي ، الرحمة على شتى أطوارها : بالشيخوخة لأنها الماضي فهو يستميلنا بالحنين ، وبالطفولة لأنها المستقبل فهو يستهوينا بالأمل . فتتواصل أطراف الكائن وتتّحدُ في بقاء طويل ، ومحال أن يقوم مجتمع على القسوة . فنحن وآباؤنا وابناؤنا أطوار كائن كروي واحد، يدور ويرينا في كل وضع وحين وجهاً ؛ وكرة هذا الكائن إنما تدور بالرحمة فاذا نفدت جمدت الكرة وذوت فيها الروح. والحياة لا بد أن تتفسّخ وتُجتَوَى اذا لم تكن

دنيا من الرحمة ، وهذا ما حققه النبي في فردوسه الذي تزهو به أرض العرب ، ويلتمع إلى بعيد في إغراء .

إن الطفل حيوان يعيش بالغريزة ، وبالرحمة يستطاع جعله إنساناً يعيش بالقلب .

قال نعيمان ولم تفارقه دعابته : لا ريب أنْ كانت كل أضراسك — أبا الدرداء — ضرس عقل ، او لعل لك وحدك من بيننا ذلك الضرس .. فضحكوا وهم يتنادون متواثبين إلى الرواح ،(وسالت بأعناق المطيِّ الأباطح) ...

*

في بلاد العرب المُتَبَدِّية وضع النبي تصميم مدينة فاضلة ..

وما هي حتّى استوت على قواعدها حتّى وجد فيها الظِّماء التائهون هيكل السعادة الشارد ...

ودُحِيَت لَبِنَاتها من كل مثالية التقى فيها الفكر والعمل ، فلم تغل بالمثالية فتطير بها اللبنات وتذهب في شرود ...

وكانت الرحمة ناموس تماسكها وتجاذبها ...

*

في هياكل هذه المدينة السعيدة كان حسين يحبو ...

وهو يتسامى في منبثق إشراقاتها يوماً بعد يوم ، كما تتسامى اللآلىء في رقارق النمير العذب ...

فكان كائناً كالالماس صقلته الأضواء وانطبعت فيه ...

وغدا ، بعد حين ، مشكاة متألقة تميس في فضاء الهيكل السعيد ..

وتهب الحائرين طمأنينة النفوس وأحلام السعداء ! ...

يوم الدولة

أصبح النبي وقد جمع اليه جزيرة العرب إلا قليلاً ، على ان ذلك القليل كان ذاهباً ايضاً في طريق سائرها ، كما تذهب الرحى راسمة خط دائرتها في غير توقف . وكان لا بد لهذه الرحى-وفيها انطلاق وفيها حياة ، أن ترسم دوائرها واحدة في اخرى اوسع منها ، حتى تتصل أبعد ما يكون الافق المطبق ، الذي هو في نفسه اقصى الدوائر في طاقة الحياة .

والنبي إلى هذه البرهة من الزمن كان قد قذف الدين في حياة العرب روحاً ، وسوّى الدولة قطب الرحى في حركة الحياة الجديدة.فانطلقت ولم تقف وتفرّجت ولم تنكمش . وابداً يقع مقياس الحياة الشامخة في الحركة بمقدار ما تستطيع ان تخط خطوطاً جديدة دائماً ، وتنثر في مدى خطوطها حيَوات لا تغيض دفقاتها ولا تخبو اشعاعاتها ولا تبهت الوان احلامها ...

كانت سنةُ سبع وكان الناس يستقبلون بها عهداً جديداً ، فقد هيأ النبي الاسباب للاعلان عن ولادة دولة جديدة في المنأى البعيـــد المجهول القوي والممدود الرغبات . فنظّم طائفة من الرسل إلى ممالك العالم القديم تحمل رسالة الدين والدولة جميعاً ، فقد اضحى نبي فكرة وزعيم دولة .

وكانت الفكرة التي انبجست من ينبوع النبوة قد امتدت وهي تمتد ،فكان لا بد للدولة وقد تركّزت ان تتحرك لتمتد ايضاً . ودائماً تظل الفكرة في احساس التاريخ هزيلة ، اذا لم ترافقها الدولة التي تجعلها خلاّقة ومغيِّرة ، والفكرة لا تكون قابلة لتقوم على اساسها الدولة دائماً ، وانما هي فقط الفكرة التي اجتمعت [1] فيها كل قوى التاريخ وقابلياته الراكدة ،وانبعثت فيها على شكل من الحياة ، وبذلك تكون في اعتبار الزمن أنها منه ، ومصير الافكار الاخرى أنها تستحيل إلى تأْمات غامضة في أذن الدهر وسمع التاريخ .

ومن طبيعة الفكرة التي تجتمع فيها قوى تاريخية كبرى وتنجح في إقامة دولة جديدة وخلق تاريخ جديد ، أن تكون فيها عناصر الثورة كاملة ، الثورة التي هي ظاهرة من يقظة قوى التاريخ الراكدة .

ولأن تعاليم النبي من هذا النوع الذي اجتمعت فيه قوى التاريخ ، كانت لا تتصل بمجتمع إلا وتعمل فيه عملها فتُلهبُه وتحرق عليه زيوفه وتغيّره تغييراً تاماً ، حتى كأن ما ليس منها ليس من الحياة . بذلك نجحت نبوة محمد ونجحت دولته ، وفيها القوى لتنجح كلما حُرّكت وانبعثت .

وكانت كتب النبي إلى الملوك أول دعوة من نوعها في التاريخ ، دعوة دولية عامة للدخول في النظام الجديد ، وجهت على شكل كتاب رسمي . كما كانت إعلاناً بولادة دولة الاسلام والعرب التي في ضمير الزمن عنها : أنها كلما ولدت يتغير وجه التاريخ.

في هذه الفترة كنت تحس في كل نحو من أنحاء المدينة بحركة نشاط غريبة ،

---

(١) ومعنى اجتماع قوى التاريخ الراكدة في الفكرة ان تشتمل الفكرة الجديدة على كل الضرورات الاصلاحية سواء في الاخلاق والحياة والاجتماع ، ومثاله : ان القوى التاريخية التي ظهرت في دولة فارس ثم تخلفت ،وكذلك في دولة الرومان ودول الارض اذ ذاك ، وجدت سبيل ظهورها وقابلية انبعاثها في الفكرة الجديدة التي دل عليها النبي محمد ، فانبعثت فيها كل قوى التاريخ التي كانت قد ركدت في الامم حينئذ ، وكذلك كل فكرة في كل دور لا تملك قوة الامتداد والحياة والسيطرة الا اذا كانت فيها قابلية لانبعاث القوى التاريخية فيها التي تخلفت في اوضاع الامم الاخرى .

وتسمع همسات مستطيلة متصلة الهمهمات ، ولم يكن للناس حديث إلا حديث الكتب ، وماذا سيكون رجعها ورد الملوك عليها ؟ . وكان في الطريق الآخذ إلى العوالي ، جماعة انتحت بنفسها ناحية ظليلة تكاثفتها أوراق الأغصان الوارفة .

فقال قائل : أما ترون أنها محاولة خطرة ، قد تؤلب علينا جماعات الأمم وهي تحيط بجزيرتنا إحاطة السوار بالمعصم ، فان نفسي تتناشها المخاوف وتتقسمها شعاعاً .

قال المقداد بن الاسود : لا ينتفخ سحرك بالأوهام ، ولا ترع ، وسر عنك . إن لنا من قوانا الجميعة ما يجعلنا كتلة من الصلب من ورائها الايمان يشدنا ، ومن وراء الايمان الله واهب القوى والقدر ؛ فلسنا نرهب عاتياً من البشر . وإن النفس التي رأت وجودها في الله ، تتطاول بها القوى ، وتتقاصر في مدى اعتبارها أية قوى أخرى، فتنقذف وهي قلة راعدة من مصدر القوة الكبرى . وحظ الانسان من الحياة كما هو في مرآة نفسه التي هي ينبوع المطلق ، وليس كما هو في مرآة الوجود التي لا تعكس الا نسبية وظلالاً خادعة مختلطة . وإن الوجود كائن بسيط وهو لا يملك إلا حقائق بسيطة ، وأما حقائق الوجود العظمى فهي من هبات الانسان على الوجود . والانسان ليس كائناً منفصلاً من الوجود فقط ، بل هو أداة خلق وتكميل فيه .. فالحياة وأشياؤها والوجود المعنوي وفكرته ، بدعة هذا الانسان العجيب الذي لولاه لظل الوجود بسيطاً ساذجاً خلواً من الاغراء .

والانسان الذي لا يفتأ يطلب كبرياء الوجود ويحس بنشوة وجوده في حدود هذه الكبرياء ، بل لا يحس بالوجود بعيداً عنها، ليس كائناً طبيعياً؛ وإلا فهو، ككائن طبيعي،شيء تافه مثل أي كائن آخر ينمو ويذوي بين فترات من الزمن .

والايمان بالله الذي دعا اليه الاسلام،في حقيقته،إيمان بالانسان وهدم للايمان

بالوجود الصامت الذي هو وثنية تحول بين الانسان والايمان بنفسه ومعرفتها ؛ والى هذا يرمز قول النبي الأعظم « من عرف نفسه فقد عرف ربّه » .

فالانسان كائن الآهي اذا فهم نفسه ، وكلما رسب إلى الطبيعة وآمن بقواها فقد رسب وتلاشى في غمار الوجود الصامت وعاد كحفنة هامدة من الرمال . والنبي بشّر بالانسان « ولقد كرمنا بني آدم » وحارب الوثنية لأنها كفر به وارتداد إلى تأليه مظاهر الوجود الخادعة ، وجاء بتوحيد الآلهة لأنها كلما تعددت فقد تلاشى الانسان في ساحتها .

وما انكسف قمر الانسان في أمة وارتدت بعبادتها إلى تقديس الطبيعة دون الانسان ، إلا هوت مضمحلة وكان ذلك أول علائم احتضارها ، فان الانسان وحده هو الحقيقة الكبرى في الحياة والوجود (فقد خلقه الله على صورته) .

والقوة — يا هذا — كيفية لا كمية ، وليست كما هي في مرآة الوجود بل كما هي في وجدان الانسان ، والظفر دائماً يكون بخيال القوة ومبالغاتها في النفس « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله » . (فوالله لو قذف بنا النبي إلى برك الغماد والى كل مدائن كسرى وقيصر ما ونينا ولا نكلنا) ونحن أيضاً لا بد ظافرون .

قال سعد بن عبادة : عَهِدْنا بك انك بطل ، فها أنت حكيم أيضاً ...

قال المقداد : ان البطولة معرفة الانسان نفسه ، فاذا برزت في العمل قيل عنها بطولة ، واذا برزت في الفكر قيل عنها حكمة. فالبطولة حكمة صامتة، ولن يكون المرء بطلاً إلا إذا سبق وعرف نفسه أي كان حكيماً ، والنبي سبق وعرّفنا بانفسنا فلا جرم أن كان كلُّ أتباع محمد أبطالا .

وبيناهم على تبسطهم في الحديث ، عرض راكب مُجدّ يغذّ الخطى غذاً ، وحين حاذاهم قام اليه الجمع وحفوا به ملقين اليه رؤوسهم .

وقالوا بلهجة المنتظر : ما وراءك ؟ وكان هو الرسول الذي بعثه النبي بالكتاب إلى كسرى .

قال الراكب وقد ألوى رأسه حتى حاذى رؤوسهم : إن كسرى بلغت به حماقته أنه مزق كتاب رسول الله مستخفاً حانقاً ، فما أتت عليه ليلته سالماً عدا عليه ابنه فقتله ، وقام مقامه وشمل الناس كافتهم نوع بل انواع من الذهول والدهشة والاضطراب ، وتركتهم وهم يموجون كالآذيّ العرم .. فتعلقوا بمساءلته من كل جانب ، ولكنه حث مطيته وانطلق يسير ، فانقلبوا إلى بعضهم يتعجبون .

قال سعد بن عبادة : لقد صدق المقداد والله حين قال ، ان الايمان اذا خبا ، حل محله جهل الانسان قيمته .. والمثل العليا والمعنويات الخالدة وهي تنبع من معرفة الانسان بنفسه لا يعود لها وجود في جوه وفضائه ، فيسيطر عليه نوع حاد من التفاهة يقعد به عن المجد ونوع حاد آخر من الملال يهبط به إلى الرغام . وفيما نقل الينا الرسول الآن من حال الفرس شاهد جد خطير ؛ فهم أمة جهل الانسان فيها قيمته فلا بد أن تعود ولا قيمة لها ، رُوَيْدَ أن تشرق عليهم شمس إنسانيتنا الجديدة .

ولم يكن طويلاً حتى خفوا بعضهم في إثر بعض ووافوا المدينة ، وكان الناس يموجون موجاً ، فقد هبط ايضاً الرسول إلى قيصر وهو ينقل مقدار احترام قيصر للكتاب ، وهبط سائر الرسل الآخرون ينقلون مثل ذلك . فباركهم النبي ونادى المؤذن « حيّ على الصلاة حيّ على الفلاح » فاستوى النبي في مصلاه وخف الناس ينتظمون صفوفاً .

قال قائل لآخر وقد توجه الناس يكبرون بالصلاة : اني ليستخفني شعور عنيف أنا معه جدّ مغتبط ، فقد طفرنا إلى قمة التاريخ وغدونا أولي فكرة اسمى ما يكون الفكر ، وأولي مجتمع أسمى ما يكون المجتمع . وإنه سيظل لنا تذكاران خالدان : يوم الهجرة وهو تذكار نجاح النبوة ، ويوم الرسل او السفراء وهو تذكار نجاح الدولة . « وجاء حسين يشتد بين الصفوف وقد سجد النبي يصلي فالتزم عنقه فقام وأخذه بيده فلم يزل يمسكه حتى ركع » ...

مضت سنةُ سبع وأهلّت سنة ثمان ، وكان الحسين قد شارف الرابعة

او عبرها ، حين اتجه النبي لدك آخر معقل من معاقل الاوهام (مكة) التي هوت بالانسان إلى درك التاريخ وملأت أجواءه بالاساطير ، حتى انقلب معها وهو أسطورة حية ، وانقلبت دنياه التي يحياها وهي حياة في اسطورة .

هبطت جموع النبي مكة من كل صوب ودلفوا اليها من كل حدب ، وبرز النبي كالنسر الطائر وهو رمز فكرة وتفوّق ، وسار حتى دخل البيت،ومن أية جهاته أوهام متجسدة « أصنام » عبدها الانسان ، فكان يشير اليها بيديه كلتيهما ويهتف بكلمة الله القارعة « جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا » . فهوت مكبّة وغاب رجع صداها في الغور السحيق ، وتمجّد الحق يوماً في دنيا الانسان ، وعرا الناس جلال الموقف ، وراحوا في يقظة استغراق كانت واعية ، وجرى على لسان فضالة الليثي :

لو ما رأيت محمــداً وجنـــوده بالفتح يوم تَكَسّرُ الأصنامُ
لرأيت نور الله اصبح بيننـــا والشرك يغشى وجهه الإظلام

وحشدت قريش أشاباتٍ أشابات ، وراح النبي يخطر بينهم،ورؤوسهم قد ساوت الصدور .

فقال : ما تروني فاعلاً بكم ؟

قالوا : اخ كريم وابن اخ كريم !

فقال وقد جمع نبل الانسان من اطرافه : اذهبوا فأنتم الطلقاء ! ...

وردد الصدى في كل مكان « اذهبوا فأنتم الطلقاء » ، الذي كان إعلاناً للبشرية بان هذا يوم حريتها . فلم تكن حرب النبي عُتُوّاً واضطهاداً وقد وجد سبيله اليهما ، وانما كانت خلاصاً وتحريراً لكي يتنفّس الانسان بملء رئتيه في العراء ...

وتردد في الدهر أن محمداً أطلق القفير ، وكسر قيوده ...

وراح الفراش يطنّ في الحقول تتحاضنه أيدي الزهرات .

قفل النبي راجعاً إلى المدينة وقد ازدهت ببهجاتها ، واصبحت وفي كل بيت صدى فرحة انطلقت متماوجة وكبيرة ، وكان النبي يلبي دعواتهم ويشاركهم مراح الظفر وفخاره .

قال يعلى بن مرة : « خرج رسول الله إلى طعام وانا معه ، فاذا حسين في السكة مع غلمان يلعب . فتقدم النبي امام القوم وبسط يديه ، فجعل الغلام يفر هاهنا وهاهنا ، وجعل رسول الله يضاحكه حتى اخذه ، فوضع احدى يديه تحت قفاه والاخرى تحت ذقنه وقبّله ، وقال :

حسين مني وانا من حسين ، أحبّ الله من أحبّ حسيناً ، وحسين سبط من الاسباط » .

*

نحبُّ البنوّة لانها خلود للذات ...

وفي الحسين كان النبي يرى خلود ذاته ...

فلا جرم ان كان يغمره بهذا الحب لانه استمرار ذكرى النبوة ...

*

ضمّه اليه مليّاً بين الحب والمجد ...

وحنا طويلاً عليه بين القلب والفكر ...

فكان له من قلبه وفكره جميعاً ...

وظل أبداً رمز مجد شامخ ، وقبلة حبّ كتنفّس ازهار السحر وعبق الخلد ! ...

*

الحبُّ شعور إلى شعور ، وخفقةُ قلب إلى خفقة قلب ...

والشعورُ جوهرٌ فردٌ ليس ينقسم ...

فكان حسين منه وكان من حسين ! ...

*

اذهبوا فأنتم الطلقاء ! ...

خطاب لقريش مشيراً إلى كل انسان في كل مكان ...

ليقف شاعراً بوجوده على حطام الاغلال وُرفات ارباب القيود ...

فهذا صوت من السماء يؤذن بالحرية وينادي بالخلاص ...

*

اذهبوا فأنتم الطلقاء ! ...

كلمة صدرت من رسالة محمد وبيت محمد ...

فكانت إيذاناً بان موكب الحرية من هذا البيت يسير ، وفي الطليعة ابداً يكون ...

وطبيعة الطليق ، لا تجعله باعباء هذا الامر خليقاً ! ...

فأبناء الإسار ينطبعون على شهوة الأسر ! ..

فقد عشثت القيود في روحيتهم وتولدت منها عقليتهم ! ...

*

ولكن حاول الطليق الانتهاز وكان ...

فعادت قيود السجن والسجان ...

فحمل حسين — هو راموز بيت الحرية وحارسها — الشعلة المقدسة إلى كل مكان ...

فقد سمع زمجرة تحرّق الأرّم من وراء القبور ، فأعلن النكران ..

وهبّ تحت صوت الواجب يغالب البحران... وهو وان لم يكبح جماح الطغيان ...

فقد ترك في جنبه ثورة البركان ...

دموع

كثيراً ما كان النبي يُرى ، في أخريات أيامه ، بين ذويه وابنائه يؤانسهم ويطمئن في نشوة خفية إلى اشياء لهوهم البريء ومرحهم الحلو ، ويعاطيهم اسباب هذا اللهو وهذا المرح ويعد لهم فيهما ، فقد حقق حلم المجد وادى غاية الرسالة القصوى ، فهو يشعر بالاطمئنان والرضى ويحسّ تزاحم سرور عميق .

وكان يأنس كثيراً إلى هذا الجو الذي تشيع فيه حركات الطفولة ناعمة ببراءتها ، هانئة بسذاجتها ، منتشية بطراوتها .. وهي رغم قسوتها احياناً تجد وقعها اللذيذ ، فان البراءة جمال على شتّى صورها وألوانها .

والطفولة وحدها أثبت حقائق الحياة ، وما وراءها سخريات واشباه سخريات تبدو خشنة ، وكلما اوغلنا في مدى الحياة تزيد خشونة وتوعّراً . وحين تدركنا لذتها عرضاً فانما تكون في شكل من اشكال الرجعة إلى الطفولة ، وفي إنضاء زيوف ثقيلة من أثواب التكلف المرهقة .. والتكلف رياء وانانية على كل وجوهه ، ولذلك انصرف جهد النبي إلى ان يضع في كل الحياة براءة الطفولة .

ونحن لا نستطيع الرجعة إلى الطفولة وبعثها من جديد على اية صورها ، كما نعجز دائماً عن خلق جوها المترف فنطلبها في الطفل بتشوّق ملحّ وفي نوع

من الحنين الآسر ، ليغمرنا بروحيتها التي تظل فينا املاً منشوداً ورغبة حادة .

والنبي كان يجد طفولة حياته اللاذة في ابنائه كما كانت وعلى ما كانت ، فيأخذهم بصنوف اللعاب في حنان وافترار . وكثيراً ما كان يرى الحسن والحسين يصطرعان وهو يحمسهما ، او يلعبان بالمداحي[1] وهو يعب الهناءة عباً ويثملأ منها ، ويتذوق « حلواء البنين » التي هي النشوة الكبرى في ظلال العمر .. فان لذاذة الحياة تقوم في نشوتين : نشوة بالطفولة ، ونشوة بذكراها في الطفل ، وما بقي من فصول الحياة هجير كهجير الظهيرة ولذع كلذع اللهب وحرقة تنتهي بمرارتها .

والطفل طائر يرف بين أيدينا لنلحق به إلى جو حقائقه واحلامنا ، وكأن الحياة تضع الحقيقة العارية السعيدة بكل فتونها بين يدي الطفل فيغرق في خمارها زمناً ، ولكنها تنأى وهو في قمة شعوره باللذة المطلقة ، فيحبو وراءها في لهفات ، ثم يعدو في لهثات ، وهي تنأى وتنأى حتى تحور في كون من الضباب يحول الافق دونها ، وينقطع بالحي المسير فيستغرق حالماً ، هائماً ، فقد سقط في السراب تطوف به وتتنازعه احلام الماء .

وإذ يصطرعان ، كان النبي يهيج حركات طفولتهما المتشابكة التي هي رمز عبث في جد ، وجد في عبث تنتظمها براءة مارحة .

فيقول : « إيهاً حسن » .

قالت فاطمة : أتستنهض الكبير على الصغير ؟ !

قال : هذا جبريل يقول : « إيهاً حسين ! » .

وجبريل رمز من المطلق واسم من المثال ، وفي لحظة استغراق واستعلاء

---

(١) المداحي : احجار ؛ كانوا يحفرون حفيرة ويدحون فيها بتلك الاحجار فان وقع الحجر فيها فقد غلب (بفتح الغين) صاحبها ، وان لم يقع غلب (بضم الغين) ؛ والدحو رمي اللاعب بالحجر والجوز وغيره .

طافت بنفس النبي صورة من التجريد برزت مجسمة ومكبرة ، وهي تشاركه نشوته وبهجة ما يجد خيال مرح سبطيه . ولم يكن جبريل غريباً عن جوه فهو رمز رسالته ، ولم يكن حسين بعيداً عن قلبه فهو رمز حبه . وفي هذا الاستنهاض التمثيلي رمزية تشير إلى أن الحسين سيكون رائد الرسالة وعَلَم الهدى : ففي اعماق ضميره صوت من الغيب يتردد ابداً : إيهاً حسين ! ..

مع الاصيل كان في اقصى الصحراء راكب يسير بين الجد والهوينا آخذاً نحو المدينة ، وهو يبدو من بعيد كرة يدحرجها الافق على الرمال ، والصحراء هيكل ابدية مكشوفة تتمدد في النفس على رُحبها فتتمدد بها النفس لا متناهيةً تطالع المجهول .

وكان الراكب أبا ذؤيب الشاعر الحزين الذي ضفّر الحزن على هامته اكليلاً تناثرت اوراقه، وبقيت اشواكه القاسية تأبره في خطرات الذكرى ، وخلجات الحنين ، ورجفة الهوى ،وتأوّدات الطيف .

والصحراء ينبوع ذكريات سيّما لنفس انسان محزون تكسرت اصداء الاسى في اذنيه، فهو يحسّ بوقرها في الخلاء ضاجاً عنيفاً ؛ والنفس البائسة يزداد فيها صدق الحس والحدس ، وتتأثر بالفواجع من بعيد وبرعشات الغيب والمجهول .

عرّته والمطيّة تتهادى به هزّة شجى ، وتأوّدت في اعطاف الصحراء أمام ناظريه طيوف رامزة . « وكان قد بلغه ان النبي عليل ، وكان قد استشعر حزناً مذيباً ، وكان قد بات بأطول ليلة لا ينجاب ديجورها ولا يطلع نورها قبل ان ابتدأ المسير ؛ فهوّم مع السّحَر فسمع صوت الشاعر يهتف به في الاحلام :

خطبٌ أجـلّ أناخ بالاسلام	بين النخيل ومعقد الآطام
قُبض النبي محمد ، فعيوننا	تذري الدموع عليه بالتّسجام

قال : فأصبحتُ من منامي فزعاً فنظرت فلم أر الاسعد الذابح، فأولته ذبحاً يقع في العرب ، وعلمت ان النبي قد قُبض .

فحثثت راحلتي وسرت . فلما اصبحت طلبت شيئاً أزجر به، فعَرَض لي شَيْهَم قد قبض على صلّ فهي تلتوي عليه والشيهم يقضمها حتى اكلها ، فزجرت ذلك وقلت : شيهم ، شيء هَمّ . والتواء الصل : تلوّي الناس على القائم بعد رسول الله » .

فادركتني حَيرةُ متلظّية عرض لي فيها شبح إنسان مُجدّ نفقت تحته راحلته من طول ما حمّلها وراح يحملها ، ولم يقعد به الانقطاع بل هبّ في غير توقف ، يخطو خطوات واسعات ،فقلت في نفسي : لامرٍ ما جدع قصير أنفه ! !

« فمددت الخطى مداً عنيفاً حتى هبطت المدينة ، ولها ضجيج بالبكاء كضجيج الحجيج اذا اهلوا بالاحرام ، وهم في ذهول مستطيل ووجوم .

فقلت : ما الخبر ؟

قالوا : قُبض النبي !

فجئت إلى المسجد فوجدته خالياً ، فأتيت بيت النبي فوجدت بابه مرتجاً ؛ وقيل : هو مُسجّى وقد خلا به اهله . فقلت أين الناس ؟

قيل : في سقيفة بني ساعدة » .

وفيما أنا في بعض طرق المدينة أمشي مشية الحزين الحائر ، رأيت عارض الصحراء فتبيّنتُه ، فاذا هو معاذ بن جبل عرته سحابة حزن صامت مكظوم ، فتلقيته بين يدي ، وقلت : أأنت ؟ !

فانفجر وانفجرت معه بدموع حرار تزيد الجوى لوعة والاسى لذعاً، وكان نشيجه مريراً كمن ثكل كل ذويه في ميتات متقطعة متلاحقة ، لا تفصل بينها إلا هنيهات وفينات . وكان الحزن يشتد به دراكاً حتى لم يعد يتماسك ، فاخذته اليّ وهو نِضْو يتشنّج وشِلو يتنزّى .

وبعد لأي افاق وكانت إفاقته جد مريرة، فقد هب كالممرور يطلب شيئاً وانا وراءه ، حتى انتهى إلى كل باب يقرعه ولا يلبث ان يرتدّ عنه . فقد كان

يرغب في ان يرى الناس ليخرج من وحدته الممضة القاتلة ، ولكنه لا يكاد يرى احداً حتى تزيد أزمة نفسه وتتجدد له ذكرى تبعث نفسه أشد التياعاً .

ولم يزل يدنو ويتأى في رغبة ورهبة حتى قاده المطاف إلى بيت عليّ ، وكأنه اراد ان يداوي الاسى بالاسى ويلاشي الالم بالالم . وأحس بالارتياح العميق حقيقة ، فان الالم كلّه يذوب في مضاعفات الالم ، ويتلبّس النفس شعور سلبي مبهم لا يتجاوب معه في النفس غلواء الالتياع وبرحاء الاحزان ، فان المشاعر على اختلافها نسبية ولا فواصل بين اطرافها ، فهي اذا بلغت غايتها هبوطاً او ارتفاعاً تتحول او تهمد .

رغب كثيراً ، واطمأن إلى ان يجابه الاسى في هيكله ، ليستغرق في لحظات المرارة المطلقة التي تتجرد في الاطلاق عن معناها ووقعها الاليم ، فقد غدت لا عضوية دون أعصاب تتقلّص أو تتمدد ، انها اصبحت خفقة روح في غير لون .

فمضى معاذ باحساس وجداني عفوي إلى بيت علي ، ليواجه اشد انواع الاسى في شخص النسر الحزين وفراخه الحيارى ، فهو يشتهي ويفضل كثيراً حيرة الاسى اللاشاعرة والغفوة في الالم على ان يظل في يقظة الآلام .

وقف دون البيت طويلاً ثم قرع الباب ، وما اشدها وامرها مصادفة فقد « برزت اليه فاطمة » تجول في مآقيها عصارة حب خالد ، وتعلقت في اهدابها الواسعة دمعة كبيرة ، ليتها سقطت ! ...

وفي ناحية من البيت رأى الحسينَ وليدَ النبي المحبب منكمشاً على نفسه ، يدير لحاظه فلا يرى إلا دموعاً، فغرق في الدموع . وكان بين حين وآخر يناجي نفسه ويطارحها في حديث خفيض مسموع .

أبتاه ! .. أين هو ؟ لم اغد اراه ! اليس لي ان اراه بعد اليوم ؟ بالامس القريب كان يلاعبني ؛ كيف نأى ؟ لم يعد لي ، بعد الآن ، حنان ذلك القلب الكبير ! !

فيزيد الفجيعة ويحرك النشيج ، ومعاذ حالم امام هذا المشهد مستغرق ، انه

لم يعد يحس بشيء ، إنه غدا خلاء من كل شعور ...

*

مات محمد البشريّ ليخلد محمد النبيّ ...

فاستعبر الحسين لأولهما بالعاطفة والحنين ...

وافتدى ثانيهما بالدم القاني الصبيب ...

حينما حاول مسّ جلال الخلود ، غواةٌ محمّقون ...

*

بعد اشهر معدودات رزىء امّه الزهراء وملاكه الآخر ...

الذي كان يشع عليه بالامل الهاني والسعادة الحالمة ...

فجمدت في عينه دموع وفي قلبه دموع ...

جعلته ، في حياته كلّها ، ينظر إلى الافق البعيد ...

يود لو يذوب في الشفق الملتمع من كُوى الأبديات باغراء ...

*

مرارة قاتلة على قلب غض ، هبطت فجأة فانتقلت به من حال إلى حال ...

واستوى دفعةً فنظر إلى الحياة من فوق كوّة الرغبات فرأى حمأتها ...

فوجّه تياره الطهور فتمددت وانتفخت متجهمة تريد الصراع ...

فتقززها واستعلى ، فقد ترك فيها دفقات من الينبوع الاقدس وهو لا بد مطهرها .

ولم يزل يستعلي حتى لم يعد يُرى ، الا نجماً يتوارى في التحليق بإشعاعات واغتماضات ...

مع خليفة

في قمّة المجد العربي حينما كانت الراية الاسلامية تُنسج وتنظم خيوطها من ممالك العالم القديم ، وتتهادى متطاولة في الفضاء ، كأنها توشح الآفاق وتُطل على عالم يمور بالخلود ، وتحتضن جداول الابديات بما فيها من فتون ، وقف عمر ابن الخطاب يبارك هذا المجد ويقول كلمته بلسان التاريخ ، ويودّع عالماً يدفعه بمنكبيه ويستقبل عالماً بكلتا يديه .

عالم من طوبى محمد ، ولكنها طوبى متحيّزة تحيّز الواقع ومتألقة تألق الشعاع ، وهي إلى هذا ملء السمع والبصر ومَراد الأماني ... عالم انطبع على آفاقه وجه محمد في هالة القرآن ، والقرآن هو اللوحة التي شاءت الحقيقة الخالدة ان تبرز فيها كاملة قد نضت عنها شتى الاثواب .

جاس على اريكة هذا العالم الجديد الذي هو من عمل نبي الخلود ، ولم تكن هذه الاريكة او العرش الا منبر المسجد الذي كان محمد يقف عليه ويهتف بلسان السماء يهدي التائهين ، والاثير من ورائه يردد النداء ابعد ما يتناهى ، فمحا كوناً واثبت كوناً ، وظل تمثال الحقيقة الباقية بين الكونين ، وصوتَ الله في وَعْي العالمين متجاوباً بصدى الابد .

لم يكن في عالم محمد عرش لانه لم يكن فيه عبودية ، ولم يكن فيه « بلاط » لانه لم يكن فيه ارهاب واستصناع عظمات مزيفات ، وانما كان المنبر فيه هو العرش ؛ والمنبر رمز يشير إلى الكوة التي شع منها الهدى وانبثق منها الضياء . وكان المسجد فيه هو البلاط ؛ والمسجد رمز يشير إلى التلاشي في الروح ، والفناء في الاشراق ، والنشوة الواعية في التأمل والاستغراق .

وقف عمر يتكلم وكأنما زُوِيَ العالم اليه من اقطاره ، وتَأَرَّجَ في حدود موضعه ، والناس كأن على رؤوسهم الطير يصغون ، والكون من ورائه يسمع ويخشع .. ومن أقصى المسجد جاء يخطر بين الصفوف الحسين وليد النبي ، حتى بلغ مرقاة المنبر فما تهيبها ، بل صعد رابط الجأش حتى انتهى إلى حيث يجلس عمر فشاركه موضعه .

وكان منظراً بدا غريباً اعطى الناس لحظة انتباه شرعوا معها يتلعون رؤوسهم ويتهامسون ، فلحظات ذكرى انتقلت بهم من حال إلى حال ومن زمن يعيشون فيه إلى زمن يحنّون اليه ، وقد ظل شائعاً حيّاً في الخَطَرات الحلوة يوم كان الحسين يتخذ موضعه إلى جنب جده العظيم ، في هذا الشكل وهذه الصورة .

ذكرى سعيدة جرّت وراءها نوعاً من اللاشعور ، وتمددت في تأمل طويل ، وكان استغراقاً كله السكينة والاطمئنان وإن بدا كالوجوم الراني .

شخص الناس إلى الغلام ينتظرون ما سيجيء به ويصدر عنه ، وكان الغلام أكثر منهم استغراقاً وأكثر نفوذاً في الذكرى ، فراح يُمَلّيء ناظريه ويمتعهما ممن استيقظت نفسه على أنه جده .

هو شديد الحنين وشديد الهوى إلى أن يرى جده وقد فصل عنه زمن كان طويلاً في حس القلب ، وكان خيالاً شديد الأسر له ، فلما لم يجد فيه جده وجم ملتاعاً ، فقد انهار ما اجتمع في خياله من لذاذات دفعة ، كمن حيل بينه وبين ما يشتهي وهو في أدق فترة من لذة التذوق ، فرسب فيه خيال بهتت به لذة وطفا فيه خيال استوى معه ألم .

فقال له في شيء من التحدي الصارم : « انزل عن منبر أبي واذهب إلى منبر أبيك » ... فاشتمله عمر وحنا عليه طويلاً ثم قال له في اشياء من ديمقراطية الحق والاعتراف الفكه الجميل :

« إنه لم يكن لأبي منبر » ... ومال عمر عليه ثانية فقال له في شيء من الترقب والامتحان النفسي : « من علّمك ؟ . »

فقال الحسين في اشياء من الذاتية المتفتحة : « والله ما علّمني أحد » ... وكأنما رد عليه : بانه شعور النفس بالنفس وتحسس الشخصية على محلها وموضعها .

وخفّ الناس يشد بعضهم إلى بعض يقولون : إن الحسين يطل من نافذة مقلتيه البطل ...

وكان عمر قد أعجب به في غير حد ، وكان قد أخذ بشخصيته القوية في غير مقدار ، فرأى لزاماً عليه ان يبرزه في حياة الجد الحاكمة ، وان يأخذه باسباب التوجيه والاشراف على تصريف المقدرات العليا ، فقال له :

« بابي ! لو جُعلت تغشانا » ... وانقضى وقت قبلما اجتمع اليه ثانية ، وتخللت أحداث ، فقد رفعت اليه شكوى من اطراف الشام على معاوية ، فاهتم لها عمر ، وكان رجلاً صليباً ، فاستقدمه مع البريد مسرعاً وخلا به ، وكانت الطريق قد جمعت الحسين بعبد الله بن عمر فقصدا إلى مقر الخليفة يزورانـــه ، فطلب ثانيهما الدخول ، فقيل له :

«انه خال بمعاوية».. فانقلب ابن عمر وانقلب الحسين معه، وفصل زمن لم يكن بعيداً حين صادف عمرُ، في بعض طرقات المدينة، الحسينَ فقال له :

« لم أرك» .. فروى له كيف حيل بين عبدالله ابنه والدخول، وكيف رجع معه ، فتصوّر عمر بشكل الجـــد إشعاراً بالفرق الكبير ، وقال وصوت الحق يدوي في مقاله :

«أنت أحق من ابن عمر. إنما انبت ما ترى في رؤوسنا، الله ثم أنتم».. وصمتا يمشيان، ووقف التاريخ من ورائهما يرددها كلمةً خالدة في سمع الدهر وأذُن الأبد...

جهاد الشباب

حين كان الفتح الاسلامي يضع إحدى قائمتيه في أقصى الشرق ، والاخرى عند باب الغرب — يقرع عليه هجوعه وينفض عن جفني الغرب الباقيات من رقدة الأيام ، والهباءة التي استحالت إلى ظلام كثيف حالك حول مقلتيه وبين يدي حياته ، كأنما لم تنعشه بعدُ اولُ إشراقة من ضحوة الشمس — ذهب حسين شرقاً وذهب غرباً كأنه يضع بكلتا يديه حجر الأساس في قاعدتي قوس النصر مباركاً .

كان حسين يناهز الثانية والعشرين من سنيه ، حينما ذهب جندياً يلوح بشعلة البعث والاصلاح في الحملة إلى الغرب .

وكان جواً حماسياً ذلك الجو الذي صبغ المدينة ، فقد تحولت من بلد ناء مجهول تحيط به الصحراء وتغمره من كل جانب — والصحراء محيط زاخر تقوم فيه الرمال مقام الماء — إلى عاصمة مركزية تتولد فيها الحرارة وتوزعها ، إلى قلب عالميّ تخفق فيه الحياة وينبض بالخلجات إلى كل مكان .

في هذا الجو الحماسي كان التسابق على الجهاد قد اتخذ شكل مباراة بين الشباب والكهول ، ومن دون الشباب ومن فوق الكهو ل .

هي أمة جديدة بعثتها روح جديدة ، فانطلقت وفي عروقها عصارات من حيَوات فائضة تُجريها في جسم العالم الممدّد المحتضر وتصل عروقه بعروقها، فتمشي ، طائفةً عليه دائرةً فيه ، مشيَ الروح التي تمسه بتيارها .

كان السائر في طرق المدينة ومنعطفاتها لا يسمع إلّا الأصداء قوية مزهوة، هي بقايا هتافات تثير الاعصاب . وكان الغلمة يتقاذفون بالازهار ، والعلية يتحايَون بالعَمار [1] والمسرّة [2] ؛ فقد تركوا لاعصابهم المائجة بصنوف الفخار والمجد ، سبيل هواها ومجالات التعبير عن ازدهائها . فقد وردت الانباء بالانتصار المؤزّر في « برقة » وانكفاء البربر هناك .

وكنت لا تجد كيفما سرت وأنّى ذهبت إلا جموعاً تموج في جموع من ظاهر المدينة إلى داخلها ، وعلى فجأة اخذ بصرهم فارساً يطوي الهضاب وهو يمر بينها مرّاً سريعاً ، فشملتهم هدأة غطت على الضجيج وضمّتهم لحظة انتباه وسكون القتهم في صموت متسائل ناطق ؛ وما حل بينهم حتى التفوا عليه وأحاطوا به إحاطة السوار بالمعصم ؛ وأخذوه بسيل من الأسئلة من كــل جانب ، فاستوى على الركاب منتصباً ، وخاطبهم بصوته الجهوري الحاد النبرات والمشتعل المقاطع والكلمات :

ايها الانصار ! ايها الابطال ! اليوم يومكم . فقد دقت ساعة الكفاح . افسحوا لي الطريق إلى المسجد إلى مقر الخليفة واتبعوني !

فتدافع الناس عن طريقه صاخبين هاتفين : اليوم يومنا . إلى مقر الخليفة ... وقف الرجل على مقربة من الخليفة ووجّه مقاله تارة للجموع وتارة اليه :

«ان جُرجير المملك، ما بين طرابلس إلى طنجة، اشّب الجموع وحشد الجند من اطراف مملكته ، للاحداق والايقاع بجيش العرب .وهو يتربص بنا الدوائر،

---

(١) الأزهار والريحان تجعل باقات ويحيا بها ، قال عبيد بن الأبرص « سجدنا له ورفعنا العمارا » .

(٢) المسرة : اطراف الرياحين يحيا بها ؛ ويقال سره أي حياه بالمسرة .

وبات الخطب على قاب قوسين أو ادنى . وان عقبة بن نافع قائدنا المظفر قد بات في ضائقة من الامر ، ولكنه مستبسل اشد استبسال « يكافح كفاح المستميت في الدفاع والهجوم ومداورة الخصوم ، وهذا يوم له ما بعده .

فالى الجهاد ايها المؤمنون ! إلى القيام بالتزامات العقد بينكم وبين الله على تجديد العالم واخذه بالمبادىء الانسانية الفضلى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم واموالهم بان لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون ، وعداً عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم » . ان اخوانكم من قبل روّوا الرمال الرابية إلى افريقية بدمائهم الصبيبة وهم اسخياء ، وبنوا من جماجمهم معاقل الصحراء . وها هي دماؤهم اليوم تناديكم وتستصرخكم بصوتها الرجاف الرعود من وراء الرجم وتستندبكم إلى التضحية .

فالى الكفاح ! إلى النصر !

وما هو حتى اختلط صوته باصوات الجموع وذاب في دويها العميق : بل إلى الشهادة ! إلى الموت ! .. وبقيت الاصداء يرددها الفضاء ويطوف بها الاثير في كبرياء وخيلاء .

وتدفق الناس على التطوع ، وكان في « مقدمتهم الحسن والحسين وعبدالله بن عباس وعلية لا تحصى » وخفوا راحلين :

أجمعوا امرهم بليل فلما اصبحوا اصبحت لهم ضوضاء
من مناد ومن مجيب ومن تصهال خيل خلال ذاك رغاء

ولم يكن طويلاً حتى هبطوا مصاف القتال ، فاتخذوا مواضعهم ودارت رحى الحرب أمداً ليس بالقصير ضاق الخناق فيه على البربر ، فانكفأوا متمزقين يتيهون بين الحزون والسهول ، وبين الاودية والهضاب ...

وبعد بضع سنين « انتظم الحسين في الجيش الذاهب شرقاً إلى طبرستان »

باذلا نفسه مضحياً حوباءه بسبيل كلمة الله التي عاش لها وقضى كريماً تحت ظلالها الدامية وبنودها الحمراء .

كانت الانباء عن تضحية الشباب واستبسالهم ، ترد إلى المدينة طافحة اعجاباً وبشراً . وكانت حديث اليوم بين الناس في الأندية والمنازل وفي منعطفات الطرق ، حيث يحلو الوقوف عند الاصيل لفئة تجد في هذا النوع من اللهو تسلية رائعة ، وتحس بظمأ إلى الصخب يمده الفضول أحياناً فتملأ جو نفسها المقفر بهذا اللون من الانغماس في الضجيج .

وفي طرف من اطراف المدينة انفرد جمع بينهم البراء بن عازب ، يتجاذبون اطراف الحديث عن ابطال الجهاد الشباب . فقال : ان الشباب معناه تفتّح براعم الصبا عن حياة الجد والواجب وعن تبعات الحياة ؛ وفئة الشباب هـم اشعة حاضرنا في وقدة تألقها ، فاذا بدت كسيفة كليلة فقد خسرنا الحاضر والمستقبل جميعاً ، وكانوا اعلاناً عن اننا غير جديرين بالحياة .

فان الحياة قوى سائبة كمثل الرقارق على وجه الرمال ، ولكنها تتجمع في فترة الشباب بمثل خزان الماء ، فتتكسر عند حناياه القوى وتتولد فيها التيارات فتتدفق جيّاشة هادرة .

فالشباب مجموعة من تيّارات قوى الحياة ، فاذا كان الخزان مملوءاً بالثقوب والشقوق ، انسابت المياه في كل وجه وتبعثرت قواها وغاضت بين الوهاد والحزون مترسّبة في مستنقعات آجنة . وحين لا يكون للشباب حصانات ومناعات يمدها شعور بالحقوق والواجبات وحس مرهف بالتبعات ، فقد عاد شباباً رخواً ، افضل منه شيخوخة فانية .

وشبابنا الذين ابتعثتهم المبادىء ابتعاثاً ، لا محيد عن ان تنطلق بهم تيارات القوى ، انطلاقاً ينتهي بالسيل الاسلامي المطهر الجارف إلى غايته ، فيغمر حتى الربى ، لينكشف ، عن حياة جديدة ودنيا جديدة .

ونحن الذين قمنا بواجبنا مع صاحب الرسالة وكان ادنى ما بذلناه انفسنا ، —وما بقاؤنا في عين اليوم الا ذكرى جهاد وتمثال كفاح—لا يسعنا الا ان نبارك شبابهم الغض وجهادهم المظفر. واذا كان لشيء ان يأخذ بانتباهنا طويلاً فانما هو ذلك الاقبال على التضحية بسبيل المبادىء للمبادىء دون ما انانية رعناء وزنانية[1] حقود ؛ فقد ذابت عظامية « ارستقراطية » من كان منهم عظامياً في بوتقة الايمان. والرسالة الناجحة هي التي تستطيع أن تكفل تحويل العظامية من قاعدة الدماء والثراء ، إلى قاعدة المبادىء والتضحيات .

فهذا الحسين سبط النبي له من عظامية الدم ما ليس لاحد اليوم او قبل اليوم ، ومع ذلك فهو يمضي تحت راية الواجب كأي جندي تحدوه مثل غايته . ولا أراه الا معتقداً أن القديم ، انما يجد روحه في الجديد ليغدو كائناً حيّاً رائعاً ، والا فالقديم وحده ان كان يعبّر عن شيء ، فانما يعبّر عن مومياء مجد فقط تظل رمزاً من رموز التاريخ ... فاطرق الجمع وشملهم صمت واعٍ ثم خفّوا إلى رواحلهم وهم يرددون قوله :

« والا فالقديم وحده ان كان يعبّر عن شيء فانما يعبّر عن مومياء مجد فقط... »

---

(١) الزنانية ترادف الانانية تماماً عند العرب القدامى ؛ والزناني : الاناني كذلك .

في الثورة

من المدينة الى كل مكان ، كمصر والعراق واليمن والشام ، خيّم جوّ مكفهرّ ينذر بشيء . وكانت الوانه مختلطة مختلفة الا أنها بدأت تستحيل خيطاً بعد خيط وتتكشّف عن لون أحمر قان ، كأنه لون الدم الحانق أو لون الشفق الذي اطبق به ليل بهيم .

وكان الهمس في أي مكان يطول ولا يقصر ، ويتناوح في زفرات تبعث أسى ، ولكنه من نوع الأسى الغاضب الذي يزداد اشتعالاً بالذكرى والترداد . فقد استفاق الناس على وضع غير محبب بل كريه بغيض ، استفاقوا على مجتمع بدأ يتعقد وتطفو على سطحه طبقات تجر وراءها نضالاً هادراً وتناحراً رهيباً ، بعد ان كانوا شعباً يقوم على قاعدة المساواة ، فهو مجتمع منسجم .

كثرة مُعدِمة وهي معتدّة بذاتها شاعرة بشخصيتها فخور بما أبدت من قوة وقدمت من تضحيات ، وقلة زاد بها الثراء زيادة جعلها تحرز كل قوى النشاط وتدخر مقومات الحياة كافة . ولم يكن وسطاً درج على السخْرِيّة والعمل في الارض فيظل النضال فيه خفياً وبطيئاً في اعطاء نتائجه ، بل كان وسطاً فروسياً ؛ والفروسية اعتدادية وشعور بوجود الذات ، وزادتها الفتوح احساساً بقيمتها ، فكان

أن تفاعلت تفاعلاً تنافرياً مع الوضع الجديد ، وكان ان انقدحت وقذفت بالشرر الى مكان قصي .

والشعور بالذات قاعدة الأمة الناهضة ، فهي لا تقبل سيادة ولا تتولد فيها الاسياد من أي نوع كان ، وتظل أبداً تواقة الى الاصلاح آخذة بأسبابه متقلبة في مدى أطواره .

ركدت الفتوح فنضبت أهم موارد الدولة، وكان العمل السياسي قد اتجه، فيما سبق هذه الحقبة ، الى جعل العرب مادة حرب فقط، فلم ينالوا نصيباً في الارض. ولكن الجندي لن يبقى جندياً أبداً خصوصاً والدولة العربية قد أخذت الامم بحرب اصلاحية عالمية ، فكانت حاجتها الى الجنود كبيرة غير مقتصدة، فشملت العرب عامة ، وسرعان ما وفق العرب الى غايتهم ، وسرعان ما أدوا رسالتهم ، فركدت حرارة الفتح الى درجة الهمود ، وعجزت الدولة بعد ذلك عن كفايتهم؛ فاذا هم طبقة فقيرة غاية في الفقر والخصاصة والعدم ، واذا بجانبهم طبقة أخرى ثرية غاية في الثراء ، وهي لم تجهد أي جهد ولم تُبلِ أي بلاء ، وانما امتصت وتملأت .

كبر على هؤلاء أن يستسيغوا وضعية نابية بغيضة على هذا الشكل، لاسيّما والاسلام في تشريعه جعل للمحارب نصيباً في المغانم كافة ، وبذلك مكنه من أن يتحول رجلاً مدنياً دون أن يكون كلاً على الدولة والخزينة العامة. ولم يقرر الاسلام الجندية نظاماً دائماً لأنه لا يرمي الى أن يجعل من حكومته دولة حرب ، بل سنّ الجندية ، عند الضرورة ، من المدنيين أنفسهم ، وبهذا ضمن شيئين خطيرين :

(١) جعل مسؤولية الدفاع عامة لكي يشعر بها الشعب شعوراً شاملاً بدون تفاوت .

(٢) الحد من طغيان الجند وروحيتهم حتى لا يدفعوا الدولة كل حين الى مضايق حروب جديدة ، فالاسلام وضع في نظامه ما يحول بين الدولة المشتقة من طبيعته ، وبين حرب الاطماع .

وكانت الهوة تتسع بين الطبقات اتساعاً عظيماً وعلى شكل مخيف ، كما أخذ الوضع يتطور من سيّء الى أسوأ حتى استفحل شره ، وبات ينذر بخطب خطير وانكفاء انقلابي كبير الاثر . وزاد في يقظة الخطب تناحر الاحزاب الكثيرة [1] ، فهناك أحزاب رئيسية أهمها :

حزب الامويين : وأكبر رجاله المنتسبين اليه ابو سفيان وابنه معاوية ومروان ابن الحكم والمغيرة بن شعبة .

والحزب الشعوبي : وأكبر رجاله ابو لؤلؤة وجفينة النجراني وكعب الاحبار ، وهذا الحزب كان صنيعة للحزب الاموي ومنفذاً لأغراضه الدموية ومآربه الارهابية .

وحزب المحافظين : وأكبر رجاله علي بن ابي طالب وأبو ايوب الانصاري وعبدالله بن عباس وعمار بن ياسر والمقداد بن الاسود .

وحزب الشعب : وأكبر رجاله ابو ذر الغفاري وعبدالله بن سبأ ومحمد بن ابي بكر والاشتر النخعي وعبدالله بن حذيفة ، وكان هذا الحزب يستنيم الى سياسة حزب المحافظين ، وطابعه انه ثوري عنيف .

وحزب اهل المدينة : وأكبر رجاله سعد بن عبادة وابنه قيس والحباب بن المنذر وعبد الرحمن بن حسان ، وكان أهم أهداف هذا الحزب مناهضة الحزب الاموي وتحطيم محاولاته .

والى جانب هذه الاحزاب كانت تقوم أحزاب أخرى ثانوية أهمها :

حزب طلحة والزبير : وأكبر المنتسبين اليه عائشة .

وحزب أبناء عمر بن الخطاب : وأكبر المنتسبين اليه ابو موسى الاشعري .

---

(١) راجع تفصيل الكلام عليه في الحلقة الثانية من هذا الكتاب ، فصل الحزبية الذي هو أول بحث من نوعه في تاريخ الخلفاء الراشدين .

والحزب الاموي المنشق : وكبير أقطابه عمرو بن العاص .

وما أن استحوذ الحزب الأموي على شؤون السلطة العليا في عهد عثمان ، حتى التفت بعض هذه الأحزاب جبهة معارضة قوية . فقد شاء البيت الأموي أن يجعل من نفسه طبقة حاكمة ، وشاء الى ذلك أن يجعل من قريش طبقة عظامية « أرستقراطية » . وهؤلاء الأمويون لم يكتفوا بأن يفرضوا أنفسهم ووجودهم الخالي من الحياة والجهد ، بل تجاوزوا هذا الى تعبئة المجتمع في طبقات لها امتيازاتها وقيمها التي تهبها حقوقاً دون ما واجبات ، وبسببها تفتات لنفسها من الاعتبارات الاجتماعية ما يخولها انتهاب كل غنم ، يغرم بسبيل حيازته سواد الجمهور .

وكلما وجدت لجماعة ما حقوق دون واجبات فقد وجد لديها شر أنواع التطفل الاجتماعي ، وحينما تنتقل هذه الاعتبارات الى القانون ينتقض الانسجام والتوازن الاجتماعيان ، وينساق المجتمع كرهاً في مآزق التناحر الذي يبدأ من أجل الذاتية وينتهي من أجل الحياة ، وهنا يأخذ شكله الدامي ومظهره الكالح الرهيب ، والى هذا يشير قول النبي (إنما أهلك من قبلكم أنه اذا أثم فيهم الشريف تركوه ، واذا أثم فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد) . فاذا بأبي سفيان يقول عندما ولي الخلافة عثمانُ « يا بني أمية تداولوها بينكم تداول الكرة ، فوالذي يحلف به ابو سفيان ما زلت انتظرها لكم ولتصيرن الى أبنائكم وراثة » ، واذا بسعيد بن العاص يجعل سواد العراق بستاناً لقريش ، واذا بالثروات الفاحشة تصير وتجتمع في أيدي الأمويين وأنصارهم ، واذا بمروان يستبد بالمُقَدّرات العليا على هواه ، واذا بأكثر الأقاليم تذهب إقطاعات بين فلان وفلان ، واذا بالقانون يعبث به فلا يطبق أحياناً وكثيراً ، بل ذهبوا به مع الهوى الى حد أشعر الناس أنهم لم يعودوا سواء في نظرية الحق ونظرية الجزاء .. فسبق الى الأذهان أن هناك فوضى دون ما شك ، وأن هناك فساداً في أداة الحكم سبّب هذه الفوضى دون ما ريب ، والفساد يبيح الثورة ، فتدافعت الجموع في تياراتها .

كان الرائد الطوّاف بين مصر والحجاز والعراق ، والذي يجوب متردداً بين

هذه الأقاليم يلمس ويرى من فواجع الوضع القائم ما يملأه حنقاً وثورة؛ كان يرى بؤساً في غير حد وشقاء مخيفاً وفقراً متغولاً، وكان هذا الفقر والشقاء والبؤس تتوزع هنا وهناك، لتجتمع وتأتلف خصوصاً في بيئات الذين كانوا الى زمن قريب رمز الفخار العربي والاسلامي، رمز الكفاح والجهاد في كل مكان.

نعم كانت هذه الطوائف تنعم بذكرى أمجادها الكبيرة، ولكنها تتحرق أيضاً وهي ترى مقدار ما تبذخ به أقلية فرضت نفسها واستحوذت على الثروة دون أي جهد وسابقة كفاح. فيعلى ابن أمية يملك ما قيمته مائة الف دينار عدا عقاراته الكثيرة، وعبد الرحمن بن عوف يملك ما قيمته خمسمائة الف دينار، وزيد ابن ثابت يملك من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس الخ ... وأيضاً رأوا أن هذا البذخ المترف جر وراءه أنواعاً من المجاوزات في السلوك الذي سن نهجه النبي، وعهدهم به لم يكن بعيداً. كما كونت هذه الغضارة واللدانة، في بيئات الأقلية المذكورة، طائفة من الآراء المتطرفة وجدت سبيل شيوعها في المجتمع، فقابلها بكثير من الاستنكار؛ ولكن لم تعدم مع ذلك جماعة من الانصار، فتولدت في الوسط دعوة الى هذا الجديد المائع المثير، ودعاة الى التجديد الرخو.

بيد ان الكثرة محافظة متمسكة بذلك القديم الذي وجدت فيه سبيل قوتها، وانتشرت مؤمنة بأفكاره وصلاحيته كطب للبشرية اللاهثة المحتضرة، فهم جنود رسالة جاءتهم بهذا القديم الذي لمسوا فيه خيرهم. فلا بدع إن استنكرت الكثرة خطة هذا الجديد ولا بدع إن تحدوا أنصاره واتهموهم بالمروق، ولا بدع ان دخلوا معهم في صراع بدأ خفياً ثم امتد حمياً.

وصادف، في هذه الفترة اللاهبة، تطواف رجل نعرف ان اسمه عبدالله بن سبأ، وكان على ما يظهر، ان صح انه وجد، صاحب نفس حساسة شاعرة وصاحب فكرة منظمة إصلاحية، من ورائهما روح حرة ثائرة. فاتصل بكل وسط إسلامي إذ ذاك، واستلهم الحياة العامة التي انعكست بصورتها وألوانها في نفسه، فاستعر ضميره، واتقدت جوانحه، فلم يكن بد من أن يلتهب، ولم يكن مناص من أن يهتف

بالاصلاح وضرورة تغيير الوضع البائس اليائس ؛ وكان عنيفاً في طبيعته، وزادته الحالة العامة عنفاً ، فقد تفاعلت الصفة الحيوية الشائعة في المجتمع بطبيعته تفاعلاً جعله يثور ، وجعله يبشر بمبادىء الاصلاح الثورية . ولم يكن المجتمع حينذاك في حاجة الى أكثر من التنادي به واستصراخه ، فقد كان بحالة من التوتر والتفاعل الى درجة القدح بالأوار .

وهو الى هذا قد اجتمع بأقطاب الحركة الثورية في مصر والشام والعراق وتأثر بهم ، ولا سيّما ابو ذر الغفاري الذي ركز [1] أفكار عبدالله بن سبأ. وهذا وجد فيه ينبوعاً دينياً ومعيناً خصباً يمكنه أن يستمد من أخباره عن النبي ما يجعله سنداً لأفكاره ، فان أبا ذر كان يحدث من قبل ورود ابن سبأ الى الشام بأحاديثه المستندة الى النبي ، وكلها تحمل عناصر الافكار التي انطلق ابن سبأ يروج لها . والذي لدينا من وثائق التاريخ يشهد أن اعلان ابي ذر عن هذه الأفكار وقع قبل اول التقاءة بينهما ، كما يشهد أيضاً أن تكوّن شخصية ابن سبأ كان بعد أول لقاء . فالتاريخ وكتب الحديث تعرف جيداً ان أبا ذر كان يحدث في الشام بمثل هذه القصة التي هي من وقائعه عهد النبي .

---

(١) يظن البسطاء من المؤرخين ، تبعاً لتقديرات استشراقية مرسلة إرسالا ، أن عبدالله بن سبأ — تلك الشخصية التي هي شبه تاريخية أي خرافية من شدة غموضها إلى حد يبيح لنا انكارها مرة — فتن مجتمعاً باسره ؛ وهذا منقوض على ضوء البسيكولوجية الاجتماعية . وفتن ابا ذر الذي ساير النشوء الديني الجديد في كل أطواره . ويتبين لنا درجة ما فيها من سخف حينما نعرف أنهم بشخصية شبه تاريخية يريدون تغيير مجرى حادثة تاريخية هامة ، ولا شك أنها طريقة ميتافيزيقية يراد بها تعليل المعلوم بالمجهول ، وما يدرينا فلعل عبدالله ابن سبأ عنتر اجتماعي مثل عنتر الفروسي ؟ وانا اذا كنت أستطيع أن أقر بهذا الشيء المدعو عبدالله بن سبأ فانما استطيع الإقرار به على أنه تلميذ المدرسة الغفارية ، ويؤكد هذا أنه من أنصار علي بن أبي طالب في الجانب السياسي والديني من أفكاره ؛ ومعروف أن أبا ذر من أنصار علي ، فلو فرضنا أنه جاء بافكار مزدكية فلماذا لم يختر إلا مناصرة علي ، وكان اروج لدعوته لو ناصر ذكرى ابي بكر وعمر . والسبب في نظرنا الذي أدى إلى نشوء مدرسة ابي ذر ودعوته إنما هو ذلك التورط والتهالك على مسلك الثراء المتطرف اللذي أخذت باسبابه الاقلية الاموية وأعوانها وبروزها ذلك البروز الارستقراطي واستبدادها الاقطاعي ، فكان في ذلك ما أغرى ابا ذر على فهم الشريعة ذلك الفهم . راجع الحلقة الثانية من هذا الكتاب.

قال : (سابَبْتُ رجلاً — وهو بلال — فعيرته بأمه وكانت رقيقة .

فقال لي النبي : يا أبا ذر ، أعيرته بأمه ؟! انك امرؤ فيك جاهلية . اخوانكم خوَلكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم فان كلفتموهم فأعينوهم) .

يروي أبو ذر مثل هذه الواقعة،في حق الموالي الارقاء بالقانون؛قَصْد محاربة الوضع الذي شاعت به الاقلية جعل سواد المجتمع أرقاء اجتماعيين .

فالذي لا ريب فيه إذن أن ابن سبأ كان يحمل أفكاراً استلهمها من حالة المجتمع القائمة ، ولكنه سقط عند أبي ذر على ما يركزها ويوضحها ، ويعطيها العنصر الديني المفقود لديه من قبل،وكانسبب تخوفه من نشرأفكاره الحرة وبالحريّ أفكار الشريعة على طريقة ابي ذر ، فمضى يبشر في طول البلاد وعرضها بما انه الدين أيضاً .

رأينا كم كانت أقاليم المجتمع الاسلامي الكبيرة متوترة مستوفزة،ورأينا الى أي حدّ قد أحسّ الشعب أن الأقلية الحاكمة تحيك حوله مؤامرة واسعة النطاق تبالغ حتى تتصل بحياته،فانكفأ الشعب كلّه في الاقاليم يتآمر بها وينسج من حولها شباكه ، ولقد باتت الحالة العامة تجيء في كلمتين : حكومة تتآمر بالشعب،وشعب يتآمر بالحكومة ، ولكن للشعب الكلمة الاخيرة والعليا دائماً .

وعبدالله بن سبأ أيّان مر واين انطلق يصادف جموعاً تعتلج على جموع ، وكتل المؤامرة تنتشر في كل مكان وتتوزع لتحتشد . ولقد أحسن التعبير عن أماني الجماعات وتصوير أحلامهم وآمالهم ، فافتتنوا به وافتتن بهم ، ولم يكن يربط بين هذه الجموع الا رابطة الشعور بضرورة الاصلاح السريع ؛ فقد بلغ من شدة الفساد أن كان أكثر الناس تحمّساً للثورة هم أهل المدينة ، والمعروف عن هؤلاء انهم يشتملون على اكبر عدد من أرباب الحل والعقد وهم مرجع السلطة العليا ، ومن شأن هؤلاء انهم يحاولون شتى المحاولات للترقيع والتوجيه ، فكان شعورهم بضرورة الثورة معناه ان الخرق قد اتسع على الراقع ، وان حالة الفوضى لا ينجع

معها إلا القمع العنيف فتخلوا عن طريق الجمهور ، أو قل كانوا في الطليعة .

ولكن مع ذلك فقد ظل حزب علي أو حزب المحافظين يبذل جهوداً جبارة بسبيل تقريب وجهة النظر بين كتلة الشعب وكتلة الحكومة، ويحول جهد المستطاع بين الجمهور وبين مآربه الدامية ، وكثيراً ما جعل من نفسه ضمانة لهيئة الحكم . والشيء الجدير بالتسجيل ونصاعة الذكران هذا الحزب بقي موالياً، بعطف صادق، للحكومة الى الساعة الأخيرة التي لم يعد ممكناً فيها ضبط أعصاب الجمهور الثائرة، فطغى على الحواجز وبدأ التهديم .

ومن الانصاف الخير أن نذكر أن الجمهور مع ذلك لم يكن أرعن في ثورته ، فقد أتصل بأولياء الامور والسلطة وطالب مُسْتَشْفِعاً بممثليه مراراً وتكراراً ، ولكن مطاليبه في كل مرة كانت تبوء بالفشل ، وكان فشلاً ذريعاً متواصلاً من النوع المثير ، فلا بدع إن هب الشعب هبته الغضبى وتركزت الثورة الانتقامية في رأسه تركز الفكرة الثابتة لا يحول عنها في كثير أو قليل .

هبطت وفود الامصار المدينة مرة وأخرى الى مرات كثيرة ، وكانت في كل مناسبة تحمل طائفة من أمانيها وهي ملأى بالرجاء تود لو صدقت أحلام آمالها ، وكانت ترجع في كل مرة بوعود معسولة، ولكن لا تلبث أن تستحيل الى صدى يأس فيه غرور السراب .

ساءها في كل تجربة وكل محاولة اخفاق المنقلب ، فأغيظت كذي النفس الجريحة على من لا يفتأ ينكأ جراحه ويجري دماءه ، ولم يسعها كظم عواطفها الملتهبة فهدرت صاخبة محتجة تريد وضع حد لآلامها وبأسائها المستعرة ، فكانت تصطدم تكراراً ومراراً بما يوقظ فيها شعور الخيبة المنتقم . لذلك لم تكن الجماعات تُرى في أيّ مكان إلا ملتئمة على بعضها تتهامس في أمر خطير .

وفي هذه الفترة الملتهبة كان يطوّف، كما قلنا، في أقطار المجتمع الاسلامي عبدالله بن سبأ ، فما حل بقعة إلا وسمع فيها تجاوب نأمة واحدة مستنكرة ، فاشتمل على حفيظة متحرقة تتأكّل في حناياه غيظاً وتحرق الارّم . وما هو إلا أن

هبط الشام فاتصلت أسبابه بأسباب أبي ذر ، فقد سمعه ينتقد ولا يبالي على أي وجه فُسّر عليه انتقاده ، ويتحدى المجتمع[1] والدولة وكل أسرة الحكم تحدياً جارحاً بمنطق الدستور الاسلامي العام الذي هو القرآن والسنة ومناهج السلوك التقليدية ، ويأخذ على الانطلاقيين المتجاوزين مذاهب سلوكهم .

رأى ولمس مقدار تهاوي الناس في الترف بالعدوى وتهافتهم على الرفاه من أي طريق ، وتستتبع خطة هذا السلوك إباحية ولا مبالاة ، فجعل من نفسه وأتباعه حاجزاً يقاوم التيار ، فوقف في كل مكان يبشر بمبادئه وبعبارة أصح يقرع سمع الناس بما قد عهد عليه النبي وبما قد سمعه منه ووعاه بين يديه ، ولكن بعضاً من الناس كانوا قد استناموا الى هذا الجديد وتذوقوه ولذّتهم اشياؤه ، فأبوا عليه وأبى عليهم ، فانطلق لا يبالي غضباً ولا رضى .

وكان أبو ذر يرى أن فكرة الحياة الانسانية هي الفضيلة ، والانسان هو الفاضل فقط. فعلى الناس إذاً أن يحلوا أشياء الفضيلة بينهم ، وأن يوفروا كل جهودهم على تحقيقها وانتهاج سننها وأساليبها . وأما أولئك الذين يجمعون أكبر جهدهم وهمهم على التزيد من مخارف الحياة الناعمة وأسباب العيش الرفيه ، فانهم لا يفضلون في اعتباره عن سائمات وجدت سبيل حظوظها . والانسان عنده اذا جمع همه هذا الجمع فانه ينقلب حيواناً فقط ميزته أنه أقدر على التحيل بما فيه من الفكر ، وأما الانسانية فانّها عنصر غريب عنه . ولكي يكون إنساناً ويظل كذلك لا بد له من حياة أخرى مادّتها الفضيلة ، والفضيلة في نظره هي التجرد والعمل .

هو يريدنا أن نعمل ونكافح بما استطعنا الى ذلك ، كما يريدنا أن نتجرد أيضاً فلا ننغمس في مدى الفتوة ، يريد منا سيراً بما فينا من حياة عضوية ذات حرارات ، واستعلاء بما فينا من روح لا تفتأ تنشد السمو .

وليس أضر على الكائن الانساني من أنْ يسير بالحياة فقط ، إذ بهذا

(١) تفصيل رأينا في مدرسة ابي ذر وتفصيل آرائه في الحياة وغايتها وفي المجتمع ونظامه وفي الحرية الادبية وعلاقة الحي باقة تجده في كتابنا : « مدرسة ابي ذر والثورة الكبرى في الاسلام » .

يشبه سير الرحي تتحرك وهي قابعة بمحلها . وفرق ما بين الانسان والحيوان أن الثاني تسير به الحياة والاول يسير بالحياة ويستعلي دوماً بالروح التي هي فكرة الحياة وغايتها وضميرها وأخلاقيتها . وإذا كانت الحركة ضرورية للحياة ، والفضيلة التي هي التجرد ضرورية للانسانية ، فلكي نكون أحياء إنسانيين يجب أن نعمل ويجب أن نتجرد ، وأما اذا عملنا فقط فقد نحرنا عنصر الانسانية فينا وأسففنا ، كما تتعقد الحياة حين نضعها في معترك أطماعنا وشباك شهواتنا . فكان يوصي ويلح أن نعمل وأن نتجرد أي نعمل ولا ندخر ، فحض بأقسى أسلوب وأعنفه على عدم الكنز ، ولوّح ما شاءت له فكرته وشاء ضميره بقوله تعالى :

(والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) .

وهو يرى أيضاً ان الدولة كالفرد سواء بسواء ، فاذا كنزت ولم تتجرد انحطت وتولدت لديها الاطماع . ، فتحدى الدولة كما تحدى الافراد ، وحارب الكنز الاجتماعي كما حارب الكنز الفردي . وشنّها شعواء على دنيا القصور وحياة الترف ، فقد نظر اليها نظره الى مأتم للمثالية العليا والأحلام السامية ، فموكب الانسانية لا بد أن يتوقف ويتوحّل ، وينقلب موكب رُجُم اذا شئنا الولوج به في دنيا الشهوات .

ومن ناحية أخرى أحس بآلام البؤس في الناس ، وأحس أن الدولة تتوسل بالتسميات القانونية الى انتهاب المسميات الحقوقية من أربابها والاستحواذ على الثروة الاجتماعية وتبديدها دون مستحقيها ، فقدر واستنتج أن الحكومة المنتخبة هي ذات الحق الاول في التصرف بالاموال الشائعـــة . فتسميتها مال الخزينة بمال الله التي يراد منها الشيوع ، وسيلة إذاً للتلاعب والاستحواذ ، فحمل حملة نكراء على هذه التسمية المغلوطة ونادى أنها مال المسلمين ، هذه التسمية التي تؤدي في تسلسلها المنطقي الحقوقي الى منع حرية التصرف ، والى وجوب توزيعها عليهم وتعلق حقوقهم بها .

وبلغ من شدة وطأة هذه الدعوة أن جعل الأنانيون الطامعون يفرون من طريقه كلما رأوه ، وزاد في تأثير دعوته وانتشارها أنه كان يشفع أقواله هذه بأحاديث مأثورة سمعها من النبي . فوجد عبدالله بن سبأ في هذه الأفكار التي يسمعها من أبي ذر ما هو العلاج الناجع لروح المجتمع البائسة ووجد فيها أيضاً محض أفكاره ؛ وفوق ذلك وجد فيها ما تتوق اليه رغبة المطالبين بالاصلاح الحائرين ؛ فانطلق على سنة أبي ذر يبشر ولا يحفل .

توقف في الكوفة وهو يذرع الأقطار ؛ فرأى فيها حركة أقوى من سائر الحركات الأخرى في المدن والعواصم ، فانخرط فيها ونظمها ، وهناك وضعت (عريضة الحق) أو « مطالب الاصلاح » فلم تقابل من الهيئة الحاكمة بالحسنى بل بالاعراض ، فتألبوا وكان أن توسط علي بن أبي طالب بينهم وبين الخليفة فوعدوا خيراً ، وما أن بارحوا المدينة حتى أوعزت السلطة العليا الى معاوية (بالقبض عليهم) في حمص ، وبعد لأي أفرج عنهم فعادوا الى المطالبة مرة أخرى ، بيد أنهم استعدوا للخصومة مهما نجم عنها ومهما احتبكت ألوانها الكالحة . وكانت عريضة الحق تشتمل على :

أ ــ ابعاد البطانة المشرفة على تسيير الأمور حالياً ولا سيّما مروان بن الحكم .

ب ــ الرجوع الى سياسة الاموال التي درج عليها النبي دون السياسة التي جرى على سنتها الخليفة الثاني ولا تزال .

ج ــ ضرب اليد على طماعية قريش .

د ــ الحد من صلاحية الولاة والامراء، فيتقيد تصرفهم بالخراج والاموال العامة .

هـ ــ الحيلولة دون الأمراء واستذلال الأهلين .

وفدت الوفود تحت ستار الحج وهي تخفي أغراضها الدامية الثورية ، وشاع الهمس في المدينة وانطلقت عبارات الانتقاد تؤج كالنار في الهشيم ، وقد اتصلت

بعلي أخبارهم فتخوف مغبة الأمر وبادر الى الاجتماع بعثمان فقال له :

« الناس ورائي وقد كلموني فيك ، ووالله ما أدري ما أقول لك، وما أعرف شيئاً تجهله ولا أدلك على أمر لا تعرفه .

انك لتعلم ما نعلم ، ما سبقناك الى شيء فنخبرك عنه ، ولا خلونا بشيء فنبلغكه ، وما خصصنا بأمر دونك . وقد رأيت وسمعت وصحبت رسول الله ونلت صهره ، وما ابن أبي قحافة بأولى بعمل الحق منك ولا ابن الخطاب بأولى بشيء من الخير منك .. ثم يقول :

فالله الله في نفسك . فانك والله ما تُبَصَّر من عمى ، وتعلّم من جهل ، وان الطريق لواضح بيّن .. فاذا اعتذر عثمان اليه بأنه يقتفي أثر عمر أجابه علي :

سأخبرك أن عمر بن الخطاب كان كل من ولي فانما يطأ على صماخه ، ان بلغه عنه حرف جلبه ثم بلغ به أقصى الغاية . وأنت لا تفعل ، ضعفت ورفقت على أقربائك .. فاذا ذكر له عثمان أن معاوية كان ممن ولاه عمر مدة خلافته كلها وانه يقتدي كذلك بعمر في توليته ، أبان له علي الفرق بين العملين فقال :

أنشدك الله ! هل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر ، من «يرفأ [1]» غلام عمر ؟ .. قال : نعم . قال علي : ان معاوية يقتطع الامور دونك وأنت تعلمها ، فيقول للناس هذا أمر عثمان فيبلغك ولا تغيّر على معاوية » .

ولكن معاوية لم يزل بعثمان يوغر صدره على علي ، ويضرب له المثل بشدته عليه فيقول :

« هكذا يستقبلك وأنت إمامه وسلفه وابن عمه وابن عمته ، فما ظنك بما غاب عنك منه ؟ . » وكذلك يقول سعيد بن العاص وسائر بطانته (حتّى اجمع ألا يقوم دونه) . وعلي حيال تردد عثمان لم يسعه إلا أن يقول :

---

(١) يرفأ : اسم غلام عمر وكان اذا رآه يرعد منه رعباً ، فضرب المثل به في الرعب .

(ما يريد عثمان أن ينصحه أحد ، اتخذ بطانة أهل غش ليس منهم أحد إلا وقد تسبب بطائفة من الارض ، يأكل خراجها ويستذل أهلها) .

وكان عمرو بن العاص في هذه الأثناء يحرض الناس على عثمان ويجبه سياسته علانية ويتجسس عليه ويفضح الاحاديث التي تجري داخل داره ، ولا يلقى أحداً إلا أدخل في روعه كراهيته ويستغل المناسبات والظروف حتى قال يصف نفسه :

« أنا ابو عبدالله اذا حككت قرحة نكأتها ، إن كنت لألقى الراعي فأحرضه على عثمان ».. وهذا عثمان يستشيره في جماعة من صحبه فيقول له عمرو :

« أرى انك قد ركبت الناس بما يكرهون ، فاعتزم أن تعتدل ، فان أبيت فاعتزم أن تعتزل ، فان أبيت فاعتزم عزماً وامض فيه قدماً » .. ويقابله حينما خطب عثمان على ملأ من الصاحبين المتمردين بقوله :

« يا أمير المؤمنين : إنك قد ركبت نهابير وركبناها معك ، فتب نتب » .. وهذه عائشة تجترىء وهو يخطب فتقول وقد نشرت قميص النبي :

« هذا قميص النبي لم يبل ، وقد أبليت سنته ».. وهذان طلحة والزبير يعينان الثائرين بالمال .

والجموع المتألبة الوافدة من كل مكان ، حيال ما ترى وحيال ما تحس به من آلام في قرارتها ، تفتحت ثائرتها ومضت في اندفاعها متنمرة غاضبة . فبذل علي كل جهد لتخفيف ثائرتهم وتبريد غلوائهم ، وحمل عثمان على إعطائهم مهلة ثلاثة أيام . فلما انتهت اجتمعوا على بابه (مثل الجبال) على حد تعبير المؤرخين ؛ قال عثمان لمروان « أخرج وكلمهم فاني أستحيي أن أكلمهم » فخرج مروان الى الباب (والناس يركب بعضهم بعضاً) فقال :

« ما شأنكم قد اجتمعتم كأنما جئتم لنهب ؟ . شاهت الوجوه ، كل انسان آخذ باذن صاحبه ؟ . جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا ؟ . أخرجوا عنا . اما

والله لئن رمتمونا ليمرّنّ عليكم أمر لا يسركم، ولا تحمدوا غب رأيكم . ارجعوا الى منازلكم والله ما نحن بمغلوبين على ما في أيدينا »

كانت هذه الخطبة المملوءة حمقاً ورعونة ، شرارة شديدة الأثر في إذكاء الثورة وتقريب خطواتها ؛ ومروان لم يفلح فيها باثارة الناس فقط ، بل أفلح أيضاً باثارة علي نفسه الذي ضمن للجمهور تسوية الامور على ما يرغب ، وقد أسقط في يده حقاً وما وسعه تحت عاصفة نفسه وعاصفة الجمهور المائج الا أن يقول مقالته المشهورة :

« ما رضيت من مروان ولا رضي منك ، إلا بتحرّفك عن دينك وعن عقلك ، مثل جمل الظعينة يقاد حيث يسار به . والله ما مروان بذي رأي في دينه ولا في نفسه . وايم الله إني لأراه سيوردك ثم لا يصدرك ، وما انا بعائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك ، أذهبت شرفك وغلبت على أمرك » .

ودخلت عليه امرأته نائلة ابنة الفرافصة ، فقالت :

« أتكلم أو أسكت » .. فقال : تكلمي . فقالت :

« قد سمعت قول علي لك وانه ليس يعاودك ، وقد أطعت مروان يقودك حيث شاء » .. قال : فما أصنع ؟ .. قالت :

« تتقي الله وتتبع سنة صاحبيك من قبلك ، فانك متى أطعت مروان قتلك . ومروان ليس له عند الناس قدر ولا هيبة ولا محبة . وانما تركك الناس لمكان مروان منك ، فارسل الى علي فاستصلحه فان له منك قرابة وهو لا يعصي ».. فأرسل عثمان الى علي فأبى أن يأتيه وقال : « قد أعلمته انني لست بعائد »..

كبر على علي مثل ذلك المنطق الذي فاجأ به الجموع ، مروان بلسان الخليفة ، وهو يعلم انه لم يكن بينهم في هذه المرحلة العصيبة وبين التلظي والتهام الوضع القائم ، الا كلمة رعناء كالتي فاه بها مروان ؛ على أنها هدمت قيمة وساطته وألقت في روع الناس ارتياباً حقيقياً حاداً في جدوى مداخلته ، لهذا — وهو في مقياس كل عصر

مبرر – تنحّى واعتزل واعتصم في حدود هذا التنحي والاعتزال. ولكن علياً مع كل ما هو عاتب وواجد ، لم يزل يقدر ويذهب في مدى تقديره بعيداً فينتهي الى الكارثة ويتراءى له شبحها ، فيرهب هولها ويخشى وقوعها ؛ يجب إذاً أن لا يظل بعيداً،وإن توارى من الميدان إزاء موقف بطانة عثمان من الجمهور هذا الموقف النابي المثير ، فبادر الى تقديم ولديه – لاعتباراتهما التقديرية – ومواليه ، كي ينهنهوا عوادي الأحداث وطائشات الخطوب. وحين بلغه (أن الناس حصروا داره ومنعوه الماء بعث اليه بثلاث قرب ، وقال للحسن والحسين : إذهبا بسيفيكما حتى تقوما على بابه ولا تدعا أحداً يصل اليه بمكروه، وكان أن خُضِّب الحسن بالدماء وشجّ قنبر مولاه) .

وبات علي مطمئناً فقد رتب الأمور جيداً ، وهو واثق من أن مجرى الحادث سيسير على هذا الشكل : يضطر عثمان تحت ضغط الجمهور الى إجابة مطالب الاصلاح وتنحية بطانته ولا سيما مروان ، ولوجود ابنيه ومواليه اطمأن من عدم دنوّ الخطب منه . فان وجودهم يعبر عن معارضة عملية أكيدة من جانبه ، فلا يتصل به مكروه دام يضع حداً لحياته ، وإنما كل ما في الأمر أنه سيضع حداً لأساليب الحكم الاستبدادية ومهازله العابثة . وما كان يدري أن المغرضين ذوي المآرب كانوا قد اندسوا في الجمهور الذي غدا جد حساس وجد متأثر ، فتدفق السيل جارفاً و (جرى الوادي فطمّ على القَرِيّ) .

هذا ما عرف التاريخ عن علي وبنيه إزاء المصرع : بينما عرف من ناحية ثانية أن عثمان وهو محاصر كتب الى معاوية وهو بالشام :

(إن أهل المدينة قد كفروا ، وأخلفوا الطاعة ونكثوا البيعة فابعث اليّ من قبلك من مقاتلة أهل الشام على كل صعب وذلول) فاذا بمعاوية حينما جاءه كتابه (يتربص به فقد كره – على حد دعواه – مخالفة أصحاب الرسول وقد علم اجتماعهم على ذلك) .

ومن تهكمات القدر أن يحرض عمرو بن العاص على قتل عثمان ؛ وتجبهه

عائشة علانية ، ويتخلى معاوية عن نجدته ، ويعين عليه طلحة والزبير كلاهما ؛ ثم ينفر هؤلاء أنفسهم هنا وهناك ، يطالبون بدمه علي بن ابي طالب الذي أخلص له النصيحة وحذره من هذا المصير ، وكان مجِنّهدون رواكض الخطوب .

*

بين حق وباطل ومُستصرخ وناكل ، تراقص المحيط مضطرباً مترنّحاً كبحر استقبل بين حناياه العاصفة ...

فماد بها ومادتْ به زمناً ، وانطلق يقذف بالزبد يعبر عن أنه حانق ، ويرمي بالموج متطاولاً كأنه يتهدد ...

فقد عبثت العاصفة بأبدية السكون الجاثمة عليه ، وهـــدوء اللانهاية الغامضة الحائمة فيه ...

*

شعر البحر (١) أن الصخور (٢) الشامخة في أرجائه ليست من طبيعته ...

فاستدار عليها يزمجر ثائراً هادراً ، فقد أيقن أنها مكمن العاصفة فهو ينوء باقتلاعها ...

وحين طاولته طما عليها وتجاهل وجودها ...

وهو ، وإن لم يقتلعها ، ردهـــا الى حيث لا يكون لها حساب في كبرياء الوجود ...

*

---

(١) كناية عن الشعب الذي هو في الواقع بحر حيوي يفيض بالقوى ، وتاريخه سيل من الهدوء والعواصف والتيارات والتناحرات بين أحيائه .

(٢) كناية عن الارستقراطية وما حل محلها في المجتمع الحديث ، وفي الواقع ان لهذه الارستقراطية طبيعة الصخر من كبرياء قاسية وحس بليد .

إن كبرياء الواحد تجاهل لوجود الآخرين ...
ولكن وجودهم في حسّ الواقع ، أكبر من وجوده في حسّ الخيال ...
فان وجوده قبضة من الظلام ، ووجودهم قبضة من الشعاع ...
وما تقابلا إلا داب الأول في الثاني دون ما أثر يقفو ...

*

إن الكبرياء صفة ذاتية للكثرة ، وهي تشير الى العدد ...
واذا نجح الفرد في ابتلاع الكل أحياناً ، فانه متعرض لخطر التّمزّع دائماً .
فالكل قنبلة قد تبرر حيناً ، ولكنّ فيها إمكانية التفجر أبداً ..

*

في طبيعة البحر رشاقة الحركة ، وفي طبيعة الصخر سكون بليد وأيضاً قاس متجهّم ....

وبينهما وقف إنسان [1] فيه وعيُ السكون وقصدُ الحركة، يصل أسباب أحدهما بأسباب الآخر ...

وكانت كبرياء الصخر عمياء فلم تقنع بغير وجودها ، فانطلقت أعاصير البحر تزأر في مثل الفحيح .

ووقف هذا الانسان عند الشاطىء ينظر متفَجّعاً ، فاذا الوجود المخدوع — الذي أضحى غوراً — ترقص فوقه موجة مارحة ... في نغمة تخبر : أنه كان هنا شيء فيما زعموا ...

*

مضى ذلك الانسان وقد أبصر وسمع ، مطرقاً مردداً : بهذا نطق الحق في صدى الموج ...

---

(١) كناية عن كل مصلح إنساني يعمل في وعي المبادىء كملي .

وروى هذا الانسان لولده[1] أمثولة البحر ، فلبث متأملاً يعبر عن أنه وَعى...

ولم يكن طويلاً ، حتّى كان بنفسه رجفة رعشات وخلجات ، ورجعة أصداء الموج ....

وشرع الناس يروون ، بعد ذلك ، أمثولة ابن الانسان ...

(١) كناية عن أسمى أبناء الوعي الجديد كالحسين .

في الزوبعة

عن مأساة حمراء اختلطت فيها الاشلاء بالدماء، انكشف الفصل الاخير من فصول الثورة التي كانت تمثل على أرض المدينة وفي بطحائها الفسيحة المدى البعيدة الآفاق، والتي كانت تتجاوب بأصدائها المادرة هنا وهناك، قريبة بعيدة، فتتفاعل مع الاحياء تفاعلاً ملوّن الرعشات، فمن بيضاء ناصعة كالزبد، ومن سوداء فاحمة كالقار، ومن حمراء قانية كالعنم، وأعصاب الجماعات تتمدّد وتتقلص وتعلو وتهبط، فجذلان هناك وغضبان هنا، وبين هذا وذاك تنبعث نأمات محترقة أو زفرات مختنقة أو بقايا هتافات مغتبط طروب.

وهم وإن لم يجمعهم الاسى، فقد تنفس سائرهم الصعداء؛ ولكن لم تلبث أن دارت الثورة على نفسها بالغة عنيفة، فقد افتُلِتَ قيادها وهبّت طائشة على قطبها، شاردة في لولبها.

كان الجمهور قد التهب بروحية الدماء وشرّتها فغدا دموياً شرساً، يصر على أسنانه في شكل كريه كأنه يتأكلها أو كأنما يتأكل الاشباح والطيوف التي استوت في مكان الحس من نقمته، فهو يتوعد ضارباً بقبضته في الهواء كمن يبحث في مكامن الفضاء عمن أثار عليه حفيظته، والحفائظ قاسية نهمة اذا انطلقت في مدى الشعور المتضرّي؛ واعصاب الحي حينما تضرى وتهيجها النقمة المحترقة لا تذهب

في انتقامها الى الايقاع الساحق بمن أسعرها فقط ، بل تروح ماضية وراء ذلك بعيداً . فهي لم ترو حرقة الظمأ القائر ، فتطلب سحق أخيلتها وتصارع الخيال البغيض الذي تمدد عليها في ثورة الدماء؛ ومثل هذا الجمهور لا يرعى للموت قداسة وحرمة ، وكذلك كان فقد حال بين جسد الخليفة المفؤود وبين الدفن؛ إنه حانق لا يطيق أن يرى شيئاً يجدد له الذكرى أشدّ هولاً .

انطلق الناس في مذهب أعصابهم المتأزمة المتعقدة دون هوادة أو لين ، يدكون معالم الماضي القريب كيف حلا لهم ويصخبون كيفما شاءت أهواؤهم؛ وفي هذا التجمهر الكبير قام الاشتر منتصباً فوق الجموع ملوّحاً بسيفه ، هادراً بمنطقه الناري المتقد الذي كان يخرج ممتداً كألسنة اللهب قائلاً :

ألا سحقاً لبطانة الخليفة الاشرار ؛

وويل للظالمين من أتون الشعب الفوّار ؛

فيد الله من وراء الغيب تعتصر المستبدين الفجّار ؛

ولا بدّ للظلم من أن يلتهمه في ضمير الكون أفعوان جبار ؛

ورحم الله الخليفة الرفيق الذي انقلب لينه معهم الى انقياد وصغار ؛

وحيّا الله غضبة الاحرار ؛

وكبرياء بطشة الشعب اذا ثار ؛

التي انتصفت للمظلومين الأبرار ؛

فهؤلاء الى الجنة ، وأولئك أعداء الشعب الى النار ؛

وحذار أن تتركوا للعادين فرصة الفرار والنفار ؛

فهلمّوا كالسيل اندفاعاً الى بطل الأحداث الكبار ؛

فقد أعطيت القوس باريها وتم الانتصاف والانتصار ؛

واطمأن مشردو الطغيان في القفار ،

وانتحر العدوان وأنصاره أيّ انتحار ؛

واعتلى الحق على الباطل وذابت حلكة الليل في رائعة النهار .

فانطلق الناس يموج بعضهم في بعض ، وتدافعوا في كل طريق كالقُلل الساقطة المتدحرجة الى دار عليّ ينادون به خليفة وزعيماً .

كان في مسجد المدينة جماعة يتجاذبون أطراف الحديث ، في شيء من التنافر في الرأي والنظر الى الحدث الدامي الذي تم على أيدي الثائرين .

قال حسّان بن ثابت : لقد عدا الثائرون أقدارهم وايم الله ، واستطالوا على مقام الخلافة ، ولم يرعوا حصانة العهدة التي تمت بالانتخاب ، ولكن :

من سره الموت صِرْفاً لا مزاج له ... فليـــأت مـــأسدة في دار عفانا

لتسمعن وشيكـــاً في ديارهم ... الله أكبر يـــا ثارات عثمـــانا

قال المغيرة بن شعبة : ماذا تقول ؟! عدوا أقدارهم فقط ! بل هم أئمة سفّاكون ، ونحن لم يفتنا من إثمهم ، بل نصيب كبير مما اقترفوا . كانت جنايةً ما ما أهولها ! . إني لأنظر الى أيدينا نحن ، نعم ، نحن ، فلا أراها إلا ملطخة بالدم الزكي البريء . لقد شاركنا هؤلاء المجرمين الى حد كبير ، بل كنا أكثر من ذلك ، كنا مطايا الجريمة .

لعلكم لا تدرون أن في الحادثة يداً مجهولة حاكت هذه المؤامرة الطاغية من أطرافها وأحكمت أسبابها ، نعم استطيع أن أتهم وأعلن بملء فمي : أن وراء الأكمة ما وراءها .. وابتسم ابتسامة صفراء كالفحيح في شفاه ملتوية مقلوبة صحبها تكسّر في الجفون كأنه يشير .. ولكنها أكمة شفافة ترى من خلالهـــا الأشباح .

تنمّر جهجاه الغفاري ورد عليه : بل باء أصحابك بشر أعمالهم ، وإن من بقي منهم لينتظره يوم أكثر سوءاً ، ولو كانت الأمور التي لما ترددت في أن

أبطش بك أول ما أبطش ، فأنت هو رأس الأفعى ، وبنفسي ان أروي بك أعصابي الظامئة .

فيك وفي أصحابك قال عمر بن الخطاب : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » ، ألم يقلها لعمرو بن العاص وابنه يوم ساما المصري البريء واضطهداه استعلاء في الأرض وعتواً . قال هذا فيكم ولم تتربعوا على دست الحكم ولما تصر مقاليد الامور وأسباب السلطان الى أيديكم ، فكيف وقد تسودتم ؟ . أردتموها فرعونية وربوبية ، وركبتم الناس بالبغي مطايا شهوات .. وثارت به حفيظته فانقلبت سحنته وتجهم على شكل منكر ، وبدرت منه حركة تنذر بشر ، لولا ان خف عمار بن ياسر فحال دونه وتناول الحديث : ١

« كما تقول — يا مغيرة — إن وراء الأكمة ما وراءها ، ولكن كم يُسقط في يدك اذا لم يكن وراء الأكمة إلا بطانة الخليفة الراحل نفسها ، ثم لم تتكشف عن أحد سواهم ، فأنا أرى كما ترى وأقدر مثلما تقدر ، بيد أني كلما حدقت بين الحلال وأطلت التحديق وأنعمت النظر ، فلست أرى وراء الأكمة إلا من ذكرت لك ثم لا أرى إلا إياك وأصحابك .

نعم في مصرع الخليفة الفظيع مؤامرة أنتم نظمتموها بأنفسكم ، وقد يقع غريباً عليك أن يتآمر المرء بنفسه ، وقد تسخر في سرك من قولي ، ولكن المتهور الطائش طالما نال نفسه بحسامه ، كذلك الصائد الذي حمل فخاخه وانطلق يريد الظباء ، فقال لنفسه : لو حملتها مفتوحة مهيأة لكنت أسرع الى نيل الغاية وأرجى في الفائدة ، ففعل وسار .. ولم يمض بعيداً حتى أطبق به فخ مع حركات المسير ، فسقط يفحص في الأرض وقد قنص نفسه في شهوة الظباء .

إنك أدرى من غيرك بما كان من سياسة بطانة الخليفة القائمة على العسف ، حتى لكأنها تمشي على الجماجم وتنعم على أشلاء الاحياء . لقد ضنوا عليهم حتى بما يسد رمقهم ويبل حلوقهم ، وبخلوا عليهم بأقل من القليل ، وساموهم إذلالاً ، وأوردوهم مورد التهلكة .

قنعت تلك البطانة بسكنى القصور المبثوثة بالرياش ، وأصمّوا آذانهم على الأنين الصارخ المنبعث من كل مكان ، وأوهموا الخليفة الرقيق الحاسة أن الشعب في أسعد ما يكون حياة ، وضربوا بينه وبين الناس بأسوار وحجب ومنعوه عن الشعب ومنعوا الشعب عنه ، وسمموا رأيه في الناصحين المخلصين وجعلوا من أنفسهم أوصياء على الخليفة الذي شاؤوا الحجر عليه ، وغفلوا عن أن القصور التي اعتصموا بها قامت على أجساد حية تتحسس بالآلام ، وكان في انتفاضة من انتفاضاتها ما أحال دنيا تلك القصور أطلالاً وخرائب .

إن هؤلاء الثائرين لم تحدُهم فكرة الجريمة ولا شهوتها ، وانما حداهم تنفس الحرية المضغوطة بين ضلوعهم ، كما راموا باخلاص إنقاذ الخليفة من بطانته ، ورفع وصايتها القسرية عنه ؛ وان كان خليقاً بهذه الوصاية حقاً ، وبمثل هؤلاء الاوصياء فما هو والخلافة إذن ؟

ولكن طاش بالثائرين السهم فأصاب من لم يكن هدفاً ، بيد انه يعزي أن البطانة اصيبت في مقتلها بمصابه ، فمصابه وان يكن خطأً في حساب الشعور ، فان سقوط تلك البطانة كلّ العدل في حساب الفكر ، والجمهور الشاعر لا يحدد التبعة بمنطق القانون بل بمنطق الألم ، فليس بدعاً اذا تجاوز واستفحل . ولو تناولنا الموقف حتى بمنطق القانون فان دعوى التغرير به لا تنقذه من الجزاء ، ولقد ألف الشعب محكمته ، فله الكلمة الاولى والاخيرة ، ولقد قالها بكل وضوح .

واذا كان حقاً ما تقول من أن الثائرين عصبة مجرمة ، فان تلك البطانة أهول جريمة حين دخلوا بها الى كل بيت . ولست بهذا أريد « تبرير » المصاب ، ولكنني أقصد الى هدم فكرة الجريمة عليك التي تعلنها ولعلك تعي .

فقال جهجاه الغفاري : تقول لعله يعي ؟ أأنت غريب عن شباكه وأحابيله . انه يريد بقصد تسميم رأي الناس وبلبلتهم ، ولا يلبث هو ومن فاتنا من بطانة الخليفة . حتى يلوحوا بين الناس بالعثمانية ويجعلوا من عثمان موضوعاً ثأرياً قصد القاء الشعب في الفوضى وانكفائه كتلاً على نفسه ، وما أسرع تردد الجموع فهي لا تحاكم ولكنها تشعر بمبالغات .

فهذا — وأشار الى المغيرة — يعتمد على روحية الجمهور ، قصد المحاربة بالعنصر النفسي القلق لايجاد حالة فوضى شاملة ، وهو لا يأبه بسبيل ما يريد أن تندك معالم مجتمعنا العظيم . لنفرض ان عثمان صُرع بقصد أن يصرع فقد صرع عمر من قبله ، وما تهمنا فروق الملابسات التي تجد قيمتها في الاعتبار الفردي دون الاعتبار الاجتماعي ، فهما كحادثين سواء بسواء . فلماذا يحرض بالاتهام ويستثير بالتفجع والتوجع ، إن لم يكن يقصد شراً ؟

قال عمار بن ياسر : نعم اجدى علينا وأولى بنا أن نعتبر بالحادث ولو لم يخل من خطأ . فنداوي الوضع ونجتهد جيداً بحسن التأتي ، كي نحول بين الشعب بمنع الاسباب وبين العودة الى ارتكاب خطأ جديد من شاكلته . فقد مات الميت وبقي الحي مضطرباً فلنعرف كيف ندخل الاطمئنان الى نفسه ، وبذلك نكون قد أصلحنا الخطأ وربحنا المصيبة . وأما ترويع الجمهور بتهمة الاجرام والدم ، فانه تكبير لدائرة الخطأ وتوسيع لحواشي الدماء ، وما أرى هذا إلا دعوة جاهلية تقوم على الانتقام في غرضها القريب ، وعلى المؤامرة بالنظام في غرضها البعيد ... وقطع حسان عليه تسلسل حديثه حين انتهى الى هذه النقطة، فقد مضى يردد قول الشاعر :

قومي همو قتلوا أمَيم أخي فاذا رميت يصيبني سهمي

أصبح عليّ الخليفة واجتمعت في يديه مقاليد الامور ، فثاب الى المجتمع هدوؤه مشفوعاً بالامل وارتقاب فجر جديد .

وبدأ علي أول ما بدأ باعطاء الحق الى الشعب ، فقد وجد أن مشاكلهم المعلقة أضحت مزمنة لم يُبتّ فيها بشيء ، فعطف على آلام هذا الجمهور وواساه بنفسه وقلبه ما وجد الى ذلك سبيلاً .

وذهب مع تقديره بأن المجتمع الذي يقوم النظام فيه على برنامج غير مكتوب ، يظل عرضة للعبث والتلاعب والتصرفات التي من شأنها أن تضيره ، اذا لم يقصد أولاً وقبل كل شيء الى الاختيار وانتقاء الشخصيات التي تضم الى الكفاءة ، الاخلاص والضمير . بل من رأي علي أن الاصلاح حتى في المجتمعات التي

يستوي النظام فيها على برامج مكتوبة ، لا يتم على وجه مضمون الا بالشخصية المنتقاة ، ولمس الى ذلك أن اكبر عناصر الشكوى وأهم أجزائها هو الجزء الخاص بالامراء والولاة ، فبادر قدماً الى تغيير التعيينات .

وكان طلحة والزبير كلاهما مرشحاً لولاية من ولايات الامصار الكبرى ، فلما أظهرا على أن التعيينات الجديدة لم يصبهما منها نصيب ، امتعضا نوع امتعاض ولمسا في الظرف الذي لم يزل قلقاً مضطرباً ما يمكنهما من القيام بحملة ضغط على الخليفة الجديد ، لا سيما وقد وجدوا في الناس من يطالب باقامة الحد الشرعي على الذين باشروا الاغتيالات بالنفس .

وعلي لم يؤخرهما من حيث أنهما ليسا بالجديرين، فهما من ذوي السابقة ومن أقدر العناصر ، بل لأن الظرف لم يزل يعج بالحزبية ولم يزل متشبعاً بروحها . فاذا بعث بهما الى الاقاليم التي تناصرهما كالكوفة بالنظر الى الزبير والبصرة بالنظر الى طلحة ، فقد سهل لهما حرية التصرف والانفراد بالرأي لمكان الثقة الحزبية . وحرية التصرف هي التي بات يشكو الناس منها كما كان الحال بمعاوية في الشام على عهد عثمان ، على أن الأمير يصبح بهذه الحزبية المناصرة قليل الاهتمام بأوامر السلطة العليا ، مما تتخذ به الأقاليم في كل مكان شكل اقطاعيات لا تتصل بالمرجع الأعلى الايجابي المسؤول إلا اتصالاً اسمياً .. واذا تأزّمت العلاقة بين الرئاسة العليا والامير ، استطاع الانفراد بإقليمه وقطع العلاقة التي لم تكن تعبر عن اتصال إيجابي . وهذا خطر يهدد الدولة وداء وبيل في جسم الحكم ، خصوصاً اذا تواطأ طائفة من أمراء الأقاليم على العصيان باتفاق المصالح الموجبة ، فانه يقع الخطر الحقيقي على الكيان الحكومي ، كما تظل هذه الصلة الاسمية للاقليم الاقطاعي ينبوع ضرر للرئيس الاعلى ، وذلك حين لا يحفل الأمير بالأوامر التي تصدر له ولا يرهب مرجعه فيعبث كيف شاء ، ويكون المسؤول عن تصرفه هو الرئيس الاعلى في نظر الشعب فيتّهم بالتواطؤ معه أو بالتغافل عنه ، رغم أنه في الواقع لا يستطيع أن يحيك معه حيكاً ، مثلما كان الحال في زمن عثمان، فقد أصبح اتصال الاقاليم بمركز الخلافة اسمياً ، والامير الاقطاعي يتصرف كيف حلا له ، لا ينتظر

أمراً ولا يخضع لأمر . وإنما يستخدم ذلك الطابع « الاكليشه » (هذا أمر الخليفة) ستاراً فقط كما كان يفعل معاوية في الشام ، فاتّهم الخليفة واستُحْمِق ونشبت الفوضى .

وإذا بعث بهما عليٌّ الى الاقاليم الاخرى وليس لهما فيها أنصار وأشياع بل على العكس أعداء حزبيون ، فقد أعاد الوضع الى القلق ودفع الجمهور الى التمرد بالشكوى المصطنعة ؛ فعمد إلى مداواة الحالة العامة وخنق الحزبية وعنعناتها وإيجاد جسم اجتماعي سليم أولاً .. فبين يديه مجتمع مريض وهو يتطلب شخصيات جديدة لم تنخرط في الحقل العام والحياة السياسية الصاخبة المتناحرة ، حتّى إذا تمّ له ما يريد عاد ففكر فيهما وفي سواهما . ولكنهما فسرا إغفالهما بالعداء ، فانصرفا الى ايجاد الوسائل القمينة بالضغط فوجّها وجههما شطر مكة . وبينا هما في بعض الطريق لقيا عائشة وهي قافلة من مكة ، فرويا لها ما كان من أمر الثائرين وعثمان ، وما كان من أمرهم وعلي ، وكاشفاها بما عزما عليه . وصادف هذا رغبة خفية في ضميرها وهوى كامناً ، كما استطاع الزبير بما له من دالة عليها وهو زوج أختها أسماء ، ووالد من استخلصته لنفسها من أبنائه ، حتّى اختارت لكنيتها اسمه وذلك هو عبدالله ابنه . فحملاها على الرجوع وسهّلا لها الخوض في معمعة سياسية طاحنة ، اتصلت حتّى انقلبت دموية حادة .

ولما هبطوا مكة وجدوا فيها فلول الامويين ، ففكروا جميعاً باستغلال الموقف وترتيبه على هذا الشكل :

يعصي بالشام معاوية وهم يعصون بالعراق حتّى إذا استقام لهم الامر واستقروا ، حاصروا الحجاز وانتزعوا مقدرات السلطة العليا وأرغموا الخليفة على التسليم بمطالبهم .

اتصل بعلي كل ما دار بخلدهم وما عزموا عليه ، واتصل به فوق ذلك ان الخطب سيعدو دائرته الضيقة ، لنزول عائشة إلى الميدان بما تبعثه من خامدات النفوس ، وفي المحيط العربي خصوصاً . أليست امرأة وامرأة لها قيمتها ومنزلتها الروحية الفريدة ؟ فهي زوج النبي وابنة الخليفة الاول ومرجـــع علمي فقهي .

ومن ناحية ثانية أليس الموضوع نفسه حساساً مثيراً ؟ أليس كل الثائرين الذين تم الحادث على أيديهم في صفوف علي ؟ أليست نفسية الجموع شديدة الحساسية بفظاعة الدم المطلول وضعيفة المحاكمة والموازنة ؟ أليس الظرف متبلبلاً يميد بالفوضى؟ ! ففي الأمر إذاً عقدة خطيرة ، ولا بد أن يستغلها هؤلاء الواجدون .

فكّر وقدّر وقلّب وجوه الرأي حتى انتهى إلى أن الحالة الناشبة البادية ، ستستحيل الى فوضى فظيعة قد تتدك معها معالم المجتمع الاسلامي ، وانتهى أيضاً إلى أن صفة التبلبل وهي تساعد على الدس والانتهاز لا يحسمها إلا عمل سريع عنيف . وفكّر كثيراً قبل أن ابتدأ بطلحة والزبير ومن وراءهما عائشة ، فقد لمس خطر هؤلاء الذين يملكون من أسباب السيطرة والتأثير الروحي قدراً كبيراً، وقد أوضحه بقوله :

(بليت بأنَضّ الناس ، وأنطق الناس ، وأطوع الناس في الناس . يريد بأنض الناس يعلي بن امية وكان أكثر الناس مالاً وناضاً ، وأنطق الناس طلحة بن عبيدالله ، وأطوع الناس في الناس عائشة) .

ومن ناحية ثانية فقد استجلى طبيعة البصرة على ضوء الروحية التي كانت بارزة في العراق إذ ذاك ، فوضع يده على مكان التفكك والتفسخ وعدم الانسجام والتماسك ، بينما الشام كانت على العكس متماسكة بوحدة الدم والتغرير . فالبصرة إذاً أقل عناء وأكثر خطراً وأبعد نفوذاً ، بما يملك اللاجئون اليها من صدى بعيد ، عميق التجاوب في النفسية العربية العامة . فكان لزاماً أن ينبعث فورَه اليهم ويتخذ البصرة هدف ضربته الاولى الخاطفة الساحقة ، فيرهب بها المتمردين في كل مكان ومجال .

وأقام خطته على حرب السرعة ليكون نجاحها مضموناً ، فيعيد الثقة المفقودة ، بعد الثورة ، الى الهيئة الحاكمة الجديدة ويضبط العاصفة . كما استعان بالنقد والدعاية أداة حربية فظيعة الفتك ؛ وأدرك ضرورة هذا العنصر في الحرب ، فدفع أم سلمة زوج النبي وهي من أعوانه الى انتقاد عائشة على شكل حاد ، فيما أقدمت عليه من مغامرة فكتبت اليها ، ومن جهة ثانية أذيع الكتاب وهو :

(من أم سلمة زوج النبي ، الى عائشة أم المؤمنين ؛ فاني أحمد الله اليك الذي لا إله إلا هو .

أما بعد : فقد هتكت سُدَّةً بين رسول الله وأمته . جمع القرآن ذيولك فلا تسحبيها ، وسكّر خفارتك فلا تبتذليها ، فالله من وراء هذه الامة ... لو علم رسول الله ان النساء يحتملن الجهاد عهد اليك ، أما علمت انه قد نهاك عن الفراطة في الدين . فان عمود الدين لا يثبت بالنساء ان مال ، ولا يُرأب بهن ان انصدع . جهاد النساء غض الاطراف وضم الذيول ، وقصر الموادة . ما كنت قائلة لرسول الله لو عارضك ببعض هذه الفلوات ، ناصّة قعوداً من منهل الى منهل . وغداً تردين على رسول الله ، واقسم لو قيل لي يا أم سلمة ادخلي الجنة لاستحييت أن ألقى رسول الله هاتكة حجاباً ضربه عليّ .. فاجعليه سترك ، وقاعة البيت حصنك، فانك أنصح ما تكونين لهذه الامة ما قعدت عن نصرتهم. ولو اني حدثتك بحديث سمعته من رسول الله لنهشت نهش الرقشاء المطرقة. والسلام.)

وكان لهذه الدعاية الحربية أثرها الكبير ، فأم سلمة أم المؤمنين أيضاً وهي تشجب على عائشة حركتها وتنتقدها انتقاداً لاذعاً . وقد تركت أثرها المرغوب فيه والمتوخى نيله ؛ وكان أبرز ما تركت أثران :

(١) إعطاء صورة نابية عن محاولة النساء مثل هذه المحاولة ، فقد رووا (أن ابن أبي عتيق — وعائشة عمته — لقيها في بعض مآتي الطرق راكبة على بغلة ، فقال :

الى أين يا أماه ؟ .

قالت : أصلح بين حيين من أحياء المسلمين تقاتلا .

قال : عزمت عليك إلا رجعت ، فما غسلنا أيدينا من يوم الجمل حتى نعود الى يوم البغلة) .

(٢) شجع الزعماء والأمراء على أن ينكروا عليها ، فقد كتب اليها زيد بن صوحان رداً على كتابها اليه :

(سلام عليك أما بعد: فانك أُمِرْتِ بأمر وأُمِرْنا بغيره، أمرت أن تقري في بيتك وأمرنا أن نقاتل الناس حتّى لا تكون فتنة . فتركت ما أمرت به وكتبت تنهيننا عما أمرنا به والسلام) .. ومضى الخطباء يحصون عليها تبلبلها وتناقضها ، فبعد أن كانت تشير بعلي في زمن عثمان، وكذلك طلحة والزبير ينصحان بأن يكون علي الخليفة ، اذا بهم يخرجون جميعاً لحربه ومقارعته في أحرج الساعات العصيبة ، وبذلك يسهلون سبيل العمل للانتهازيين النفعيين .

فحرب الدعاية التي اصطنعها علي وقذف بها خصومه ، أثرت أثرها الكبير وفككت الوحدة في المعسكر الآخر . (فاعتزل بالجلحاء — من البصرة على فرسخين — الأحنف بن قيس ، واعتزل معه زهاء ستة آلاف من بني تميم) .

وعلى هذا الوضع فاجأهم علي بجنده (وفيه ثمانمائة من الانصار وأربعمائة ممن شهد بيعة الرضوان ، وكانت راية علي مع ابنه محمد ابن الحنفية وعلى ميمنته الحسن وعلى ميسرته الحسين ، وعلى الخيل عمار بن ياسر وعلى الرجالة محمد بن ابي بكر وعلى المقدمة عبدالله بن عباس. وزحف علي نحو الجمل بنفسه في كتيبته الخضراء من المهاجرين والانصار وحوله بنوه حسن وحسين ومحمد . ودفع الراية الى محمد وقال : اقدم بها حتّى تركزها في عين الجمل .

يا بني تزول الجبال ولا تزل ، عضّ على ناجذك . أعِر الله جمجمتك ، تِدْ في الارض قدمك، ارمِ ببصرك أقصى القوم وغض بصرك . واعلم أن النصر من عند الله) . فتقدم محمد فرشقته السهام فقال لأصحابه : رويداً حتّى تنفد سهامهم .. فأنفذ علي يستحثه ، فلما أبطأ عليه جاء بنفسه . وقال له : اقدم لا أم لك . ثم أدركته رقة عليه ، فتناول الراية منه بيده اليسرى وذو الفقار مشهور في يمنى يديه ، ونادى بعقر الجمل فوقعت الهزيمة) .

كانت معركة الجمل بدون ريب أو كادت تكون ، هي المعركة الفاصلة ؛ وإن تنقلب من حيث القيمة ثانوية، وإن تعتبر حركة فرعية لتطهير بعض عناصر الشغب الباقية ، خصوصاً والمقاومة الكفاحية آخذة بهذا الشكل من السرعة والدعاية

الموفقة التي اشعرت الناس كافة بالاشمئزاز من شغب المشاغبين . بيد أن الحال تبدلت وجعلت لصفين الصفة الحاسمة الرئيسية لاعتبارات :

(١) استحالة فكرة العقيدة وروحيتها الاخلاقية عند علي الى فكرة ثابتة ، والفكرة من الثوابت تصرف كل قوى المرء الروحية والمعنوية اليها ، وتقف جهوده العملية في سبيلها ومدى غايتها ، فقد تركزت تركز الاعصاب ، فصاحبها لا يفكر ولا يرى ولا يحس أولا يحب أن يفكر وأن يرى وأن يحس إلا في مواقع ميولها ، كما لا يدبر ويقدر الا على ضوئها . لذلك لم تكن سياسة علي مشتقة من صميم الحياة كما هي بمساوئها ، بل من روح الحياة كما ينبغي أن تكون بفضائلها . فهذا الرجل الذي عرفناه دموياً في قضية الانتصار للعقيدة ، نراه شديد الكراهية لسياسة الدماء وأساليبها في قضية قمع حركات المتمردين ، فهو يفرق جيداً بين الكفر والعصيان. ولكن وسطه لم يكن يفهم هذا الفرق فهماً حسناً او لا يفرق بينهما البتة ، فقد رأينا عثمان الخليفة يسمي تمرد أهل المدينة كفراً في كتابه الى معاوية ، ونرى عمّاراً ومحمد بن ابي بكر ومن وراءهما سائر الناس ينظرون الى خصومهم نظرة المارقين من الدين، وبالتالي يجب أن يطبقوا عليهم أحكام الكفار وقانون الارتداد .

كان الجمهور متشبعاً بهذه الفكرة وما يترتب عليها ويلابسها ، فاذا بعلي المتشرع العبقري والمسلم الواعي لحقيقة الاسلام يحمل على أساس هذه الفكرة ، لئلا يتورط الناس في استباحة مقتضياتها القانونية التي تخولها حالة الحرب في الاسرة والمال والملك والقيمة الشخصية التي يتبع فقدها الاسر والاسترقاق . ويبين للناس بمنطقه العميق أن هناك صفة ثالثة هي الفسق وهو لا يبعد بالمرء البتة عن دائرة الايمان ، كما لا تترتب عليه الاستباحة بل التأديب فقط .

وانظر كيف يستأتي الى إقناعهم بخطأ فكرتهم حين قالوا «أحلّ لنا دماءهم وحرّم علينا أموالهم » فقال علي :

« هي السنة في أهل القبلة » .

قالوا : ما ندري ما هذا ؟ !

قال : فهذه عائشة رأس القوم أتتساهمون عليها ! .

قالوا : سبحان الله !. امنّا .

قال : فهي حرام !.

قالوا : نعم .

قال : فانه يحرم من أبنائها ما حرم منها » .. فنادى في الناس : لا يسلبنّ قتيل ولا يتبع مدبر ولا يجهز على جريح ولا يحل متاع . ولكن الجمهرة الكبرى ساذجة بسيطة في فكرة التدين ، فوقع عليهم هذا النداء وقع اليأس في محل الامل ، وجعلهم يلغطون كثيراً ويتأففون كثيراً وحملهم على تفكير طويل فيما هو الفرق بين الكفر والعصيان ، وفيما هو الفرق بينهما وبين الايمان .

فأمّا أولئك البداة الأعراب الذين لم يفهموا الدين إلا على شكل سطحي ، استعصى على تفكيرهم فهم الفروق الدقيقة بينهما فمضوا على أنه لا فرق ، واقتنعوا بما انتهوا اليه . واشتملوا على نوع من التسخط الخفي كان غير مشعور به إلا قليلاً ، لأنهم بمقتضى نظريتهم حال الخليفة بينهم وبين حقهم في الغنم ومنعهم إياه . ومن هؤلاء كانت نواة الخوارج ، وقد صاغوا فكرتهم هذه فيما بعد بان مرتكب الكبيرة كافر .

وأولئك الذين صحبوا النبي طويلاً وعرفوا كثيراً من منطق الدين ، اشتملوا على اطمئنان كبير حينما أوضح لهم عليّ الفرق كما لو لمسوه . وكان بين هؤلاء من فهم الفرق بين الكفر والفسق على نوع مبالغة وتكبير ، فقال بالمنزلة [1] بين المنزلتين . وكانت هذه الاستنتاجات المختلفة كلّها حول الموضوع الذي أثارته مشكلة الغنائم بعد يوم الجمل ، أفكاراً غير واضحة كثيراً واتخذت سبيل وضوحها فيما بعد ، وقامت على أساسها الفرق الاسلامية التي عرفت باسمائها أخيراً .

---

(١) أخطأ مؤرخو الفرق حين توهموا ان فكرة الاعتزال في المنزلة بين المنزلتين لم تعرف إلا في حلقة الحسن البصري على لسان واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد ، وإنما انشأها بعد معركة الجمل خيال مشكلة الغنائم وتوضيح علي الفرق بين الكفر والعصيان .

(٢) نظريته في خصومه أنهم مسلمون فلا يجوز أخذهم في غير حدود الاسلام وقانونه ، وهو يستقي بهم « أمشركون هم ؟

قال : من الشرك فرّوا .. قيل : فمنافقون هم ؟ .

قال : إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً . قيل : فما هم ؟

قال : إخواننا بغوا علينا... وكان لا يفتأ يقول : لا تقولوا كفر أهل الشام، ولكن قولوا فسقوا وظلموا » . فلا بد إذاً أن يفاوضهم ، ولا بد من ان يقيم الحجة عليهم ، ولا بد من ان يلاينهم ما وسعه ذلك ووجد فيهم أملاً ، دون لجوء إلى العنف الذي لا يستحله إلا بعد أن يُعنتوه .

فنراه يفاوض معاوية ويرسل اليه الرسول بعد الرسول والكتاب تلو الكتاب ، حتى استعمل معه أسلوباً يقرب من الرجاء . فاذا به يذكره بموقف أبيه منه ، واذا به يتهمه بالعقوق في رفق . قال في بعض كتبه اليه :

« وقد كان أبوك أبو سفيان أتاني حين قبض رسول الله ، فقال ابسط يدك أبايعك فأنت أحق الناس بهذا الأمر ، فكنت انا الذي أبيت عليه مخافة الفرقة بين المسلمين لقرب عهد الناس بالكفر . فأبوك كان أعلم بحقي منك ، وإن تعرف من حقي ما كان أبوك يعرفه تصب رشدك وإلا نتعيـّن الله عليك » .

ولكن معاوية كان قد ساوره الطمع ولعبت أحلامه الكبرى أمام ناظريه، وقد فهم مثالية عليّ وتقواه فعمد لاستغلالهما . فاذا به يصانعه ويظهر له خيوطاً واضحة من الأمل بعد أن يضع عقدة يتعايى بها ، فيعذره عليّ ويمضي في مفاوضته . ومعاوية لم يكن يريد من ذلك إلا اكتساب الوقت لتهييء نفسه وبعث روح الملل في جيش عليّ ، فهو يتمنى طول الوقت وطول الصراع مع ظهوره بمظهر المستسلم اذا انحلت العقد او اقتنعه بحلها ، وبهذا المظهر يضمن أن لا يأخذه علي بحرب خاطفة جبارة بل يرفق به ، فتتحول المعركة الجدية إلى حرب إنهاك وإزعاج ، وهي لا محالة ستشيع صفة التململ واليأس في جيش علي

أضف إلى هذا أن هذا الجيش منذ حين قد خرج من معركة كبرى، ومن قبل كان منهوكاً بالفتوح في كل مكان ، ولا يلبث أن يدور هذا التململ دورته ويعمل عمله ، ولا بد أن يترك صدوعاً واختلافاً في الرأي ، فينقسم الجيش شيعاً ويفلت من يد عليّ الزمام .

أما يراه يجيبه حينما طلب تأجيل الحرب شهراً، أليس يسمح لجيش الشام، حين استولى جيشه على الشريعة ، بالسقيا « حتى ازدحم عليها السقاة من العسكرين وما يؤذي إنسان إنساناً » [1] فطال أمد المعركة مائة وعشرين يوماً ، وهذا وقت طويل في عمر حرب من هذا النوع ، وسمح طول الوقت للافكار التي نبتت في رؤوس الجموع أن تنمو وتستفحل وتشكل نظرية لها أسرها وتأثيرها في قرارتهم ، وكان هذا النماء مشفوعاً بعاصفة من الملل واليأس .

ولم يكن شيء من هذا خافياً على عليّ ، بل كان ينظر ويبتسم، فهو يريد أن يحل المشكلة القائمة، ولكن على طريقته المثالية وبمنطق القانون الذي يقدسه. وعلي ، وإن لمس أن الظرف يتأزم عليه والوقت يتعقد والفرصة تكاد تفلت منه إلى خصمه ، يريد أن يحارب حرب الحق وينتصر للعدالة بالعدل وإلا فهـــو في نظره يخدع ضميره ويخدع الناس ، اذا سمح لنفسه بانتهاك قداسة الحق بسبيل تأييد قضايا الحق .

على انه كان راضياً فلم ييئس لأنه واثق من أن النهاية الظافرة في متناول يده يضمها اليه ساعة يريد ، وكذلك كان حين يئس منهم وضربهم الضربة القاصمة التي ألجأتهم إلى حيلة رفع المصاحف المعتادة كثيراً ، فقد رفعت غير مرة يوم الجمل، فهي إذن لا تملك تأثير المفاجأة بل معتادة باردة الأثر ضعيفة المفعول،

---

(١) روى التاريخ أن جيش الشام سبق إلى الشريعة فطلب علي السماح لجيشه فأبى معاوية عليه ، فلما غلبه عليها وطلبوا اليه ذلك سمح لهم . فبرهن بهذا علي على أنه يحارب الحق وليس يحارب الغلبة وشهوة السلطان، وأعطى مثلاً فذاً في التاريخ كله، اذا اضطر انسان إلى الحرب ، كيف يجب أن يكون إنساناً شريفاً قبل أي اعتبار .

لولا ما كان قد استحوذ على الجموع من استفحال الافكار الخطرة التي سبق وأشرنا اليها ، فتصدعت وحدة الصفوف بهذا السبب .

لقد عادت الزوبعة إلى الهبوب مرة أخرى أشد عنفاً ، فتمزق شراع السفينة وميّلتها الامواج المتعاظمة المتكسرة على جوانبها في جبروت . وعليّ في هذه الغمرة الطائشة كان ينشط إلى كشف المهزلة وسحق طواغيتها ، ولكن بجيش مريض فتعايى عليه وتركه حيث يشاء في الميدان .. لم يجد بداً من مسايرة الجمهور الكبير ، ولم يجد بداً من الخوض في تيار المهزلة التي استولت بروحها على الجمهور إلى النهاية . فليس من سبيل لمداواة الروحية العامة على ضوء النفسية الاجتماعية ، إلا الأخذ بالناس حتى نهاية الطريق في مدى ما استحوذ عليهم ،فان الأمراض الاجتماعية من نوع الهيستيريا الحادة يداوى معها الوهم بالوهم ، وعلى ذلك نزل عند رأيهم ليهيء الظرف المناسب من جديد .

فعلي إذاً لم يشأ قصداً أن يستغل سرعته، وهي تقتضي البطش، استغلالاً دموياً ، وكان هو الواجب إذ ذاك من وجهة نظر عسكرية . نحن نعرف علياً بطل الحرب ، فلماذا انصرف هذا الانصراف واختار البطء في الايقاع بالخصم بعد تلك السرعة الموفقة في الانتقال والاعداد ؟ . لأن علياً لم يكن يطلب السلطان من أجل السلطان ، بل من أجل إحقاق الحق وإحلال المثل الاعلى الاجتماعي في دنيا الناس ، وإلا فالسلطان في كبرياء نفسه وفي كبرياء معنويته « لا يساوي عَفْطة عنز » كما كان يقول .

هو يريد السلطان من أجل الحق ، فاذا انتهك الحق من اجل السلطان فقد خنق ضميره واعتصر بيديه قلبه في قسوة ووحشية .

فماذا يريد من كفاحه إذن ؟ إنه يريد تطبيق قضايا العدل حتى في الساعة التي يجوز فيها الجور ، إنه يريد الحق حتى في ساعة جيشان الباطل وطغيان المنكر . ولكن هم قلة الذين تساموا إلى فهمه ، وهيهات لحياة الأطماع المحدوّة بالشرايين والاعصاب ، ان تنبض بمثل خلجات قلبه وتحسّ بحسه وتندى بمثل شعوره . كان أكبر من محيطه ولا بدع ، وأسمى من مجتمعه ولا

ريب ، فهو ربيب محمد المتبلور من سناء الوحي وضياء النبوة ، وهو أكبر اللآلىء التي انكشفت عنها دنيا القرآن . فهل يعبث بوجوده وضميره في ملهى يديه طائعاً مختاراً ، ومن اجل مـــا لا يراه شيئاً ؟ !

إنه لم يكن يؤمن بما يقال « اذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون » ، فهذه خطة صَغار وخيانة وجبن وخور ، بل كان يؤمن بغاية أسمى ويبشّر بمبدأ :

اذا لم تكن الحياة كما تريد ، فحاول أن تجعلها كذلك . فاذا لم تنجح أيضاً فلا تخن ضميرك ، وعش وحدك مثالاً للحياة الفاضلة . ولا تـألُ جهداً ، كي يبقى للحق في تاريخ الباطل مثلاً يضربه ..

إن الذين يتهكون كل قداسة بسبيل الفوز ساقطون في ميزان الاخلاق وقسطاس الروح ، وعليّ ليس من طينتهم ، بل ذلك الأسلوب ، في حس علي ، أبرز أسلوب من أساليب الخيانة وأنكرهـــا . والغلبة تكون مقياس النجاح في حس الجامدين جمود المادة والطبيعة الصماء ، بينما مقياس نجاحك ، في حس الشاعرين ، بمقدار ماتكون أبيض ناصعاً في ضوء المصباح وسنى الفجر .

والوجود نوعان : وجود بالحياة ، ووجود في أبدية المبادىء ؛ والثاني منهما اكبر الوجودين ، فان عمر أولهما في حدود اللحم والدم ، وعمر ثانيهما في حدود الخلود ، وأين مداه ؟ ...

واذا بقي ذو الوجود الأول فانما يبقى في ذكرى التاريخ شُوهة مومياء ، بينما يظل ذو الوجود الثاني في ذكرى الابد مشكاة حياة تفيض بالنور .

ولم يشأ علي وقد أخذ بمقـــود السفينـــة ان يتركها هائمة ، ويترك للخاطفين (القرصان) انتهابها . فعالجها بمقدار ومقدار كبير ، والعواصف تتناوح من حولها وبين يديها ، وعلي كالربان الماهر يرخي الشراع أحياناً ، فيمضي في مدى ميل الجمهور ، ويرضى بالتحكيم ، ويشد الشراع أحياناً فيضرب ضربته بالنهروان .

وخروج الخوارج إنما تم باستفحال فكرة أن لا فرق بين الكفر والعصيان ،

فان قضية الايمان والكفر في تفكيرهم كقضية الحق والباطل ، وليس يمكن أن يكون بينهما واسطة يلتقيان فيها . فالتحكيم إذاً خطأ والخطأ معصية والمعصية كفر ، فانتهوا في سلسلة النتائج إلى ضرورة الايمان من جديد . وهذه الفكرة في جوهرها لا تزيد عن عقدة مسرحية ، إلا أنها مع ضعف المحاكمة العقلية والنقد الفكري تبدو عقدة عسيرة الحل . فلدى البداة تسليم عفوي بكل خاطرة وإن تكن سخيفة ، وفي نفسيتهم قابلية للاستحجار والتصلب على شكل عفوي أيضاً ، بحيث تستحيل إماعته إلا بتحطيم الرؤوس التي تحمله ، وكذلك حدث .

ولقد تملأ الحسين بعظات موقف أبيه في كل مراحله ، وحللها في نفسه ، وأحلها من قلبه محلاً ثابتاً . وخاض مع والده العظيم الصراع على شتى ألوانه وكان له أثر أيّ أثر ، ولم يقف عند الشاطىء مترقباً بل عائماً خائضاً تقوم به لجة وتقعد به اخرى ، وتدفعه موجة لتستقبله الموجة الثانية ، والتقى [1] سيفه بسيف أخيه محمد فشكلا قوساً قاعدتها المبادىء التي من أجلها خاض أبوهما الكبير ، الكفاح دون هدنة أو هوادة .

وبقي في سمع التاريخ وبصره ماثلاً حياً :

أن علياً بطل الحق في السلم وفي الحرب ، وهو الانسان الذي استحال إلى طاقة في وجود الحق وكيانه ...

*

شاء الله ان لا يحقق مغزى امثولة علي إلا ابنه الحسين ، ابنه الحبيب ...

فردد على شكل آخر : اذا لم تكن الحياة كما تريد ، فحاول ان تجعلها كذلك ...

---

(١) اشارة إلى ما ذكر المؤرخون من ان احمر بني أمية بصر بعلي فاراد قتله ، فخرج اليه كيسان مولى علي فاختلفا ضربتين سقط بينهما كيسان ، فجذب علي احمر بني أمية وضرب به الارض فكسر منكبه وعضديه ، وشد عليه ابنا علي حسين ومحمد فضرباه باسيافهما فقتلاه .

فاذا لم تنجح ايضاً ، فلا تخن ضميرك وعش وحدك مثالاً للحياة الفاضلة ...

ولا تأل جهداً ، كي يبقى للحق في تاريخ الباطل مثلاً يضرب به ...

*

على أنه أضاف اليها امثولته الاخرى ...

اذا لم تكن الحياة كما تريد ، فليكن الموت كما تريد ...

وإلا فهيهات ان تشعر بحلاوة المثالية في الايمان ، وتكون من الأحرار ...

*

بقي طابعُ الانسان الكامل « عليٍّ » ، الذي لا يحركه الحقد ولا تميل به للنزعات والنزوات ...

طابعاً لابنائه ، فقد قيل لابنه محمد : دسّاً توليداً للموجدة ...

لمَ يدفع بك أبوك في الحرب ولا يدفع بالحسن والحسين ...

فقال بوحي القلب المثالي : هما عيناه وأنا يمناه ، وهو يدفع عن عينيه بيمينه...

هذا طابع علي في الاخوة والاخاء ، فأي دنيا بل اي خلد سعيد ، لو تسنى الحياة ان تبرز بطوابعه الاخرى ...

التـيّـاع

في دارة قريبة من الكوفة انعقد أول مؤتمر سياسي إرهابي ، وانفض عن مؤامرة دموية واسعة النطاق تولى أمرها ثلاثة نفر فدائيون كلهم خارجي . فقد كان لمعركة النهروان التي انكشفت عن مأساة مريرة،وقع حاد في نفوس الخوارج كافة ، فنشطوا تحت إلحاح سورة الانتقام يجتمعون هنا وهناك ويوالون الاجتماع في كل مكان . فما من بيت الا ودخلته طائفة من الأرزاء وانطلقت العيون كأفواه القِرَب تتحدر عن مثل خيوط القطرات المرفضة ارفضاض عقـــد نظيم ، وبالاحرى المتحدرة مؤتلفة ائتلاف عقد شتيت .

وكان عبد الرحمن بن ملجم من أبناء الهوى والشباب ، فهو عاشق مدنف الفؤاد متيّم الصبوة، لقي قَطام ابنة الشِجْنة من تَيْم الرِّباب في أصيل ليلة من ليلات الصحراء التي يختلط فيها سكون الجمال وجمال السكون ، برجفات القوافل ، وهي تَهَوّم راجعة او منطلقة ، كأنها سارحة في طَفَل الابد أو سائحة مع رَأد الامل الخابي .

وقطامِ هذه فتاة افتنّت بها طبيعة الجمال أي افتنان ومشت في تقاطيعها روائع الحسن وآيات الفن ، فبرزت كالزهرة أول ما تنشق عنها الاكمام ، أو كالفتنة الحيّة المائجة التي أضافت اليها الصحراء انبهامها، فجاءت بساطة في

تركيب ، ووضوحاً في غموض .. تخطر كيفما اتفق لها ، فتثير في مــدى خطاها تهاويل السحر وعبقاً من عبق الهوى المسفوح وضجة الجوى الشرود .

والجمال، في الغواني وفي كل شيء،أرادته الطبيعة لتعبر عن تذوّقها الفنّي ، وعن أن غاية التفاعل الكوني ينتهي بالكون إلى الفن ويجتمع عليه ، وان بقاء الوجود قائم على الارادة الفنية فقط .

فالطبيعة الصامتة تحاول محاولاتها تحت الارادة الفنية لتنتهي إلى الفن الصامت الذي هو روح الطبيعة الجَمود ، وتبتدىء الحياة أو الطبيعة الحية من الفن الصامت لتنتهي كذلك إلى الفن الحي الذي هو روح الحياة أيضاً، وتبتدىء الطبيعة الانسانيةمن الفن الحي لتنتهي في غايتها إلى الفن الواعي الذي هو المثل العليا .

والى هذا الفن الواعي تنتمي فكرة الروح والخلد ، حتّى الله في الاديان فكرة الفن المطلق ، والوجود إنّما يتحرك بارادة الفن ليسمو تحت هذه الرغبة الجاذبة بالشوق . وإلى هذا يشير قول النبي « خلق الله آدم على صورته » ، من حيث ان في الانسان أكبر قسط من جمال فن الوعي أو فن القصد إذ فيه تحولت حركة الطبيعة الفنية من حركة لا قاصدة، إلى قصد في الحركة ... هذا حديث فاه به ابن أبي عتيق في أمسية من أماسي الطائف، عند مغنى نضير ، جمعــه وعمر ابن أبي ربيعة والثريا وزمرة كبيرة ممن يطلبون الحياة اللاهية الحالمة كان بينهم ابن ملجم .

فقال عمر يحاوره : لكأني بك — يا ابن أبي عتيق — وأنت حُشْيّة فتون ودنياغرام ، ولم أخطئك الصفة حينما قلت :

أهجرتْها ؟ ! وأنت زيّنتها لي أنت مثل الشيطان للانسان

وقهقه مشيراً إلى الثريا .

قال ابن أبي عتيق : لا تثريب عليك ، « فالله جميل يحب الجمال » . ونحن بارادة الفن يستخفّنا سحره فنتواقع على الرمال منتشين بموجة الزبد ، ولعل ثُرياك أكبر موجات الزبد الحائم في شاطىء الفن المسحور .

قالت الثريا : فأنا في خيالك إذاً — يا ابن أبي عتيق — بعضٌ من غاية الكون في تفاعله الابدي ، لانني بعض من فتنة الفن فيه .. وراحت ترمق ابن أبي ربيعة ...

قال عمر : ماذا تقولين ؟ ! لأنت والله كل فتنة الفن إن كان هذا يفي بموقعك في قلبي ، ولأنت كل غاية الكون إن كانت للكون غاية ... فراحت تضحك في خفر ،وكانت ضحكة تعبّر عن نشوتها « فالغواني يغرّهن الثناء » ؛ ولم تلبث هنيهة حتى قالت :

« لو أنا ناديتك واعمراه فماذا تقول ؟ ... وكأنها استخفّته فهبّ يفعل كالمُثَوِّب . أقول . أقول : لبيكاه . لبيكاه . لبيكاه » ومد صوته ...

لاول لقاءة بين عبد الرحمن وقطام ، مرت في مخيّلته قصة أمسية الطائف وشعر بحلاوة الحُلم ، لو كان له من قطام ما كان لعمر من الثريا .

وكان أن رأت قطام منه ما رأى منها ، وأحسّت بمثل ما اجتمع في أحاسيسه من أحلام ، فقد تواصل بينهما هوى،ومشى بين فؤاديهما غرام، ولفهما وجد، واستدار على قلبيهما جوى وهيام . كان في نقطة الدائرة قلبها ، وفي إطار الدائرة قلبه يدور ولا يدري من اين ابتدأ او إلى اين ينتهي ، ودائماً يكون قلب المرأة من الثوابت ، فهي غنية بالاغراء ، وقلما تكون غنية بالحس ، وهي قلما تتحرك بالحب ، ولكنها دائماً تتحرك بالكراهية والبغض .

كان بينهما لقاء إثر لقاء وكم تمنّيا لو أفنيا العمر في لقاءة سكرى تضلّ عن صحوها ، أو تدفع بهما في لا نهاية الفناء قبل فنائها .

عند مهوى أحد الكثبان الذي حفظ لهما اول انتشاءة من غرامهما وآخر انتشاءة ، كانا يحلمان وما أصحيا الا على صوت النّعيّ أن وقعة النهروان ذهبت بكل الشيوخ وأكثر الفتيان ، وان تيّار الارزاء جرى على كل بيت وغمر أعلى العرصات حتى أدنى الاودية . فتمايلت مع النعي مرتعدة كما تمايلت قصبات الغور في حروف الاودية والمنعرجات ، وانهمرت عيناها بالدموع المتناثرة تناثر

البَرَد ، وثارت ثائرة ابن ملجم على لحن دموعها القانية .. وتحت عوامل الثأر الفائر وسورة الانتقام العاصف ، آلى أليّته الرهيبة لينتقمن لها وله وليشفين نفسها ونفسه وليقرنّ عينها وعينه !

وطبيعة الجبروت في الرجل تأبى ان تظهر بمبالغاتها الا في فضاء نظر المرأة ، كما تأبى طبيعة الاغراء في المرأة ان تظهر بمبالغاتها الا في فضاء نظر الرجل ، كأنهما بعد تناحر طويل اصطلحا على ان تستنيم المرأة إلى جبروته، فهي تطالبه به في الخطوب ، وعلى ان يستنيم الرجل إلى إغرائها ؛ فهو يطالبها به في النشوات وهينمات الاحلام ودغدغات السكون الذي يتمدد في فضاء النفس باسترخاء .

في دارة لا تبعد كثيراً عن الكوفة ، تسارع اليها مفجوعون ومفجوعات ، والبثوا يرعدون ويبرقون تحت إيحاء الماساة الحمراء التي كانت تتصل باعصابهم فتحركها متصلبة متحققة تشتهي لو تمددت خانقة ساحقة ...

قام الخِرِّيت بن راشد الناجي يخطبهم :

لقد كبر علينا والله مصرع إخواننا الابرار . وما بقاؤنا بعدهم ؟ اتنتظرون ان يتخطّفكم جيش علي زمرة بعد زمرة وطائفة بعد طائفة ؟ إنه لا ينتظركم منه الا الموت ، الموت الذليل الوضيع ! الموت الغائل الزؤام ! ألا فانفروا وموتوا في عقر الحراب ولا تموتن في عقر الديار !

فهب القَطَرِيّ بن الفجاءة ينشدهم :

اقول لهـــا وقد طارت شَعاعاً	من الابطال ويحك لن تراعي
فانك لو سألت بقاء يـــــوم	على الاجل الذي لك لن تطاعي
فصبراً في مجال الموت صبـــراً	فما نيل الخلــود بمستطاع
ولا ثوب البقاء بثوب عـــز	فيُطوى عن أخي الخَنَع اليراع
سبيل الموت غاية كل حـــيّ	فداعيـــه لاهل الارض داعي
ومن لا يُعْتَبَط يسأمْ ويهرمْ	وتسلمه المنون إلى انقطـــاع
وما للمرء خير في حيـــــاة	اذا ما عد من سقط المتاع

ووقف فروة بن نوفل الاشجعي فقال :

ألا فاسمعوا : إنّ علياً أراد ان يتخذ من وقعة النهروان أمثولة رهيبة ، يلوح بها في وجه خصمه فيفلّ غَرْبه ويدخل الروع إلى قلبه ويخذل عليه اعصابه، فبطش بنا تلك البطشة الساحقة .

ان علياً في احوج ما يكون — وقد تهيأ لحرب خصمه — إلى مثل جبارمرعد يعيد به إلى الاذهان مثل رهبة معركة الجمل ، ويدخل في رُوع خصومه مثل آثارها فيمتلئون ذعراً وخوفاً ، كما اراد ايضاً ان يعيد الثقة إلى نفوس جيشه، فقد عراها وهن وخور ،وان يعيد الثقة بالجيش وهو يقبل على مغامرة كبرى فاصلة .

وعليّ لم يضربنا ضربته تلك في النهروان إلا بعد ان بذل اقصى الجهد للعودة اليه او الفيئـــة إلى مشاركته في نزال خصمه ، ولقد ارخى لنا من عنانه حتى اخذنا سهل بن حنيف،وانتم تعرفون سابقته ولا تجهلون مكانه ، فوجد اذ ذاك السبيل لتجربته ، وهو وايم الله قد أعذر .

ولست اقول هذا تثبيطاً عنه ، بل احتياطاً لدمائنا ؛ وعليّ « لم يزل عندنا الشبهة والشك » .. وها اني معتزل .

فوثب الحرّيت يخفق برأسه ويبرق بعينيه ويرعد بصوته ويلوّح بكلتا يديه : أدعوة إلى النفاق والكفر ؟ ! انتفخ سَحرك وجبنت وهدرت دماء الاطهار . ألا فميتة السوء لكم ان كنتم لا تنفرون ! وها اني نافر ثائر !

فاشتعلت حماسة الشباب خصوصاً ، واندفعوا في تيّار اصواتهم كالجنون يرددون : الا فميتة السوء لنا ان كنا لا ننفر وننتقم ! .. وانكشف الجمع عن اعتزال فروة الاشجعي بشهرزور ، ونفار الحريت الناجي بالاهواز ثم بالاسياف .

ولكن الشباب تنادوا إلى بعضهم ووالوا الاجتماع وترتيب الخطط وبرامج السير بالمؤامرة الانتقامية، فهم لا يستطيعون العمل جهراً،فليعملوا سرّاً،وليعملوا إلى الغيلة .

وكان اكثر هؤلاء الشبان تحمساً ، عبد الرحمن بن ملجم الذي اندفع بحفيظة الحب ، وعمل كي يرضي قلباً بات معموداً... انه سيجازف كيفما شاءت المجازفة ، وكيفما كانت خطورتها .

أليس فيها ما يرضي محبوبته المفجوعة بأبيها وأخيها ؟ أليست ستشيّعه برعشات قلبها وخفوقه ؟

أما ستحتفظ له بذكرى نابضة تشيع بين اهتزازاتها ابتسامة حب باكية ومنى هوى كسيف ؟

في إحساس ابن ملجم ان هذا كاف بل كثير ، لا سيما وقد جعلت قتل عليّ مهر قلبها وحبها وجسدها ؛ فليعترضه إذاً كل خطر ، ولتقم في طريقه أية العقبات فهو لا بد مقتحمها . إنه لم يعد يفكر ولا يرى سوى عروس احلامه تباركه وتنظر اليه بتشجيع وتخوّف .

أليست الآن تودعه وهي بين عاطفتين متصارعتين تهتز تحت عنيف صراعهما ، ها هي تتركه ينطلق ، مسرورةً تحت فورة الثأر والموجدة ، ثم لا يكاد يخطو ، حتى يطغى حبه في حنايا روحها فتنبعث ولهى وراءه ، تشده اليها وتحتضنه اعتناقاً عنيفاً .

إنها بين عاطفتين قاسيتين بموقعهما على قلبها ، فهي تخاف عليه ان يفعل وتخاف منه ان لا يفعل . إنها في حيرة يقظى ليس تغفى ، ونفسها سكرى تعربد . ظلت حيناً بين سخاء به فتشرق على وجهها ابتسامة راعدة ، وبين بخل به فتتولّه وتذوب ابتسامتها في موجة من الاسى الساهم . بيد أنها لم تطق فأعيتْ بين عواطفها المتناوحة ، فاستندت اليه وجفونها غافية تحت أطباق من الدموع ، غير انها رمقته أخيراً وقالت له في كثير من الخفوت :

« التمس غرّته ، فان أصبت شفيت نفسك ونفسي ويهنئك العيش معي ، وان قتلت فما عند الله خير من الدنيا وزينتها وزينة أهلها » .. لقد صح عزمها في النهاية على الانتقام .

وانطلق ابن ملجم إلى حيث كان جماعته ينتظرون عند الحطيم في مكة ، وكان لا يسمع كيفما سار إلا اصواتاً رهيبة التأمات ، فيتلفت يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً ولكنه يقف كالمذعور يشده اليه موضعـــه آناً ، وينطلق آناً كالهائم المسرور تتقاذفه طريقه مثل كرة ، لقد غدا تحت ما تجيش به نفسه ويعتلج بين حناياه منها كالممرور ، لم يكن من شيء بين يديه ولا من خلفه وإنما كانت تنعكس أصداء نفسه في أذنيه ، ويسمع ضجتها في الخلاء حزينة او مغتبطة .

انتهى إلى اصحابه وأترابه «فتذاكروا أمر الناس، وعابوا على ولاتهم، وذكروا أهل النهر فترحموا عليهم ، وقالوا ما نصنع بالبقاء بعدهم . إخواننا الذين كانوا دعاة الناس لعبادة ربهم والذين كانوا لا يخافون في الله لومة لائم ، فلو شرينا أنفسنا فأتينا الرؤوس فالتمسنا قتلهم فأرحنا منهم البلاد وثأرنا بهم اخواننا .

قال ابن ملجم — وتعرض له طيف قطام يبتسم له ويباركه — أنا أكفيكم علي بن ابي طالب .

وقال البُرَك بن عبدالله : انا أكفيكم معاوية بن أبي سفيان .

وقال عمرو بن بكر : أنا أكفيكم عمرو بن العاص .. فتعاهدوا وتواثقوا بالله لا ينكص رجل منا عن صاحبه الذي توجه حتى يقتله او يموت دونه » .

بعد ما غاب ابن ملجم عن عيني قطام ، شعرت بغبطة لم تلبث ان مازجتها حسرة كانت تنساب إلى قلبها على شكل موجات متدفقة ، ولم تلبث انفارت واصطخبت . فخفت إلى الطريق الذي سلك تود لو أدركته ، ولكنها توقفت ولم تسقط له على اثر ولو في القتام . فظلت ترنو جاحظة وشفتها بين اسنانها ، وظلت تمسك وجيب قلبها بيد وتكفكف من غرب دمعها بيد ، وطال بها المقام ولفها الليل كأنه يجلببها بثوب الحداد .

سمعت بعد حين ، ان عبد الرحمن هبط الكوفة فهالها ما سوف يقدم عليه ، فضمت اليه من قومها رجلاً اسمه وردان ، تمنت في أقصى عواطفها لو أنه سقط طعم الفريسة ونجا صيادها الحبيب المفدى .

ما لبث ابن ملجم ان لقي أصحابه في الكوفة وكاتمهم أمره ، ثم سار إلى « شبيب بن بجرة فقال له : هل لك في شرف الدنيا والآخرة ؟

قال : وما ذاك ؟ .

قال : قتل علي بن ابي طالب .

قال : ثكلتك أمك . لقد جئت شيئاً إدّاً ، كيف تقدر عليه ؟

قال : أكمن له في المسجد فاذا خرج لصلاة الغداة شددنا عليه فقتلناه ، فان نجونا شفينا أنفسنا وأدركنا ثأرنا ، وإن قتلنا فما عند الله خير من الدنيا وما فيها .

قال : ويحك ! لو كان غير علي لكان اهون عليّ ، قد عرفت بلاءه في الاسلام وسابقته مع النبي (ص) وما أجدُني أنشرح لقتله .

قال : أما تعلم انه قتل اهل النهر العبّاد الصالحين ؟

قال : بلى.. فأجابه، وأتى الثلاثة إلى قطام وهي معتكفة في المسجد الاعظم ، فدعت لهم بالحرير فعصبتهم به وأخذوا أسيافهم وجلسوا مقابل السدة التي يخرج منها علي ... قال محمد بن الحنفية : إني لأصلي تلك الليلة في المسجد الاعظم في رجال كثير من أهل المصر ، ما هم إلا قيام وركوع وسجود ما يسأمون من اول الليل إلى آخره ، إذ خرج علي لصلاة الغداة فجعل ينادي : أيها الناس ، الصلاةَ، الصلاة . فنظرت إلى بريق وسمعت : الحكم لله يا علي لا لك ولا لأصحابك ! فرأيت سيفاً ثم رأيت ثانياً ثم سمعت علياً يقول : لا يفوتنكم الرجل ! وشد الناس عليه من كل جانب ، فأخذ وأدخل على عليّ فقال :

النفس بالنفس إن أنا متّ ، وإن بقيت رأيت فيه رأيي .. ثم التفت إلى ذويه فقال : يا بني عبد المطلب . لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين تقولون : قتل أمير المؤمنين . قتل أمير المؤمنين . ألا لا يقتلن إلا قاتلي، انظر يا حسن، ان انا متّ من ضربته فاضربه ضربة بضربة ولا تمثل بالرجل ، فاني سمعت رسول الله (ص) يقول : إياكم والمثلة ولو أنها بالكلب العقور .. ولما أحس دنوه جمع اليه الحسن والحسين فقال :

اوصيكما بتقوى الله والا تبغيا الدنيا وإن بغتكما ولا تبكيا على شيء زوي عنكما ، وقولا الحق وارحما اليتيم وأغيثا الملهوف واصنعا للآخرة وكونا للظالم خصماً وللمظلوم ناصراً ، واعملا بما في الكتاب ولا تأخذكما في الله لومة لائم .. ثم نظر إلى محمد بن الحنفية فقال : هل حفظت ما أوصيت به أخويك ؟ قال : نعم . قال : فاني أوصيك بتوقير أخويك ، العظيم حقهما عليك ، فاتبع أمرهما ولا تقطع أمراً دونهما . ثم قال : أوصيكما به فانه شقيقكما وابن أبيكما ، وقد علمتما أن أباكما كان يحبه .. ثم لم ينطق إلا بقول : لا إلـــه إلا الله . حتى قبض » ...

فليتها إذ فدت عمراً بخارجـــة   فدت علياً بمن شاءت من البشر !

*

خاض علي الكفاح الاسلامي ولم يدرك مَدْرَكَ الرجال ، وقضى في ساحة هذا الكفاح وهو أسمى الرجال ...

وكأنه بكفاحه أتمّ على الاسلام كفاحه ؛ فالنبي كافح الشرك ، وعليّ كافح النفاق ...

والنبي ظفر بالمعركة الحاسمة ، وعلي ظفر بمعركة التطهير الحاسمة أيضاً...

في كـــل عينٍ أنت قرتهـــــا   في كل جيلٍ أنت علياه !

*

شاء الحق أن يقدم في دنيا الناس نموذجَه فكان علياً ...

وشاءت الانسانية العليا أن تعترض متألقة في أفق الأحياء فكانت علياً ...

وشاءت السماء أن لا تسلمه إلى أطباق الثرى المظلم ، فاختارته ملء عين الحق شهيداً ! ..

*

استعبر الحسن وتولـّه الحسين ملتاعاً فقد دقت ساعة مات فيها البدل ...

وأعوزه الدمع ولكن علياً لا يشيع بالدموع ...

فان تكريم البطل لا يكون إلا بتضحية في بطولة وبطولة في التضحية ...

فبكاه ولكن لم يبكه بالدموع بل بالدماء الخالدات ! ...

*

تنظّم على رأس الحسين اكليل أسى ، ولكنه إكليلُ غار يعبر عن خالد المجد ... فقد ضم جده وأمه وأباه في احتباك وضيء ..

وكان شعاره أنـّى سار وكيف سعى ...

وظل الاكليل كأن فيه محـلاً لزهرة حمراء أيضاً ...

فلم يلبث أن كان بنفسه تلك الزهرة الحمراء ...

وظل إكليل الغار العظيم ذكرى رائعة في ضمير الوجود ! ...

*

استغرق الحسين في أسى مذيب وجرى على لسانه من مرثية أبي الأسود الدؤلي :

اذا استقبلتَ وجه أبي حسين رأيتَ البدر راعَ الناظرينـا
لقد علمت قريش حيث كانت بانك خيرها حسباً ودينا ...

ثم تمتم : لماذا ؟ لماذا يقول « أبي حسين » ؟ ...

لا شك أن ابا الأسود يناديني ، يناديني أنا ...

وخليق بي أن أجيب النداء ! ...

في الهيكل

هجر الناسَ إلى المسجد ، وسئم الحياة الصاخبة وقد امتدت اليه بأرزائها ، واتصلت إلى قرارة حوبائه بأسباب بأسانها ، فما بشّت في وجهه إلا قليلاً ، على ان ذلك القليل لم يكن إلا كالفترة بين تجهّمين .

بله فكرته عن الحياة وكانت لا تزيد في اعتباره عن مسرحية مرسلة إرسالاً لا تتقيد بوحدة زمان ومكان ، تسُرّ في بعض منها وتشقي في بعض ، وتضحك وتبكي وتلذ وتؤلم . وهي مع ذلك لا تؤلم حقيقة كما لا تلذ حقيقة ، ولكنها تغري بالألم واللذة اذا استجاب إلى أشيائهما الشعور ، فتلون بها وتعلق في الفكر رغبةُ تصديقها ، وإلا فهي في حقيقتها ضحكة نحن نفتعلها ونحن نعود فنصدقها ونؤكدها .

أما أنها واقع فأبعد ما تكون عن ذلك ، وإلا فلماذا تكون مصائب قوم عند قوم فوائد ؟ .. ولماذا لا تمتلكنا مشاعر واحدة حيال الحادث الواحد ؟

أليس هو حادثاً واحداً لا يملك هذا التباين ، فمن أين جاء إذن ؟ إن كان الحادث علة والمشاعر المتباينة تنشأ عنه بالعلاقة السببية ، فكيف اختلفت ؟

ولماذا أقتنع أنا بأسلوب ومنطق لا يقتنع بهما الآخر في زمان ومكان ليس

مختلفين ؟ ويحس كل منا أن الواقع هو ما انطوى عليه وشعر به شعوراً فكرياً او معنوياً .. أما يحس كل منا اذا اقتنع بأمر او برأي ، أنه انتقل من واقع لم يعد له هذا الاسم إلى واقع ليس سواه خليقاً باطلاق الاسم ؟ ألسنا لا نبتئس ونحن نعبث جذلين باشلاء الاعداء ودمائهم ؟

فالطبيعة الحية إذاً تهدم العلاقة السببية في نفسها ثم لا تخضع لناموسها ، والعلاقة السببية هي ظاهرة الواقع ، فلا بدع بعد هذا إن كانت الحياة ليست واقعاً او لا تعبّر عن واقع في كثير او قليل .

ان الحياة إنما تجد واقعهــا في انفعالنا الضميري [1] او الوجداني ، فكل ما لا يجد طريق انتهائه إلى مركز الانفعال الضميري ليس بحياة . فلكي يكون إذاً للعلاقة السببية عمل في الطبيعة الحية فتنتج وحدة أثر ، لا بد من وحدة زمان ووحدة مكان ووحدة حادث ووحدة ضمير ، وهذه الأخيرة أهم الوحدات من حيث تجد الحياةُ الانسانية في بيدائها واقعها . فأشياء الحياة لا تجد حياتها وبعبارة أخرى لا تجد حقيقتها إلا إذا استجاب اليها الشعور ، وإلا فاين الألم واللذة ؟ وأيان تقوم المغريات والفتون ؟ فلنجرب إذن جيداً أن لا نصحب ألوانَ الحياة التي تمر بنا باستجابة الشعور ، فتنقلب مسرحية تافهة القيمة .. ونحن من هذه المسرحية نفسها — وهي افتعالنا — نسر ونأسى اذا استجبنا اليها بشعورنا ، فسرّ ما ينتابنا من شقاء الحياة او سعادتها قائم في الاستجابة الشعورية فقط ، فالحياة ليست تملك سوى اسماء نحن نفرغ فيهــا مسمياتهــا . فاذا حلنا بين الشعور والاستجابة ، أدركنا سر الحياة وحقيقتها ، واستشعرنا بهينمات الخلد ، وانثنينا نتقلب في حياة ذابت عليها كبرياء أبدية السماء وكبرياء معانيها وأحلامها.. رنّ في أذن الحسين وهو في مذهب تفكيره هذا أو تأمله ،... فلنتجرد ! هلم إلى الهيكل ! إلى محراب المعبد ، محراب الروح والجمال والحب والخير !

ظل في حياة تموج بالنشوة وسكرة الحُلُم وحنين الروح ورفة الطهر وخفقة

---

(١) نعني بالضمير هنا المضمر اي المعنى اللغوي دون المعنى الاخلاقي ، وكذلك الوجدان .

الحب ، وظل الناس خارج الهيكل يتقلبون في حياة تموج بالفتون والشهوات ورشحات الاعصاب من لذة وألم ، ولكنها دنيا من السراب .

كان كأنه في محرابه بيت القصيد في أنشودة الحياة ، أو أنشودة الطهر في شعر الوجود ...

ظل في محراب الروح رانياً شاخصاً زمناً طويلاً ، في حساب من دون حدود الهيكل ، وإن كان في حسابه لم يفن اللحظة الاولى بعدُ ، وهل في لحظة الاشراق وجود للزمن ؟ ! إن لحظة الاشراق لحظةٌ أبد ، وأول اعتبار في الأبد إلغاء فكرة الزمان منه .

وفي لحظة الاشراق سرّ الحياة ، ولمكان هذا السر فينا لا نفتأ ننشد النشوة في الحب وفي الفن . ولأن في لحظة الاشراق لحظة أبدية ، لا يشعر المحبون بدنيا الحياة وما اجتمع فيها ثم لا يشعرون بغير دنياهم ، لقد انتشوا فهم يحلمون ...

في كل أشياء الوجود لفتات إشراق ، وهي تتنادى بالحي إلى التأمل لينجو من عباب السراب ، قبلما يُعتَصر في الالتماع الساحر .

إن لحظة الاشراق في الفن تنتهي بلحظة الاشراق في الحب، ولحظةَ الاشراق في الفن تنتهي بلحظة الاشراق في الهيكل اي التأمل ، وهنا ترتفع سدود الشعور في القلب فتتدفق بلجج الاشراق وفي عبابها بات الحسين يطفو حالماً يسمو به المد . انه نشوان . أليست حشاشته تُنَدّيها خمرة الله ، ترابٌ بفمي : إنها تَندَى برحيق الأزل .

بدأ الحسين لا يرى شيئاً إلا رأى الله وراءه ، وانتهى وهو لا يرى شيئاً الا رأى الله امامه ، ومعناه انه لا يرى شيئاً، فقد فنيت الظلال كلّها في الاشراق .

فلا بدع إن استوى قلبه على قاعدته كما استوى فكره عن نفس القاعدة ، وتملأ ضميره بالمثالية وشاع في وجدانه الحق بقضاياه العليا . فهو خصب الروح اكثر ما تكون خصوبة ، ومن فؤاده يتدفق تمير صالح لخير الانسانية والانسان ،

وتتفجر من أعماق نفسه ينابيع الفضائل . فظل مصدر نموذجات تشير إلى المكارم التي قيل عنها : إنها احلام الشاعر وأغنية العندليب ، ألا لقد كانت هذه الأحلام العليا تشير إلى الحسين وتقول : إني هنا !

كان قد استُطير قلبه بالحقيقة الآلهية فهو لا يفتأ ينشدها ويستغرق متأملاً في بيداء جمالها ، فكأنه وهو في المحراب قد أبرز المحراب فيه معناه . فلم يعد يمد خيــال الانسان بل غدا يمد واقع الانسان ، حين اضحى معنى المحراب إنساناً يعيش في الناس،فكان مثال الخير كل الخير ومثال الطهر كل الطهر،فلم يكن يُرَى الا مصلياً حتى كأن حياته جاءت على مقدار الصلاة ، والا سخياً جواداً حتى كأن غاية الحياة في غاية الجود، والا ممتطياً صهوات خيوله إلى مكة كأنه يشعر بالحج أنه — مثلما نعبّر اليوم — تسجيل للاسم في سجل التشريفات ، وليس اشهى إلى قلبه من معاودة ذلك ؟

لذا كان الحسين ، بجاذبية الروح ، مهوى القلوب وندى الأفئدة تحوّم من حوله كأنها تروي غلتها ، فقد سقط العطاش منه بعد التيه على رقارق الينبوع ، فما كنت ترى الناس « الا عُكّفاً حوله » منتشين ، ينعمون بين يديه بالحنين إلى المجهول « كأن على رؤوسهم الطير » .

فكان محلّه من الناس محلّ جدّه النبي، تجد فيه الارواح الشاردة الحائرة ما تشتهي من طمأنينة وما تشاء من سكينة . فاذا بعبد الله بن عباس على مكانته يأخذ بركابه في شعور ودون شعور، واذا قيل له في ذلك ، قال « ان هذا ابن رسول الله، أفليس من سعادتي ان آخذ بركابه ؟ » .. واذا بأبي هريرة يسير والحسين في جنازة فأعيا الحسين وقعد ، « فجعل أبو هريرة ينفض التراب عن قدميه بطرف ثوبه، فقال: وانت يا ابا هريرة تفعل هذا ؟

فقال له : دعني ، فوالله لو يعلم الناس منك ما اعلم لحملوك على رقابهم !» .. واذا بعبدالله بن عمر « يرى الحسين مقبلاً وهو جالس في ظل الكعبة في جماعة، فيقول : هذا احب اهل الارض إلى اهل الارض والى اهل السماء اليوم » .

وكان على هذه المكانة لا تزدهيه كبرياء المتخايل، فان الكبرياء شعوره بنقص الذات وجبر لهذا النقص بالتظاهر ، وما حاجة العظيم إلى الاثواب ، والعظمة ذاتية تكون اكثر أسراً كلما كانت اكثر عرياً .

فالكبرياء مرض بين ان يكون في الذات او ان يكون في الادراك، وفي كلتا حالتيها تعبّر عن انها كشجرة الاوراق في الخريف او كزَغب النعام في الاعصار.

زعموا ان تفاحة نبتت في اصل شجرة بلوط فأطلت عليها من عليائها الشامخ بخيلاء وازدهاء ، وقالت : انت حقيرة، حقيرٌ جناكِ الذي تحملين ، حتى صوتك حقير في نجوى النسيم ساعة ينطلق في السحر يغازل غانيات الاشجار ويسامرها.. وانتفضت تصفق ، فقد مر الريح يهدّهدها وذهبت تضحك متمايلة في سخرية وكبرياء . وهبّت في إثر الريح اعاصير تزأر فطالت ضحكتها واستحالت قهقهة لم تزل تمتد ، ولكنها انقلبت فجأة إلى مثل حشرجة رهيبة انكفأت معها ترتطم بالارض عند قدم التفاحة ، فمالت هذه عليها راثية تقول :

لعلك الآن — ايتها الاخت — اصدق رمزاً في الكبرياء ..

ومر سائر طريق جَدّ به المسير فوقف عندهما تعباً ضاوياً، وأهوت يده تطعم من ثمر البلوطة ، فخبطته مرارة حادة فتقزّز مستنفَراً كالذي مسته أفعى وتزايد به الظمأ ، وتلبّث في حيرة طويلاً قبل ان اخذ من ثمر الاخرى ، فاحلولى وشاع الريّ في جوانحه ، فقال :

مباركةٌ انتِ ! فانك تحملين عصارة الذات في شكل خدود الحسان ، وأما أنت الاخرى فبعداً لك ! انك تحملين عصارة الكبرياء في شكل ثغر الجمال . ! فسمعت كلتاهما حكم الحقيقة عليهما ، فما تاهت احداهما وهي كبيرة الذات كبيرة الوجود ، ولقد تضاءلت الاخرى وهي عديمة الذات كبيرة في العدم ، وراحت وقد احتضرت عليها الكبرياء كأنها تنظر إلى أشلائها ممزقة .. وقيل بعد حين ان المواقد انتهبتها ، وحالت في الرماد والدخان تقول ايضاً : انني لم ازل كبرياء تعلو .. !

« مرّ الحسين بمساكين يأكلون في الصفّة، فقالوا: الغداء . فنزل وقال: ان الله لا يحب المتكبرين . فتغدى ثم قال : قد اجبتكم فاجيبوني ، قالوا : نعم .. فمضى بهم إلى منزله ، وقال لخادمه : اخرجي ما كنت تدخرين » .

والحسين كان وهو في الهيكل لا يفتأ يمعن النظر في حياة الناس وان لم يكن يغشاها ، يُصلح فيها ويُصلح لها حتى آذنه الهيكل بالخروج ، كما خرج جده من غار حراء قبلُ ، ليأخذ الحياة طبق قاعدة الاصلاح؛ فتحدته اوثان الاحياء فحاربهم منتشرين ومجتمعين .

فالنبي الجد، من قبل، حارب الوثنية في الفكر ودحضها . والحسين السبط حارب الوثنية في المجتمع ، وهو وان لم يدحضها ، فقد رسم الطريق لحربها ، واباح ثورة التحرر على أية صورها واشكالها .

*

ذابت حقيقة الحياة في القشور ...

وراح الاحياء يتعلقون منها بالغُثاء والظلال ...

في نشوة كنشوة الخمر تعبر عن انها باطلة ، تمد بالعربدة دون ما أحلام ! ..

*

وقليلٌ هم الذين نفذوا من القشور إلى اللباب ...

فطعموا الحياة التي هي هبة الابدية ...

فاستعلوا ووقفوا على هام القشور ينظرون إلى العلاء ...

وتحدث هؤلاء انهم رأوا عند افق الابدية انساناً يمعن في السماء ..

عرفوا في طِلعته انسان الهيكل الذي اغراهم باللحاق ! ...

في وجه الظلم

في جوف الليل العميق عمق الأبدية والمجهول حين كان الظلام ينتشر على شكل أردية فاحمة ، تلفع وجه الكون وتلقيه في سكون حائر وسبات واجم مخيف ، انطلقت أنـَّة " تتبعها أخرى وأخرى في تلاحـُق بدأ بطيئاً ثم كرّ سريعاً ، وكانت أنـّات تـُسمع جريحة ويخيل أنها ترى دامية كليمة ، تجتمع فتشكل صرخة باغتة او بغتة صارخة ، وتتوزع متقطعة متناوحة فتؤلف لحناً فانياً ، كأنه لحن التلاشي المحتضر او نغمة الفناء الذائب في افواه القبور .

أصغى الحسين إلى ما يتناهى في سمعه ومال بأذنه كأنه يسأل : ماذا ؟ ! وقد خف قلبه اليها يسابق السمع ، ولكن التأمات اختلطت فأدار اذنيه كلتيهما إلى الجهات كلـّها ، وهفا قلبه يتوثب يميناً وشمالاً ، بيد أنها ظلت تقول في منطق الصدى : أواه ! وظل كأنه يقول : ماذا ؟ واختلطت الآهات وانبهمت .. فهبّ يشتد خارج الهيكل مستطلعاً وهو يردد :

الليلُ ليلٌ ، وهو ويلٌ ويـــلُ   وسال بالقوم الطغاة السيلُ

ويل للظلم والظالمين ، « الظلم ظلمات يوم القيامة » .

أطلّ من الهيكل وأطلع رأسه والناس متجمهرون على بعضهم كالغمام المرفّ

يقولون : أفي كل يوم ضحية جديدة ودم يُطلّ ؟ أفي كل يوم تمزق أكباد وتنثر أشلاء ؟

لقد جاء النعيّ بأن حجر بن عدي طُلّ دمه منذ ليال في نفر من صحبه ، وهؤلاء وجوه اهل الكوفة يستصرخون وينتصفون .

قال الحسين : رباه ما اسمع . أحجر يقتل ولا نصنع شيئاً ؟ فيا حياة أشيحي واغربي ، ويا دنيا الآثمين ذوبي واضمحلي !

وكان قد آذنهم الفجر بالصلاة فعاجوا إلى المسجد والتأموا صفوفاً ، وما انصرفوا حتى تحلقوا على شكل دوائر في بعضها ... فقام رجل من أهل الكوفة فقال :

ايها الناس : أنتم هنا في المدينة بقيّة اصحاب النبي ، واليكم تتجه الانظار من كل مكان والى ظلالكم يفيئون قصدَ تطهير المجتمع من الأدران .

انتم هم الانصار ، وبينكم ترعرعت النبوة واشتدت قوادمها وربت خوافيها. فاستوى النسر وحلق صعداً في كل مجال ، وارتعدت فرائص البغاث وأهوى الخفاش إلى الحفائر يستخفي. ولقد عاد النسر الآن إلى وكره وأخذه رقاد عميق، فاستنسر البغاث وعدت الهوام في كل مكان . إن المدينة هي نسر النبوة، فأهيبوا بالنسر إلى التحليق لترتعد الهوام من جديد ، وتنسحق في الرغام ابداً .

ألا فأنتم حفظة الوحي . وحامو ذمار الرسالة دون العابثين . ألا لقد ارتد المجتمع إلى جاهليته الرعناء، ولكن بأثواب أخرى تتماوج من خلالها ، وليت هذا فقط ، إنه ضم إلى جاهليته قبل الرسالة جاهلية كل أمة وكل قبيل .

انظروا ! انظروا ! لقد بعث محمد عدوّاً للملكيات؛ فبتنا نتقلب في أردا أشكالها . وعلّم محمد ضرورة الحد من طغيان رجال المال ، فصارت كل القوى في ايديهم . وأطلق محمد حرية الفرد وأعطاه الحق بالحياة كيف شاء في حدود الصالح الاجتماعي العام وفي حدود الاخلاق المسلكية والضمير الانساني الشامل ؛ فاذا بنا نحيا في استعباد اجتماعي منكر ، حتى لقد تناهوا فانتزعوا حق الحياة

من ايدينا، وباتوا ينعمون علينا، اذا شاءت شهواتهم ، بقدر حقير بليد من الحياة البائسة الشقية ؛ وأفضل منها الموت خطة ، والله .

وضجّ الكنديون من أطراف الجموع وبينها : يا لثارات حجر ! وانطلق المتكلم الكوفي يصل ما انقطع ملتاعاً مهتاجاً : لقد أذكرتني ثاراتهم مصرع حجر بن عدي الكندي؛ ومن يجهله؟ لقد كان من اكبر أعلام الرجال ونقطة الفضل منهم ، فقد صحب النبي وأظهر أروع انواع البطولات في فتح الشام مع أبي عبيدة . وكان من خبره « أن معاوية لما ولى المغيرة بن شعبة الكوفة سنة إحدى وأربعين ، دعاه وأوصاه بشتم عليّ وذمه والعيب على أصحابه والاقصاء لهم ، وباطراء شيعة عثمان والادناء لهم والاستماع منهم . فأقام المغيرة عاملاً لمعاوية سبع سنين وأشهراً، لا يدع ذم عليّ والوقوع فيه والدعاء لعثمان بالرحمة، والتزكية لاصحابه والمطالبين بدمه .

فكان حجر اذا سمع ذلك قال : بل اياكم فذمّم الله ولعن ... ثم قام فقال : كونوا قوامين بالقسط شهداء لله، وأنا أشهد أن من تذمّون وتعيّرون لأحق بالفضل » .. ألا لقد كان ذلك من معاوية سياسة تدل على عدم فهم جيد لنفسية الجماهير وعدم تغلغل بين حناياها وفي خلالها ، فقد كان في هذا التنقص ما يكفي لبعث الدفائن وإذكاء نار الحفائظ إذكاء جهنمياً ساجراً ، قد يأتي على أركان الدولة ويطوح بها شر طياح ، كما يجعل كل نفس تنطوي على أحقاد طامسة تروح وتغدو في ائتمارات تروّي بها سخائمها . نعم هي حماقة وإن كان يرمي بها إلى جملة غايات :

(أ) التشفي وتوكيد ما سبق ونشره من دعايات ضد عليّ في الشام وسائر مناطق نفوذه .

(ب) بث عقيدة سيئة تنمو مع الايام لدى الناس في البطل الاسلامي الخالد عليّ وفي بنيه ، وبذلك يأخذ الطريق دونهم إذا راموا محاولة من نوع المحاولات الكبرى، فقد سمم الجو عليهم؛ وغير خفيّ انّ الآراء والمعتقدات إنما تنشأ بالتلقين والتكرار والمعاودة .

(ج) تحريك أنصار عليّ للتمرد واستثارتهم للشعب على رجال الدولة والدولة . وبذلك يجد السبب لادانتهم وأخذهم واحداً بعد واحد ، وهذا ما وقع لحجر بن عدي وجماعة كبرى هنا وهناك .

ولكن رغم أنها تقصد إلى كل هذا ، فقد كانت سياسة هوجاء أعشى فيها عنصر الانتقام على قصد السلم الضروري إذ ذاك ، لايجاد حالة تواصل صحيح مخلص بين الدولة والشعب .

والمغيرة كان إلى ذلك حَسَنَ التأني فهو يفعل ما يأمر به مرجعه ، ويترك للناس حريتهم في التعليق كيف شاؤوا . « ولما هلك سنة احدى وخمسين ، جمعت الكوفة والبصرة لزياد بن سميّة ، فصعد المنبر وذكر عثمان واصحابه فقرظهم وذكر قتلته ولعنهم ، فقام حجر ففعل مثل الذي كان يفعل بالمغيرة ؛ ورجع زياد إلى البصرة،وولي الكوفة عمرو بن الحريث ، فبلّغه أن حجراً يجتمع اليه شيعة عليّ ويظهرون ألمهم والبراءة من معاوية وعمله . فشخص إلى الكوفة وخطب الجمعة وأطال الخطبة وأخّر الصلاة ، فقال حجر : الصلاةَ ! فمضى في خطبته . ثم قال : الصلاة ! فمضى في خطبته ، فلما خشي فوت الصلاة ثار اليها وثار الناس معه . ولم يسع زياداً الا النزول والصلاة بالناس ، وكتب إلى معاوية في أمره فكتب اليه معاوية : أنْ شُدّه في الحديد ثم احمله إليّ ... فاخذ زياد حجراً وحبسه ثم حمله إلى معاوية ، فلما دخل عليه سلم فقال له: والله لا اقيلك ولا استقيلك ، أخرجوه فاضربوا عنقه ... فقال حجر للذين يلون امره :

— دعوني حتى أصلي ركعتين !

قالوا : صله ... فصلى ركعتين خفف فيهما ، ثم قال :

لولا ان تظنوا بي غير الذي انا عليه لأحببت ان تكونا أطول مما كانتا ، ولئن لم يكن فيما مضى من الصلاة خير فما في هاتين خير .. ثم قال لمن حضره من أهله :

لا تطلقوا عني حديداً ولا تغسلوا عني دماً ، فاني ألاقي بها معاوية غداً على

الجادة » ... ثم تتبع اصحابه واحداً بعد آخر فقتل عمر بن الحمِق ورفاعة بن شداد إلى كثير كثير لا يحصون .

ألا يا سبط محمد ! إن مبادىء محمد تناديك ، وقرآن محمد يهيب بك ، إلى العمل ، إلى العمل السريع ، فلم يعد في القوس منزع ، ولا في الصبر معتصم فقد تشقق الحزام على الطبْيَيْن ، أو تَهَرَّ في مثل نسيل الزغب .

وهبّت تُعوِل اخت حجر بن عدي بقولها :

ترفّع أيها القمــــر المنيــــرُ	لعلك ان ترى حجراً يسير
يسير إلى معاوية بن حــرب	ليقتله كما زعــم الخبيــر
تجبرت الجبابر بعــد حجــر	وطاب لها الخورنق والسدير
واصبحت البــلاد بــه محولاً	كأن لم يأتها يوم مطــير
الا يا حجر حجر بني عدي	تلقتك السلامــة والســرور
اخاف عليك .. ما اردى عديــاً	وشيخاً في دمشق لــه زئير
الا يا ليت حجراً مات موتاً	ولم يُنحر كما نحر البعــير
فان يهلك فكــل زعيم قوم	إلى هُلْك من الدنيا يصير

وعلى إثر ذلك قام قيس بن فهدان يقول وهو مفعم الحزن كالذي فقد كل ذويه او كل بنيه :

يا حجر يا ذا الخير والأجــر	يا ذا الفضائل نابهَ الذكرِ
كنت المدافع عن ظلامتنــــا	عند الظلّوم ومــــانعَ الثغر
كانت حياتك إذ حييت لنــا	عزاً ، وموتك قاصم الظهر
يـــا طــول مكتأبي لقتلهــم	حجراً ، وطول حزازة الصدر
قد كدت أصعق جازعاً أسفاً	وأموت من جزع على حجر .

فلمعت مقلتا الحسين ، وقال بصوت بينه وبين نفسه : لولا بيعة سبقت لسرت بالناس، وثرت بالظالمين، حتى يحكم الله بيني وبينهم، والله خير الحاكمين .

وبينما هم جلوس لم يتفرقوا بعد ، جاء البريد بكتب إلى الحسين وعبدالله بن عباس فكان هذا أسرعهما إلى فض الكتاب . فاذا بزياد « يعتذر في شأن حجر وأصحابه ، فألقى الكتاب راجفاً مرتعداً وهو يقول كذَب ! كذب ! ثم أنشأ يحدث : إني حينما كنت في البصرة كبّر الناس بي تكبيرة، ثم كبروا الثانية والثالثة، فدخل عليّ زياد فقال :

هل انت مطيعي يستقيم لك الناس .. فقلت : ماذا ؟

فقال : أرسل إلى فلان وفلان ناس من الاشراف ، فاضرب رقابهم فانه يستقيم لك الأمر .. فعلمت أنه صنع بحجر وأصحابه مثل ما أشار به عليّ » .

وكان على المدينة يومئذ مروان بن الحكم فترقى الخبر اليه ، فكتب إلى معاوية « يعلمه ان رجالاً من أهل العراق قدموا على الحسين وهم مقيمون عنده يختلفون اليه .. فكتب معاوية إلى الحسين :

أما بعد : فقد انتهت اليّ امور عنك لست بها حرياً ، إن كانت حقاً فقد أظنك تركتها رغبة فدعها ، ولعمر الله إن من أعطى الله عهده وميثاقه لجدير بالوفاء ، وان أحق الناس بالوفاء لِمَنْ أعطى بيعته ، من كان مثلك في خطرك وشرفك ومنزلتك التي أنزلك الله بها. وإن كان الذي بلغني باطلاً ، فانك انت اعدل الناس لذلك . فعظ نفسك ، وبعهد الله أوفِ ، فانك متى تنكرني انكرك ، ومتى تكدني اكدك . فاتق شق عصا هذه الامة ، وأن يردهم الله على يديك في فتنة . فقد عرفتَ الناس وبلوتهم ، فانظر لنفسك ولدينك ولأمة محمد، ولا يستخفنّك السفهاء والذين لا يعلمون » .

وكان وقع كتاب معاوية عند الحسين وهو يرى من مهازل الحكم ومآسيه وقع النار في الهشيم ، فما تلبّث حتى كتب إلى معاوية كتابه الخالد الذي كان وثيقة اتهامية خطيرة للسلطات العليا وقائمة إحصاء بالاعمال الاغتيالية التي ارتكبتها ، وكان إلى هذا استجواباً وإنذاراً شعبيـــاً، قال :

« اما بعد : فقد بلغني كتابكَ تذكر فيه ، انه انتهت اليك عني امور انت

لي عنها راغب وانا بغيرها عندك جدير ، وان الحسنات لا يهدي لها ولا يسدد اليها الا الله تعالى .

وأما ما ذكرت انه رقي اليك عني ، فانه إنما رقاه اليك الملاقون المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الجمع ، ما أردت لك حرباً ولا عليك خلافاً ، وإن كنت لأخشى الله في ترك ذلك منك ومن الاعذار فيه اليك والى أوليائك القاسطين .. الست القاتل حجر بن عدي اخا كندة واصحابه المصلين العابدين ، الذين كانوا ينكرون الظلم ويستفظعون البدع ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ولا يخافون في الله لومة لائم ؟ ثم قتلتهم ظلماً وعدواناً من بعد ما أعطيتهم الايمان المغلظة والمواثيق المؤكدة ، جراءة على الله واستخفافاً بعهده ؟ او لست قاتل عمرو ابن الحمق صاحب رسول الله العبد الصالح الذي ابلته العبادة، فنحل جسمه واصفر لونه ، فقتلته بعد ما أمّنته واعطيته من العهود ما لو فهمته العصم لنزلت من رؤوس الجبال ؟ او لست قد سلطت زياداً على الناس يقتلهم ويقطع أيديهم وأرجلهم ويسمل أعينهم ويصلبهم على جذوع النخل ، كأنك لست من هذه الامة وليسوا منك ؟ او لست قاتل الحضرمي الذي كتب اليك فيه زياد أنه على دين عليّ ، ودين علي هو دين ابن عمه الذي اجلسك مجلسك الذي انت فيه ، ولولا ذلك لكان شرفك وشرف آبائك تجشّم الرحلتين رحلة الشتاء والصيف ؟

وقلت فيما قلت : انظر لنفسك ولدينك ولأمة محمد ، واتق شق عصا هذه الأمة وأن تردهم إلى فتنة . وإني لا أعلم فتنة أعظم على هذه الأمة من ولايتك عليها ، ولا أعظم نظراً لنفسي ولديني ولأمة محمد أفضل من أن أجاهدك ، فان فعلت فانه قربة إلى الله وإن تركته فاني أستغفر الله لديني وأسأله توفيقه لإرشاد أمري .

وقلت فيما قلت: إني إن أنكرتك تنكرني وإن أكدك تكدني، فكدني ما بدا لك، فاني لأرجو أن لا يضرني كيدك،وأن لا يكون على أحد أضر منه على نفسك . لانك قد ركبت جهلك وتحرّصتَ على نقض عهدك ، ولعمري ما وفيت بشرط،ولقد نقضت عهدك بقتل هؤلاء النفر الذين قتلتهم بعد الصلح والأيمان

والعهود والمواثيق ، فقتلتهم من غير ان يكونوا قاتلوا وقتلوا . ولم تفعل ذلك بهم إلا لذكرهم فضلنا وتعظيمهم حقنا ، فقتلتهم مخافة أمر ، لعلك لو لم تقتلهم مت قبل أن يفعلوا أو ماتوا قبل أن يدركوا .

فابشر يا معاوية بالقصاص واستيقن الحساب ، واعلم أن لله كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . وليس الله بناس لاخذك بالظنة ، وقتلك أولياءه على التهم ، ونفيك أولياءه من دورهم إلى دار الغربة . ما أراك إلا قد خسرت نفسك وتَبَّرْتَ دينك ، وغششت رعيتك ، واخربت أمانتك ، وسمعت مقالة السفيه الجاهل ، وأخَفْتَ الورع التقي ، والسلام . »

كان جديراً بهذ الكتاب ان يحرك في هيئة الحكم ضمائرهم ويردهم عن غواياتهم ، ويضع حداً لسياسة الدماء أو على الاقل يخفف من اساليب البطش والاعتساف . فان صلة الراعي بالرعية صلة العاطفة المخلصة ، وكلما كانت صلةَ المنفعة الخالصة فهناك يوجد افظع شكل من اشكال اللصوصية والاغتصاب.

نعرف ان احصاء الاخطاء على المخطىء يدفعه نفسياً إلى تصحيح الخطأ ، إلا إذا بنيت النفس على الشذوذ ، كمن يتعطش إلى الدماء بما فيه من وحشية كامنة ، فهذا يحس بلذة في نَهْر الدماء واهراقها وتأخذه نشوة خفية بتردادها وتعدادها . الا اذا استحال حب الذات إلى فكرة ثابتة ، فيستحيل الخطأ إلى صفة نفسية ثابتة ايضاً هي قصد الخطأ ، فلا يزال صاحبها يقصد الاخطاء ويفعل الاجرام بمحض الرغبة في توفير شهوات الذات وتنمية كبريائها .

وهذا ما قد حدث بالفعل في حاشية معاوية ، فلم يكن للكتاب من أثر سوى ما عبرت عنه رواية التاريخ أبلغ تعبير : « لما قرأ معاوية الكتاب قال :

لقد كان في نفسه ضب ما أشعر به .

فقال يزيد : يا امير المؤمنين . اجبه جواباً يصغّر اليه نفسه تذكر فيه اباه بشرّ فعله ... ودخل محمد بن عمرو بن العاص ، فقال معاوية :

أما رأيت ما كتب الحسين ؟

قال : وما هو ؟ ..فأقرأه الكتاب . فقال: وما يمنعك أن تجيبه بما يصغّر اليه نفسه . قال يزيد :

أرأيت – يا أمير المؤمنين – رأيي ؟ ! فضحك معاوية وقال :

امّا يزيد فقد أشار عليّ بمثل رأيك .

قال محمد : قد اصاب يزيد .

قال معاوية : أخطأتما . أرأيتما لو اني ذهبت لعيب عليّ ،فما عسيت أن اقول فيه، ومتى ما عبت رجلاً بما لا يعرفه الناس لم يحفل به ولا يراه الناس شيئاً وكذبوه ، وما عسيت أن أعيب حسيناً والله ما أرى للعيب فيه موضعاً . قد رأيت أن أكتب اليه أتوعده واتهدده ، ثم رأيت ألا أفعل »

بعد هذا لم يسع الحسين إلا أن يشرف كثيراً من دنيا الهيكل التي يتحنّثها ويحياها ، الى دنيا الناس التي تعج بمجموعة الاحياء وتختلط وتمور بالبغي ، يصلح منها ما وسعه إصلاحه ويحد ما استطاع من طغيان السلطات على الجماعات والافراد .

ويظهر أن السلطة في كل مكان كانت قد اتخذت لنفسها منهاج عمل شاذ ، فهي تسعى للحيازة ما وسعها دون التقيد بقانون أو نظام ، فضاعت حقوق الضعفاء ضياعاً تاماً،واضطر الافراد الى استعمال وسائل قوتهم للاحتفاظ بحقوقهم أو دفع عادية الضيم عنهم .حتى اضطروا اخيراً إلى إحياء الوسائل الشائعةواعتمادها قبل نشوء الحكومة النظامية من مثل ما يسمونه « حِلْف الفُضُول » ، وهو يعبر عن تكتل أفراد أو جماعات على وجهة نظر تتعلق بالخير وحماية الضعيف . وتكون مثل هذه الوسائل ضرورية في غير وسط الحكومة النظامية بالطبع ، ولكن الحاجة اليها في وسطها معناه أن الحكومة نفسها باتت خطراً على الأمن والحقوق .

« كان بين الحسين وبين الوليد بن عتبة . وهذا يومئذ أمير على المدينة ، . منازعة في مال كان بينهما . فتحامل على الحسين في حقه لسلطانه . فقال الحسين :

احلف بالله لتنصفنّي من حقي أو لآخذن سيفي، ثم لأقومن في مسجد رسول الله ثم لأدعون بحلف الفضول !

فقال عبدالله بن الزبير وهو عند الوليد : وأنا أحلف بالله لئن دعا به لآخذن سيفي ثم لأقومن معه حتى ينصف من حقه أو نموت جميعاً .. وبلغت المسْوَر ابن مخرمة الزهري فقال مثل ذلك، وبلغت عبد الرحمن بن عثمان التيمي فقاله ».. ويظهر أن الخلاف رفع الى معاوية واستصرخه الوليد على الحسين . فكان من معاوية تدخل، وكان منه ميل بالضرورة الى جانب الوليد .

« فقال الحسين لمعاوية : اختر مني ثلاث خصال : إما أن تشتري مني حقي ، وإما أن ترده عليّ ، أو تجعل بيني وبينك ابن عمر أو ابن الزبير . وإلا فالرابعة وهي الصَّيْلَم .

قال معاوية : وما هي ؟

قال : اهتف بحلف الفضول .. ثم قام فخرج مغضباً ، فمر بعبدالله بن الزبير فأخبره فقال : والله لئن هتفت به وأنا مضطجع لأقعدن . أو قاعد لأقومن ، أو قائم لأمشين، أو ماش لاسعين. ثم لتنفذن روحي مع روحك أو لينصفنك! فبلغت معاوية فقال: لا حاجة لنا بالصيلم .. ثم أرسل اليه: أن أبعث فانتقد مالك، فقد ابتعناه منك » .

ان حلف الفضول كان يعبر عن ثورة منظّمة غير هائجة ولا متخبّطة،دائمة الحياة دائمة الترويع ، يطلقها الشعب بمقدار ويضمها بمقدار ، يجمعها الصالح الاجتماعي كما ينشرها هو أيضاً في تقدير موزون .

*

في جسم الباطل حاول الحق أن يجد نقطة يتركز فيها ...

وما هو حتى امتد وتفرّع ، وأخذ على الباطل سبيل امتداده ...

فذهب في ضمور شيئاً وراء شيء، وضاقت به الحياة فلفظته ...

واذا به يبحث عن وجوده في عراء العدم ، وهو خِضَمٌّ لا يمد بالوجود ...

*

في المحيط الملح ينبثق نبع عذب يكون بيئة للآلىء ...

فأغري المحيطُ بلآلئه فراح يعتصر طبيعته في مثلها ...

ولكنه تمخض طويلاً وانكشف عن حصى تارة ، وتارة عن دنيا من الملح المرير ..

*

في لوح حالك وقعت نقطة نور ...

فنشرت أشعتها.وكان السواد أكثر إظهاراً لطبيعتها، وإبداءً لما اجتمع في وجودها من سنى وسناء ...

وراح السواد كلما تغيّظ وبالغ في إظهار طبيعته ، يضيف الى كوكبة النور جِدَّةَ إشراق ...

*

وكان كلما ذهب يقول : «أنا» يشرق بحسَك الشعاع وأشواك الضياء ، فتحتضر كلمته دون لسانه ...

فلم يقع في سمع الحياة ، إلا كلمةٌ قالتها كوكبة النور ، ومشت بها الحياة في التاريخ ، ورجّعتها أبدية الضمير ...

مع أُرَيْنِب

هناك على شاطىء دجلة في زاوية خليج البصرة ، كانت «الأُبلّة[1]» مهوى متماجنين ومتماجنات ، ومهبط وحي الهوى والشباب ، وملهى كل فتى وفتاة بَلْوَرَ المرحُ طبيعتهما ثم أطل ينظر الى صورته فيها . وليس في حس هؤلاء عن الحياة ، سوى أنها شيء يحلو ويلهو ، كانداء السحَر في شفاه الاقاح والياسمين ، وكلؤلؤات الطلّ في خدود الورود والرياحين .. فهم يفنونها سكرى مرح ونشاوى مجون .. ولا يطيف بسمعهم سوى نغمات تتناهى متلاشية في هذا القرار :

يــــا للشبـــاب المرح التصابي روائح الجنة في الشبـــاب

ففي أعماقهم صوت يهيب بهم الى التجنيح في فضاء المراح ، والفناء في لا وَعْي الطَّرْف الغزِل .. وهل الحياة من واجهة الشباب سوى اغراءة تقوم في اللهو العابث الى اخرى تستوي في المجانة اللاعبة ؟ ثم هل الدنيا سوى إغراء متجلبب باغراء ، يبالغ في اسْره حتى ليستدني اليه من احتضر الشباب في قلوبهم بالعمر أو بالفكر ، فيستهويهم وربما استغواهم أيضاً بما يتنفّس به من خلَب :

إن بالحيرة قَسّاً قــــد مجنْ فتن الرهبــــان فيها وافتتنْ

ترك الانجيل حينـــــاً ، للصبا ورأى الدنيا مجونـــــاً ... فركن

---

(١) نهر الابلة كان متنزهاً معدوداً في جنات الدنيا الثلاث .

هذه قصة شاب احتضر الشباب بين برديه بفكرة التقوى ، ولكنه أطلّ الى الحيـــاة من كوّة المعبد المتكلل بالصمت الوقور ، فرأى ما تجيش به من إغراء وما يتموّج فيها من فتون . فملأت عليه نفسه واستوت طيوفها في ناظريه ، فاستيقظ شبابُه الغافي ومشت روح الشباب تتراقص في قلبه سكرى .

مضى في ظنه ساخراً .. يجرب هذا المجون حيناً فقط ، ويروّي ظمأة الصبا المكبوح ، ثم يعود فيحمل كتاب تقواه . بيد أنه رأى الدنيا لا تتكشف إلا عن مجون . وكلما نضت ثوباً مسّته لمسةُ فتون ، ودبّ في حناياه عن شُواظ الشباب طائف جنون ، فكان طبيعياً أن ركن .. واذا بفكرة التقوى لديه تنقلب هي التجربة ، ويستنيم مسترخياً على متن موجة مزبدة ، من مجانة هذا الوجود المسحور . بهذا كان يتحدث «الدلال[1]» في جمع من ظرفاء الحجاز جمعهم التصادف في الأبلة بينهم أشعب ، فقال له هذا :

من ثَمّ لم يكن من همك أبداً إلا جمعُ الرجال الى النساء ، وملء الدنيا بصخب المجون وعربدات الجنون . ان كل هذا رأيك فعسى أن تضع الاقدار في طريقك صاحبَنا الاعرابي الشوهة ، فتمتع حوباءَ قلبك بالمجانة اليه أسخن الله عينك ، ان المجون لا يملح إلا مع جمال أو ظرف... فقهقه الدلال، وانقلب الصحب يسائلون أشعب عن خبره فحدثهم :

دخلت يوماً على الحسين بن علي ، وعنده « أعرابي » قبيح المنظر أشد ما يكون قبحاً، مختلفُ الخلقة مشوّهها، فسبّحت متأففاً، وزاد بي التأفف، فقلت للحسين : بأبي أنت وأمي . أتأذن لي ان أسلح عليه .. فابتسم يظن أن الاعرابي يعرفني بالمزاح فيحتملها مني .

فقال الاعرابي متهكماً: إن شئت .. ومعه قوس وكنانة، ففوّق نحوي سهماً، وواصل: والله لئن فعلت لتكونن آخر سلحة سلحتها.. وانقدحت عيناه، ولست

(١) شخصية فنية غزلة ، وكان يتعاطى سمسرة الزواج ،وله اشبه ما يسمى اليوم بمكتب الزواج. راجع اخباره في الاغاني .

منه الجد في الشر، فقلت للحسين : جعلتُ فداك . أخذني القَوْلَنْج وعسر الخروج ! » وطفق الصحب يضحكون في رنين متجاوب طويل .

كان يوماً مفعماً بسيل من غرانيق الفتيان وغواني الفتيات ، هذا النيروز .. حتى كأن الحياة اتخذت فيه معرضها ، فأطلعت أقصى ما في إبداعها الفني من آيات الجمال الناطقـــة بالهوى والداعية بألق الاغراء الى الحب ، والمشيرة بأسر السحر في العيون والشفاه الى فردوس الخلد السعيد ؛ ولا عجب فنهر الأبلة معدود أحد مسارح الجنان على الأرض في حس هؤلاء .

وكان يزيد — الشاب الطرير الذي بالغ فيه نزق الشباب وذاب في لعابه — قد ذهب موغلاً في الصحراء منذ حين يصيد الظباء ، ويتبع آثار السوانح من الجآذر والآرام والوعول والأيائل كيفما ذهبت وانعرجت . ولذته المطاردة وأخذته نشوتها ، فمضى يلهو ولا يألو ، وزمرة لهوه تتبعـــه ، انه لا يلوي على شيء في مداه .

لم يشعر الا وهو بين جموع اللاهين في نهر الأبلة ، فالتفت يضحك الى رفاقه متعجّباً . لقد قطعنا صحراء الشام الى العراق ونحن لم ندرك ... ومال يربت على كتف تِرْب من أترابه ضاحكاً منتشياً ، ويتأبط ذراع هذا ، ويدفع ذاك لاهياً عابثاً . انه يحس بحياة جديدة ودنيا جديدة .

راح يتنقل بين الجموع وفي إثره «سرجون» راعي طفولته وصباه، ولكنه وقف فجأة عند سرادق مُنيف عرف انه سرادق امير العراق عبدالله بن سَلاّم القرشي . فقد أخذته بغتةً وجه غانية نصَف ، كبغتة بدر انشق عنه الغمام واستَعْرَى دونه ليل بهيم حالك فرجّ نفسه رجّاً عنيفاً وتلبّسه دوار الجمال الذي مال يتلاشى بطيئاً لينكشف عن غفوة في حب القلب وتلهّف العقل السليب . تمده يقظة في الغرائز المفعمة .

كان في خياله وجه يتنفس بمثل عَبَق الزّهر ، وعينان تبشّان مثل السحر ، وشفتان تنطلقان بمثل ذوب الغرام. وزاده بها أن قلبها لا يتجاوب بصدى عواطفه،

فتدور عاطفتهُ نصف دورة وتنكسر متلاشية فلا تمّ دورتها ، بل تَـمّـحي رسومُها في انبهام كالح وغموض يائس متجهم وتَغَـوّرٍ فيه ضجيج الانتحار ..

والمرأة تزيد فيها جاذبية الأنوثة نضجاً ورواء إذا أضحت زوجة ، فقد انحسرت أكمام طبيعتها المغلّفة تنشر أريجها كالزهرة ميّاسة ناعمة في الهواء . إن المرأة تحس بشيء مبهم وهو جوهرة الانوثة في أقصى كيانها ، فهي ترعاه بسياج الحياء كأنها تحتضنه ، فاذا استحالت زوجة فقــد استحالت الآن فقط أنثى كاملة المعنى . لقد أضحت لؤلؤة الانوثة الخبيئة في حِقاقها والمنطويةُ عليهــا صدفتُها ، وهي حلية منشورة .

فيما بعد عرف يزيد عن عروس أحلامه هذه ، أنها أرينب ابنة إسحق الامير ، وسيدة السرادق . فعرضت في خاطره كلمات متقطعة هاذية فراح يحدث نفسه :

كيف لي بها ؟ بيني وبينها هُوّة سحيقة ومسافة تزيد مع الايام تنائياً وبعداً ...

وتلبّث زمناً لم يكن بالقصير ، يَرُود مغناها ويُراوِد قلبها ،ولكنها عربية الاعراق وإن كان هو الشابّ النضير ، فبينها وبين قرينها ما شاء الهوى العَبِق وما شاءت سعادة الازواج الخلطاء .

بات كاسفاً أرقاً يردد ولا يفتأ :

وفي الحي نُعْمٌ قرةُ العين والهوى وأحسن من يمشي على قدم نُعْمُ

وتخوّف مربيه سرجون فزين له الرجوع الى الشام لعله يسلو ، فأجابه وعاد بصحبه يريدون دمشق . وبينما هو آخذ بمحاجز الصحراء ومفاوزها ، حانت من يده لمسة وقعت على قوسه الذي فصل في غدوه يصيد به الظباء ، فتذكر ريمه الذي صاده .. فشد القوس اليه واعتصره بين يديه في ثورة قلب :

حطّم القوس على صحرائـــــه واتكى يسقيه من ماء الشكاةْ
أيّهـــذا القوس أنت مَثَلٌ مِثلُ قلبي ، حَطّمتْه العاصفات
وسأحييك بمُنْهَلّ الـــدمــوع إنما دمع المحبين حيـــــاة ...

لم يزده بعاده في دمشق إلا كمداً وأسى ولم يورثه الهجران إلا لهفة وجوى ، شأن الذين يحبون بغرائزهم ؛ فعواطفهم أبداً تكون عنيفة مهتاجة على الذكرى لأنها وحي الأعصاب ... بينمـــا العواطف اذا كانت من وحي القلب أو حاسة الفن فانها تذكو وتسمو بالتلهّف العاطفي ، فالحب الذي يكون عاملَه القلبُ أو حاسة الفن ، يذهب في استحالات متواصلة : عذرياً ، فمثالياً . بينما حب الاعصاب يشتهي أعصاباً وجسداً فقط ، يهيج بالفراغ ، ويهمد بالامتلاء .

فتناهى « أمر يزيد الى ضمور » وسلوى المتع والانكماش على نفسه في أي مكان اشتمل عليه .. فهذا الذي كان يملأ القصر لهواً ومرحاً ، ويقطع الليل عربدة سكرى ، ويزين معاني الانس بشاشة وحبوراً .. والذي لم يكن من همه إلا أن يقطف من رياض الغواني الكواعب باقات زنابق وورود ، ويهتصر منهن غصوناً لدنة ، ويعتصر عليهن رماناً شهياً ، غدا ذاهلاً ذهول المقبل على الموت ، ضاوياً كأنه نِضْو فلاة أو منزوف دماء ، حبيسَ هوى ومُبْلَس خيال ، غير شهي إلى شيء من ملاهيه التي كان لا يستطيع عنها صبراً ولها مجانبة وفي انتهاجها احتشاماً. حتى اضطر معاوية أن يزجره في رفق ويأخذ عليه تهتكه في تحيّل ، فقال :

« يا بني : ما أقدرك على أن تصير الى حاجتك من غير تهتك يذهب بمروءتك وقدرك ، وأنشده :

انصب نهـــــاراً في طلاب العلا	واصبر على هجر الحبيب القريب
حتى اذا الليل أتى بالدجى	واكتحلت بالغمض عين الرقيب
فبـــــاشر الليل بمـــــا تشتهي	فانما الليل نهـــــار الأريب
كم فـــاسق تحسبه نـــــاسكاً	قد باشر الليل بـــأمر عجيب »

أما اليوم فهو مدنف كَلِفٌ مصروف الهوى ، لا يُرَى إلا متنحياً الى نفسه في ظل شجيرات كان يتشهّى فيئها ساعة غزل أو طرب .

وكان سرجون مربيه يراقبه من بعيد ، ويلزمه دون أن يراه أو يلمحه. فانتهى الى سمعه من نجوى يزيد لنفسه :

أواه ، أرينب ! يا من لا تشعرين بوجودي وآلامي وخلجات قلبي ، وأراك ملء الدنيا لذاذة ومتعة ونعيماً . آه ليتك تشعرين ! إذن لكنت سعيداً .

آه ! هل تصدق أحلامي فأراك عند يدي ، تنحنين عليّ فتضمدين جراح فؤادي ، وتملئين وجودي إشراقاً بألق وجهك العبقري الحسن . حُلم سعيد ، ولكنّ دونه مفاوزَ الجحيم العبقرية الاشواك والأهوال أيضاً . ثم أطرق وتناهى به الاطراق ، ولبث طويلاً كأنما ابتلعه ضباب المساء في ليلة رمى بهـا الشتاء في العاصفة . على أنه رفع رأسه أخيراً ، وعيناه تدوران في بريق مخيف يقول :

لا ! لا ! إنني لن أنتظر هبة الأقدار حتى تضعها في طريقي وردة مُصَوَّحة ، إن الضعيف في شرع الطبيعة الحية حَمَلٌ منهوب ، والقوي هو ابن الطبيعة البكر وقد وهبته سائغاً زلالاً ، كل ما استطاعت أن تلفّه قوته ، أو مرّ في جوها.

هذه هي الحقيقة الفذة التي نراها بين أدنى الاحياء وأعلاها ، من بديّ النبات الى أرفع الانسان .

وأما أولئك الذين شرعوا الشرائع والنظم ، وحددوا مسير الحي فيما سموه أخلاقاً فانهم جبناء ضعفاء وأنانيون أيضاً ، قعدت بهم قوتهم عن أن يدركوا أي نصيب من متع الحياة ولذاتها أو أدركوا نصيباً حقيراً ، فابتكروا قانون الأخلاق والقانون ، وحددوا سعي الأحياء على طبقها ، فأوجدوا لأنفسهم أوفر فرص الحياة الماتعة .

ان هؤلاء أدنأ من أن أحترمهم ، إنهم ضعفاء مموهون خلبوا الناس بأساطيرهم ، فيا ويح الجاهلين .

إنهم شاؤوا العيش على حسابنا نحن الأقوياء ، وحيازة النصيب الأوفر أيضاً ، ألا كيف يفكر الناس الحمقى التعساء ؟ ! لا أدري ..

إنني لا أفهم معنى لهذه النظم سوى أنها سموم الضعفاء ، ينفثونها في جونا

نحن الأقوياء لنسترخي . فيجد الضعف في جوّ القوّة فرصة البقاء .

إن ما أفهم هو هذا فقط : إن الحياة واللذة والسعادة فرص : والقوة وحدها سبيل الاستحواذ عليها ، فالحياة هي القوة .

إن الأسد قد يعف — وهو نهيك جوع — عن الطعام الحقير الوضيع لأنه لا يجد فيه لذة القوة ، ولكنه لا يعف البتة عن الضراوة ،وعن الختل والافتراس أحياناً وهي مجلى القوة . فالذي تمليه طبيعة الاحياء: قسوةٌ ، وبغي ، ولذات. هذا ما نجده كلما حللنا عناصر الحياة وأنواع الاحياء ، فمن أملى على أولئك الجبناء أساطيرهم؟ إنه ليس أحداً ، سوى الجبن والعجز وخوف الآلام .

واستبدت مـــــرة واحــــــدة إنمـــــــا العـــاجز من لايستبد

نعم ! نعم ! إنما العاجز من لا يستبد !

أرينب ! أنتِ حلم سعيد وقد بتِّ متعة قريبة المنال مني !

أرينب ! لتقم في سبيلك سيول الدماء وراببات الجماجم والاشلاء ، فانني سأسير عليها اليك في ابتسامة القسوة وقهقهة جبروت البطش ! إن أنين الفريسة — وعظامها تتقضقض بين فكي الاسد — يطربه ويشهيه ، لأنه مقاطع من أنشودة كبرياء الذات وكبرياء الوجود ، فان معنى نشيد الأنين : أنتَ أنت هو الجدير بالوجود وحدك .. ولذا كان الأسد لا يطعم إلا على ألحان ناي الأشلاء .

أرينب ! أنت عروس أحلامي ، وستصبحين عما قريب عروس لذاتي ! فما أجملها نشوةً وجسمك البض أهتصره بين ذراعي المشتعلين واعتصره في وقدة الضلوع المتلظّية ، وقوامك يتأطّر ويتثنّى تثني الأفعوان ويتلوّى تلوي الخيزران . فما أحَيْلَى قربك !.. إنه دنيا من اللذات العذاب ، ولو لُفَّ في جحيم العَذاب !

أرينب ! إنني سوف ألهو بك أمداً كالزهرة ترودها النحال بتلهف الى الامتصاص ، ثم سيان عندي أذكرتك أم نسيتك بعد، ألست أمرأة،والمرأة لعبة

الرجل ومتعته فقط، ولا شيء وراءهما ؟ ثم أليست النساء في النوع رياحين كما قيل ، وهي تذهب في شمّات أو دونها وتبلى فتنتها.. فاغتنميها فرصة للذاذة كبرى معربدة ، وأنت فيها فواحةٌ بالعبير .

آه ! إن ظمئي لا يرويه إلا سيل من دماء ، إذا وقف في وجهي ذلك العلج ابنُ سـلّام. إنني أحس بأسناني تتأكّل كأنعليهاحكة جرب،إنها تشتهي مضغة من كبده ألوكها ! إنني لأشعر أن في أسناني أسنانَ هند جدتي يوم أحد وهي تحرّق الأرّم على كبد حمزة ! سوف أبارزه فأقتله أو أترصده فأغمد فيه وراء السيف يدي .. ولم يزل مع طيوفه التي أخذت تتجسم له ، فيراها قريبة منه دانية اليه ، وكأن طيف ابن سلام عرض له في بعض الطيوف فهب يخترط سيفه وقبض على قائمته ، وهزه في الهواء هزات ، ضحك في إثرها ضحكاً عصبياً . وفجأةً تقلّصت تقاطيع وجهه وارتد الى الوراء فزعاً متعقد الأيدي يقول، وقد عرض له طيف العدالة : إنني يزيد ! يزيد الامير .. ولكنه لم يزل يرتد الى الوراء في ذعر يقول : لست ، لست أنا ! هي هي أغرتني ! .. وعراه دوار فقد أخذته أعراض حمّى خبيثة وكان يهذي تحت وطأة الداء، فوجل سرجون وجلاً شديداً،ولم يجد بدّاً من أن يتعرض له ويقطع عليه ما هو فيه من خيالات .

أفاق بعد حين، وزايله ما كان فيه من هذيان،فقد تماثل نحو الشفاء والابلال من الداء ، وبقي في تصميمه ثابتاً اغتيالُ الرجل وانتزاعُ معشوقته انتزاعاً ، رضيت أم أبت . وعرف منه سرجون ذلك العزم وخشي مجازفته ، فأسرّ الى والدته ميسون ابنة بجدل الكلبية بكل خبره، فأطرقت برأسها، وقالت :

فذاك مرضه إذن .. وكان يزيد وليدها الاوحد المفدى،فلم تطق آلامه في سبيل امرأة ، ولم تطق البتة لرجل مهما كان خطره ومنزلته أن يحول بين ابنها ورغباته ، فقالت تخاطب سرجون : ومن هذا ابن ســلّام زوجها ؟

قال : هو أمير العراق من قبل الملك .. فانقلبت ضاحكة تقول :

يكون من عمالنا ويقيم له يزيد هذا الوزن ؟ اننا نحن نرفعه أو نخفضه . ثم هل

هو إلا منفذ لرغباتنا عليه ، هو صنيعتنا فيجب أن تكون زوجته احدى إمائنا ، نتصرف فيه وفيها كيفما نهوى . انني لا أطيق أن أرى يزيد واجماً من أجل امرأة يشتهيها ، ولست اطيق أن أسمع انه يُمنع عنها بالغةً ما بلغت منزلتها .

بلّغ الملك أني لا أطيق أن أرى يزيد محزوناً يبكي ، بلّغه أن هذه المرأة يجب أن تكون في جملة اماء يزيد يعبث بها ويلهو !

قال سرجون : لعل زوجها لا يرضيه تركها ، أو لعلها لا ترضى هي إن كان منه ذلك ....

قالت وضربت بيدها على وسادة بجنب مقعدها : وما قيمة رضاه أو رضاها ؟ اننا نريد ذلك وكفى !

فابتسم سرجون وقال : أظن الاميرة لا تعني تماماً ما تقول أو لا تجدّ كل الجد . فلابن سلّام خطره، ولو لم يكن بذي خطر فلا يسعنا انتهاكه انتهاكاً مكشوفاً وتحدّيه في شرفه . ولكن نستأتيه في غير شعور منه .

قالت متأففة متبرمة وهي تهز كتفيها : إنني لا أفهم معنى لخشيتك ...

فقال وتمثل له عهده في بلاط الغساسنة وهو أكثر رعاية للحقوق : ولكنك تفهمين فقط معنى خدش كرامة الرجل ؟ !

قالت : اذا كنت ترى في ذلك بأساً فاستأتِ كيف شئت ، فأنا أريد أن يصل يزيد إلى غرضه كيفما كان ، وليست تهمني الطرق التي ستسلكها .إنني أريد أن تقرّ عين يزيد بها ، ولا يعنيني ما وراء ذلك ... فاستدار سرجون على عقبيه وهو يقول :

أما كذلك فنعم ...

*

دخل سرجون مجلس الملك ومن حوله حاشيته يتدبرون أمر يزيد وما عساه أن يكون طرأ عليه . وبدا معاوية مغتماً،فهو لا يطيق سماع ان يزيد مكتئب، وهو

بكر الامارة المترع بالدلائل ، وفي قرارة نفسه أن يقرّ به عيناً وهو ولي عهده ، كما زاد به ضناً بعد أن « أصاب منه سيف الخارجي مسرى البنين » .

كان فيما يسيطر على المجلس من وجوم ، ما جعل سرجون يقف طويلاً قبلما أسرّ الى معاوية بشأن ابنه البكر ، رغم قربه من معاوية ومنزلته المرفوعة الحجاب لديه . وظل واجماً هو أيضاً . فقد عدته روح المجلس وسيطر عليه جوه حتى قطع الوجوم عمرو بن العاص بقوله :

وماذا تظنون أصابه وهو في جسم الفيل ونشطة النمر ؟ ..وابتسم ؛ لعل احدى غانياته المدللات فاركته وقطعت أسباب وده .

قال معاوية : ما هذا يا عمرو ؟ !

قال : لم يقع في مدى خاطري سوى هذا، وعلى كلّ « فهو أمر لا يوقف عليه الا من جهة والدته » ، لعلها تنتزع من بين شفتيه كلمة سره الرهيب ... وأطالها كالساخر .. وهنا وجد سرجون مناسبة الافضاء اليه ، فمال على أذنه يسارّه، وما لبث أن ضحك معاوية وهو يقول :

عند ظنك يا عمرو ، ولكنها غانية جديدة !

قال عمرو : وان شئت قل صيدة جديدة... فابتسم الحضور ،وطلب معاوية أن يخلو بنفسه سوى عمرو . فقال :

من ارينب ؟ وهل تعرف عنها شيئاً ؟

قال : نعم . هي من « أعرق الحجازيات نسباً ، وأكثرهن مالاً ومثّل في الجمال بين غرائر زمانها » ، كانت عند عدي بن حاتم من قبل ، ثم صارت الى عبدالله بن ســلام أمير العراق اليوم .

قال معاوية : ترى أنه عزيز علينا اصطيادها ؟

قال : هو ذاك ، وأمنع ما تكون .

قال : ولكن كيف برغبة يزيد الحارة ، فانه يحز في نفسي أن يبيت آسفاً . لا يقضي لبانته ويشبع شهوة نفسه ويروي ظمأ قلبه .

قال : وما هذا ؟؟ أأنت أيضاً تسايره في مجونه وعبثه ، وما يدريك لعل ما يتظاهر به من كد هو منْ حيله على المجون ، ومن دلاله على التنويل كي يجعل منا مطايا شهوات واوطار. ان الناس تحملوا منا ضراوة في السياسة وضراوة في الاموال الى ضراوة وضراوة في الأحكام ، ولا أراهم الا ثائرين بنا اذا جعلنا بيوتهم هدفاً لضراوة شهواتنا ايضاً ...

قال معاوية : هو ذاك . ولكن كيف لي بالترفيه عن يزيد . فاني لا أقدر أن أراه كاسفاً ؟ ألا ففكر معي وتحايل ما وسعتك لباقة الحيلة . ففكرا ملياً وكان عمرو أسبقهما فهتف : لقد وجَدتُها ، وان كان فيها تسخيرك ايّاي حتى لشهوات ولدك ايضاً .

قال معاوية بغبطة : هاتِ ! هاتِ ! وعساها أن تكون من وحي شيطانك يوم صفّين ، وخدعة كخدعة رفع المصاحف .. يعني موفقة ...

قال عمرو : أتأخذها عليّ وبها أنقذتك وبوّأتك عرشك ، وجمعت بها عليك ما هو مجتمع في يديك من أسباب الملك ، وحبتك عليك من مظاهر السلطان ؟

قال : كانت من أجل دنيا جزيناك عليها بدنيا ، وما أظنُنّي بخستك الأجر. وكسر جفن عينه اليسرى، وكان لا يفعل هذا الا « وهو يتحدى »،وما يجهل عمر منه ذلك .

فقال وشملته رهبة : رويدك إنني لا أتحداك وانما ظننتك تغمز علي .. فضحك ومعاوية وقد أدرك سر رهبته وقال :

لك العُتبى يا عمرو حتى ترضى . وهل مثلك يبخس قدره ويُروّع ؟ وانما قصدت مداعبتك فلا تثريب عليك . طالما خدمت آل أبي سفيان . فلست أنسى

بالامس كيف أنقذتني وكانت لك عندي ، وأنا أعرف اليوم تأتّيك لانقاذيداً يزيد ولدي ، وهي يدٌ لك عنده ليس ينقصها .

قال عمرو : حُمَاداك ، فاني عند ظنك .. رأيت أن تستدرج ابن سـلاّم بالألطاف « وكرائم الأموال والخلع » ، وتريه جانب الود منك وتغريه بزيارتك والقدوم عليك ....

قال معاوية : وبعد ؟

قال عمرو : ذلك عليّ حينَه ...

•

فَصَلَ عبدالله بن سـلاّم منذ اقترن بأرينب وهو يرى حلم سعادته ينتشر ليجتمع في حدودها ، فأحلّها منه محل القلب ، فكان اذا خلا الى قلبه وجد أرينب ، واذا خلا الى أرينب وجد قلبه . وكثيراً ما كان يقول لها : ليَخَيَّل اليّ أنك لست سوى قلبي مصوراً ، وشاء أن يتجسد في شكل بنات الخلد ، فيريني كم هو سعادة وكم يجب أن أكون به سعيداً . لودِدت يا أرينب أنني أتحول هالة في أبدية عينيك الفاتنتين ... أرينب ! آه أرينب ! ..

آه ! يا ما أسعد الأزواج اذا كان لكلهم مثلُ أرينب ! ..

وكانت أرينب لا تقل عنه إحساساً بسعادتها به ، فقد عاطته منها أيضاً مثل عواطفه فقالت : أو قل ما أسعدهن حقاً اذا كان لكلهن مثل عبدالله .

قالت له صباح يوم وقد قطفا أول إشراقة من شعاعة الشمس : لا أدري لماذا؟ لماذا يعاودني في أقصى هواجسي العميقة الخفية منذ ليال ، انك لم تعد لي ، وتعتادني طيوف خبيثة أظل منها في رهبة ؟ وتعلقت به . إني خائفة !

ترقرقت في عينيها دمعتان كبيرتان . تراخت احداهما ساقطة واستمسكت الاخرى متبلورة بين جفنيها اللذين كانا في نصف إغماضة ، فأهوى يضمها اليه ضماً عنيفاً كأنه يحاذر . فقد عراه مثل هاجسها أو شر منه ، عراه أن هناك

من يحاول اختطافها فهو يشدها اليه يضن ّ بها ويفتديها .

استويا في مقعدهما ثم لم يخطوا إلا قليلاً في حديقة القصر ، حتى استأذن حامل البريد يسلمه كتاب الملك .

استطير فرحاً واستخفه الانعام الملكي عليه ، وكان مفاجئاً حتى لقد ذهل عن أنه يغادر زوجته الحفيّة عنده دون أن يلقي عليها نظرة وامقة تشير الى انه سيعود اليها بعد متعة قصيرة بالنظر الى ما اهدي اليه .

وقفت تنظر باهتة وعاودتها هواجسها : فلم تطق وقوفها طويلاً . فانثنت الى مقعد قامت من فوقه متعانقات « البواري » في شكل جعل منه وكنَ عاشقين أو طيري حب . وقالت تناجي نفسها : آه ! لقد وقع ما كنت أهجس به في خاطري . والذي كان يحيك في صدري من وساوس . ليت الهدايا التي استخفته كانت عند قدمي لأطأها مستخفة بأنفس ما فيها ؛ ولا أقطع على نفسي لحظة قلب كان يخفق فيها بمعنى الحب وهو كل الحياة وكل السعادة ...

أتقطعه عني هدايا حقيرة ، مهما بلغت نفاستها فلن تكون إلا حقيرة بجنب ما هو دون حسوة طائر من نشوة ما كنا فيه ، بل بجنب خلجة راعشة من تلك الخلجات المفعمة ...

الآن فقط ، بدا لي طفلاً تفتنه لعبة عن لعبة ، ويأخذ أيّما وقع عليه بكل بصره . لم يكن إذاً إلا طفلاً ، ولم أكن كل هذا الوقت سوى لعبة كبيرة يلهو بها ، ودمية حيّة تمتع قلبه البارد بحرارة أنفاسها المندّاة... وهؤلاء الذي يرون المرأة دمية ذات حرارات . هم باردو القلوب وانما يطلبون فيها الاصطلاء والدفء فقط . أما أنا وأحس بقلبي مشتعلاً فأريد قلباً مشتعلاً أيضاً يفنيان على بعضهما في تلهب جميعاً ..

أف ّ للرجل ! إنه طفل في حس القلب ولا يزيد . ثم لا يشعر من العاطفة إلا على مقدار العبث . وليست للاشياء قيمة عنده إلا على قدر ما تملك من ايحاء اللهو عليه وتشيعه فيه .

لا ، لا ! لست أرضى أن اكون عنده متاعاً صِنْوَ هذه الهدايا ، بل خيّل إليّ أنّي أحقر منها في نظره . فغادرني يخفّ اليها ، ولم يترك ، عند موقفنا ، نظرة أشغَل بها حتى يؤوب ، إنها أخذت بكل هواه حتى لم أعد شيئاً أذكر ...

أفّ للرجل ! انه في دنيا القلب طفل ؛ وأيضاً طفل ذو طبع بليد خشن ...

يا لك من هدايا مشؤومة ! إنك هدايا فيك كل ما في السموم من روح ، وكل ما في الافاعي من معنى مخيف ووجود رهيب .. وما يدريني فلعلها حبائل وشباك منسوجة من حمات العقارب وأوبارها ... وما هو حتى رأته مقبلاً مغتبطاً ، تشيع الابتسامة المشعة الضاحكة في وجهه ، يحمل بين يديه كرائم الجوهر وعقود اللآلىء البعيدة السطوع ، المتماوجة بالسنى والسناء ، يقول وهو يقلّبها في كفيه :

اليكِ ! اليكِ ! لقد جاءت كأنها تقول كنتُ يتيمةً حتى وجدتُك ! أما تسمعين ؟ أما تسمعينها ؟ .. وراح في نشوة ضاحكة ، ولكنها ظلت جامدة لا تحير جواباً . فبهت وعراه خدَر كالذهول ، فاسترخى كفاه وتساقط ما استوى عليهما من ثمين الاحجار الكريمة وهو لم يحس . وكانت تنظر وترى ، فألمّت بما عراه فاغتبطت ، ولم تلبث حتى أخذته بين ذراعيها نشوى .

عند شرفة الصباح ، بعد أيام ، حيث كانا واقفين ينظران الى الافق البعيد ، قال وهو يحبس بعضاً من أنفاسه التي أحس أنها تخرج جملةً ثم لا تعود :

لعلّي لا أغيب عنك طويلاً ، وسوف ... قالت مرتعدة :

تغيب عني ؟ ماذا تقول ؟ ! والى أين ؟

قال : رأيت منك يوم الهدايا أنك غير مغتبطة فلم أخبرك . جاء في كتاب الملك أيضاً أنه يعزم عليّ بالحضور ، ولا أدري لماذا ؟ هدايا مفاجئة ودعوة مفاجئة ! ولكني أظن أن سعادتي بك جذبت اليّ سعادة أخرى .. وربت على كتفها .

انتفخت أوداج أرينب وغصت الكلمات في حلقها ، ولكنها حاولتها كأنها تلوك حروفها لوكاً :

أيتهـــا النفس أجملي جزعاً فـــــان ما تحذرين قد وقعا

فقال يداعبها : هذا قول أوس بن حجر يرثي به . وها أنا فجُـسّي يدي ..
قالت ووضعت يدها على فمه تأخذ عليه سبيل الاستمرار : فقد أرهبها ما ذهب اليه ظنه ولو مداعبة :

إنني لست أرثي سوى نفسي الى نفسي .. وحاول الكلام فقطعته عليه بقولها :

لست مغتبطة بسفرك ، وبودي انك لا تذهب ، بل بودي أن ترد عليه عمله وتعتزل . فلي من أموالي الكثيرة ودنياي ما يغنيك عن أمواله ودنياه . ولك من سيادتك ونشبك ما يغنيك عن التَسَوُّد به .

إنه يُرهبني ! انني لا أطمئن اليه ، وبه تحيط عصابة لا أدري بماذا أنعتها ... انتزَعتها من لسانها كلمة . إنها دموية تجري وراء شهوات حمراء . ثم لا يحول بها عنها شيء مِن عُرف .

قال : هو ذاك . ولكني لا أدري كيف أرد عليه . إن هي إلا أيام قصيرات المدى ، أعود اليك على إثرها وأصير الى رغبتك باعتزال عمله .. ولكنها ظلت ترغب اليه أن لا يرحل ، وحانت منها لفتة فرأت أفراس البريد جاءت تحمله . فلم تطق تراه يسير ، فذهبت تدفن وجهها في راحتيها وتجهش في نشيج مرير ، وردد عبدالله وقد تمادى به المسير ولفه قتام الركب :

وكم تشبث بي يوم الرحيل ضحى وأدمعي مستهّلات وأدمعـــهُ
أستودع الله في بغداد لي قمـــراً بالكرخ من فلك الازرار مطلعه
ودّعتــــــه وبودي لو يـــودعني صفوُ الحيـــاة، واني لا أودّعه..

*

كان عند معاوية بعد أيام لم تكن طويلة في غير حس أرينب وحساب عبدالله، فتلقّاه بالألطاف والانس الناعم، فعجب كثيراً وفكر كثيراً، ولكنه لم يهتد لوجه

لامر ، ويحير به تقديره فلم يطمئن الى أي وجه انصرف اليه . بيد انه مع ذلك كان مغتبطاً ، وتزايد بــه الاغتباط إزاء ما يلقى من حفاوة واحترام ورعاية مقام ، حتى لم ويعد يفكر بشيء الا أنه مخلوق جديد لا عهد له بالزمن .

لمس صدقاً في كل ما يلقاه من مظاهر . وبات آملاً بشيء لم يدر كنهه إلا أنه وجه بُشرى على أي حال . لم يكن يُرى الا مدعواً إلى مجالس أنس معاوية وأندية» السمر الغزلية ، وإلا متنشياً على مثل الطيش في ليالي القصور الشرقية الماجنــة التي كانت ذات نسب قريب بليالي الف ليلة الغارقة في أحلام الشهوات المعربدة .

استيقظت في نفس ابن ســلام صبوة لم يكن يعهدها ، صبوة من نوع الصبَوات الحادة . فلم يعد يفكر في مدى انطلاقها إلا بإروائها ، ودارت فيه نهمة كأنها انفطرت من طبيعة الظمأ . فقد هبط من فردوس الحب القلبي السعيد ، انبعثت جياشة عليه . نزوات كان يكبتها القلب في نشواته العبقرية الالتهاب ، المتلظية بالشُعَل الحمراء .

كان في هذا الجو الحمري اللذات الممهود بخمائل الشهوات . ما أحال أرينب في جو نفسه الى ذكرى من الضباب لم تزل تتلبد وتحتجب ، وعاد لا يذكر إلا ما هو فيه ، وتمنى لو طال أمد هذه المتعة اللازوردية في لسان اللهب ، وتشهى أن لا تنقضي ، وغبر منذ قريب لا يستطيع ساعة بعاد عن أرينب مهاته النابضة بالطهر في وثبات الحب القلبي الخالص ...

إنه أسفَّ منحدراً الى محيط من الحمأة البعيد القرار ، وأضفَتْ على ناظريه الوحول فلم يعد يرى ، وانما بات يحس في طراوة الوحول نعومةَ الزُبد ، فراح يهيم في خيال الوحول .

ان الحب في حقيقته رغبة بالاستحالة ، وبتعبير آخر رغبة في التحوّل ، ولكان الشعور بوجود الذات يذهب الكائن ، اذا صدم مشاعره انفعال خَدِرٌ كانفعالات اللذة على أنواعها ، يحاول الاستحالة بهذا الانفعال الى وجود شعوري آخر

ولا يزال يبالغ ، تحت تأثير هذا الانفعال الذي يتزايد وضوحاً، رغبة بالاستحالة حتى يطلب ملاشاة كيان في كيان حينما تستوي هذه الرغبة في الاعصاب ، وكلما زادت تمكناً واستواء زاد الكائن نهماً . وهذا الشعور هو الذي انطق ابن الرومي بقوله :

أعـــانقها والنفس بعدُ مشوقةٌ   اليها.وهل بعد العناق تداني ؟
وألثم فاها كي تزول صبـابتي   فيشتد ما القى من الهيمـــان
كأن فؤادي ليس يشفي غليلـــه   سوى أن يرى الروحين تمتزجان

فالحب البقائي أو الزواجي رغبة بالاستحالة في الولد . والحب العاطفي رغبة بالاستحالة في العاطفة ، والحب الشهوي رغبة بالاستحالة في الشهوة .

واذا كانت رغبة الاستحالة في كل الوجود ، ففي طبيعة الوجود إذن طبيعة الحب ، بل البقاءُ لحظاتٌ متواصلة من رغبة الاستحالة واستحالاتٌ بالفعل . فاذا انقطعت تقلصت أسباب البقاء وذهب مضمحلاً .

تملك ابنَ ســلام.في ليالي القصر المسحور.انفعالات حب شهوي طلب معها التمادي في دنيا الشهوات . وامتلأ رغبة بالتعرف الى كل فنونها وشتى ألوانها.

في ليلة ماتعة من ليالي القصر الزاهية العبَقة . أدناه معاوية منه وعاطاه حديثاً مُذهّب الأطراف مُغري البَدَوات . وقال له فيما قال :

هل لك زوجة ؟

قال : نعم .. فضرب يداً على يد وأصاب وجهه ببعض يده ، فمال على أذنه عمرو وقد أظهر أنه اغتمّ من إجابته ، وسارّه :

يا عبدالله ! إن الملك أراد أن يزوجك ابنته لما عرف من شرفك » وأنت تعرف أنّ بنات الملوك لا تدخل على ضرائر » .

فقال لعمرو : كيف الحيلة ؟

قال له : اذا دخلت غداً وسألك . » فقل ليس لي زوجة فقد طلقتها »

وأشهدت أبا هريرة وأبا الدرداء ... بات ليلته أرقاً، فقد استيقظت ذكرى أرينب الغافية في أعماق نفسه قوية عنيفة،وأخذته طيوفها البادية كالملائك في أثواب طهارتها ..

فراح يتمتم : أأنا أخونها . أأنا ؟ كلا يا ملاكي ! لن أفعل من أجل شهوات رعناء تذوب لذاتها سريعاً ، وتبقى آلامها مستطيرة مستفحلة .. واذا به يبدو مبتسماً،فقد باركه طيفها . ولكن لا يلبث حتى تستجيش به شهوات موارة ، تريه الدنيا والسعادة بل والخلد في حدودها ، وتُطلع له رؤوس فتونها فيسترخي وهو يرى السلطان والجـــاه وكبرياء الحكم تعنو أمام قدميه ، اذا استجاب الى معاوية ورضي منه بالاقتران الى ابنته .. وتمتم :

حَسْبُ أرينبَ بكرُنا خالد ، وأنا اذا طلقتها فلم أفارقها والى الابد ، فصِلةُ بيننا أبداً وليدُنا العزيز .. وصمت قليلاً وعاد يناجي نفسه :

وأنا اذا فعلت . ألست أخون خالداً أيضاً فوق خيانتي أمه ؟ ألست أكون قد دفعته الى الحقد عليّ ؟ وكيف أطيق هذا ولو في التصور والخيال ؟ إنني لا أطيق .. وبدا له طيف ولده خالد في طفولته الساذجة الموحية بالحب . كأنه يرجو اليه أن لا يفعل . وساورته عاطفة قلبه مُساوَرةً . فصرخ معها :

لا . لا . لن أفعل .. واستغرق في لحظة تهويمٍ انكشفت له فيها زوايا المجهول من المستقبل ، ثم استفاق وعلى لسانه :

أليس في هذا التسود الشامخ ما يخدم ولدي في مستقبل أمره ، فلا شك في أنه يغفر لي خيانتي ، ولا شك في أن أرينب تغفرها لي أيضاً . فأصبح وقد عزم على الخيانة يعلل نفسه : بأنه لم يخنها خيانة قلب ولذلك هو لن ينساها ، وحمّل الهواء قُبلةَ وداع من بعيد، فهذا آخر العهد بأرينب ...

وتعرضت له أطياف راقصة من بدوات الأطماع الكبرى ، فسار في بهجتها كأنه يجنح طائراً ، وكان يجتهد ألا يذكر شيئاً ، يجتهد أن يشعر أنه مخلوق اليوم ، وليس له عهد سابق بالوجود .

سار غير مثقل بأية ذكرى من التاريخ وأية فكرة تتصل بماضيه ، إنه وليد مصادفة جديدة ووليد بهجة جديدة، يقبل عليها بما تشاء من بهجات. فكان منه ما أشار عليه به عمرو بن العاص ، فقال معاوية لأبي الدرداء وابي هريرة :

« ادخلا على ابنتي فأعلماها بالامر على وجهه » ... فتظاهرت لديهما بالاهتمام والسرور ، وصرفتهما لتسأل عن دخلة أمره « وأثنت على ابن سلام ».

ولكن ابن سلام شعر فور طلاقه أرينب أن معاوية لم يعد له كما كان ، بل غدا يلقاه بفتور نفس وانكماش لقاء. فأوجس شراً « وأسرع الى ابي الدرداء وصاحبه يستحثهما » ، فأتيا ابنة معاوية فقالت :

« إنها سألت عنه فوجدته غير موافق لما تريد »... فلما بلغاه جن جنونه وأسقط في يده . وعلم أنه ذهب ضحية خدعة لئيمة ليس يدري غايتها ..

انقلب الى الدار التي أعدت لنزوله فوجدها تعج بالأشباح المخيفة ، وتزأر في مثل تجاوب الذئاب، فاستطير ذعراً ومشى في أنفاسه هلع تكير. فقر يعدو الى الخلاء وقد انطبعت الاشباح في عينيه ، والتفت الاصوات تمور في أذنيه . فراح يغمض عينيه وكفاه على أذنيه يجري، إنه يريد أن لا يرى ولا يسمع ، يريد غفوة في الذهول ولا هذه اليقظة المجنونة . وما استرخت كفاه عن أذنيه حتى استعوى به صوت :

خائن ! خائن ! وعلى يديك دماء الجريمة ، تمشي عليها أرواح ضحايا ثلاث : قلب زوجة هي تمثال الاخلاص في الحب ، وقلب غلام هو تمثال طفولة الأحلام البريئة البيضاء ، والثالثة هو قلبك انت ...

بعد ذلك أضحى ينطلق كالذي فار في خياله جنون . ينقل الواقعة ويبث الشكاة وينثر الطعن نثراً دون رهبة أو وعي . وتسامع الناس بالخبر وعلقوا عليه باشمئزاز ونفور ، وبات الكثير ينظر بعضهم الى بعض في شفاه مقلوبة وتنكر ، « وهكذا ذاع أمره وشاع ،وتناقله الناس الى الامصار ،وتحدثوا به في الاسمار ».

ورثوا كثيراً لما انتهى اليه حاله ، فكنت لا تسمع في كل مكان إلا من يقول :

أتبلغ القِحَة بهذه العصابة حد التآمر بسعادة أسرة هانئة ، تمرح في حب وتسرح في اخلاص ؟ أما يسرها يوم ، أما تحلو لها حياة ، إلا اذا ولغت في دم أو عبثت بكرامة ؟ لقد عدَوا أقدار أنفسهم ، فلا يُرَون إلا راقصين على الاشلاء ، لاهين بالجماجم .

وتناهت بعبدالله الحال الى حيرة بائسة وذهول شقي يائس ، تلاحقه طيوف وتتنكر له أشباح ، وتتفوّر من حوله الآلام ، وكان لا يفتأ يقول يناجي نفسه :

لَوَددتُ اني أفر الى أرينب ، ولكن هيهات ! أنا الذي نكبتها وأشقيتها ، أأزيدها شقاء بوجهي الذي غدا تمثال الخيانة الزوجية على أقبح صورها ؟ فلأتجرّع آلام قلبي وغصص ضميري ومراراتي وحيداً منعزلاً ! كيف القاها ؟ كيف أعتذر اليها ؟ كيف أستغفر وليدي الصغير ؟ ...

رحماك ربي وحنانيك ! أبق اللهم على قلبي لا يتمزّع . !

*

ظلت أرينب منذ غادرها زوجها الحبيب ، لا تشيع على شفتيها إلا ابتسامة متماوتة اذا ألحّت عليها أحاديث وصيفاتها بالابتسام .

وكان الاكتئاب يتزايدها يوماً بعد يوم ، في إحساس يلحّ عايها بهول غامض تشعر به في أعماقها ينذر بالويل .

وكان لها في كل يوم جلسة تارة عند مقعد اصطباحهما في افياء البواري المخيمات ، وتارة في شرفة المساء تودع النهار وتستقبل كواكب الليل تبثها نجواها وزفراتها ، وتتولّه في وقفة الى ذوب الشفق الذي كأنه ذوب قلبها .

وفي يوم على عادتها وهي في شرفة المساء ، رأت عند أقصى الصحراء — التي تسترخي متكئة على عتبة دارها وفي فِنائها — قافلة كأنها مقبلة من جانب

الشام . فلبثت تنشد فيها أملها ، وإن لم تطمح به فلا أقل من أن ترسم هذه القافلة في نفسها رسوماً مبهمة إلا أنها مفرحة ايضاً . تتنفس في فؤادها بندى رويّ .

مرّت القافلة تخب تحت شرفتها ، وكان حادي الإبل يشجي الركب بصوته العذب النغمات :

أرينب ليتني وُسّدتُ قبـراً	ولم أفعل ، ففي الاحشاء نار
« ندمت ندامـــة الكُسَعيّ لما	غدت مني مطلقـــة نوار »
يطيف على فؤادي رُوحُ آه	وذوب أسى ، وفي كبدي انفطار
أرينب ، أنتِ ذكرى مـن نعيم	ومن طهر ، ومـن عبق يثـار
أرينب ، هل ترفّ عليّ دنيـــا	من الاحلام ؟ هل ثوب يعار؟
ذكرت وفي فؤادي تَوْحُ بـــا	ك هوانا ، والضمير بـــه أوار
وهـــل قَدَرٌ يطالعنـــا بفجر	ويمرح في مســارحه النهـــار
فنسعد ، والأصيل لـــه افترار	ونتشى ، والغدو له ازدهــــار.

فسقطت على نفسها هلكى . ولم تك إلا أيام من حلول الركب حتى شاع خبر عبدالله في العراق وتناهى الى سمعها ، فلم تعد تعي . وكانت لا تُرى إلا مولهة حتى عن وحيدها المفدى . وكانت لا ترى إلا معتنقة له تشده اليها ملحة كأنها تطلب فيه ريـّـاً ، ولكنها ظلت ظمأى وظلت كأنها لاهثة تطلب الندى والري.

لم تطق بقاءً في العراق بعد ، فقد اسودت نواحيه في نواحي نفسها . فانطلقت بحشمهـا وذويها الى المدينــة تطلب فيها دنيا جديدة . تغري خيالها في أنها أصبحت مخلوقاً جديداً احتضر في نفسه الماضي والذكريات . رثت لها نساء المدينة وذهبن يواسينها بكل ما عند المرأة من خصبِ عاطفــة ؛ والنساء يحسسن بالمآسي بنوع خاص مكبّرة ذات مبالغات ، وفي شعورهن شيوع . فهنّ يحسسن بأنفسهنّ في كل مأساة تقع ، ويجدن قلوبهن في النكبات ؛ وهذا الشيوع في الشعور جعلهنّ يشعرن بأحداث الآلام قبل وقوعها . وجعلهن أصدق تطلعاً وأرهف حسـّاً بالجانحات الصاعدات من أعماق المجهول . والغاربات الهابطات الى أعماقه .

فتجاوبت المدينة بمأساة أرينب على ما أضاف اليها النساء من روحهن الآسية، فكانت مأساة لاذعة الوقع وقيذة الاثر شائكة في نواحي الضمير ...

أرسل معاوية أبا الدرداء وأبا هريرة رسولين من قبله يخطبان أرينب على ابنه يزيد ، فذهبا الى العراق، فبلغهما انها انتقلت الى المدينة ، فثنيا رواحلهما اليها .

وكان الحسين إذ ذاك قبس الهداية ومشكاة الطهر ونموذج الاخلاق الفاضلة وقبلة الأنظار ، وكان الى ذلك مفزع الهاربين من وجه الظلم ، وفي رحابه ينتصف مهضومو الحقوق الضعفاء، فما من أحد إلا ويحس في أعماقه أن واجباً عليه أن يخشع بالمثول بين يديه، بل يشعرون فوق ذلك أنه رأس الواجبات. فلم يجد كل من أبي الورداء وصاحبه حينما هبطا المدينة بدأ من أن يبدآ بزيارته قبل أي واجب آخر مهما سمت به قيمته ، فلما مثلا بين يديه يقدمان اليه أنواع الاحترام بمناسبة قدومهما، أنس اليهما وقابلهما بحفاوته التي تعودها الناس منه على اختلاف منازلهم ، وكانت فيه خليقة وطبيعة .

لكنه أحس مع ذلك أن في مقدمهما المفاجىء حدثاً هاماً ، فقال لهما :

ألأمرٍ قدمتما ؟

قالا : نعم .

قال: وما هو؟ فما كتماه ان معاوية وجّههما في خطبة أرينب على ابنه يزيد. فابتسم الحسين ابتسامة من قد أدرك كل شيء ، ومن قد فهم غاية المناورة التي بات معاوية يحيك خيوطها وينسجها كالعنكبوت حول فريسته .. ونعى الى نفسه « خدعة معاوية حتى طلق امرأته ، وانما أرادها لابنه . فبئس من استرعاه الله أمر عباده ومكنه في بلاده وأشركه في سلطانه ، يطلب أمراً بخدعة من جعل الله اليه أمره » .. وواصل : لن تهنأ لي حياة إلا بإعادة مياه حياتهما الى مجراها ، ولن تقر عيناي وأسعد ، إلا اذا قرت عيناهما بالعودة وسعدا ، ففي سعادة قلبين

مخلصين ينبضان بالحب ويخفقان بالعاطفة البريئة سر سعادتي . فعليّ أن أهدم على معاوية أحابيله وأصيده بشباكه . أفٍّ للغاشمين الذين يرقصون على الأشلاء ويبتسمون في دموع الناس ؟ لقد استغواه فبات ابن ســلّام طُعماً في الطُعم.

فقال الحسين لهما : لقد « كنت أردت نكاحها ، وقصدت الارسال اليها ، فاخطبا عليّ وعليه واعطياها من المهر مثل ما بذل معاوية عن ابنه ولتتخير » .. استأذناها بالدخول ، وبعد أن استوى بهما مقعدهما ، قال ابو الدرداء :

أيْ بنية ! انك لم تزالي شابة في عنفوان الشباب وميعة النشاط : وانا بك جد ضنين أن تذهبي نهباً للخواطر ، وتذهب نضارتك شعَاعاً في اكتئاب . واذا ساءك من ابن سلام ما ليس من الوفاء وما لم تكوني به جديرة ، فعسى أن يكون لك في سواه بدل خير .

قالت : معاذ الله يا أبتِ ، فقد خبرت الرجال وبلوت عاطفة قلوبهم فما حمدتّها ، وبحسبي فتاي أرعاه .

قال أبو هريرة : تمنّيتُ لو كُنْتُكِ ، وفعلتُ ما يشير به أبو الدرداء ... فابتسمت وهي لا تنتظر من مثله مداعبة،وواصل : وهل مثل ابي الدرداء يرد ويختلف عليه ... ولم يزالا بها ، وتعرضت لها خيانة عبدالله فمالت الى النكاية ورغبت بالانتقام .

فقالت : وبعد ... فعرفا بذلك إجابتها .

فقال أبو الدرداء : أرادك لنفسه « أمير هذه الامة وابن ملكها وولي عهده والمليك من بعده يزيد بن معاوية ، وكذلك أرادك الحسين ابن بنت رسول الله وسيّد شباب أهل الجنّة . وقد جئناك خاطبين عليهما . فاختاري أيّهما شئت» .. وهي ما سمعت اسم معاوية ويزيد حتّى وجمت وكظمت بركان حفيظتها . وهل هدم سعادتّها وهناءة ما كانت فيه إلا هـذان وعصابتهما ؟ وهي التي طالما حذرت شقيق قلبها من شباكهما وودت لو اعتزل عملهما . فهل تلقي نفسها بكل اختيار وطواعية في قبضتهما القاسية الرهيبة . فتُعتصَر ؟ لا ! لا ! اني لست فاعلة ولو أوطأني يزيد الديباج وأحاطني بمثل زغب النعام !

ليت شعري ! كيف أرضى به ، وهل اجتويت الحياة إلا بسبيل منهما؟ وهل فررت وتشردت إلا عنهما ؟ . لوددت اني أعيش في دنيا لا تعرف عصابتهما أو لا يعرفونها . وطال بها الصمت وهي في معرض خواطرها ، فقال أبو الدرداء :

علامَ عولتِ ؟ وأيهما اخترت ؟ فقد خيّل لي صمتُك انك غدوت دمية لا تنطقين .. فانقطعت سلسلة خواطرها وكرهت رد وسيلتهما، فقالت :

ومن تختار انت ؟

قال الأمر اليك .

فقالت محرجة له وعلمت أنه لن يفضل يزيد بحال : لو أن « هذا الأمر جاءني وأنت غائب ، لأشخصت فيه الرسل اليك واتبعت فيه رأيك ، فكيف وأنت المُرسَل . فقد فوضت أمري اليك » ، فاختر لي أرضاهما .

فقال : أي بنية ! إن « ابن بنت رسول الله أحب إليَّ وأرضى عندي ، والله أعلم بخيرهما اليك ».. فانبعث أبو هريرة يقول :

نعم . نعم . وأنا والله « لا أقدم أحداً على صاحب فم قبّله رسول الله »، فيا لغبطتك بهذا الفم وهاتين الشفتين ! ليتني كنت أرينب إذن لسال لعابي ! وتلمّظ .. فقالت وهي تضحك من قوله :

قد اخترته .. فتزوجها الحسين وساق لها مَهْراً عظيماً ، وبلغ ذلك معاوية فتعاظمه ولامهما أشد لوم ، ولكنه انقلب مع ذلك يردد « إن الباطل كان هوقاً » .

كان جهد الحسين بعد ذلك معها أنه يواسيها ، واذا ذكرت ابن سلام وما سمّته خيانة زوجية ، أثنى عليه وهوّن فعلته ، وأفهمها إياها على غير الوجه الذي راحت تفهمها عليه ، وأبان لها أن الحادث إن كان فيه ما هو عظيم نكير ، فانما هو إقدام من هيأ لهما أسباب الشقاء . ثم ألم تقولي في بعض كلامك أنه طفل ، فلا عجب اذا اختلبوا فيه عقله واستبدوا بهواه . فاذا بها تنظر الى ما اقترف ابن سلام من

أفق جديد . واذا بها ترى فيه أنه لم يكن إلا ضحية أغراض وأهواء وشهوات مِثْلَها. واذا بها تدرك أن من واجبها أن تواسيه جهدها وقد بات شقيـــاً. فبدأت تحن اليه ، وبدأت تعاودها ذكراه في رغبة قلب . وكان الحسين يحس هذا منها ، فيفيض بشراً ويطفح بشاشة وإشراقاً، فقد نجح وأدنى قلباً بات نَفُوراً. من قلب بات وقد تشَطّر ويلاً وثُبُوراً .

*

أما عبدالله بن سلام فقد ظل في الشام يرمي الهيئة الحاكمة بكل شنار وعار ؛ ويطعن فيها أبلغ ما وسعه الطعن ، وهو لا يبالي غضباً ولا رضى ، إنه مفجوع موتور .

فاطّرحه معاوية لمكان هذا الطعن والتعريض بالتشنيع . وعزله من إمارة العراق وقطع عنه روافده. فقلّ ما في يديه قِلّةً بات معها مُعدِماً . وغدا مَثَلاً للبؤس المالي والشقاء النفسي .

وتحت إلحاح البؤس عليه. تذكر أنه كان قد استودع أرينب مالاً عظيماً، وتذكر أنها أضحت في عصمة الحسين : وهو لن يدع لها سبيلاً للانتقام «فتجحده إياه لطلاقها من غير شيء» . فانتقل الى المدينة ولقي الحسين وذكر له ذلك ، وهو في شكل الضحية الشقية والفريسة الطرية التي لم تزل آثار أنياب السبع بارزة فيها . راسمةً انكر آيات وحشيتها ، فرثى لمرآه . ورقّ له كثيراً وواساه كثيراً . فدخل الحسين عليها وحضها على رد ماله اليه . فقالت :

ها هو بطابعه لم أمسسه .. وقصد حسين أن يدخله عليها بشقائه . فلا بدّ أن تتلقاه بشفقتها وحنانها دون غلظة أو جفوة . وكذلك كان . فتلاقيا واستعبرا طويلاً في ذهول ووجوم . وغفلا عن وجود الحسين بقربهما . فتواقفَتْ نظراتُهما ناطقةً بالحب والدمعةُ طافية. يخيل لمن رآهما أن من وراء عينيهما قلبين يطلان، وقد تدانيا كثيراً حتى رسما دائرة تدور فيها لحظة حب نشوى .

وكانت عينا الحسين تشعان بالسرور .. وأخذ طريقه الى الهيكل وقد انصرف عنهما زوجين، كي يشتمل عليه المحراب من جديد، إنه جدّ مُغْتَبِطِ الروح...

*

حطت فراشة بيضاء كأنها الزهرة على كتف غصن يميس ، وكانت ناعمة تلهو بأغاني سعادتها ...

فبصر بها عنكبوت صغير ، ودّ لو يروي بهناءتها شهوات نفسه الحرّى...

وما لبث حتى جاء قَرْم العناكب يبادر ، وراح ينسج شباكه من حولها ...

وإذ ذاك حوّم بلبل غريد كان ينشر بألحانه في الأرواح نشوات منعشات ، وحط حيث انتصبت أشراك المأساة ...

فنقد القرمَ نقدة ، ومضى يغرد تغريداً كان معناه : ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ...

*

ظن « الصغير » ان القوة هي كل شيء وفوق كل شيء ...

وظن « الكبير » ان الحيلة هي كل شيء وفوق كل شيء ...

ولكن حين وقع الحق في شخص الانسان الكامل ، بطل ما كانوا يعملون ، فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ! ...

تقوى

كان يوماً ازدهت فيه دمشق بكل أفانينها وبرزت فيـــه بكل فتونها ، هذا اليومُ الذي أطل معه الربيعُ في ابتسامة الأزهار وعبق ابتسامها ، مُرَصّعاً بخيوط الشمس المتقنعة بقناع من المزن الرقيق الشفاف .

كان عادةً عند ناسها استقبالُ الربيع بأشياء الأنس والحفاوة ، وبما توحيه المتعة المستبشرة ، فكان يخيل للمشاهد أنهم نسوا حتى الزمان في وجودهم ، ثم لم يذكروا إلا ما هم فيه من أسباب اللهو العابث البريء فيقبلون عليه بلهفة الظامىء على الينبوع وينطلقون في مدى كل مغنى نضير ، وينتثرون انتثار الطير في كل فضاء .

فمن هنا تنبعث ضحكات ، ومن هناك تنطلق زقزقات من غَـنَـن الطفولة ، ومن هذا الوجه جمع يحلمون في أنس ومتعة شرود ، وعلى ذاك الوجه قوم ينعمون في مثل أبْز الظباء وخَـطَـرات الوعول ، وتلَفّعت الآفاق ، في حس هؤلاء اللاهين ، بكلِلٍ من ألَق فرحة كبرى .

وكان هذا اليوم كأنه في حس الفلك ساعةٌ من لا وعي الزمن ، يسبح منها في عربدة حالمة أو أحلام معربدة . وعزيز على الحي الشاعر ، أن تُطيف به هذه

الساعة من لا وعي الزمان ، ولا يغرق معها في خضم النسيان والانطلاق من قيود الوعي والفكر .

في هذا اليوم كان معاوية في قصره المَشِيد وفي الجناح الغارق بالمتع ، يقطف مع جمع من حاشيته زنبقة زهو اليوم . وكان بُدَيْح مولى عبدالله بن جعفر يؤنسهم بطرائف أخباره وملَح نوادره ، فانتهى به الحديث الى أخبار صابئة الاغريق الحَرّانيين وعجائب ما شاهد بينهم ، وكان فيما قال :

كأن نساءهم خُلِقْنَ من طبيعة الجمال ان لم تكن فكرة الجمال صيغت من طبيعتهنّ ، بل لعلهن في بحر الجمال لآلئه . فقد افتنّ فيهن إبداع الخَلْق حداً أبرزهن مُثُلاً ناطقة بالفن .. فأيّة تقاطيع في أي وجه ؟؟ .. ودار به ناظره كالذي تذكر صبابة قديمة طَبَعَ عليها الاخفاق ، فأرسل آهةً طويلة اختنقت في حلقه قبل نهايتها ...

قال بعض من حضر : لكأن لك بينهن ذكرى طريةً بموقعها على قلبك وإن قدم بها العهد .. فراح يحاول الاخفاء على شتى مذاهبه وأساليبه ، ولكن كان في عينيه ما يفصح بكل خبر قلبه ، فقد غدتا تُغْفيان تحت هَباءة كثيفة من الذهول ، حتى ليظن الناظر الى مقلتيه أنهما جمدتا في غير حياة ، لولا بصيص رفيع الخيوط كانتا ترسلانه قَلِقاً ، على أنه مال يتخافت فيما تَموّهَتْ به عيناه من دمع رقيق ، لمّا يؤذن له فينحدر .

وبينا هم على تَرسُّلهم وتَبَسّطهم ، استأذن الحاجب ، وأعلم الملك أن كبير النَخّاسين أتى بجارية فائقة « يود عرضها » فقد كان متعارفاً أنه يُبْدأ بالقصر فيُعْرض عليه ما يَهْبِط من الغِلْمان ، فأذن الملك وأجريت « مراسيم » الدخول .

وكان عجب الحضور كبيراً حينما مثلت بينهم ، فهي تتمتعُ بأكبر قسط من جمال الرؤى ، حتى لقد كان يتراءى للكثيرين منهم أنهم إنما يبصرون منظراً من جمال فن خيالي ، يجيء من دونه كل ما في طاقة الحياة من فن الجمال .

هبطت على جمعهم هبوط اليَرَعَة على جماعة الطير في الغاب مع ظلام

المساء ، فاهتزت أعصابهم كالأوتار ، ونطقت بلحن الحنين المَوّاج فحامت في مدى بدوات هذا الابداع . كانت على أعصابهم صدمةَ جمال فعلت فيها مثلما تفعل صدمة الضوء أو النغم التي يتجاوب معها فضاءُ النفس الخَلاء بنوع اهتزازها ، فتميد أو تذهل . والصدمة الشعورية كلما كانت أشد تمكناً من الأعصاب كانت أكثر تأثيراً وأدوم أمداً .

وهذه الفتاة الكاعب تركت فيهم أثراً أخّاذاً حاداً لم يزل يتزايد . حتى باتوا منها مثل النحال وقد عرض لها مصباح كثير التوقد والألَق في لسان الشعاع .

وكان في هذا الذهول الذي عراهم . ما جعل أحداً لا يفطن الى ما استبد ببديح من اضطراب وما تملكه من تلهف . كما لم يفطن أحد أيضاً الى ما ساورها من خلجات عنيفة كظمتها ، فعربدت على قمم مقلتيها ناطقة باللحظ الوثاب . كان لناظر أن يقدر أن بديحاً أكثرهم أخذاً بها لأنه كان أكثر تذوقاً للجمال ، واما أن يقدر أنها بالذات نفس فاتنته التي احتفظ بها ذكرى ندية بالغرام ، وعرضت لنفسه منذ هنيهة في بعض الحديث ، فهذا ما لم يكن يقع في مذهب الخاطر المرسل .

لقد قطع هدأة وجوم الانجذاب معاويةُ بقوله مخاطباً كبير النخاسين : لشدّ ما أدهشتنا حوراؤك ، فمن أين هي ؟ « وما اسمها » ؟

قال الرجل : « اسمها هوى » ... فانبعث بسر بن أرطاة انبعاثاً يقول :

« هي والله كاسمها هوى » ، تخفض منه وترفع ، وتطيل به وتقصر ، وتنشر منه وتطوي .

قال عمرو بن العاص : وماذا يكون الهوى إن لم تكنه ؟! .. وكان بديح قد ضبط أرشية قلبه الفائر بالذكرى والحب والآلام والبعد والقرب ، أو القرب الذي كان في معناه نقطة الغور في البعد السحيق . شعر الآن فقط أنها نأت عنه والى الأبد ، أما عرضت على الملك ونالت استحسانه وحظيت بإعجابه ، فهو لا محالة

سيضمها الى جملة وصائف القصر وولائده ، فكان في حس نفسه كأنه يعض على جانب قلبه يمضغه .

كيف لم يبتعثه القدر الى الخروج منذ هنيهة ويتلقاها عرضاً ، فقد كان يحول بينها وبين الدخول ويحظى بها لنفسه ، وهو الذي ظل يتمنى حياتَه لحظة لقاء منها . لقد مده القدر بساعة لقاء عفواً ، ولكنّ فيها مرارة النكاية والتلويع ، ففاضت نفسه حسرات . بيد أنه ظل يعالج مشاعره ويحتمي وراء براقع صفيقة من التجلد فقال :

مثلما هي براعم الازهار كانت حُقّاً للجمال والعبير في الزهرة ، للعواطف الحية حقاق أو براعم ، تتفتق عن زهرة جمال أحياناً ، وعن زهرة هوى أحياناً ، وعن زهرات معان أخرى أيضاً .

وهذه الغادة كما أراكم تحسون — برعمة الهوى في دنيا القلب الشاعر — تتنفس بأريجه مع السحر الندي كما تتنفس الورود . وفي حسي ان الازهار تعبر عن العواطف المجتمعة في قلب الطبيعة الصامتة ، كما تعبر هذه الغانيات عن العواطف المجتمعة في ضمير الطبيعة الحية وقلب الانسان .

وفي غابر أيامي مع نزوة من نزوات شباب القلب أحدثت هوى وأحدثت فيه بهذا المعنى شعراً :

يــا وردةً في رياض الحب يانعة — تزجي الهوى، كلما مر الهوا فيها
هيا انشري عطرك الفاني الذي امتزجت — به الدموع ، وروّتــــه مآقيها
فسِرّ عطرك هذا ، أدمع سكبت — على جذورك في نجوى ليـــاليها
ثم استحالت عبيراً من طهـــارتها — فنوّهي بالهوى ما شئت تنويهـــا
فانت ذكرى محب طالما احتبست — انفاسه ، ثم خــــانته خوافيها
كم من صريع هوى ، قد عاج منتحياً — الى ظلالك شاقته مغـــانيهـــا

فـــراح ينظم آهـــاتٍ مقطعـــة وراح ينثر معنى من معـــانيها
حتى انتهى ، في خضم الدهر مثل صدى
وأنت ذكرى هواه بت تحييها

وكان بديح ينشدها بصوت زافر الرنات خافت المقاطع والكلمات . وبوجه ساهم النظرات بادي الذهول، حتى لقد خيل لكثير ممن حضر أنه استحال صدى، كما راح ينشد ويقول .

فقال معاوية : لكأني بك — يا بديح — أحدثت بها هوى جديداً .

قال بديح : بل إنما تعلقت بأسباب هوى قديم ، واستيقظ في قلبي رسيس حب ضاق به النسيان .. وانقطع بهم عارض الحديث، فعاد النخاس الى مقاله :

وهي صابئة المنبت والنجار ، ترقى الي أنها أعدت لتكون كاهنة في هيكل ربة الجمال عندهم ؛ والصابئة يتحرون في مثلهـــا أن تكون نسقاً في الملامح والتقاطيع والشكل مع آلهتهم ، لتبرز لهم في المواسم والأعياد وكأن ربة الجمال برزت لهم أو تقمصتها ، فانتهت بها صروف الاقدار الى حيث ترى .

والعجب — يا امير المؤمنين — أنها ذات فلسفة في الحياة رغبت بها عن متع الحياة ، والقتها في مثل الزهد .

وأعجب من هذا أنها سكنت الى الاسلام واطمأنت إليه فاعتنقته، وأتت في فهمه بالعجب العجاب ..

قال معاوية ناشطاً : كيف تقول ؟

قال : نعم هو ما أقول لك .. فضمها الى قصره ، وقد بذل فيها « مائة الف درهم» . وواصل : لقد صدق والله بديح في ما مضى يحدثكم به ....

ولكن لم تبعد الوصائف بها، حتى استوى وكان متكئاً ، فقال :

« لمن تصلح هذه الجارية » ؟

قال عمرو بن العاص : من « سوى أمير المؤمنين تصلح له » ؟ وكذلك « قال آخر وآخر » ، ومعاوية يقول لا ، ويبتسم كالذي يعايبهم .

وبعد أن أخذ منهم التشوف مأخذه وتزايد بهم التلهف — والراغب يكون آملاً أبداً — فكان أكثرهم تشوفاً بديح ، فقد عرض في خاطره أن معاوية قرأ قلبه . وبعد أن نطقت الحيرة البادية على وجوههم ايضاً ، وبعد لأي ، قال لهم معاوية :

انها بروحيتها وكمالها لا تصلح الا للحسين ، « فانه أحق بها ، لما له من الشرف ، ولما كان قد شجر بيننا وبين ابيه » .. فارتسمت على وجه الحضور آثار مشاعر مختلفة متناقضة . أما بديح فكان محلاً لأنواع شتى من الشعور ، فقد انشرح واكتأب وطرب وحزن في درجة واحدة من الانفعال . إنه أمل أن يكون موضعاً لسقوط هذا الندى وتمنى وهو الظامىء بالهوى أن تكون ربّة هذه الغادة التي هي غـــادة قلبه ، ولكن خاب أملـــه فاكتأب . بيـــد أنه مشى في حواشي هذا الاكتئاب عنده انشراح ، مصدره ان الحسين وهو المتشي برحيق الهيكل والمستغرق في التأمل الالهي والطافح بخير الانسان ، لن يبخل بها عليه ، وإن لم يكن ، فلا أقل من أن مقامها أضحى صنو مقامه بين آل ابي طالب ؛ هو يتشهّى أن تكون قريبة منه وكفى ، إنه يريدها متعة قلب وقد سقط على أمنيته منها .

ففار في نفسه ينبوع بشر ضحك معه ضحكاً خفياً في الخيال ، وزاد به حتى انفجر يضحك كالمعربد الغرد ، مما جعل الحضور يرمقونه باستغراب ، وطاف على السنتهم : ما بال بديح ؟ .. ولكن قطعه عليهم بقوله :

انها ستكون مفاجأة لذيذة الوقع على الحسين ، لاسيما وقد كانت كاهنة في هيكل ربة الجمال ، وهو الحالم الهائم بالجمال المفعم به ضمير الوجود .

بعد ما تناولتها الوصائف بالتطرية والهندمة مع أسلوب القصر ، برزت كالربة التي تحلم والبحيرة تصطفق بأمواجها الرقيقة عند الشاطىء .

كانت ساحرة الفتنة مغرية الجمال ، ولكنها ترى مع ذلك كالهائمة في ضميرها . فلم تكن بمنظرها تثير أصداء الشهوات بل تنشر أحلاماً نشوى من

أحلام الروح ، تلقي الناظر قسراً في مثل المحراب الذي يشيع في القلب مثل معنى صلاة خاشعة .

وهذا اللون من الجمال غير محبب إلا للهائمين في دنيا ضمائرهم ، وأمـــا الآخرون الذين يهيمون في دنيا أعصابهم وينطلقون في مدى رسومها ، فانهم ينفرون من هذا الجمال الذي يغريهم بمعنى مبهم لا يتذوقونه ، فيطعمون فيه مرارة الفقد ، ثم لا يحرك أي وتر من أوتار قيثارة خيالهم المركبة تركيباً لا تنطق معه بمثل ريشة هذا الجمال ، أو تنطق بنغمات متنافرة توحي بالمرارة .

إن طبيعة الانسان المعنوية مركبة تركيباً نغمياً (موسيقياً) . وهي — على نسق أوتارها المتحركة بريشة البواعث ، اذا صح هذا التعبير ، متنوعة الالحان والانحاء . فمنها ما يوحي بالشهوة ، ومنها ما يغري بالتأمل ، ومنها ما يجيش بالدماء . ومنها ما يمور بالحنان والحب ، ومنها ما يدفع الى الاستعلاء . إن اللذة في حقيتها انطباعات وارتسامات ، فاذا مرت بالنفس نماذجها استجابت اليها وتحركت معها حركة انسجام لاذّة .

أمضت « في القصر أربعين يوماً » ، كانت لا تفتأ خلالها تفكر في مصادفة هذا اللقاء مع بديح وهي التي باتت في يأس من لقائه ، وقد باعدت بينهما أسباب وأزمان .

وذهبت تناجي نفسها : ويح بديح ، إنه لم يزل في مثل يقظة عواطفه ليلة لقائنا للمرة الاولى بين أروقة هيكل « فينوس » . ويح بديح ! لقد كابد في سبيلي كثيراً وتجرع أمرّ الغصص والآلام من أجلي ، ثم تناهى به بعاد يعتصر عليه قلبه ، فكم ذا يقاسي ؟ .

يا ما ألذّ وقفة انتظار ، في لحظات تولّه وتلهّف ، كنت أقفها عند بعض أعمدة الهيكل ، وبديح مقبل تحت رداء الليل يمتعُني بنفسه في جلوة قلب مغرم ، أضفت عليها خلوة الاحلام ! ياما أقدس تلك الرعشات ، وأعذب وقعها ! ! .

إني لأذكر تلك الليلة وقد هبّت فيها الاعاصير ولعبت في مسرحها العاصفة ،

وكانت الآفاق تزأر زئيراً مخيفاً ، والغمام يهبط مع جنح الظلام كثيفاً كأنه شاء أن يطمر الارض بما هو منزرع فيها من الحياة والأحياء ، وكانت الرمال تتعالى وتتعانق في شكل الأقواس ، وذعرت فيها حتى طيور الليل فانكفأت منكمشة في المغاور والحفائر ، وقد أمسكت حتى الرِكْز من نأمتها .

واني لتمنيت وأنا واقفة عند عمود الرواق الداخلي ، أنه لا يأتي في ليلة بركان السماء . وبينا أنا واجفة مخطوفة اللب بالتخوف والترقب أحرّقُ قلبي للربة قرباناً كي تحوطه وترعاه ، اذا هو مقبل كأنما رمى به الاعصار في العراء وتمخضت عنه العاصفة ووضعته في التيار الدائر في جنون .

أسرعت اليه أعتنقه دون الهيكل وهو يلفني كتلة طفولة ، حذراً عليّ من طيش هذا الليل ، وفي الهيكل استند الى صدري كالذي خرج من المعركة ظافراً يجدد حياته في حسّ مخلوق جـديد ، إنه خرج ظـافراً من معركة العناصر وقد استدارت عليه بضراوتها. استند الى صدري واطمأن كأنه يجد فيه ينبوع حياة ، فهو يستمده بعض ما انتهبته العاصفة ، وهو يصارع الاعصار .

قلت له وأنا أدغدغ جبهته وأعبث بشعره المتطلّل[1] الذي كنت فيه أصابع العاصفة : لماذا ركوبك الاعصار الى محراب حبنا ؟. لكأنك من عدم مبالاتك محب فوق بركان..فابتسم وأخذ وجهي بين كفيه يقول :

أأعرف أنك تصلين في محراب الحب ولا أسعى اليك في أجنحة الطير ، كي أشاركك ترنيمة الهوى وترتيلة الهيام ؟ إنك لتقسين عليّ في الظن بي .

قلت : عفوك.! أردت أن تتخذ لنفسك محراباً في الذكرى ولا تتجشّم هذه الاخطار اليّ .

قال : إن محراب الذكرى يغري بالظمأ في الحب ويضاعف شعوره ، واما الري في الحب فانما يهبط في محراب هذا الصدر الذي يمرح في فضائه قلب يمد بندى الغرام .

---

(١) نعني بالمتطلل المتخذ شكل الاطلال ؛ وتفعل بهذا المعنى قياسي .

إيه غادة أحلامي ! ليست العاصفة الرعوب هي التي تشهدين في حواشي هذا الليل ، وإنما هي عاصفة القلب وقد فارت فيه فائرة التياع ، بل تلك، بجنب هذه، زغردات وابتسامات وزقزقات ترسلها الطير مع السحر .. قسماً لو حالت دونك أرض زرعت فيها كل البراكين ، لتخطيتها اليك مغتبطاً مسروراً .

فقلت معترضة: لا تبالغ، فان هذا بين البشر لا يكون ، وإنما هو من طباع الربات والأرباب .. فذهب ضاحكاً يقص عليّ قصة ذلك العاشق الكردي الذي طلبت منه فتاة هواه وردة حمراء وأخرى صفراء؛ وكانت حديقة الورود في يقظة حراس أشداء وفي عين أسود غضاب ، ويفصل دونها نهر يعج بالتيارات، فانطلق العاشق في مدى رغبتها يخوض النهر ، وتقلب في حديقة الورود يبحث عن الوردة الحمراء فلم يجدها . فعاد مبلل الثياب يقول لها مبتهجاً : لقد أتيتك بهما .. فانه كان يحمل في يده الوردة الصفراء ، وأما الوردة الحمراء فكان يحملها في صدره ثغرة فوارة بالدماء ، فقد أصاب سهم الحراس قلبه فشطره ...

قلت له متفجعة : أيكون ذلك حقاً ؟ !

قال : ليس هو بعيداً عنك ، ألا فامتحني فيّ العاشق الكردي . أقول لك وأنا إعني ما أقول ، لو تحدتني كل أرباب الأولب كما تحدت « هرقل » لقاومتها في سبيلك ساخراً بقوتها ... فأخذت عليه سبيل الاستمرار وقلت له :

بحقي لا « تجدف » على الأرباب، وأيضاً في هيكل ربة الجمال «فينوس»، أني أخاف عليك .. فانقلب يقهقه قائلاً :

لماذا لا تفكرين أنكِ انت الربة الحقيقية ، وأما « فينوس » فربةخيالية أثيرية فقدت حرارتها ، وبابرازك كاهنة في هيكلها يمدون وجودها البارد في الخيال ، بحرارةٍ أنت تنشرينها وتوزعينها . فوضعت يدي متوسلة على فمه أقول :

لا ! لا أريد أن أسمع منك تجديفاً . آه لقد فجعتني ، أأنت أيضاً يا بديع تتكلم « بالهرطقات » ؟ ! .. لقد كنت في ذلك الحين مؤمنة بقدرة الربات، وأنا

أرغب على من أحب بأن يكون مثلي رأياً وإيماناً . لكنني عرفت بعد ذلك أن بديحاً كان أعمق مني معرفة وأهدى تفكيراً

لقد كنت مفعمة بالايمان ، فصوّره لي حديثه صورة منكرة توحي بالشر الكريه ، فانقبضت عنه وذعرت منه ، وبالغ بي هذا الذعر فكرهته ، وعدت بعد ذلك أتحاشاه وأنفر منه ، أود أن لا أراه . وكنت أسائل نفسي : أيكون بديح مجدفاً ؟ وهو في نفسي صورة من [illegible] ؟ كلا لا أود أن أخنق بيديّ بديحاً العائش في خيالي ، أود أن لا [illegible] نفسي ، وأنا إذا اجتمعت إلى بديح ستمتد يده إلى تشو[illegible] . ولكن بديحاً الخيالي محبب اليّ الحب كله ، وأتمنى أن أ[illegible] متعة [illegible] بمثاليته . ومثلي كاهنة راضت نفسها على الأحلام ، إنما تحب في أحلام الروح دون حب في أحلام الاعصاب ، فكان طبيعياً ان كنت أتوارى كلما يعرض لي بعد ذلك . وهذا ما يقع اذا لم يكن الايمان فكرة في النفس ، بل كان عقدة في الروح أو أزمة في الوجدان . وكلما كان إيمان المرء عقدة في الروح تكون عواطفه قاصرة على من يشاركه هذا الايمان دون سواه ، بل يتعدى ذلك فتساوره نزعات يتحرك معها تعصبه .

أما الفكر المجرد فانه لا يعرف تعصباً ، وإنما التعصب عُقد في مكان الوجدان من النفس ، فهي تتحكم بالعواطف على لونها . وكلما كان الفكر أكثر ضيقاً والوجدان أكبر عقداً ، فهناك يوجد شر أنواع التعصب ، وعنده يستضيق المرء حتى بوجود من لا يشاركونه عقيدة الايمان . ولا شك في أن هذا بعض من طبيعة الانانية في الانسان ، فاذا كان في التدين فكرة إيمان فهناك تدين صحيح على نهج انساني ، واما اذا كان في التدين انانية إيمان فهناك أخطر شكل من أشكال اللاإنسانية النكراء .

فنزعة التدين الصحيحة هي التي تجعلنا نحكم الايمان بالفكر ، دون العكس الذي يتولد من ازمة نفس ويُولّد أزمة نفس وحياة ايضاً . أما الفكر فليس يقبل عقدة بل من وظيفته أن يحل العقد في النفس الانسانية والحياة والوجود ، وهو اذاقبل العقد أحياناً فانما يقبلها في ضرب من الامتحان وفي ضروب خفية من الارتياب .

فالفكر يرادف الامتحان أو النقد المجرد ، وتقدم الانسان معناه تقدمه في الفكر الذي ينتج حل اكبر مقدار من العقد . وفي ظني اليوم أن تقدم الفكر ليس معناه القدرة أو الغنى في التفكير بل معناه الكفاءة على التفكير بدون اعصاب أي بتجرد للفكر ، ومن ثم لا نحب أو نكره ولا يضرّ بنا القرب أو البعد بل تـمحيّ فكرتـهما ثم لا تتصرف بعواطفنا تبعاً لهما .

ليتني كنت أعرف هذا من قبل،إذن لما جافيته ونفرت منه وظللنا في متعة الحب الخالدة .. لقد رأى بديح مني ذلك الاعراض فلم يطق الحياة واجتواها ، فذهب على وجهه، لا أدري أين وقعت به يد الأقدار ؟

ولقد احسست والله بعد ما فقدته بالأسى الفظيع ، فطلبت السلوة في الشرود بالمعرفة ، فاندفعت الى فكر جديد . فهجرت الهيكل وابتدأت رحلتي وراءه من نقطة هائمة ، فانتهت بي قراصنة الروم الى حيث مكاني، وكان قدَراً ماتعاً، فقد رأيت بديحاً ..

بعد مقام قصير في البلاط « حملت الى المدينة مشفوعةً بأموال عظيمة وهدايا كثيرة متنوعة ، ومحاطة بكوكبة من الفرسان ، وزود الملك رئيس الركب كتابه الى الحسين جاء فيه :

ان امير المؤمنين اشترى جارية فأعجبته فآثرك بها » .

أدخلت على الحسين وهو منصرف الى القرآن ، سابح في مدى تأملاته يقرأ « وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه ، قال يا بشرى . هذا غلام . وأسروه بضاعة . والله عليم بما يعملون »

وكان في الجو الذي يكتنف الحسين ما أعاد اليها ذكرى الهيكل ، ونقلها الى مثل المحراب ، وزاد بها هذا الشعور فاعتقدت يقيناً أنها لم تعد في شيء مما يتصل بدنيا الناس ، فحفتها سكينة ولفّتها هدأة الروح وغرقت في خضم بعيد القرار من الابديات ، وأحست أنها مثل غرنيق — طير الماء — تترجح به الامواج

الحالمات ، وكانت سكرى بما يتساقط الى سمعها من نغمات مسحورة ، تشعر بها في مدى روحها عذبة ندية .

كانت لها هدأة طويلة لم تفق منها الا على صوت الحسين يستقبل رئيس الركب ، وراح هذا يخبره بكل خبرها ويروي له كل ما ترقى إلى سمعه من أنبائها . فالتفت الحسين اليها في ابتسامة مواسية يقول :

لَظَنّي بك ، وأنت جديدة عهد بالاغتراب ، أنك مُوحَشة النفس ، وبودي أن تتداركك حال تأنسين بها وتطمئنين .

قالت له هوى : كنت خليقة بالوحشة في غير مكانك ، ولكنني وأنا فيه فاني جديرة باطمئنان في النفس والضمير .. شاعت على وجه الحسين ابتسامة هادئة هانئة ، وقال دَهِشاً :

لقد سبق الى ظني أنك لا تجيدين العربية على نسق ما أسمع ، ولكن أمّا وأنت مثل أصيلة في اللسان ، فلن تكوني غريبة عن حياة بيئتنا العربية ، إن لم تتذوقيها مثل أصيلة فيها أيضاً .. فابتسمت في استحياء وإغضاء وقالت :

بل — يا مولاي — لأحس في كنفك أني عربية صليبة عريقة الهوى والقلب في مواقع رغباتها وميولها . ولقد حبّب إليّ لسانَ العرب أنه يتمتع بأكبر قسط من وحي الطبيعة والفطرة ، ففيه صور واصداء ، ومناظر تامة صادقة انتزعت من الطبيعة مباشرة وسكبت في قوالب الألفاظ بدقة وحقيقة ، بل لقد أفرغت الطبيعة أشياء ذاتيتها في الكلمات كأنها طلبت حركتها الحية في اللغة .

وفي لسان العرب أيضاً مشاعر وأحاسيس انسانية وحيوية ، لم تتحرف وتتكسر بتحكم الفكر واختلاقه، وبعبارة أصح تشويهه . فهذا اللسان طبيعة وحياة وانسانية في أصدق ألوانها ، ومفرداته كلمات الطبيعة أول ما تحركت ونطقت ؛ فقد تصيّدها العربي وانتحتها وهو بَعْدُ يتوجه بالقريحة النقية ، دون التواءَات الفكر والتفافاته ، فهي أنقى ما تكون لغة في مذهب التعبير .

ولقد عمدت إلى كهف روحي فوجدته قاتماً حالكاً ، ورأيت مصباح فكري خابياً وهو إذا توقد وشع ، فلا يضيء كهف روحي وأظل منه في ديجور ، فقد حيل بينهما بسدود كثيفة صفيقة ؛ لكنني وجدت دينكم الجديد قد حاول ونجح الى أكبر حد في رفع هذه السدود القائمة في دروب النفس ، وأذكى شعلة الفكر فاتصل ما بين الفكر والروح بالشعاع وبت متألقة المعنى ، فسكنت الى دينكم وطعمته أيضاً فتعشقته ، انه رفع السدود في دروب روحي وكانت هائمة متخبطة بين سد وسد ، وأطلال خرافات وأساطير .

قال : لله أنت ! أكنت حكيمة أم اديبة ؟ هل « تجيدين القرآن » تلاوة ؟

قالت : نعم .

قال : « فاقرئي عليّ » ان شئت ... فراحت تتلو « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ، ويعلم ما في البر والبحر ، وما تسقط من ورقة الا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات الارض ، ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين . وهو الذي يتوفاكم بالليل ، ويعلم ما جرحتم بالنهار ، ثم يبعثكم فيه ليُقْضَى أجل مسمى ، ثم اليه مرجعكم ، ثم ينبئكم بما كنتم تعملون . وهو القاهر فوق عباده ، ويرسل عليكم حفظة ، حتى اذا جاء أحدكم الموتُ توفته رسلنا ، وهم لا يفرطون . ثم ردوا الى الله مولاهم الحق ، ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين » ... وكانت تتواجد في تلاوتها تواجد من قد أخذ بنشوة مفعمة .

قال لها : يخيل اليّ انك اكثر وعياً لهذه الآيات من كثير من العرب انفسهم ، لما رأيت عليك من سَبَحات الخشية .

قالت : بودي أن أكون عند ظن مولاي بي . ولِم لا يعروني ما قد عراني ؟ وأنا أتلو هذه الآيات القوارع التي تجعلني في محيط علم الله وكأني كل ما في المحيط أو ليس غيري فيه؛ على أننا من هذه الحياة في مسرح تقوم عليه بأدوارنا ، ولسنا ندري أمحسنون نحن في أدوارنا أم مسيئون ؛ ثم هل هناك أنقى تصويراً لعلاقة الله السببية في الوجود، ولعلاقة الله الادبية بالانسان؟ أما في كل هذا ما يبعث على

الدهشة والخشية جميعاً ؟ أمَا فيه ما يغري الروح بلحظة سكينة وهدأة تأمل؟ وكان الحسين يقاطعها بقوله :

إيه ! إيه أي بنية ، فقد أحسنت والله ! ... وواصلت تقول :

أما يجد مولاي في الوقوف عند هذا التعبير « مفاتح الغيب » ، ما يبعث على التأمل الطويل وينشر في القلب وجمة تفكير مديد؟هذا التعبير الذي يرسم الغيب في الخيال على هيئة أدراج قامت عليها الاغلاق ، وفي كل أشياء الوجود والطبيعة غيب مستور ، أو فضاء ودنيا من عالم مبهم غيبي محجوب؛ فالشيء من الوجود درج غيبي يسبح فيه عالم خفي مديد وعند الله مفتاحه ، وما محاولاتنا الحثيثة في استكناهه الا غوص ووقوف عند الشاطىء بازاء المجهول .

قال : لقد زدت على الاحسان ، أي بنية ... وأضفى صموت طويل كان مسرح خواطر شتى ، ولكن الحسين قطعه بقوله :

الا تروين « شيئاً من شعر العرب » وأدبهم ؟

قالت : بلى ... وكانت لم تزل في اثارة من صوفيتها المفعمة ، فأنشدته أبياتاً جاء بينها :

انت نعم المتاع لو كنت تبقــى غير أن لا بقـــــاء للانسان

ولذّها الانشاد في هذا اللون المبطن بالروح ولفتات الاشراق، فأنشدته شعراً سبق لها أنها أنشأته معبرة عن شعور نفسها « في مجلس معاوية » ، وما قد كونته من نظرة الى الحياة وقيمتها وجهد الحي فيها :

« رأيت الفتى يمضي ويجمع جهــده رجـــــاء الغني ، والوارثون قعود
ومـــا للفتى الا نصيب مـــــن التقى اذا فـــــارق الدنيا عليه يعود »

فلم يملك الحسين الا ان يتواجد ، وما هو إلا أن فاض في قلبه ينبوع حنان تندّت معه مقلتاه وتبلور فيهما مثل الدمع ، والا فهو عصارة شعور بعبق

التقوى . ثم قال لها : اذهبي « فانت حرة وما بعث به معاوية معك فهو لك » ، على انك عندي ابداً مثل كريمة عزيزة المكان في هوى أهلها ...

وما هو حتى اقبل بديح يستأذن عليه،فقد أوفده مولاه عبدالله بن جعفر إلى دعوة الحسين ، ولكنه ما مثَل بين يديه حتى رأى مهاة قلبه مرة اخرى ، بيد أنه في هذه المرة كان أعنف شعوراً بها ، فقد جددت عهد هواه في دمشق ، وقد احالت قلبه الذي كان كشلوٍ تناهى في حب ضامر قديم ، إلى قلب جديد حياةٍ ، انصب فيه جديد حب ما فصل عنه امس وغد . فتاهت حروف كلماته في فمه ، واحتضرت مضطربة على لسانه ، وقسراً وجم في ذهول طال به مداه .. وتداركها مثل شعوره وغصة قلبه فانخطف لونها ، والحسين يرى فأطرق اطراقة مائجة بالايحاء ، مرّ في خاطره معها ان بديحاً ينتهي إلى مثل غربتها ، فغير بعيد ان تكون ذات هوى به وضرب الزمان بينهما ، فباعدهما قدر عاد في دورة اخرى يضمهما .. وجدير بي ان أكون خط النهاية في دورة القدر المبهمة؛ فالتفت إلى بديح وقال :

كنت على اهبة ان استقدمك اليّ يا بديح ، فسقطت من نفسي على موعد؛ أنت عندي مثل كريم عزيز ، وهي عندي مثل ... فاستخف ببديح عاصف فرحة كبرى ، حتى كأنه دفع إلى الخلد من نافذة بعد أن حيل بينه وبين الباب طويلاً . ولم يُرَ إلا مكباً على يد الحسين يقبلها ، في موضع تلاقى عليه ثغران: ثغره وثغرها .

وكان في منظر وضعهما ما أفعم قلب الحسين بغبطة الروح « ففاضت مقلتاه » بدمع السرور ، السرور غير المحدود . وبذل لهما « الف دينار» وقام إلى صلاته » هانىء القلب ريّان ، ناعم الضمير نشوان ...

*

جاؤوا يقتنصونه بغانية من فتون الدنيا ...

لعلّهم يهبطون به إلى مثل حضيضهم ورَغامهم ...

بيد أنها ما استهوته، على أنه قد استهواها ...

فقد مسّها بشعلة من الاشراق ، غدتْ بها خلقاً آخر ...

*

وجد قلباً حائراً يبحث عن قلب تائه ...

وكلما أوشكا ان يلتقيا ، يُضيعان الطريقَ مرة اخرى ...

فكان همّه ان يصنعهما سعيدين.. فضم قلباً إلى قلب ومزج نفساً بنفس! ...

*

استشارة

أفاق من في البلاط الأموي ، على حركات غير عادية امتازت بالنشاط في تجمّعات تشاور هامس ، وكان جو هذا التجمع مطبوعاً بطابع الاهتمام والجد ، فقد أزمع أساطينه إحداث انقلاب خطير يمس القاعدة الأساسية للحكم. وفوق ذلك أزمعوا على أخذ العرب بحكومة الفرد، بعد أن راضوهم عليها أمداً ليس بالقصير ، وباساليب كلها العنف والاعتساف في فترة طالت ذؤابتها ، فكانت تاريخاً امتلأ بشهداء الحرية والشعبية في مذهب الحكم .

وكان قد سبق الملكُ ووجّه دعوة عامة إلى أمراء الأمصار ، فاجتمعوا لديه ينتظرون سماع المفاجأة التي من شأن هذا الاهتمام ان ينطوي عليها .. وما هو إلا أن تكلم المغيرة بن شعبة ، وكانت السن قد تناهت به فلم يكن صوته يُبين ، فقال :

تعرفون أنكم الشعار دون الدثار عند الملك، فعليكم يعتمد، وأنتم البطانة التي عليها يتكل ، فمصالحكم بمصالحه مرتبطة ، وأمركم بأمره متصل ؛ وقد اتجه رأي الملك إلى أمر خطير أحب أن يفاوضكم به ، ويستشيركم قبل أن يعتزمه ويعقده .. فاشرأبت أعناقهم وتطلعوا في إصغاء مرهف ، وواصل المغيرة :

رأى الملك ان لا يترك الناس بعده سدى « كالضأن لا راعي لها »، وقد اختار

ابنه الرشيد يزيد ؛ ومن اكفأ بأعباء هذا الامر منه ؟ ! ورماهم بنظرة فاحصة متحدية ، وراحوا ينظر بعضهم إلى بعض ولفّهم صمت طويل قطعه زياد بقوله :

« ان علاقة امر الاسلام وضمانه عظيم ، ويزيد صاحب رسْلة وتهاون ، مع ما قد أولع به من الصيد ، فرُوَيدَنا بالأمر .. فأقْمِنْ أن يتم لنا ما نريد . ولا نعجل ، فان دركاً في تأخير ، خير من تعجيل عاقبته الفَوْت » .. فقذفه المغيرة بنظرة شزرة صاعقة وقال :

اكنت تظن ان المشورة هنا معناها إبداء الرأي ؟ وهل نحن بحاجة إلى رأي امثالك ؟ إن المشورة هنا معناها السماع والتنفيذ والطاعة فقط حسبُ .. فهبّ عبيد بن كعب النميري ، وكان مستشار زياد ، يشرح كلامه وما قصد اليه فقال :

نعم . هو ما تقول ، فليس علينا إلا السمع والطاعة وزياد « لم يرد ان يفسد على الملك رأيه ويمقّت اليه ابنه . وإنما قصد ان يخوّف يزيد من خلاف الناس لهنات ينقمونها عليه ، فتستحكم للملك الحجة على الناس ويسهل له ما يريد .

فقال معاوية : نعم ما قلت ، ونعم ما ذهب اليه زياد » ..

ولم يكن زمن طويل حتى أعلن ذلك في مسجد دمشق على الناس ، وكان معاوية قد حفل له وطلب الوفود من كل الأمصار ، « وقرأ على الجموع عهده وفيه عقد الولاية ليزيد » فأصيب بعض بمثل الذهول ، وبعض بمثل الطيش ، وكان بين هؤلاء وهؤلاء صنائع ذهبوا يطرّبون ويزينون ، « فقام الضحاك بن قيس فقال :

يا أمير المؤمنين : إنه لا بد للناس من وال بعدك ، والأنفس يُغدى عليها ويراح ، وإن الله قال كل يوم هو في شأن ، ولا تدري ما يختلف به العصران . ويزيد ابن امير المؤمنين في حسن معدنه وقَصْد سيرته ، من افضلنا حلماً وأحكمنا علماً ، فولِّه عهدك واجعله لنا علَماً بعدك . فانا قد بلونا الجماعة والألفة ، فوجدناها احقن للدماء وآمن للسبل وخيراً في العاقبة والآجلة) .

وقال عمرو بن سعيد :

« ايها الناس : إن يزيد امل تأملونه ، واجل تأمنونه ، طويل الباع ، رحب الذراع . اذا صرتم إلى عدله وسعكم ، وان طلبتم رفده أغناكم . جذع قارع . سوبق فسبق ، وموجد فمجد ، وقورع فقرع . خلفاً من امير المؤمنين : ولا خلف منه » ...

فقال معاوية : اجلس — أبا امية — فلقد اوسعت وأحسنت ...

فقال الاحنف بن قيس : يا أمير المؤمنين : « انت اعلم بيزيد في ليله ونهاره ، وسره وعلانيته ، ومدخله ومخرجه : فان كنت تعلمه لله رضى ولهذه الامة ، فلا تشاور الناس فيه ، وإن كنت تعلم منه غير ذلك ، فلا تزوده الدنيا وأنت تذهب إلى الآخرة » .. فأحمس يزيد بن المقفع ، فوثب مرعداً مبرقاً وقال :

« أمير المؤمنين هذا .. » وأشار إلى معاوية ؛ « فان هلك فهذا .. » وأشار إلى يزيد؛ « فمن أبى فهذا .. » وأشار إلى السيف .

فقال معاوية : اجلس فانك سيد الخطباء ..

وقام المسكين الدرامي الشاعر فانشد :

اذا المنبر الغربي خـلاه ربه   فان امير المؤمنين يزيـد

وتهيأ معاوية فدعا الناس إلى المبايعة « فقال رجل : اللهم إني أعوذ بك من شره .

قال معاوية له : تعوذ من شرّ نفسك فإنه أشد عليك ، وبايع .

فقال : إني أبايع وأنا كاره للبيعة .

قال له : بايع أيها الرجل ، فان الله يقول: فعسى ان تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » .

وما هو إلا أن حمل الناس على البيعة في الشام والعراق ، فتوجه معاوية لإعداد الرأي العام في المدينة من اجل البيعة « فكتب إلى مروان بن الحكم ،

وكان عامله على المدينة ، أن أدعُ الناس عندك إلى بيعة يزيد ، فان اهل الشام والعراق قد بايعوا . فخطبهم مروان فحضهم على الطاعة وحذرهم الفتنة ، ودعاهم إلى بيعة يزيد، وقال هي سنة ابي بكر الهادية المهديّة » .

فكان لهذه الدعوة وقع النار في الهشيم ، وسرت بين الجموع نأمات استنكار وأصوات تسخّط ، وتزايد بهم هذا الاستنكار وهذا التسخط ، فاندفعوا يطعنون ويقذعون في الطعن ، ومضوا ينثرون الاحتجاج نثراً دون رعاية او حذر .

فقال عبد الرحمن ابن ابي بكر : « ما صدقت ، إن أبا بكر ترك الاهل والعشيرة ، وبايع لرجل من بني عدي رضي دينه وامانته واختاره لأمة محمد » .. وتراداّ طويلاً ، وانتقل بهما التجاوب إلى التناوش والمهاترة من قبل مروان فقال :

أيها الناس : إن « هذا المتكلم هو الذي انزل الله فيه ، والذي قال لوالديه أفٌّ لكما اتعدانني ان أخرج وقد خلت القرون من قبلي . فقال عبد الرحمن :

أفينا تتأول القرآن » .. وقطع الحسين عليهما إذ هبّ واقفاً ، وعلى سيمائه مشت غضبة مكظومة راحت تنطلق وقد وجدت سبيلها :

« أإلى النار ؟ تدفعون الناس بعد العار » ، لقد حملوا أطماعكم متبرّمين ، وتركوا لكم انتهاب الدنيا كما شئتم وشاء الهوى ولكن احلولى في افواهكم المستوخَم فتخطيّم الدنيا إلى العبث بالدين ، فأحر بنا أن ندفع النار بالنار .. وما هو حتى هبّ الناس ينكرون ولاية يزيد في مثل الزئير الدامي .

فكتب مروان إلى معاوية بذلك ، فأقبل إلى المدينة في ألف ، فلما قاربها تلقته الجموع عند مآتيها ومداخلها ، وما أخذ نظره الحسين حتى قال : مرحباً « بسيد شباب المسلمين » ، قربوا دابة لأبي عبدالله . وقال مثل ذلك او قريباً منه لعبد الرحمن بن ابي بكر ولابن الزبير . ثم انطلق بهم حتى أتى مكة فقضى حجّه ، ولما أراد الشخوص أمر بأثقاله فقدمت وأمر بالمنبر فقرب من الكعبة ، وهنا بدأ مفاجأته الانتخابية دون تقيّد بعرف أو قانون ، فأرسل إلى الحسين وعصبته ، وهؤلاء لم يَخْفَ عليهم ما يعتلج في نفسه ، فاجتمعوا وتدبروا الأمر من كل وجوهه ،

وتركوا المرادّة والمداهنة لابن الزبير ، فأقبلوا على معاوية فرحّب بهم ، وقال :

« قد علمتم نظري لكم وتعطفي عليكم وصلتي أرحامكم ، ويزيد اخوكم وابن عمكم. وإنما أردت ان أقدمه باسم الخلافة ، وتكونوا أنتم الآمرين الناهين بين يديه » . فرد ابن الزبير :

« عندنا إحدى ثلاث ، ايها اخذت فهي لك رغبة وفيها خيار ، إن شئت فاصنع فينا ما صنعه رسول الله(ص)، قبضه الله ولم يستخلف، فدع هذا الامر حتى يختار الناس لانفسهم.. وإن شئت فما صنع ابو بكر: عهد إلى رجل من قاصية قريش ، وترك من ولده ومن رهطه الاذنين من كان لها اهلاً .. وإن شئت فما صنع عمر: صيّرها إلى ستة نفر من قريش يختارون رجلاً منهم، وترك ولده واهل بيته ، وفيهم من لو وليها لكان لها أهلاً » .

قال معاوية : هل غير هذا ؟ .. قال : لا . ثم قال للآخرين : ما عندكم ؟ قالوا : نحن على ما قال ابن الزبير . فقال معاوية إني اتقدم اليكم وقد اعذر من انذر،« فأنا قائم فقائل مقالة، وأقسم بالله لئن رد عليّ رجل منكم كلمة في مقامي هذا ، لا ترجع اليه كلمته حتى يضرب رأسه » .. وأمر ان يقوم على رأس كل رجل منهم رجلان بسيفيهما ، وخرج وأخرجهم معه حتى رقي المنبر، وحفّ به اهل الشام ، واجتمع الناس .

فقال بعد حمد الله والثناء عليه : « إنا وجدنا أحاديث الناس ذات عوار ، قالوا : إن حسيناً وابن ابي بكر وابن عمر وابن الزبير لم يبايعوا ليزيد ، وهؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا نبرم امراً دونهم ولا نقضي امراً إلا عن مشورتهم، وإني دعوتهم سامعين مطيعين ، فبايعوا وسلموا واطاعوا » .. ثم قربت رواحله فركب ومضى إلى الشام ، تاركاً الناس في دهشة المفاجأة ينظر بعضهم إلى بعض ، على انهم انهالوا أخيراً على الحسين واصحابه يستثبتونهم فأجابوا : « كادنا بكم وكادكم بنا » .

كذلك انتهت المفاجأة التي حبكها معاوية وطلع بها على الناس ، غير عابىء بانه اقام ولاية ولده على البركان ، وأطلق القنبلة في أسس البناء .

فان الحسين — الذي شهد المثل الاعلى للحكم أزمان جده وابيه ومن بينهما ، وتقلب في الثورة على الحكم الشاذ ، وخاض معمعة البطشة الكبرى التي كالها والده في كلّ مكان تأشب عليه اعداء الشعب وخصوم حريته ، ورافق حركة التطهير التي بذل فيها من قلبه ونفسه — يجب ان يغضب وان يتنمّرَ وان يندفع متلظياً وان يثور مهدّماً فبنّاءً .

فان البناء على الفساد ترميم للفساد واصطناع لفساد آخر جديد . بيد انه في صورته الجديدة فساد مركب ، وهو اعقد امراً واكثر حيوية واطول بقاء ونضالاً .

لذلك كان عمل المصلحين الحقيقيين هدماً وبناء ، ولذلك كان الشطر الاول دائماً أروع واشقّ واقدس ، فهو كفاح وتضحية وتعبيد .

وبهذا وله فقط ، رأينا الحسين يولي وجهه قِبَل الثورة ، قبل الانشاء والخلق من جديد .

*

قلما يبرز الأسد ، إلا عندما تتناوح الأرجاء بالعواصف ...

كأنه يأبى عليها أن تبدّد أمن الغاب وسكون جلاله ...

وعندما احتدمت عواصف الاهواء ، انطلق اسد الانسانية يدفع العاديات عن الانسان ...

*

البركان نذير بالانقلاب ...

وكان الحسين بركانَ الاصلاح ...

وقد مضى كل مصلح بقبس من ذلك البركان ، يرسله مناراً يهدي في الحَلَك ! ...

إلى الله !

في صبيحة يوم من رجب سنة ستين ، أفاق الناس في المدينة على اصوات الغلمة ، يمرحون في الأزقة وهم يتناشدون مقال عبدالله بن هلال السلولي :

اصبر يزيد .. فقد فارقت ذا مِقَــة
واشكر حباء الذي بالملك حاباكا
لا رزء اعظم في الاقوام قد علمــوا
مما رزئت ، ولا عقبى كعقبــاكا

فادركوا ان معاوية قد قضى ، وان يزيد قد خلفه . فانقلبوا وبعضهم يحرق الأرّم ويتميز حنقاً ، وبعضهم يشدّ غضونه تجهماً ويدع وجهه يتمدد ويتقلص دهشة ورعباً . ومشى الخبر كما يمشي النعي حتى انتهى إلى الحسين فغِينَ عليه . كأن الارض دارت به دورتها سريعة سريعة ، وألم به إطراق عنيف كان مزيجاً من اللوعة المرة والأسى الحاد والتنمّر الغضوب . على أنه طفق يناجي نفسه . وقد تبدت له ماضيات النبوّة ودنيا القرآن وجلائل العدل الاسلامي :

إلــهي ! ماذا أسمع ؟ أيكون يزيد خليفتك في عبادك ، وهو من عرفتهُ صارماً لا يشعر بغير وجوده . او يشعر بوجود الآخرين ولكن في مذهب نَهَمه

الدامي المفترس مثلما تشعر الذئاب بوجود فرائسها الذي هو مبالغة في عدم الشعور بغير وجودها فقط ، انه يشعر بهم شعور الامتصاص وإرواء نهم الذات ، ان ظمأته تطيف بهم محاولة لو تحيلهم قطرة تندّي بها لعابها .

أيكون يزيد القائم على شريعة رسولك ؟ وشريعته ذَوْب رحمة في ذوب عدالة ورفق ، وهيهات ان تجد مكانها في غير ضمير فيه من معناها وفيه من روحها . وإلا فهي عافية كالطلل ، وذاوية كالهشيم يعبث بها الهوى ويتقاذفها مثل اوراق الخريف ، في اودية الشهوات وبين المغاور والكهوف الضاجة بالفسوق.

إن الشريعة، ككل تعليم ، كائنٌ يزدوج بالحياة ، فينفعل بها ليحيا ويفعل فيها لترقى . فاذا لم يتماسّا ظلت الحياة جامحة فاجرة ، وظلت الشريعة مثل شرارة مخزونة لم تتقدح في فم المصباح فتحيا به وينطق بها، صادعاً بلسان الضياء ومعلناً بنداء النور .

ان شريعة رسولك وجدت حياتها في حياته ، واستمدت روحها من روحه فترامت بالضياء إلى كل مكان وطبعت بحقيقتها مادة الزمان ، فسعدنا حيناً بدنيا القرآن .

على انه عاد إلى استغراقه وكان ايضاً عميقاً ، ولكن لم يبرح حتى ساوره غضب مكظوم اشتعل في عينيه ، وراح يناجي نفسه في نبرات حادة كأنها تلتهب :

نعم . نعم . نحن بايعنا الله على التقوى ، ولن نبايع الا عليها أو نموت في سبيلها . ألا إنه اختارنا لحمل امانته العظمى ، وانتظر منا الوفاء والافتداء بكل عظيم . ومن نذر نفسه لله فقد أرخصها له .

« ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم » .

ان السموأل — وهو جاهلي لم يتأنس قلبه بالاشراق — عاهد إنساناً ، واستجاب حين دعاه الوفاء وكان دامياً .

استجاب جاهلي للشرف ، فكيف لا استجيب للايمان ، إني اذن لنكل خوّار ...

« الموت خير من ركوب العارِ ...

والعار خير من دخول النار ...

والله من هذا وهذا ، جاري » ...

فكيف اذن بالعار والنار ، أجمعهما على نفسي في دنيا الظالمين .. !

وبينما الحسين فى سبحاته القدسية ونجواه المائجة بروح الاصطفاء ، تبدى لناظريه في وجهة قلبه اطياف يشتملها الرضى وتلفعها نشوة الاغتباط ، وهي تباركه وتشد عزمه وتهيب به إلى الوثبة ، إلى الوثبة الكبرى ، فهتف مستبشراً :

ربّاه ! ماذا أرى؟ انها أطياف جدي المصطفى ، وابي الشهيد ، من ورائهما الملائك ، تدعوني إلى الله ، إلى التضحية العظمى .

كان الكبشِ ، في يوم ، فداء نبي ...

ولكن النبي الاعظم ، انما يكون له الفداء الاعظم ...

وحبيبٌ إلى نفسي أن أكون ذلك الفداء ...

*

كان الحسين لم يزل في نجواه، حين « استأذن عليه، وهو في المسجد، رسول الوليد بن عقبة يدعوه، وكان يومئذ امير المدينة . فأمره الحسين بالانقلاب اليه، وقام الحسين وجمع بعضاً من غلمانه ومواليه، وأمرهم بحمل السلاح ، فانتهى إلى الوليد، وقال لاصحابه :

اذا دخلت فاجلسوا على الباب ، وان دعوتكم أوسمعتم صوتي قد علا ، فاقتحموا عليّ بأجمعكم ، والا فلا تبرحوا حتى اخرج اليكم .. فدخل الحسين على الوليد — ومروان عنده — وجلس ، فأقرأه الوليد الكتاب ونعى اليه معاوية ، فقال الحسين :

إنا لله وإنا اليه راجعون . أما البيعة فان مثلي لا يعطي بيعته سرّاً ، ولا اراك تقنع بها مني كذلك .. قال أجل . قال : فاذا خرجت إلى الناس فدعوتهم إلى البيعة دعوتنا معهم ، فكان الأمر واحداً . فقال له الوليد : على اسم الله ، حتى تأتينا مع جماعة الناس .

قال مروان لما ولّى : عصيتني والله ، لا قدرت منه على مثلها أبداً ،حتى تكثر القتلى بينكم وبينه.. وكان مروان قد اشار عليه أن ابعث إلى الحسين ، فان بايع ، والا فاضرب عنقه .

قال الوليد : ويحك ! أتشير عليّ بقتل الحسين ؟ والله إن الذي يحاسب بدم الحسين ، يوم القيامة ، لخفيف الميزان عند الله » .

رغم ما يعتلج في قلب الحسين من عاصف يكاد ينطلق ، وبركان يكاد يثور ، أبدى في هذا الموقف الحرج الدقيق أقصى ما يتصور من ضبط الاعصاب ، وحسن التأتّي الفائق في تصريف الامور ، واللباقة البالغة في الحوار السياسي .

خرج الحسين من مكان الوليد مزمعاً على خطة ، وان تكن رهيبة ، خفق لها قلبه ، واستجاب اليها بكل مشاعره ، حتى لبدت على سيمائه وجرت على لسانه ، وهو قاصد إلى مسجد المدينة ، فقد سمعه ابو سعيد المقبري يتمثل بقول يزيد بن مفرغ :

لا ذعرتُ السوام في فلق الصبـ ـح مغيراً ، ولا دُعيتُ يزيدا
يوم أعطى من المهانة ضيماً والمنايا يرصدنني أن احيدا

وما هو حتى هبط بأهله مكة لثلاث مضين من شعبان سنة ستين ، ولبث فيها حتى يوم التروية من ذي الحجة ...

*

في مكة حيث الذكريات الملهمات التي تضفو على كل مكان من ارضها وسمائها ، وعند معتنق الارض والسماء ، حيث يقع الافق المكلل بالوحي ، لبث الحسين يرنو وقد ذابت في نظراته اوهام الناس في الموت والحياة .

إن نظره اعتلق بالابد الفسيح الذي تبدو الدنيا بكل أشيائها من آفاقه ، صدفة حقيرة في لُجّ الفناء .

وقد رأى هناك ان الاحياء يعيشون في عالم اعمالهم على حقائقها ، والاعمال فيه ليست مآتي فقط تتقضّى مع آنها ، بل هي مواليد يحياها المرء في حلاواتها ومراراتها ، وفي نورها وظلامها . والمرء هناك لا يحس بالألم او اللذة والقبح او الجمال إحساساً مثلما هو شأن إحساس الفناء ، بل تحيا فيه كليات هذه المعاني حياة جوهرها .

وكانت تلك الذكريات الخالدات لا تفتأ تتنادى به إلى استئناف الجهاد ، استئناف الجهاد الاول الذي بدأه جدّه المصطفى مكافحاً وحيداً وبطلاً فريداً ، حتى أمال دنيا وأثبت دنيا ، وما قعد به أن الناس كلهم على الباطل إلْبٌ ، وهو وحده الذي يدعو إلى سبيل الرب .

إن كلمة الله في فم الانسان تنتشر مثل شعلات .

تحرق في مداها كل ما ليس منها .

فاذا لها على الارض ضياء كما لها في السماء ضياء .

الله نور السموات والارض ...

كانت تمرّ به هذه التصورات وقد مسحها جوّ مكّة بما فيه من اقداس

وذكريات عزم لا يقهر ، فهبّ ناشطاً في مثل الزئير الذي يبادر الانطلاق، غير ثابت أمام "ظريه إلا « ولكم في رسول الله أسوة حسنة » .

وأسوتي به ، ان أجالد جلاده وان اكافح كفاحه وان انتهي لغايته .

ألا إن رسول الله غل البغي والباغي ودكّ دنيا الأوثان بما فيها ، وإن الباغي اليوم يحاول الانفلات، وأوثان الآلهة استولدت أوثان الناس . فكيف اتلبثّ دون ان اعل ذاك واعتصر هذا ، وما أبالي أكانت فيه منيتي ام امنيتي ...

وإن محمداً أخرج مهاجراً يدعو إلى الله في مبالغة العيون والاصاد ، فكيف لا اخرج داعياً اليه غير مبال بالحياة ، ولا مكترث بالموت في سبيله ؟

ولست أبالي حين أقتـل مسلمـاً   على اي جنب كان في الله مصرعي

وكفى بعملي عند الله رضى ، ان يكون الهجرة الثانية .

ان الهجرة الاولى، هجرة رسول الله، كانت ، وغايتها البناء .

وإن الهجرة الثانية ، هجرة سبط رسول الله ، كانت ، وغايتها المحافظة على البناء .

وما هو حتّى تسامع الناس بعزم الحسين ، وما هو حتّى مشى الكثيرون بينه وبين غايته ، يرغبون عليه أن لا يفعل ويثبطون منه ويوهنون ما استوى عليه عزمه . فقال ابن عباس ، وقال ابن الزبير ، وبده هذا ، وثنّى ذاك ، إلى كثير كثير ، وكلهم قرم عشير وفخر قبيل .

وكان الحسين يستمع اليهم وكأنه بطل المعركة المنتظر ، يرى في تحامي الفرسان جبناً أكبر عاراً ، فيزيده تلظياً وحمية ، وفي تقهقر الشجعان خوراً ابلغ غوراً وأثراً ، فيوقده عزماً ويصطنعه شكيماً .

*

مرّ نسر يحلـّق فوق الآكام ، فتكنّفته بُغاث النسور من كل مكان ...

تـُهيب به أن لا يمضي بعيداً ، فهناك صقور تعبث فساداً وتبثّ رعباً .

ولكن النسر .. شدّ جفنيه طويلاً ، كأنه لا يصدق أن هذه لغة نسر ...

على انه مضى وهو يقول : إن النسر شيء في المعنى وليس شيئاً في الشكل ...

فاذا استحال المعنى شكلاً فقط ، فهناك مسوخ لا نسور ! ...

وانطلق يهوي غير مبال بما سوف يعترضه .

وما هو حتى واثبته جماعة الصقور ، فنال منها كثيراً ونالت منه مقتلاً ...

على انه كان مغتبطاً أيضاً فقد همس في انفاس المحتضر ...

سوف يظل في الاجيال أنه هنا يرقد نسر وجد حقيقته ...

وهناك تحيا نسور فقدت حقيقتها ...

إنني أقضي ، ويبقى في ضمير الوجود : أن اقتحام الطريق ، دائماً في الامكان ...

انطلق الحسين مودعاً الكعبة بيت الله ، حاملاً روحها بين جنبيه وشعلتها بكلتا يديه ...

تواكبه الملائك وتباركه ، وتطيف به كأنها حذرة عليه ...

فانه البقية من إرث السماء على الارض ! ...

رَعياً لذكراك أبا عبدالله ، فقد أحسستَ بروح الأخلاق في روح الوجود...

فأردتَ الحياةَ دنيا من الأخلاق والفضيلة والحب ...

وأرادها الآخرون دنيا من الشهوات والرذيلة والاحقاد ...

أردتـَها كوناً من لذة الروح ، ولو في شعور الأعصاب بالألم ...

وأرادوها كوناً من لذة الاعصاب ، ولو في شعور الروح بالألم ...

فاستحالت الآلام الكبرى، في حسّ الناس ، لذةً كبرى في حسّك !..

*

حتى لقد شعرتَ حيال الدم المسفوح ، أنه شفق من شعاع الروح ...

ورأيتَ، في حمرة الدماء ، لؤلؤةَ جمال الحسن ...

ولا بدع ، فقديماً قيل : « إن الحسن أحمر » ...

